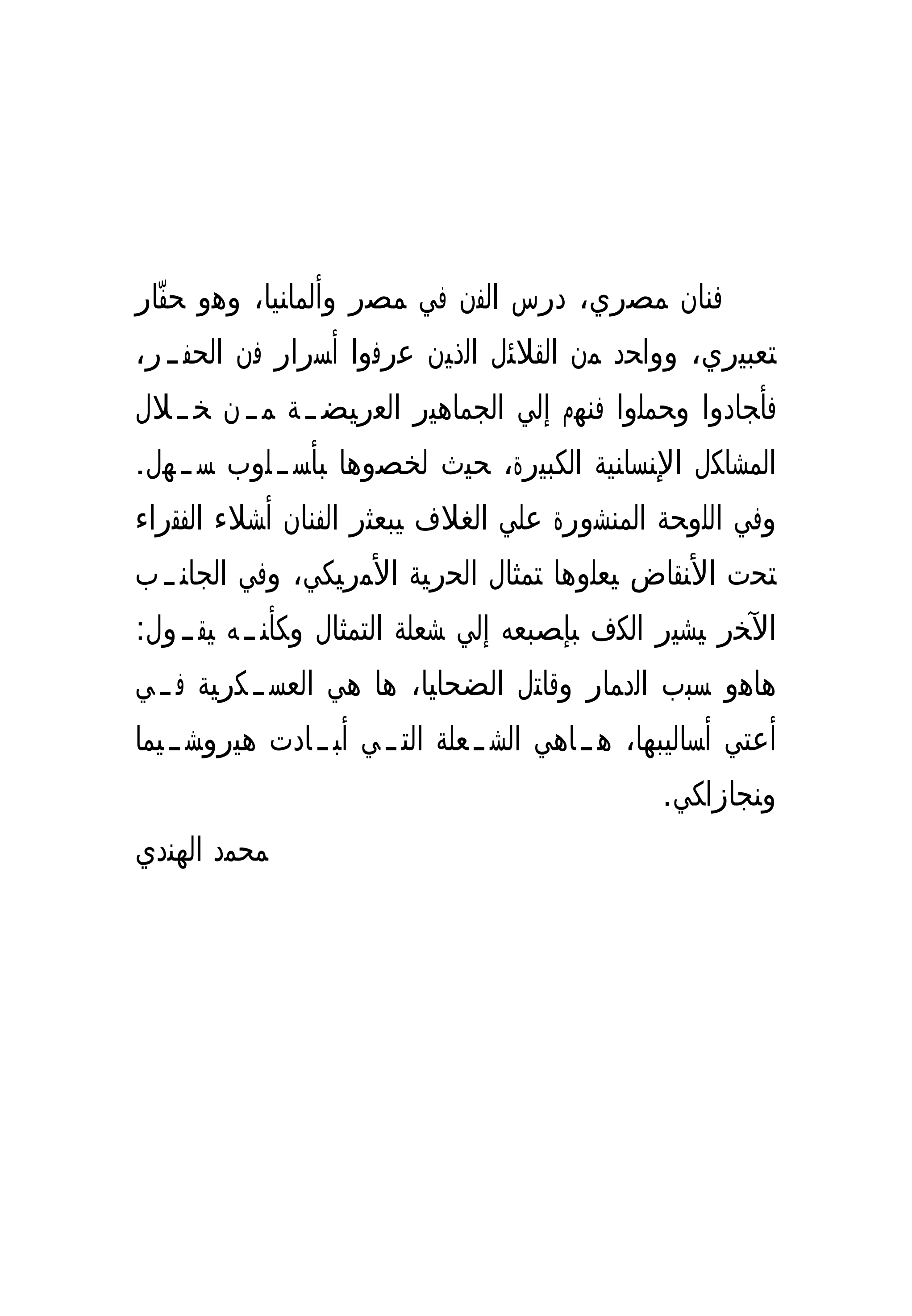

www.kotobarabia.com
مثقفون وعسكر
الجزء الأول
صلاح عيسى
www.kotobarabia.com

مثقفون وعسكر

الجزء الاول

صلاح عيسى



فنان مصري، درس الفن في مصر وألمانيا، وهو حفّار تعبيري، وواحد من القلائل الذين عرفوا أسرار فن الحفـر، فأجادوا وحملوا فنهم إلي الجماهير العريضـة مـن خـلال المشاكل الإنسانية الكبيرة، حيث لخصوها بأسـلوب سـهل. وفي اللوحة المنشورة علي الغلاف يبعثر الفنان أشلاء الفقراء تحت الأنقاض يعلوها تمثال الحرية الأمريكي، وفي الجانـب الآخر يشير الكف بإصبعه إلي شعلة التمثال وكأنـه يقـول: هاهو سبب الدمار وقاتل الضحايا، ها هي العسـكرية فـي أعتي أساليبها، هـاهي الشـعلة التـي أبـادت هيروشـيما ونجازاكي.

محمد الهندي

فهرس

خروج عن النص ٧

دقات جنائرية علي دفوف الستينيات... ٣٥

مختارات من الحياة اللذيذة ٦١

الثورة بين المسير والمصير ١٠٧

المنظور السياسي والديمقراطي لمسألة الوحدة الوطنية الرغبة في التنوع.... .... ١٩٤

طلقات لا تطيش علي جبهة الفكر ٢٢٧

صنع في حزيران ٢٦٧

والمعجزات..... لا تتكرر ٣٢٧

حرب المذكرات السياسية في الفكر العربي........................... ٣٥٣

معركة الناصرية والحوار في الدروب المسدودة ٣٧٦

حوار مع الناصرية والماركسية محمد عودة ....تجربة الماضي وآفاق المستقبل....................................... .... ٤٣٧

شياطين صاحب الفضيلة ٤٩٠

يحيا الوفد... مانيفستو السماسرة والكومبرادور ٤٩٨

الديمقراطية... وايديولوجية الكل في واحد ٥٥٩

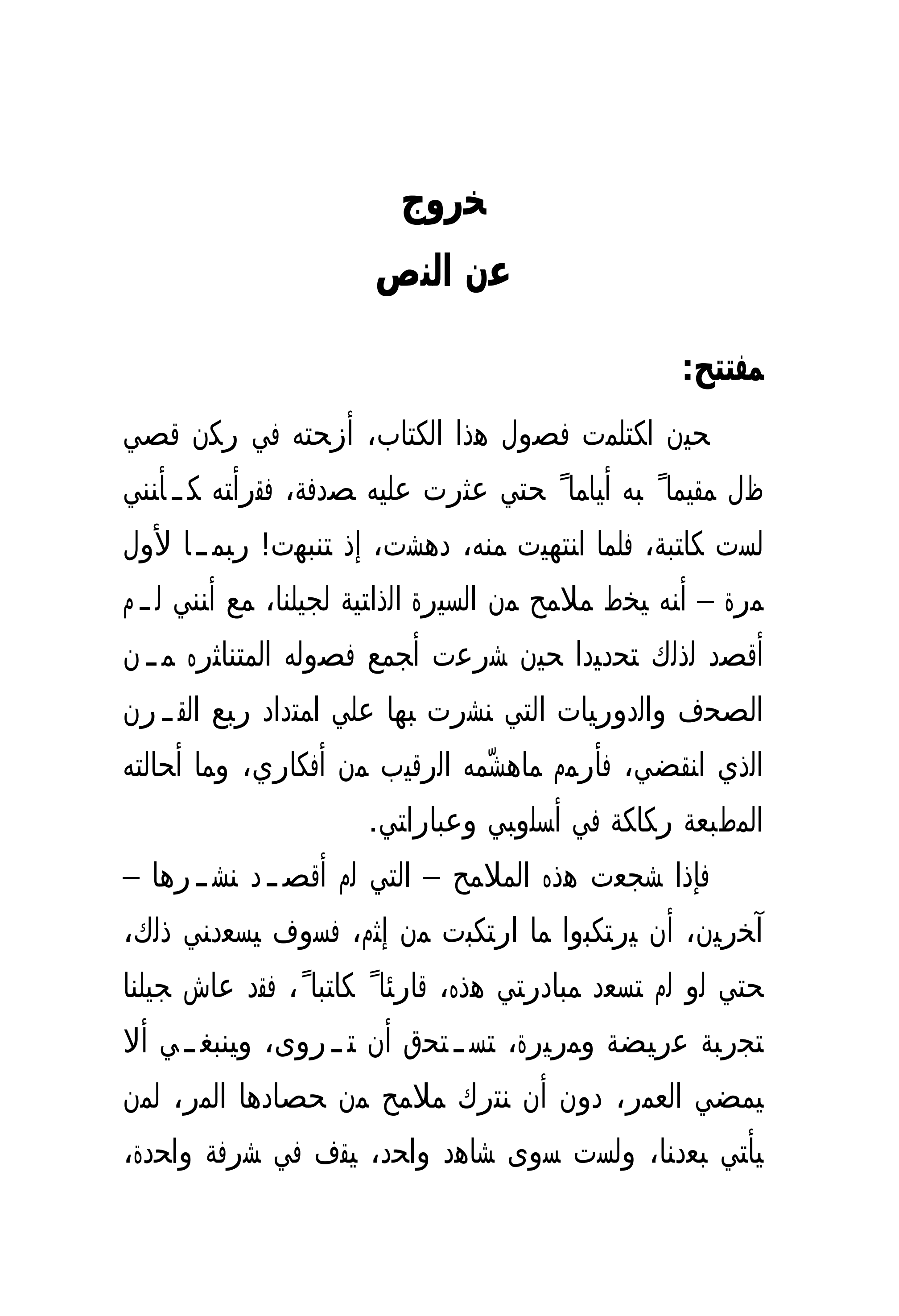
مستقبل الديمقراطية في مصر ٦٠٠

مثقفون وعسكر

مراجعات وتجارب وشهادات عن حالة المثقفين
في ظل حكم عبد الناصر والسادات

الجزء الأول

صلاح عيسي



خروج
عن النص

مفتتح:

حين اكتلمت فصول هذا الكتاب، أزحته في ركن قصي ظل مقيماً به أياماً حتي عثرت عليه صدفة، فقرأته كـأنني لست كاتبة، فلما انتهيت منه، دهشت، إذ تنبهت! ربمـا لأول مرة – أنه يخط ملامح من السيرة الذاتية لجيلنا، مع أنني لـم أقصد لذلك تحديدا حين شرعت أجمع فصوله المتناثره مـن الصحف والدوريات التي نشرت بها علي امتداد ربع القـرن الذي انقضي، فأرمم ماهشّمه الرقيب من أفكاري، وما أحالته المطبعة ركاكة في أسلوبي وعباراتي.

فإذا شجعت هذه الملامح – التي لم أقصـد نشـرها – آخرين، أن يرتكبوا ما ارتكبت من إثم، فسوف يسعدني ذلك، حتي لو لم تسعد مبادرتي هذه، قارئاً كاتباً، فقد عاش جيلنا تجربة عريضة ومريرة، تسـتحق أن تـروى، وينبغـي ألا يمضي العمر، دون أن نترك ملامح من حصادها المر، لمن يأتي بعدنا، ولست سوى شاهد واحد، يقف في شرفة واحدة،

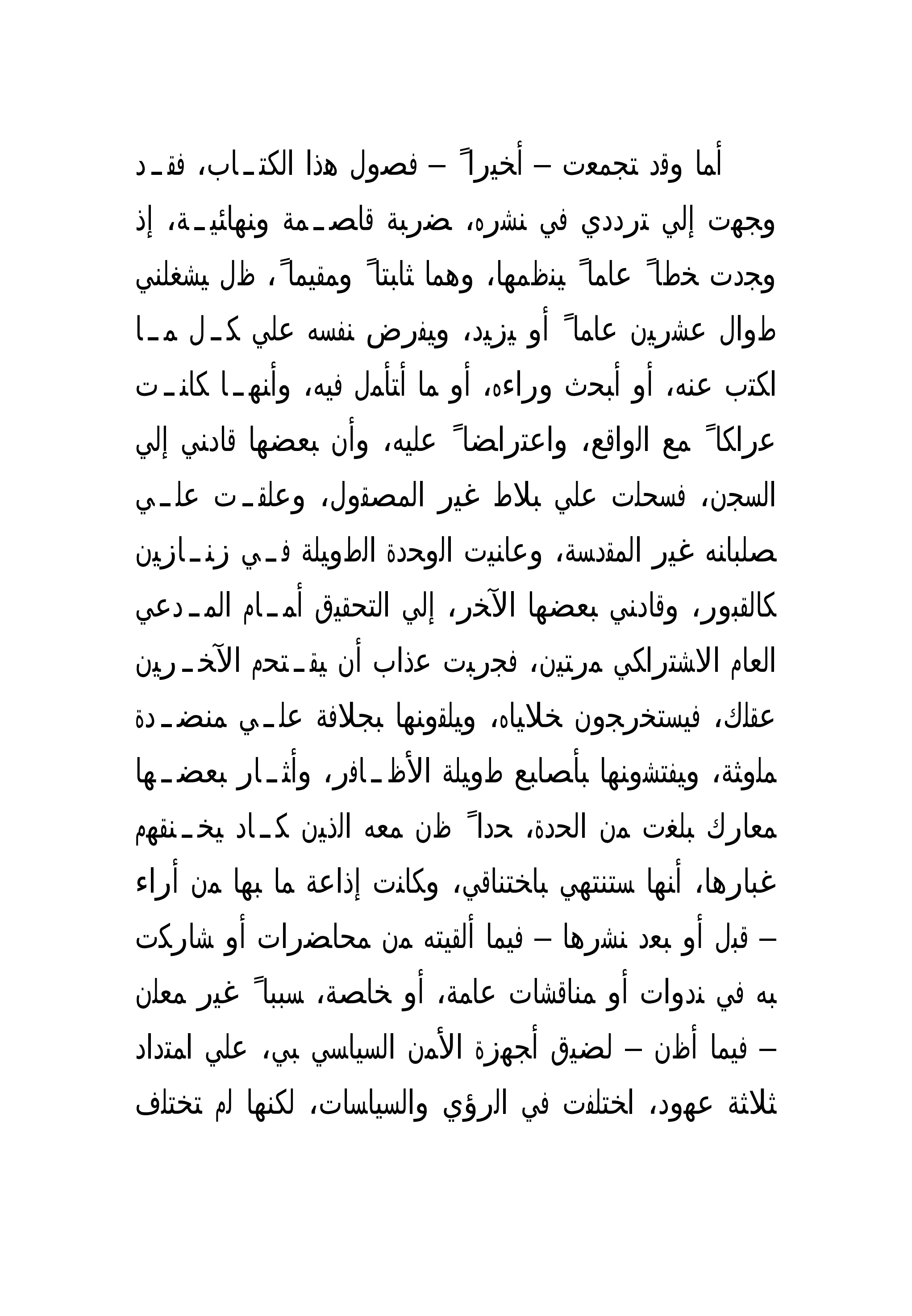
وما أكثر الشرفات، وأكثر الشهود في عمـر هـذا الجيـل الغريب!

ومن الحق أن أعترف، أنني كرهت دائماً أن أنشر هذا النوع من الكتب، وإن كنت لم أكرهه حين ينشره الآخـرون، بل أحببت كثيراً من نوعه، حين لا أكون مؤلفه. فقد رأيـت دائماً أن (الكتب) ينبغي أن تؤلف خصيصاً بهذه الصـفة، أي لتقدم موضوعاً لا يمكن أن يكتب فى (كتاب)، واعتقـدت – دائماً – أن الأبحاث والمقالات تكتب بهذه الصفه، لتنشـر في الصحف والمجلات والدوريات المتخصصة، وأن تجميع (كتاب) من مجموعة دراسات أو مقالات هو استخدام سـيئ لشكل الكتاب، فيما لا يتواءم معه..

وطوال السنوات الخمس الأخيرة، كانت هـذه الفكـرة تتلقي تحديات مستمرة، فقد اكتشفت أن بعضاً مما كتبته من أبحاث ودراسات ومقالات في الدوريات العربية المختلفة، قد لفت نظر كثيرين من القراء والباحثين، العرب والمستعربين، فاستشهدوا بفقرات أو أفكار أو وثائق ممـا ورد بهـا، وأن بعضاً ممن يطلعون علي هذه الاستشهادات يرغبـون فـي

العودة إلي النصوص الأصلية، فيلجأون إلي، فأهـديهم مـا أحتفظ به منها، فلا يردونه، وأعجز في دوامة الحيـاة غيـر المستقرة التي عشتها عن استرداده أو استعواضه..

وحين بدأت أفكر – بتردد شديد – في أن أجمع بعضاً من هذه الفصول في كتاب، اكتشفت، أنني – كغيـري مـن الكتاب – قد وقعت ضحية لمخافر الحـدود العربيـة، التـي تصادر من الكتب والصحف،أكثر مما تضبط من المخدرات وحبوب الهلوسة، باعتبارها من المـواد المقلقـة للراحـة، والمكدرة للنظام العام، فلا تحول بينها وبين قارئها فحسـب، بل تمنعها أحياناً عن كاتبها.. وهكذا كان علـي أن أطـارد فصول هذا الكتاب فـي دورالكتـب وأرشـيفات الصـحف والمجلات في أكثر من قطر عربي، حتي استطعت أخيـراً أن (أضبط) كتلتها الرئيسية، فوجه ما بذلته من جهد شاق في هذه المطاردة، ضربة موجعة لترددي، وبدا لي أن جمع هذه الفصول في كتاب، هو – علي الأقل – تحد واجب لمخـافر الحدود التي لم تصد عن الأمة – في الأغلب الأعم – عدواً، ولكنا صدت – باقتدار يدعو للإعجاب – كتبـاً.. وأفكـاراً وأصدقاء!

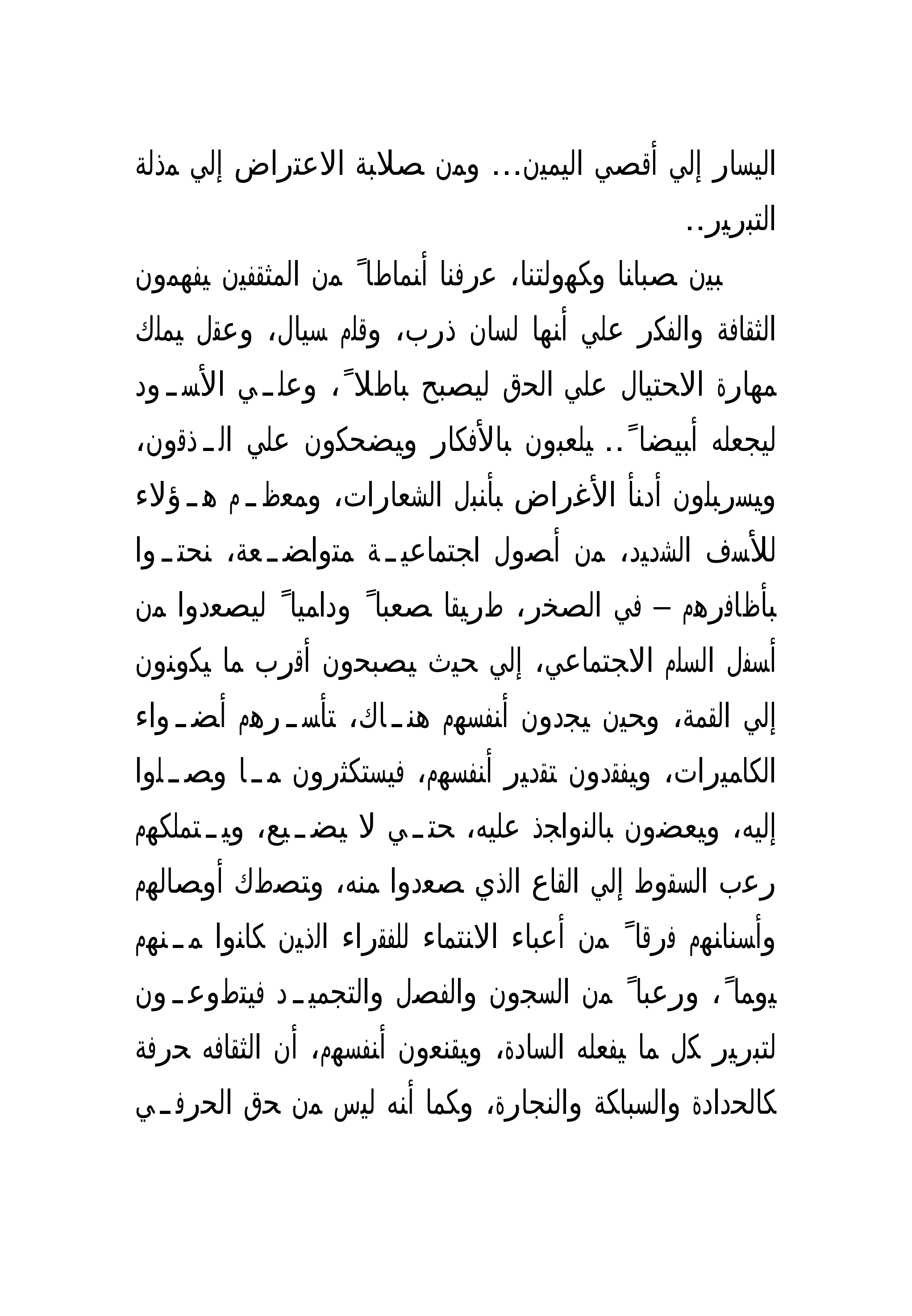


أما وقد تجمعت – أخيراً – فصول هذا الكتـاب، فقـد وجهت إلي ترددي في نشره، ضربة قاصـمة ونهائيـة، إذ وجدت خطاً عاماً ينظمها، وهما ثابتاً ومقيماً، ظل يشغلني طوال عشرين عاماً أو يزيد، ويفرض نفسه علي كـل مـا اكتب عنه، أو أبحث وراءه، أو ما أتأمل فيه، وأنهـا كانـت عراكاً مع الواقع، واعتراضاً عليه، وأن بعضها قادني إلي السجن، فسحلت علي بلاط غير المصقول، وعلقـت علـي صلبانه غير المقدسة، وعانيت الوحدة الطويلة فـي زنـازين كالقبور، وقادني بعضها الآخر، إلي التحقيق أمـام المـدعي العام الاشتراكي مرتين، فجربت عذاب أن يقـتحم الآخـرين عقلك، فيستخرجون خلاياه، ويلقونها بجلافة علـي منضـدة ملوثة، ويفتشونها بأصابع طويلة الأظـافر، وأثـار بعضـها معارك بلغت من الحدة، حداً ظن معه الذين كـاد يخـنقهم غبارها، أنها ستنتهي باختناقي، وكانت إذاعة ما بها من أراء – قبل أو بعد نشرها – فيما ألقيته من محاضرات أو شاركت به في ندوات أو مناقشات عامة، أو خاصة، سبباً غير معلن – فيما أظن – لضيق أجهزة الأمن السياسي بي، علي امتداد ثلاثة عهود، اختلفت في الرؤي والسياسات، لكنها لم تختلف

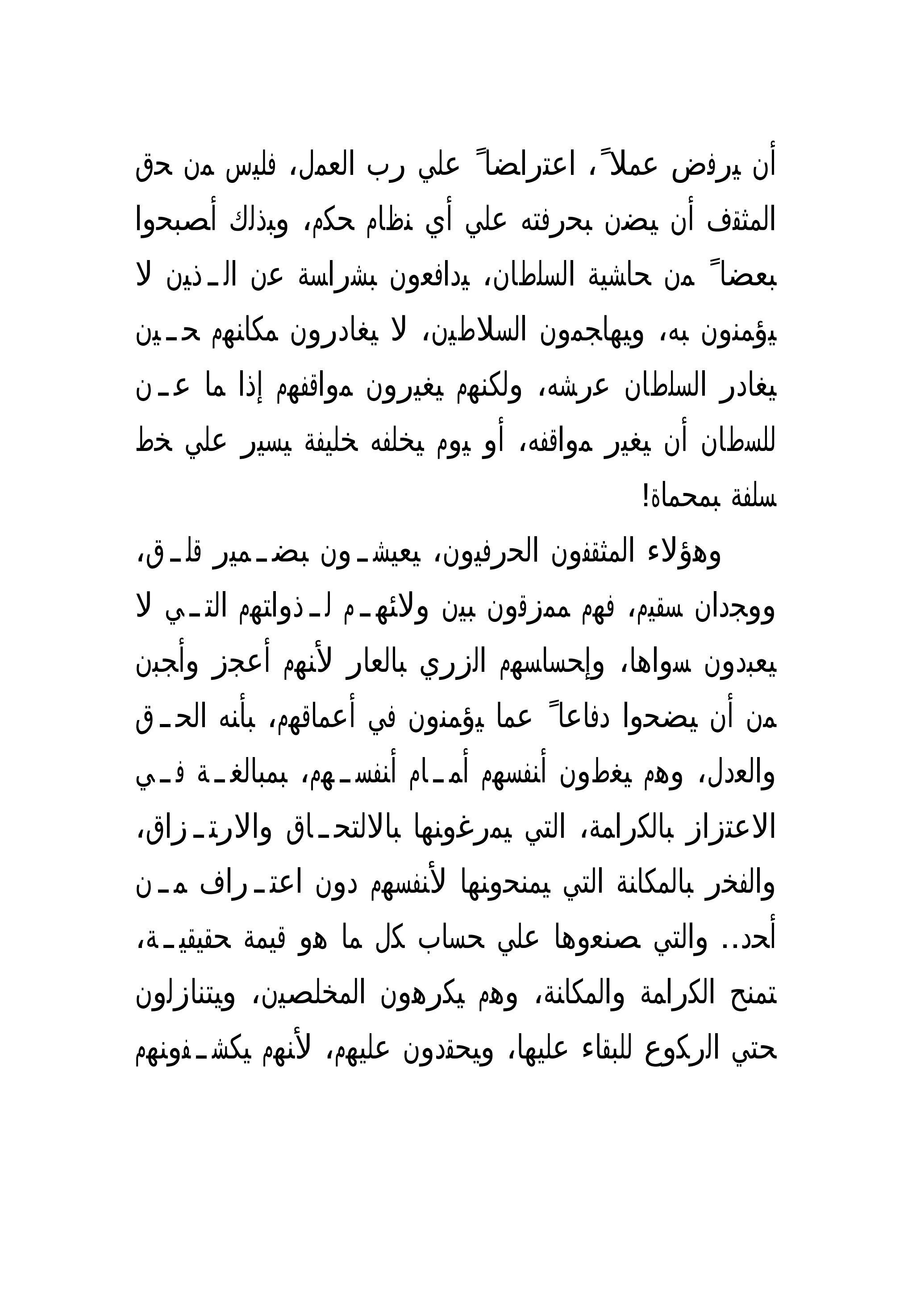
علي اعتبار أفكاري، جزء من التيارات المقلقة للراحة، التي نبغ جيلنا في إذاعتها..

ولا أدري أهو مدح للذات، أم اعتراف بالخطأ، أن أقول أنني اكتشفت إذ أراجع هذه الفصـول، أن رؤيتـي العامـة لمشاكل الوطن الذي أعيش فيه، والأمة التي أنتمي إليها، قـد ظلت ثابته نسبيا طوال ربع القرن الذى نشرت خلالـه هـذه الفصول، لتعبر عن هذه الرؤية، ومع أنني حاولت دائمـا ألا أصد عقلي عن مناقشة فكرة أو رأي، وألا أرفض الآخـرين لأنهم (غيري)، ودافعت باستماته، ضد نفسي، عن حيـويتي العقلية، إلا أن تفهم ما يقوله الآخرين، والقبول بهم، قد أكـد لي صحة رؤيتي لما عاصرت من ظـواهر، فلـم تضـف السنوات إليها، إلا محاولات لتعميق هذا الملمـح أو ذاك، أو لتنويع الظواهر التي تخضع للتحليل..

وربما لم أكن – في هذه الناحية بالذات – نموذجاً طيبا ً لجيلي من المثقفين العرب والمصريين، فقد شهد هو والجيل السابق عليه، انقلابات فكرية، بطريقة الانقلابات العسـكرية، مفاجئة.. غير مبررة أو مؤصلة، نقلت البعض مـن أقصـي

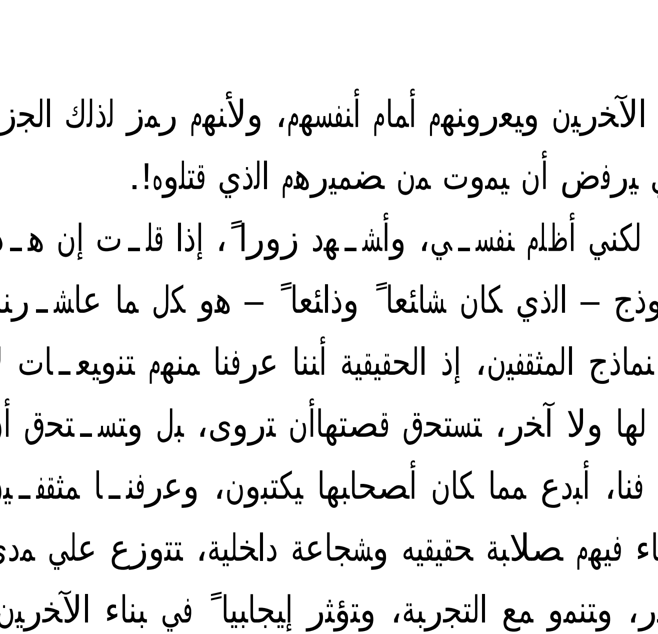

اليسار إلي أقصي اليمين... ومن صلابة الاعتراض إلي مذلة التبرير..

بين صبانا وكهولتنا، عرفنا أنماطاً من المثقفين يفهمون الثقافة والفكر علي أنها لسان ذرب، وقلم سيال، وعقل يملك مهارة الاحتيال علي الحق ليصبح باطلاً، وعلـي الأسـود ليجعله أبيضاً.. يلعبون بالأفكار ويضحكون علي الـذقون، ويسربلون أدنأ الأغراض بأنبل الشعارات، ومعظـم هـؤلاء للأسف الشديد، من أصول اجتماعيـة متواضـعة، نحتـوا بأظافرهم – في الصخر، طريقا صعباً ودامياً ليصعدوا من أسفل السلم الاجتماعي، إلي حيث يصبحون أقرب ما يكونون إلي القمة، وحين يجدون أنفسهم هنـاك، تأسـرهم أضـواء الكاميرات، ويفقدون تقدير أنفسهم، فيستكثرون مـا وصـلوا إليه، ويعضون بالنواجذ عليه، حتـي لا يضـيع، ويـتملكهم رعب السقوط إلي القاع الذي صعدوا منه، وتصطك أوصالهم وأسنانهم فرقاً من أعباء الانتماء للفقراء الذين كانوا مـنهم يوماً، ورعباً من السجون والفصل والتجميـد فيتطوعـون لتبرير كل ما يفعله السادة، ويقنعون أنفسهم، أن الثقافه حرفة كالحدادة والسباكة والنجارة، وكما أنه ليس من حق الحرفـي



أن يرفض عملاً، اعتراضاً علي رب العمل، فليس من حق المثقف أن يضن بحرفته علي أي نظام حكم، وبذلك أصبحوا بعضاً من حاشية السلطان، يدافعون بشراسة عن الـذين لا يؤمنون به، ويهاجمون السلاطين، لا يغادرون مكانهم حـين يغادر السلطان عرشه، ولكنهم يغيرون مواقفهم إذا ما عـن للسطان أن يغير مواقفه، أو يوم يخلفه خليفة يسير علي خط سلفة بمحماة!

وهؤلاء المثقفون الحرفيون، يعيشـون بضـمير قلـق، ووجدان سقيم، فهم ممزقون بين ولائهـم لـذواتهم التـي لا يعبدون سواها، وإحساسهم الزري بالعار لأنهم أعجز وأجبن من أن يضحوا دفاعاً عما يؤمنون في أعماقهم، بأنه الحـق والعدل، وهم يغطون أنفسهم أمـام أنفسـهم، بمبالغـة فـي الاعتزاز بالكرامة، التي يمرغونها بالالتحـاق والارتـزاق، والفخر بالمكانة التي يمنحونها لأنفسهم دون اعتـراف مـن أحد.. والتي صنعوها علي حساب كل ما هو قيمة حقيقيـة، تمنح الكرامة والمكانة، وهم يكرهون المخلصين، ويتنازلون حتي الركوع للبقاء عليها، ويحقدون عليهم، لأنهم يكشـفونهم



أمام الآخرين ويعرونهم أمام أنفسهم، ولأنهم رمز لذلك الجزء الذي يرفض أن يموت من ضميرهم الذي قتلوه!.

لكني أظلم نفسـي، وأشـهد زوراً، إذا قلـت إن هـذا النموذج – الذي كان شائعاً وذائعاً – هو كل ما عاشـرناه من نماذج المثقفين، إذ الحقيقية أننا عرفنا منهم تنويعـات لا أول لها ولا آخر، تستحق قصتهاأن تروى، بل وتسـتحق أن تلهم فنا، أبدع مما كان أصحابها يكتبون، وعرفنـا مثقفـين أقوياء فيهم صلابة حقيقيه وشجاعة داخلية، تتوزع علي مدي العمر، وتنمو مع التجربة، وتؤثر إيجابياً في بناء الآخرين، وأخري فيها صلابة هشة تتجمع في موقف، أو تتركـز فـي بضع سنوات، ثم تنكسر مع العمر فتنثني ولا تعتدل!

ولأنه كان مستحيلاً، انذاك – كما هو الأمر الآن وفـي كل أوان – أن نقفز خارج الزمان والمكان، فقد كان طبيعياً أن نكون ثمرة لظروف نشـأتنا وتكويننـا: ماورثنـاه دون اختيار، وما اكتسبناه دون مقاومة، الطبقات التي لم نخترهـا حين ولدنا، وحين اخترنا غيرها، قاومنا مـا ورثنـاه عنهـا ببسالة، وربما دون انتصار حقيقي، الآباء والأمهات الـذين أجبرونا علي أن نأتي من أصلابهم، لأن حق تقرير المصير

لا يمارس قبل الميلاد بل بعده، القري أو الشوارع التي عشنا فيها، والوطن الذي رفرفت علينا – ونحـن لحـم طـري – راياته، والأمة التي ينتمي إليها هذا الأمن، بما كانت، وبمـا هي كائنه، وكلها أمور لا خيرة لنا فيها..

ولسنا بالطبع – مسئولين عما لم نختره، لكننا – بالقطع – مسئولون عما اخترناه فيما بعد من مواقف، وهي مسئولية لا تخرج عن إطار الزمان والمكان، ولست أعتذر عن جيلنا، حين أنبه أننا عشنا إنقلابين هائلين في عمر واحـد، ولـذلك قلت مرة، إن جيلنا من المثقفين العرب – مصـريين وغيـر مصريين – سيدخل التاريخ من باب السيكولجيا، لا من باب الأدب أو الفن أو الفكر فاذكروا أن طفولتنا شـهدت وطننـا وهويتعمد بالدم، الأربعينات: فرنسيون وأمريكـان وألمـان وطليان، هاي هتلر. سـنغال وأفريكـان وهنـود وطبـرق والعلمين ودي جول وفرنسا الحرة. بيتان وروميل وكـاترو وترومان وماجينو. وايزمان وبيجين وقرار التقسيم واسرائيل المزعومة. الأسلحه الفاسدة والأنظمه الفاسدة. في الخمسينات شهدنا معارك الاستقلال والأحلاف والتسليح وتـأميم القنـاة وتحدي ١٩٥٦ الجسور. وحدة مصر وسوريا. ثورة ١٩٥٨

في العراق. ثورة الجزائر والمليون شهيد. استقلال الإمارات والمشيخات. غنّينـا: حنحـارب. حنحـارب. كـل النـاس حتحارب.. راجعين بقوة السلاح.. راجعين نحرر الحمـي.. راجعين كما رجع الصباح، من بعد ليلة مظلمة. حين جـاء الصباح، كان الإسرائيليون قد دمروا كل الطـائرات علـي الأرض: سماؤنا المحرقه، أصبحت برداً وسـلاماً علـي موشي ديان. امتدت الليلة المظلمة عشر سـنوات وقبـل أن نحتفل بالعيد الخامس لنصر أكتوبر ١٩٧٣، كانـت نبـوءة جولدا مائير قد تحققت. تأخر الإتصال الهاتفي الـذى كانـت تتوقعه في العاشر من يونيو ١٩٦٧، وعوضـاً عـن هـذا التأخير، ذهب أكبر رئيس دولة عربية، بلحمه ودمه.. انحني أمامها – هكذا يفعل الدبلوماسيون عادة – قال:

- أنا سعيد برؤيتك!

قالت:

كنت أنتظر هذا اللقاء من وقت طويل

لم تعد إسرائيل مزعومة كما قرأنا ونحن أطفال صغار، اكتشفنا – علي مشارف الكهولة – أنها ليست بغاثا يستنسـر

في أرضنا كما قالت كتب المدارس، وكما زعمـت خطـب الساسة – ربما نفس الساسة – وتصريحات المسئولين..

في القمة.. يتبادل الزعماء عادة كلمات تختلف تمامـاً عما تعودنا نحن القراء والكتاب أن نسمعها منهم، أو نقرأهـا لهم، فللساسة – خصوصاً العرب – كالقمر وجـوه سـبعة، لكننا نحن المثقفين العرب – مصريين وغيـر مصـريين – ورثة حلم أمتنا بالعدل والحرية والأمن. نقرأ عيون الأطفـال نشم عطر الأشواق نلهث خلف الذي سيأتي. لا نعرف شيئاً اسمه فن الممكن..

ربما لهذا السبب – فإن جيلنا من المثقفـين العـرب – مصريين وغير مصريين – سـيدخل التـاريخ مـن بـاب السيكلوجيا.. لا من باب الأدب!

٢٦ فبراير (شباط) ١٩٨٠

حين غادرت منزلي – ذلك الصباح – كنـت مكتئبـاً بطريقة لم استطع أن أفهمها إلا فيما بعد، وبدلاً من أن أتجه إلي ميدان طلعت حرب، لأنضم إلي مسيرة كـان ((حـزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي)) قد أعلن أنه سـينظمها

احتجاجا علي بدء تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل لأول مرة، توجهت إلي مكتبي مباشرة.. كانت المسيرة قد ألغيت..

الصحف الرسمية تعاملت مع الأمر بذكاء غير مسبوق، ما نشتاتها عن الرخاء القادم، وخبر تقديم (الياهو بن اليسار) لأوراق اعتماده تروى في ركن صغير. من نظرات العابرين في الطريق أدركت أن ملامحي جهمة بشكل مروع. تجاهلت النظر في عيونهم، داخل جمجمتي زحـام مـن الأشـخاص والأفكار والأسماء لا تجعـل لأي منهـا معنـي: بيجـين. السادات. عبد الناصر. كفـر قاسـم بحـر البقـر القـدي، المستوطنات. فيصل. الضفة. مازن أبو غزالة. ليلي خالـد. ياسر عرفات. كوسيجين. كـارتر. ١٩٤٨. ١٩٥٦. ١٩٦٧. ١٩٧٣. ١٨ و ١٩ يناير. مينـاهوس. الكنيسـت. العـرب. القاطعة. الإسماعيلية. النفط. الكيلو ١٠١. أمـين الهنيـدى. عادل إمام. حسن الإمام.

قذف بائع الصحف فـي وجهـي بجريـدة الشـعب – الصحيفة المصرية المعارضة الوحيدة التي كانـت تصـدر أنذاك – قلبتها شاردا. في الصفحة الأخيـرة نشـروا علـم فلسطين. التقط العلم عيني الشاردة فلم يفلتها. لا بد أن شـيئا

ما قد حدث. حين رفعت رأسي، اكتشفت أن ملامحي لم تعد تستفز بجهامتها نظرات العابرين. تنهدت أزيح ما يملأ رأسي من زحام الأسماء والتواريخ. فكرت أن الوان العلـم جميلـة رغم السواد. بين إشعال عود الثقاب، وخـروج أول أنفـاس اللفافة، كنت أقول لنفسي بأسي:

- هل عاش جيلنا حقاً حتي أصبح مجرد نشـر علـم فلسطين في صحيفة مصرية أمر يدعو للفرح؟ من خرج علي النص.. نحن أم هم؟!

كان خالي رياض هو أقرب أخوالي الخمسة إلي قلوبنـا ونحن أطفال، فقد كان – بعكس الكبار الآخرين في أسرتنا – قليل الأوامر، نادر النواهي، متسامحاً مع كـل أخطائنـا.. وكانت – غالباً جسيمة!

كان قد غادر المدارس إلي غير رجعة، قبل أن يحصل علي شهادة الكفاءة (الإعدادية) بعد واقعة من أهم أحـداث الجانب الفكاهي في تاريخ عائلتنا.. فقد حفظ مفردات اللغـة الإنكليزية كما تلقنها بالضبط. تعلقت عيناه بالسبورة. قرأ ما عليها من كلمات عربية، وما يناظرها من معان بالإنجليزية. سمعت أذناه تلاوة المدارس لكل كلمتين معاً.. هـز جسـده

علي الطريقة الأزهرية القديمة في الحفظ، ردد، وزمـلاؤه، كل كلمتين مع:

تماماً just منحدر slow.

وهكذا حفظ خالي النص – كما رآه وسـمعه ورَدده – كل كلمتين معاً وحين جاء أوان التسميع سـأله المـدرس: تماماً يعني إيه يا رياض؟. فقال خالي بآلية: تماماً جسـت. منحدر سلو.

وأراد المدرس أن ينبهه لما ظنه سهواً، فعـاد يسـأله: أمال منحدر يعني إيه؟ فعاد خالي يردد بآلية ودون ابتسـام: تماماً جست.. منحدر سلو ويئس المدرس – فيما تلا ذلـك من أسابيع – من إقناعه بأن النص الذي يردده بآلية، يضـم كلمتين مختلفتين، لكل منهما معني منفصل، فأهمل شأنه، ولم يعد يسمع له.

ولأن خالي ريـاض، كـان أطـول تلاميـذ الفصـل، وأضخمهم، فقد كان أول من تقع عليه عـادة عـين النـاظر والمفتش، وكل من يدخل الفصل من الغرباء، فيختارونه دون كل التلاميذ، ليختبروا معلوماته في الإنجليزية، ويقسيوا بهـا

مدي اتقان المدرس لعمله..فيسألونه: تماماً يعني إيه يا رياض؟. فيجيب بنصه الخالد تماماً جست. منحدر سلو.

ويقلبون السؤال، فلا تنقلب الإجابة، لأن خالي كان مصراً علي ألا يخرج عن النص الذي حفظ بثلاث من حواسه. والنتيجة: نظرة سخط يلقيها المفتش علي المدرس، يغادر بعدها الفصل، لتتحول نظرته إلي عصي تنهال علي كفي خالي رياض، يتلقاها بصبر، فلا يتوجع ولا يحتج، ولا يستحب كفيه من مرمي العصا، حتي تكل يد المدرس، فيعود خالي إلي مكانه في الفصل، شامخ الرأس، ككل صاحب رسالة يتحمل تكاليف الإصرار علي التمسك بمبادئه،

والصمود في الدفاع عنها...

ولأن المدرسة كانت أهلية، تعيش علي معونات من وزارة المعارف، تنقطع إذا ما ساءت تقارير المفتشين عنها، فسرعان ما جاء اليوم الذي نفد فيه صبر الجميع. دخل الناظر الفصل ومعه جوقة من المفتشين. واختار أحدهم كالعادة – أطول التلاميذ قامة. وسأله عن اسمه. ثم قال بأبوة مصطنعة: تماماً يعني إيه يا رياض؟.. فكرر – بالطبع – نصه الخالد. وما كاد الجمع يغادر الفصل، وقد أصبح مؤكداً

أن المدرسة لن تحصل علي الإعانة، حتي انهـال المـدرس الناظر علي خالي رياض ضرباً ، وطاشت ضرباتها بالغيظ فطالت كل مكان من جسده، فإذا بصبره الطويل – كصـبر الجمال – ينفد، وإذا به يرد علي العدوان بمثله، بل بما هـو أقسي منه، وانجلي غبار المعركـة، بنقـل المـدرس إلـي المستشفي وجلاء الخال العنيد عن المدرسة إلي الأبد.

وحين وصلت إلي السن الذي أستطيع فيه أن أفهـم مـا جري أدركت أن خالي رياض كان علي حق، وحكمت بـأن المدرس يستحق ما ناله من عقاب وربما أقسي منـه، فهـو الذي وضع النص كل كلمتين معاً ، وهو الذي كتبـه علـي السبورة كل كلمتين معاً ، وهو الذي تلاه علي خالي وزملائه كل كلميتن معا، وطالبهم أن يرددوه خلفه بهـذه الطريقـة. وفجأة، ودون سابق إنذار، وأمام الناظر والمفتش، خرج عن النص، وابتدع نصاً جديداً ، وغير من طرف واحد قواعـد اللعبة، فاستحق العقاب الذي أوقعه به خالي، الذي أصر علي أن يلعب اللعبة طبقاً للأصول التي اتفـق عليهـا الجميـع، وتمسك بالنص،وتحمل في سبيل ذلك، عدوان الخارجين عنه،

وحين نفد صبره، أمام عقوبات لا يفهم لهـا سـبباً، أدبهـم الأدب الذي يليق بالخارجين عن النص!

وفيما بعد، شهدت معركة أخري مـن معـارك الخـال رياض، تطلبت زمناً، لكي استوعب معانيها وأفهم دلالاتها.

كنا يومها نلعب في فناء البيت حين وقف بالباب غريب يطلب صدقة ومع أن صورته كانت تختلف تماما عن هيئـة متسولي قريتنا والقري المجاورة، فقد ألقينـا نظـرة عـابرة عليه، دون أن يعني أحدنا بأن يدخل إلي المنزل لكي يأتيـه برغيف من (مشنة الشحاتين) التي نقبع في إحـدى قاعـات المنزل الداخليه كان طاعنا في السن جداً: كل شئ فيه قـديم ومكرمش.. ملامحه ونظراته وقامته المنحنية الضئيلة رغـم زحام الأسمال التي يرتديها.. صـديرى وجلبـاب وجاكتـه وبالطو ومركوب. وكان أبرز ما فيها شملة مبرقشة يغطي به رأسه الصغير وتلتف حول عنقه. لم يقل –كعادة المتسـولين في قريبتنا: حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة. لم يقـل: إلهـي يجعل بيوت المحسنين عمار. تمتم بكلمات لم نفهمها إلا بعـد وقت: كسرة خبز ا يربحك!

وعبرت أمي الفناء، فلفتت هيئة الرجل الغريبة نظرها، فسألته: إنت منين يا عم؟ غمغم بكلمات، لم أفهمهـا لكنهـا فهمتها، فأمرتني بحسم أن أترك ما بيدي لأعود برغيف من مشنة الصدقة، وعدت مسرعا لأجد خالي رياض واقفاً مـع الرجل أمام البوابة، وقد تحلّق الكل حولهما تبادر إلي أذهاننا جميعاً أن الرجل ريس طبل، يصحب، غوازي من سـنباط، وأننا سنشاهد رقصاً، وسنسمع الغازية تغني كالعـاده: يـا رياض أفندي يا أبهة. يا كايد الناس كلها..

أخفيت الرغيف وراء ظهـري، وأقسـمت ألا أعطيـه للرجل إلا إذ غنت الغازية يا صلاح أفندي. يا أبهة.. يا كايد الناس كلها. لكن الرجل كان ريسا بلا طبـل، شـحاتا دون غازية وكان خالي غاضبا بصورة لم أره عليها مـن قبـل. غطي صوته الجهوري الغاضب علي ردور الرجل، فلم أفهم منها إلا أنه من بلد اسمها فلسطين وأنه غادر بلده ليسيح في بلاد ا وعلي أبواب خلقه، هربا أمام اليهود الـذين قلتـوا أهله، فلم يبق من أسرته سواه..

ولا أدري لماذا أغضبت كلمات الرجل خـالي، فعـاد يصرخ في وجهه بكلمات لم أفهمها لتدافعها، لكنه ختمها، بأن

جال ببصره في الفناء، والتقط أول ما صادفه، وكان سـيراً من الصاج الذي تحزم به البراميل، وانهال به علي الرجـل العجوز، بضربة بقسوة وغضب وهو يصيح: سبت أرضـك ليه يا ابن الكلب؟!

وتوالت الضربات. تدعور الرجل.. انفرطـت مخلاتـه ففرشت محتوياتها الطريق: كسر من الخبز، وحزم من الفجل وفحل بصل، وقطع جبن قديمة، ومسامير وقطع كاوتشـوك، وشراب ممزق، وشملة متسخة، وكل ما يمكـن أن يجمعـه سائح بين بلاد ا ، يقف علي أبواب خلقـه. وأغلـق خـالي البوابة وواصل الصياح فينا مهدداً بأن يقطع رقبة كل مـن يعطي الرجل – أو أمثاله – شيئاً ، حتي لو كان شربة ماء.. ثم اندفع – رداً علي احتجاج والدتي – يتحدث عن مبررات ما فعل، حديثا لم أفهم منه شيئاً ، فقد تعكر كل شـئ: بـاخ حماسنا للعب. ولم يعد يهمني أن ألقب بالأفندي أو الأبهـه. وكان خالي يواصل دفاعه عما فعل، حين تسللت إلي مشـنة الصدقة، فأخذت رغيفين آخرين، وتسحبت من باب المنـزل الخلفي حتي لا يراني، وأدركت الرجل في نهايـة الشـارع، وكان يسيرببطء مستنداً إلي عكاز عجوز مثلـه، فأعطيتـه

الأرغفة، فوضعها بيده المرتعشة المكرمشة، فـي مخلاتـه، وأخذ يتحسس بكفه مكان الضربات علـي ظهـره.. وقـال بصوتة الواهن:

-... ا يربحك!

في خريف تلك السنة (١٩٤٨) غـادرت قريتـي إلـي القاهرة. فأكلت – لأول مرة – الحلاوة الطحينيـة بـالعيش الفينو، و (سندويتشات) الطعمية، وشاهدت فريـد الأطـرش ولوريل وهاردي علي شاشة السينما. وسمعت – لأول مـرة أيضا – زمـارات الإنـذار وأصـوات المـدافع المضـادة للطائرات، وعرفت أن هناك حربا. وهتفت في الظلام: طفي النور. وفي الصباح كنت أجمع وأخـواتي شـظايا المـدافع المضادة للطائرات التي كانت تتساقط علي سطح عمارتنـا. وكنت أقلب الشظايا بين كفي، وأسأل نفسي أحياناً .

- هل واحدة منها هي التي قتلت زوج حمدية؟!

ولم يكن زوج حمدية طيـاراً ، بـل نجـاراً ، وكنـت أعتبرها أيامها أجمل نساء العالم، فقد كانت أول من رأيـت عن قرب من (نسوان) مصر، حين قدمت فـي الصـيف لألتحق بالمدرسة الابتدائية. ولأنها كانت صغري بنات السـيدة

التي تعمل في منزلنا فقد شهدت ليلة زفافها رأيت وجهها في النور الساطع، وكان فرحاً ومتلألئاً ببهجة كالنشوة، وحـين عدت في الخريف، كان النجار الذي تزوجته قد أصبح جنديا ً، وكان الجندي قد أصبح شهيداً، وكانت حمدية حاملاً فـي شهرها الرابع.. وكانت ترتدي السواد. وقالت أمهـا وهـي تبكي: قتلوه اليهود في فلسطين!

ومضت السنوات تحفر كل يوم علي القلب خطا من هم، وتقطيبة من حزن، لكنها لم تخل من الضـحكات ازدحمـت المكتبة بكتب عن فلسطين. وصور من حياة اللاجئين. ويوما ً شغفت بأن أتخيل كيف يعيشون بالضبط. فظللت أسأل وأقرأ حتي بنيت في رأسي (ماكيت) شبه حقيقي لمعسكر اللاجئين. وازدحم العمر بفلسطنيين من كل لون وعمر. قـابلتهم فـي المقاهي وبيوت الأصدقاء والندوات في القاهرة وفي بغـداد وفي دمشق وفي الجزائر وفي بيروت وفي معتقل طرة.

وحين قابلت (مازن أبو غزالة) في شقة عبد الـرحمن الأبنودي في نهاية عام ١٩٦٧، أمضينا الليل نعبث في جرح النكسة، كان طرياً لم يزل وتأملت شبابه الفتـي بإعجـاب مشوب بالحسرة. تداخلت ملامحه الوسيمة بمشاهد من وجـه

حمدية ليلة زفافها. وفكرت: هل يطعن في السن يوماً فتقترب ملامحه من ملامح ذلك الرجل الذي وقف علي بوابة منزلنا في القرية يطلب كسرة خبز؟ وأين ذهبت حمدية في زحام الدنيا؟ وهل خلعت السواد، وماذا يفعل ابنها اليتيم الذى حملته بين ذراعي وهو رضيع وهشكته، وفحصت وجهه باحثاً عن الفرق بين ملامح اليتيم وملامح غيره من الناس. وكان الليل قد تقدم، وكنا قد أشبعنا النص الفلسطيني الذي يسكننا تشريحا ً وتفسيراً وتحليلاً. ولم يكن الفجر قد أشرق بعد، حين أستأذن مازن أبو غزالة لينصرف، أغلق الباب خلفه، وأرهفت سمعي مرتعباً، خشيت أن يعود، فيطرق الباب ليقول:

- كسرة خبز ا يربحك!.

لكنه لم يعد. بعد شهور. سمعت آخر أنبائه في آخر نشرات الأخبار التي نقلها عن الإذاعة المصرية – ذات ليلة من ربيع العام ١٩٦٨ – ميكروفون عنبر ٤ بسجن ملحق مزرعة طرة. في نابلس، تحزم مازن أبو غزالة بالديناميت. لفه علي وسطه. وضع المفجر بين أصابعه تقدم تجاه قول من (آليات) العدو ضغط بأصابعه علي المفجر. لم يتدعور

علي الأرض. لم تتفرط مخلاته. طارت في السماء أشـلاؤه. لم يقل خالي رياض: سبت أرضك ليه؟ كان مازنا قـد دفـن نفسه في أرضه عنوة.

أضفت قصة مازن أبو غزالة إلي النص الفلسطيني الذي أمضيت وجيلي نصف أعمارنا نحفظه، وكان نصاً مطـولاً يزحم ببشر وخرائط وبخطب وكتب وذكريات. نحن حفظنـا النص ورددناه: في العام ١٩٤٩ أصدرت الجامعة العربيـة توصية بألا تصف أجهزة الإعلام العربية إسرائيل إلا بعبارة إسرائيل المزعومة، ففعلنا. نحن صفقنا حتي فط الـدم مـن أكفنا لزعماء خطبوا فأقسموا ألا يستريح لهم مضجع إلا وقد تحررت الأرض السليبة نحن غنينا مع المغنين (يا مجاهد في سبيل ا .. دا اليوم اللي بتتمنـاه) و (دع سـمائي فسـمائي محرقة). واترك الأرض فأرضي مغرقة).. من بعـد ليلـة مظلمة) نحن عشنا نتحدث بصوت خفيض كـالهمس، ومـع ذلك طرت شواربنا في المعتقلات والمنـافي، لأن أصـواتنا الخفيضة علت علي صوت المعركة. اعترفنا بالذنب. تلونـا قول ا عز وجل (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير). لأنها علي صوت المعركه تعلو. نحن من جيـل التهمـت الكتـب

والمقالات التي صدرت عن فلطسين في حياته ٩٠% من أحبار المطابع والمستورد من الورق، فالتهمت بالتالي كل قدرتنا علي الإبصار وطاقتنا علي الحفظ. وصنعت جماجم الذين ماتوا في سبيلها جبالاً أعلي من المقطم والجولان وطوروس. ذلك كله أضيف للنص المغمور بالدم والأشلاء والأناشيد والأشعار وقليل من الضحكات. لذلك لم يعد جيلنا بشراً، خلت أجساداً من الأعضاء وحشي الجلد بالنص الفلسطيني.

ومرت في النهر مياه كثيرة. غمرت النص لكنها لم تغرقه. وحين خرجت ذات صباح من منزلي دون أن أغسل وجهي، جابهتني سيارات حشدوها بالبشر لتستقبل السادات العائد من القدس المحتلة. كانوا قد وضعوا في أيديهم أغصان الزيتون. تذكرت حزمة الفجل التي انفرطت ذات يوم من مخلاة اللاجئ الفلسطيني.. ودهشت لأن قانونا كان قد صدر في اليوم نفسه بتغليظ العقوبة علي الممثلين الذين يخرجون عن النص.. وقال لي محام صديق: إن القانون لا يطبق عادة علي كبار الممثلين ولكن علي الكومبارس فقط.

وفي الأسبوع الأخير من يناير ١٩٨١، كنت واحداً من صف طويل ينتمي بعضه لجيلنا، وينتمي آخرون لجيل الآباء ولجيل الأبناء، وقفوا جميعاً أمام الجناح الصهيوني في معرض القاهرة الدولي الثالث عشر للكتاب، يوزعون بياناً يدعو لمقاطعته ويلفون أعناقهم بتلك الشملة المبرقشه التي عرفت فيها بعد أنها لباس الرأس الفلسطيني، ويعلقون على صدورهم علم فلسطين.

وفي اليوم التالي كنت وحلمي شعرواي في نيابة أمن الدولة، وقعنا في يد الصائدين، وانتشر الآخرون في بقية أنحاء المعرض يوزعون البيان، وحين دخلت إلى مكتب الأستاذ عاصم عبد الحميد رئيس النيابة، كنت أظن أن أقصي ما يمكن أن يوجهه لي من تهم، هي التهمة التقليدية: الإثارة والبلبلة والتكشيك والتحريض. وبعد أن شربت القهوة، خطر لي فجأة أن أسأله عن التوصيف القانوني للتهمة التي سيوجهها إلي.. فقال بحرج:

- المادة ١٠٢ من قانون العقوبات؟! ظلت نظراتي المستفهمة معلقة. وأخرجت محاميتي أميرة بهي الدين قانون العقوبات من حقيبتها.. وقرأت بصوت عال:

- يعاقب بالأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة كـل مـن يقوم بعمل عدائي ضد دولة أجنبية، يكون من شـأنه قطـع العلاقات الدبلوماسية معها..

لم تعد إسرائيل مزعومة.. ولم يعد العمل العدائي ضدها شرفاً، لذلك يستحق زوج حمدية الموت، ويستحق مازن أبـو غزالة لقب الخارج علي القانون، ويستحق كل الشـهداء مـا حاق بهم، فتلك هي العقوبة الواردة في قـانون العقوبـات، والعدل – كما قال نجيب سرور – يلبس طرابيش، ويلـبس طاقية الحاخامية، ولأنني لم أكن شجاعاً كخـالي ريـاض، ولأن عاصم عبد الحميد بدا لي ضحية مثلي، لمـن خرجـوا عن النص، فقد انفجرت غاضباً في الهواء. واندفعت أغادر الحجرة وأنا ألعن وأسب، وخلفي أميرة بهي الدين، تـذكرني بصوت كظيم.. أنني متهم.. ومقبوض علي..

وحين وجدت نفسي وحلمي شعراوى وحيدين تماماً في معتقل القلعة الذين كانوا قد أخلوه بسبب تدهور مرافقه، لـم أجد ما أفعله، سوى أن أتأمل تلك (الخوارق) التي حدثت في جيل واحد، انقلبت خلاله الأوضاع، وتبدلت الطباع، كما قال شيخنا الجبرتي. كان نصف الحقيقة محفورا علـي حـوائط

الزنازين الخالية، بسبب تصـدع المبنـي، ولـيس بسـبب ديمقراطية الحكم. وكنت أسلي نفسي بـالتجول بينهـا: أزور الزنازين التي سكنها من قبل، وتلك التي سكنها أصدقاء لي، والتي لم أسكنها ولم يسكنوها، لكننا سمعنا يومـاً صـراخ الذين كانوا يعانون العذاب بين جرانها الجهمـة، وأعـوض الصحف والكتب الممنوعة عني، بقراءة ما خطه من سـبقني إلي سكناها عن جدرانها، وأبحث عما كتبته ذات يوم علـي تلك الجدران: أسماء من كل الأعمار والأقطـار والأفكـار، تحتها شعارات واضحة الدلالة، تؤكد أن الكـل سـكن هـذا المعتقل، عملاء الاستعمار والصهيونية، وأشرس المعـادين لهما، اليمين واليسار والبين بين، الاقطاعيون والرجعيـون، والبروليتاريون والتقدميون. وكنت أنـا وحلمـي شـعراوى شاهدان عيان علي النصف الثاني من الحقيقة، فقد كنـا أول مواطنيين عربيين، توجه إليهما فـي بلـدهما تهمـة إهانـة إسرائيل.. لذلك فقد تلبسنا إحساس طاغ، بأن علي أن أضيف إلي هذه الجدران الوثائقية، ما انتهي إليه الحال، كأنني أعتذر عن جيلنا، أو أحذر جيلا قادما.. وهكذا أمسكت بقطعة مـن الحجارة المدببة، مررت علي الزنازين جميعها، كتبت علـي

كل الحوائط وبخط عريض اسمينا وتحتهما: التهمة.. إهانـة إسرائيل.. وكأنني أكتب كلمة النهاية لفصل مليودرامي فـي التاريخ العربي!.

ذلك مشهد النهاية.. أما البداية.. ومـا بعـدها.. فهـذه الفصول تروى بعضا منها.. لذلك نشرتها!

(صلاح عيسى)

القاهرة – اكتوبر (ت ١) ١٩٨٥

دقات جنائزية
علي دفوف الستينيات

نحن في واقع الأمر.. عينة سابقة لدراسة أثـر القهـر علي الأدب.. والفن.. والمهم علي الإنسان).

١- تعليق علي الأنباء:

لأننا في زمن القصص الرديئة نعيش، فقد مات فـارس القص المقتدر في حادث صدفي مفاجئ، وغير مبـرر مـن الناحية الفنية المحضة[١]

(صرخ، هو الجائع الحافي العاري، صرخته الأخيـرة، وأرتمي علي سطح أمه الأرض ليستريح: عليه سلام ا)[٢].

---

[١] نشر هذا المقال في العدد الخاص الذي أصدرته مجلة (خطوة) عن صديقي وابن جيلي القاص يحيي الطاهر عبد ا ، الذي مات فـي حادث سيارة وهو في الأربعين. ومع أن المقال قد نشر فـي خريـف ١٩٨١ ، إلا أنني جعلته مفتتحا هذا الكتاب، لأنه أقـرب ألـي سـيرة موجزة لتاريخ جيلنا.

سمعت نبأ وفاة (يحي الطاهر عبد ا) علي رأس نشرة أنباء من زمن القصص الرديئة: حصد زوار الفجر فوجـاً جديداً من الرفاق. أكد (بيجين) للمـرة الألـف أن القـدس الموحدة ستظل إلي الأبد عاصمة لإسرائيل، واجتاح الطيران الإسرائيلي سماء لبنان في حين تـدهورت صـحة (بـوبي ساندز)، واختفت خمس فتيات جدد – في سن السادسة عشرة – من منازلهن وأنهي الطيارون الأمريكيـون والمصـريون مناورة مشتركة علي طائرات الفانتوم. وفي القـاهرة بـدأت محاكمة ثلاثة فلسطينيين بتهمة العمالـة لمنظمـة التحريـر الفلسطينية. احتجت زوجتي لأن جزار الجمعية الاسـتهلاكية أعطاها اللحم شحماً، علقت جارتنا علي تساؤلها الاستنكاري قائلة:

ده مش للأكل يا حبيبتي.. ده للطبيخ. بنطبخ عليه حلـة خضار تكفي العيال.

كان هو في تلك اللحظة يفك الحزام الواقي الذي يربطه إلي مقعده ليربط به (أسماء).

---

(٢) مالم يذكرغير ذاك.. فكل بين حاضرتين من أقـوال يحيـي الطاهر عبد ا .

والسيارة تتقدم في طريـق الواحـات البحريـة، قلـت لصديقي: إنني قلق لأن مدير الأمن أعلن أن عـدد الفتيـات القاصرات اللواتي تختفين قد زاد بمعدل كبير فـي الشـهور الأخيرة، وسألته: أين تظنهن يذهبن؟. عبث بسن قلمـه فـي الثقب الذي تركناه بالخريطة. وقبل أن يرد قـال (مخـالي): بالجمعية فراخ.

ومع أن طريق الواحات البحرية كان أقل زحاماً، فقـد انفتح باب السيارة ووقع (يحي الطاهر عبـد ا) فأصـيب بكسر في قاع الجمجمة، بلا سبب ظـاهر غيـر الطـابور خطوته من إيقاع السلحفاة إلي إيقاع فراشه، وحـين توقـف لاهثاً كانوا هناك تحت أعمدة الكرنك يحفرون قبـره فـي ضوء المشاعل، وإسكافي المودة أعلاهم نحيباً.

فلتهنأ الزنازين بما التهمت من عمر الوطن، ولتزغـرد القبور، وترقص الغربان، وتبتل فرحـاً صـدور الكـلاب الشامتين: تخلصنا من واحد، العقبي للباقين.

مات الطاووس المشاغب. أمير الحكي ونـديم الحـي، المتقمص العظـيم، المتلـون كـالطيف، المتعـدد كـريش الطواويس، الغماز، اللماز، الهجاء، الغضوب، المتشاجر مع

ذباب وجهه، طفل البراري، ابن الموت الذي عمـل لـدنياه دائماً كأنه يموت غداً .

كانوا قد ذهبوا بالمشاعل، وحين تقدمت إلي القبر كـان إسكافي المودة ينتحب في الظلام.. سألته:

- ألا يأتي علي هذا الوطن يوم نجد أمامنا خياراً رابعاً غير الموت أو الهجرة أو الزنازين؟!

قال:

- (هو الربيع، وتلك طيور الربيع عنـد عـين المـاء، تطلب الماء، أحب الموت وكلما أجدني علي حافتـه أحـب الحياة. أحب الحياة وكلما أجدني فيها أعرف أنها الموت. ثمة زهور سوداء بالعالم.. ثمة زهور سوداء. ثمة زهور بيضاء بالعالم ثمة زهور بيضاء).

عليك سلام ا يا يحي.

(٢) التلقين:

- إذا جاءك الملكان فسألاك من أنت، فاحمد ا الـذي (لم يسلبك كل نعمة، ومنحك نعمة الخيال، وصل علي النبـي الذي أجاز غزالة البر لما استجارت به من شـر صـاحبهم اللئيم). وقال إني عبد ا ، عبد الفتاح يحي بن الطاهر عبـد

ا رحمه ا ورحمني، بقرية الكرنك، بالقرب مـن طيبـة القديمة، ولدت في ربيع مثل هذا من زمن ليس أسوأ من هذا.

(قريتي منفية منسية كما أنا منفي منسي) فالسلام علـي (كل الحاضرين من صعايدة وأهل حـرف، السـلام علـي الرجال يبنون العمارات ويعمرون أم المدن، نحن الصـعايدة نبني العمارات. ونحن وأهل الحرفة لا نسكن العمارات).

عشقت الشعب والقص والخمر وبعض النساء، ورفضت أن أكون إلا ما اخترت. لذلك لم أجد شقة ولم أملك سـيارة، ولم يدخل الطائرة سوى نعشي.

مت في حادث صدفي، احتج عليه من جهة نظر فنيـة بحتة، كنت أتوقع ميتة نبأتني بها لمبـات الشـوارع حـين غمزت لي، وإلا فلم (يطاردني بشر ينظرون إلي سـاعاتهم فور دخولي أي مكان؟. يضربونني بالكتف من غير سـبب، يتخطاني الأتوبيس المسرع ولا يقف إلا وهو مزدحم، تنقطع علي المياه وأنا استحم.. يعاملني الكـل – الباعـة والمـارة والصحاب تلك المعاملة التـي لا تليـق بكلـب، تطـاردني الوساوس، ولا يقف التاكسي. حوالي دوما عربات: عربـات إسعاف (حملتني من طريق الواحات إلي نفق الهرم فمت قبل

أن يتواري عني هرم خوفو) وعربات شرطة (ركبتها كثيرا مناسبات غير سـارة) وعربـات جـيش (١٩٤٨، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ١٩٧٧) وعربات صحافة، وعربات القطاع الخاص والعام).

أما لماذا أنا مطارد فلأنني (عشت مربوطاً بسلاسل من حديد إلي أبدان أهل الفقراء التي نخرها دود القبور منذ زمان بعيد) ولأنني أعرف (كل خمارات المدينة، أسعي إليها برغبة دائمة في الكلام والمشاركة، وألتقي فيها بأصـحاب ميـول سياسية تجلب السخط علي أهلها)، فاليهود يا سيدى (صـار لهم وطن يبيع اللحم والخضار فى عاب والفلسطينى الذى لا يملك الأرض لم يبع الأرض، بينما الفلسطيني الـذي يملـك الأرض باع الأرض، فأنا (أشرب الخمر والخمر تأكل كبدي، وأنا أحب كبد الحيوان. ناس تحب أكل لحم الناس، وناس لا تأكل لحم الناس، ولا لحم الحيوانات).

ألا يدعوكم هذا للشك في ذلك الحجر الـذي اعتـرض سيارتنا وكسر قاع جمجمتي؟

- قادم أنا من دنيا السوق (حيث الغلاء الأزرق بيننـا يحجل، والغلاء الأسود في وجهنا ينبح، والغلاء الأبيض كاره

يمسك المنجل بيد – بينما الأخلاق تسوء، والشجار يـومي، والعربات تأتي للسوق تجرها البغال الغبية لتأخـذ الخضـار والفاكهة).

مشوق أنا للنخيل والعناب وكل الثمرات. لأنهار العسل المصفي، للبن الجنة.. فأنا من دنيا السوق السوق قادم، حيث (... البوابون سادة بملابس بيضاء، والقوادون يتاجرون فـي بنات الناس أمام عيون الكل. وفي الغرف المفروشـة أولاد عرب مثلنا، لكـنهم سـعداء يتكلمـون الكويتيـة والليبيـة والسعودية، ويلتهمون اللحوم مشوية ومقلية وطازجـة مـن عجيزة غلام، ويطيبون رائحه أفواههم بشـراب الويسـكي والنقل المقشرة، وينادمون مع عجائز الغسالات) فـأدركوني بالرحيق المختوم، واملأوا أنفي بعطر الجنة، وأجيبوني على حائر السؤال (لماذا يا رب بنت بائع الكرشة تصبغ شـفتيها بالأحمر وهي لم تبلغ بعد عامها الرابع عشر؟. وبنت الفراز تلبس الثوب القصير بورد والحذاء بكعـب عـال بتجويفـة جرس؟ وبنت بائعة الفجل من شارب الكحول تلون جفنيهـا بالأخضر تارة، وبالأزرق تارة، وبيـدها شـنطة بهـا كـل الألوان، بينما كانت بالأمس حافية القدمين ممزقة الثوب!).

أما وقد غاب حماركم، فاسقوني من خمر الجنة، حيـث لا يعقب النشوة صداع، لأنها ليست كخمر مخالي مغشوشة!

يوم الثلاثاء السابق علي موتي، كنت مع أكابر القوم في البورصة (يلعبون لعبة الإنسان والقدر بالخيط ودميه الخشب: فيذبح الجزار البقرة ويرتفع سعر الطماطم من قـرش إلـي قرشين، وتفقد الأم ابنها في زحام اليوم العظيم، فتسأل عنـه المتسول الأعمي. وتصرخ أخت الأيتام: الغشاش سرقني في الميزان وباعني البطاطس معطوبة).

وفي خمارة مخالي، قال لي صاحبي ذو الشأن (سيرتفع ثمن علبة الدخان ولن يخفض ثمن البيضة واللحمة)

من دنيا السوق أنا قادم. يصحبني شـهودي: إسـكافي المودة والـدركي وعبـاس الدنـدراوي وأسـماء (الطـوق والأسورة) وأسماء ابنتي، وأسماء أمي، وأسماء بنـت أبـي بكر، وسمي السيئ السمعة: عبد الفتاح يحـي باشـا، بطـل الانقلاب الدستوري الذي أعقب انقلاب صدقي باشـا عـام (١٩٣٤) ورأس يوحنا المعمدان وشاهد مـن جيلـي ذمتـه نصف نصف اسمه: عيسى.

أودع خزينة ا مستندات دفاعي: بطاقة توصـية مـن سمي عبد الفتاح يحي باشا (في دنيا السوق – والسوء – تفتح بطاقة مثل هذه مغلق الأبواب) أما رأس يوحنا فلأنه رفـض أن يكون إلا نفسه، فطار كما كسرت جمجمتي، أودع خزينة الشعب رواياتي وأقاصيصي: فرحي الذي زغردت به وأنـا أنزف آخر قطرات الدم. شرنقتي. التي إليها أهرب من دنيـا السوق ودنيا السوء وروائح العفن والعنـف الـذي أخـاف والقسوة التي أزدريها.

أنا دائماً أقص، حتي وأنت تستجوبني – ملاك المـوت – أقصي. أنا لم أكتب قصصا لكني عشتها. لا تصدق مـن يقول أني كاتب قصة، لأني في الواقع قصـة، لـم يفهمنـي الناس لأنهم ليسوا قصصاً، إنهم موضوعات لقصص. حين أجد نموذجي أتقمصه، أعيشه، أصبح أنا هو، ولا يصبح هو أنا، أتكلم لغته، أتفاعل به مع الآخرين فلا يفهموني.

إليكم – قضاتي – أبطالي، كل في قفصـه. ثلـة مـن المقهورين المضغوطين المحبطين المسجونين. يتشاجرون مع ذباب وجوههم لأنه النصيب الذي خصهم من ثورة وطـنهم، دون خطوات الدركي وأزيز السياط ولذعة الحرمان والخمر

المغشوشة. وهم مطاردون: بالعنف القبيح وبالقسوة المجردة. بشراهة الاستغلال وجبروت القوة وتسـلط التقاليـد وتمـرد الغريزة المكتومة وضغط الحلم علي قشرة الـرأس كبخـار يجاهد لدفع غطاء القزان).

إسكافي المودة قال لي:

- (الطاحونة يا سيدى بحجر ثقيل.. لقد عشـت حيـاة الفرد المكشوف العورة... طعامي تافه ورخيص وبلا طعم، ما بل العطر جلدي قط، وهذا ثوبي والشتاء بأسنان).

لكنه حين يواجه الدركي، (يخاطبة من لم يذق قطرة من خمر العرق الحارق) يقول:

-(وهل من جائع في ربوع وادينا الخصيب؟! هل مـن عراة في بلادي... وها أنت تراني يا سيدي الدراكي منتعلا، وها أنا أراك كذلك... يحمل ميزان العدل بيمناه سلمت يمناه، ويسراه – سلمت يسراه، تلوح لنا نحن جموع شعبه الـوفي الأبي الخالد: باسماً بقبضة من عيـدان القمـح والسمسـم والقراطم الأبيض).

أنا أدركتهم – نماذجي – بين أعمدة الكرنك، يضطربون في تلك القرية الصغيرة الجديبة، محبوسـون فـي أقفـاص

عيدانها جوع للطعام وللحب وللجنس وللتحقق، مطاردون من الداخل ومن الخارج. أنا قرأتهم نقوشاً في هيكل الإله آمون. رأيتهم تجعيدة علي إنسان عين وتقطيبة في حلمة يدي.. وحين (قرأتهم (كتبتهم – تقمصتهم) لم أجدهم معاصرين، لكني المعاصر، تاريخانيون هم، أنا قرأت الرنوك[1] علي جلودهم: هكسوس وبطالمة ورومانيين وأتراك وشراكسة وإفرنسيين وإنجليز وأمريكان وصهاينة...من كل ملة ودين، بالمسامير المحمية وقعت بأنها داست هنا: علي الرأس.

لذاك يجري أبطالي في الزمان وفي المكان، وأجري معهم، يطاردنا رجال يحملون مسامير محمية، وتتشقق فروة رؤوسنا من ضغط بخارالحلم المحبوس سبعة آلاف سنة. والواقع أنني لا أكتب أبطالي، بل أعيشهم. أنني هم، لذلك عشت أجري من حارة لزقاق ومن مقهي لغرزة لخمارة ووراءي كلاب صيد التاريخ: ست الشرير والحجاج بن يوسف، والسلطان سليم، الذي لعب سيفه في رقاب أهل

---

[1] رمز السلاطين المرسوم في عصر المماليك الجراكسة، يوقعون به المراسيم، ويزينون به الصحون والمشكاوات وعلب المصاحف...

مصر سبعة أيام بلياليها، خاير ابـن ملبـاى، والمصـيلحي، وإيزنهاور، ومخالي الذي يغش الخمـر، والـدركي الـذي يجرجرني وأبطالي إلي المخفر القريب لأنظف مرابط الخيل.

وأنا أسكر.. وأبطالي يسكرون... فأنت حيـث تسـكر تكون حراً ، يخف ضغط البخـار المحبـوس علـي فـروة الرأس،وتطل زهور العالم البيضاء وتتخلص من مطاريـدك بأن تحيل نفسك خروفاً وتندس بين أحضان زوجة الـدركي كما فعل إسكافي المودة.

وأنت حين تسكر لا تكذب ولا تحلم، لأنك تعيش الحلـم فعلاً . وحين أسكر – أو يسكر أبطالي – نشـعر بالأمـان: تتلاشي أصوات سنابك الخيل التي تطاردنا من داخلنا ومـن خارجنا. نجد فسحة من الوقت لنجلس، يهدأ لهاثنا.. ونتأمـل جمال السماء وحين نأمن، نتحدث عن المطـاردة، ونـروي أقاصيصها. أحكي لأوغاد (الأتيليـه) و (ريـش) و (مقهـي الحرية) ما جري طوال اليوم: المخبرون الذين تحرشوا بي، والسيارات التي كادت تدهمني، وإعلانات أمريكانا التي تكاد تفقأ عيني، يهمس وغد: بارانويا.

ذلك أن أحداً منهم لم يكن أبطاله، وأبطال أبيهم ليسـوا أبطالي: تاريخانيون هم. تخلق الواحد مـنهم عبـر عقـود وقرون، يتخلق أمامك – حين أحكيه – محسوسـاً، وتقـرأه وتجلس معه وتحدثه فإذا مددت إليه اليد: شف فأصبح رمزاً.

أنا أيضاً (شخص/ رمز)، أنت لا تلتقي بمثلى كثيرا . فإذا لقيتني يصعب أن تنساني، وسوف تصدر بالقطع حكمـاً رديئاً علي (وقد تحبني. هذا يتوقف عليك). ويـوم يعتنـى مؤرخ ابن كلب بجمع أقوال الناس عني فسوف يكتب: تفاعل اجتماعي رديء.

لدي سؤال وتوضيح: أيستطيع متفاعل ردئ أن يلـتقط من قاع دنيا السوق ما التقطت من نماذج؟.

أما التوضيح: كنت أنا نفسي، ولم يكن بعـض النـاس أنفسهم، لذلك تصادمنا، أنا لم أتقمش بالكفن.

ولأني نفسي، فأبطالي أنفسهم، وتلك مشـكلتهم – كمـا كانت مشكلتي، فأنت حين تكون نفسك تكون حراً ، وترفض أن تجوع أو تطارد، وهي مطالب- رغم بسـاطتها – تنشـد عالماً غير هذا العالم، وهذا ما يجعلني (شخص/ رمز) كما أن أبطالي (شخوص/ رموز).

حين كان الزمن حرباً ولدنا، فدونوا في خانة الظروف المخففة أننا من جيل كان رضيعاً يوم خرج آباؤه يسـألون عن الخبز، ويرحبون ب (روميل) فما ظهر الخبز وما تقدم روميل. وقد تسألون: أثمة علاقة بين الخبز وروميل؟ أقول: كالعلاقة بين عم الطاهر عبد ا عبد الفتاح يحي باشا. هـي الحرب سادتي، تختل فيها الأوضاع وتنعكس الطباع كما قال شيخنا الجبرتي.

لقد توحدت شخوصي في.. توحـدت فـيهم. وحيـث اعترضت الطوبة اللعينة السيارة فكسرت جمجمتي، حرصت علي ألا يتسربوا من داخلها مع الدم النازف. وجئت بهم معي شهوداً علي ما جري.

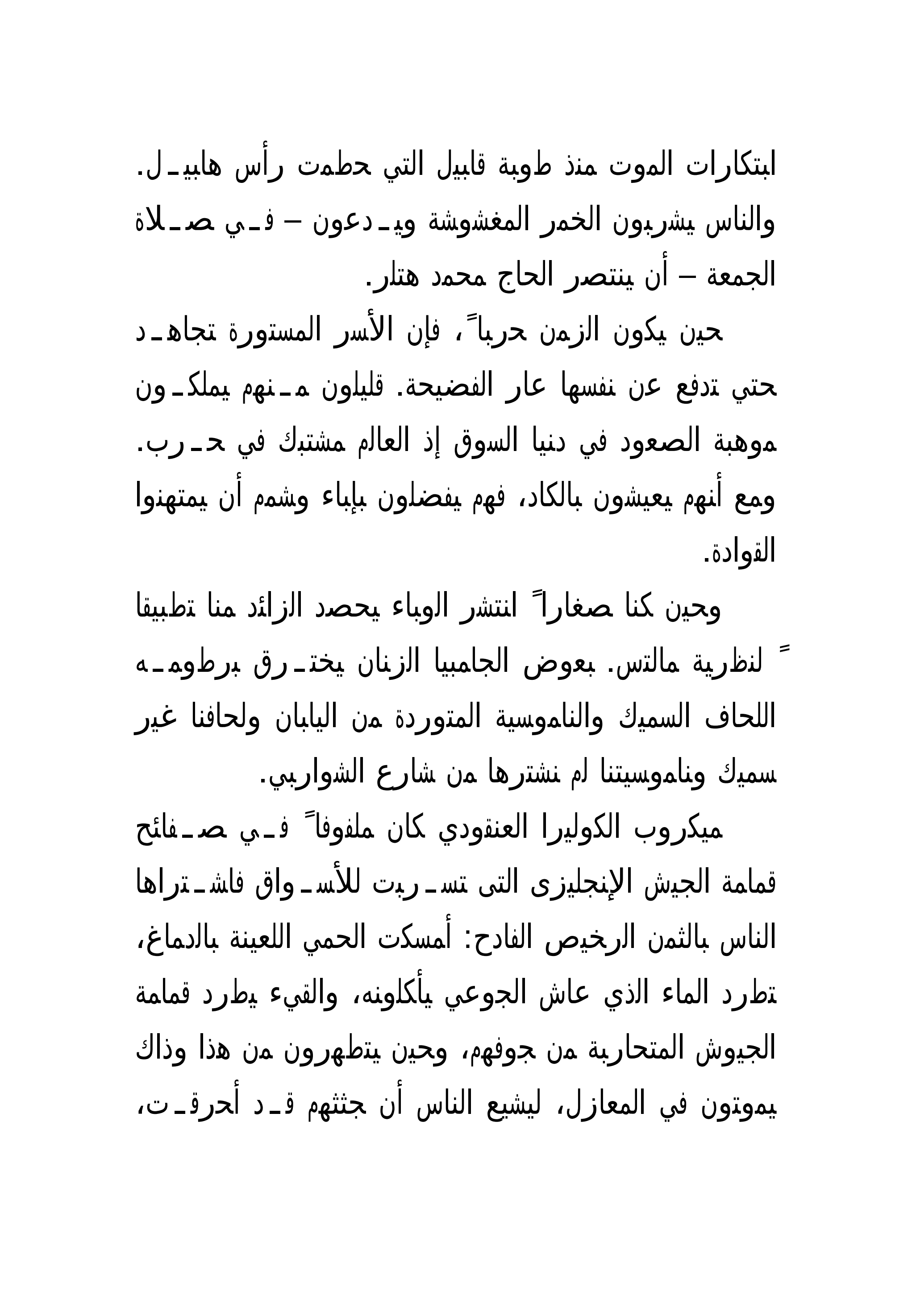
اعترافات شاهد من جيل الستينات:

وحين كان الزمن حرباً شح الخبز ونقص الأدام، وكثر في حياة مخالي الكـلام: الفاشـية والنازيـة والديمقراطيـة والماركسية، النحاس والملك ولامبسون، ٤ فبراير (١٩٤٢) و ٢١ فبراير (١٩٤٦) ا اكبر و الحمد. القرآن دستورنا والرسول زعيمنا والموت في سبيل ا أشـهي أمانينـا، ا أكبر والمجد لمصر مصر والسودان لنا وإنجلترا إن أمكنـا.

تشرشل وروزفلت. هتلر وموسوليني، بيتـان ودي جـول. الحريات الأربع والنقط الأربع.

جنود مجهودون يعيشون في ظـلال مـوت، يعـانقون العبث والقسوة واللاجدوي. أفريكان وأمريكـان وسـنغاليون وهنود وإنجليز ومن كل ملة حانـات مزدحمـة بعواطـف محمومة لكنها كالخمر مغشوشة، في خطاب العـرش بقـول الماك كل مرة: وستعمل حكومتي بإذن ا علـي محاربـة الأعداء الثلاثة الجهل والفقر والمرض. قال سعد زغلول قبل أن يموت: كانت غلطتنا أن صدقنا أننـا مسـتقلون. وقـال النحاس: إحنا تعبنا يا ست...

باشاوات كلاسيكيون يراهنون علي الخلفاء لإنهم تعبوا. وباشاوات مجددون يراهنون علي المحور أو يحلمون ببلـد الكوكولا والشـكلس وإيزنهـارو وهيروشـيما ونجـازاكي (دونوهما أيضاً في خانة الظروف المخففة)، وشبان يهتفـون للخبز والحرية ويتحدثون عن ستالينجراد، ويربون شـوارب كثة. يتحملون قسوة العصي تنهال بها عليهم أيـد عصـبية تهتف: الموت في سبيل ا أشهي أمانينا، عالم يلعب بالسلام، ويفجر القنابل وقناديل الماغنسيوم. المخزن رقم ١٣ ملئ بكل


ابتكارات الموت منذ طوبة قابيل التي حطمت رأس هابيـل. والناس يشربون الخمر المغشوشة ويـدعون – فـي صـلاة الجمعة – أن ينتصر الحاج محمد هتلر.

حين يكون الزمن حرباً ، فإن الأسر المستورة تجاهـد حتي تدفع عن نفسها عار الفضيحة. قليلون مـنهم يملكـون موهبة الصعود في دنيا السوق إذ العالم مشتبك في حـرب. ومع أنهم يعيشون بالكاد، فهم يفضلون بإباء وشمم أن يمتهنوا القوادة.

وحين كنا صغاراً انتشر الوباء يحصد الزائد منا تطبيقا ً لنظرية مالتس. بعوض الجامبيا الزنان يختـرق برطومـه اللحاف السميك والناموسية المتوردة من اليابان ولحافنا غير سميك وناموسيتنا لم نشترها من شارع الشواربي.

ميكروب الكوليرا العنقودي كان ملفوفاً فـي صـفائح قمامة الجيش الإنجليزى التى تسـربت للأسـواق فاشـتراها الناس بالثمن الرخيص الفادح: أمسكت الحمي اللعينة بالدماغ، تطرد الماء الذي عاش الجوعي يأكلونه، والقيء يطرد قمامة الجيوش المتحاربة من جوفهم، وحين يتطهرون من هذا وذاك يموتون في المعازل، ليشيع الناس أن جثثهم قـد أحرقـت،

فتزدحم الطرقات المتربة بالهاربين يحملون القفـف ويلفـون الوسائد في الحصيرة، يبحثون عن أرض لا تحـرق جثـث الموتي ولا جثث الأحياء، يحاصرهم جنود الهجانة. تنهـال السياط علي أبدانهم المحمومة. إلي المعازل يعودون يبتلعون فصوص الثوم وحبوب الكنين، وينزون طوال الليل عرقـاً وقيئاً حتي الموت: نصيبهم الوحيد من ثروة وطنهم.

صدفة محضة أنا نجونا من الفاشية والنازية وفلتنا مـن منجل الوباء ومن إشعاعات قنبلة هيروشيما، فاذكروا هذا إذا ما جلستم علي منصة القضاء، وعـوجتم الطربـوش علـي ناحية، ذلك أننا أبناء القهر ندعي، وقهرنا كان كونيـاً ولـي محلياً.

نحن أيضاً كنا نحلم، فأبعدوا نصوص (زادنوف) مـن قانون العقوبات النقدي. دفعنا أهلونا إلي الكتاتيب لعلنا نفلـح فنسند ظهورهم التي أحنتهـا الحـرب، نرتـدي البنطلـون (والزاكتة) ونضع علي رؤوسنا طربوشـاً يقينـا ضـربة الشمس، ونتقاضي، آخر الشهر، مرتباً ثابتاً. وليس كثيـراً علي ا أن يكون ابن عم لطاهر عبد ا ، (باشا) كعبد الفتاح يحيى، أما نحن فكنا نحلم بخبز المدينة الطري، وبالطعميـة

والحلاوة الطحينية وفي الذاكرة صور للسياط التـي تكـوي الظهر والنساء اللواتي متن قهراً وجوعـاً، والجـدة التـي تروي الأساطير، والراوية الذي يغني علي الربابة.

وحين زحفنا من (القرى/الشقوق) إلي المدن الكبيرة، لم تمنعنا عساكر الهجانة، جئنا في الدرجة الثالثة لأنه لا توجـد درجة رابعة بالقطار. علي ظهورنا قفف البتاو وزلع المـش والأرز المعمر بلا شئ، تسربنا في الغرف السـطوحية فـي الحارات الخلفية. نقرأ كتباً مدرسية وكتباً صفراء، وكتبـاً بيروتية، وكتباً مترجمة والدنيا قد تغيرت: الحرب السـاخنة صارت باردة. والملك فاروق غار في داهيه والنحاس فـي الإسكندرية يعانق الصمت والوحـدة بعـد أن قـال كلمتـه الأخيرة.

- مالكوش دعوة بالعسكر... دول زي دبابـة طالعـة جبل، اللي يقف في وشها تدوسه، حتطلع لفوق... وتقع مـن هناك تدشدش!

حين قرأنا (أرض) الشرقاوي، لم نهتم كثيراً بمن قالوا إنه نقلها عن (أجنازيو سيلوني). بطرف اللسان عرفنا طعـم قرانا علي صفحاتها. كانت (وصيفة) بوابة حضانة كما كانت

(زينب) لكن قرية (زينب) لم يكن فيها رجال ينزفـون مـع البول دماً وصديداً وتتبخر الحياة من أجسادهم عرق حمي، أما (يوسف إدريس) فقد علمنا أن القصص يمكن أن تحكـي عن ناس كالذين عشنا ونعيش معهم.

لم نكن نعرف شيئاً عن (ريري) ابنة عبد الرحيم بـك فتحي أحد كبار مهندسي وزارة الأشغال. ولم يخطرنا أحـد بموعدها مع حبيبها إذا القمر بدراً بين غابات النخيـل فـي عزبة النخل، شاهد اللقاء كان (محمـود كامـل) المحـامي والقصاص.

بطلة (النظارة السوداء) كانت متمصرة لم نلتق بمثلهـا في قرانا، أوفي خيالنا، لذلك تصببنا علي أسطر النقط التـي تفصل بين ضرب حبيبها لها واستسلامها له.

في قصص (يوسف إدريس) التقينـا بالنـاس الـذين نعرفهم. بالخادمة التي تحمل صواني الكحك وتتأمل نظيراتها تلعبن بالكرة في الشوارع. بالمجنونة التي خلع ثيابهـا فـي القطار ووقفت عارية تهتف بحياة الملـك وسـقوط الـريس إسماعيل أبو بطة.

زعيم الثورة ينحدر من صـاب وكيـل مكتـب بريـد الخطاطبه، ويشيع الباشـوات أن الإذاعـة منعـت أغنيـه (السوطجيه اشتكوا من كتر مراسـيلي)، مـع أن الصـحف نشرت صور البيت الذي كان يسكنه فـي حـارة (خمـيس العهد). أولاد المستورين يتقدمون ليحكموا الـوطن ويحمـل الاستعمار عصاه علي كاهلـه ويرحـل. ألغيـت الألقـاب والطرابيش وغني المونولوجست محمد الجندي (وا وحركة وفيها البركة.. يحيا اللي فيها اشتركا (مجلة (الغد) القديمـة. (الأدب في سبيل الحياة). كتب فى دار الفكـر ودار النـديم وشعار: الثقافة معركة. جناح حديتو في مجلس الثورة. خمس والبقري. محاكمة خاف بغداد وصفقة الأسـلحة التشـيكية، صوت عبد الناصر المشروخ مـن فـوق منبـر الأزهـر والطائرات تئز في سماء المدينة. حنحارب... حنحارب.. كل الناس حتحارب). الشرقاوى وإدريس والعالم ولويس عوض وعبد العظيم أنيس وكمال عبد الحليم وإبراهيم عبـد الحلـيم وإبراهيم عامر وإسماعيل المهدوي.

أولاد المستورين يتقدمون ليحكموا الوطن: تأملوهم جيداً فهؤلاء هم الذين أنجبـوا المشـايخ المهـدى، والـدواخلي

والشرقاوي والسيد عمر مكرم. من أسرة مسـتورة (ثمانيـة أفدنه ونصف) جاء عرابي، ومصـطفي كامـل (باشـويته مزورة. أفنديا كان أبوه) وسعد زغلول (له أخت اسمها ستهم وأخري اسمها فرحانة) والنحاس (محمد أفندي النحاس تاجر بسمنود) وابن وكيل مكتب بريد الخطاطبة الذي كان معجبـا بأبطال الإتحاد والترقي فسمي ابنه جمال باشا.

قومسيوريون نحن المسمون بالبرجوازيـة الصـغيرة: جاهزون دائماً للتحدث باسم التقاليد والعـادات، محـافظون ومتمردون، وخائفون دائماً من الوقوع في هوة الفقر، ننجو من الأوبئة ومنها وباء الأمية. ندرس ونقرأ ونتعلم وقد نعي، أنذاك، علي كل لون تجدنا: فاشست وشيوعيون وبرجوازيون وأمريكان وصهاينة، تلتوى رقابنا من النظر لفوق. نسيج في التاريخ العربي المميز، تلعب دورا يستحق وقفة مؤرخ جاد: فنحن قومسيونو لعبة الصراع الإجتماعي، نحن البرجوازيـة الكبيرة ونحن البروليتاريا، ونحـن الفـن المحـافظ والأدب الملتزم، ونحن المظاهرات التي هتفت: مصر والسودان لنا.. وإنجلترا إن أمكنا، وصاحت: إلي أمام يا روميل.

وحين كان الزمن عبد الناصر، عجننا ابن وكيل مكتـب البريد في خلطة واحد، فاشست علي شيوعيين إخوان علـي أمريكان علي برجوازيين. وسك منا عملة اسـمها: الاتحـاد والنظام والعمل، وهيئة التحرير والاتحاد القومي والاشتراكية الديمقراطية التعاونية والاتحاد الاشتراكي والاشتراكية التـي هي علمية من واقعنا.

واحترنا نحن، حتي غنت صباح (من الموسكي لسوق الحميدية أنا عارفة السكه لوحديا) فإذا بـأولاد المسـتوردين يصبحون قياصرة يفتحون الأفواه بحياة عبد الناصر، (وفرج ا الحلو) الذي أذابه (عبد الحميد السراج) في الأحماض ولم تبق منه سوى رغوة علي سطح الحامض.

انضم أولاد المستورين إلي التجار وأخذوا قوميسـيرية تجارة الموسكي وسوق الحميديـه، أمـا نحـن، فسنصـبح شيوعيين، لم يبذل أحداً مجهودا جديداً لتجنيدنا، ولم يختلف الأمر عما كان عليه قبل ذلك: فنحن نفس الشلة، نقرأ ونكتب ونحضر اجتماعات الخلية، ونلتقي دائماً في مقهي إيزافتش. ونتبادل مطبوعات التنظيم، وننسخ الكتب الماركسية، ونتبادل أنباء ما يجري في الواحات وأبـو زعبـل، ونمـارس لـذة

الإحساس بالمطاردة، ونؤكد لأنفسنا بصوت عال بأننا للشعب ننتمي.

نجيب محفوظ، ما بعد الثلاثية، خاصة (اللص والكلاب) هو عالمنا المطارد المحاصـر المحـبط الـذي يحـيط بـه المخبرون.. هو الذي يمنحنا أسماؤنا الحركية التي نمـارس بها لعبة النضال، تقاسمت أنا ويحي اسم (سعيد مهران) دون اتفاق مسبق وعرفت فيما بعد أنه اختار اسم سعيد ولما كنت قد سقته فأخذت الاسم لنفسي فقد اكتفي باللقب.

كانت يد ا قد دفعتنا في التجربة فوجدنا أنفسـنا بـين مصراعي عقد الستينات، السجون والمعـتقلات وقـرارات يوليو ١٩٦١، وانفراجة ١٩٦٤ الديمقراطية وقرارات الحل: حطمت المعبد الذي عشنا زمن الحلم بـين جدرانـه. ويـوم نشرت (الأهرام) قرار حل (الحزب الشيوعي المصري)، قال شاعر من خريجي الواحات:

- أنا سأقاضي الحزب، أين اشتراكاتي.... أم أن أموال التنظيم قد انتقلت إلي الاتحاد الاشتراكي.

حين تأملنا الأمر بعد ذلك أدركنا أننا لم نتمـرد علـي أولاد المستورين إلا كما يتمرد عليهم بعضـهم. وأننـا لـم

نستطع أن ننفيهم من جلودنا، وحين هزم عبد الناصر عـام ١٩٦٧، هزمنا معه، وتلون عالمنا بالفجيعة، كنا نهتـف دون أن ندري بحياته، كما فعل شهدي عطية الشافعي، وكما وقف (عبد المعطي حجازي) وهو في زنزانته يهتف بحياته، لأننا هزمنا حين هزم، فقد مات بعد أن ضيعنا صغارا وحملنا دمه كباراً. وامتلأت حانة (مخالي) بالتجـار الكبـار، يبيعـون عرض البنات وعرض الوطن، ويتمخطون في علم البلاد.

نحن في الواقع كنا مشوقين للانتماء للوطن وللشـعب، ونحن حاولنا ذلك، فسجلوا في خانة الظـروف المخففـة أن جيلنا صدع رأسه. بالبحث عن الفلكلور واستلهامه حتي شعر أن العامية بدأت في أوائل السـتينات دعـوة للكتابـة بلغـة الشعب،وتطرفنا فبدأنا نكتب قصصا بالعامية، وتحدثنا عـن اللغة الطبقية حديثاً لا يخلو من فجاجة، ثم أنقذنا (سـتالين) في مؤلفه، (الماركسية وعلم اللغة)، ونحن مـدمنو قـراءة الكتب الصفراء من مكتبة محمد علي صبيح: حمزة البهلوان وسيرة عنترة وسيف بن ذي يزن والهلالية. تقودنـا رغبـة للتوحد بذلك الكائن المقدس إذا نحن في العمر الرومانسـي: الشعب، ويوما بعد آخر نكتشف أننا لسنا هو. نتدحرج مـن

الزحام إلي الشلة إلي الخلية التي نمـارس لـذة المطـاردة. نغترب إلي الرفاق المنفيين كأننا ننتظر المهدي المنتظر. ولا نستطيع أن نتخلص من انتمائتنا الظاهرة عبد الناصر، وبعـد أعوام يتعقد شعر العامية، ويدق فهمه علي المثقفين ويمتلـئ برموز سيزيفية وأساطير إغريقيـة، وتضـيع هـدرا تلـك المناقشات المجهدة التي جعلتنا نتحمس للفن التعليمي الـذي دعي إليه ماوتي تونج في (مشكلات الأدب والفن).

نحن في واقع الأمر عينة صالحة لدراسة أثر القهر علي الأدب والفن، والمهم علي الإنسان، فنحن كنا مطاردين مـن الداخل: بأحلام أهلنا أن نصبح أفنديـة، بـذكريات الوبـاء والهزيمة ولا تنسوا ١٩٤٨ و ١٩٦٧، بكتب قرأناها، برفاق حلمنا بهم. بعجز يمنعنا أن نكون من الشعب حقاً. مطاردون من الخارج. بالمخبرين وأصحاب العمارات ورؤساء تحرير الصحف ومقالات هيكل وسياط ضباط المباحث العامة فـي معتقل القلعة ١٩٦٦. وحلقنا المسكينة التي لم تزد عنا نحن. ولم تمنحنا أكثر من الإحساس بأننـا رفضـنا مـا يجـري وعجزت – أو عجزنا نحن – أن نمدها للشعب الذي نحلم به ونفكر فيه، لأننا أبناء المستورين ندعي.

٣- البشارة:

زراني إسكافي المودة في حجرة الشهود بالمحكمة. قال.
حاسب نفسك علي سوء فعالك. ضم القبضـة وأشـهر السبابة. بذا تكون قد صنعت مسدسك المميت.

مختارات
من الحياة اللذيذة

((... وهكذا بدأ السفير الجديد.... (تعبيـد) العـرب.. للرب الأمريكي).

في صيف ١٩٤٣ امتلآت صحف القـاهرة بإعلانـات ضخمة تبشر بمولد مجلة جديدة هي (المختار من ريـد رزد إيجست)[1]... وهز اللذين قرأوا الإعلان رؤوسهم في عجب: مجلة جديدة؟! ذلك أن الصحافة المصرية كانت تعيش – في ذلك الوقت – قمة أزمتها. فمصر بلد لا تصـنع – إذ ذاك- الورق، والحرب الكونيـة الثانيـة، قـد مزقـت خطـوط المواصلات بين العالم، فلم يعد ممكناً أن تسد سوق الـورق في أوربا حاجة الصحافة المصرية منه، وحتي لو لـم يكـن

---

[1] نشرت هذه الدراسة لأول مرة بمجلة (الحرية اللبنانيـة) فـي عام ١٩٦٥، وأعيد نشرها في جريدة (المساء) القاهرية ، فـي يوليـو ١٩٦٧ ، في أعقاب الهزيمة، وأسفر النشر الثاني لهـا، عـن توقـف الإصدار للمختم ، الذي كان يصدر آنذاك عن دار أخبار اليوم.

ذلك الحائل قائماً ، فإن معظم مصانع الورق في العالم كانت قد تحلت إلي الصناعة الحربية، وبسبب الأزمة الطاحنة فـي أسعار الورق وفي وجوده، استولت وزارة التموين المصرية علي كل ما يستورد من ورق الصحف وبدأت توزعه بنظام خاص كان يقضي بأن تصدر الصحف اليومية سته أيام فقط في الأسبوع، علي ألا تزيد صفحات الجريـدة عـن ثمـان صفحات، تباع بعشرة مليمات، وهو نصف عدد الصـفحات الذي كان شائعاً قبل الحرب، وضعف ثمن البيع، ومعني هذا أن الحرب قد رفعت سعر الصحف إلي أربعة أضعاف، ومن ناحية ثانية فإن الشركة العالمية الكبري – التـي تحولـت إذ ذاك إلي الانتاج المدني،وبـذلك كلـه تعرضـت الصـحف المصرية لهزات اقتصادية كثيرة، ولولا أنها جمعيها كانـت تستند إلي أحزاب سياسية وتعوض خسائرها من خزائن تلك الأحزاب لتوقفت جميعها عن الصدور.

وعلي الرغم من كل هذا، فإن (المختار) قد صدر فـي سبتمبر ١٩٤٣، لتكون طبعته العربية هي خامس اللغات التي تصدر بها مجلة الريدرز دايجست، وحسب ما جاء في ظهر الغلاف فإن المجلة الأمريكية الشهيرة كانت تصدر قبل ذلـك

باللغات الإنجليزية والإسبانية والسويدية والبرتغالية الأمريكية وبريطانيا ومصر والصين واستراليا، والطبعة الإسبانية تباع في ثمانية عشر بلدا من البلدان المتكلمة باللغة الإسبانية فـي أمريكا اللاتينية، والطبعة البرتغاليـة تبـاع فـي البرازيـل والبرتغال، والسويدية تباع في السويد، وصـدرت الطبعـة العربية لكي توزع في مصر وفلسـطين وسـوريا ولبنـان وشرق الأردن والعراق والمملكة السعودية والـيمن وسـائر الجزيرة، ووصفت (المختار من الريدرز دايجسـب) نفسـها بأنها (المجلة التي يقرؤها ١٢ مليوناً مـن البشـر، وهـي أعجب المبتكرات الأمريكية. بدأت كفكرة فـي عـام ١٩٢٢ أساسها – كما تقول (المختار) نفسها في عددها الأول – (أن ما تصدره المطابع كل شهر من مجلات عامة وفنية خاصـة وكتب، تتعذر مطالعته كله، والإفادة منه علي كائن من كان، ومطالعة هذه المجلات والكتب، وإختيار أجودها، وتلخيصـه وإباحته لمن يريد، فكـرة عظيمـة، أن محـررى المجلـة يطالعون عشرات الكتب الجديدة التي تصدرها المطابع كـل شهر ويختارون أجودها وأهمها شأناً وأقومهـا أدبـاً ، ثـم

يلخصونه تلخيصاً يحـوي لبـاب الكتـاب وروح كتابتـه وأسلوبه)

وبصدور الأعداد الأولي من (المختار) وضح أن هناك أسرار تختفي خلف هذا الضيف الجديد علي عالم الصـحافة العربية. فقد صدرت (المختار) – في ١٨٠ صفحة طبعـت علي ورق ستانية فاخر وأحيانا كانت تطبع كلها علـي ورق كوشيه، أو يحتوي العدد علي الأقل، ملزمة أو ملزمتين منه، أما الغلاف فهو كوشية ملون، وطبعة مـن الـداخل بثلاثـة ألوان. كل هذه الوجبة الدسمة كانت تبـاع بثلاثـة قـروش مصرية فقط.

وارتبط اسم المجلة- آنذاك – بإسم رئـيس تحريرهـا ومديرها العام الأستاذ (فؤاد صروف) وهو واحد من أبنـاء (المقطم) العزيز. ولم يكن الناس قد نسوا بعد كلمـة اللـورد (كرومر) – أول ممثل للاحتلال الإنجليزي في مصـر – أو حكمته التي قال فيها:

-(إنني أستطيع أن أحكم مصر بخمسـين جنـديا فقـط ومعهم جريدة (المقطم).

ذلك أن المقطم كانت بما تعبر عنه من أفكار أغني من جيش مسلح.

وهكذا صدرت (المختار) لتكون طليعة للنفوذ الأمريكي في الوطن العربي، ولكي تبشر بالسيد الجديد الذي كان يطمع آنذاك في الحلول محل دول الاستعمار التقليديـة، ووراثـة تركتها من المستعمرات، وعلي رأسه الأمة العربية.

كانت سنوات الحرب الثانية قد خلقت في مصر فئـات اجتماعية جديدة، فعشرات الألوف ممـن التحقـوا بخدمـة الجيوش المتحاربة، وذا قوا أموالها التي كانت تطبع بـدون غطاء ذهبي، وتصدر بدلا منهـا سـندات علـي الخزينـة البريطانيه، وهكذا خلقـت الحـرب، أنماطـاً مـن عمـال المعسكرات والذين يوردون لها ما تحتاجه، والذين يعيشـون علي خدمة الجيوش المتحاربة، أو ينشطون في مجال الترفيه عنها، أو يعملون علي هامش هذا كله، وهي أنمـاط تولـدت لديها رغبات عارمة للتطلع إلي مجتمع السادة المسـتعمرين، بكل ما يميز السادة من شـهوات دنيـا: الخمـر والنسـاء والملابس الأنيقة والسينما والمسرح وأيضـاً - ولاسـتكمال مشاعر السيادة- القراءة.

ولأن القسم الأكبر من تلك الفئات لم يكن قد تلقي سوى تعليم بسيط لا يتعدي أولويات القراءة والكتابة، فقد وجدت في (المختار) طلبتها، فهي مجلة خفيفة ومسـلية، وطريفـة، لا ترهق تفكيرها، ولا تزعجها أو تـوقظ مشـاعر الإحسـاس بالذنب في نفسها. وكانت هناك أيضاً تلك الفئات التي بدأت تري أن (أمريكا) هي القبلة التي ينبغي أن تتجه إليهـا، وأن حل المشكلة الكونية للشعوب العربية بعد الحـرب، سـيكون بواسطة (واشنطون) خاصة وأن الاستعمار النازى كان قـد لفظ أنفاسه، ولم يعد هناك أمل في الحصول علي مساعدته.

وكان هناك الذين يودون قراءة أي شئ.

من هؤلاء جميعاً تكون أصدقاء المختار، بعد أن قدمت نفسها لهم بشعار حسي يتواءم مع ما جاءت تبشر بـه، هـو (في كل مقالة لذة دائمة).

وتساءل الناس: لمن؟!

وسرعان ما بدا واضحاً أن السياسـة الأمريكيـة قـد أحسنت اختيار سفيرها للأمة العربية، ذلك الذي جاء يبشـر بالسيد الجديد الفتي، الذي سيحل محل السيد القديم المنهـار، سواء كان إنجليزياً أم فرنسياً، برتغالياً أم إيطالياُ، وكانت

أمريكا – التي دخلت الحرب الكونية الثانية متـأخرة بعـض الشئ، تدرك أن دول الاستعمار القديم سوف تتدمر جميعـاً في الحرب، وأنها بمواردها، وبشبابها الاحتكاري قادرة علي الصمود، ومؤهلة دون غيرها لقيادة الجبهة الإمبريالية، لذلك أرسلت سفيرها الممتاز والمقتـدر (المختـار مـن ريـدرز دايجست) ليحرث الأرض، ويمهدها، لكي يسحب البساط من تحت أقدام الإنجليز في مصر والعراق وفلسطين والسـودان ويلتهم الشاة من بين أنياب الفرنسيين، وينفرد بالليبيين دون الإيطاليين...

وهكذا جاءت (المختار) لتصوغ (وعيا جديدا) للشـعب العربي، وعيا يجعله يقبل السيد الجديد بكل ما فيـه: نظامـه الاقتصادي، (وأيد يولوجيته، ويستنيم للعبودية ويعترف لـه بالتفوق الكامل في كل شئ..

وهكذا بدأ السفير الجديد مهمته في (تعبيد) العرب للرب الأمريكي..

وكان لا بد أن تبدأ (المختار)، بتقديم تفسير للحرب التي كانت تنوء بكلكلها علي الجماهير العربية الكادحة، حتـي لا تربط هذه الجماهير بين الحرب وبـين الرأسـمالية كنظـام

اقتصادي يقوم علي السعي للربح، وينتهي بالصـراع علـي الأسواق، وهو ما تخلصت منه الدعاية الأمريكيـة بـذكاء، فأرسلت (المختار) لكي يلقي بتبعة الحرب العالميـة الثانيـة علي الشعب الألماني، بدعوي أنه شعب ذو طبيعة محاربـة، وأنه قد أشعل خمسة حروب كبري في مدي قرن من الزمان، منها حربان عالميتان، وأن حماية العالم من الحروب رهـن بقهر الطبيعة الحربية التي يتميز بها الشعب الألماني، وليس بالقضاء علي الرأسمالية، كنظام يولد الحروب العدوانية، وفي بعض الأحيان كان المختار يلقي تبعة الحرب علي (هتلـر) شخصيا، باعتباره إنسانا عدوانيا شاذا، وكأن الحروب- حتي العالمية منها – مصادفات تنتج من جوف القـدر. وليسـت طبيعة ملازمة للنظام الرأسمالي.

وبدأت (المختار) تمهد الأرض العربية أمام الدور الذي كانت الاحتكارات الأمريكية تعد نفسها لكي تلعبه بعد الحرب فبدأت حرب الدعاية المغرقة في المبالغة والذكية في الوقـت ذاته تحتل صفحاتها عن الجيش الأمريكي: قوتـه البالغـة، انتصاراته الفذة، تلك الإنسانية العميقة التي تملأ قلوب أفراده حتي نحو أعدائهم، فأفردت الفصول الضافية للحـديث عـن

الأسطول الأمريكي، وسلاح الطيران الأمريكـي، و (بيـرل هاربر) الدامية، كأن معركة لم تدر في الحرب سوى (بيـرل هاربر)، ومن خلال تلك الفصول الضامنة بدا وكـأن كـل النضال العالمي من أجل قهر الاحتكارات الألمانية، صـنعته الجيوش الأمريكية، وكأن أمريكا هي التي حمت العالم، وهي التي انتصرت له.

وفي وسط هذا الركام من الحكايـات، اختفـت أنبـاء المقاومة الفرنسية الباسلة ضـد النـازى، واختفـي دفـاع (ستالينجراد) العظـيم ضـد الغـزو الألمـاني، وضـاعت الانتفاضات الوطنية، التي ظلت تقاوم الاحتلال النازى فـي أوروبا وآسيا، وأهملت كل المساعدات، التي قدمتها شـعوب العالم، لجيوش الحلفاء.

وهذا الفصل الذي طوقت به أمريكا عنق العالم، حـين حمته من النازية هو – في رأي المختار – منحة بلا ثمـن، فالولايات المتحدة – كما قالت في عدد يوليو ١٩٤٦ – تحت عنوان (الترف مهلكة للحضارة) من (هي أول دولة عظيمـة في التاريخ لا تحتاج لأن تسيطر علي أية دولة أخري، وذلك لأن وفرة مواردها تغنيها عن موارد الدول الأخـري (لـيس

هذا فقط بل إنها تصدر المصنوعات الأمريكية إلي كثير من بلدان العالم الظامئ عليها وهو ما أدى – كما قالت المختـار في نفس المقال – إلي رفع مستوى تلك الشعوب).

ولكي يكون السفير الأمريكي الجديد منطقياً مع نفسـه، كان لا بد (للمختار) من تشويه حركة النضال العالمي ضـد الاستعمار، تلك الحركة التي بدأت تتبلور خلال الحرب، وأن تعزل مصر وشقيقتها العربيات عنها، فكتبت المختار – فـي عدد إبريل ١٩٤٤ – عن (سمسطس)- شيخ ساسة جنـوب أفريقيا، معجبة بذكائه وروعة سياسته فقالت:

- في سنة ١٩١٤ لم يكن بد من استعمال القـوة لقمـع معارضة البوير في دخول الحرب، أما في سنة ١٩٣٩ فقـد استبعد (سمسطس) مثل ذلك الاحتفال، بأن طلب إلـي مـن تكون في حوزته أسلحة أن يبيعها إلي الحكومة..

وقد كان من شأن التجنيد الإجباري أن يمـلأ صـفوف الجيش بالعناصر المعادية للبريطـانيين، فاتخـذ سمسـطس سياسة ناجحة لإبعاد هذه العناصر وذلك بـأن طلـب إلـي المطوعين أن يتنازلوا عن حقهم الدسـتوري فـي الخدمـة العسكرية داخل جنوب أفريقيا وحدها، ولم يقبل في الجـيش

سوى الذين نزلوا عن هذا الحق، ولما كانت العناصر الموالية البريطانية لا تقل عدداً أو حماسة عن خصومها، فسـرعان ما وجد أمامه أعداداً ضخمة من المتطوعين).

وينطلق المقال ليتحـدث عـن (سمسـطس) الإنسـان المتواضع الذكي، الصديق المخلـص الصـدوق لونسـتون تشرشل وعن هوايته للحشرات، وكيف وجده سكرتيره منـذ بضعة أشهر (مكباً في ركن مكتبه علي صرصور يفحصه، إذا تبين في صريره نغمة صوتيا تميل إلي أن ينسبه إلي نوع معين غريب غير معروف).

وكان منطقياً أن يتناسي (المختار اللذيذ) كل شئ آخـر عن جنوب أفريقيا: التفرقة العنصرية التي كانت ومازالـت حكومة جنوب أفريقيا تمارسها، الجحيم الـذي يعـيش فيـه الأفارقة، أبشع أنـواع الاسـتغلال الـذي كانـت تمارسـة الاحتكارات الاستعمارية والذي جعل العامل الأفريقي يعـيش بأجر لم يزد خلال ثلاثين عاماً قبل الحرب بنساً واحـداً. الحركة العمالية النشطة التـي هـددت أمـن الاحتكـارات الأوروبية وأقلقت مضاجعها. تلك أمـور لا يخـوض فيهـا المختار، من زميلتها الأفريقية، ففي (باب الكتب) – من عدد

مايو ١٩٤٦ – عرض (المختار) كتابا بعنوان (٤٠٠ مليـون زبون) يروي (مغامرات مسلية لمعلق أمريكي في الصـين)، تحدث فيه عن نساء (شنغهاي) اللواتي تتمتعن بأجمل سيقان في العالم، وكيف أنهن قد بدأن يتأثرن بالغربيات في تقصـي الثياب إلي فوق الركبة، ومن بين مغامراته التي سردها، قال المعلق الأمريكي:

- كانت شركتي التي أنشأتها في شنغهاي للإعلان تحث في ذلك الوقت، علي اقتناء نوع إنجليزي من الدبلان، فخطر لنا أن الفتيات الصينيات إذا قصرن ثيابهن، سيقل ماتشتريهن من الدبلان تبعاً لذلك، ولم يسرنا هذا الخاطر بالطبع.

غير أن حدث لحسن حظنا أن مبتكـري الأزيـاء فـي شنغهاي، اهتدوا إلي حل وسط، فاحتفظوا بالجونلات الطويلة المحبوكة المألوفة، ولكنهم شقوا الجانب الأيسر إلي ما فـوق الركبة، فصارت الخطوة بعد الخطوة تبدي حسن الساق، وقد بلغ من رضا الفتيات عن هذا الزي أنهن في الموسم التـالي شققن الجونلات من الجانبين.

وواصل المعلق الأمريكـي التحـدث إلـي الجمـاهير العربية، روايا مائة حكاية طريفة، عن الصين، فذكر العرب،

الذين (لا شك قد لاحظوا أن آخر فرشاة أسنان استعملها لـم تكن جيدة كآخر واحدة استعملوها) بأن (الحكومة الصينية قد أرسلت جنودها ليستأصلوا شأفة العصابات الشـيوعية فـي تخوم التبت)، ونبههم إلي أن بين الأمرين علاقة ما، ذلك أن (كل فرشة أسنان جديدة تصنع من شعر الخنزيـر، وخيـر أصناف الشعر الذي تصنع منـه الفرشـة الممتـازة التـي تستعملها، تؤخذ من جلود الخنازير البيض في سيشوين وهي المنطقة التي يحتلها الشيوعيون).

فكل ما كان يعني المختـار آنـذاك، أن يطلـع عليـه الجماهير العربية، عن حركة التحرر الوطني العظيمة التـي كانت الصين تخوضها وراء (ماوتسي تونج) هو أنها تحرمهم من فرشاة الأسنان أما نضاله البطولي ضـد الغـزاة التـي جعلتها المختار شعاراً لكل ما تنشر.

ولم تكن أمريكا اللآتينية – بكل انتفاضاتها التي لم تهدأ – أسعد حظاً، في موازين المختار، هذا تقرير من الفردوس يكتبه (ماكس إيسدمان) – في عـدد ديسـمير ١٩٤٤ مـن المختار يحدد للقاري، المكان الذي يحلم به لقضـاء عطلـة طويلة بعد الحرب إن الفردوس هو (جواتيمالا) التي وصفها

السيد (ماكس) بأنها (بلاد الخمارات والنساء و الطبيعة الجميلة وبلاد الريفيات والأسواق المزدحمة، فهي مكان لا يصـلح إلا للإجازة)..

والحقيقة التي أخفاها (المختار) هو أن (جواتيمالا) كانت تموج- آنذاك – بحركة ثورية عظيمة وأن (شركة الفواكـه المتحدة) كانت تلعب الدور الذي تلعبه الشركات الاحتكاريـة في إقامة ديكتاتوريات عميلة في كل بلاد أمريكـا اللاتنيـة، وكان طبيعياً أن يخفي المختار أيضـاً، انتفاضـة الشـعب (الجواتيمالي) التي أطاحت – آنذاك – بـالجنرال (أوبينـوا) الصديق الطريف لأمريكا، وأحد كبار المساهمين في (شركة الفواكه المتحدة المجففة) وأن يتستر علي مؤامرة (ياترسون) السفير الأمريكي في (جواتيمالا) الذي كان يتحرك علناً في الشوارع يحرض الإقطاعيين علي قلب الحكومـة الوطنيـة الجديدة.

وهكذا، لم يقرأ قراء (المختار) علـي صـفحاته كلمـة واحدة... عن (ماوتسي) الشاعر الكـوبي الثـائر، أو عـن (برستس) فارس الأمل البرازيلي، ولم تختر المختار يومـاً، مقال أو كتاب يتحدث عن (ايزاكوا) أو (زاباتا) أو غيـرهم

من أبطال أمريكا اللاتينيـة، لأن (المختـار) لا يختـار إلا الحديث اللذيذ، عن خمارات هافان ونسائها وخمرها وموائـد القمار التي يتكسب منها شعبها السعيد.

وكان ذلك كله منطقياً تماماً يومها – وما زال منطقياً إلي الآن – فليس ثمة ضرورة – في رأي المختار – أن تفتح الولايات المتحدة الأمريكية، عيون الشعب العربي الذي كان يتوثب آنذاك للنضال ضد الإمبريالية والتجزئـة والتخلـف، علي سيرة أشقياء مـن أمثـال (زاباتـا) أو (برسـتس) أو (إيزاكو).. قد يتعلم منهم كيف يتمرد... أو يقاوم.

ولم يكتف (المختار من ريدرز دايجست) بتقديم سـبب مزيف للحرب،والتمهيد للدور الذي كانت الولايات المتحـدة الأمريكية تعد نفسها لكي تلعبه علي مسرح الأمة، ولم يكتف بتشويه حركة التحرر الوطني في آسيا وأفريقيـا وأمريكـا اللاتينية، فذلك هو الجانب المظلم مـن العـالم، الـذي أراد المختار أن يغلق العرب عيونهم عنه، أما الجانب الإيجـابي والمضئ، فهو الإشتراكية الآمريكية.

ولأن الملايين من أبناء الشعوب التـي اكتـوت بنـار الحرب كانوا قد استطاعوا بفطـراتهم وبظـروف الـوعي

المحدود الذي انتشر خلال الحرب العالمية الثانيـة وبجهـود الحركـات الاشـتراكية المختلفـة، أن يصـوغوا أحلامـاً متواضعة بعالم يسوده العدل الاجتماعي، ويتأثرون بـالزحف الاشتراكي علي الصعيد العالمي بعد تعاظم حجم البروليتاريا الصناعية في البلاد المتخلفة والمستعمرات، فقد كان حتمـاً، أن تواجه المختار ذلك، بحلم مضاد هو (اشتراكيه ترومـان الأمريكية).

هذا هو (أريك جونستون) – (الرئيس السـابق للغرفـة التجارية الأمريكية – يكتـب: إن علينـا، (أن نختـار بـين المجتمع الرأسمالي القديم والمجتمع الرأسـمالي الجديـد، إن القديم مثقل بآرائه البالية، الجامـدة ضـد جمـاهير العمـال المنظمة، وضد نشاط الحكومة وضد الإقتصاد الموجه، أمـا الرأي الجديد المتطلع للأمام فهو أن الرأسمالية نظام إنساني، يفوز بالحياة ويسير علي سنن التطور، وفي وسعه أن يلائـم بين أصوله وبين الأحـوال الجديـدة) ويعتـرض (أريـك جونستون) علي التعريف الموجـود فـي المعجـم لكلمـة (الرأسمالية) مقترحاً أن يكون التعريف هو (أن الرأسـمالية نظام اقتصادي يسمح بالمنافسة ويرمي إلـي زيـادة ثـروة

الكثيرين لا زيادة ثروة رجال قلائل فحسـب) (المختـار- أكتوبر ١٩٤٦).

ويعود الكاتب نفسه في عدد يوليو ١٩٤٧، لكي يكتـب مقالاً بعنوان (ينبغي أن يكون للعمال نصيب فـي النظـام الرأسمالي) مؤكداً أن سنوات قد مضت، وأهل التجديد مـن رجال الأعمال يسعون إلي إشـراك العمـال فـي دراسـة المشكلات الخاصة بالعمال، وإعطائهم نصيباً عـادلاً مـن ناتج عملهم وقال: (إننا نتوسل بوسائل خاصة بنا لتحقيق هذا الغرض في شركاتنا، ونظن أن منهجنا يخفف ثورة الجفـاء التي تسود علاقات العمال بأصحاب العمل، بيد أننا نعلـم أن التوفيق يخطئ في هذا المنهج، إذا لم يعن رجال الإدارة أشد عناية بصنع بضائع جديدة تعود بربح وفير).

وفضلاً عن دعوة الرأسماليين لتقديم بعض التنازلات – خوفا بالطبع من الاشتراكية – فقد دعت (المختار) أيضـاً، وبشكل صريح لدمج العمال في بنية الاستثمار الرأسـمالي، من خلال حيلة نفسية يشعرون معها، بأنهم أصحاب المصانع التي يعملون بها، وخلق ولاء لتلك المصانع، وهكذا طرحـت في عدد إبريل ١٩٤٧ سؤالا نصه: (مـاذا يحفـز العمـال

للعمل؟)، أجابت عليه بأن تجربة أجرتها شـركة (وسـترن إليكتريك الأمريكية)، قد كشفت عن أن رفع هذه العوامل كلها لا أثر لها في رفع إنتاجية العمال) فعند المختار، أن في نفس العوامل (سراً هو الطريق إلي الانتاجيـة العمـال)، فعنـد المختار، أن في هذه العوامل (سرأ هو الطريق إلي الإنتـاج الوفير والسلام في المصانع) هو (إشعار العامل بكيانه عـن طريق ربطه بالمصنع، وإشعاره بأنه واحد من جماعة متآلفة همها أن تعين الشركة علي حل مشاكلها).

ولم يكن من النادر أن تهتم (الريدرز دايجست) بهمـوم العرب، ففي مقال بعنوان (العرب يسيرون قـدماً) لمحـرر المختار الطواف (أدورين مولر) المختار سـبتمبر ١٩٤٦ – قدم له (فؤاد صروف) رئيس تحرير الطبعة العربيـة مـن (الريدرز دايجست) بقوله أنه يتضـمن (وصـفاً مشـوباً بالعطف لما يجول بصدورنا من آمال ومـا نواجهـه مـن مشكلات) وفي هذا المقال قال السيد مولر (في خلال الحرب أماطت أمريكا اللثام قليلاً للعرب عن قوتهـا الماديـة، ثـم خرجت ولم يبق هناك سوى ما لشعبها – شعب أمريكا – من مصالح في آبار النفط، وخطوط المواصلات الجوية، ومعاهد

الثقافة والتعليم، والعرب لايرون أمريكا اليوم تبذل سعياً ما لتعينهم علي حل مشكلاتهم الكثيرة، فضعفت مودتهم للولايات المتحدة، ولكن منزلة أمريكا لا تزال عظيمة، فإذا بذلت سعيا متواصلاً ستطاعت أن تفتح لإنتاجها أسواقاً رائجة بين خمسين مليوناً من العرب، فالحاجة ماسة هناك إلي آلات تبريد الهواء، ولكن ينبغي أن تعدل حتي تلائم درجات الحرارة العالية التي تبلغ أحيانا ٦٥ درجة) وختم السيد مولرمقاله (المشوب بالعطف لافتاً النظر إلي أن (مطالب النفع التجاري مطالب قصير النظر فينبغي أن نذهب إلي الشرق الأوسط حين نشد أزر أولئك العرب الذين يحاولون أن يجعلوا من أنفسهم دولاً ديمقراطية حرة)!!

وهكذا وضع السيد مولر النقط علي الحروف، فنحن العرب – في نظرة – مجرد مستهلكين لأجهزة تبريد الهواء الأمريكية، وعلينا أن نعرف قيمة أنفسنا في هذه الحدود وحدها، وأن نشكر الأمريكي العطوف الذي أرسلته (المختار) لكي يطوف في ديارنا، فنصح أهله بتعديل مكيفات الهواء لكي تناسب صحارينا المليئة بالنفط، أما تحررنا من المستعمرين، وجوع أهلنا، لذلك لا يهمه... ولن يهمه يوما..

وعبر هذه الدوائر كانت (المختار) تنطلق، لكي تقـدم للعرب الرأسمالية كحل لمشاكلنا، والارتباط بالولايات المتحدة كشرط لتقدمنا، حريصاً علي أن حركات التحـرر الـوطني اللاهية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، بـل وحركـات التحرر التي انفجرت في داخل أقطـار عديـدة مـن أمتنـا ذاتها...

ولكي يتثقف العرب علي الطريقة الأمريكية، كان عليهم – آنذاك – يقرأوا ما زعمت (المختار) أنه (خلاصـة فكـر وثقافة العالم، وهو في مجموعة لا يخرج عن كل ما هو غث وتافه وسطحي، وبالغ الخطورة).

كان طبيعياً أن يتشرب العرب (البراجماتيه الأمريكية) حتي النخاع، في قضاياهم المصيرية، وفي وجـدانهم وفـي أسلوب مواجتهم للحياة.. وفي نظراتهم للعالم...

ومن خلال مئات القصص الصغيرة، والحكايات التافهة، تسربت (المختار) إلي وجدان قرائها بأطنان من المخـدرات الفكرية الأمريكية علي شكل حكايات ذكية عـن المغـامرين والأفاقين.

- (هل أنت فقير؟).

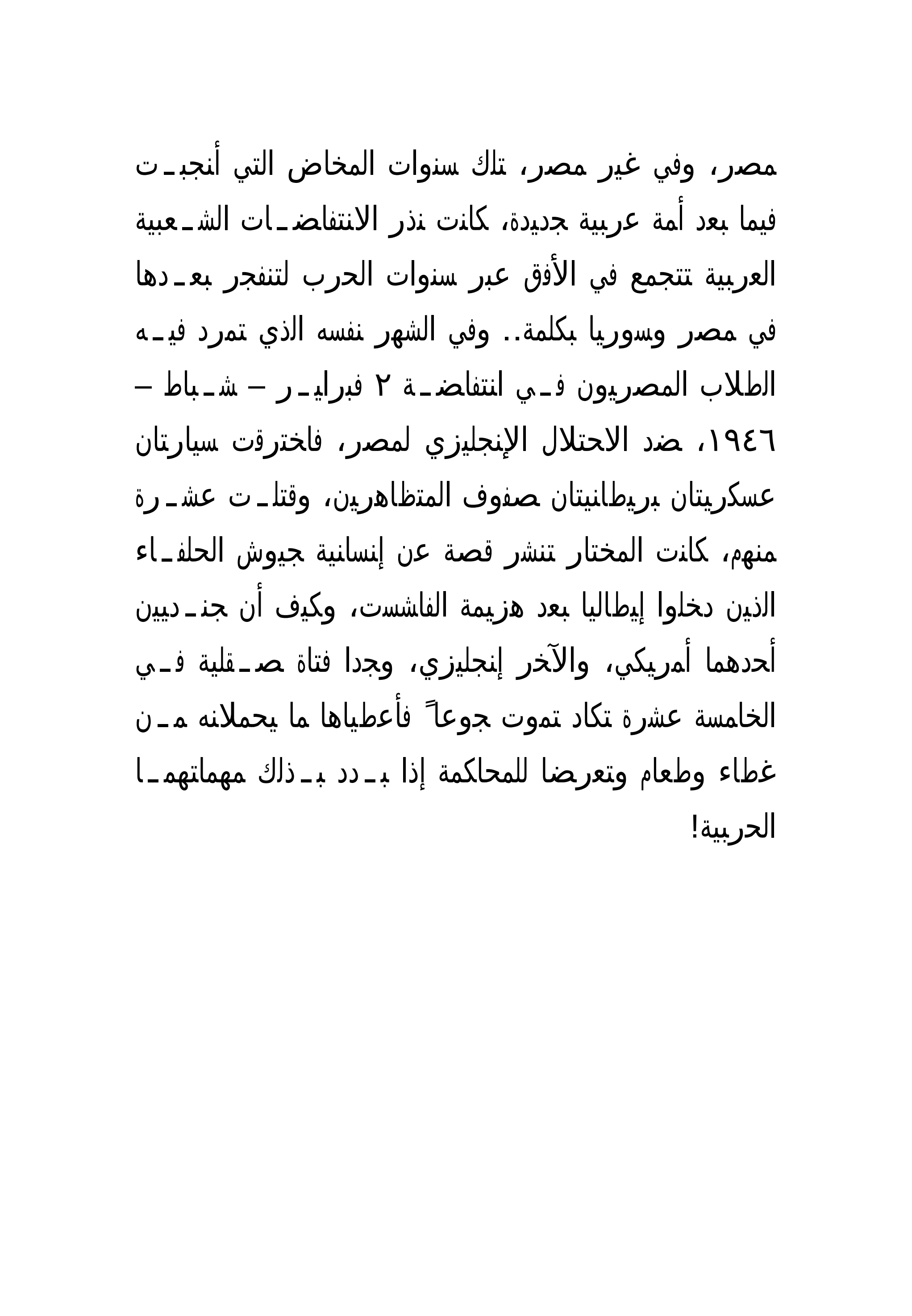
سؤال علي شكل عنوان المقال، أما الإجابة فهي قصـة طويلة تروى حياة (جون وليامز) ذلك الذي كان فقيراً مثلك لا يجد ما يأكله، ثم أصبح ملك الماس في (تنجانيقا).. وهـي حكاية تجيب علي كل شئ، فليجهل فقـراء العـرب سـبب فقرهم، ثم لماذا لا يذهبون إلي هنـاك، يسـتغلون الرجـل الأسود، وينهبون الماس والعاج بنفس شطارة وليامز.

والمختار هو الذي صنع من (موديل كارينجي) أسطورة يتبادل العرب اسمها، ويطيعون كتبها، ولم لا؟ ألـيس هـو الأمريكي الشاطر الذي جاء لكي يعلم كل عربي كيف يكسب الأصدقاء ويؤثر في الناس؟ أليس خبيراً في الانتهازية علـي الطريقة الأمريكية: إذا كنت موظفـاً صـغيرا فـإن السـيد كارينجي ينصحك بأن تنافق رئيسك وتمتدح ملابسه، وأهم ما ينبغي لك أن تلتفت له هو (زوجة المدير) عليك أن تحـرص علي رضاها، وأن تمتدح ذكاءهـا، وأن تعـرض خـدماتك لمرافقتها في السوق، ولا بأس أن تدفع نقـودا مـن جيبـك لتقنعها بأنك قادر علي الحصول علي سـلع بـأرخص ممـا يستطعيه أي رجل آخر!!.

وأهم ما ينصح به (ديل كرنيجي)، العمال والمـوظفين والتكنوقراطيين عموماً، هو (الحصول علي رضا الرئيس).. وهو شعار تستطيع بالقياس، أن تمنح نفسك رخصة بارتكاب كل جرائم الدنيا وشرورها، وبذلك تصل وتـنجح وتصـبح رجل أعمال ناجح، وربما مليونيراً مثل ملـك المـاس فـي تنجانيقا.

والعالم الأمريكي – رأي (المختار) – هو مصدر البهجة الوحيد، لذلك توجع بشدة وهو يروى حكاية (الكوكـاكولا – القصة الحافلة بآيات الشهرة) لأن هناك بلادا تحرم نفسها من هذا السائل الأمريكي السحري، وتساءل في دهشه (عن أثـر صندوق الكوكاكولا الذي قدمـه الجنـرال إيزنهـاور إلـي المارشال الروسي جوكوف.. هذا الرجل المسكين الذي حرم من التمتع بلذة الكوكاكولا.. ذلك لأن (روسيا السوفيتية هـي الرقعة الجغرافية الكبيرة التي لم يدخلها شراب الكوكاكولا)!

إن جهازا كاملا للمخابرات كان أعجز من أن يفعل مـا يفعله المختار، تلك التي ظلت تصدر – في مرحلتها الأولـي – خمس سنوات كاملي بين (١٩٤٣ و ١٩٤٨) وعبـر كـل تلك السنوات، لم تنشر كلمة واحدة عما كان يعانيه العرب في



مصر، وفي غير مصر، تلك سنوات المخاض التي أنجبـت فيما بعد أمة عربية جديدة، كانت نذر الانتفاضـات الشـعبية العربية تتجمع في الأفق عبر سنوات الحرب لتنفجر بعـدها في مصر وسوريا بكلمة.. وفي الشهر نفسه الذي تمرد فيـه الطلاب المصريون فـي انتفاضـة ٢ فبرايـر – شـباط – ١٩٤٦، ضد الاحتلال الإنجليزي لمصر، فاخترقت سيارتان عسكريتان بريطانيتان صفوف المتظاهرين، وقتلـت عشـرة منهم، كانت المختار تنشر قصة عن إنسانية جيوش الحلفـاء الذين دخلوا إيطاليا بعد هزيمة الفاشست، وكيف أن جنـديين أحدهما أمريكي، والآخر إنجليزي، وجدا فتاة صـقلية فـي الخامسة عشرة تكاد تموت جوعاً فأعطياها ما يحملانه مـن غطاء وطعام وتعرضا للمحاكمة إذا بـدد بـذلك مهماتهمـا الحربية!

عاد كأن شيئاً لم يكن

وفي قصة المختار سؤال، لم يطرح نفسه، إلا بعـد أن عادت للصدور مرة أخرى في العام ١٩٥٦، وهـو سـؤال مركب يقول نصه:

* ما سر هذا الارتباط الغريب بين صدور (المختار).. وبين تطورات ما يحدث علي أرض فلسطين!
* لماذا توقفت (المختار) فجأة مع الحرب العربية الصهيونية الأولي في عام ١٩٤٨؟!
* ولماذا عادت للصدور فجأة- أيضاً- فـي بدايـة عـام ١٩٥٦، بعد أن تبلورت الاتجاهات العربية، في صـفوف قيادة ثورة يوليو – تموز -١٩٥٢، والتي كانـت بـدايتها الحقيقية- علي النحو الذي رواه عبد الناصر في الكثير من أحاديثه، عدوان إسرائيل علي (الصيحة) في ١٢فبرايـر – شباط – ١٩٥٥؟!

ففي صيف ذلك العام – ١٩٥٥ بدأت الصحف العربيـة تبشر مرة ثانية بعودة (المختار) بحملـة إعلانـات ضـخمة وغير مسبوقة...

وهز الذين قرأوا الإعلانات رؤوسهم للمـرة الثانيـة.. ولكن لأسباب مختلفة عن تلك التي دفعتهم لهـز رؤوسـهم عندما صدرت للمرة الأولي عام ١٩٤٣. ذلـك أن معركـة الدفاع عن الثقافة القومية والوطنية، كانت قد تبلـورت فـي صراع حاد ومتفجر طوال الأعوام التي تلت نهاية الحـرب العالمية الثانية، ومنذ بداية الخمسينات بدا واضحاً أن الحرب علي جبهة الوعي قد اشتدت أوزارها، وكان عود المثقفـين والتقدميين والقوميين قد اشتد عبر نضالهم، دفاعاً عن الوجه العربي والطابع الإنساني والوطني للثقافة العربية.. فلم يكفوا – طوال سنوات ما بعد الحرب – عن التنديد بالدور المخرب الذي تلعبه الثقافة الاستعمارية. وربما كان ما أدهشـهم – أن تسمح مصر (الثورة) بإعادة ترجمة (المختار) ضمن مشروع كان مطروحاً آنذاك لترجمة سلسلة من المجلات الأمريكية.

وأيامها كان عشرات من الكتاب المصريين قد نبهوا إلي خطورة مثل تلك المنابر، فطالب (رجاء النقاش) في كتابه – في أزمـة الثقافـة المصـرية (١٩٥٤) بتصـفية مؤسسـة فرانكلين.. وكتب (كامل التلمساني) كتابـه (سـفير أمريكـا بالألوان الطبيعية) منبهاً إلي خطورة تأثير الفيلم الأمريكـي

علي الوجدان العربي، وكتب عشرات من الكتـاب العـرب يطالبون بحماية الثقافة القومية من سفراء أمريكا علي الورق الكوشيه، أو علي الشاشات البانورامية!

وشن محمود أمين العالم) حملة ضخمة ضد مبدأ إباحـة ترجمة المجلات الأمريكية إلي العربية... وقال إن الولايات المتحدة تعمل بواسطة تلك المجلات علي (تخـدير وجـداننا القومي وإعداده إعدادا مفتعلا لقبول سياستها.. وعلي هذا فإن الموافقة علي مبدأ ترجمة المجلات الأمريكيـة وصـدروها بلغتنا، يعني إدخال عامل غير وطني في تاريخنـا القـومي الحديث، يعني أن تفقد صحافتنا اتجاهه، يعني أن يفقد كثيـر من الكتاب المصـريين والصـحفيين المصـريين ملكـاتهم الإبداعية وتنحصر رسالتهم في الترجمة أو كتابة المقـالات التي تتفق والاتجاهات الأمريكية العامة، يعني إفلاس كثيـر من دور الصحف الوطنية وتشريد عدد كبير من الصـحفيين المصريين.. يعني محاولة تضـليل الـرأي العـام العربـي وتوجيهه وجهة غير وطنية تخدم الأهداف الأمريكية) (روز اليوسف ١٩٥٥).

ورغم كل ذلك – وتطبيقاً لسياسة التوازن – صـدرت (المختار). أصدرتها هذه المرة (دار أخبار اليوم)، وهكـذا توحد أصدقاء الولايات المتحدة، والمبشرين بسياسـتها فـي مكان واحد[1]، كان العصر الأنجلوسكسـوني قـد انتهـي، وانهارت الإمبريالية الإنجليزية، ولم تعد بريطانيا عظمـي، فالعظمة للدولار الفتي، وزحفت العنجهية السكسونية لتأكـل من فئات مشروع مارشال، ولهذا كان طبيعياً أن يترك أولاد

---

(1) حين كتب هذا المقال ونشر ، لم يكن قد قبض عليه في قضية التجسس الشهيرة للولايات المتحدة، وفيمابعد قال (مصطفي أمين) فـي الإعتراف الذي كتبه في ٦٠ صفحه، علي شكل رسالة لجمـال عبـد الناصر، أنه لم يتقاضي مقابل صلاته بالأمريكيين مالا أو مرتبا شهريا أو سنويا. ولكنه تقاضي خدمات كان من بينها أخبار هامه انفردت بـه الصحف التي كان يصدرها، مما يؤدي (إلي زياده توزيع صحف أخبار اليوم وبالتالي أدت الي زياده أيرادتها) ومنها (امتياز إصـدار مجلـة المختار، وهو يدر علي أخبار اليوم مبلغا طـائلا سـنويا) وأضـاف مخاطبا عبد الناصر (وقد وافقتم سيادتم علي أن نحصل علـي امتيـاز اصدار هذه المجله) ومنها: امتياز طبع مجلة الصداقه، وإعلانات مـن الشركات الأمريكية (نص الإعتراف في / محمد حسنين هيـل – بـين السياسة والصحافة – ١٧ ص ٢٢٤- ٢٢٥).

صرووف (المختار) فزمن (المقطم) قد مضـي، والعصـر عصرا (أخبار اليوم) تلك التي صدرت لأول مرة فـي عـام ١٩٤٤- وبعد عام واحد من صدرو المختار لأول مـرة – وعلينا نحن العرب أن نلقي بعقولنا في البحـر ونقـول انـه مجرد صدفة أن تصدر المختار وأخبار اليوم في سنة واحدة، وأن تتحدا معا في عام ١٩٥٦، ولم لا فرب صدفة خير مـن ألف ميعاد [٢]

---

[٢] ينقل محمد حسنين هيلك في (بين السياسة والصـحافة) عـن تقرير اللجنة خاصة شكلها الكونجرس الأمريكـي برئاسـة السـناتور تشرشي، لتقصي نشاط وكالة المخابرات المركزية الأمريكيـة ، فـي الجزي المخصص لرصد نشاط الوكالة في مجال إنشاء دور صـحف ونشر في عددد كبير من بلدان أوروبا والعالم الثالث، أن المختار مـن ريدرز دايجست كانت من بين المجلات التـي سـاعدت المخـابرات الأمريكية علي نشرها. ويقول هيكل (ومـن الغريـب أن أول رئـيس تحرير للطبعة العربية من الريدرز دايجست، كان هو الأسـتاذ فـؤاد صروف، الذي يشير إليه مصطفي امين، [في رسـالته الإعتـراف] ، ويقول أنه هو الذي قدمه إلي كيرميت روزفلت سـنة ١٩٤٤، وهـي السنة التي صدرت في نهايتها أخبار اليوم، كذلك فإن المختار صدرت فيما بعد ع أخبار اليوم) (ص ٢٣٠).

(عادت المختار) كأن شيئا لم يكن في مصر.. كأن ثورة لم تقم فيها.. وكأن الحركات القومية لم تملأ أمـة العـرب، وكأن معارك الأحلام لم تنشب.

عادت (المختار) قوية- بعد أن كبرت في العمر حوالي عشر سنوات، أصبحت خلالها (المجلة الأم) تصدر في اثنتي عشرة لغة كل شهر بدلاً من عشر لغات، وأصبحت تـوزع في أمريكا والهند واليابان وسويسـرا والسـويد واسـتراليا وإنجلترا والدانمرك وفنلندا وفرنسا وألمانيا وطوكيو وكوريا والنرويج والبرتغال وأسبانيا وبلاد أمريكا اللآتينية وليبريا).

وقدمها رئيس تحريرها الجديد – محمـد زكـي عبـد القادر[1] – للقارئ العربي باعتبارها (مجلة تنقل اك في كـل

---

[1] كان اختيار محمد ذكي عبد القادر لرئاسة تحريـر الإصـدار الثاني من المختار غريبا، فقد كان عبد القادر، مـن دعـاة الإصـلاح الاجتماعي، وكان مهتماً بمشاكل الريف، وقد أصدر في العـام نفسـه الذي صدرت فيه (المختار) مسلسلاً جديداً من مجلة قديمة كان يرأس تحريرها، هي (الفصول) وكانت تصدر في نصـف عـدد صـفحات المختار علي ورق رخيص، وتباع مع ذلك بثمنها ، وكانت الفصـول أساسا لمدرسة السياسة إصلاحية في الصحف وخارجها، وقد تمخـض عنها فيما بعد، لجنه النشر الثقافية القومية، تبنت عددا من المشروعات

شهر مجموعة من المواد تعد في نظر محرريها خير ما ظهر خلال الشهر من مجلات العالم وصفحه (وببسـاطة شـديدة خاطب ناشر المختار قارءه مؤكـداً لـه أن المختـار (لا يفرض عليك رأيا من الآراء بل يهيئ لك الفرص حتي تظل علي صلة بالاتجاهات والتيارات المختلفه في جميـع فـروع النشاط العالمي، وينقل إليك الأعمال الإنسـانية التـي تثيـر انتباهك) (العدد الأول من الإصدار الثـاني – ينـاير سـنة ١٩٥٦).

ولأن العرب لا يعرفون جيداً ما يريدون فقـد سـمحوا للمختار أن تصدر في قلب العاصمة التي كانت – آنـذاك – تقود حركة التحرر الوطني العربية ضد الإمبريالية! وسمحت كل الأقطار العربية لها – قياساً علي ذلك – بالتسـلل إلـي عقل العرب... ووجدانهم.

==، وأصدرت كتابا عن إصلاح أداه الحكم، والإصـلاح الزراعـي، وكانت المدرسة الصحفية الأولي التي بدا فيها الاتب المعروف أحمـد بخاء الدين حياته، ومن المفكرين المنتمين إليها : مريت بطرس غـالي وإبراهيم بيومي مدكور. وقد توقفت حوالي عـام ١٩٥٥، وصـدرت المختار عقب ذلك ، وتولي زكي عبد القادر رئاسة تحريرها! .

أما (المختار) فقد كانت تعرف جيدا ماتريد:

لذلك عادت وبراءة الأطفال في عينيها- لكي تلعب دورا جديدا يتلاءم مع ما كان الأمريكيون يسعون إليه، في وطـن عربي بدأ يتمرد علي التبعية والتجزئة، ويهدد بتمـرده ذاك مصالح الإمبريالية ككـل، ويتحـدى عنجهيـة الاسـتعمار الأمريكي القائد المقتدر لجبهتها بعد الحرب، وطـن تسـوده موجة تمرد راديكالي علي صعيد القمة والقاعدة، تدفق لكـي يساعد حركات التحرر في أفريقيا وآسـياوأمريكا اللاتينيـة، (ويغيظ) الأمريكين مهددا إيـاهم بالتعـاون مـع أعـدائهم السوفييت!

عادت (المختار) لكي تلعب دورها بذكاء خبيث وشرير، فالقتل بالبنادق يقود القاتل إلي قفص الاتهام، ويثيـر خـوف الضحية، ولا يصنعه عادة إلا البلهاء من الناس، أمـا القتـل بطريقة المختار، فأمره أهون وأيسر: مقالة لذيذة، مسلية، لا تستطيع أن تقاومها، ولا تجد فيها كلمة واحدة مباشرة تستفز شعورك الوطني أو القومي، أو تشعرك بأن من كتبها يتـآمر عليك، والسم فيها هين وخفيف، لا تشعر بمذاقه.. أو تحـس بخطورته. سوف تموت، ولكن ليس اليوم.. بعـد عـام.. أو

أعوام ولن يجد أحدا دليلاً واحداً يدين من عادات (المختار) لتظل تصدر لمدة عشر سنوات، بين يناير (كـانون الثـاني) ١٩٥٦ ويونيو (حزايران) ١٩٦٧... ورب صدفة خير مـن ألف ميعاد..!

عادت لكي تقوم باستعراض قوة أمريكا، لكي نظل نحن العرب أسري أفكار الذين كانوا – وما يزالون – يرددون أن الاستعمار لا يمكن قهره، في الأربعينات، كان أمين عثمان – العميل الإنجليـزى المصـري الشـهير – يجمـع الشـبان المصريين في مقر رابطة (النهضة) التـي أنشـأها لتـدعيم الصلات بين مصر وبريطانيا العظمي، لكي يقول لهم:

-إنجلترا غلبت ألمانيا في الحرب.. فيه نـاس مجـانين تحاربها!

ذلك نفس ما عادت (المختار) تقوله، ولكن دون فجاجـة (أمين عثمان) ودون أي تعليق، نشرت مجلة (لمختار) – في سلسلتها الثانية- عشرات المقالات تكفي للتأكيد علي أن كـل من يفكر في تحدي أمريكـا هـو إنسـان أخـرق وأحمـق ومجنون...

في مارس –آذار- ١٩٥٦، وأيام كانـت الاتصـالات دائرة بين حكومة مصر الناصرية وأمريكـا بشـأن تمويـل مشروع السد العالي، ومعركة حلف بغـداد لـم تـزل فـي عنفوانها، نشرت (المختار) مقالا عـن (الغواصـة الذريـة الأمريكية – التي تستطيع بقدرتها الذريـة أن تسـير تحـت الماس بسرعة عظيمة وتدور حول الدنيا في عدة مرات دون حاجة إلي تحديد وقودها، والتي سترجح كفـة القتـال فـي الحرب القادمه) وفي الشهر التالي نشرت مقالا بعنوان (هنا نصنع القنبلة الهيدروجينية) تحدث فيه كاتبه عـن (أضـخم مصنع أقامه الإنسان هذا المصنع الذي يحتل مسـاحة أكبـر مدينة القاهرة والذي بلغت تكليف إنشائه بليون و٤٠٠مليـون دولار).

والقوة الأمريكية، ليست مجرد أسلحة، ولكنهـا أيضـاً ذكاء نادرا وقدرة معرفة خائنة الأعين وما تخفي الصـدور، فجهاز المخابرات الأمريكية، لا تفوته شاردة ولا واردة، وهو يشرف – والعهدة علي عدد (المختار) الـذي صـدر فـي ديسمبر (ك١) ١٩٦٣- علـي عمليـات واسـعة المـدي، مسؤولياته التي منها الجاسوسة التقليدية أي جمـع الأسـرار

بواسطة عملاء يعملون تحت غطاء أو آخـر، والجاسوسـية الفنية مثل طائرات (ي ٢) وأقمار الاسـتطلاع أو الـرادار، وهناك العمليات الخاصة التي تهدف إلي قلب حكومة معادية أو دعم حكومة صديقة أو التغلب علي معارضة برلمانية).

والتطور المنطقي لاستعراض القوة الأمريكيـة علـي صفحات (المختار) هو أن يشدد – كما كان يفعل في إصداره الأول هجماته علي حركات التحرر الوطني التـي تمـردت علي التبعية للولايات المتحدة الأمريكية، وخاصة تلك التي قد تعطي العرب نموذجا لإمكانية الانتصار، واخـتص الثـورة الكوبية بعنايته، ففي عدد أكتوبر ١٩٦٤، نشرت (المختـار) ملخصا لكتاب ألّفه (ماريو لانزو) – الذي يدير واحـداً مـن أبرز مكاتب المحاماة في أمريكا اللآتينيـة، ويعمـل وكـيلا للعديد من شركات الاحتكار، فضلاً عن وكالته القانونية عن الحكومة الأمريكية ذاتها – وهو كتاب يرد علي سؤال نصه: (لماذا فشل غزو كوبا في سـنة ١٩٦١؟) – قدمتـه بهلجـة شديدة الاعتداد بإعتباره يضـم (الحقـائق والأسـرار التـي استغرق جمعها ٣ سنوات من التحقيق والبحث المستمر عن خفايا أكبر قصة شائنة في تاريخ أمريكا)...

وهكذا فإن عليك أن تصدق أن محامياً يدير واحداً من أكبر مكاتب المحاماة ويعمل وكـيلاً لاحتكـارات أمريكيـة عملاقة في أمريكا اللآتينية، يمكن أن يـروي (الحقـائق) و (كاملة)، كأن تلك الإحتكارات لم تؤمن في كوبـا، وكـأن نفوذها الاقتصـادي والسياسـي لـم يضـرب... وحقـائق (المختار) – الذي أكد رئيس تحريره للقارئ أنه لا يحـاول أن يفرض عليه رأياً معينـاً – تتحـدث عـن (الكـوبيين الأحرار) باعتبارهم مسؤولون عن فكرة الغزو فهم وطنيون يريدون تحرير بلادهم من حكم كاسـترو، ولأن الولايـات المتحدة تدافع عن الوطنيين والأحرار (!!) فقد ساندتهم، أمـا لماذا أصبحت قصه خليج الخنازير، أكبر قصة شـائنة فـي تاريخ أمريكا، فذلك يعود لفشل المؤمرة ولـيس لتـدبيرها.. ومايدينه (ماريو لانزو) هو عجـز المخـابرات المركزيـة الأمريكية عن وضع خطة متقنة تسقط حكم كاسترو...

أما لماذا كانت (هافانا) تحت ظل السـادة (الكوبيـون الأحرار) مبغي للرقيق ومواطناً للعصابات، وسوقاً مستنزفاً لا يجد الناس أمامهم فيه سوى واحد من خيارين، أن يموتوا جوعاً ، أو يتاجروا في لحمهم.. فذلك مالا يهم السيد ماريو،

ولا يهم (المختار)، الذي أراد لقارئه- من خلال قصة شبه بوليسية – أن يتوجع لفشل هذه المغامرة الطريفة التي حرمت الكوبيون – الأحرار – من تحرير كوبا من كاسترو!

ومنذ العدد الأول في الإصدار الثاني و(المختار) حريصة علي إبراز ذلك الوجه المشرق للاستعمار، وعلي كتابة تاريخه من جديد، وبنفس المنهج الذي كان مستشار التعليم الإنجليزى في مصر والعراق، والفرنسي في سوريا ولبنان، والإيطالي في ليبيا، يحرص علي تلقينه للطلاب العرب في دروس التاريخ، جاءت (المختار) لتشيد – في يناير (ك ٢) ١٩٥٦ – بالدور الذي لعبه الاستعمار الهولندي في حياة أندونيسيا وكيف أن الهولنديين (أقاموا الجسور ومدوا السكك الحديدية وأنشأوا مدنا جميلة، كما أدخلوا فلاحة البساتين والمزروعات الأخري) في ظل التعمير الهولندي، الذي اشتق منه مصطلح مكروه هو (الاسعمار)!

ولما كانت علاقة الدول العربية بأمريكا موضوعا لا يمكن للمختار أن تتجاهله، في وقت اتسم بتوتر شديد في العلاقات بين أولاد العم سام، وحركه التحرر العربي بمجملها، فقد حرصت مجلة الحياة اللاذيذه علي أن تستكتتب

(ستيفن نيروز) – المدير السابق للجامعة الأمريكية ببيوت – مقالا بعنوان (لماذا لا يحب العرب أمريكا؟ (.. وفيه أشـار السيد ستيفن إلي حالة عدم الثقة التي تنشر في البلاد العربيه تجاه أمريكا، خاصة بعد تشجيعها للصهيونية، فرفضوا سياسة أمريكا المرسومة لاكتساب صداقتهم، ومنها مشروع النقطـة الرابعة الذي يرمي إلي مساعدة البلاد غير المتقدمـة علـي النهوض بنفسها، والذي لم يقبله العرب نتيجة لضعف وسوء توحيد علاقتنا بهم، لقد بدأ المشروع بداية سيئة. فقـد أعلـن عنه بأن أمريكا تقدم المعونة الفنية بلا مقابل، وهذا مـا لـم يصدقة العرب الذين يعتقدون أن المغفل هو الـذي يعطـي أموالاً بلا مقابل).

ووجه السيد (ستيفين) نفس النقد إلي مشروع مقترحات قيادة الشرق الأوسط، الذي كان يقوم علي إشراك كـل مـن إنجلترا وفرنسا وأمريكا وتركيا الأقطار العربية فـي حلـف واحد – هو الذي تطور فيما بعد إلي مايعرف بحلف بغداد- يهدف إلي مساعدة البلاد العربية للدفاع عن نفسها ضد الغزو الشيوعي...، مؤكدا أن المشروع قد رفض لأنه قـدم عـن طريق إنجلترا وهي دولة سيئة السمعة في المنطقة)

وإذن فإن مشروع المعونة الفنية- النقطة الرابعة– لم يكن له أهداف سياسة... ولم يكن له إلا هدف إنساني واحد هو مساعدة الدول العربية علي التقدم الاقتصادي، كما أن المقترحات الرباعية كانت تهدف لإيقاف الغزو الشيوعي، أما القول بأن مشروع النقطة الرابعة كان سيحول العرب إلي متسولين، يعيشون علي عطايا، فيتلقي أبناؤهم في المدارس قليلا من الدقيق وبعضا من الكعك والمسلي هدية من الشعب الأمريكي الصديق، بدلا من إنشاء المصانع أو تطوير الإنتاج بما يسمح باستقلال اقتصادي حقيقي.. فهذا كلام الشيوعيين وأما القول بأن المقترحات الرباعية كانت تهدف إلي تحويل الأمة العربية إلي احتياطي لأمن الولايات المتحدة ذاتها وتنقلها إلي تبعية سياسية واقتصادية للمعكسر الإمبريالي، وتجعلها تحشد قواتها ضد خطر وهمي هو الخطر الروسي بينما الخطر الحقيقي قائم في أقطارهم ممثلا في الصهاينة الذين يحتلون فلسطين والسودان والفرنسيين الذين كانوا يحتلون الشمال العربي الأفريقي، فهذا كلام الشيوعيين... والدليل الذي لم يذكره (السيد ستفين) على ذلك ، هو أن هذا الكلام قاله الشيوعي الكبير " مصطفى النحاس باشا " إبان

مفاوضاته مع الفيلد مارشال سليم حول جلاء بريطانيا مـن مصر في عام ١٩٥١..

وحتي (الإسلام)، وجد (المختار) فرصة للـدفاع عنـه، ولم لا؟ أليس اتهام كل من يدافع عن استقلال بلاده بأنه ملحد، وكافر، هو لعبة الداعرين منذ زمن طويل؟... ما المانع فـي أن تتحدث صحافة ((أخبار اليوم))– أول من تسـللت إلـي غرف النوم وحولتها إلي مصادر أنباء – عن الإلحاد، ومـا المانع في أن تستغل (المختار) الإسلام، لكي تدعو العـرب للتحالف مع الأمريكين، فهم ليسوا ملحدين، وطالما أن العرب في ذلك الوقت كانوا يتعاونون مع السوفييت، فلا بد مـن أن يتقدم (المختار) – عدد مـارس – آذا ر– ١٩٥٦– لإقنـاع العرب بأن الإسلام يدعو للتعاون مع النصرانية، مؤكـداً أن الإسلام كدين يعد خصماً سافراً للإلحاد، ويضـيف (مـن الصعب أن تعتقد أن المسلمين ينزلون بإرادتهم عن إيمـانهم با من أجل أية فلسفة تنكر وجود ا)، ممكن، وهو يـذرنا نحن المسلمين والمسيحيين بـأن (التقـارب بـين الغـرب والمسلمين ممكن، إذا عرفنا أن محمداً صلي عليه وسـلم

نزل عليه قول ا   عز وجل (ولتجدون أقربهم مـودة للـذين آمنوا، الذين قالوا إنا نصاري).

وهكذا حمل ((صاحب الفضيلة المختـار مـن ((ريـد رزدايجسب) المسبحة، ومضي يعظ العرب، لكنه لم يقل مـا إذا كان الإسلام أو النصرانية أو حتي اليهودية تسمح بإعطاء أسلحة تستخدم في بقر بطون الحوامل فـي أرض فلسـطين المحتلة، وها هو السيد (كارتر) – المسيحي المـؤمن – قـد منح مصر – بعد عمر طويل – إيمانه، فامتلأ شارع الهـرم بالمساجد والكنائس، وها هو الانفتاح عليه بعد كتابـة هـذا الكلام بربع قرن قد حول مصر إلي بلد مؤمن لا تضبط فيه – بإعتراف الصحف المصرية الرسمية ذاتها – كـل شـهر شبكه دعارة، أو مخزن خمور مهربة يصل ثمنها إلي نصف مليون جنيه، ولا تفسد فيه الشـركات الأمريكيـة المؤمنـة مسؤولين مصريون، ظلوا شرفاء في (زمن الإلحاد) ثم هانوا وضعفوا، أمام الرشاوى والعمولات التـي تقـدمها شـركة الوستنجهاوس الأمريكية فاشتروا بضاعة ا   أعلم بنوعهـا، وهو – عز وجل – أعلم بما خفي!.

جاءت (المختار) لكي تقدم في كل سطر لغم، ولكي تلف كل قنبلة بفكاهة.. المهم أن يظل العرب وظهرهم إلي الحائط الأمريكي، فإذا صادف العرب السوفييت روت المختار في سطرين هذه الفكاهة.

((تقابل موظف بوزارة الخارجية، مع أحد أعضاء السفارة البولندية في واشنطن، ورآه يلبس معطفاً ثقيلا ويحمل مظلة فقال له:

- هل تتوقع مطراً...؟

فقال الموظف البولندي:

- كلا ولكننا تلقينا إشارة من موسكو أن المطر يهطل هناك)!.

فلنضحك نحن العرب علي خفة دم أصدقائنا الأمريكيين ولكن ما رأى (المختار) في (نكتبة الحشود الأمريكية علي سوريا في عام ١٩٥٧، ما رأيهم في النكتة التي رواها ضابط المخابرات (مايلز كوبلاند)، عندما ظلت البعثة المصرية - في أعقاب ثورة يوليو مباشرة - ستة أشهر في بلادها تحاول أن تحصل علي أي قطعة سلاح، فلم تحصل علي شئ وظل عبد الناصر - والكلام لما يلز كوبلاند نفسه

– ستة أشهر ينتظر شحنات الأسلحة، ولكن الشحنة الوحيـدة التي وصلته كانت رئيس البعثة العسكرية الذي كـان وقتهـا السيد (علي صبري)!

ذلك أمر أرادت لنا (المختار) – في إصدارها الثاني بين ١٩٥٦ و ١٩٦٧ – أن نشغل عنه، بحرصها الـدائب علـي تخريب وجدان كل الأجيال الصاعدة، وإقناعها بـأن الحيـاة فهلوة وشطارة ونصب وارتزاق، لهذا أخذت تحرث الأرض أمام أبناء الطبقات الشعبية، لكي تقطع جذورهم مع طبقاتهم، بإقناعهم بأن فقرهم ليس وليد نظام اجتماعي فاسد، وليس ابنا شرعياً للنهب الرأسمالي، فالفقير يستطيع أن يصـعد إلـي أعلي قمة في السلم الاجتماعي دون مشاكل...

هذا مقال عنوانه ((أملأ فراغك بالذهب)) يتحـدث عن التلاميذ الذين دخلوا إلي ميادين الـتجرة والصـناعة ليتعلموا الحياة العملية وأسرارها (يناير ١٩٥٦) وآخر عـن قصة النجار الذي أصبح مديرا لمؤسسة (بيلادرز) وهي شركة ضخمة تنتج حاليا ما قيمته ٤٨ مليون دولار مـن المسـاكن (سبتمبي ١٩٦٤). وهي أحلام لم تتوقف المختار عن نشرها، وخاصة في السنوات التي تلت صدور قرارات يوليو ١٩٦١،

إعلان عبد الناصر عن فكرة الاشتراكي، لتكون معارضة غير مباشرة، لما أعلنه، وما قرره!

ومن هذه المقالات: مقال بقلم (هربرت موريسون) وزير خارجية بريطانيا الأسبق) عن (الرجل الذي قابلني وأنا صبي بقال فظل أثره في حياتي إلي أن أصبحت وزيراً للخارجية (مارس ١٩٥٦)، وعرض لكتاب بعنوان (أبي رجل غريب) عبارة عن مجموعة من أغرب الحكايات والنوادر عن الرجل الذي وصفته الصحف في أحد الأيام بأنه أسعد مليونير في العالم، لم يجد وسيلة لحمل الناس علي عبادة ا إلا بملاكمتهم (اشتغل مغنيا وملاكماً ومهرجاً في سيرك).

ولما كان (المختار) يعلم أنك قد تحاول أن تصبح مليونيراً، وأنك ستفشل بالقطع فهو يقدم لك الوجه الآخر للمسألة فيؤكد لك: (إننا حين نرضي عن الشقاء والألم واليأس والأسف، فأننا نخضع لإرادة ا ، وهذا الرضا والإيمان المشرق هو الذي يرينا ا ، فالعقل مهما تبلغ قدرته لا يبلغ إلا قشرة واهية من الأبدية وا يتجلي للقلب لا للعقل يناير(١٩٥٦).

إن المختار بوتيك يبيع كل شئ: الإسـلام والمسـيحية واليهودية والاشتراكية الرأسمالية، والرأسمالية الاشـتراكية، وهو لا يهتم كثيراً بذكاء قارئه، أحياناً، فلا مانع لديه من أن يغرقك بأشياء لا تعرف بالضبط مدي علاقته بنا ... وهـاك نماذج بسيطة منها: (النهود مشكلة) مقال مسل عن (الجاذبية النهدية عند المرأة الحديثة) (فبراير ١٩٥٦). كيـف تهتـدي النملة إلي طريقها. حكاية ماري أنطوانيت وكيف ظهرت في إحدي حفلات التشريفات بالقصر الملكي وقد زينت شـعرها بحبات من البطاطا. وقصة أعجب محل تجاري في العالم ما عليك إلا أن تذكر اسم ما تريد مهما يكن نوعه فيقدمـه لـك مخزن (هارودز). ماذا تفعل الزوجـة إذا أصـيب زوجهـا بالشخير. ومشكلة العالم الغربية (لقد بدأنا جميعا نعتقد أننـا دون المستوى الجنسي العادي بطريقة تـدعو إلـي الحـزن والإرتباك واليأس، وينمو هذا الاعتقاد مع كل فـيلم نشـاهده وكل رواية نقرأها وعندما نقارن أنفسـنا بهـؤلاء الرجـال والسيدات ذوى الرغبة الجنسية العارمة، الذين يظهرون فـي الأفلام والروايات يبدو لنا بوضوح تـام أننـا لا يمكـن أن نضارعهم (أكتوبر ١٩٦٤). وكيف استطاعت أحـب نجمـة

هزلية في أمريكا أن تشق طريقها من الظلام إلـي الشـهرة حتي أصبح (العالم كله يحب لوسـي). وقصـة الفـولكس واجن، السيارة الصغيرة التي تحظي بإعجاب أصحابها رغم كل ما يقال عنها.

هكذا عاشت (المختار) – في مسلسليها الأول والثاني – ستة عشر عاماً كاملة، وتلك هي خلاصة ثقافة العالم وفكـره التي زعم (المختار) أنه جاء ليقدمها للعرب...

وها هو يعود في الإصدار الثالث، وقد زاد عدد اللغات التي يصدر بها فأصبحت ١٥ لغة، وارتفع عدد البلاد التـي يوزع بها إلي ١٨٠ بلداً، وهو يعود ليصدر هذه المرة مـن باريس، ويطبع في (إيطاليا)، عاد ليكرر نفس النغمة القديمة وليكتب (أدمون صعب) رئيس تحريره، مؤكـداً أن هـدف المسلسل الجديد أن يكون (عقد الإتصال بين الشرق والغرب) وأ، هدفه (تحقيق التقارب بين الشعوب والثقافـات)، وهـو يضيف هدفا لم يطرح عبر المسلسلين السابقين وهو أن (ينقل إلي اللغات ال ١٤ لدي ريدر زدايجست) أفضـل مـا فـي حضارة العرب وثقافتهم!

كثيرون من العرب ذوى النيات الطيبة سيقلون:

- رب صدفة خير من ألف ميعـاد، سـيقرأ العـرب المختار، ويقرأ بعضهم الطبعة العربيه (هـا - آرتـس) و (اليديعوت أحرنوت)..

ويا عصر كامب ديفيد: أهلاً .!.

الثورة
بين المسير والمصير

((اكتشفت أنني، بسذاجة، إن لم يكن بحماقة، مارست ما أظنه حريتي فدست بأقدامي أسلاكا عارية كثيرة، وأحـدثت إنفجارا لم أكن أقصده)).

مفتتح:

كتبت هذه الدراسة في يوليـو ١٩٦٦، ونشـرت فـي الأعداد ٣٢٨، ٣٢٩ و ٣٣٠ من مجلة (الحرية) البيروتيـة، حين كنت أعمل مراسلاً سياسياً لها بالقـاهرة وقـد أثـار نشرها غضب كثيرين في دوائر الحكم المصري، قيـل لـي فيها بعد، إن الرئيس (جمال عبد الناصر)، كان علي رأسهم. وانتهي هذا الغضب، بأن كتب (علي صبرى) – الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي – مذكرة للرئيس عبـد الناصـر، لخص فيها المقالات، وأشر الرئيس في ذيلها: يعتقل ويفصل!

وكان وراء هذا الغضب غير المبرر، سيناريو وهمي صنعته عقلية النظام التي كانت سائدة في أجهزة الأمن، سمي فيما بعد (محاولة اليسار المتطرف التسلل إلي الاتحاد الاشتراكي والتمركز في جناحه الشبابي وهو منظمة الشباب الاشتراكي)، مما أدي إلي تصفية شبه شامله للعناصر المستنيرة من قيادات المنظمة، في حملة اعتقالات أكتوبر (ت!) (١٩٦٦) التي شملتني، ضمن حوالي ٢٠٠ من كادرات المنظمة والتنظيم الطليعي، وأساتذة المعهد العالي للدراسات الاشتراكيه، ومعظم الذين كانت لهم علاقة تنظيمية بحلقة ماركسية صغيرة، إسمها (وحدة الشيوعين). وكنت في حوالي العام ١٩٦٦، قد تركت هذه الحلقة الشيوعية الصغيرة، التي كانت قد واصلت النشاط، رغم الظروف السيئة، التي كانت سائدة في فترة الجذر الديمقراطي بين ١٩٥٩ و ١٩٦٤، إذا كان كل الشيوعيين المصريين تقريبا قيد الاعتقال، كما أن (وحدة الشيوعيين) تمردت علي قرارات الحل التي أصدرتها بقية التنظيمات والأحزاب الشيوعية في غضون عامي ١٩٦٤و ١٩٦٥، فاحتفظت بكيانها، لكن مشاكل تنظيمية وفكرية، سرعان ما خلقت

داخلها خلافات، أدت إلي استقالة عدد كبير مـن أعضـائها عقب صراع سياسي – كنت من بينهم.

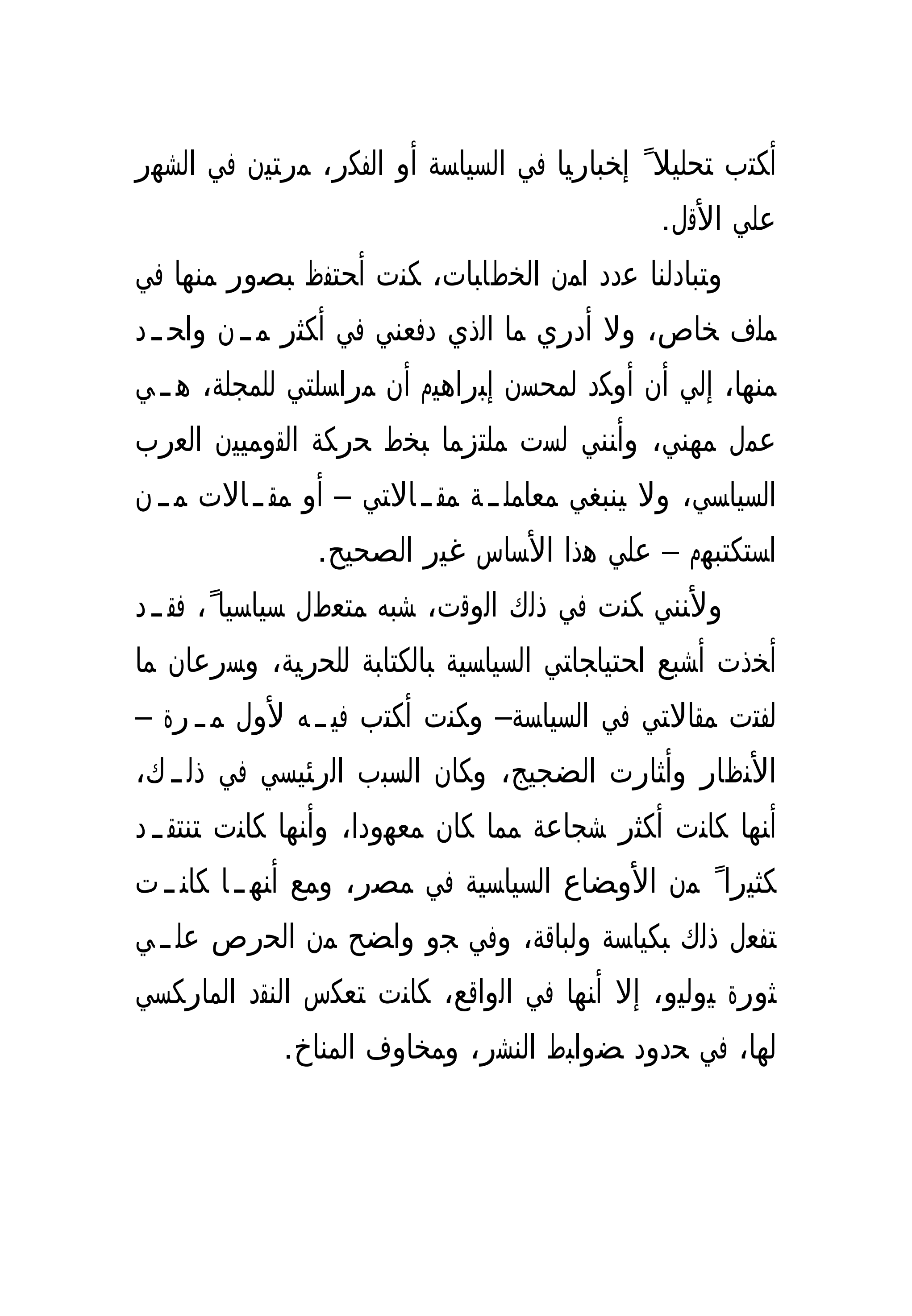
وكنت وقتها أعمل إخصائيا اجتماعيا بـوزارة الشـئون الاجتماعية، وأكتب في عدد من الصحف والمجلات المصرية والبيروتية، كان من بينها مجلة (الحرية) اللبنانيـة، وكانـت الكتابة في التاريخ وبعض قضايا الفكر هي الطـابع الغالـب علي كتاباتي.

كانت (الحرية) مجلة بسيطه الشكل متواضعة الطباعة، تنطق باسم (حركة القوميين العرب)، وهي إحـدي فصـائل الحركة القومية، عرفـت فـي نشـأتها، بموقفهـا اليمينـي المتطرف، فقد كانت تعادي الشيوعية بعنف، وتطالب بإعادة فلسطين، من منطلق ثأري، وكانت تتخذ لها – آنذاك شعار: وحده تحرر. ثأر.

وفي ظروف لا أعرفها، نشأت علاقة ما، بينهـا وبـين مصر الرسمية، إبان عهد (جمال عبـد الناصـر) وبـدأت الحركة تغير من خطها السياسي، وتتبني رؤى سياسية أقرب إلي التطابق مع رؤية النظام الناصري، وأصبحت تعد مـن الفصائل الناصرية، في لبنان، حيث توجد قيادتهـا القوميـة،

وفي البلاد الأخري التي كانت تضم فروعا قطرية لتنظيمهـا القومي، وقد كتب (محسن إبراهيم) أحد قادتها- وكان يرأس تحرير مجلة (الحرية) آنذاك، سلسلة مقالات تحت عنـوان (حاشر اليسار في المشرق العربي ومستقبلة) انتقد فيه كـلا من الشيوعيين والبعثيين، وانتهي منها إلي أن مستقبل اليسار العبري، رهين بأن يعترف بقيادة عبد الناصر وأن يلتحم بها. ولعل هذا النقد للشيوعيين والبعثيين، كان أحد عوامل التقارب بين قيادة عبد الناصر، والحركة فقد استعر الخـلاف بينـه وبينهما، منذ إعلان الوحدة المصـرية السـورية، وعقـب الانفصال في العام ١٩٦١.

وكنت أنشر – منذ عام ١٩٦٢ – مقالات متفرقة علـي صفحات (الحرية) وفي عام ١٩٦٤ تكثفت كتابـاتي فيهـا – وكانت لا تدفع أجوراً علي ما تنشره – وفوجئت دون سابق معرفة، بخطاب يصلني في البريد علي عنواني، يطلب فيـه (محسن إبراهيم) مني، أن أكون مراسلا للمجلة في القـاهرة، ويخطرني بأن المجلة ستتجدد في الشكل والمضمون، وطلب مني أن أستكتب عددا من الكتاب اليساريين المصريين، وأن



أكتب تحليلاً إخباريا في السياسة أو الفكر، مرتين في الشهر علي الأقل.

وتبادلنا عدد امن الخطابات، كنت أحتفظ بصور منها في ملف خاص، ولا أدري ما الذي دفعني في أكثر مـن واحـد منها، إلي أن أوكد لمحسن إبراهيم أن مراسلتي للمجلة، هـي عمل مهني، وأنني لست ملتزما بخط حركة القوميين العرب السياسي، ولا ينبغي معاملـة مقـالاتي – أو مقـالات مـن استكتبهم – علي هذا الأساس غير الصحيح.

ولأنني كنت في ذلك الوقت، شبه متعطل سياسياً ، فقـد أخذت أشبع احتياجاتي السياسية بالكتابة للحرية، وسرعان ما لفتت مقالاتي في السياسة– وكنت أكتب فيـه لأول مـرة – الأنظار وأثارت الضجيج، وكان السبب الرئيسي في ذلـك، أنها كانت أكثر شجاعة مما كان معهودا، وأنها كانت تنتقـد كثيراً من الأوضاع السياسية في مصر، ومع أنهـا كانـت تفعل ذلك بكياسة ولباقة، وفي جو واضح من الحرص علـي ثورة يوليو، إلا أنها في الواقع، كانت تعكس النقد الماركسي لها، في حدود ضوابط النشر، ومخاوف المناخ.

وقد اكتشفت فيما بعد، أنني لم أكن شجاعاً، لكنني – بسبب سذاجتي – لم أكن أقدر العواقب، فتصرفت – كما قال لي بعض أصدقائي فيما بعد – وكأن هناك ديمقراطية، أو كأن هناك إشتراكية تهم أحدا، وكأن المعتقلات قد أغلقت إلي الأبد، ولأن أحدا لم يتصور أن هناك (أحمقا) في الدنيا، يمكن أن يكتب هذا الكلام، ويتحمل مسئولية نشره، فقد شغلت الأوساط الصحفية نفسها بالبحث عن تفسيرات لتلك الحماقة، أما أحسنهم ظنا، فقد أعتقد أنني (إسم مستعار) يتقنع به كاتب مصري، حتي لا يضار من نشر آرائه المتطرفة، وقال آخرون، أنني لبناني، أقيم في بيروت، ،وأدعي أنني أكتب من القاهرة، أما أوسعهم خيالا، فقد كانوا يجزمون بأنني أكتب تلك المقالات، بتكليف من (عبد الناصر) شخصيا، وأنه يهدف من ذلك لمواجهة الجناح الرجعي في الحكم الذي يقاوم اندفاعاته الثورية، وأنه اختار مجلة لبنانية حليفة له، أو كان يمولها بالفعل، وكاتبا يكتب لأول مرة، حتي لا يقال أنني أعبر عن اتجاهات رسمية، وأن الهدف من نشر تلك المقالات، هو تكوين رأي عام ضاغط، لتمرير الاتجاهات الجديدة.

وكنت غافل الذهن عن كل هذا، ولم أعرفه إلا فيما بعد، وعلي فترات متفاوته، ولكنني علي أي الأحوال لم أغفل عن أن مقالاتي، تحدث رد فعل قوى، وأنها أنعشت الرغبة فـي نقد الثورة، من علي يسارها، وكان النقد اليمينـي لهـا هـو الغالب آنذاك، وكان هذا أحد أسباب انتشار مجلة (الحريـة) في مصر، وإزدياد عدد قرائها.!

وكانت هذه الدراسة، التي نشرت في الأصل علي ثلاث حلقات في (الحرية) هي ذروة وآخر ما كتبته فيهـا، خـلال فترة لم تزد عن ثمانية أشهر من فبراير إلي أكتـوبر ١٩٦٦ – وقد كتبتها بمناسبة الاحتفال بإتمام ثورة ٢٣ يوليو لعامهـا الرابع عشر، وبدء العام الخامس عشر لها، وهو ما جعلها – بعكس ما سبقها من مقالاتي في (الحريـة) – أقـرب إلـي التحليل النظري الشامل لمسيرة الثورة ومصيرها، وخرج بها عن إطار نقد جزئي لهذه الظاهرة أو تلك، وهذه المواقف إذ ذاك، إلي نقد يكاد يكون جذريا للثورة.

وكان الزميل والصديق (محمد كشلي) – المحرر آنذاك بالحرية – قد جاء من بيروت في زيارة للقاهرة، في بدايـة يوليو ١٩٦٦، وقد تعرفت به في هـذه الزيـارة لأول مـرة

وقابلته عدة مرات، وأجري معي مناقشات مطولـة ضـمن جولة، التقي خلالها بعـدد مـن المسـؤولين فـي الاتحـاد الإشتراكي، وربما في الحكومة، وسافر، بعدها، ليبدأ في نشر دراسة في سبع حلقات، بعنوان (التجربـة الاشـتراكيه فـي مصر) تضمنت نقدا عنيفا للتطبيق الإشتراكي، وبدا اتجاهـا واضحا حين استعرض (كشلي) في الحلقة الأخيـرة منهـا، كتابين هامين كانا قد صدرا آنذاك بالفرنسية، يتضـمنا نقـدا ماركسيا جذريا لاشتراكية عبد الناصر، هما كتاب (أنور عبد الملك) و (مصر مجتمع جديد يبنيـه العسـكريون) وكتـاب (مصر الناصرية)، الذي اتضح فيما بعد، أن اسـم مؤلفـه، حسين رياض، هو اسم مستعار للمفكر المعـروف (سـمير أمين).

وبسبب التحالف بين الشيوعيين المصـريين و (عبـد الناصر) من ناحية، وبينه وبين الاتحاد السوفيتي من ناحيـة أخري، فقد كان الشائع – بعد العام ١٩٦٥ – هو اتهام كـل نقد يساري للظاهرة الناصرية بأنه نقد صـيني، متطـرف، ويعبر عن طفولة يسارية، ليتوقي النظام المصري التنـاقص بين ادعائه أنه اشتراكي علمي، وبين اضطهاده للشيوعين إذا

ما نقدوه، وإستثمارا للخلاف الصيني السوفيتي، الـذي كـان آنذاك في ذروته، بعد أن بـدأ الـزعيم الصـيني الراحـل (ماوتسي تونج) الثورة الثقافية العظمي.

وكان الشيوعيون المصريون، في جملتهم – وخاصـة علي صعيد القيادات – قد أقروا عبـد الناصـر علـي أنـه اشتراكي، وارتضوا حل تنظيماتهم المستقلة، ليـدخلوا فـي التنظيم الاشتراكي الموحد – أي الاتحاد الاشتراكي – ولـم يحل ذلك، دون أن يكون هناك بعض من رفضوا ذلك، كمـا أنه كانت هناك بالفعل عناصر متأثرة بالفكر الصيني، وكانت الحلقة الماركسية الصغيرة، التي انضممت لعضويتها لعـدة سنوات، تتفق مع الصين في نقطة واحدة من تحليلها، وتروى أن التناقض الرئيسي علي مستوي العالم، هو بين الإمبريالية ومعسكرالتحرر الوطني، وليس المبـاراة بـين المنظومـة الاشتراكيه، والمعسكر الرأسمالي، كما كان التحليل السوفيتي يقول آنذاك.

وكنت قد انتظرت وقتاً طويلاً حتي نشرت (الحريـة) الحلقة الأولي من دراستي (الثورة بين المسير والمصير)، في بداية سبتمبر، وبعد أن نشرت دراسة (محمد كشلي) وبانتهاء

نشر الدارستين، كانت (الحرية) قد ظلت عشر أسابيع، تتناول ثورة يوليو بالنقد، وهو ما بدا – ظاهرياً – كما لـو كـان حملة نقد يساري متشدد لعبد الناصر.

وعقب نشر الحلقة الثالثة من الدراسـة، بـدأت أشـعر ببعض القلق من ورد فعلها الذي أدركته في تعليقـات مـن قابلتها من الأصدقاء المشتغلين بالسياسة، حتي بـدأ الأمـر أمامهم تهوراً بالغاً ، ولم أدرك أنني بحسن نية – إن لم يكن بسذاجة – قد وطأت كابلاً كهربائياً ، وأحدثت انفجاراً ، لـم أكن بالقطع أقصده.

فيما بعد عرفت أنه كان لحركة القوميين العرب، فرعاً قطرياً في مصر، مسؤولة السياسي، محـام شـاب حـديث التخرج هو (سمير حمزة) ويضم حوالي ٢٥ مـن طـلاب الجامعات المصرية أو من المتخرجين منها حـديثا، وبعـد مفاوضات سياسية بين (محسن إبراهيم) – أحـد مسـؤولي الحركة في لبنان – والسلطات المصرية، تنق الطرفان علي حل الفرع وأن ينضم أعضاؤه كأفراد، إلي (منظمة الشـباب الاشتراكي)، وبمقتضي هذا الاتفاق انتخب (سـمير حمـزه) نائبا لأمينها العام، (د. حسين كامل بهاء الدين)، وكان طبيباً

خاصا لأطفال السيد (علي صبري) كما دخل عدد آخر مـن قياداتها إلي عضوية اللجنة المركزية للمنظمة.

وكانت (منظمة الشباب) قد تشكلت قبل هـذا التـاريخ بعامين تقريبا، وأشرف علي إنشائها السـيد (زكريـا محـي الدين) واستعان في ذلك بعدد الماركسيين المصريين، كـان من أبرزهم المرحوم (الدكتور محمد الخفيف) الذي أقام عدة معسكرات تثقيفية، تم خلالها تدريب عدد من الكوادر الشابة، أصبحوا فيما بعد (موجهين سياسيين) لأعضاء المنظمة، التي سرعان، ما احتدمت داخلها – بحكـم شـبابية أعضـائها – معارك فكرية حادة!

كان التيار الرئيسي في المنظمة – الذي يسانده السـيد علي صبري – يرى أن علي ثورة يوليو أن تنشئ يسـارها الخاص، المعادي والرافض، للعدوين الرئيسيين للثورة، وهما (الشيوعين) و (الأخوان المسلمين) باعتبارهما بعد ضـرب وتصفية الطبقات الرجعية- الخطر الحالى عليها، وهـو مـا كانت تقوله صراحة أدبيات (طليعة الاشتراكيين) أو الحـزب الثوري، الذي كانت مهمته، أن يلعب دور القيـادة، داخـل تحالف قوى الشعب العامل، الذي يمثله الإتحاد الاشـتراكي،

أسوة بالدور الذي تلعبه (عصبة الشـيوعيين اليوغسـلاف) داخل التحالف الإشتراكي فـي يوغوسـلافيا، التـي كانـت تجربتها، مؤثرة كثيرا علي التجربة الناصرية!.

وأمام حماس هذا الاتجاه لتأكيد ذاتيتـه وخصوصـيته، وبسبب خطئه في التسوية بين موقف (الشيوعيين) وموقـف (الأخوان المسلمين) وخطئه في إدارة الصراع مهما معـاً، ومع كل منهما علي حدة، فإن المعركة الفكريـة المحتدمـة داخل المنظمة، شدته إلي مواقف متعصبة، ضـد الشـيوعية والماركسية، وقادت الرغبة في التميز إلي بـروز الاتجـاه المعادي للشيوعية داخل المنظمة، التي كانـت تضـم بـين صفوف موجهيها، وبين أعضائها عددا من الماركسيين، كان من بينهم، بعض أعضاء (وحدة الشيوعين)، الذين غادروها، ولم يتحملوا – هم الذين تعودوا علي العمـل السياسـي- أن يظلوا عاطلين سياسياً، فقبلوا – علي سـبيل التجربـة – أن ينضموا إلي (منظمة الشباب) لاستكشـاف الموقـف وعـن طريقهم استطعت أن أكون فكرة عامة عن الصراع السياسي داخل منظمة الشباب، وقرأت أدبياتها- وكان توزيعها قاصرا علي أعضائها – وعرفت فيما بعد، أن مجموعـة (حركـة

القوميين العرب) في قيادة المنظمة، كانت قد اعتمدت مجلـه (الحرية) كأحد مصادر التثقيف، لأعضائها وموجهيها، وكان رسمي، بل والظن بأنني أكتبه بتكليف من (عبـد الناصـر) شخصياً، كما كان – القوميين العرب) وبمجموعتها في قيادة منظمة الشباب.

وبسبب طبيعة سلطة يوليـو، فـإن (سـمير حمـزة) ومجموعته، سرعان ما أصبحوا محل شـك واتهـام: كـان الاتحاد الاشتراكي متخماً بالصـراعات ومراكـز القـوى والنفوذ، وكان من بينها صراع مكتوم بين أمينه العام (علـي صبرى)، والمرحوم (كمال الدين رفعت)، الذي كـان أمينـا للدعوة والفكر ومشرفا علي إصدار نشرة (الاشتراكي) نصف الشهرية، وهي بمثابة النشرة الداخلية للإتحاد.

وبالمصادفة المحضة، نقلت (الاشتراكي) أحد مقـالاتي التي كتبتها ونشرتها في (الحرية) وكانـت تنـاقش (ميثـاق المثقفين) الذي وضعته أمانة الدعوة والفكر وطرحته لمناقشة عامة، وقادني صديقان لي من الصحفيين إلي مبني الاتحـاد الاشتراكي، وهناك التقيت بكثيرين وناقشـتهم، وعرفـت أن هناك تنظيما يتبع الإشكاليات، كان من بينهـا أننـي سـألت

المشرف علي التنظيم، عما إذا كـان مباحـا القـراءة فـي الماركسية أو دراستها، وقد أدهشني، أنه أخـرج مـن درج مكتبه لافته صغيرة، تضم نصا من الميثاق يقول (فكر مفتوح لكل التجارب... لا يصد نفسه عنها بالخوف أو التعصب))، لكن أصدقائي – الذين قادوني إلي المبنـي انتقـدوا عقـب الاجتماع – سؤالي، وحذروني من مغبة ما فعلت، ونبهـوني ألا أعود إلي مثله، والواقع أنني لم أعـد إلـي المبنـي، إلا لزيارة هؤلاء الأصدقاء، حيث كنت حريصا علي أن أسـتمع وأتفرج، وأن أحصل علي أعداد (الاشتراكي) ومطبوعـات الإتحاد، إشباعا لهوية متأصلة عندي في الاحتفاظ بالوثـائق السياسية والفكرية، لكني كنت قد أدركت أن المكـان لـيس مكاني، وأن من فيه ليسوا أهلي.

وقد عرفت فيما بعد، أن السيد (علي صـبري)، كـان ضيق الصدر، بتنظيم الدعاة، الذي يشرف عليه (كما رفعت) فقد اعتبره محاولة من الأخير، لإنشاء تنظيم موال له، ومواز للاتحاد الاشتراكي، ومنافس لمنظمة الشباب، التي كان (علي صبري) يعتبرها مواليه له، بحكم أن أمينها العام كان طبييب أطفاله، كما كان (علي صبري) ضيق الصدر بالمعهد العالي

للدراسات الاشتراكية، وهو مدرسة كـادر مركزيـة، كـان يشرف عليها (د.إبراهيم سعد الدين). وتستمر دورة الدراسة فيها حوالي ستة أشهر يشهدها دراسون من قيادات (الإتحـاد الإشتراكي) في الأحياء والأقاليم، ويشارك بالتدريس فيهـا، عدد من الماركسيين.

وكنت قد زرت (المعهد الإشتراكي) بدعوة من الأستاذة (أمينة شفيق) التي كانت تدرس آنذاك في أحد دوراتـه، ولا أدري من أين حصلت علي رقم تليفون عملي، ولكنها اتصلت بي، وأبلغتني إعجابها بما أكتـب فـي (الحريـة) ودعتنـي لزيارتها في (الأهرام)، حيث تعرفت عليها وعلـي زوجهـا الفنان (عبد المنعم قصـاص) وعرفتنـي بالأسـتاد (لطفـي الخولي)، وأسره ا(الطليعة) وطلبوا منـي أن أكتـب لهـم، ودعتنيي أمينة لزيارة المعهد الاشتراكي، حيث قضيت يومـا أتجول بين أبهائه، وناقشت الدارسين، وفيما بعد عرفت منها أنها أندفعت، ورشحت اسمي لكي أكـون عضـوا بطليعـه الاشتراكيين، وبعد إجراء (التحريات) اللازمة لـم يـرفض الترشيح فحسب، بل وعوقبت (أمينة شفيق) بإيقافها لمدة ستة أشهر، لأنها تعرف أمثالي من المتطرفين!

في حوالي ذلك الوقت، عقدت (حركة القوميين العرب) في بيروت، أحد مؤتمراتها وأسفر – كمال قال لي فيما بعـد العقيد (سيد زكي) مدير مباحث الصحافة آنذاك – عن تبنيها (للخط الصيني في الحركة الشيوعية واتخاذها موقفا نقديا من ثورة ٢٣ يوليو) ولفتت مقالاتي في (الحرية) نظر مكتب في (أمانة شؤون الأفراد) في (الاتحاد الاشتراكي) كان يشـرف عليه الكاتب الصحفي (محمد جلال كشك) ويصـدر نشـرة يومية، يحلل فيها ماتنشره الصحف وتذيعه محطات الإذاعـة وشبكات التليفزيون المحلية، ويوجه إليه انتقادات إيديولجيـة، استنادا للميثاق، وكان من سلطته اسـتدعاء بعـض الكتـاب والصحفيين، وحتي الإذاعيـين! لمناقشـتهم فيمـا يكتبـون ويذيعون. وكانت تقارير الأستاذ (كشك) قد وجهت أكثر من إنتقاد إلي مقالاتي في (الحرية) بسبب جنوحهـا، ونظراتهـا الطبقية المتزمتة، وقد طلب من أحد أصدقائي أن يخطرنـي بالمرور عليه ليناقشني فيما أكتب، لكنني لم أسترح للـدعوة، وسألت الأستاذ (لطفي الخولي) رئيس تحرير الطليعة، عمـا إذا كان (جلال كشك) يملك سلطة استدعائي، فأشار علي بأن أهمل الطلب، وألمح إلي أنه سوف يخاطب الأسـتاذ (عبـد

الفتاح أبو لفضل)، أمين شئون الأفراد بالاتحاد الاشـتراكي، والرئيس المباشر لجلال كشك، لكي يرفع يده عني.

وكان (حسين كامل بهاء الدين)، الأمين العام لمنظمـة الشباب، قد ضاق ذراعا بالأمين المساعد (سمير حمزة) بعـد أن استشري نفوذه في المنظمة، فقد كانت اللجنة المركزية لها تضم حوالي ١٣ من زملائه في الفـرع القطـرى لحركـة القوميين العرب، فضلا عن أنه كان مسنودا من السيد (سامي شرف) – سكرتير الرئيس (عبد الناصر) للمعلومات – الذي كان زميلاً لوالد سمير في الكلية الحربيـة، وهكـذا تفجـر الصراع بينهما، واتهم بهاء الدين، حمـزة، بأنـه الأصـلي، ويوجه المنظمة في خط بعيد عن خط الميثاق، وأن التكتـل الذي يقوده يعقد إجتماعات في المنـازل، وينسـق مواقفـه، وساند السيد (علي صبرى) موقف بهاء الدين، وفي اليـوم المحدد لاجتماع اللجنة المركزية لمنظمة الضباب، وبعد قليل من بدء الاجتماع، دخل اللواء (حسن طلعت) مدير المباحـث العامة أنذاك، وبعض ضـباطه فـاعتقلوا (سـمير حمـزة) والمتعاطفين معه من داخل الاجتماع.

وهكذا... وفي مساء ٤ أكتوبر ١٩٦٦، بـدأت حملـة بوليسية ضخمة، هدفها تطهير الاتحاد الاشتراكي ومنظماته، من اليسار، فوجهت الضربة إلي المعهد الاشتراكي، وقـبض علي عدد من أساتذته والدراسين به، والعاملين في أجهزتـه الفنية، كان علي رأسهم عميده (د. إبراهيم سعد الدين)، كمـا قبض علي (سمير حمزة) ومجموعته، وقبض علي، وعلـي كل من كان عضواً في (وحـدة الشـيوعيين المصـريين)، وعلي أعضاء في تنظيم آخر، هو (طليعة الشيوعيين)، كـان قد أتحد الوقت قصير مع وحدة الشيوعيين.

وبدا الضرب بالفلكة للبحث عن المؤامرة!.

استمر التحقيق معي حوالي عشرة أيام، وعلي أوقـات متفرقة، كانت الأيام الخمسة الأولي هـي أقسـاها وأحفلهـا بالتعذيب، وقد دار الجزء الأول من الاستجواب حول مقالاتي (الثورة بين المسير والمصير)، وتولي التحقيق معي، في كل الموضوعات، الرائد – آنذاك (فتحي قته) وهو الذي أشـرف علي تعذيبي ودون أقوالي الرائد (عصام لوكيل) الذي تـولي عملية التعذيب بمعونة عدد من المخبرين، وشهد جانبا مـن التحقيق معي العميد (أحمد صـالح داود) مفـتش المباحـث

العامة بالقاهرة وقتها، والعقيد (سيد ذكـي) المسـؤول عـن مباحث الصحافة، وقد عرفت من (فتحي قته) فيما بعـد، أن (سيد زكي) هو الذي لفت النظر إلي خروج مقـالاتي عـن الخط.

وقد استطعت رغم قسوة الموقف، أن أسـتنتج مـواطن الشبهة في مقالاتي من وجهة نظر الذين يحققون معـي، إذا كانوا يعتقدون، أنها دعوة للعدل عن قرار حـل التنظيمـات الشيوعية، كما أنها كانت تقول بصراحة، أن ما يطبـق فـي مصر ليس اشـتراكية علميـة، وتنتقـد فكـرة المجموعـة الاشتراكية في قمة السلطة، التي كانت أساس حل التنظيمات الشيوعية، وقد اهتم المحقق كثيرا بالنقد الوارد في المقـالات لمنظمة الشباب الاشتراكي، وناقشني طويلا، فيمـا أقصـده منه... وسألني عمن أعرفهم من أعضاء المنظمـة، ورغـم أنني كنت أعرف البعض منهم بالفعل، إلا أنني توقيت ذكـر أسماءهم، وأشرت إلي أنني اعتمدت في معركة فكر المنظمة من مطبوعاتها، وأنني حصلت عليها من الاتحاد الاشتراكي.

وبعد مناقشة استغرقت حوالي خمـس سـاعات حـول المقالات، بدأ التحقيق الشفهي معي، أثنـاء تعـذيبي، حـول

المعلومات، وقد دار حول علاقتي بمجلة (الحريـة) وكيـف نشأت، وعما أتقاضاه من مكافآت مقابل عملي بهـا، ومـن حسن الحظ، أن الضابط الذي فتش مكتبي في المنزل، كان قد حصل علي ملف، يتضمن الرسائل المتبادلـة بينـي وبـين محسن إبراهيم، وكانت صريحة في تأكيدها المستمر – إلـي حد التهديد بالتوقف عن العمل – علـي اسـتقلالية مـوقفي السياسي والفكري، وحريتي في إبداء آرائي، وحريـة مـن أستكتبهم في إبداء ارائهم، ومع أنني كنت قـد عملـت فـي المجلة حتي ذلك التاريخ، حوالي ثمانية أشهر، فقـد كانـت الرسائل تؤكد أنني لم أتقاضي مليماً من المكافأة التي اتفقنـا عليها، وكانت عشرون جنيهاً شهرياً، بل إنني لم أتقـاض هذه المكافأة علي الإطلاق، فقد انقطعـت صـلتي بالمجلـة، ومنعت من دخول مصر، منذ التاريخ وإلي سنوات طويلـة تالية.

وانتقل الاستجواب – وكان يتم بين وجبات التعـذيب – إلي اللقاء الوحيد الذي تم بيني وبين (محسن إبراهيم)، وهـو لقاء قصير لم يستغرق سوى نصف ساعة، ودار كله حـول المجلة، وقد أدهشني أن الرائد (قته) قد سألني عـن الـذين

قابلهم (محسن إبراهيم) إبان زيارته لمصر، فقلت له برد فعل لم أحسن التحكم فيه:

- أظن أنه قابل الرئيس (عبد الناصر)!

وهو رد، عوقب عليه، بنقلي إلي الزنزانة، حيث علقت في مشجب حديدي في حائطها حوالي ساعة، استعادني بعدها (فتحي قته) ليواصل التحقيق معي. وكان أعجب ما تطـرف إليه التحقيق، هو إغرائي بشكل ناعم، بـأن اعتـرف بمـن حرضني علي كتابة المقالات، وقد قال لي (فتحي قته) برقـة زائدة.

- إذا كان أحد المسؤولين قد طلب منك كتابة المقـالات وراجعها معك فإن ذلك يلغي مسؤوليتك، فاذكر لنا اسمه حتي نغلق ملفك؟. وسألته:

مسؤول زي مين يعني؟

فقال بنعومة: السيد (كمال رفعـت) أو السـيد (أنـور السادات)؟!

وقد نفيت تماماً معرفتي بالرجلين، ولم أكن أعرفهمـا فعلاً، وإن كان السؤال قد أعطاني انطباعـاً علـي طبيعـة الصراع علي النفوذ في كواليس الحكم، وأكد لي، أن أجهزة

الأمن، هي الحقيقية الرئيسية الثابته في النظام الحاكم، وأنه لا كبير أمام سلطتها ونفوذها!

وحين تطرق التحقيق إلي علاقتـي (بسـمير حمـزة) اشتدت وطأة التعذيب، حتي بلغت الذروة، وتواصل الضرب بالفلكة والسحب علي البلاط، والتعليق علي مشجب الزنزانة، حتي اعترف بطبيعة صلتي بسمير حمزة، الذي لـم أكـن – لحسن الحظ – أعرفه، وإن كان هو نفسه، قد قال لـي فيمـا بعد، أنه طلب إلي صديق مشترك، أن يدير له لقـاء معـي، والأرجح أن الرسالة وصلتني فرفضت بعـد أن فقـدت أي رغبه في التفرج علي مزيد ممـا يجـري داخـل الإتحـاد الإشتراكي ومنظماته.

ومضت ليال طويلة كنت في معظمها أظل حتي الفجـر معلقاً في مشجب زنزانتي، أسمع طوال الوقـت صـرخات عشرات من أعضاء منظمة الشباب الاشتراكي، الذين كـانوا يضربون بالعصي أمام زنزانتي،وأنا معلق وفي شبه إغماءة فيستغيثون هاتفين: أنا في عرض عبد الناصر.

وقد انتهي التحقيق معي، لأظل قيد حبس إنفرادي مطلق حوالي ٣٥ يوماً ، عوملت خلالها معاملة حرف (ج)، وظـل

(عاصم الوكيل) يضربني بالعصي علي أقدامي، قبيل الإفطار والغذاء والعشاء، وهو ما أكد لي أن هناك جهة مـا، تشـعر بالغيظ مني، وكان (فتحي قته) قد قال لي في اليوم الأخيـر من التحقيق:

- أنا قلت لهم من الأول أنك هايف ومفيش حاجة وراك مصدقونيش!

ولم أسأله عمن هم، ولا عن (الحاجة) التي كانوا يظنون أنني ورائها، لكنني لحظتها فقط، اكتشفت، أنني بسـذاجة – وربما بحماقة- مارست ما أظنه حريتي، فدسـت بأقـدامي أسلاكا عارية كثيرة، وأحدثت إنفجارا لم أكن أقصده.

وهذا هو نص دراستي (الثورة بين المسير والمصـير) التي لم تكن آخر ما ارتكبت من حماقات[١]:

---

[١] قال الرئيس عبد الناصر، لبعض من حاولوا التوسط لي عنده، للإفراج عني ، أن المقالات ، كتبت بأسلوب استعلائي ، وبروح مـن خارج النظام، أي معادلة له!

(١) المسير الثوري وحتمية الإنتماء الطبقي

ما أكثر القضايا التي تستقطب انتباه هذه اللحظـات مـن عمر ثورة يوليو إن ركاما هائلاً من التفصيلات الصـغيرة والقضايا الفرعية يتضمن إغراء شديداً ، ولكنه لا يؤدي إلي شئ ذي قيمة. والذين يصرون علـي اسـتيعاب الظـاهرة الثورية في مصر استيعابا متكاملاً ، يقلقهم إلي حد المـرض ذلك التناقض الواضح بين المسير الثوري وبين المصير الذي قد يقود إليه، ومن هنا فهم يصوغون قضيتهم في أسئلة حول هذاالمسير: ماهي خصائصه؟ ومن أي المنابع يأخـذه قـواه المحركة؟ والي أي مصير تقوده أقدامه؟. والقضية عندهم لها من العمومية ما يستوعب كافة التفاصيل والتفريعات- التـي تستقطب الانتباه، ونحن ندخل العام الخامس عشر من عمـر الثورة – في تناسق مفهوم.. وليس العكس صحيحاً .

أمامنا في البدء تقييم للموقف يعتقد أصحابه أنـه يجيـب علي الأسئلة المطروحة، ونحن مطالبون بأن نتغلـب علـي غثاثة القول، لأن خطورته تدعو إلي احتمالها، بل تحتم ذلك، أن هذا التصور يؤكد أن أقسـاماً كبيـرة مـن المنظـرين

والمنتظرين ينشرون الإصابة (بالغرور الثوري) كمرض معد وخبيث. وهم ينشرون الإصابة علي مستويين:

* في المستوي الأول يضعون الإنجازات التي حققتهـا ثورة يوليو، في موضوع المقارنة مع الأوضاع التي كانـت قائمة قبل الثورة في مصر وفي الأمة العربيـة، أو موضـع المقارنة مع المحاولات الإصلاحية التي قامت بهـا تجـارب تمثل ذكاء الثورة المضادة وحرصها علي الاستمرار. وكـان حصاد المقارنة تلال من الأرقام يكفي تأملها لتزايد الشـعور بالرضي، الذي ينقلب مع التحليل، إلي ثقة متزايدة بالـذات، تتعدي حدود الثقة الدافعة إلي العمل، إلي الثقة التـي قـد لا تحسن تقدير ظروفها، أو التي قد توهم بأن ما أنجزته الثورة، هو آخر ما يمكن عمله. وتلك بعـض أعـراض الإصـابة بالغرور الثوري الذي يغذى علي الإحباط المتكرر الذي التهم تجارب الثورة العربية تجربة بعد تجربه، بحيـث أصـبحت مجرد القدرة علي الفعل الثوري – ولو في أدني مرحلـة – شيئا له قيمة لا حد لها.

* وفي المستوي الثاني: هنـاك مـن المنظـرين مـن يحرصون علي إبراز ما يسمونه التنـاقض بـين (ظـاهرة

يوليو)[1] وبين ما كشفت عنه التجربة الإنسانية مـن مـنهج اشتراكي علمي يفسر ظواهر المجتمع، ويسـتوعب قـوانين تطوره، وكل ما يعني هؤلاء هو الإعلان بأن (ظاهرة يوليو) دليل علي إفلاس المنهج العلمي، وصولاً إلي ضرورة شـق طريق ثوري شديد الخصوصية، يهمل تماماً ، بـل يعـادي، الفرضيات الأساسية التي يطرحها هذا المنهج، ويصوغ فـي النهاية (الطابع القومي الخاص لتجربة يوليو). الـذي يصـل (الغرور) أحيانا إلي حد وصفة بأنه (مسـار جديـد تمامـاً لقضيه الثورة)، ليس في مصر، ولكن في المعمورة!

وليس انتشار هذه العدوي الخبيثة دليلاً علي جهل هـذه الأقسام من المنظرين والمتنظرين، ولكنها دليل علي أن فكر الثورة في مصر لم يصغ بعد صياغة متكاملة، وهذا هو مـا يسمح بتفريغ هذه الأمراض وتزايد أعداد المصابين بها.

---

[1] كان وصف ثورة يوليو ب (ظاهرة يوليو) أحد الموضـوعات التي دار معي حولها تحقيق مرهق، انطلاقا من تفسير يري أن استخدام هذا التوصيف، يعني أنني أنكر صفة الثورة عنها، ولـم يكـن ذلـك بالطبع ما قصدت إليه، ولكني قصدت أن أحـدد خصوصـيتها، وقـد عرفت من بعد ، أن استخدام هذا المصطلح، كان مصدر استفزاز لاحد له، في دوائر الحكم.

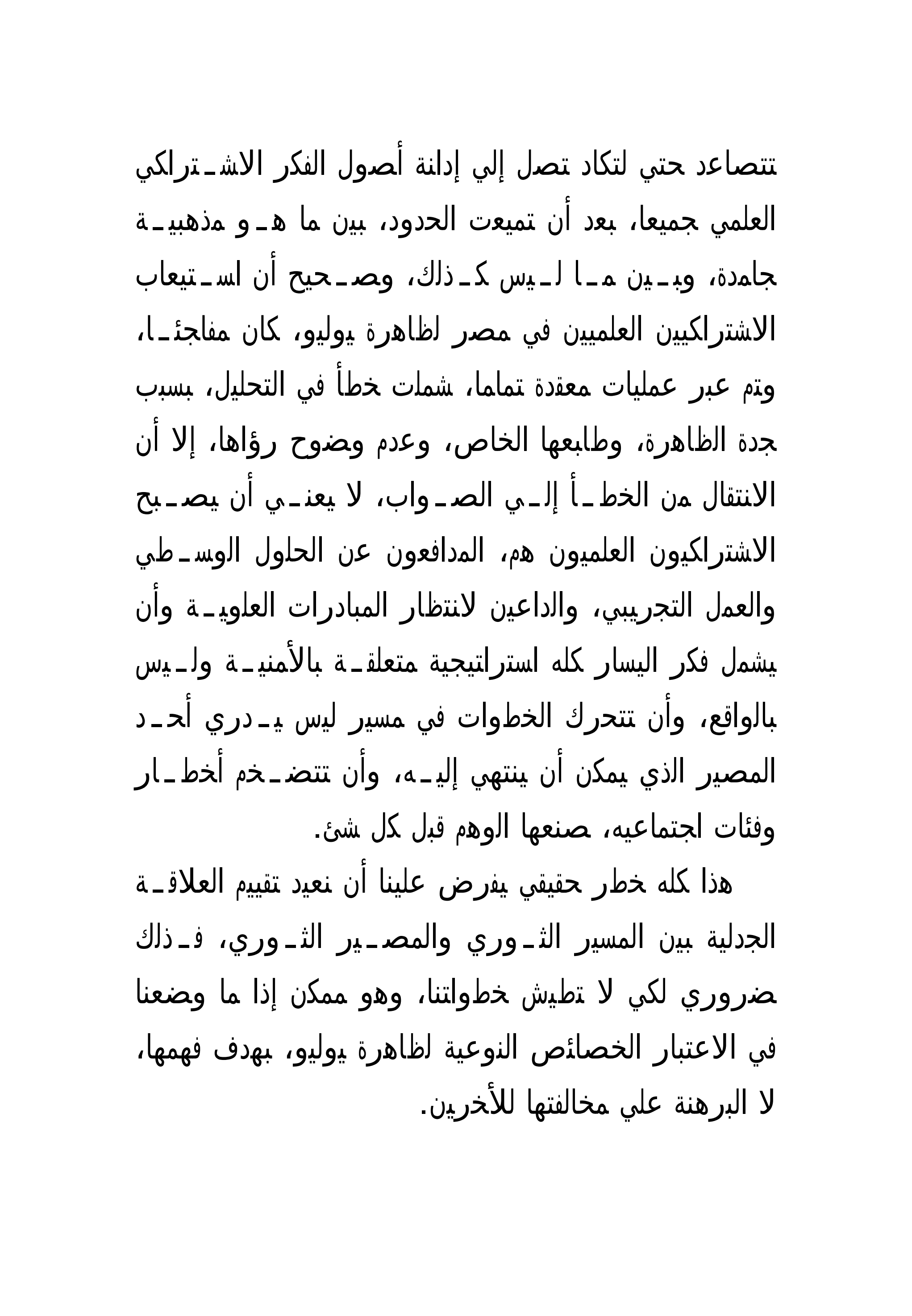
والمشكلة الحقيقية هي أن هذا المرض يصـيب كثيـرين ممن قد يكونون بالفعل في معسكر الثورة، دون أن يجدوا من يصدهم عن دعواهم أو يعالجهم من مرضهم أو يفتح أعينهم علي أن ما يقولون يمثل موضوعيا وجهة نظر أعداء الثورة، بل ويقال بالفعل، من حجم ما أنجزته ظاهرة يوليو، فالمقارنة الرقمية بين الثورة وما كان قبلها تنطلق مـن تصـور بـأن ظاهرة يوليو استمرار للمجتمع القـديم، وامتـداد معاصـرا لتركيبة الاجتماعي وهي فكرة تقلـل مـن قيمتهـا وتهـبط بمستواها، خاصة حين يصل انزلاق المنظرين إلي الحد الذي قارنوا معه (ظاهرة يوليو) (بالظاهرة السعودية) و (بالظاهرة الهاشمية) أيضاً.

وعلي عكس هؤلاء، فإن الذين يصرون علي أن الظاهرة نفسها أصبحت تتضمن إمكانية موضوعية وضـعتها علـي عتبة التناقض الرئيسي مع المجتمع القديم، بحيث أصـبحت مطالبة بأن تقتلع من الأساس كل جذوره، يطالبون بان يكون فهمنا لها وتقييمنا لما أدته، مرتبطاً تماماً بالطموح الثوري الذي تستهدفه، والذي ينبغي أن ينطلق من موقع طبقي واضح تماماً، والخطر الأساسي لافتقاد مثل هذا التصور، هـو أن

نفتقد إلي إستراتيجية ثورية طويلة المدي وأخري قصيرة، أو أن نظل ندور في إطار المني واضعين أملنا كله في مبـادرة القيادة السياسية وحصيلة حساباتها للواقع.

وأيضاً فيما أخطر التصور اليميني القائل بـأن ظـاهرة يوليو الثورية هي التعبير عن تناقض الاشتراكية العلمية، مع الواقع المصري، وعدم صلاحيتها للتطبيق فيه، وهو تناقض ينفخ اليمين فيه، وهدفه أن يعرقل الثورة، معتمدا علي إثـارة النعرات البطولية القائمة علي السعي للتميز بهدف التميـز، ولهذا فإن الإلحاح المبالغ فيه علي طـرح شـعار (الطـابع القومي الخاص لاشتراكيتنا) هدفه في الواقع إجهاض ثوريـة الظاهرة إذا ما أسهل أن تستدرج مع هذه الإغـراءات إلـي دروب فرعيه، تنحت فيها فتبدد طاقتها الثورية في مزيد من التجريبية العقيمة.

ذلك خطر مفهوم، ولكن ضربته الرئيسية لمعسكر الثورة هي نجاحه في سحب اليسار إلي فكرة. إن مرحلة كاملة من الوقوع في المذهبية الجامدة ضيقة الأفق قد انتهت بالإدانـه وهذا مفهوم ولكن بوادر تعرض اليسار لفقدان التـوازن قـد بدأت، لأن الإدانة لم تشمل فقط المذهبية الجامـدة، ولكنهـا



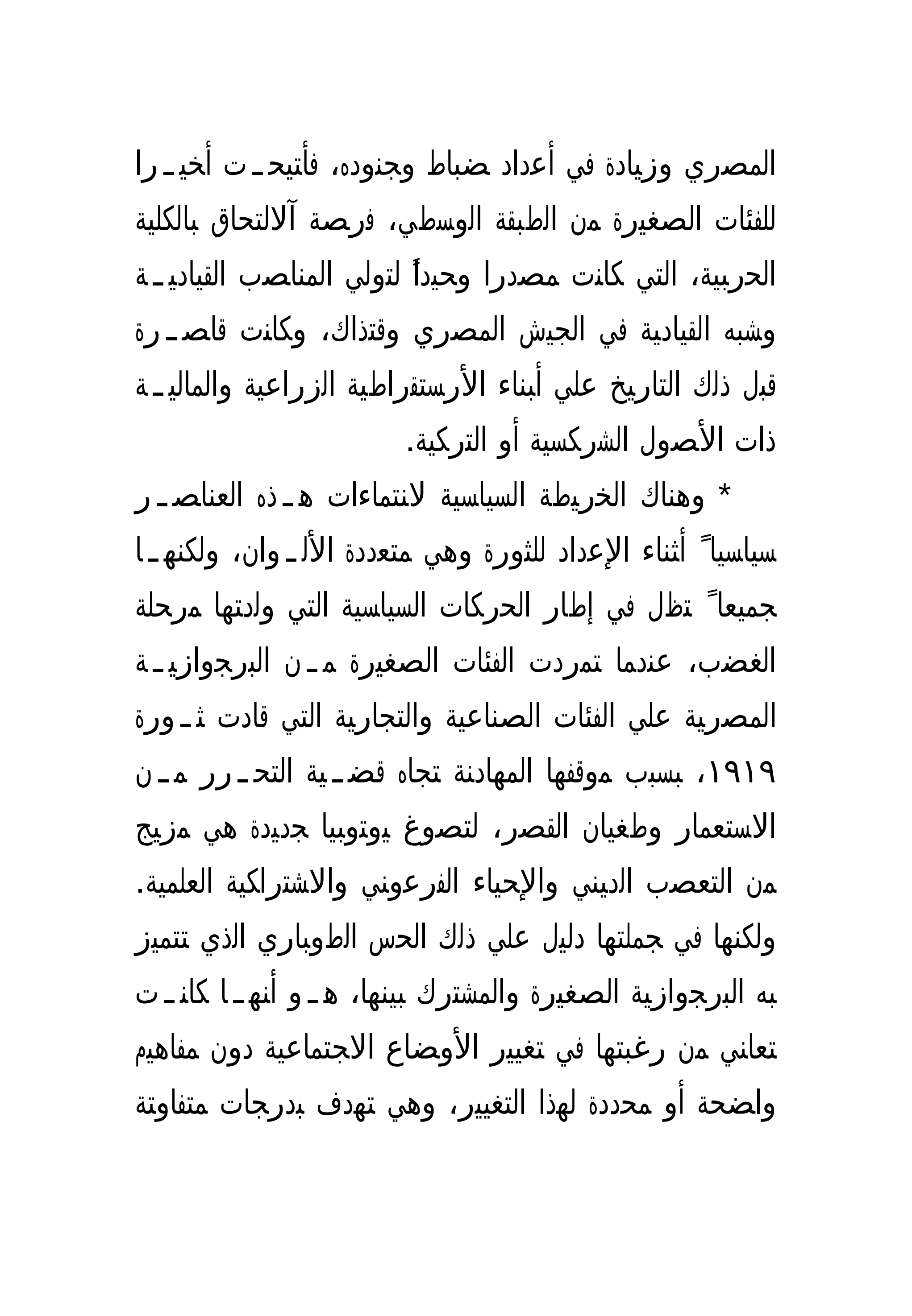
تتصاعد حتي لتكاد تصل إلي إدانة أصول الفكر الاشتراكي العلمي جميعا، بعد أن تميعت الحدود، بين ما هو مذهبية جامدة، وبين ما ليس كذلك، وصحيح أن استيعاب الاشتراكيين العلميين في مصر لظاهرة يوليو، كان مفاجئا، وتم عبر عمليات معقدة تماما، شملت خطأ في التحليل، بسبب جدة الظاهرة، وطابعها الخاص، وعدم وضوح رؤاها، إلا أن الانتقال من الخطأ إلي الصواب، لا يعني أن يصبح الاشتراكيون العلميون هم، المدافعون عن الحلول الوسطي والعمل التجريبي، والداعين لانتظار المبادرات العلوية وأن يشمل فكر اليسار كله استراتيجية متعلقة بالأمنية وليس بالواقع، وأن تتحرك الخطوات في مسير ليس يدري أحد المصير الذي يمكن أن ينتهي إليه، وأن تتضخم أخطار وفئات اجتماعيه، صنعها الوهم قبل كل شئ.

هذا كله خطر حقيقي يفرض علينا أن نعيد تقييم العلاقة الجدلية بين المسير الثوري والمصير الثوري، فذلك ضروري لكي لا تطيش خطواتنا، وهو ممكن إذا ما وضعنا في الاعتبار الخصائص النوعية لظاهرة يوليو، بهدف فهمها، لا البرهنة علي مخالفتها للأخرين.

وظاهره يوليو الثورية) ظاهرة نوعيـة خاصـة، تنبـع خصوصيتها من الطابع النـوعي لتطـور حركـة التـاريخ المصري، وذلك الاضطراب الشديد فـي مواقعـه الطبقيـة وخاصة في العقدين السابقين لقيام الثوره، وطبيعة الصـراع الذي نشب خلال السنوات الأولي التـي طرحـت خلالهـا الظاهرة نفسها، وهما مصدران لحقائق أساسية تفيد في فهـم الظاهرة، منها:

أن الكتلة الكبرى من العناصـر التـي تصـدت لقيـادة الظاهرة الجديدة تنتمي إلي الفئات الصـغيرة مـن الطبقـة الوسطي، فتلك الفئات التي كنت دائما محرومة من حق تولي المناصب القيادية وشبه القيادية في الجيش المصري، بحكـم احتكار أبناء الفئات العليـا مـن الأرسـتقراطية الزراعيـة والتجارية لها.

ومن هنا فليس غريبا أن العناصر القيادية التي خططـت – ونفذت – الثورة كانت أبناء دفعات قليلـة متقاربـة مـن خريجي الكلية الحربية المصرية، وهي دفعات ١٩٤٠ ومـا بعدها. ففي تلك الفترة كانت معاهدة ١٩٣٦ وقـد وضـعت موضع التنفيذ، بما تضمنته من توسع فـي تسـليح الجـيش


المصري وزيادة في أعداد ضباط وجنوده، فأتيحـت أخيـرا للفئات الصغيرة من الطبقة الوسطي، فرصة آلالتحاق بالكلية الحربية، التي كانت مصدرا وحيداً لتولي المناصب القياديـة وشبه القيادية في الجيش المصري وقتذاك، وكانت قاصـرة قبل ذلك التاريخ علي أبناء الأرستقراطية الزراعية والماليـة ذات الأصول الشركسية أو التركية.

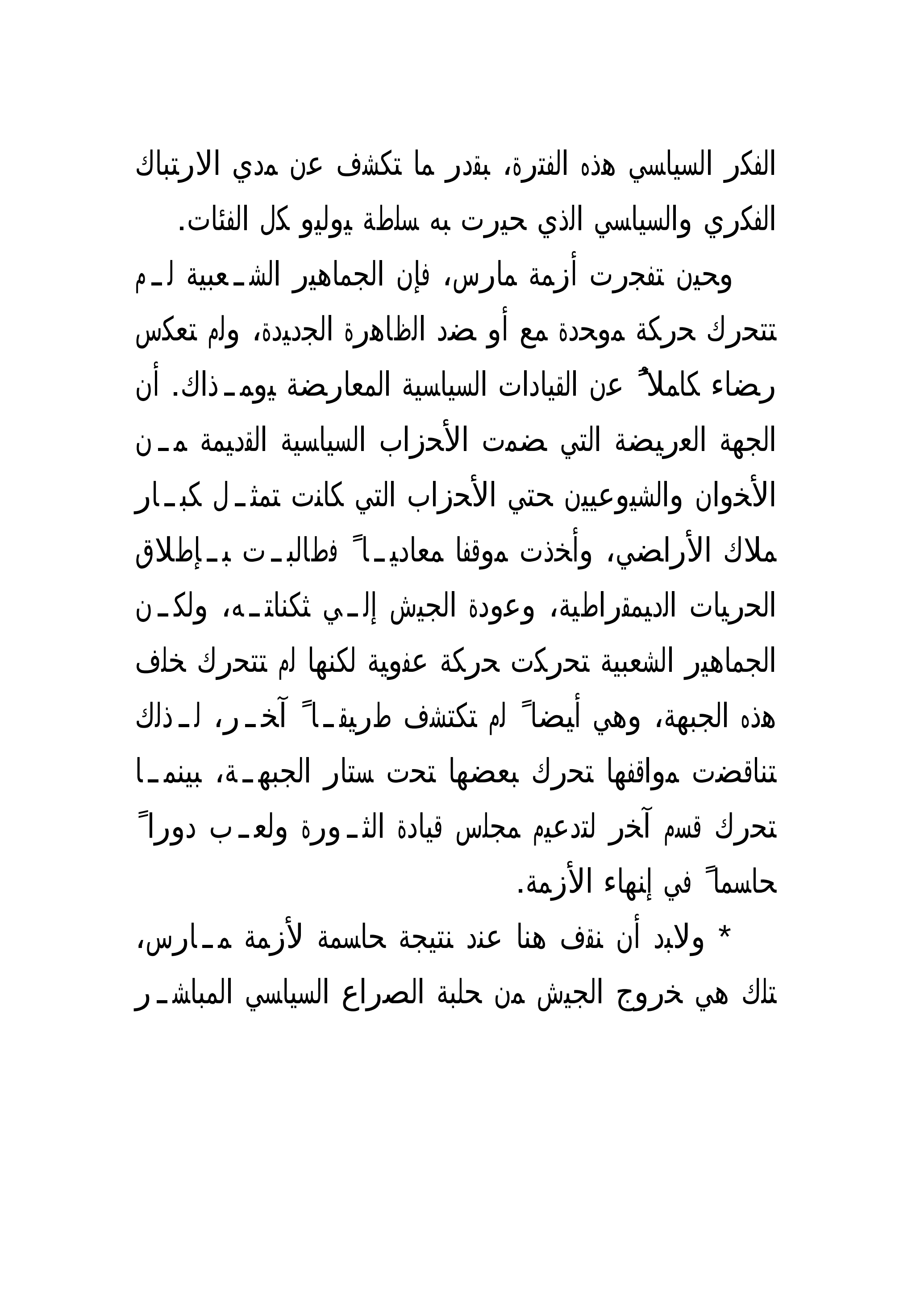
* وهناك الخريطة السياسية لانتماءات هـذه العناصـر سياسياً أثناء الإعداد للثورة وهي متعددة الألـوان، ولكنهـا جميعاً تظل في إطار الحركات السياسية التي ولدتها مرحلة الغضب، عندما تمردت الفئات الصغيرة مـن البرجوازيـة المصرية علي الفئات الصناعية والتجارية التي قادت ثـورة ١٩١٩، بسبب موقفها المهادنة تجاه قضـية التحـرر مـن الاستعمار وطغيان القصر، لتصوغ يوتوبيا جديدة هي مزيج من التعصب الديني والإحياء الفرعوني والاشتراكية العلمية. ولكنها في جملتها دليل علي ذلك الحس الطوباري الذي تتميز به البرجوازية الصغيرة والمشترك بينها، هـو أنهـا كانـت تعاني من رغبتها في تغيير الأوضاع الاجتماعية دون مفاهيم واضحة أو محددة لهذا التغيير، وهي تهدف بدرجات متفاوتة

إلي إحداث انقلاب إجتماعي، وهي في الأغلب الأعم قـادرة علي نشر السخط بين الأقسام الكبيرة من الجماهير، ولكنهـا عاجزة عن تنظيم هذه الجماهير، لعدم وضوح فكرها أحيانـا أو لتقطع نفسها الثوري، وعدم تصاعده فـى مسـار ثابـت والمؤكد أن هذه الحركات لم تستطع أن تستوعب طـويلاً – في إطار تنظيمي – العناصر الساخطة في الجيش. فقد كانت أوعيتها التنظيمية مهلهلة، ولكنها بلا شك تركـت تـأثيرات متعددة في (أولاد الأفندية) الذين دخلوا الكلية الحربيـة فـي سنوات ما بعد العام ١٩٣٦ لذلك آثر الضباط الاستقلال بعمل تنظيمي أكثر فاعلية وأكثر قدرة علي تنفيذ مطامحهم.

* ولعل السنوات الأولي التي شكلت طفولـة الظـاهرة الجديدة هي أكثر السنوات دلالة علي طابعها. إن الخطـوات لم تكن مضطربة فقد- كما يلاحظ (الزوجان لاكويتر) فـي كتابها عن (تحول مصـر) – ولكنهـا كانـت – أحيانـا – متناقضة، لذلك كانت الضربات توجه في كـل الاتجاهـات، وتصيب مختلف الفئات، ولم يكن هناك مـن قائـد للعمـل السياسي يومذاك سوى حلم (طوباوى) عن مجتمع تنفذ فيـه الشعارات التي كانت تسود الشارع طوال العامين السـابقين

لثورة يوليو: (الإصلاح)، و ((التطهير)) و ((القضاء علـي فساد أداة الحكم)) و (القضاء علي الرشوة المحسوبية)) بل أن المبادئ الستة نفسها كانت تعبيرا عن ذلك الحلم، ففي داخلها كان هناك العجز عن رؤية نفسها كانت تعبيراً عـن ذلـك الحلم، ففي داخلها كان هناك العجز عن رؤية مغزى السيطرة السياسية لرأس المال، لذلك ساد ظن، بأن من الممكن إقامـة حكومة لا تخضع لسيطرة رأس المال، رغم أنه يسيطر علي الاقتصاد، ولم تكن الوسائل محددة، ربمـا كانـت العدالـة الاجتماعية كشعار في ذلك الوقت لا تعني أكثر من مجـرد مجموعة من الإصلاحات مع بقاء التركيب الاجتماعي كمـا هو أما بقية الشعارات فلم يكن هناك اختلاف عليها بين فئات المجتمع، فالجميع يريدون جيشا وطنيـا قويـاً، ويريـدون تحرير مصر، ويساندون مطالب إقامة حياة ديمقراطية سليمة. وكانت القضية هي مدي شمول هـذه الشـعارات ونوعيـة محتواها، وعكس هذا الغموض في المفاهيم حقيقة هامة هي: أن قيادة الظاهرة الجديدة لا تنتمي إلـي المواقـع الطبقيـة الرئيسية في المجتمع، وإنما تنتمي إلي تلك الفئات الهامشـية التي لا قضية طبقية حقيقية لها، ومن هنا نشأ لدي قادة الثورة

تصور بأن حزب الوفد – حزب البرجوازيـة التقليـدين – يمكن أن ينفذ مثل هذه الأهـداف، ولـولا رفضـه لـبعض الشروط لكان قد تسلم القيادة من الضباط الأحرار ولـدخلت ثورة يوليو في إطار الإقطاعيين الذين طبق علـيهم قـانون الإصلاح الزراعي المقاومة، لكن ذلك علي أي الأحوال لـم يصنع حركة مقاومة متناسقة. وسادت حالـة مـن السـكون الظاهري، تموج من الداخل بكثير من الصـراع المكتـوم. كانت كل الفئات الاجتماعية والسياسية تحاول استلاب القيادة الجديدة إلي صفها، وحين فشلت هذه المحـاولات انفجـرت أزمة مارس ١٩٥٤، التي كانت تعبر عن قلق جميع الفئـات الاجتماعية والسياسية عن رغبتها في تحديد واضـح لحالـة سياسية بلغت من عدم التحدد، حدا جعلهـا مصـدرا لقلـق وخوف الجميع. وليس هناك أغرب ولا أكثر تناقضـا مـن التوصيفات التي صنعت بها الأحـزاب السياسـية القديمـة الظاهر الجديدة، فهي (فاشية عسـكرية معاديـة للطبقـات الشعبية) عند البعض،وهي (حركة شـيوعية ملحـدة) عنـد الآخرين، وأيضا فهي تعبير عن (سيطرة رأس المال الأجنبي المتحالف مع الاستعمار) كل هذه الصفات لا تكشف عن قحط



الفكر السياسي هذه الفترة، بقدر ما تكشف عن مدي الارتباك الفكري والسياسي الذي حيرت به سلطة يوليو كل الفئات.

وحين تفجرت أزمة مارس، فإن الجماهير الشـعبية لـم تتحرك حركة موحدة مع أو ضد الظاهرة الجديدة، ولم تعكس رضاء كاملاً عن القيادات السياسية المعارضة يومـذاك. أن الجهة العريضة التي ضمت الأحزاب السياسية القديمة مـن الأخوان والشيوعيين حتي الأحزاب التي كانت تمثـل كبـار ملاك الأراضي، وأخذت موقفا معاديـاً فطالبـت بـإطلاق الحريات الديمقراطية، وعودة الجيش إلـي ثكناتـه، ولكـن الجماهير الشعبية تحركت حركة عفوية لكنها لم تتحرك خلف هذه الجبهة، وهي أيضاً لم تكتشف طريقـاً آخـر، لـذلك تناقضت مواقفها تحرك بعضها تحت ستار الجبهـة، بينمـا تحرك قسم آخر لتدعيم مجلس قيادة الثـورة ولعـب دوراً حاسماً في إنهاء الأزمة.

* ولابد أن نقف هنا عند نتيجة حاسمة لأزمة مـارس، تلك هي خروج الجيش من حلبة الصراع السياسي المباشـر

وهذه النتيجة تؤكد عدم صحة ما يذهب إليه البعض من[1] أن الجيوش أصبح لها في العصر الحديث قدرة متزايدة علي

---

[1] تأملت هذة الفكرة ، فيما بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، والصراع بين (المشير عبد الحكيم عامر) والرئيس (عبد الناصر)، فبدت غير صائبة تماماً ، أو هي حقيقة ناقصة، وفي كل الأحوال فلم يمكن ممكنا، ذكرها أو نشرها، والواقع أن الجيش خرج من حلبة الصراع السياسي المباشر علي السلطة، حين اختار عبد الناصر صديقة عبد الحكيم عامر، لقيادته، وتأمينة ضد أي انقلابات، وضمان ولاءه للثورة، وبذلك حال بين المجموعة التي قادت الثورة يوم ٢٣ يوليو، وبين استخدام الجيش للقيام بانقلابات، لكن ذلك لم يحل دون قيام الجيش بدور سياسي رئيسي، إذا الواقع أن نفوذ المؤسسة العسكرية كان قويا في حياة مصر الناصرية، ولم يتكشف ذلك إلا حين انفجر الصراع المكتوم بين (عامر)و (عبد الناصر). وكان (عامر) يعتقد، كما قال لحاشتيه، بعد الهزيمة، وقبل وفاته أنه الوحيد القادر علي موازنة (ديكتاتورية عبد الناصر) بسلطة ونفوذ الجيش (!!). ولم يعد سرا، أنه كان راضيا بأن يكون الجيش هو حزب الثورة الحقيقي، فهو مصدر الكوادر التي تلعب الأدوار السياسية من رؤساء الوزارات إلي الوزراء إلي المحافظين ولسفراء ورؤساء المدن ورؤساء المؤسسات الصحفية ، لذلك كان (عبد الحكيم عامر) ساخطا علي إنشاء الاتحاد الاشتراكي ، وكان يعتبره مؤسسة مدنية منافسة للمؤسسة العسكرية في سلطاتها.

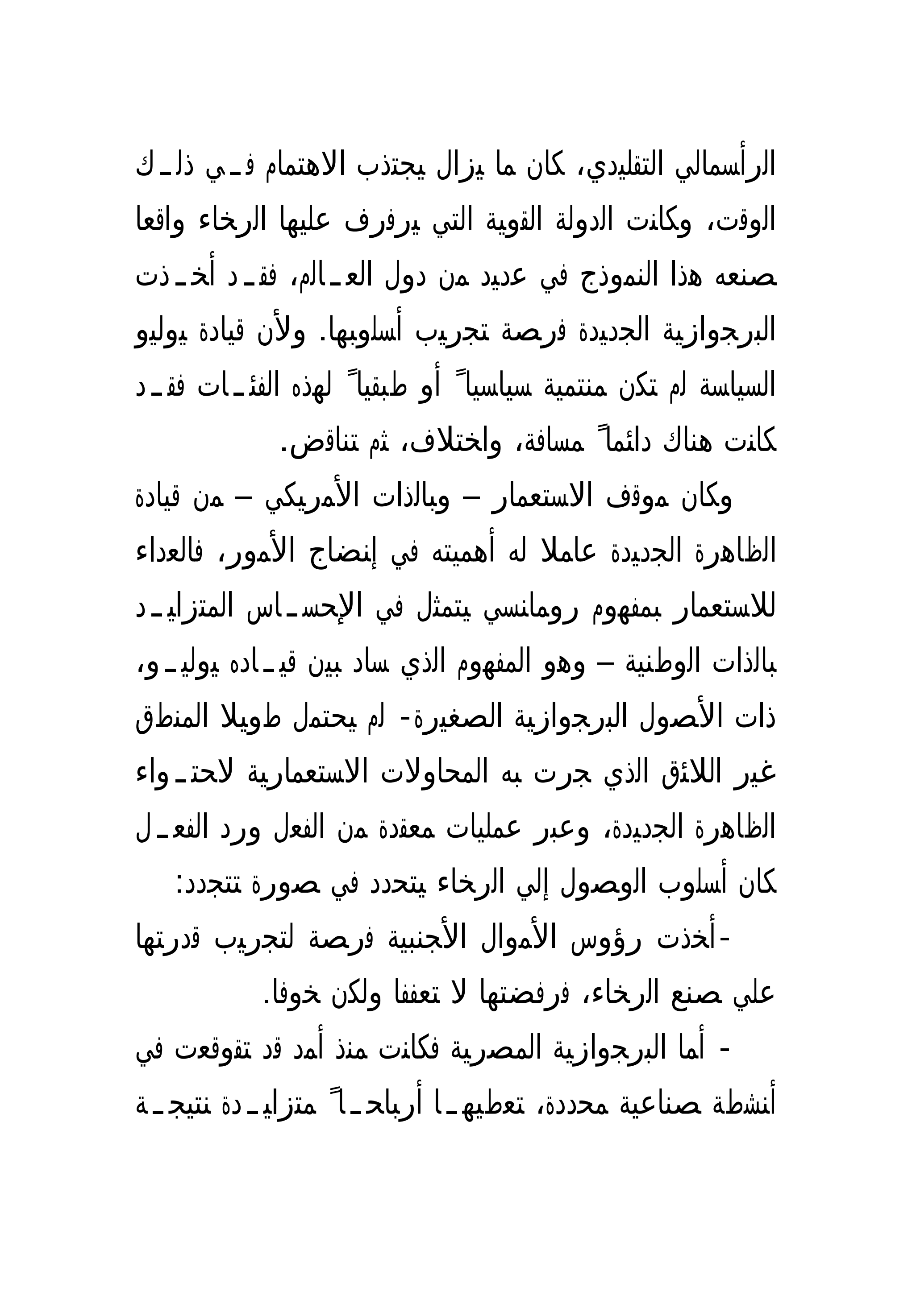
قيادة العمل السياسي التقدمي، وأن وضعيتها التاريخيـة قـد تغيرت. كما أنها توضح أسباب عدم وقوع (ظاهرة يوليـو) في منطقة الانقلابـات العسـكرية التقليديـة والمغـامرات السياسية التي تقوم بها الجيوش في العالم منذ الحرب العالمية الثانية والتي تنشر في المشرق العربي بصورة متزايدة. لقـد عزل الجيش الصراع السياسي المباشر ولم يعد طرفاً فيـه منذ أزمة مارس، إذا ألزمته السلطة النابعة أصلاً منه موقفه الطبيعي كجزء من جهاز الدولة. وقد نجحت ظاهرة يوليـو في ذلك نجاحا كاملا واعتمدت في تـدعيم سـلطتها، علـي المنطق الطبيعي وهو حركة لفئات الاجتماعيـة فـي إطـار توازن مفترض.

* وكان بروز قيادة (عبد الناصر) في هذه الفترة عاملا له أهميته الشديدة. إذا كان (عبد الناصر) هو العقل التنظيمي لحركة الضباط الأحرار. الشديدة. الوثائق التي نشرت عـن هذه الحركة، إلي أن (عبد الناصر) قد رفض الاستجابة لكـل المغريات التي كانت تفرزها مرحلة السـخط. فقـد رفـض الإرهاب الفردي ورفض الاغتيـالات السياسـية كأسـلوبين منتشرين يومذاك، ورفض الذوبان في التنظيمات السـاخطة،

وإن كان قد حرص علي تنظيم اتصالات بينهما وبين حركة الضباط الأحرار. وبظهور قيادة (عبـد الناصـر) تبلـور الموقف أكثر، وتحددت إلي درجة أكثر المطـامح الكبـري للظاهرة، صحيح أنها لم تصل إلي تحديد موقـف متكامـل، ولكنها تحركت خطوات إلي الأمام.

* ولكن هذا لم يكن يعني أن السلطة الحقيقية في المجتمع كانت بلا محتوي، فقد كانت هنـاك العناصـر البرجوازيـة الجديدة التي ولدت أثناء الحرب العالمية الثانية، والتي كانت تعاني معاناة كاملة من سيطرة كبار ملاك الأراضي سياسيا، ومن رحلة رؤوس الأموال إلي الاسـتثمار فـي الزراعـة وإهمال الصـناعة. وكانـت تعـاني أيضـاً مـن ضـغط الكومبرادوريين الذين يشاركون رأس المال الأجنبي، وكانت ترتعب من الانتفاضات العفوية للجماهير، والخلاصـة أنهـا كانت تطمح إلي نظام جديد لا استعمار فيـه ولا ملـك ولا شعب أيضاً .

وقد تلقفت هذه الفئات فكرة (المجتمع القوي الذي يسيطر عليه الرخاء) والتي عبرت عن الطموح الثـوري لظـاهرة يوليو، وتقدمت تؤكد أهليتها لصنع هذا التقدم. ولأن النموذج


الرأسمالي التقليدي، كان ما يزال يجتذب الاهتمام فـي ذلـك الوقت، وكانت الدولة القوية التي يرفرف عليها الرخاء واقعا صنعه هذا النموذج في عديد من دول العـالم، فقـد أخـذت البرجوازية الجديدة فرصة تجريب أسلوبها. ولأن قيادة يوليو السياسة لم تكن منتمية سياسياً أو طبقياً لهذه الفئـات فقـد كانت هناك دائماً مسافة، واختلاف، ثم تناقض.

وكان موقف الاستعمار – وبالذات الأمريكي – من قيادة الظاهرة الجديدة عاملا له أهميته في إنضاج الأمور، فالعداء للاستعمار بمفهوم رومانسي يتمثل في الإحسـاس المتزايـد بالذات الوطنية – وهو المفهوم الذي ساد بين قيـاده يوليـو، ذات الأصول البرجوازية الصغيرة- لم يحتمل طويلا المنطق غير اللائق الذي جرت به المحاولات الاستعمارية لاحتـواء الظاهرة الجديدة، وعبر عمليات معقدة من الفعل ورد الفعـل كان أسلوب الوصول إلي الرخاء يتحدد في صورة تتجدد:

-أخذت رؤوس الأموال الأجنبية فرصة لتجريب قدرتها علي صنع الرخاء، فرفضتها لا تعففا ولكن خوفا.

- أما البرجوازية المصرية فكانت منذ أمد قد تقوقعت في أنشطة صناعية محددة، تعطيهـا أرباحـاً متزايـدة نتيجـة

لإنخفاض التركيب العضوي لرأس المال، ولم تكـن لـديها رغبة في أن تغامر في صـناعات ثقيلـة لـذلك رفضـت المشاركة في تمويل مصنع للحديد والصلب، أو الكيماويـات أو غيرها مـن الصـناعات الأساسـية، فمصـانع النسـيج والعقارات، والأنشطة الطفيلية، أكثر ربحـا بالتأكيـد وأقـل خسائر. ولكن العقارات ومصانع النسيج لا تصنع التقدم، ولا تصنع الرخاء الذي يحلم به أولاد الأفندية!.

* وهنا تبرز فكرة التنمية الاقتصادية في خفوت وعلـي استحياء، وإذا كان رأس المال الأجنبي خـائف، والمحلـي ضعيف، فسوف تتقدم دولة الظاهرة لتصنع الرخاء بالتنميـة عن طريق الافتراض من السوق الوطنية، وبقانون يفـرض علي الشركات القائمة، أن تساهم بجزء مـن أرباحهـا فـي مشروعات الصناعة الثقيلة التي تطرح الدولة أسهمها للبيـع، وتذعر البرجوازية المصرية، ويصيح (عبود باشا):

- إنها ضريبة الدم.

ولك شركاته تصدر ميزانيات مزورة لكي تؤكـد أنهـا تخسر، فتهرب بذلك من القانون الذي حتم أن تشـترك كـل المنشآت الاقتصادية بـ ١٠% من صافي ربحها في التنمية.

وتتطور فكرة التنمية لتصبح (التخطيط الشـامل والبرمجـة الكاملة) دون أن يكشف قادة يوليو التنـاقض البـديهي بـين التخطيط الشامل وبقاء الملكية في إطار الحقـوق الخاصـة المكفولة بالحماية. ومنذ حرب السويس، وقيادة يوليو، ترفض تسليم ممتلكات الأجانـب والأعـداء التـي مصـرتها إلـي البرجوازية المحلية رغم إلحاحها، ومع ذلك تسـللت إليهـا عناصر من هذه البرجوازية لكي تديرها، وفقط وعندما أقلقت مواقع رأس المال فكر ظاهرة يوليو، أكثر مما تطيق، وحين ثبت لها أنه لن ينمي، ولن ينشـئ صـناعة، وانـه يهـدد مشروعها بالانهيار، اكتشفت التناقض بين التخطيط الشـامل وبين بقاء الملكية حقا مصبوتا، عندئـذ كـان لا بـد مـن الاصطدام.

* ولم تكن الجماهير الشعبية خارج الحلبـة تمامـا، أو داخلها تماما، فمن البدء كانت أحلام قيادة يوليو، في مجتمـع متقدم تتجاوب مع أحلام الجماهير، وكانت هنـاك مكاسـب متجددة قد حصلت عليها. إن البرجوازية رغم أنها قد أخذت الفرصة لتجريب أسلوب لم تنجح تماماً في عزل قيادة يوليو عن الجماهير، ومن هنا تمتعت بمستوى من الخـدمات ذات

فاعلية أكثر.. ولكن أخطر ما نجحت فيه البرجوازية هو أنها حرمت الجماهير حق التعبير السياسي المنظم، كان الخـوف من مواقع الجماهير يرعب البرجوازية، وليس غريبـا أنهـا كانت أكثر العناصر تهليلاً لإسقاط المؤسسـات الليبراليـة: الدستور والبرلمان والأحزاب والحجر علي الحريات، ولاشك أن كثير من تلك المؤسسات كان قد تلوث بدرجة تدعو إلـي عدم البكاء عليه، لكنه غاب بلا بديل، لذلك ظلت البرجوازية تمارس نشاطاتها من خلال مؤسساتها الاقتصادية المعروفة: البورصة والشركات واتحادات الصـناعات. بينمـا كانـت الجماهير تشق الطريق في إصرار للتعبير عن نفسها.

* وكانت قرارات يوليو ١٩٦١ التي ضربت حق الملكية ضربة موجعة هي خاتمة المطاف لتلك المرحلة. كان قد تأكد أنه لا مفر من الاصطدام الحتمي بواحة من طبقات المجتمع، بعد أن وعت قيادة يوليو أن الرخاء هو قضية طبقية شأن كل الأشياء. وهكذا صاغت ظاهرة يوليو رؤيتها التي عبرت عن نفسها بعد ذلك في (الميثاق الوطني) وأعلنت أن البرجوازيات القومية في المستعمرات لم تعد قادرة في الظروف العالميـة المعاصرة علي صنع التقدم.

وصدرت قرارات يوليو ١٩٦١ تحتضن الجماهير الشعبية إلي حد التدليل فخصصت للعمال ٢٥% من أرباح المنشأت الصناعية وقللت ساعات العمل، رغم أن هذا يتنافي مع متطلبات التنمية نفسها.

وعاملت – مع ذلك – فقررت له التعويضات الكاملة. وفقط، وبعد كارثة الانفصال، تقطعت الخيوط تماماً بين قيادة يوليو، وبين مختلف الفئات الاجتماعية التي كانت صاحبة النصيب الأوفي قبل ذلك. وبدا البحث عن وعاء تنظيمي يضم الطبقات التي استطاعت أخيرا أن تؤكد أنها الوحيدة القادرة علي تحقيق أحلام يوليو وبدأ البحث عن فكر، يعبر عن هذه الفئات، ويحشدها في صفوف الثورة ويرسم لها خطوات العمل القادمة.

* وعندما صدر بيان ٤ نوفمبر ١٩٦١ [١] الـذى حـدد خطوات العمل السياسي المقبلة، بدأت ظاهرة يوليـو تـدخلا عصراً جديدا من تاريخها.. لم تكن كل الظروف مهيـأة.. كانت البرجوازية قد نجحت طوال سـنوات فـي حرمـان الجماهير من التنظيم السياسي والاقتصادي، كما نجحت فـي تشويه الفكر الاشتراكي تشويها مقززا، من خلال الصـحافة التي كانت تملكها وتوجهها مـن خـلال بعـض المعـارك السياسية الداخلية والعربية، وهكذا تشكلت اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية من عناصر لا تاريخ سياسي لها، وطرحت مفهوما مضحكا للاشتراكية، ووضعت أسـس

---

[١] هو بيان سياسي صدر بعد أسابيع من فك الوحـدة المصـرية السورية في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ، وفيه أعلن عبد الناصر، عن تشكيل لجنة تحضيرية تكون مهمتها، الإعداد لمـؤتمر قـومي عـام للقـوى الشعبية، علي أساس قاعدة (الحرية كل الحريق للشـعب.. ولا حريـة لأعداء الشعب) ويخـتص هـذا المـؤتمر بمناقشـة ميثـاق للعمـل الوطني،وهي الخطوات التي نفذت في شتاء ١٩٦١، والشهور الأولـي من عام ١٩٦٢، حيث اجتمع المؤتمر الوطني للقوى الشعبية فـي ٢١ مايو ١٩٦٢ ، وتلي عليه عبد الناصر الميثاق، ودارت منافشات حوله ، إنتهت بإقرارة ، مع وضع قيود حادة عليه.

انتخابات المؤتمر وبدئ في إعداد مشروع الميثاق، الذي كان مقررا، أن يناقشه المؤتمر وأن يقـره، باعتبـاره، برنـامج يوليو، أو فكرها، أو عقدها الاجتماعي..

٢- الفكر الثوري ومحنة الإنزلاق الطبقي.

انتهي المسير الثوري بعد عشر سنوات من عمر ظاهرة يوليو، إلي حتمية الانتماء الطبقي وصولاً إلي الرخاء، لكن هذه الحتمية لم تتخلص تماماً من الطابع الخـاص للمسـيرة التي شكلت طابع الظاهرة، والذي ينظرون لظـاهرة يوليـو باعتبارها قيادة سياسية متفتحة فقط يخطئون فـي إدراك مـا أحاط ويحيط بها من صعوبات، وإذا كانت القيادة قد لعبـت دور له خصوصيته، فإن مسار الظاهرة كان يخضع للحركة الدينامية للمجتمع، التي لا يستطيع أحد أن يتحكم في مسارها بمجرد مشيئته[١].

---

[١] هذه الإشارة وإشارات سابقة وتالية كثيـرة، وأردتهـا هـذه الدارسة تلمح وترد علي فكرة كانت سائدة فـي أوسـاط الماركسـين المصريين والعرب، في النظر إلي ثورة يوليو، وهي فكرة (المجموعة الإشتراكية في قمة السلطة) ، إذا كان هناك رهان مبالغ فيه علي عبـد الناصر شخصيا ، وعلي دور قيادته – التي كانت عند أصـحاب هـذا

وهكذا كان طبيعياً ، أن تنتقل ظاهرة يوليو، إلي البحث عن طبقات تنتمي إليها، وهي محملة بكل رواسب ماضـيها. ولأن عديداً من الأفكار غير الطبقية كانت قد دخلـت فـي إطار الخبرة السياسية للظـاهرة، وأسـلوبا خاصـا للعمـل السياسي كان قد تكون، ولأن فئات اجتماعية كان وزنها قـد ازداد، كما زادت قدرتها علي التأثير السياسي فـي غيـاب الحركة الطليقـة لبقيـة الفئـات، ولأن النتهازيـة الفكريـة والاتجاهات الموغلة في اليمينية كانت قد خلقت مناخاً مـن التعصب ضد التراث الفكري للإنسـانية دون أن تجـد مـن يصدها عن دعواها.

فقد كان طبيعياً أن تكون المرحلـة الجديـدة صـعبة، وشاقة!

الرأي تضم أشخاص آخرين في قمة السلطة، كان البعض يعتبر عبـد الحكيم عامر منهم – في دفع مصر إلـي الإشـتراكية. وكانـت هـذه المبالغة في تقييم دور قمة السلطة في الإنتقال إلي الإشتراكية، موضـع نقد شديد في أوساط الشباب من الماركسيين المصريين، لعل هـذا أول تعبير يكون قد نشر آنذاك عنه.

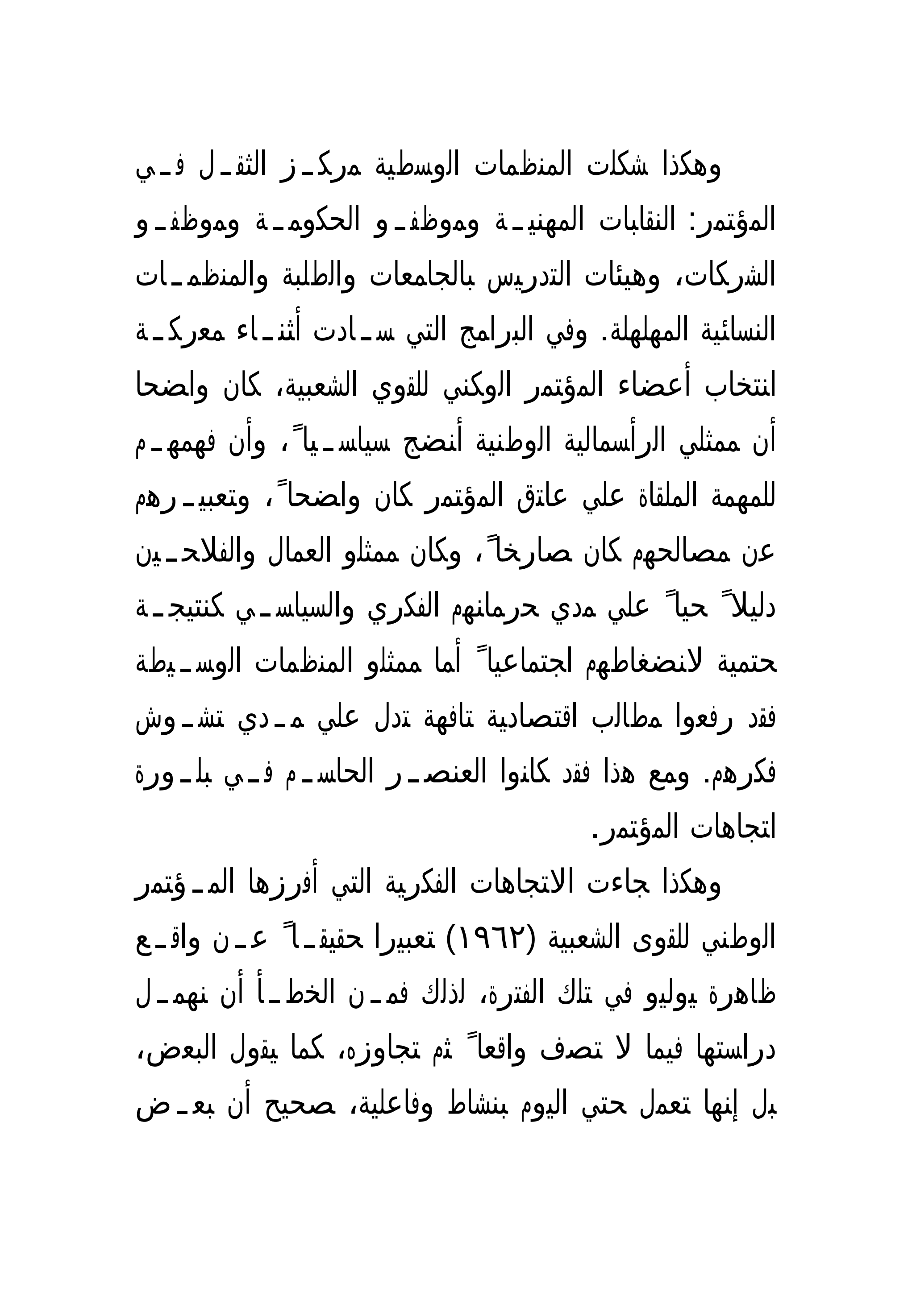
وهكذا تقدمت ظاهرة يوليو، لتنتمي للعمال والفلاحـين، فلم تجد أمامها تنظيمات طبقية واضحة، بعد أن فقدت هـذه التنظيمات، وجودها الفعلـي وتأثيرهـا علـي جماهيرهـا، وصلتهم بهم، وهي صعوبة واجهت اللجنة التحضيرية التـي أنيط بها تحديد الفئات التي يمكن أن تدعي لانتخابات ممثلين لها في المؤتمر الوطني للقوي الشعبية، إذا فشلت اللجنة فـي أن تحدد من هم أعداء الشعب – علي النحو الـذي عالجـه مقالنا بالعدد ٣١٨ من (الحرية) – ولأنها لم تكن تحمـل أي مفهوم طبقي واضح، فقد فشلت أيضاً في تحديد مـن هـو الشعب. وحددت اللجنة أعضاء المؤتمر بـألف وخمسـمائة عضو، ووضعت معايير رياضية غريبة، انتهت منهـا إلـي توزيع مقاعد المؤتمر، بحيث خص (القوى الشعبية الأصـلية بالمفهوم الإشتراكي لها، فتاتت هذ المقاعد.

فقد اختص الفلاحون والعمـال مـثلاً ب ٤٥% مـن المقاعد، ولكن توزيع هذه النسبة جاء غريبا، ففـي القطـاع الفلاحي خصص ٢٦٥ مقعدا – أي بنسبة تصل إلـي ١٥% من جملة أعضاء المؤتمر – المثلـي الجمعيـات التعاونيـة الزراعية، وهذه الجمعيات كما جاء علي لسان بعض أعضاء

المؤتمر أنفسهم (يسيطر عليها كبار الملاك ولذلك فـإن كـل الذين فازوا من أعضائها في المؤتمر هم كبار الملاك).

أما في القطاع العمالي فقد أجريت الانتخابات من خلال النقابات بوضعيتها التي كانت موجودة عليها يومذاك، والتي تعرضت لنقد شديد بعد ذلك لحيادها المريـب بـين العمـال وأصحاب الأعمال، فضلاً عن أنها كانت تضم كل العاملين في الوحدات الإنتاجية سواء كانوا يعملون عملاً ذهنيـاً أو يدوياً .

وكانت الفئات الوحيدة التي تملك منظمات حقيقية وفعالة في تلك المرحلة هي ما يعرف بالرأسمالية الوطنيـة (غيـر المستغلة)،وكانت ممثلة في الغـرف التجاريـة واتحـادات الصناعات، وقد خصها ١٠% من مقاعد المؤتمر. أما بقيـة المقاعد فقد خصصت لأنشطة المنظمة في مرحلـة تسـودها شعارات لا طبقية، وهي شرائح الانتلجنسيا البرجوازية التي تغلب عليها عقلية البرجوازية الصـغيرة، ومنهـا المهنيـين كالمهندسين الأطباء والمحامين وأسـاتذة الجامعـات وأئمـة المساجد، والصحفيين والكتاب.



وهكذا شكلت المنظمات الوسطية مركـز الثقـل فـي المؤتمر: النقابات المهنيـة وموظفـو الحكومـة وموظفـو الشركات، وهيئات التدريس بالجامعات والطلبة والمنظمـات النسائية المهلهلة. وفي البرامج التي سـادت أثنـاء معركـة انتخاب أعضاء المؤتمر الوكني للقوي الشعبية، كان واضحا أن ممثلي الرأسمالية الوطنية أنضج سياسـياً، وأن فهمهـم للمهمة الملقاة علي عاتق المؤتمر كان واضحاً، وتعبيـرهم عن مصالحهم كان صارخاً، وكان ممثلو العمال والفلاحـين دليلاً حياً علي مدي حرمانهم الفكري والسياسـي كنتيجـة حتمية لانضغاطهم اجتماعياً أما ممثلو المنظمات الوسـيطة فقد رفعوا مطالب اقتصادية تافهة تدل علي مـدي تشـوش فكرهم. ومع هذا فقد كانوا العنصـر الحاسـم فـي بلـورة اتجاهات المؤتمر.

وهكذا جاءت الاتجاهات الفكرية التي أفرزها المـؤتمر الوطني للقوى الشعبية (١٩٦٢) تعبيرا حقيقـاً عـن واقـع ظاهرة يوليو في تلك الفترة، لذلك فمـن الخطـأ أن نهمـل دراستها فيما لا تصف واقعاً ثم تجاوزه، كما يقول البعض، بل إنها تعمل حتي اليوم بنشاط وفاعلية، صحيح أن بعـض

الوجوه التي طرحت هذه الاتجاهات قد اختفت، ولكن الأغلبية العظمي من الأفكار والأشخاص، ما تـزال باقيـة وقائمـة ومؤثرة[1]

وثمة نقطة أخري لا بد من التنبيه إليها، قبـل تحليـل اتجاهات المؤتمر الوطني للقوي الشعبية، فمن الظلم أن نهمل العلاقة بين مشروع (الميثاق) وبـين اتجاهـات المـؤتمر، فمشروع (الميثاق) كان مصاغا بدرجة من المرونـة تسـمح لكل الفئات بأن تعبر عن نفسها شرحاً وتفسيراً ، والنصوص

---

[1] حين كتبت هذه المقالات (١٩٦٦) كانت سـنوات أربـع قـد مرت، علي إعلان الميثاق الوطني وتنفيذه، وكان السائد آنذاك ، أن نقلة كيفية قد حدثت، وخاصة خلال عام ١٩٦٣، الذي شـهد مزيـدا مـن قرارات التأميم، وعدول نسبي عن التعويضات الشاملة عـن الأمـوال المؤممة في ١٩٦١و ١٩٦٣ ، يقضي بتعويض لا يتجـاوز ٣٠ ألـف جنيه لأصحاب هذه المنشآت . وكان المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، قد ألحق بالميثاق، تقريراً عرف بتقرير لجنة المائة، وهي اللجنـة التـي كلفت بصياغة آراء المؤتمر في الميثاق، فجاء قيدا يمينياً قوياً علـي النص الأصلي له، وقد أهمل هذا التقرير فيما بعد، ومن هنا ساد ظن ، لدي أوساط الاشتراكيين العلميين والناصريين الراديكاليين ، بأنـه قـد تجاوز هذه المرحلة .

نفسها كانت مطواعة بالدرجة التي يمكن أن يستفيد منها كـل من يريد إملاء وجهة نظره، وفضلاً عن ذلك فإن المـؤتمر قد أخذ فرصه تفسير أهم (المفاهيم الحاكمـة) التـي وردت بالميثاق: فهو الذي وضع تعريف العامل والفلاح، وهو الذي عرف الاشتراكية العلمية... الخ.

ووجد فكر المؤتمر الوسطي المنحاز للتـراث الفكـرى البرجوازي، زاداً لهجمته اليمينية علي (الميثاق) في الحملة التترية التي شنت علي الفكر الاشتراكي العلمـي السـنوات طويلة سابقة. فاتخذ المؤتمر منه موقف خصومة وقطيعـة، وعجز حتي عن الحوار معه، بسبب الجهل المتفشـي بـين أعضائه بالمصطلح السياسي والفكري.

ومنذ اللحظات الأولي للمؤتمر صفق بحماس، وبصورة حادة ومتصلة لفقرات (الميثـاق) التـي تعتـرف بالملكيـة الخاصة، ومن سيل الأسئلة الذي انهال علي عبـد الناصـر يطلب شرحاً وتفسيراً للميثاق، ثم الكلمات التـي ناقشـت أفكاره، وأخيراً تقرير لجنة المائة الـذي يعتبـر الصـياغة النهائية لإتجاهات المـؤتمر الفكريـة، وضـحت مجموعـة اتجاهات تلتقي جميعاً في القضاء علي المضمون العمـالي

لاشتراكية الميثاق، وتأكد أن القوى (الشعبية) التي احتشـدت في المؤتمر، هي في الواقع شبه معارضة للميثاق.

* كان أول ما أثار انزعـاج المـؤتمر، هـو الأمـور المتعلقة بالملكية، حتي أن عددا ضخماً من الأسـئلة التـي وجهت لعبد الناصر تطلب شرحاً للميثاق كانت تطلب تأكيداً بأن حق الملكية المقدس، لن يناله مزيدا من الأضرار بعدما ناله بقوانين يوليو. وأن حريته في النشاط مكفولة، بينما كانت التعليقات الأكثر ذكاء، تتجه إلي تفسير ما ورد بالميثاق حول هذا لموضوع، تفسيرا يخدم هذا الهدف. كـان هنـاك مـن تساؤل:

- ما هي العلاقة بين الملكية الخاصة والملكية العامة؟
- وما مدي إشراف القطاع العام علي القطاع الخاص؟
- وكيف نضمن ألا يتحكم الأول في الثاني؟.
- وكيف نترك النشاط الفردي مع النشاط التعـاوني علـي خط تسابق واحد، بينما يتمتع النشاط التعاوني بميزات كثيرة لا تتوافر للناش الخاص كالأعفاء من الضـريبة والتسهيلات الإئتمانية؟

- ولماذا نؤمن المصانع بينما تقوم اشتراكيتنا علي قاعـدة توسيع الملكية؟.. أليس من الأفضل أن تـوزع أسـهم المصانع علـي العمـال كمـا نـوزع الأرض علـي الفلاحين؟.
- وما هو معني الاستغلال؟
- كيف تحدد مفهوم العامل والفلاح؟، هل يتم هـذا علـي أساس معايير الملكية؟
- كيف نطبق حد المائة فدان؟ وهل سنملك كل الفلاحين؟

وهكذا كان الدفاع عن حق الملكية المقـدس صـارخاً فطالب أكثر من صوت (بحماية الملكيـة الفرديـة الوطنيـة وتشجيعها حتي لا نعدم الحافز علي التقدم ونقتل الطمـوح، وذلك مع مراعاة الصالح العام للأمة وفي إطار من النظـام والثقة. ولذا يجب ألا يكون القطاع العـام خصـماً للقطـاع الخاص وأحدهما أصيل والآخـر دخيـل) (ص ١٨٤ مـن المحاضر الرسمية للمؤتمر).

وأكد آخرون بأن هدف الميثاق هـو (تنظـيم الملكيـة وتحديدها وليس القضاء عليها)، بـل واسـتهدف مشـروع الميثاق للتقدير لأن البعض فهم أنه (أعاد للقطاع الخاص غير

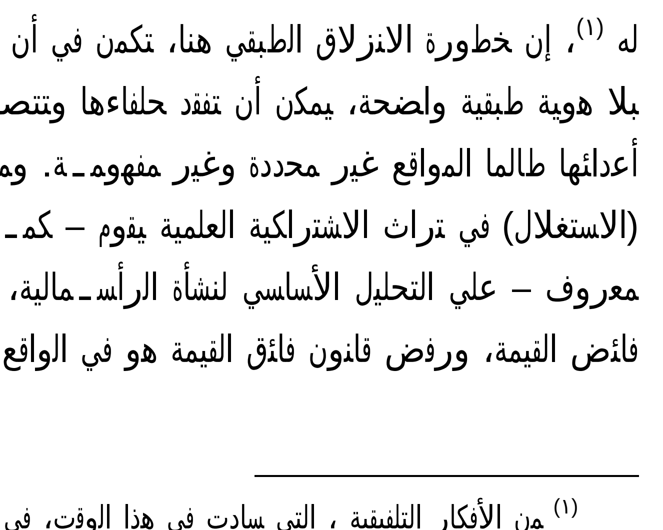
المستغل في الصناعة اعتباره، لكي يقوم بجانب القطاع العام بدور هام ومسؤول في عمليـة الإنتـاج، ولهـذا أكـدوا أن (التعاون وروح المحبة بين الرأسمالية الوطنية بنوعيها – في القطاع العام والقطاع الخاص – والعمال هي الكفيلة بالقضاء علي الفوارق الطبقية وتذويبها).

وفي المفاهيم الكلية ركز المؤتمر علي وجه الإنتاج من وجود الاشتراكية، لا وجه العدل، فاعتبر أن هدف الاشتراكية هو صنع التقدم والرخاء، وتنمية الاقتصاد، وأهمـل وجههـا الآخر لا يقل أهمية وهو صياغة علاقات اجتماعية جديـدة، وكان منطقيا، مع ذلك، أن تسود في أبهاء المؤتمر مقولـة: (أن الملكية يجب أن تؤدي وظيفة اجتماعية) وبهذا لـم يعـد استعمال العمل للأجور في حد ذاتـه يتضـمن اسـتغلالاً. فالمسألة عند المؤتمر هي (أخلاقية الملكية) وليس طبيعتهـا التي تتضمن الاستغلال كحقيقة ملازمة.

هل نبتت هذه الأفكار التي تعبر عن مصـالح طبقيـة واضحة من الفراغ؟.. بالقطع لا، لكنها لم تكن تعبيـرا عـن تكوين المؤتمر فسحب، ولكن أيضاً، عن محتـوي الميثـاق، الذي قام علي التفرقة بين نوعين من الملكية همـا (الملكيـة

المستغلة) و (الملكية غير المستغلة). وهي نظرة مثالية وغير علمية للملكية، نظرة أخلاقية بالدرجة الأولي، ولهذا عـولج مفهوم الاستغلال علي أساس أنه مسألة نسبية، وتميـع إلـي الحد الذي اعتبرت رشوة عسكري المرور استغلالا، وجـاء تقرير لجنة المائة – التي بلورت أفكار المؤتمر فيما عـرف بعد ذلك بتقرير الميثاق – ليؤكد أنـه (قـد اسـتقامت فـي اشتراكيتنا تفرقه هامة بين نوعين من الملكية الخاصة، همـا الملكية المستغلة والملكية غير المستغلة. فإننا نسمع بالملكيـة الخاصة في الإطار الذي حدده (الميثاق) علي أساس أن تبعد عن الاستغلال، فنحن لا نسمح للملكية الخاصة بأن تكون أداة استغلال) واعتبر التأمين ضرورة انتهـت ولـيس معاملـة طبيعية للملكية، وحدد مفهومه بأنـه (لـيس مصـادرة بـلا تعويض).

* والنتيجة الحتمية لسيادة فكرة الملكية المقدسة، هـي المزيد من التميع الطبقي، فلا حـدود طبقيـة مـع اعتبـار الاستغلال مسألة نسبية وذاتية، يراها كل إنسان كما يتـراءى



له [1]، إن خطورة الانزلاق الطبقي هنا، تكمن في أن ثـورة بلا هوية طبقية واضحة، يمكن أن تفقد حلفاءها وتتصالح مع أعدائها طالما المواقع غير محددة وغير مفهومـة. ومفهـوم (الاستغلال) في تراث الاشتراكية العلمية يقوم – كمـا هـو معروف – علي التحليل الأساسي لنشأة الرأسـمالية، وهـو فائض القيمة، ورفض قانون فائق القيمة هو في الواقع رفض

---

[1] من الأفكار التلفيقية ، التي سادت في هذا الوقت، في اعـداد كوادر الاتحاد الاشتراكي ومنظمة الشباب، والتنظيم الطليعي، تعريـف الإستغلال بأنه ما تحدد القيادة السياسية أنه كذلك، وذلك توقياً لتطبيـق الرؤية الاشتراكية التي تقول بأن الاستغلال هو الاستيلاء علي فـائض قيمة العمل المأجور ، وهو ما يعني أن إستخدام العمل المأجور هو في ذاته استغلالاً ، وبذلك تنهار نظرية الميثاق ، القائمـة علـي فكـرة رأسمالية مستغلة ، وأخري غير مستغلة، وهو ما وصفته فـي المقـال الثالث من هذه الداراسة ، بأنه نوع من التكنيك الإيـديولجي ، وهـذا بالطبع لا ينفي إمكانية بقاء شرائح من الرأسمالية المنتجة فـي إطـار لملكية الخاصة، في مرحلة التحول. وكان منظر والمرحلة يقولـون ، بأن علينا أن نترك للقيادة السياسة فرصة للمناورة مع القوى الرجعية ، حتي لا تستفز، وأنها تقوم بالتأميم تدريجيا ، وحـين تحـدد أن هـذا استغلالاً ، يمكن تأميمة.

كامل للتراث الاشتراكي العلمي، وبقاء بجـداره فـي أسـر الرؤي الطوبارية، لأنه يعني التميع الطبقي في أعلي مراحله.

كيف نرفض الاعتراف بقانون فائض القيمة، ثم نتصور أننا سنصل إلي تعريف صحيح للعامل والفلاح؟.

إننا بهذا نفتقد إلي الأساس العلمي الوحيد لفهم وتحليـل وتصنيف الطبقات الاجتماعية ونقر – الـرفض – شـرعية اعتبار العمل سلعة، ونقدس الاستغلال باعتبار أن هناك ربحا ً (معقولا) وربحا (مشروعاً) وهناك ربح (لا معقول) ولذلك فهو (لا مشروعية فيه) وهي فكرة لا تصـدر عـن رؤيـة اشتراكية، ولكنها قد تصدر عن رغبة رأسمالية في تسـوية معدلات ربح وسطية في ظروف ارتفاع التركيب العضـوي لرأس المال بفعل التنمية.

وهكذا وبحكم تركيب المـؤتمر، الوسـطي، ومرونـة الميثاق الزائدة عن الحد، هجم المؤتمر علي المحتوي الطبقي للميثاق، في محاولة لكي يظل تعبيراً عن الطبقات المستمرة.. وتتالت التساؤلات الاستنكارية، والاقتراحات البرجوازية:

- هل يعني تذويب الفوارق بين الطبقات إلغاء الفوارق حتي ما كان منها ذاتياً أو طبيعياً أو قائماً علـي الجهـد الشخصي المشروع في ظل الفرص المتاحة؟.

- ولماذا لا يعتبر الموظفون من قوى الشعب العاملـة مثلهم في ذلك الرأسمالية الوطنية غير المستغلة؟

- وما معني أن الصراع الطبقي يجب أن يحل سلميا؟

- كيف تمنع (الصراع الطبقي بكل عنفه وبكل دمويته، وبكل عدم آدميته، وبكل بعده عن تقاليدنا – سحقاً للتصارع وبعداً للتناحر).

- إن اشتراكيتنا ((تؤمن بأن لا سيطرة لطبقة علي طبقة أخري، ويجب أن نسد المسالك والمنافذ حتي لا تنقلب الطبقة العاملة إلي حزب

لذلك لم يكن غريباً أن تنطلق الأفكار التـي تعتبـر أن الفلاح هو (كل من تظله سماء القرية وأن العامل هو كل من تظله سماء المدينة (لتنقل طبقات الميثاق من الاقتصاد إلـي الجغرافيا. ولأن الاشتراكية هـي أساسـاً تنميـة الإنتـاج فالمهندس الزراعي يجب اعتباره من الفلاحين (فهـو الـذي يفلح الأرض (!!) ويخدمها للحصول علي أكبر غلة ممكنـه

لزيادة الانتاج والدخل القومي علي أساس علمي سليم. وبذلك يوفر للدولة احتياجات الحيوية.

وطالما أن الاستغلال يفهم بشكل اجزئـي، بمعنـي أن المستغل هو من مسته القوانين الضاربة لحق الملكية فقـط، فمن الممكن أن يقال أن الفلاح(هو كال من يعيش علـي مـا تخرجه الأرض كمورد رزق لـه، سـواء كـان مالكـا أو مستأجرا أو عاملاً زراعياً، فلا ضرورة لحرمـان المالـك لمائة فدان من صفة الفلاح ما دام يعيش علي غلـة الأرض، وما دام القانون قد سمح له بأن يتملك هذا القدر ولم يستغل).

وطالما أن الملكية كانت موضوعاً أساسياً للدفاع عـن قدسيتها فقد صدرت صوت تفهـم (تـذويب الفـوارق بـين الطبقات) باعتباره (إسقاطا للميزات الموروثة عن وراثيهـا لكي يكون العمل هومصدر الثروات).

وكنتيجة طبيعية لموقعه وموقفه الطبقي – فقد تعـرض المؤتمر لحق الخمسين بالمائة للعمـال والفلاحـين بهجـوم مستتر.. وتتالت الأسئلة الاستنكارية:

- كيف تخصص ٥٠ بالمئة للعمال والفلاحـين وهـم ناقصوا الوعي ولا ثقافة عندهم؟

- ولماذا يتميزون بهذه الميزة التي تعطيهم مركزاً خاصاً في التنظيم السياسي؟ ألا يتعارض هذا مع مبدأ الوحـدة الوطنية لا سيما وأن حقوقهم مكفولة في المجتمع.
- لماذا لا تخصص نسبة للطلبة والموظفين في المجـس النيابي ألسنا جميعا عمال؟.
- ما هي الحكمة من تقسيم المجتمع لطبقات، وكيف نقول: عمال وفلاحين ورأسماليه وطنية، وأن هذا يخلق الطبقات في المجتمع (!!) ويعرقل تذويب الفوارق؟

وجاء تقرير لجنة المائة ليضع مفاهيم غريبة. فقد وضع تعريف العامل والفلاح علي النحو المعروف اليوم. والـذي يعمل به حتي الآن في جميع التنظيمات السياسية، إن العامل هو كل من يعمل في منشأة اقتصادية وتنطبق عليه قـوانين النقابات ما عدا رؤساء مجالس الإدارات ومديري المنشـآت. ومن هنا اعتبر المهندسون والأطباء والمحاسـبون عمـالاً، والفلاح هو كل من لا تزيد ملكيته عن ٢٥ فداناً، ولم يكـن هذا غريباً، فعندما ترفض تقسيم المجتمع علي أساس الموقع من شراء أو بيع قوة العمل، وعندما نرفض فكرة الاستغلال باعتباره الاستيلاء علي فائض قيمة، عندما نفعل ذلك نكـون

قد فقدنا الأساس الاشتراكي العلمي للمفهـوم الطبقـي. لقـد بلورت لجنة المائة مفهومها لتذويب الفوارق بـين الطبقـات باعتباره (البديل السلمي لما نرفض الأخذ به مـن الصـدام الدموي بين الطبقات) بأنه يعني (التقريب بين الطبقات بإعادة توزيع الثروات والدخول ورفع الإنتـاج لضـمان الكفايـة، وتكافؤ الفرص واعتبار العمل مصدراً للثـروات) ورأت أن (تحديد الملكية يستتبع بالضرورة اتساع قاعدة الذين يعيشون علي عملهم وهو ما يؤدي إلي القضاء علي التناقض الطبقي الصارخ الذي قسم المجتمع إلي طبقة تملك ولا تعمل، وطبقة تعمل ولا تملك).

وهكذا أصبحت الاشتراكية العلمية في موقف الدفاع، أما الذي تقدم ليهجم فهو فكر المالكين، المتحالف مع اليمين، بكل درجاته: التعصب الديني والتعصب القومي.. وهكذا برز في المؤتمر، اتجاهان هجوميان:

* اتجاه يطالب بحكومة دينية، معبراً بذلك – موضوعياً – عن الفكر السياسي للإخوان المسلمين وقد طالب أصحاب (باعتماد في قوانينا، علي الفقة الإسلامي وتقاليدنا العظيمـة لأن فيها الكفاية (وأشاروا إلي أن شيئاً لن يجري) ما لم تلتئم

كافة القوانين لتستمد حياتهم من منبع واحد وهـو الأديـان).
وانطلاقا من هذا تحفظ أصحاب هذا الاتجـاه بقـوة علـي النصوص الواردة في الميثاق حول حق المرأة في المسـاواة بالرجل، وطالبوا بأن تعود إلي المنزل، وألا تعمل، وأن تجبر بسلطة الدولة على لبس ملابس خاصة، وأثاروا حقوق الإرث وقوامة الرجل علي المرأة، ووصلوا في النهاية ألي ضرورة توثيق وتقوية الروابط بين العالم الإسلامي. وقد أزعج هـذا الاتجاه الغالب كثيرين، ولكن واحد فقط وجد القـدرة لينبـه المؤتمر إلي أن (عصر القوميات هو عصر التزمين، وهـو العصر الذي تتوقف فيه السلطة عن أن تكون دينيـة لكـي تصبح زمنية).

ولعل البعض قد أدهشهم، أن ينتهي مؤتمر انعقد لكـي يصوغ طريقاً للتطبيق الاشتراكي، يرفض الزمنية والقومية، كأنما جاء ليصوغ فكر (مجتمع اقطاعي)!!

* وجاء الاتجاه الثاني، ليؤكد علي فكـرة خصوصـية الاشتراكية الميثاقية، بما يجعلها تيارا وسـطيا يـدافع فـي جوهره عن التراث الفكـري البرجـوازي، وهكـذا نحـت مصطلح (الاشتراكية العربية المؤمنة) – بالإسـلام فقـط –

مؤكد أنها (انعكاسا أميناً لكل تاريخنا، بما استقر فيـه مـن مبادئ وما تفاعل فيه من قيم دينية وخلقيـة، ممـا يجعلهـا اشتراكية عربية في قيمتها وحلولها). ولذلك حرصت لجنـه المائة علي وضع تعريف للاشتراكيه العلمية في أكثـر مـن مكان من تقريها – كنوع من الفرملة الضاغطة – فأكدت أنها (اشتراكية علمية تعتمد في تحقيق الكفاية والعدل علي الأسس العلمية وعلي كل ما وصل إليه العلم الحديث من نتائج) وهي ترتبط أساساً (بأن عملية بناء مجتمعنا لا بد وأن تقوم علـي أسس علمية وأن تسير علي منهج سليم يرتكز علي التخطيط العلمي ويتسند علي البحث العلمي ويستخدم في التنفيـذ كـل تطبيقات العلم الحديث في مختلف ميادين الإنتاج والخدمات، وهذا ما قصد إليه الميثاق عندما نص علـي أن الإشـتراكية العلمية هي السياسة الملائمـة لإيجـاد المـنهج الصـحيح للتقدم)[1].

---

[1] قال عبد الناصر فيما بعد، حين آثار مصـطلح الإشـتراكية العلمية، قلاق العناصر اليمينية ، أ، الإشتراكية العلمية، هي التي تعتمـد علي منجزات العلم ، وأن كل شئ في الحياة يعتمد علي العلـم، حتـي كرة القدم لها قواعد علمية.

٣- الإستراتيجية الثورية وخطر التكتيك الإيداوجي:

بعد سنوات أربع علي صدور الميثاق، وقبل سنوات أربع [1] من طرحة للمناقشة والحوار حوله، تقفز الحاجة المساة إلي دراسة المهمات الأكثر إلحاحا والتي تكفل إتاحة مناخ صحي تتفجر خلاله إيديلوجية اشتراكية متكاملة، تتجاوز محنة الإنزلاق الطبقي وتقود إلي تحقيق مصير الثورة الحتمي: مجتمع لا طبقي يلغي فيه استغلال الإنسان للإنسان.

والعالم الخامس عشر لثورة يوليو، هو بداية ينبغي أن تحدد خلالها تلك المهمات، وأ، تتجه حركة الثورة نحو إنجازها بأسرع ما يمكن، صحيح أن السنوات الأربع التي تلت صدور (الميثاق) فقد تضمنت إنجاز بعض تلك المهمات، ولكنها لم تتجاوز عثرات المسير الثوري، وإنما كانت ذات

---

[1] كان عبد الناصر، قد ذكر أثناء منافشات للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية، أن الميثاق، هو برنامج مرحلي، يطبق لمدة ثماني سنوات، تنتهي عام ١٩٧٠ ، يعاد بعدها النظر فيه، والإشارة هنا إلي تاريخ كتابة المقالات (١٩٦٦) التي تتوسط هذه المرحلة. وفي عام ١٩٧٠، لم يطرح الميثاق للنقاش ، بسبب ظروف الإحتلال الإسرائيلي.

دلالة علي طبيعته، وتولدت من خبرته التاريخية، ومن رؤيته المحددة التي مازالت تحتفظ بعناصر ضاربة في القـدم، ولا تعني المهام المطروحة أن المطلب هونمط الإجراءات العلوية (الفجائية) غير الممهدة، التي ثبت أنها غيـر ذات فاعليـة، وأمام ظاهرة يوليو فرصة حقيقية تستوعب فيها مدي ثوريـة الإجراءات التي تصدر عنا، من خـلال قياسـها بالمصـير الثوري.

إن التناقض بين (المسير الثوري) و (المصير الثوري) يأخذ أحيانا طابعاً عدائياً، والوحدة الجدليـة بـين المسـير والمصير تفرض حركة متناسقة تخـدم خلالهـا الأهـداف القريبة واليومية خلالها، أبعد الأهـداف وأكثرهـا مناقضـة للصورة الحالية. فالحركة اليومية، هي جـزء مـن مصـير الثورة من تحقيق أهدافها النهائية.

وقضية ظاهرة يوليو الأساسية منذ البداية، هي طبيعـة الانتماء الطبقي، للظاهرة، والانتقال مـن سـيادة وسـيطرة البرجوازية الكبيرة – خلال التصادم المتصاعد معها – إلـي محتوي طبقي يتميز بطبيعة انزلاقية، وهو ما يسود المرحلة الحالية فكرا وتنظيماً ، يعرض البدء في التحولات الاشتراكية

لأشد الأخطار، فالثورة الإشتراكية في جوهرها، ثورة طبقية، ذات مفاهيم طبقية واضحة، ونقية لا تحتوي أى انعكاسـات أخري لأفكار طبقات أخري، وحتمية الثـورة الاشـتراكية، ليست حتمية ميكانيكية، تتحقق بلا فعل ثوري إرادي، وهـي لا تتحقق بالنوايا الطيبة، ولكن بالفعل الموضوعي..

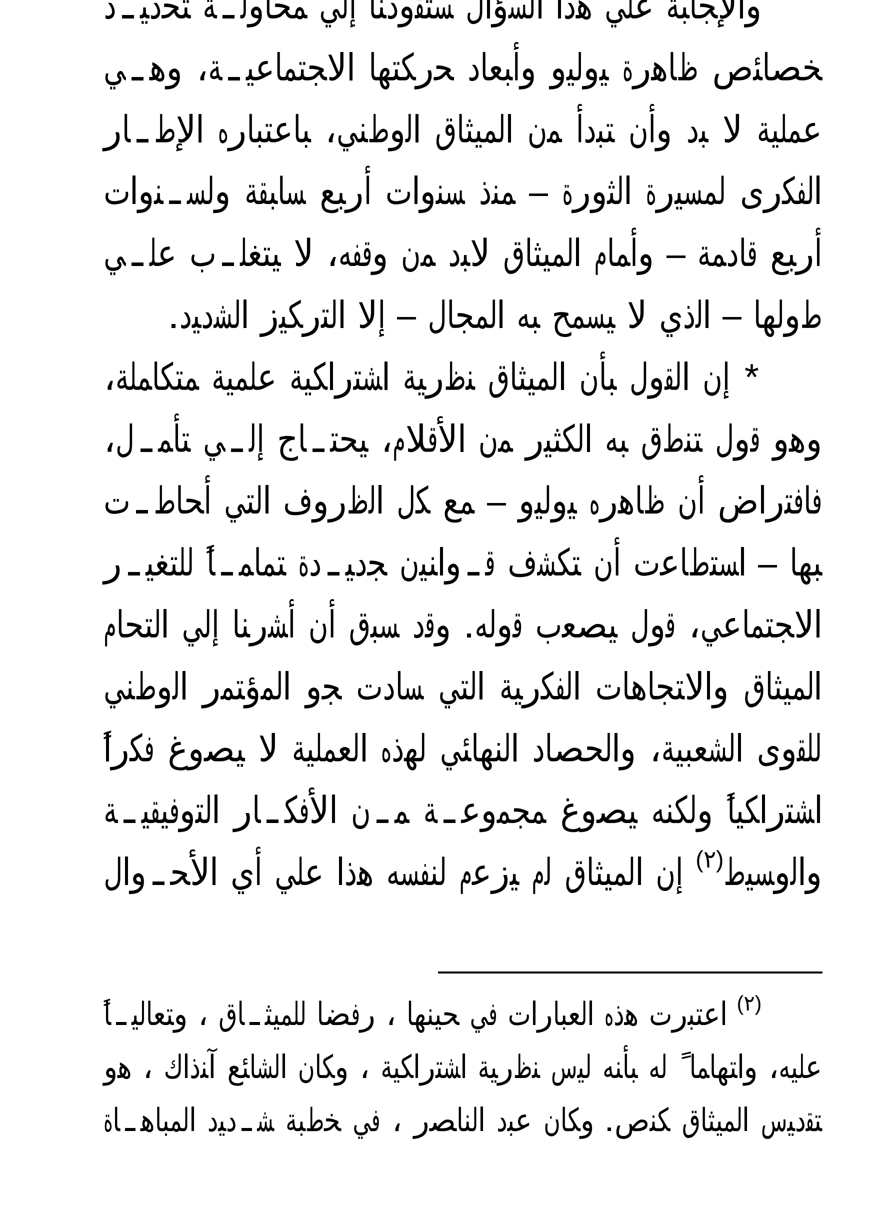
وبهذا المفهوم، فإن هنـاك أسـلوباً علميـاً لتحقيـق الاشتراكية، يحدد أشكال النضال والتنظيم، ويحدد الأهـداف المرحلية تبعاً لحظة مدروسة وواضحة تعتمد علي فهم كامل للقوى الأساسية للثورة واحتياطياتها ولقوى الأعداء، ويبنـي حركة قوى الثورة بناء سليماً، واضعا في اعتباره، الظروف المحلية والعالمية التي قد تسمح بالمـد الثـوري أو تفـرض حركة الجزر.. وهذا الأسلوب صالح تمامـا للتطبيـق فـي مرحلة الإعداد للثورة، كما أنه صالح في المرحلـة التاليـة للاستيلاء علي السلطة وإجراء عمليات التحـول والتغييـر.. فعملية الثورة الاشتراكية كل متكامل، لأن مايحكمها أساسـاً هو فهمهما المتكامل لحركة التغيير الاجتمـاعي وللقـوانين الطبيعية التي تحدد هذه الحركة.

ومع أن فقدان المسير الثوري الراهن لظـاهرة يوليـو، للطابع العلمي، لا ينفي طبيعته الثورية بـلا جـدال، إلا أن اتباع هذا الأسلوب في تحديد مسار العملية الثورية هو وحده الكفيل بإنجاز تحولات تسمح بالبدء في التحول الاشـتراكي [1]، وهو الضمان الوحيد لاستمرار الطبيعة الثورية للظاهرة والعصر الذي نعيش فيـه يؤكـد الطـابع العلمـي للثـورة الاشتراكية، استناداً لتراث أكثر من قرن من الفكر الاشتراكي العلمي، ونصف قرن من التطبيق الاشتراكي. وفـي ضـوء التراث الاشتراكي العلمي. فإن عملية الثورة ترفض العفوية، والتلقائية، وردود الفعل، وانحصار العمل الثوري في موقف الدفاع تجاه الإيديولوجيات المناهضة والمعادية. ولكنها تعتمد في الأساس علي الوضوح الإيديلوجي المتكامل النـابع مـن أرضية طبقية واعية ومنظمة ومتحركة.

والسؤال الذي يقفز الأن هو: ما مدي علميـة المسـير الثوري الحالي لظاهرة يوليو، وما الإمكانيات التـي تملكهـا وتستطيع بها أن تتجاوز الطابع الحالي له؟

---

[1] كان الإتجاه الرسمي السائد ، حين نشرت هـذه المقـالات ، يقول بأن مرحلة التحول إلي الإشتركية قد أنجزت بالفعل.



والإجابة علي هذا السؤال ستقودنا إلي محاولـة تحديـد خصائص ظاهرة يوليو وأبعاد حركتها الاجتماعيـة، وهـي عملية لا بد وأن تبدأ من الميثاق الوطني، باعتباره الإطـار الفكرى لمسيرة الثورة – منذ سنوات أربع سابقة ولسـنوات أربع قادمة – وأمام الميثاق لابد من وقفه، لا يتغلـب علـي طولها – الذي لا يسمح به المجال – إلا التركيز الشديد.

* إن القول بأن الميثاق نظرية اشتراكية علمية متكاملة، وهو قول تنطق به الكثير من الأقلام، يحتـاج إلـي تأمـل، فافتراض أن ظاهره يوليو – مع كل الظروف التي أحاطـت بها – استطاعت أن تكشف قـوانين جديـدة تمامـاً للتغيـر الاجتماعي، قول يصعب قوله. وقد سبق أن أشرنا إلي التحام الميثاق والاتجاهات الفكرية التي سادت جو المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، والحصاد النهائي لهذه العملية لا يصوغ فكراً اشتراكياً ولكنه يصوغ مجموعـة مـن الأفكـار التوفيقيـة والوسيط[٢] إن الميثاق لم يزعم لنفسه هذا علي أي الأحـوال

---

[٢] اعتبرت هذه العبارات في حينها ، رفضا للميثـاق ، وتعاليـاً عليه، واتهاماً له بأنه ليس نظرية اشتراكية ، وكان الشائع آنذاك ، هو تقديس الميثاق كنص. وكان عبد الناصر ، في خطبة شـديد المباهـاة

وإنما انصب اهتمامه علي إمكانية – وضرورة – شق جديدا لإجراء التحول الاشتراكي. وشرح الظروف العالمية الجديدة التي توجب تجديد أساليب التحول الاشـتراكي مؤكـداً (أن الحاجة إلي طريق جديد لا تصدر عن رغبة فـي التجديـد لذاته، ولا تصدر بدافع الكرامة الوطنية، وإنمـا لأن الثـورة العربية تواجه ظروفاً جديدة ولا بد لها في مواجهـة هـذه الظروف الجديدة أن تجد الحلول الملائمة لها. وليس معنـي ذلك أن النضال الوطني للشعوب والأمم مطالب اليـوم بـأن يخترع مفاهيم جديدة لأهدافه الكبري، ولكن معناه أنه مطالب بأن يجد الأساليب المسايرة لاتجاه التغير العام والمتفقة مـع طبيعة العالم المتغيرة)؟.

وهذا الطريق الجديد لا ينفي – من جهة نظر الميثاق – (التسليم بوجود قوانين طبيعية للعمـل الاجتمـاعي) ولكنـه

بوثيقته الفكرية، وقد بدا هذا واضحاً في الحوار الذي دار بينـه وبـين ميشيل عفلق وصلاح البيطار وعبد الكريم زهور، من قادة ومفكـري حزب البعث العربي الاشتراكي ، حيث واجههم بأن لدي مصر نظرية فكرية، بينما لا توجد في أفكار البعث إلا تهويـات عامـة. أنظـر : محاضر محادثات الوحدة الثلاثية بين كل من مصر وسوريا والعراق – الأهرام ١٩٦٣.

فحسب يرفض (القبول بالنظريات الجاهزة والاستغناء بها عن التجربة الوطنية).

قد تحتاج وجهة نظر (الميثاق) تلك إلي مناقشة بعض أجزائها. ولكن الذي يهمنا منها هنا أن الإصرار علي أن (الميثاق) نظرية اشتراكية مضاده، ومختلفة تماما عن الاشتراكية العلمية، بل وتتجاوز ما وصلت إليه من قوانين وحلول، اتجاه لا يهدف – جوهره – إلا حصر المسير الثوري في فكر الميثاق.

وقد كان من الطبيعي أن يعمد أصحاب هذا القول إلي تناسي ما قبل أكثر من مرة من أن الميثاق برنامج محلي وجزئي، لاستيعاب مرحلة استكمال الخطة الثانية. وأن طرحه للمناقشة بعد ذلك بثماني سنوات، ناتج من أن هناك احتمالات في أن يأتي آخرون يرون تجاوز ما به من أفكار وحلول.

ويلاحظ أن (لجنة المائة) قد تناست في تقريرها هذا التحديد الزمني وتركته في محاولة لتأييد الميثاق وتقريرها المكمل له. ولكن الحريصين علي استمرار الثورة الاشتراكية، قد ذكروا دائما بهذا المعني، فارتفعت في

مواجهة هذا نغمة تقول بأن (إن الميثاق لـن يطـرح كلـه للمناقشة، لأن به جزء ثابت آخر متغيـر، فهـو (نظريـة) (وبرنامج) معاً، وليس برنامج فقط. وفي مقال أخير للدكتور (رفعت المحجوب) – وكان أحد أعضاء لجنة المائة – قـال (إن الاشتراكية العربية قد قامت لمعالجة مشكلات المجتمـع العربي في مصر في حدود قيمة، وقد تـم اختيـار مبادئهـا والتأليف بينهما في ضوء هذه المشكلات والقيم، وهي يجـب أن تنمو دائما في ضوء هذه المشكلات والقيم، دون التـزام باتباع المبادئ الاشتراكية الأخري، التي لا تلائم مثـل هـذه المشكلات والقيم)؟.

وفي تحديده للخصائص الخاصة للاشـتراكيه العربيـة (التي وضعت في ضوء مشكلات المجتمع العربي في مصر وفي ضوء قيمه) ذكر منها (المحجوب) وضع حـد أعلـي للملكية الزراعية، مع بقاء الزراعة في أطار الملكية الفردية، وخلق قطاع عام يشرف علي قطاع خاص، والتوفيـق بـين المصلحة العامة والمصلحة الفردية، دون تغليب إحداهما علي الأخري، بالسماح بالملكية الفردية لوسائل الانتـاج حتـي لا يؤدي عدم السماح بها إلي تحويل المجتمع إلي أجراء. إذ أن

الاشتراكية العربية تحول الجميع إلي عمال سواء أكان ذلـك بصفتهم ملاكا أو أجراء [1] (دراسات عربية – عدد أغسطس ١٩٦٦). هذه هي الخصائص التي يري الدكتور (المحجوب) أنها غير مطروحة للمناقشة بحكم أنها من ثوابت (الميثاق) أو من نظرياته، لإنها تتناسب تماما مع (قيم المجتمـع العربـي ومشكلاته).

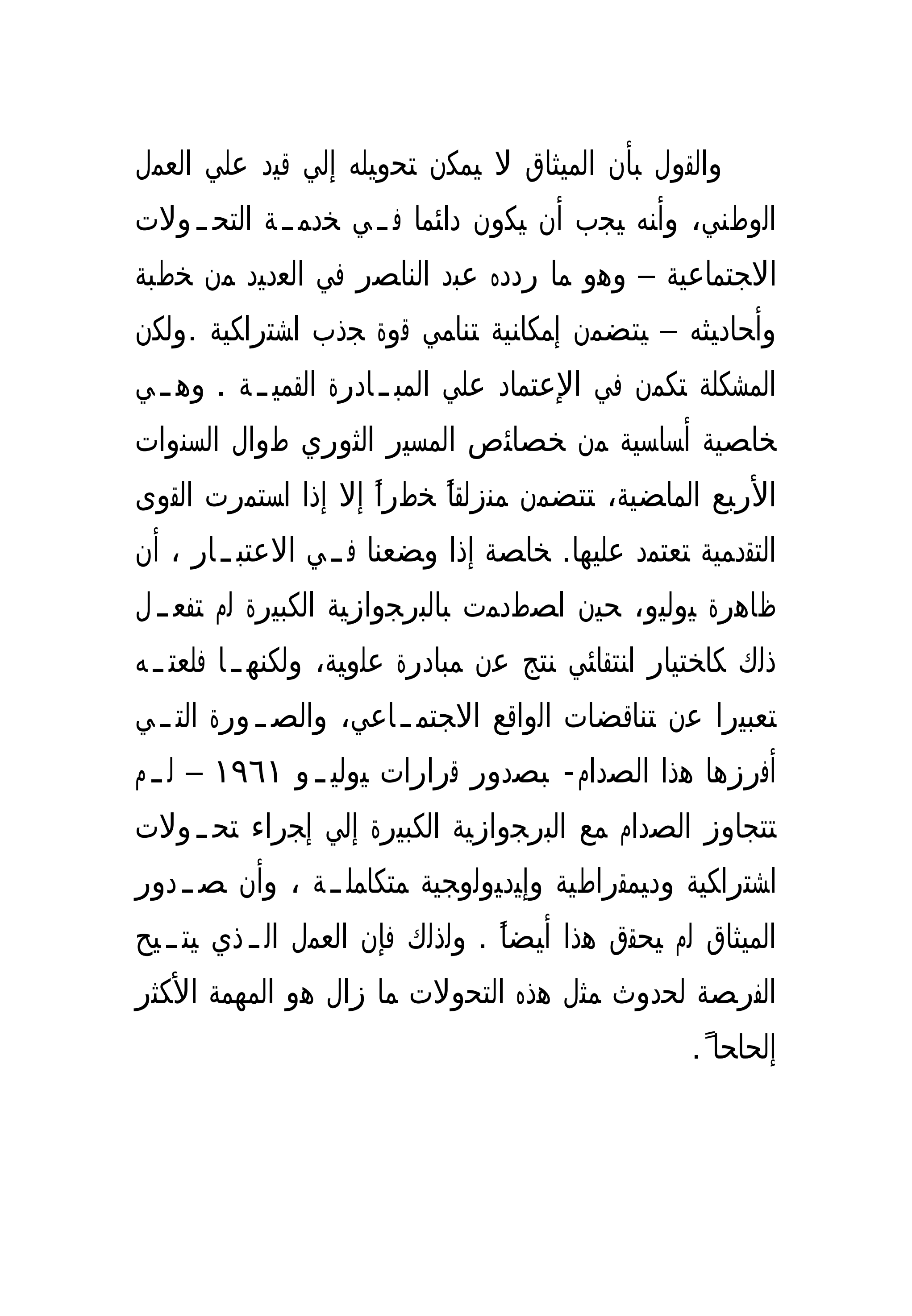
ومثل هذه الأفكار التي يمضغها عديد مـن المنظـرين والمنتظرين، وليدة المسير التجريبي لظاهرة يوليـو. الـذي خلق فئة ممن نظروا لكل تجاربها، حتي أصـبحوا أسـرى لتنظيراتهم السابقة، والقائلون بهذه الفكرة هم الـذين هللـوا لأفكار مثل (الاقتصاد الموجه والاقتصاد المخـتلط) وأفكـار

---

[1] كان د. رفعت المحجوب يتزعم جناحا يمينيا فـي المـؤتمر الوطني للقوى الشعبية واستمر بعد إنقضاض المؤتمر، يدافع بضـراوة عن فكرة (الاشتراكية العربية) في مواجهة فكـرة (التطبيـق العربـي للاشتراكية) وكانت الفكرة الأولي تصب في الدعوة المحمومة ، للتميز القومي، والتي كانت تخدم موضوعيا قوى اليمـين هـذا ولـم يسـمع للدكتور المحجوب بعد ذلك رأي في الانقـلاب الـذي حـدث علـي الناصرية، في المرحلة الساداتيه، وقد استعان به السادات فيما بعد، كما استعان به الرئيس مبارك، علي قاعدة تأييد سياسة كامب ديفيد(!!).

مثل (الاشتراكية الديمقراطية التعاونية) التي أكدوا – من قبل – بأنها أفضل من الاشتراكية ألف مرة، وأنها ملائمة (لقـيم المجتمع العربي ومشكلاته)). ولو طرح فكر (الميثاق) عليهم منذ خمس سنوات فقط – من أي اتجـاه غيـر حـاكم ، - لأدانوه، وأصروا علي أنه غير ملائـم لمـا يسـمونه بقـيم المجتمع العربي. ولكنهم علي أى الأحوال لا يشكلون مراكزا منفصلة عن حركة الجدل الاجتماعي، إنهـم عـرض مـن أعراض سيطرة الفكر الوسطي الممـالئ للطبقـات المالكـة والمعادي للطبقة العاملة .

لقد كان من الطبيعي أن يصدر الميثاق متضـمنا فكـراً توفيقياً، وأن يمثل المؤتمر الوطني للقوى الشعبية (الذي كان في الحقيقة مـؤتمراً للقـوى البرجوازيـة وحلفائهـا مـن البرجوازيين الصغار) قوة جذب يمينية تتمثـل فـي تأكيـد سلبياته الفكرية وإفراغ أكثر عناصره ثورية من محتواها. إن طبيعية هذا الموقف وليدة القوى الطبقية التي كانت تسـيطر قبل صدور (الميثاق) وما كانت تعمل علي تسويدة مناخـات فكرية.



والقول بأن الميثاق لا يمكن تحويله إلي قيد علي العمل الوطني، وأنه يجب أن يكون دائما فـي خدمـة التحـولات الاجتماعية – وهو ما ردده عبد الناصر في العديد من خطبة وأحاديثه – يتضمن إمكانية تنامي قوة جذب اشتراكية .ولكن المشكلة تكمن في الإعتماد علي المبـادرة القميـة . وهـي خاصية أساسية من خصائص المسير الثوري طوال السنوات الأربع الماضية، تتضمن منزلقاً خطراً إلا إذا استمرت القوى التقدمية تعتمد عليها. خاصة إذا وضعنا فـي الاعتبـار ، أن ظاهرة يوليو، حين اصطدمت بالبرجوازية الكبيرة لم تفعـل ذلك كاختيار انتقائي نتج عن مبادرة علوية، ولكنهـا فلعتـه تعبيرا عن تناقضات الواقع الاجتمـاعي، والصـورة التـي أفرزها هذا الصدام- بصدور قرارات يوليـو ١٩٦١ – لـم تتجاوز الصدام مع البرجوازية الكبيرة إلي إجراء تحـولات اشتراكية وديمقراطية وإيديولوجية متكاملـة ، وأن صـدور الميثاق لم يحقق هذا أيضاً . ولذلك فإن العمل الـذي يتـيح الفرصة لحدوث مثل هذه التحولات ما زال هو المهمة الأكثر إلحاحاً .

وصحيح أنه لا يمكن إنكار أثر المبادرات القمية كأحـد العوامل في تحقيق حتمية ذلك الصدام مع البرجوازية الكبيرة وما تبعه من تحولات جزئية ، ولكـن المحصـلة النهائيـة لتدخلات القمة ، لا يمكن إلا أن تظل معتمدة علي حاساباتها الشخصية لحركة القوى الاجتماعية المتناقضة في المجتمـع. وحتي لو طرحنا جانباً مدي صواب فكـرة الاعتمـاد علـي المبادرة القمية للبدء بتحـولات اشـتراكية فـإن الحسـاب الموضوعي القدرة (الأبنية العلوية) علي التأثير لوجدنا أن ما يسودها في مختلف الجبهات هو الطابع التـوفيقي، والجنـاح المتقدم في كلا البنيتين التحتية والعلويـة شـديد الضـآلة ، (فالقطاع العام متفوق في الصناعة ومع هذا فهـو يتضـمن سلبيات كاملة، والزراعة كلها في إطار القطـاع الخـاص، والحزب الرجعي أنشط من الاتحاد الاشتراكي ، الذي يبنـي هو نفسه بفكر توفيقي). وهذا التناقض داخل الأبنية الفوقيـة يجعل إمكانية الإعتماد عليها كقوة موازية، لمواجهـة قـوة الجذب اليمينية ضعيفا إن لم يكن معدوماً؟

وإذا فيما الذي يبقي؟.

إن ما يبقي هو مراكز محدودة جـداً داخـل القيـادة السياسة العليا والمراهنة علي هذه المراكز وحدها لتكون قوة جذب اشتراكية هو مثالية مغرقة ، ولا أهمية هنـا لنفـي أو تأكيد موقف هذه المراكز الاشتراكي العلمي، ومدي وضـوح الإيديولوجية العلمية لديها، فافترض صحة ذلـك ، لا يحـل قضيه إجراء التحولات الأيديولوجية العلمية لديها، الضـامنة لاستمرار الثورة، فالمراكز العلوية – مهمـا كانـت درجـة تأثيرها كبيرة – لا تستطيع أن تكيف تناقضات الواقع بحسب مشيئتها وحدها.

في هذا لموقف (الحاد) تقف ظاهرة يوليو علي مشارف عامها الخامس عشر ، وتجاوزه يتطلـب إرسـاء الأسـس اللازمة لتفجير الإيديولوجية الثورية ، من خلال بناء طبقـي (تحتي) متكامل . من هنا يبدو موقف الاشتراكيين العلميـين التبريري والدفاعي موقفاً غير صحيح، فهـو فـي المـدي الطويل يؤدي إلي تكريس الأوضاع الحالية، ويعـزلهم عـن التفاعل بالطبقة العاملة وحلفائها، ومن بينها بالطبع لمراكـز التقدمية في سلطة يوليو، وهو ما يتطلب بالدرجـة الأولـي تفجير العناصر التقدمية في فكر الميثاق التي حرصت قـوى

اليمين علي إبقائها في منطقة الظل ، وقاومت تنفيذها بمختلف التعقيدات.

وتفجير هذه العناصر وتحويلها إلي كيان حي متحرك ، هو الذي يواجه سلبيات الفكر التوفيقي ويسمح – عند نضوج الظروف الملائمة – بتفجير ايديولوجية ثورية متكاملة. أمـا الاعتماد علي أن التكتيك الإيديولوجي يمكن أن يقود المواقف ، فهو يتجاهل ما نجم عن (المرحلية الأيديولجية) من سلبيات شديدة. كرست ، خلال السنوات الأربع التي انقضـت منـذ صدور الميثاق، تراث المرحلة التي تجاوزها الميثاق نفسـه، وأنشأت مزيداً من الصعوبات والعقبات، وغذت الأعـداء لا الأصدقاء:

* فعلي المستوي السياسي مثلاً ، تعثـرت الخطـوات الأولي لبناء التنظيم السياسي نتيجة لعـدم وضـوح طبيعـة المرحلة الجديدة، وافتقادها إلي المضمون الطبقـي، وبـذلك تسللت الطبقات المعادية للاشتراكية إليه . وامتد هـذا إلـي (مجلس الأمة) الـذي تصـدت لقيادتـه مجموعـات مـن البرجوازية الزراعية في الريف والتجار والمثقفين الوسطيين في المدن، وفي الوقت نفسه، فإن الاعتماد علي البرجوازيـة

الصغيرة في تشكيل قيادات الإتحاد الاشتراكي، مهما بلغـت درجة ثوريتهم – خطر حقيقـي، إذ أن نقـاء الإيديولوجيـة الثورية يظل رهيناً بالاعتماد الأكبر علي العناصر المنتميـة للطبقة العاملة، والحركة النشطة للرجعية، التي يضمها – كما قال عبد الناصر مرة – الحزب السري غير المنظم للرجعية في الداخل ، لن يوقفها سوى نسف الجسور الوسـطية التـي يخلقها الفكر التوفيقي بين هـذه الأحـزاب وبـين التنظـيم الثوري.

* وفي المستوي الاقتصادي أدى تبني الميثاق للمـنهج البرجوازي الصرف في علاج المسألة الزراعية إلـي قلـة كفاءة القطاع الزراعي انتاجياً وخلق صعوبات كـان فـي الإمكان تجاوزها. فقد أدت محاولة تجمع الانتاج الزراعـي للتغلب علي مضار تفتيت الملكية وأثرها في خفض الإنتاج – إلي معارضة فلاحية، ورغم أن التجميع الزراعي ليس حلاً اشتراكياً ، إلا أن معارضته من قبل الفلاحين كشفت عن أن الاستمرار في خلق الملكيات الصغيرة لدي الذين لـم تكـن لديهم يبلور معارضة يخلقها المسير الثوري لنفسه ويسـتمر في تأكيدها.

* وعلي المستوي الفكري تزايـد العـداء للاشـتراكية العلمية ، ولم يعد مقصوراً علي المراكز اليمينية الواضـحة بل تسلل بالفعل إلي بعض مراكز التنظيم السياسي ومنظماته. بحيث تبلور داخلة تيار يميني قوى يهمل كل قضايا المرحلة – حتي ما كان منها عاماً مثل العداء للإمبريالية والإقطاع – ليركز علي التناقض العدائي جداً بين (الاشتراكية العربيـة) وبين (الاشتراكية الماركسية) وهو تيار يركز بشدة علي فكرة (دولة الشعب كله) في مواجهة (دولة العمـال والفلاحـين). معتمداً علي الأوضاع التي تضع شباب البرجوازية الصغيرة من الطلاب وشباب المدن والمهنيين في منطقة الضوء الباهر لمجرد معرفتهم القراءة والكتابة. وهو تيار يخلق انعاكسـاً شديداً بين شباب البرجوازيـة الصـغيرة وبـين العمـال والفلاحين بإثارة مخاوفهم . ومشكلته الحقيقية أنه لا يقوم بأي دور نضالي حقيقي سـوى إثـارة الغبـار حـول القضـايا الأساسية.

والمشكلة الأخطر أن هذا التيار يتلقـي مـع حساسـية المسألة الدينية بالنسبة لظاهرة يوليو. ورغم الوضوح الكامل لدي كل الاشتراكيين بأن عملية التغير الاجتمـاعي ليسـت

معركة ضد الأديان. ولكنها أساساً عملية صـياغة جديـدة للعلاقات الاجتماعية، فإن ضراوة المعركة بين قوى الثـورة والثورة المضادة في المنطقة العربية قد زادت من حساسـية المسألة الدينية ووضعتها في منطقة ضوئية، أدت مع التـزام المسير الثوري أصلاً موقف الدفاع تجاه القوى المضـادة ، إلي استغلال اليمين للـدين لتعويـق تطـوير اشـتراكي . (والميثاق) عندما أقر يقينه (بـأن الرسـالات الدينيـة فـي جوهرها كانت ثورات عظيمة اسـتهدفت شـرف الإنسـان وسعادته) لم يكن يعبر عن حقيقـة غيـر علميـة، بـل إن الإمكانيات الثورية التي تضمنه الفكر الإسلامي ظلت حيـة ومؤثرة لفترة طويلة، وعبرت العديد من المدارس الفكريـة الإسلامية – بعد ذلك – عن وجهة نظر الطبقات المقهـورة اجتماعيا، ولكن هذا الإقرار باحترام العقيدة الدينيـة والفكـر الديني المتطور اجتماعياً ، يتحول في يد اليمين إلي المطالبة بإقامة حكومة دينيه، بينما يلعب شباب البرجوازية الصغيرة، المنتمي للثورة ، دور الوقود الذي ينفخ في نار هذه الأفكـار اليمينية، بإصراره علي أن التنـاقض الرئيسـي هـو مـع الماركسية الملحدة. وقد يبدو غريباً – في بلد غير مصر –

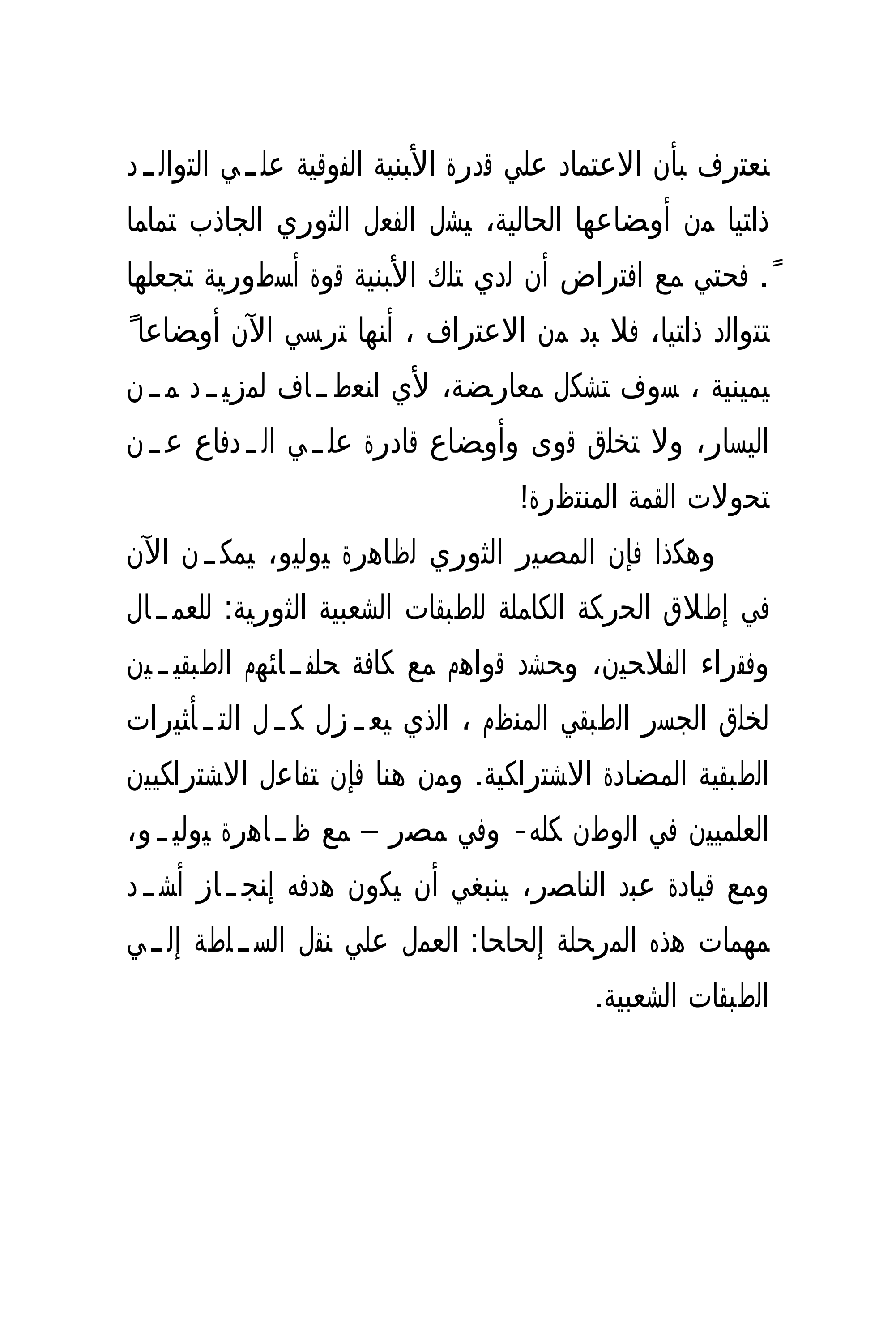
أن يكون هناك (تحول إشتراكي). في الوقـت ذاتـه، الـذي ترفض فيه الاتجاهات العلمانية وتتزايد فيـه الأيـديولوجيات المعادية للزمنية، وتتحكم فـي صـياغة بعـض العلاقـات الاجتماعية الأساسية كالعلاقة بين الرجل والمرأة، مما يخلق لهذه العلاقة الهامة طابعا ينتمي إلي الثورة الوسطي وهو ما يعني أن الفكر (الثوري) في مصر ، يقدم صـياغة ليسـت متخلفة فقط عن الفكـر الاشـتراكي ، ولكـن حتـي عـن الليبرالية!!.

* وعلي المستوي الاجتماعي فـإن سـقوط الإقطـاع والبرجوازية الكبيرة ، لم يفتح الباب أمام العمال والفلاحين – باعتبارهم أغلبية المجتمع – لتولي السلطة الحقيقية داخلـه، وهذه الحقيقية هي التي تشكل العمود الفقري لكـل سـلبيات المسير الثوري الحالي. إن إسهام العمال والفلاحين في إنجاز متطلبات التنمية لم يتوقف أبدا ، بل إن العبء الأساسي فـي إنجاز هذه المتطلبات ما يزال يقـع علـيهم . ولكـن هـذه الإسهامات تتحول إلي مزيد من المميزات للفئـات المشـكلة للطبقة الجديدة، إن ما يوزع من فائض قيمة علـي العمـال والفلاحين علي شكل أجور – بعد اقتطاع الجزء الذي يعـاد

استثماره في التنمية – يقع القسم الأكبر منه في يـد الطبقـة الجديدة. ومن مراكزها الخاصة والقوية تحاول هذه الطبقـة الجديدة تطويع ظاهرة يوليو بحيث تستقر الأوضاع الحاليـة علي كافة المستويات، ومن هنا فلن يكون غريبا أن تتحـالف الطبقة الجديدة مع قوى الثورة المضـادة التقليديـة . ومـن المنطقي جدا أن تعمل علي زيادة الفواصـل بـين جمـاهير الشعب وبين الظاهرة ككل لإبقاء الجماهير في منطقة الظـل عاجزة عن التأثير في القيادة!

وهذه الظواهر هي النتيجة الحتمية للاعتماد علي الأبنية الفوقية. وللتصور بأن في استطاعتها وحـدها حسـم كـل القضايا، وهي تؤكد أن التكتيك الأيديولجي لا ينجز تحـلات جزئية تساهم في الوصول إلي مصير ثوري، ولكنه يرسـي بالضرورة قواعد معادية لهذا المصير.. وإذن فما العمل!!!.

لا بد وأن نعترف أولاً بأن المسير الحـالي لظـاهرة يوليو لا يتضمن إمكانيات قوية تمكنه من تفجير إيديولوجيـة اشتراكية، ولكنه يملك- مع تفاعل كل القوى الثوريـة فـي اتجاه قوة جذب متكاملة شـكلاً ومضـموناً – أن يرسـي الأوضاع الضرورية لخلق قـوة التفجيـر المطلوبـة ، وأن



نعترف بأن الاعتماد علي قدرة الأبنية الفوقية علـي التوالـد ذاتيا من أوضاعها الحالية، يشل الفعل الثوري الجاذب تماما ً. فحتي مع افتراض أن لدي تلك الأبنية قوة أسطورية تجعلها تتوالد ذاتيا، فلا بد من الاعتراف ، أنها ترسي الآن أوضاعاً يمينية ، سوف تشكل معارضة، لأي انعطـاف لمزيـد مـن اليسار، ولا تخلق قوى وأوضاع قادرة علـي الـدفاع عـن تحولات القمة المنتظرة!

وهكذا فإن المصير الثوري لظاهرة يوليو، يمكـن الآن في إطلاق الحركة الكاملة للطبقات الشعبية الثورية: للعمـال وفقراء الفلاحين، وحشد قواهم مع كافة حلفـائهم الطبقيـين لخلق الجسر الطبقي المنظم ، الذي يعـزل كـل التـأثيرات الطبقية المضادة الاشتراكية. ومن هنا فإن تفاعل الاشتراكيين العلميين في الوطن كله- وفي مصر – مع ظـاهرة يوليـو، ومع قيادة عبد الناصر، ينبغي أن يكون هدفه إنجـاز أشـد مهمات هذه المرحلة إلحاحا: العمل علي نقل السـلطة إلـي الطبقات الشعبية.

والصيغة التي طرحها (الميثاق) لنقـل السـلطة إلـي الطبقات الشعبية، تتضمن رافدين أساسين ، من أنصع الروافد في فكر (الميثاق).

* قيام المجالس الشعبية المنتخبة التي يجـب أن تتأكـد سلطتها فوق سلطة أجهزة الدولة التنفيذية (فذلك – كما يقول الميثاق – هو الوضع الطبيعي الذي ينظم سيادة الشعب . ثم هو الكفيل بأن يظل الشعب دائما قائدا للعمل الوطني ، كمـا أنه الضمان الذي يحمي قوة الاندفاع الثوري من أن يتجمد).

* كذلك فإن الحكم المحلي (يجب أن ينقـل باسـتمرار وبإلحاح سلطة الدولة تدريجياً إلي أيدي السلطة الشـعبية ، فإنها أقدر علي الإحساس بمشـاكل الشـعب وأقـدر علـي حسمها).

وقد شرح عبد الناصر أثناء محادثات الوحـدة الثلاثيـة أهمية إنشاء المجالس الشعبية باعتبارها الوعـاء الصـحيح لسلطة الشعب، وديمقراطية التطور الاشتراكي ، وطرح في ذلك الحديث عدة أفكار أساسية وهامة (الجلسة المسائية فـي ١٣/٤/٦٣).

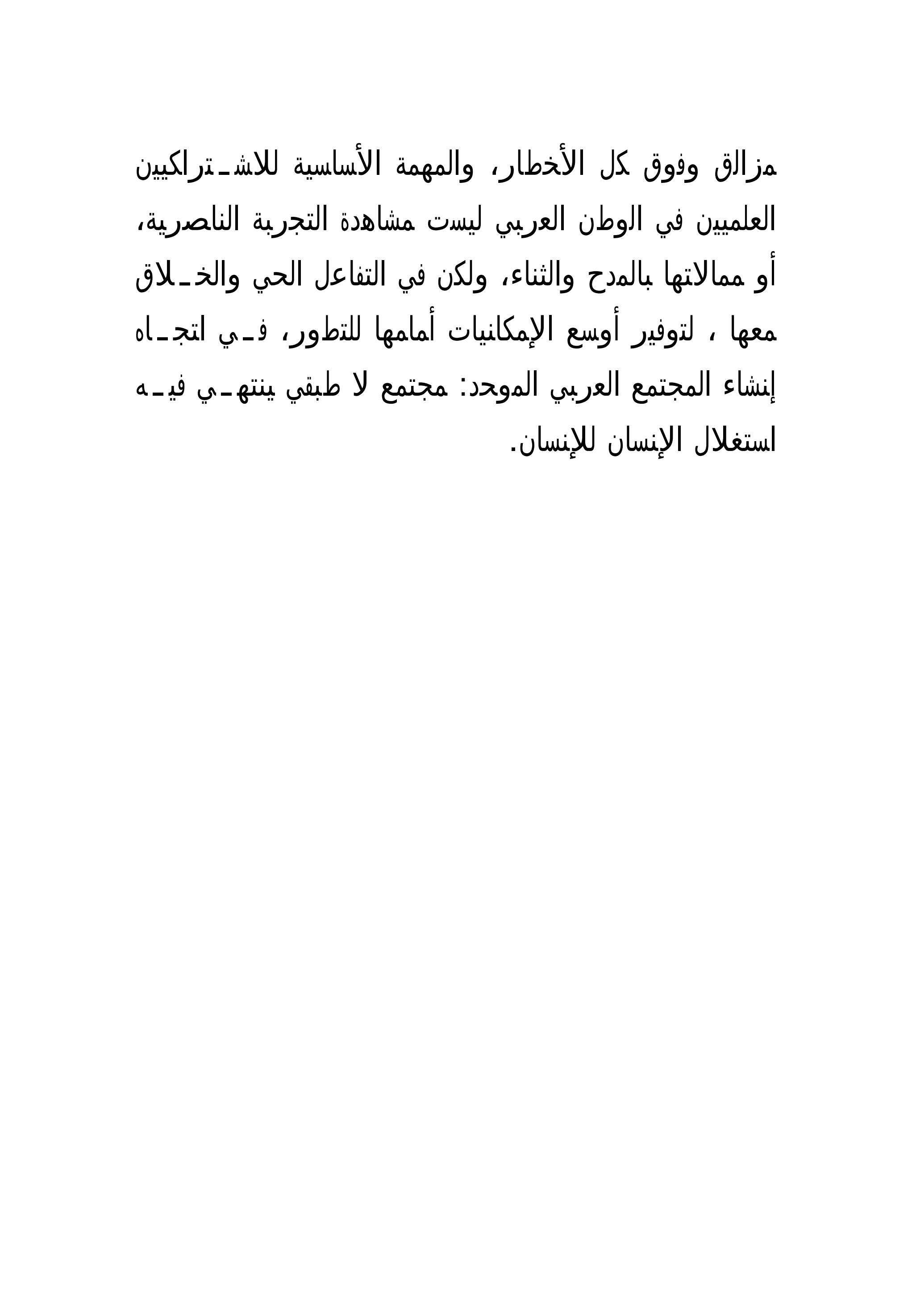
* فقد أكد أن الطابع الديمقراطي للمجـالس الشـعبية ، يفرض الاعتماد عليها في إنجـاز أهـم متطلبـات التحـول الاشتراكي، وخاصة في المراحل الأولي لممارسـة الحـزب لسلطته ومع قلة عدده، وضرب مثلاً بما لجأت إليه التجربـة السوفيتية بعد الاستيلاء علي السلطة مـن إعطـاء مجـالس السوفيات كل السلطة وخاصة في السنوات الخمس الأولـي وفوق سلطة الحزب الشيوعي نفسه.

* وأشار إلي خطورة الاعتماد علي الحزب فقـط فـي قيادة العمل السياسي واحتكاره له (ديكتاتورية الحزب معناها أن الحزب سينعزل انعزالاً كاملاً عن الشعب الذي سينقلب عليه (إن الصيغة الملائمة كما حددها عبـد الناصـر هـي (ديكتاتورية الشعب العامل، أو ديمقراطية الشعب العامل) إن معني قيام المجالس الشعبية التـي تضـم ممثلـي العمـال والفلاحين والمثقفين هو تحقيق هذه الديمقراطية (وبهـذا مـا يبقاش فيه ديكتاتورية الحزب ، يبقي توجيه الحزب وقيـادة الحزب).

وتفاعل هاتين الفرضيتين مع تجارب السنوات الأربـع، يطرح إنشاء المجالس الشعبية كأكثر المهمات إلحاحا، وقـد

كان لمشروع الذي طرح لإنشاء هذه المجالس منـذ حـوالي عام ونصف مشروعاً شكلياً ، ولعل هذا السبب فـي عـدم تنفيذه، إن المجالس الشعبية ينبغي أن تبدأ أصلاً من وحدات الإنتاج، وأن تعطي الصلاحيات التي تكفل حصر نفوذ الطبقة الجديدة، ومنها الوقوف ضد المميزات المتزايدة التي تنتزعها الطبقة الجديدة من عائد التنمية. وأن تناقش الخطة السـنوية في إطار وحدات الإنتاج الصغيرة والمتكاملـة. وأن ترسـي دعائم المراقبة والمحاسبة لكل الأجهزة القيادية التنفيذية، ثـم تكون المصدر الرئيسي للقيادات الحزبية والسياسة. وتشـكيل المجالس الشعبية في الريف من فقراء الفلاحين – الـذين لا يستعملون العمل المأجور- والعمال الزراعيين ، هو الكفيـل بزيادة فاعلية الخدمات التي يحصل عليها الفلاحين ، وهـو القادر، وحده علي تصفية العناصر الإقطاعيـة بعيـدا عـن محاولات التصفية الإدارية. وهو ما إلتحامه وتفاعله مع بقية الجوانب الثورية في الظاهرة ما يسمح بـإجراء التحـولات الاشتراكية في الريف.

وطرح هذه الفرضيات كلها للحوار الموسع يخلق الجسر الحديدى الذي يسمح بتفجير الإيديولوجيـة الاشـتراكية دون



مزالق وفوق كل الأخطار، والمهمة الأساسية للاشـتراكيين العلميين في الوطن العربي ليست مشاهدة التجربة الناصرية، أو ممالاتها بالمدح والثناء، ولكن في التفاعل الحي والخـلاق معها ، لتوفير أوسع الإمكانيات أمامها للتطور، فـي اتجـاه إنشاء المجتمع العربي الموحد: مجتمع لا طبقي ينتهـي فيـه استغلال الإنسان للإنسان.

المنظور السياسي والديمقراطي
لمسألة الوحدة الوطنية
الرغبة في التنوع....

من تكرار القول أن ننبه إلي تأثير كل ما يحدث علـي الجبهة الداخلية في مصر – سلبا أو إيجاباً – علـي جبهـة القتال[1]... وبالتالي علي مشكلة لوطن بأكمله.

وعلي الرغم من أن التأثير المتبادل بين الجبهتين مفهوم لنا جميعا، إلا أن هذا الفهم ما زال فهما نظريا ، بدليل أننـا نغفل كثيراً عن حجمه الحقيقي، فضلاً عن أننا في مصـر

(*) نشر هذا المقال في (مجلة دراسات عربية) البيروتية – فـي عدد مارس ١٩٧٣، وكان قـد كتـب أساسـا لينشـر فـي جريـدة (الجمهورية)، إلا أن رئيس تحريرها- أنذاك – مصطفي بهجت بدري ، رآة أصرح ما تحتملة المرحلة ، فدفعت به لينشر في مجلة (الطليعة) لكن الرقابه علي النشر ، شطبت ٧٥% منه، فأرسلته إلـي دراسـات عربية حيث نشر .

(١) كتب هذا المقال ونشر قبل حرب أكتوبر ، أيام كانت هنـاك جبهة للقتال مع العدو.

نتعامل واقعياً علي أن هناك (جبهتين) منفصلتين.. وليس جبهة واحدة ممتدة ومتصلة ينبغي أن تحكمها قوانين واحدة في التعامل السياسي ، ومن البديهي أن هناك (طابع نوعي) لكل من الجبهتين، لكن إدارك هذا الطابع ينبغي أن يكون في اتجاه شحذا قدرتنا علي التعامل مع كل منهما علي حدة في اتجاه الاندماج والتوحد ، ومن الخطر أن يقود منطلق الطابع النوعي إلي المفهوم السائد والرائج عندنا الآن – وعلي مختلف المستويات – بأن هناك جبهتين إحداهما في خدمة الأخري ، ويتم التعامل مع كل واحدة بمنطق مختلف تماما... وأحيانا يكون متناقضاً..

وإذا كان علينا أن ننظر إلي الوطن باعتباره وحده سياسية واحدة، تشغلها قضية واحدة، فإنه مما يخدم هذه الوحدة يؤدي إلي المواجهة الأمثل للقضية أن نعي مفهوم الجبهة الواحدة: جبهة سياسية ديمقراطية في الداخل ، تعني بين ما تعني (تسيس الجيش) و (عسكرة الشعب) وتقوم علي إدراك أن الجبهة تكون ديمقراطية حقاً إذا قامت الوحدة من خلال التنوع..

ويرتبط بهذا الإدراك ، أن نتعمـق فـي فهـم الأبعـاد السياسية لأي ظاهرة جزئية أو فرعية، من هنا.. فـإن مـن الخطر أن ننظر لحادث الخانكة [٢] برغم محدوديته – نظرة جزئية تبعد به عن السياسة، أو تكتفي بالتنبيه إلي آثاره دون أن تمد البصر إلي أسبابه، ذلك أن سياسة التنبيه إلي (الآثار) لم تقتض علي الظاهرة، بل إن اللجوء إلي التقنين، لم يقـض عليها.. وإذن فإن المنظور السياسي والديمقراطي هو وحـده الكفيل بفهمها ومعالجة آثارها..

والواقع أننا لا نختلف مع الذين ينظرون للمسألة علـي أساس آثارها ، فنحن نقر معهم بأنه ليس من حق أحد – أياً كان ومهما كان – أن يشغل الناس بشئ لا يتعلق بما ينبغـي لهم أن يشغلوا به...

ونحن نتفق معهم علي أنه عندما يكون هناك علم غريب يرفرف فوق جزء من أرض هذا الوطن، فينبغي أن توجـه إليه كل البنادق، وأن تطلق عليه كل المدافع فإذا وجه إنسان

---

[٢] من أوائل أحداث التوترات الطائفية في بداية عهد السـادات . إذا اشتغلت حراق مجهولة ، في أحد كنائس مدينه الخانكـة، إتخـذت أساسا ، لمخاوف طائفية إنتشرت إنذاك.

همه لتخريب بيت يعبد فيه ا ، مسجدا كان أم كنيسة، فمعني هذا أنه يدير بندقيته إلي صدورنا نحن ، ويطلق مدفعه علـي أجسادنا ، وذلك كله خيانة وطنية صـريحة وفـي وضـح النهار!.

ونحن نترهم في النظر إلي ما حدث باعتباره محاولـة لتمزيق أعلام الوطن، وتنكيس رايات ا .

علي أننا نضيف إلي هذا كله، أن القضية في منظورها السياسي هي تعبير عن هذا (التنوع) المفتقـد فـي حياتنـا السياسية ، ونفتقد لأسلوب الوحدة الوطنية والسياسة السـائدة لدينا، وليس لنا أن ندهش عندما يتميـز النـاس (دينيـاً) ، ويتنوعون (طائفياً) ، فإن هذه الرغبة في التنوع ظاهرة في حياتنا كلها، نراها في الانقسام في آراء الناس تجاه سياسـة العالم، حتي تلك السياسات التي لا تمسنا بشكل مباشر ، بـل ونراها حتي في (التنوع الكروي)، الذي لـم نتنبـه لدلالتـه السياسية إلي الآن، كما نراها في ذلك الصراع الذي بدا يطل برأسه بين الأجيال..

ومفتاح هذه الرغبة السياسية في التنوع، هو الاحتجـاج النفسي علي محاولات الإدماج المفتعلة ، وربمـا القسـرية

أحيانا.. لكنها قد تكون مقبولة ومحتملة أحيانا ، فإذا وصـلت إلي ذلك الذي نرصده منذ بدايات هذا العـام مـن التقسـيم الطائفي، فإنها تصبح خطرا حقيقيا.. بل أفدح الأخطار.

وبسبب طبيعتها الخاصة، فإن أول المطالبين بالتصـدى لظاهرة الاقتتال الطائفي، هم الديمقراطيين المصريين من كلا الاتجاهات.. هؤلاء الذين يهمهم أن تتأكـد القـيم المتقدمـة والمتحضرة في حياتنا، وأن تنتصر الحريـات الديمقراطيـة علي الاتجاهات الفاشستية الجديدة التي تطل برؤوسها، لتعيد الوطن إلي ظلمات العصور الوسطي..

والمنهج الذي اختاره الرئيس السادات لمعالجـة هـذه المسألة ، هو المنهج الوحيد الملائم لمعالجتها ، فقد رفـض أسلوب التكتم علي الأمر، أو التغطية عليه. كما رفـض أن يعتبر قضية جنائية عادية، تترك الأجهزة الأمن لتتحري عنها ، وللقضاء ليحكم فيها، وإنما اعتبرها – هي ومـا سـبقها – دلالة علي ظاهرة أكبر من هذا وأشمل ، بحيث رأي ضرورة لأن يضيف إلي ذلك كله، تحقيقا سياسيا لكي تتكامل صـورة

وأبعاد المحاولات الهادفة لافتعال الفتنة الطائفيـة، ويتحـدد حجمها الحقيقي..[1]

ودون تعرض لما وقع في الخانكة من حوادث. أو لمـا سبقها في أماكن أخري هي الآن محل تحقيق جنائي متشعب النواحي نتركه لحكم القضاء، فإن التطبيق العملـي لمـنهج (الرئيس السادات) في مواجهة هذا الأمر ، يتطلب أن يتناقش الجميع في الضوء الباهر، لتتكشف الحقائق وليلتزم الجميـع حدود مسئوليتهم، ولكي لا يتصور أحد أن في اسـتطاعته أن يعبث بالنار ليلهو فيحرقنا جميعاً .. ونسكت عنه.

وطالما أن للقضية وجه سياسي ، ومـن المؤكـد أنـه وجهها الغالب ، فإن مناقشة ما تعبر عنه مـن دلالات هـو الوسيلة الوحيدة لتجاوز آثارها، وللقضاء علي ما يمكـن أن تقود إليه، بشكل متسلسل، من أخطار، علي مختلف الحريات العامة المكفولة للمواطنين تلك التي يسـعون بجهـد شـديد لتأكيدها وتوسيع نطاقها.

---

[1] ضمن سياسة السادات القائمة علي الصدمات، كان قـد قـرر آنذاك ، تشكيل لجنة برلمانية لتنقصي بوضوح الفتنه الطائفية. ويقـول هيكل أنه عارضه في ذلك الحساسية الموضوع.

المشجب الأميركي:

وتنبع خطورة الظاهرة من ندرتها في تاريخنا القـومي كله، فلم يحدث إلا فيما ندر – أن تعرضت بيوت ا في هذا الوطن – مساجد أو كنائس أو معابد – لتخريب أو تـدمير ، والمذابح الطائفية.. بالمعني الدقيق للكلمة – من الأحداث التي لم يشهدها التاريخ المصري، وفي مواجهة هذه الندرة ، فإن علينا أن ننظر إلي ما يحدث – علي محدوديته – علي أساس أن أهميته أخطر من حجمه.

ومن الثابت في تاريخنا ، أن الشعب المصري بسـبب طبيعته الحضارية ، شخصيتة القومية، من أكثـر الشـعوب تسامحا في المسائل الدينية ون أكثرها انفتاحا لتقبـل الجديـد والمتغير من القيم والعادات، ولم يكن هذا التسـامح فـي أي وقت من الأوقات دليل علي وهن العواطـف الدينيـة، لأن الشعب المصري ملك دائما وباستمرار القدرة علي التفريـق بين (العصبية الدينية) و (التعصب الديني)!

والعصبية الدينية حالة من الارتباط بين الذين يـدينون بدين واحد، تشدهم للتقارب، وتدفعهم للقيام بفرائض ديـنهم، وللحفاظ علي شعائره وتلقينه لأبنائهم ، وقد تتسـع لـبعض

أشكال التكافل الاجتماعي بينهم.. فإذا تجـاوزت العصـبية الدينية ذلك إلي كراهية للأديان الأخري. أو عدوان عليها، أو مصادرة الحق من يعتنقونها في ممارسة شـعائرها الدينيـة واحترام فرائضها ، هنا تنقلب إلي (تعصـب) ينكـره ا .. ويشمئز منه العرف...ويعاقب عليه القانون..

ومن المؤكد أن الذين يفهمون في الدين خيراً مما أفهم ، يستطيعون أن يجدوا في نصوص القرآن والإنجيل ما يبرهن علي استنكار الإسلام لهذا الذي حدث وكراهية المسيحية له، كما أنهم يستطيعون أن يجدوا فـي كتـب الفقـه والتفسـير واللاهوت أمثلة وشواهد عليه، مما كان يفعلة السلف الصالح فأساء إليه الخلف الطالح...

والأهم من هذا كله، هو أن يلتفـت المهتمـون بـالفكر السياسي للدلالة الاجتماعية والسياسة لمثل هذه الظواهر، وأن يربطوا بينها وبين القضايا الأساسية للنضال الوطني ، وهي التي ينبغي أن تكون المحك الرئيسي الذي تقـاس عليـه أي قضية أو مسألة...

ولقد سبق للرئيس السادات أن أشار في خطابـه أمـام الدورة السابقة للمؤتمر القومي في يوليو الماضي – إلـي أن

هناك أصابع للمخابرات الأميركية في افتعال بعض الخلافات بين الأقباط والمسلمين، بما يؤدي إلي فتنة طائفيـة، ومـن البديهي أن مثل هذه المحاولات مستمرة، لكن ما يجب علينا أن ندركه هو ألا نستسهل المسألة ونلقي بكل المسؤولية علي عاتق المخابرات الأميركية ونستريح... ونريح أنفسـنا مـن مسؤولية هذا الذي يحدث.

ونحن كمواطنين ، مسؤولين ، لـيس فقـط لأن هنـاك أقساماً منا تفتقد الوعي السياسي لإدراك مؤامرات الأعداء، وإفشالها، بل لأن هناك آخرين – بوعي أو بـدون وعـي – يسعون لتغيم الجو بين الأغلبية المسـلمة والأقليـات غيـر المسلمة.. أما الشائعات الكاذبة، أو بالمنشورات المزورة[1] ، وهو ما تقع في اثاره عناصر من المتعصبين من الكثـرة أو القلة، فتروح تروج لمضمون هذا وذاك، وتنتهي بنشر أفكار سياسة خاطئة ، تترتب عليها نتائج أكثر خطـأ وخطـورة،

---

[1] إشارة المنشور سري، كان يوزع بكثافة قد تعو للريبـة بـين المسلمين آنذاك، ويتضمن ما سمي بمحضر إجتماع سري، ضم البابـا شنودة الثالث، وقادة الكنيسية، ونسب هـذا المحضـر للبابـا شـنوده، تعويضة للأقباط ، علي ما يسمي بتحويل مصر ألي دولة قبطية .

كذلك الذي حدث في الخانكة وغيرها، وكذلك الذي يمكن أن يحدث إذا لم نتصد بالوعي السياسـي كـل هـذه الأفكـار الخاطئة...

دار المصريين جميعاً

وفي حدود هذا التصور، فإن الـبعض يـروج لأفكـار تتعارض تمام التعارض، مع ما استقر عليه الفكر السياسـي المصري، علي امتداد الخمسين عاما الماضية ، من طبيعـة لهذه الدولة، ولنظام الحكم فيها، وما ألحق بهـذا كلـه مـن تطورات أكدت هذا الطابع وبلورت ، ويعتبـر مـا حـدث خروجا عن إطاره، وهو ما ينبغي أن نجد له حلا ديمقراطياً حقيقياً .

ومنذ ثورة ١٩١٩ ، والنظام السياسي المصـري، قـد استمد وجوده من الإقرار بالعمود الفقري لأي حركة قومية ، وبما استقر عليه الفكر الليبرالي، وبهذا أصبحت مصر (دولة علمانية) تستمد شرائعها من الزمن المتغير والمتطور ، وهو ما استتبع تأكيد مجموعة من الحقائق الأساسية.

* أولها أن السلطة المعبرة عن جموع المصريين، هي سلطة مدنية وليست سلطة دينيه، وهي تلي الحكم بـاللإقرار

الجماهيري ، وهي ليست مفوضة عن أي قوة علوية، فالحاكم هو (الملك) وليس الخليفة، وهو رمز الدولة وليس – كما زعم بعض الخلفاء – ظل ا علي الأرض...

وفي النظام الملكي ، كان الملك يملك ولا يحكم، وهو يلي الحكم طول حياته وتتولاه بعد ذريته ، ولأنه رمز للدولة، فليس مسئولاً بشكل مباشر، خاصة أنه غير قابل للعزل – دستورياً - ومن هنا فهو يمارس بواسطة وزرائه ، والوزراء مسؤولون ومتضامنون في المسئولية أمام مجلس النواب، الذي ينتخبه جموع المصريين، ليصدر نيابة عنهم القوانين والشرائع في حدود مصلحتهم...وفي النظام الجمهوري الرئاسي، وهو السائد منذ ١٩٥٦ والي الآن، فإن رئيس الجمهورية مسئول أمام الشعب، وهو ينتخب بواسطته، ويعبر عنه ويستمد سلطته منه.

* وترتيبا علي هذا، فإن العلاقة بين الحاكمين والمحكومين ، هي علاقة موضوعية وليست شخصية ، كما أنها ليست علاقة مقدسة وأنها ليست علاقة بين (الخليفة) و(الرعايا) ولكنها علاقة بين (الدولة) و (المواطن) والفرق بين العلاقتين واضح وصريح فالخليفة يعتبر نفسه إمام

المسلمين ، ومفسر دينهم ، وهو يحكم – فيما يزعم لنفسه – علي أساس تطبيق أحكام ا ، لذلك فإن سلطته مقدسة، أما في الدولة المدنية ، فإن السلطة و تعبر عن مصلحة المـواطنين الدنيوية ، وهي تطبق شرائح يضعها ممثلون لمجموع الأمـة تحمي مصالحهم المتطورة والمتغيرة.

* وأساس العلاقة بين الدولة والمواطن فـي أي نظـام ديمقراطي، هو كفالة (حقوق المواطنة) للجميع، فـالمواطنون متساوون أمام القـانون فـي الواجبـات والحقـوق.. فكـل المواطنين يدفعون الضرائب التي تمول منها لخدمة العامـة، وليس فيهم من يدفع (الخراج) أو (الزكاة) في مقابل من يدفع (الجزية)، وليس هناك في الدولة المدنية مـن يعفـون مـن التجنيد ويقوم آخرون بحمايتهم والدفاع عنهم فالتجنيد إجباري علي كل المواطنين، والجميع ملزمون بالخضـوع لإحكـام القانون لصيانة الأمن والنظام العام [1] وفـي مقابـل هـذا

---

[1] في أثناء صياغة دستور ١٩٢٣ ، دارت بعـض المناقشـات حول حق الانتخاب ، وكان محك المناقشة هو أن (المواطنة) حقـوق ، وواجباته .. ومن هنا أقرت اللجنة مبدأ أن (الإقتراع العام) أو (حـق الانتخاب) هو من حقوق كل المصريين ، لا فرق في ذلك بـين أمـي

فللمصريين جميعاً حقوق متساوية في تولي الوظائف العامة وفي الاستفادة من الخدمات العامة والاجتماعية كمـا أنهـم متساوون أمام القانون ، ولهم جميعا حقوقهم في ممارسة كافة الحريات العامة، وعلي رأسها حرية الرأي والعقيدة..

وجوهر هذا كله هو أنه لا يجوز التفرقة بين المصريين في الحقوق والوجبات بسبب ما يدينون به ، أو يعتنقونه مـن معتقدات دينية أو دنيوية، اجتماعية أو سياسية ، أو فلسـفية، كما أنه لا يجوز التفرقة بينهم بسبب جنسهم، فالمرأة كالرجل أمام القانون، ولها كل حقوقه، أو بسبب أصلوهم، فالقانون لا يفرق بين أبناء الأسر وأبناء السبيل، وبمتقضي هذا القواعد، فليس هناك في مصر درجات للمواطنة وينبغـي ألا نسـمح لأحد بأن يفتعل هذه الدرجات.

وجاهل، ورفضت ما طالب به البعض مـن قصـر الانتخـاب علـي المتعلمين وكان منطقها في ذلك ، أن الانتخاب حق مترتب علي واجب هو الجدية ، وما دام هذا الذي يفلح الأرض ، يحمل من حق الجندية ما يحمل غيره أو أكثر مما يحمل غيره، فحقه في الانتخاب لا يصـح أن يكون محل نزاع (راجع مذكرات في السياسة المصـري – د. محمـد حسين هيلك – ح ١ ص ١٣٤) . ودفع الضرائب والجنديـه محكـان رئيسيان في حق المواطنة..

وهذا كله ينظمه الدستور المصري الصادر فـي عـام ١٩٧١ الذي ينص علي أن (المواطنون لدي القانون سواء ، وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة. لا يتميز بيـنهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة [١] ، كما أنه ينص علي أن الدولة تكفل (حرية العقيدة وحرية ممارسة الشعائر الدينية [٢]

علمانية الدولة في المنظور الديني:

والواقع أن فكرة الدولة المدنية لا تخالف الدين الإسلامي ، الذي لم ينص علي شكل معين للدولة الإسلامية ، فقد كانت الخلافة اجتهاداً خاصاً للصحابة الأولين ، بدليل أن الخلاف حول نظام الحكم في دولة الإسلام قد استمر وتزايد بعد أقـل

---

[١] المادة ٤٠ من دستور ١٩٧١. والمادة بنفس الـنص تقريبـاً وردت في دستور ١٩٢٣ – الماده الثالثة منـه وكـذلك وردت بـنفس النص تقريباً في دستور ١٩٥٦ – المادة ٣١.

[٢] المادة ٤٦ من دستور ١٩٧١ . والمادة بنفس الـنص تقريبـا وردت في دستور ١٩٢٣- المادة ١٣، كما وردت بنفس الـنص فـي دستور ١٩٥٦ المادة ٤٣.

من ربع قرن علي وفاة الرسول، وكثر فيه الحوار والخلاف بين مدارس الفكر الإسلامي.

والمدرسة العقلانية المستنيرة في هذا الفكر، لا ترى في الدولة (العلمانية) أو (الزمنية) خروجا علي شرائع الإسـلام، وهي تذهب إلي القول بأن ا لا يمكن إلا أن يقصد مصلحة عباده، وأن نصوص القرآن ما نزلت إلا لذلك ، فإذا اتضـح من ظاهر نص قرآنـي أنـه – ظـاهراً – يخـالف هـذه المصلحة، جاز تأويل تفسيره بمايحقق مصلحة المسـلمين ، فإذا كان النص حديث نبوي جاز الحكم ببطلانه علي أسـاس أنه ضعيف الإسناد... والمفهوم عند هذه المدرسة أ (العقـل) هو الذي يحدد الصالح والطالح من الأمور ، كما أن جمـوع المسلمين هي التي تحدد مصالحها علي ضوء المتغيـر مـن الظروف والأوضاع الزمنية ، وهو مـا يكفلـه أي تمثيـل ديمقراطي ، بما لا يجعل من اللجوء إلي التشـريع الزمنـي مخالفة لأي فهم مستنير في الإسلام[٣]

---

[٣] راجع في ذلك – أحمد أمين – ضحي الإسلام – الجزء الثالث – الطبعة الأولي من ص ٢١ ألي ٢٠٧

ومن الحق أن نقول أن هذه المسألة هي مـن المسـائل التي يطول حولها الخلاف والجدل في الفكر الإسلامي .

بيد أن هناك مدرسة تقبله بالفعل، وفي تحليل الـدكتور (طه حسين) لنظام الحكم الإسلامي حتي في ظل الرسـول، ذهب إلي القول بأن نظام الحكم النبوي كان نظاما مدنيا، ولم يكن نظاما تيوقراطيا، وأن له تميزه الخاص والمتفـرد فـي أنظمة الحكم التي كانت سائدة آنذاك...[٤]

وقد تصدي المفكر الإسلامي الكبير (علي عبد الرازق) لهذه القضية في العشرينات.. وحسم المسألة وناقشها منتهيـاً إلي القول بأن محمداً صلي ا عليه وسلم ، مـا كـان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك، ولا دعوة لدولة ، وإنه لم يكن للنبي صلي ا عليه وسلم ملك ولا حكومة ، وإنه صلي ا وعليه وسلم ، لم يقم بتأسيس مملكة بالمعني الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها، ما كان

---

[٤] راجع – الفتنة الكبري – ح ١ : عثمان.

إلا رسولاً كإخوانه من الرسل ، وما كان ملكاً ولا مؤسساً دولة ولا داعيا إلي ملك)[1]

ولا يعني هنا أن أدخل طرفاً في هذا الحوار، إذ من المؤكد أن الفكر المصري في مجملة قد استقر علي الأخذ بمنهج هذه المدرسة المستنيرة عملاً وفعلاً بل وتصدى المفكرون الإسلاميون المستنيرون للتيار الذي يدعو للدولة الدينية من منظور الإسلام نفسه، حرصاً منهم علي تجنيب دين ا الدخول في صراعات الحكم والسياسة، وصيانة للعقيدة الإسلامية من أن تحمل بأوزار الذين يزعمون أنهم يحكمون باسمها، أو باعتبارهم خلفاء عن الرسول.

وقد شهدت الفترة بين ثورتي ١٩١٩ ، و ١٩٥٢ دفاعاً مستميتاً من الليبراليين المصريين، من أجدل الحفاظ علي الطابع العلماني للدولة المصرية، وتأكيده ، سواء في قضايا حرية الفكر أوالتشريع. وهناك العديد من المناقشات ، الحادة التي دارت في المجالس النيابية انتصاراً لهذا الاتجاه ،

---

[1] علي عبد الرازق – الإسلام وأصول الحكم (بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام) الطبعة الثالثة ١٩٢٥ – مطبعة مصر ص ٦٤-٦٥.

خاصة أن القوى الديكتاتورية كانت تحاول التقنـع بـدعوى الدولة الدينية (لكي تضرب بها كـل الحقـوق الديمقراطيـة للشعب ، وتقضي علي مبدأ (الأمة مصدر السلطات) وهـو جوهر النظام الديمقراطي وحجـر الأسـاس فـي علمانيـة الدولة ...[٢]

ومن بين هذه المناقشات ، مناقشة جرت فـي مجلـس الشيوخ المصري عام ١٩٤٣ حول قانون الميراث، إذا كـان مشروع القانون المعروض يتضمن مادة تقول أن الميـراث يحجب عن (الوراث) إذا قتل (مورثه)، واستثنت المادة هـذا الحجب الزوج الذي يقتل زوجته وهي متلبسة بالزنا، فأباحت له أن يرثها ، وأراد بعض أعضاء المجلس أن يتوسعوا فـي الرخصة، فطالبوا بأن يشمل هذا الاستثناء الأب الذي يقتـل بنته الزانية ، والأخ ، والابن اللذان يفعلان نفس الشئ...

---

[٢] راجع في ذلك كتاب خالد محمد خالد – من هنا نبدأ – وقـد ناقش المسأله في قصل بعنوان (قومية الحكم) يمكن الإستشارة بوجهة النظر الأخري في كتاب محمد الغزالي (من هنا نعلم) راجع كـذلك رأيا آخر في هذا الموضوع في مقال سامي خشبه (التفكيـر الليرالـي ومفهوم الدولة المعصومه) الأدب البيوتية أغسطس ١٩٧٢، وهو يعتبر تنبيه مبكر لخطر إنبعاث ظاهره المطالبة بدولة تيوقراطية بعد النكسة..

وكادت المادة تمر ، لولا أن اعترض الدكتور (محمـد حسين هيكل) – وكان عضواً بالمجلس – وبني اعتراضـه علي أساس أن إباحة الميراث للأخ والأب والابن الذي يقتـل مورثته الزانية هو حكم أخلاقـي ، وأن الاسـتثناء أعطـي للزوج لأنه يكون في حالة نفسية لا يمكن أن نبيحها للآخرين ، إلا إذا كنا بذلك نؤثم الزانية ونهدر دمها ، وهذا غير وارد ، لأن الدستور المصري (١٩٢٣) قائم علي الأسس الزمانية وليس علي علي أي أسس غيرها.. وقبل اعتراض الـدكتور (هيكل).. ولم تمر المادة...

وقد دخل الوفد المصري – وكـان قلعـة مـن قـلاع الديمقراطية الليبرالية في عمومه – معارك طويلة في هـذا الصدد ، فعند الإعداد لتولي الملك السابق (فاروق) السلطته الدستورية ، اقترح بعض أمراء الأسرة المالكة ، أن يتـوج الملك في حفلة دينية يسلمه فيها شيخ الأزهر سـيف جـده (محمد علي) ثم يتلو بشراسة ، وأصر علي ألا ينفذ إلا مـا جاء في الدستور ، من أن الملك يحلف اليمين أمـام مجلـس البرلمان، وعندما أقترح البعض – كحل وسط – أن يصـلي الملك صلاة الجمعة في ثاني أيام تتويجه بالجامع الأزهـر ،

رفض (النحاس) أيضاً ، وقال إن جلالته يسـتطيع أ يصـلي وقتما شاء، وفي أي مسجد يريد ، ولكن هذا لا يكـون بـين مراسيم التتويج لأي سبب.

وقد بني (النحاس) اعتراضه علي نفس الأساس، وهـو أن الملك يتولي السلطة من الشعب ، وليس من شيخ الأزهر، علي أساس أن الأمة هي مصدر السلطات، وهي التي تعطي العرش للملك ، لأن تناوله لسيف جده من شيخ الأزهر يخلق شبهة أنه يحكم لطائفة من الأمة دون أخري [1]

والمسألة بالنسبة للفكر المسيحي أيسر منـالا.. (فمنـذ البداية ، رفضت الكنيسة القبطيـة ربـط السـلطة الزمنيـة بالدين . ولقد حفظ لنا تراث البطريرك المصري (أثناسيوس) الذي تولي البطريركية بين ٣٢٨و ٣٧٣ م، حديثا موجها إلي الأمبراطور الروماني (قسطنطين)، قال له فيـه : لا تحكـم نفسك في المسائل الكنيسية . ولا تصدر إلينا أمراً بشأن هذه المسائل ، لقد أعطاك ا المملكة وعهد إلينا بأمور الكنيسة..

---

[1] راجع التفاصيل في كتاب محمد التابعي – أسـرار الساسـة والسياسة وصـحف صـيف ١٩٣٧ .. وخاصـة الأهـرام والمقطـم والمصري.

فليس مسموحا لنا بأن نمارس حكما ارضياً ، ولـيس لـك سلطان أن تقوم بعمل كنسي [٢]

وفي نشأة ارتباط بين الكنيسة والدولية في أوربا . فـإن الكنيسة المصرية، ظلت تصدر علي أساس فهمها الصـحيح أوصية السيد المسيح لأتباعه (أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما) ، وهو ما عني لديها فصل الدين عن الدوله... وهـذا هو السبب في أن الأقبـاط المصـريين رفضـوا تقـديم أي مساعدة للصليبين للاستيلاء علي مصر، إذا اعتبروا أن مثل هذه الحروب إنما تتم لحساب قيصر وليس لحساب ا [٣]

عودة الروح للأفكار القديمة:

وبرغم أن علمانية الدولة كانت قـد أصـبحت قضـية منتهية تقريباً .. علي أساس أن كل الدساتير التـي صـدرت بعد ثورة قد تضمنت ما يؤكد هذا كما سـبق أن أوضـحنا ،

---

[٢] د. وليم سليمان : الكنيسـة المصـرية تواجـه الاسـتعمار والصهيونية – دار الكتاب العربي ١٩٦٧ ص – ٨

[٣] نفس المصدر من ص ١٥- ١٨.

فإن كثيرين قد اطلعوا بوجوههم، ليطالبوا من جديد بالقضاء علي زمنية الدولة...

ومن الحق أن نقول إن هذا التيار كان يعمـل بإسـتمار طوال العشرين عاماً الماضية تحت السطح، وقد طرح نفسه واضحاً وصريحاً أثناء مناقشة الميثاق عـام ١٩٦٢ أمـام (المؤتمر الوطني للقوى الشعبية) ، وبهذا اتضح أن عشـرة أعوام من الثورة ، قد ركزت بعض عيوب المرحلة السابقة، وهذا يعود إلي الصراع الحاد الذى نشب في بدايـة الثـورة بينها وبين ((الإخوان المسلمين)) الممثلون السابقون لهـذا الاتجاه، إذ دفع التكتيك السياسي الثورة، إلي محاولة عـزل هذه الجماعة عن الجماهير، دون إثارة حساسيتها الدينيـة ، وذلك بإقرار بعض المنطلقات السسياسية لها، ومنهـا فكـرة الحكم الديني...

وفي مواجهة هذا التيار الذي تقنع به المـدافعون عـن ((حرية التملك)) من أغنياء الفلاحين، في مـؤتمر ١٩٦٢... قال الدكتور ((صلاح الدين مخيمـر)) فـي المـؤتمر: ((إن عصر القوميات يا إخواني هو عصر التزمين ، إنمـا هـو

العصر الذي تتوقف فيه السلطة عن أن تكون دينية لتكـون زمنية)).

وقد إلتفت (د. مخيمر) لمفارقة غريبة في هذا الاتجاه.. فبينما طالب كثيرون بالحد من حرية المرأة بحكم الدين، لـم يجدوا في أنفسهم الشجاعة للمطالبة بإلغـاء الخمـور مـثلا لعلمهم أن تنفيذ هذا غير عملي وغير ممكن [١]

غير أن هذا التيار عاد للتصاعد بشراسة بعد النكسـة ، واستمر تصاعده في الفترة الأخيرة، بفعل نشاط عـدد مـن العناصر المتعصبة، التي تعبر عن مطامع أغنياء الفلاحـين في إرساء أوضاع سياسة تكون أكثر ضمانا لحرية التملـك والاستثمار، خاصة في ظروف الأزمة التي تحيط بوطننـا ، والتي تسعي كل القوى الوطنية والمستنيرة من أجـل حلهـا شعبيا ديمقراطيا، يجعل من جهد الجماهير الشعبية في تحرير الوطن وإنجاز واستكمال الثورة الوطنية الديمقراطية، المقدمة الطبيعية للدخول في آفاق الثورة الاشتراكية.

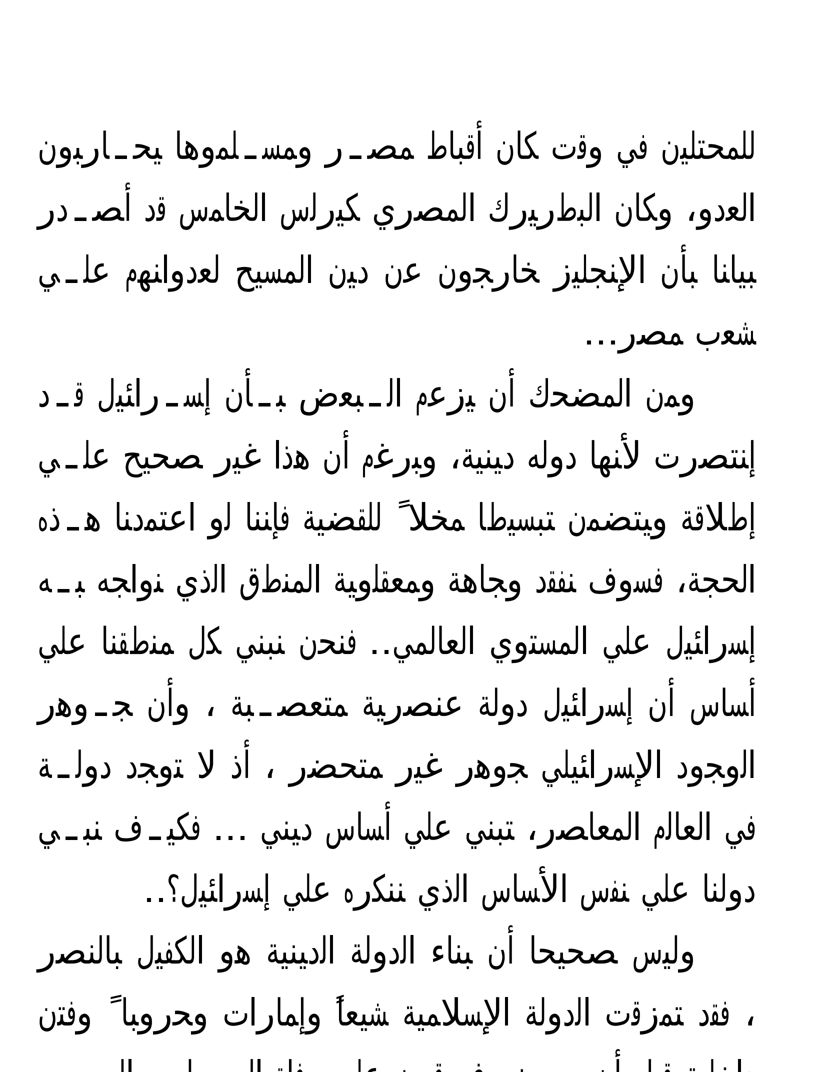
---

[١] المحاضر الرسمية لجلسات المؤتمر الوطني للقوى الشـعبية (مايو ١٩٦٢) – محضر الجلسة ١١ في ١٩٦٢/٧/٦ – ص ٣٧٤ من المضبطة الرسمية – المطابع الأميرية.

والمشكلة كلها أن هذه العناصر تدعو لرأيهـا بطريقـة أصبحت مثار خوف للمصريين من غيـر المسـلمين ، ثـم أصبحت تمثل استفزازاً للمتعصبين منهم ، وهـو مـا أدي تصاعده إلي الموقف الراهن...

ويتقنع المطالبون بالدولة الدينية ، وراء الزعم بأن إنشاء هذه الدولة هو الكفيل بالنصر عل العدو الإسرائيلي، وهـي فكرة خاطئة تماماً ، ولا حاجة بنـا للتـذكير بمـا ارتكبـه (الخلفاء) من جرائم في حق الشعب المصري ، سواء كـانوا أمويين في دمشق أو عباسيين في بغداد، أو عثمانليـة علـي ضفاف البوسفور...

ويكفي أن نذكر بأن أمير المؤمنين ((السـلطان عبـد الحميد)) هو الذي أصدر منشـور عصـيان ((عرابـي)) الشهير.. الذي قال فيه بأن عرابي ((كافر وخارج عن ديـن الاسلام لمخالفته لولي الأمـر الشـرعي))، وولـي الأمـر ((الشرعي)) في نظر خليفـة رسـول ا ، هـو الخـديوئ توفيق)) ... ومن المؤكد أن ((عرابـي)) كـان أقـرب ولرسوله من ((المجنون)) الذي كان يزعم ذلك لنفسه وهـو يحكم المسليمن من أحضان الجـواري ، ويسـلم أوطـانهم



للمحتلين في وقت كان أقباط مصـر ومسـلموها يحـاربون العدو، وكان البطريرك المصري كيرلس الخامس قد أصـدر بيانا بأن الإنجليز خارجون عن دين المسيح لعدوانهم علـي شعب مصر...

ومن المضحك أن يزعم الـبعض بـأن إسـرائيل قـد إنتصرت لأنها دوله دينية، وبرغم أن هذا غير صحيح علـي إطلاقة ويتضمن تبسيطا مخلاً للقضية فإننا لو اعتمدنا هـذه الحجة، فسوف نفقد وجاهة ومعقلوية المنطق الذي نواجه بـه إسرائيل علي المستوي العالمي.. فنحن نبني كل منطقنا علي أساس أن إسرائيل دولة عنصرية متعصـبة ، وأن جـوهر الوجود الإسرائيلي جوهر غير متحضر ، أذ لا توجد دولـة في العالم المعاصر، تبني علي أساس ديني ... فكيـف نبـي دولنا علي نفس الأساس الذي ننكره علي إسرائيل؟..

وليس صحيحا أن بناء الدولة الدينية هو الكفيل بالنصر ، فقد تمزقت الدولة الإسلامية شيعاً وإمارات وحروباً وفتن داخلية قبل أن يمر نصف قرن علي وفاة الرسول، والحروب التي جرت بين المسلمين بعضهم البعض ، أكثر من تلك التي جرت بينهم وبين المشركين أو المرتدين أو الملاحدة.

والواقع أن بناء دولة دينية، يجعل من الصعب علينا أن نحارب إسرائيل بحكم المنطق الأساسي الذي يحكم المسـألة كلها.. فهل نحاربها لأنها تدين باليهودية... كيف نفعل هـذا واليهودية في النهاية دين سماوي ، يعتـرف بـه القـرآن ، والمعتنقون له من أهل الكتاب الذين أوصانا بهم القرآن..

وهكذا تفشل هذه الدعوة في أن تقدم أي خدمة حقيقيـة لقضيتنا .. بل وتضر بها، ثم هـي تضـر أيضـا بوحـدتنا القومية، لأن المتعصبين من المسيحيين يواجهونها بـدعوى أخري.. هي دعوى التمثيل الطائفي.

مصريون لا طوائف:

وليس المهم هنا أي الدعوتين ((فعل)) وأيهما (رد فعل)) فالواقع أمامنا يكشف عن أن المسألة أصـبحت ((فعـلا)) و ((رد فعل)) مستمرين ، وفي تصاعد لولبي يأخذ بخناق كـل الذين يشعرون بأن (المواطنة) وحقوقها هي الأساس في كل شئ..

ودعوى التمثيل الطائفي، لا تقل خطراً عـن المطالبـة بالحكومة الدينية، فهي تحول الأديان المتعدده، التي قد توجد في الوطن الواحد، إلي (قوميات) تطالب بحقـوق منفصـلة،

وبتمثيل نسبي وظائفي وقد سبق أن تعرضت اللجنـة التـي وضعت دستور عـام ١٩٢٣ لهـذه المسـألة فيمـا يتعلـق بامتيازات العربان وبتمثيل الأقباط في مجلس النواب...

يقول الدكتور (محمد حسين هيكل) – وكـان عضـواً يلجنة الثلاثين التي وضعت هذا الدستور، أن (صـالح باشـا لملوم) قد كالب بأن يقر في الدستور علي إمتيازات العربـان التي كانت سارية يومئذ...وكان ولاة مصر فـي العصـور الوسطي قد عهدوا للعربان بالدفاع عن الحدود. وفي مقابـل ذلك كانوا يعفون من الجندية وقد رفضت اللجنة الإقرار بهذا الإمتياز، علي أساس أن الدولة هي التي ستدافع عن الحدود ، وأنه لا يجوز أن يعفي أحد من واجب الدفاع عن الوطن...

أما نظرية تمثيل الأقليات فقد عرضـها (توفيـق دوس باشا) وقد قدمها موضحاً بأنـه لا يقصـد خلـق امتيـازات للأقباط . ولكنه يقصد إسقاط حجة الإنجليز الذين احتفظوا في تصريح ٢٨ فبراير بموقفهم من الـدفاع عـن الأقليـات .. كموقفهم من الدفاع عن الأجانب. وأنه لو نص في الدسـتور علي تمثيلهم سقطت الحجة. لأن الأقباط سيجدون من ممثليهم في البرلمان من يدافع عنهم...

وفي تبرير فكرته قـال (توفيـق دوس) أن الأقليـات محدودة العدد، لا يبلغ عددها عشر عدد السكان، فإذا مثلـوا بنسبتهم، بل بضعف هذه النسبة، لم يغير ذلك مـن سـلطان الكثرة، ولم يجن عليه. ولكن اللجنة إعترضت علي الفطـرة واعترض عليها الأقباط المستنيرون، وبني هؤولاء مـوقفهم علي أن الدستور ينص علي حرية الإعتقاد وحرية الـرأي، وعلي المساواة بين المصريين جميعا، والتمثيل الطائفي يهدم هذه الأسس ، ويحول مصر من دولة قومية موحـدة ، إلـي مجموعة من الطوائق الدينية تنتهي بالتمزق الكامـل لأرض الوطن [1]

وقد ظهر صواب رأي اللجنة، عندما أجريت الانتخابات العامة في أواخر ١٩٢٣ تطبيقاً للدستور، فقد تمت علي أسس سياسية، وختيار المواطنون ممثلوهم علي أساس إنتمـاءاتهم الحزبية فنجح مرشحون أقباط في دوائر كلها من المسـلمين وسقط منافسيهم المسلمين، ولم يكن الدين عاملاً من عوامـل السقوط أو الفوز إذا حدث العكس في دوائر أغلبيتهـا مـن المسحيين وجاءت نتائج الانتخابات بعدد من النواب الأقبـاط

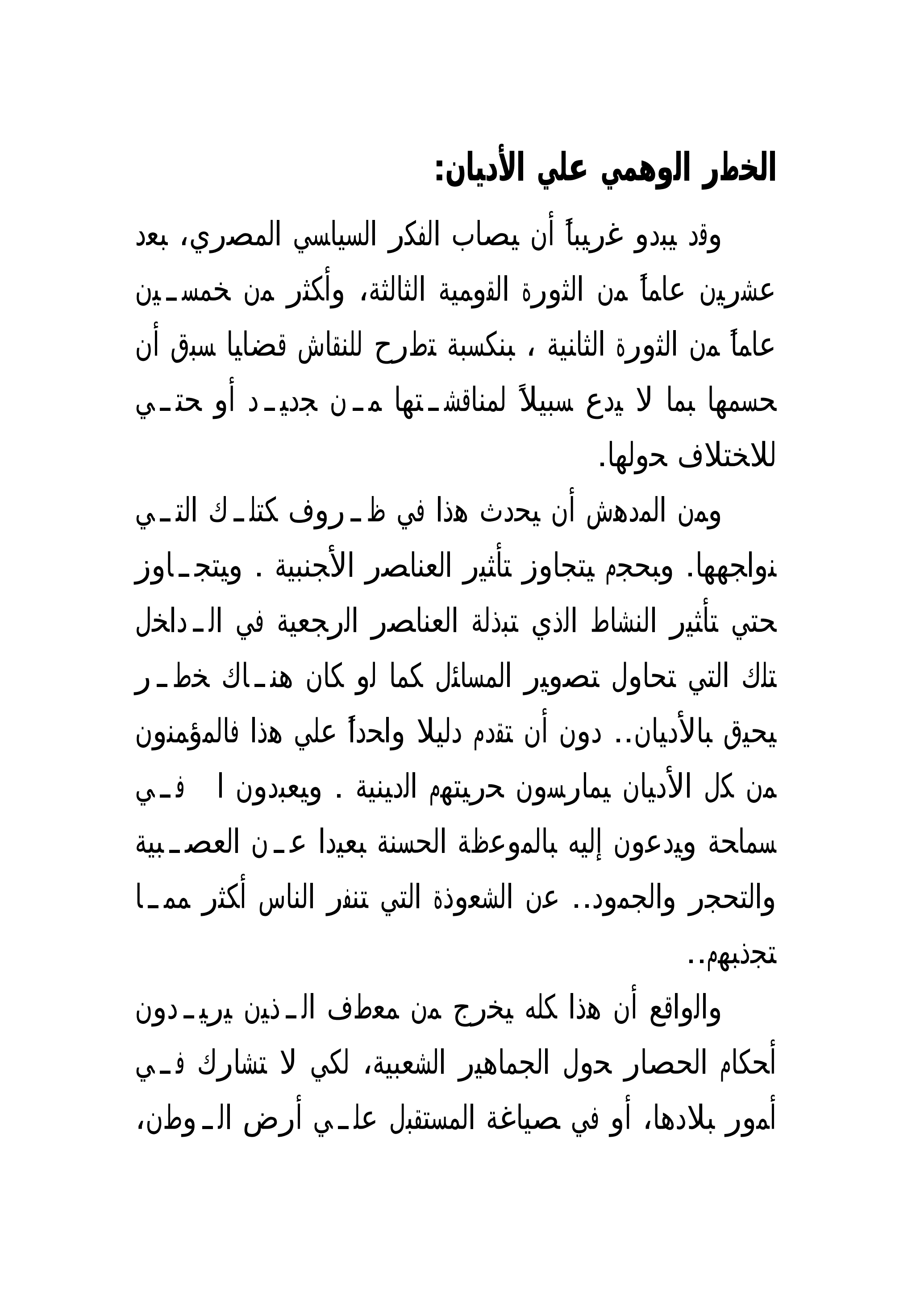
---

[1] د. محمد حسين هيكل – المصدر السابق ص ١٣٥

يزيد عن المقاعد التي كانت ستخصص لهم، فيما لو اتبعـت قاعدة التمثيل الطائفي..

وليس هناك في الدستور المصـري القـائم حاليـاً أية شروط تحول دون تـولي أي مصـري لأي منصـب مـن المناصب الكبري أو الصغري، التفيذية أو التشريعية ، بمـا في ذلك رئيس الجمهورية نفسه الذي لم يتشـرط الدسـتور فيمن تولاه سوى أن يكون مصرياً ومن أبوين مصـريين، ولم يشترط أن يكون مسلما ، ونفس المسألة بالنسبة لتـولي المناصب الوزارية. وقـانون مجلـس الشـعب لا يشـترط لعضوية المجلس أي شروط تتعلـق بالـدين أو الجـنس أو الأصلي.

وفي ضوء هذه الحقوق المكفولة. تسقط دعوي التمثيـل الطائفي.. التي لا نتيجة لها إلا تقسـيم الـوطن.. وإفتعـال المشاكل وضرب الوحدة الوطنيـة وأساسـها القـومي فـي الضميم. وليس معقولا أن يكون رد الفعل لدعوي متعصـبة هو دعوى مناظرة لها.. والحقيقة أن الدعوتين هما وجهـين لعملة واحدة وضررهما متماثل...



الخطر الوهمي علي الأديان:

وقد يبدو غريباً أن يصاب الفكر السياسي المصري، بعد عشرين عاماً من الثورة القومية الثالثة، وأكثر من خمسين عاماً من الثورة الثانية ، بنكسبة تطرح للنقاش قضايا سبق أن حسمها بما لا يدع سبيلاً لمناقشتها من جديد أو حتي للاختلاف حولها.

ومن المدهش أن يحدث هذا في ظروف كتلك التي نواجهها. وبحجم يتجاوز تأثير العناصر الأجنبية . ويتجاوز حتي تأثير النشاط الذي تبذلة العناصر الرجعية في الداخل تلك التي تحاول تصوير المسائل كما لو كان هناك خطر يحيق بالأديان.. دون أن تقدم دليلا واحداً علي هذا فالمؤمنون من كل الأديان يمارسون حريتهم الدينية . ويعبدون ا في سماحة ويدعون إليه بالموعظة الحسنة بعيدا عن العصبية والتحجر والجمود.. عن الشعوذة التي تنفر الناس أكثر مما تجذبهم..

والواقع أن هذا كله يخرج من معطف الذين يريدون أحكام الحصار حول الجماهير الشعبية، لكي لا تشارك في أمور بلادها، أو في صياغة المستقبل علي أرض الوطن،

وذلك بمداعبة وإستفزاز عرائزها وعواطفها الأولية، بهـدف التمكين لروئ هؤلاء الساعين لعرقلة التطور، والذين يخافون من أن يكنسهم المستقبل.

علي أن الآثار المترتبة علي ترك مثل هذه الآثار تنتشر أخطر مما تظن فكثيرين ممن يزعمون لأنفسهم فهم الإسـلام وهم في ذلك أميون أو شبه أميون، قد نصبوا أنفسهم لإصدار الأحكام علي الناس: فهذا كافر وهذا مؤمن، وتلـك الفكـرة توافق الإسلام وتلك تعارضه. وبعض ما يصدرون من أحكام تتعلق بقواعد هي من أسس نظامنا الإجتماعي لا يجوز لأحد أن يتخذ الدين ستارا لمعارضتها ولإستثارة الجماهير ضـدها خاصة إذا لم يملك من الثقافة الدينية ما يمكنه من ذلك .

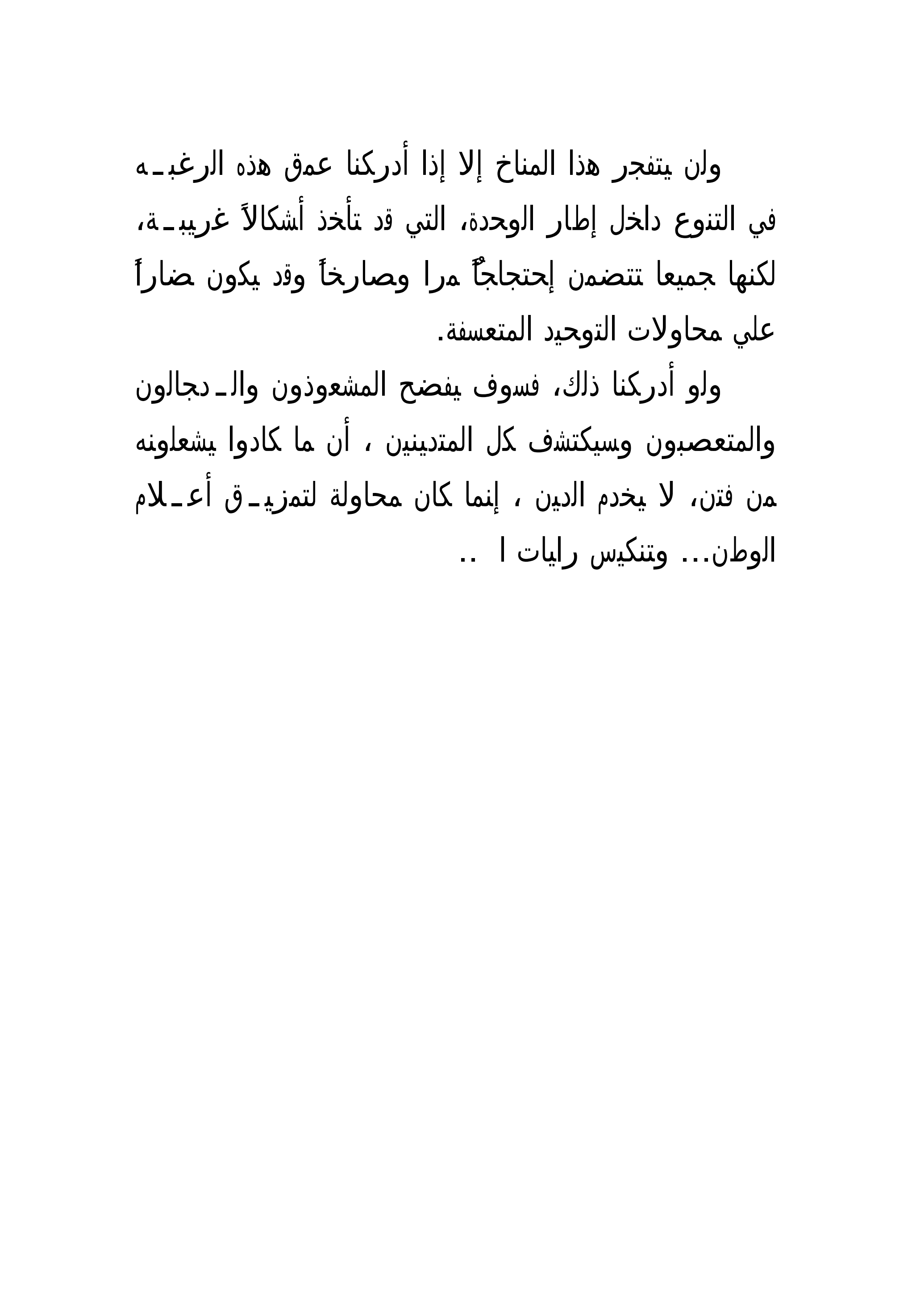
والنتيجة الخطيرة لهذا كله، أن تسود بلادنا نغمـة مـن الضيق بالآراء المخالفة وأن تسد أبواب الاجتهاد في الدين أو في السياسة ، وأن يفرض علينا مناخ متزمت في كل شـئ، وهو ما سوف يقود بالتأكيد إلي المصادرة الكاملـة لحريـة الفكر والتعبير والرأي، وسيادة مناخ من الإرهاب الفكـري. يعوق تقدمنا ، ويعرض الحريات الأساسية للمصريين للخطر

الشديد، فضلاً عن أن بعض الأساليب المتبعة قد تـؤثر فـي الأمن العام...

ولن تستطيع أن نجد حلاًَ لهذا الذي حدث، سوى تعميق الهياكل الديمقراطية في بلادنا، بما يسمح للجميـع بحقـوق التعبير في الضوء الباهر.. والمناقشة العلنية، وفـي حـدود حقوق المواطنة التي كفلها الدستور لجميع المواطنين بصرف النظر عن أديانهم أو أجناسهم أو أصولهم. وأن تكون حقوق المواطنة محل رعاية من الدولة ، وتتولي المحكمة الدستورية العليا، والقضاء الحكم في أى أجراء أو قـانون ، أو تطبيـق لأحدهما ، ينجم عنه ، هضم حق من حقوق المواطنة ، لأي مواطن بسبب أي لون من ألوان التفرقه.

ولا بد بعد هذا كله من أن يتفجر المناخ السياسـي فـي بلادنا بالعمل الدؤوب في اتجاه تحرير الوطن، لتشد الأرض الضائعة انتباه الذين يتوهون في دروب فرعية، ففـي هـذه الأرض التي يرتفع فوقها علم غريب من ذكريات المسـلمين والمسيحيين ومن آثارهم المقدسة، ما يستحق عناء الاهتمـام بها وليس الانشغال عنها بما يضر ولا يفي.

.



ولن يتفجر هذا المناخ إلا إذا أدركنا عمق هذه الرغبـه في التنوع داخل إطار الوحدة، التي قد تأخذ أشكالاً غريبـة، لكنها جميعا تتضمن إحتجاجاُ مرا وصارخاً وقد يكون ضاراً علي محاولات التوحيد المتعسفة.

ولو أدركنا ذلك، فسوف يفضح المشعوذون والـدجالون والمتعصبون وسيكتشف كل المتدينين ، أن ما كادوا يشعلونه من فتن، لا يخدم الدين ، إنما كان محاولة لتمزيـق أعـلام الوطن... وتنكيس رايات ا ..

طلقات لا تطيش
علي جبهة الفكر

((.... كثيرون كانوا يظنون ... – وبعض الظن إثم... إن البرجوازية المصرية...مكنت للعلمانية...).

القضية التي يسعي بها هذا الحديث [1] هي قضية (جبهة المثقفين) تلك التي ينبغي أن ننهض لإقامتهـا بأسـرع مـا نستطيع ، وأن نهتم بالحوار حولها، حـوار جـاداً وحـاداً، متواصلاً وحاسماً ، يشترك فيه كل المثقفين الـذين تشـغلهم مأساة هذا الوطن، وينتمون لتراب أرضه ، وتـراث فكـره، ويشعرون بالضياع، إذا يرون طاقاتهم الإبداعية تهدر فيهـا لا

---

[1] نشر هذا المقال في مجلة (الكتاب) القاهريه- في العدد ١٤١ (ديسمبر ١٩٧٢) وقد شطبت الرقابة علي النشر بعض صفحاته، ولـم أستطع أن أراده إلي أصله، لأنني لم أحتفظ بمسـودته، ولـم أسـترد مخطوطته. وهو يعالج – بدرجة من الحذر تناسب مع إمكانيات النشر آنذاك – إتجاهات إداره السادات، نحو حل القضية الوطنية في إطـار المعسكر الإمبريالي من خلال تحليل الصراع علي الجبهـة الفكريـة، خلال العام الذي سبق حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهو يعتبر نبوءة مبكرة.

طائل من ورائه ، تتسرب إلي حيث ينمو القحط ، فتكرس – علي غير ما يرغبون – أوضاعاً هم أشد النـاقمين عليهـا ، وأكثر المتألمين منها...

وينبغي أن تعدد أطراف هذا الحوار، وليس معني هـذا أن تشوش، فمن البديهي أن الذين يعبرون هم طرفه الأصيل ، مهما بعد ما يقولون عما نقول أو يقـول غيرنـا ، ومـا يعتقدون غير هؤلاء وأولئك ، ومهما إختلفت بيننا الـرؤي ، وتنوعت المسالك، طالما يجمعنا ذلك الإطار الواسـع الـذي إصطلح علي تسميته بالعداء للاستعمار والإمبرالية، وقد يكره البعض المصطلحين ، وليس لنا حياة فيما أقره قاموس الفكر العالمي، فإذا طلبوا أن نطلق علي هذا كله (الارتباط بالوطن) فلن نختلف معهم علي ألفاظ.

ومن الواجب أن ندعو الدولة لكي تشـترك فـي هـذا الحوار، ومن الواجب أن تستجيب لما ندعوها إليه، فما نظنه يتكامل بدونها، ونحن في بلد تتولي الدولة فيه مـن أمـوره أكثرها، ولا تترك للناس إلا القدر اليسير من أمورهم ، ثم إن ذلك كله حقنا عليها ، تكفله لنا نصوص فـي دسـتور هـذا

الوطن ، وتكفله دروس في تجربته، وتحتمه فوق هـذا وذاك مصلحته.

وما أكثر منظمات الدولة التي تشـرف علـي الثقافـة والإعلام وأمور الفكر، فهنـاك وزارات ومؤسسـات تتبـع الحكومة، وهناك تنظيم سياسي تقول وثائق أنه تعبيـر عـن تحالف شعبي، ويضم بين ما يضم لجانا للثقافـة والإعـلام والفكر [٢] ولهذا التنظيم (هيئة برلمانية) هي مجلس الشعب ، به لجان بهذا كله، وهناك مجالس عليـا للبحـث العلمـي وأخري للبحث الإجتماعي، وثالثة لرعايـة الآداب والعلـوم والفنون، ثم هناك الجامعات ومراكز البحث وما أكثر عددها.

فإذا تركنا تلك المنظمات الرسمية أو شبه الرسمية وقـد قبلت دعوتنا ، فلنلتفت أيضاً لتلك المنظمات القليلة والمبعثرة التي تضم أدبـاء وفنـانين وكتابـاً ومفكـرين ، أنشـأوها بمبادرارتهم الذاتيه، وتعيش بحماس العـدد القليـل مـنهم، تتفاوت في نشاطها ، وتتفاوت في رؤيتها، بيد أنهـا جميعـاً

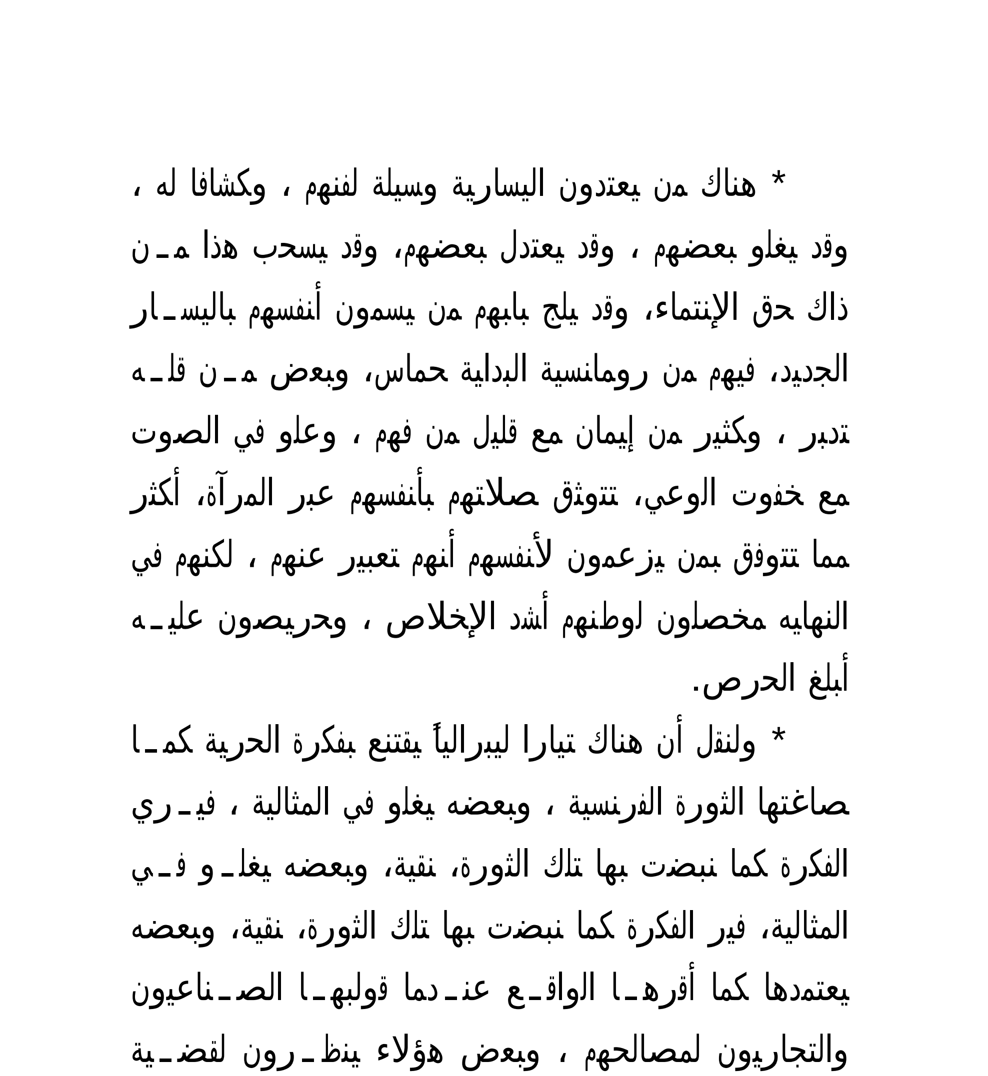
---

[٢] كان التنظيم السياسي الواحد، القـائم آنـذاك، هـو الإتحـاد الإشتراكي العربي، الذي أستولي السادات علي قيادته، بعـد أن طـرد منها مجموعة علي صبري.

أبعد ما تكون عن النشـاط الفعـال، تخنقهـا الصـراعات الشخصية ، ويقتلها الإحساس بانها بلا دور حقيقي ، مهمـا أرضي أصحابها أنفسهم بمزاعم هم أول المدركين أنها عارية عن الصدق .. وبعض تلك المنظمات في العاصمة، لـبعض دور بادخنة التكاليف خاوية المحتوي، ولبعضه دور فقيـرة التكاليف ، فقيرة المحتوي، ولغيره مقاعد المقـاهي تمتلـئ بالمثرثرين في أعراض الكتاب ، وفي أعراض أنفسهم، يحط عليها الذباب من عفونة الكلمات ، وتتعقد فيه اللغة من مرض النفس، وعقد النقص ، ونرجسية طافحة كطفح المجاري فـي أحياء الفقراء..

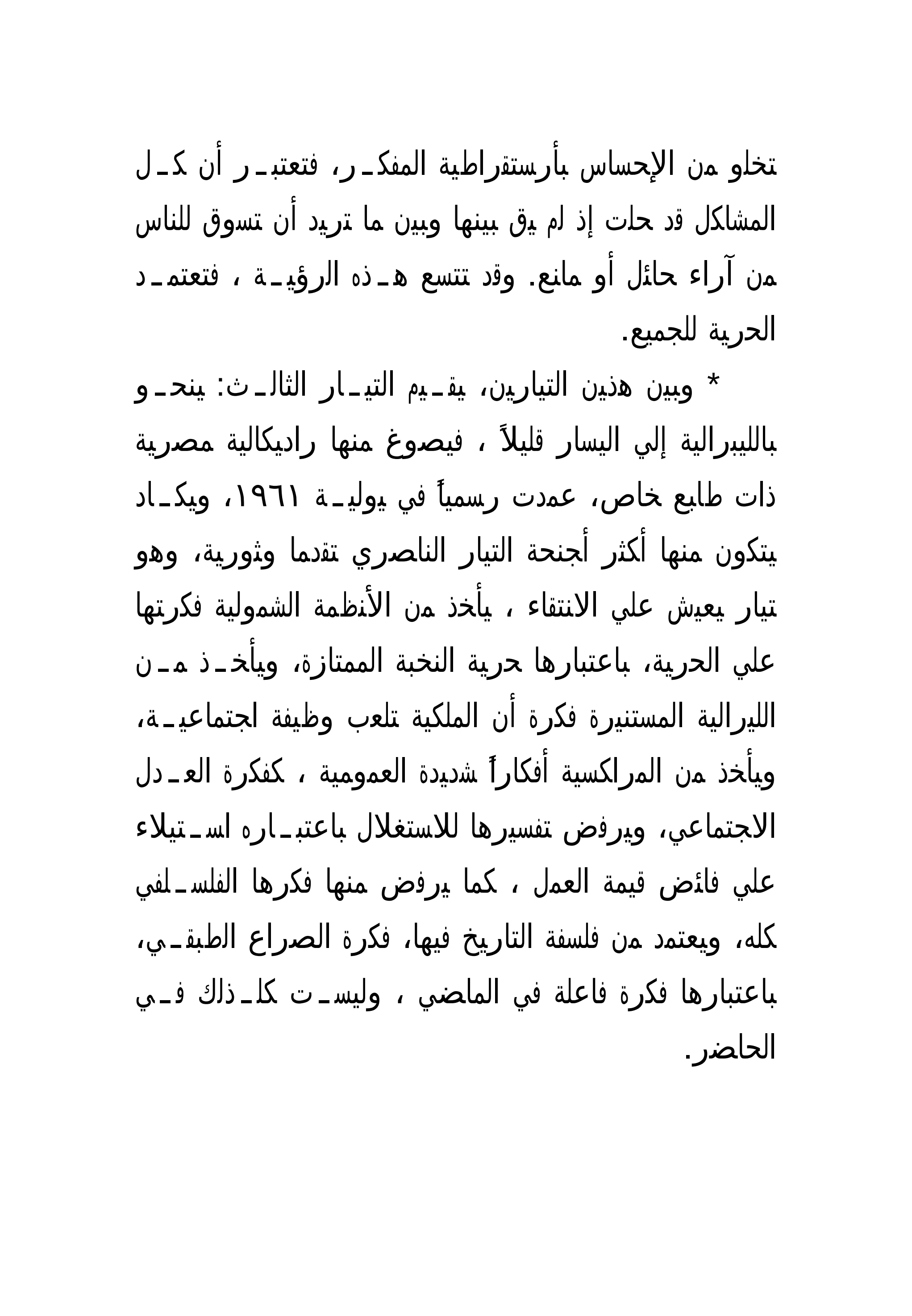
وليست المنظمات التي تتخذ لها من عواصم المحافظات والمدن الصغيرة مقراً ، ببعيدة عـن كـل تلـك الأمـراض المعدية، يضاف إليها أمراض الحياة في مجتمعات أقرب إلي القيم الزراعية، وأبعد ما تكون عن رحابة الفكـر المـرتبط بالمدينة، يحصرها القحط الفكري، وتقتلها الغربة الموحشة..

وإذا شئنا أن ننظر للأمر بإعتباره تصنيفا فكريا محضا ، فلنقل إن في بلادنا الآن من تيارات الفكر أربـع تيـارات رئيسية.



* هناك من يعتدون اليسارية وسيلة لفنهم ، وكشافا له ، وقد يغلو بعضهم ، وقد يعتدل بعضهم، وقد يسحب هذا مـ ن ذاك حق الإنتماء، وقد يلج بابهم من يسمون أنفسهم باليسـار الجديد، فيهم من رومانسية البداية حماس، وبعض مـ ن قلـه تدبر ، وكثير من إيمان مع قليل من فهم ، وعلو في الصوت مع خفوت الوعي، تتوثق صلاتهم بأنفسهم عبر المرآة، أكثر مما تتوفق بمن يزعمون لأنفسهم أنهم تعبير عنهم ، لكنهم في النهايه مخصلون لوطنهم أشد الإخلاص ، وحريصون عليـه أبلغ الحرص.

* ولنقل أن هناك تيارا ليبرالياً يقتنع بفكرة الحرية كمـا صاغتها الثورة الفرنسية ، وبعضه يغلو في المثالية ، فيـري الفكرة كما نبضت بها تلك الثورة، نقية، وبعضه يغلـو فـي المثالية، فير الفكرة كما نبضت بها تلك الثورة، نقية، وبعضه يعتمدها كما أقرهـا الواقـع عنـدما قولبهـا الصـناعيون والتجاريون لمصالحهم ، وبعض هؤلاء ينظـرون لقضـية الحرية باعتبارها مفتاح كل شئ وقد تضيق رؤيـتهم لهـا، وخاصة عند بعض العناصر التي لا تخلو مـ ن الإحسـاس تضيف رؤيتهم لها، وخاصة عند بعض العناصـر التـي لا


تخلو من الإحساس بأرستقراطية المفكـر، فتعتبـر أن كـل المشاكل قد حلت إذ لم يق بينها وبين ما تريد أن تسوق للناس من آراء حائل أو مانع. وقد تتسع هـذه الرؤيـة ، فتعتمـد الحرية للجميع.

* وبين هذين التيارين، يقـيم التيـار الثالـث: ينحـو بالليبرالية إلي اليسار قليلاً ، فيصوغ منها راديكالية مصرية ذات طابع خاص، عمدت رسمياً في يوليـة ١٩٦١، ويكـاد يتكون منها أكثر أجنحة التيار الناصري تقدما وثورية، وهو تيار يعيش علي الانتقاء ، يأخذ من الأنظمة الشمولية فكرتها علي الحرية، باعتبارها حرية النخبة الممتازة، ويأخـذ مـن الليرالية المستنيرة فكرة أن الملكية تلعب وظيفة اجتماعيـة، ويأخذ من المراكسية أفكاراً شديدة العمومية ، كفكرة العـدل الاجتماعي، ويرفض تفسيرها للاستغلال باعتبـاره اسـتيلاء علي فائض قيمة العمل ، كما يرفض منها فكرها الفلسـلفي كله، ويعتمد من فلسفة التاريخ فيها، فكرة الصراع الطبقـي، باعتبارها فكرة فاعلة في الماضي ، وليسـت كـذلك فـي الحاضر.

* ولنقل بعد هذا إن لدينا تياراً آخر، يتميز برؤية أقرب إلي فكر المجتمعات الزراعية المتطورة، وينظر للحضـارة نظرة خاصة، ويكره كثيرا من مقولات التيارات السـابقة ، ويشك كثيرا بها، ويزعم له فهمه أنه بذلك يكون أقرب إلـي تراثنا، وخاصه في جانبه الديني، وهو مع ذلك يتقنـع بهـذا التيار أو ذاك، يدعو إلي دولة ثيوقراطية، ويسـحب أحيانـا بعض المفاهيم المرنة للتيار الثالث، فيفسر لحسابه نصوصـا من (الميثاق) ، ومن تراث (عبد الناصـر) أو مـن بعـض الممارسات السياسية القديمة، فلا تستعصي عليه، ولا ترفض أن تعمل لحسابة، فهي حمالة أوجه ، وبها مرونة وعموميـة تجعلها صالحة للارتداء، تتوشح بها الأجسام علي إخـتلاف حظها من الطول والقصر، أو النحافة والسمنة.

بيد أن التصنيف الفكري، سيكون خاطئا تماماً ، إذا لـم ننظر إليه كتعبير عن الصراع الطبقي في بلادنا، فهـو فـي النهاية مولود لهذا الصراع ووالد له في نفس اللحظة ، ينـتج عنه ، وقد يسبقه، ويتفاعل معه فيقوده إلي خطوات بعضـها بسيط يمكن إدراكه، ومعظمها معقد وعسير الفهم..

فإذا أردنا أن نسهل الأمر علي أنفسنا، فنستطيع أن نقول أن التيار الأول يعبر عن مصلحة الطبقـة العاملـة وفقـراء الفلاحين ، ويسعي لتأكيد وجودها في مناخنا السياسي.

ولن يكون عسيراً أن نضع بطاقة التيار الثـاني علـي صدر تلك الشرائح المالكة والمستثمرة في الصـناعة التـي يسميها بعضنا بالقطاع الخاص، وبفضل آخرون أن نسـميها بالبرجوازية الوطنية، والتي تسعي بدأب منذ أكثر من عشـر سنوات لتزيح من أمامها العقبات التي وضعت أمام حريتهـا في تكوين تراكمها الرأسمالي- تزعم أن ذلك أوفق لتطورنا ، وأدعي لتنمية اقتصادياً.

والتيار الثالث يعبر عن تحالف يضـم تلـك العناصـر الأكثر استنارة وتحررا من الرأسمالية الوطنية ، التي تـري أن نقل الإقتصاد الوطني، إل آفاق التصنيع الثقيـل بحيـث يواجة ضراوة الاحتكارات العالمية، يتطلب إقامة مشروعات ضخمة تتصدى لها الدولة ، لتتيح استقلال السوق الـوطني، وتبني معدات دفاعه، ثم تتركه بعد ذلـك لهـذه الرأسـمالية الوطنية تكسب منه كما تريد ، وكما تشتهي.

وليس التيار الأخير، إلا تعبيراً عن فكر (الكولاك) تلك الفئة من أغنياء الفلاحـين، وملاكهـم المتوسـطين، الـذين ضربت الملكية الزراعية الكبيرة لحسابهم منذ صدرو قـانون الإصلاح الزراعي الأول، وعبر العمليات التي انتهت بتوزيع الملكية الزراعية، علي النحو الذي انتهت إليـه فـي وقتنـا الراهن.

والواقع أن هذا الربط يتضمن نوعـاً مـن الاعتسـاف والتبسيط، وفيه من العيوب ما في أي عرض عـام، ومـن عيوبه الواضحة أن هناك بعض الشرائح الاجتماعية ، التـي تتقنع بفكر ليس هو فكرها، بل ويكون أحيانا معاد لمصلحتها، وربما وجدنا من الطبقة العاملة وفقراء الفلاحين، شـرائح – قد تضيق أو تتسع – تظاهر (الكولاك) فيمـا يـدعون إليـه مخدوعة بالنصوص المقدسه حينماً ، وبالطموح الفردي حيناً ، وبنقص الوعي وضحالته في معظم الأحيان.

ومن ناحية أخري ، فإن هذا الرابط ، لا يحـدد لتلـك العناصر الطفيلية في العملية الانتاجية مكانها، ولقد كانت تلك العناصر إلي زمن قريب من دعاة الراديكالية والمحتضـنين لانجازاتها وأفكارها، ولقـد سـميت كثيـراً بالبيروقراطيـة

البرجوازية، أو بالطبقة الجديدة، أو غيرها من المسـميات.. وكانت من أحرص الناس علي (قولبـة) هـذا الراديكاليـة لمصالحها الخاصة، بحيث تتاح لها فرصة سلب فائض قيمة العمل علي شكل أجور ودخول ، ومن هنا كانـت معاديـة لكثير ممن يدعون لليبرالية، عداء قاسياً ، وقنعت موقفها ذاك بحديث طويل عن الاشتراكية، وهو ما خدع فيه كثيـرون.. وما زال يخدع به آخرون..

وأغلب الظن أن هنـاك شـرائح مـن هـذه الطبقـة البيروقراطية تظاهر الآن الكولاك فيما يدعون إليه، واعيـة بالخطر المحيق بها إذا ما تفجر المناخ السياسي فـي بلادنـا بديمقراطية شعبية ، تتيح رقابة حقيقية فعالة علي وحـدات الإنتاج، وتمنح ذلك الاستنزاف الخطير لفائضـه.. بيـد أن هناك شرائح أخري من نفس هذه الطبقة قد رحلت بمكاسبها إلي القطاع الخاص، تستثمر ما ادخرته في مشاريع رأسمالية تقليدية.. وقد يرتفع صوتها بـين الحـين والآخـر مطالبـاً بليبرالية تتيح له أن يكون تراكماته...

ولنقل بعد هذا كلـه، أن الطبقـة الوسـطي بمختلـف شرائحها – وخاصة الشرائح الصغري منها – هـي أنشـط

طبقات هذا المجتمع فكرياً.. وأن كل التيارات السـابقة إنمـا تخرج من معطفها ، بعضها يعبر عن مصالح الطبقة ككـل، وبعضها يعبر عن شرائح منها، والقليل منها يخرج علي هذه الطبقة ككل وينتمي لفقراء الفلاحين وللعمال، وهم الذين لـم تتح لهم فرصة العمل السياسي الطويل الذي يكفل لهم تبنـي وجهات نظر محددة في قضاياهم... أو في قضايا الوطن...

وفي ذلك شر قليل وخير قليـل، إذا الواقـع أن (نقـاء الايديولوجية) شروط رصـده الراصـدون لتطـور الفكـر السياسي والاجتماعي في بلادنا، فما أكثر الرواسب الزراعية في فكر الليبـراليين المصـريين ، ومـا أكثـر الرواسـب البرجوازية في فكر اليساريين المصريين، بل أن تمثل بعض هؤلاء للفكر المادي الجدلي لا يخلو من رواسـب اقطاعيـة شديدة، وخاصة في قضايا الاجتماع...

ومن الواضح في ضوء هذا كله أن تناول قضية (جبهة المثقفين المعادين للاستعمار) سيكون صعباً وعسيراً، لكن لا حيلة لنا فيما لا مفر منه، ولا مندوحة عنه، ذلـك أن هنـاك ضرورات تلح علينا الآن ، أن نلج هذا الباب، مهما وعـرت

السالك وضاقت الدروب، وربمـا الصـدرو، بـل أن تلـك الضرورات تتجاوز في أهميتها كل ما يمكن أن نتصوره..

ويكفي أن نلقي نظرة سـريعة علـي الجهـة الثقافيـة والفكرية في مصر، لنجد ظواهر تثيـر دهشـته الـبعض، وغضب الآخرين، وتستفز الكل من الكل. بسبب العديد مـن الرواسب التي دفنت طويلاً.. تجاهلاً أو كبتاً. فانفجرت بما يشبه البركان، وليس كل انفجار يشير خير، إنما يكون كذلك إذا كان في اتجاه التقدم ، أو أذا خدم بشـكل فعـال هـدف يتجاوز بنا ما نحن فيه.

ولعل أنصار التقدم أكثر قلقاً من غيرهم، فيمـا يتعلـق ببعض الظواهر الفكرية، التي تنقلب أحيانـاً إلـي تحـرك إجتماعي أن سياسي خطير، ومن ذلك أن دعاة (الثيقراطية)) قد أطلوا من مخابئهم فطاولت لحاهم ألسنتهم الذرية المدربـة علي الكلام، وكثر حديثهم المكتوب والمنشور، وداعياً للعودة الي الوراء، نأسف كثيراً مما أرساه الفكر المصـري، فـي أزهي عصور عقلانيته[1] .

---

[1] كان السادات، قد أعطي ضوءا أخضر للجماعات الإسـلامية، لكي تنشط، لمواجهة من كان يعتبرهم الـد خصـومة آنـذاك، وهـم

ومن الغريب أن وجد هؤلاء منابر عامة تنشر لهم مـا يقولون، بل وتحتفي به ، وتنقل عـنهم مـا يخطبـون ومـا يذيعون.. وليس من حق أحد ونحن دعاة حرية أن يعتـرض علي حقهم في الكلام، لكنهم ينفردون به، ويحرجون أنفسـهم وغيرهم ، ويتجاوزون الدعوة الهينة الرفيقة، إلـي الحركـة المستفزة والتحريض غير البرئ... بما أعطي دوائر معادية لحرية الوطن الفرصة للعبث وللتآمر، ولتوسيع الخرق علـي الراتق [٢]

ومبعث الدهشه في هذا كله، أن كثيرين كانوا يظنون – وبعض الظن إثم – أن مصر في الحلقة الثالثة مـن حلقـات الثورة الوطنية الديمقراطية، تلك التي نعرفهـا باسـم ثـورة ١٩١٩، قد مكنت للفكرة العمانية في نظامها السياسي، وبذلت

الماركسيين والناصريين، وكانت الدعاية الرسمية تركز آنزاك، علـي تسميته ب (الرئيس المؤمن) وتحرص علي إستخدام اسمه في شـهادة الميلاد (محمد أنور السادات)، وهو إسم لم يكن معروفا به قبل توليـه الرئاسة، في محاولة لإستدعاء التيار الديني الإسلامي لتأييده من جانب، وللإيحاء بأن خصومه علي السلطة لم يكونوا مؤمنين أو محمديين.

[٢] شهد عام ١٩٧٢، أول التوترات الطائفيـه بـين المسـلمين والأقباط، حين بدأت حرائق غامضة، في بعض كنائس الخانكة.

في سبيل ذلك جهداً مركزاً، في كفاحها ضد محاولات هـذه السراي لتحويل (الأزهر) من معهد للعلـوم الدينيـة، إلـي مؤسسة سياسية كهنوتية الطابع، تتبعها ، وتحقـق أهـدافها وتوازن بها الصراع بين الديمقراطيين وأعداء الديمقراطيـة لصالح الأخيرين..

ويجئ هذا البعث الجديد للثيوقراطية مخيباً لظن كثيرين ويدفعهم للتساؤل عن هذا الذي يجري علي جبهتنا الثقافية من أي؟ وإلي أين؟ بعضهم يقول: أليس ذلك رساس طائش ينطلق من جبهة الفكر... سيصيبنا أكثر مما يصيب أعداءنا!

وكان كثيرون يظنون – وبعض الظن إثم – أن فكـرة مثل (حرية المرأة) لم تعد قابلة للنقاش، وكان ما استقر منها في الفكر المصري أدناه، وأقله، ففي عصر التعصب المذهبي لفكرة حرية المرأة تلك ، لم يتجاوز الأمر حقها في التعليم ، وضاق عند الرواد إلي الحد الذي يجعل هذا التعلـيم مجـرد تلقين لفنون الطبخ والتطريز والتـدبير المنزلـي ومجالسـة الرجل ومسامرته.. ثم اتسع بعد ذلك إلي حق العمـل، ثـم المطالبة بالحقوق السياسية.. والتأكيد علي ضرورة مسـاواة المرأة بالرجل في تقاضي نفس الأجر عن نفس العمل...

ثم اتسع عند بعض المغامرين ، إلي الدرجة التي طالبت معها (منيرة ثابت) علي صفحات مجلتها (الأمـل) بمسـاواة المرأة بارجل في حق الإرث، ودخلت معركة حادة وقاسـية إنتصاراً لرأيها المتطرف ذاك[1]...

وقد يبدو غريباً مع هذا أن يتزايد الهجوم علـي فكـرة حرية المرأة، وأن ترتفع الدعوة لعودتها إلـي المنـزل، وأن تأخذ هذه الدعوة صورة أو أخرى من صور الجهد العملـي، فتمتنع بعض الإدارات في بعض المصالح عن تشغيل النساء، بشرط صريح أو بتحايل قبيح، وتثار قضية الأخلاق إثـارة غريبة، فيتعسف البعض في الربط بين ما يسـمونه تـدهور الأخلاق، وبين خروج المرأة للعمل، ويتوصل هؤلاء جميعـاً إلي المطالبة بعودة المرأة الي (رحم) الحياة، لتبقـي قعيـدة المحبسين: الرجل والمنزل...

ويجئ هذا البعث الجديد (للنظـرة الاقطاعيـة للمـرأة) مخيباً لظن كثيرين.. ودافعاً للتساؤل عن ذلك الذي يجـري علي جبهتنا الفكرية، من أين؟ وإلي أيـن؟، ولعـل بعضـهم

---

[1] صدرت (الأمل) عام ١٩٢٤، وبعد تشكيل الوزراء الدستورية الأولي برئاسة سعد زغلول.

يقول: أليس ذلك رصاص طائش ينطلق من جبهة الفكـر... سيصيبنا أكثر مما يصيب أعدائنا؟!

ولعل كثيرين كانوا يظنون – وبعض الظن إثم – أننا قد أرسينا مبدأ حرية الرأي والعقيدة، وأن شرائعنا الوضعية تلك التي جاء بها دستور أشبعناه نقداً، وكرهنا منه الكثير – وهو دستور ١٩٢٣ – قد استقر في رأيها أن من حق الإنسان أن يكون ما يكون ، وإن يعتقد ما يشاء ، وأن يعبر عن معتقـده ذلك بما يريد، وخاصة بالوسائل المشروعة والعلنية، ولنـا – عبر ثلاثين عاماً – مضت بين الثورتين ١٩١٩ و ١٩٥٢ – تراث طويل.. أرسي فيه القضـاء بأحكامـه هـذه المقولـة البسيطة، وأرستها مؤسسات أخري تنتمي (لدولة الباشـوات) التي أشبعناها نقداً وكرهنا منها الكثير...

وبرغم هذا فإننا نلتفق حولنا، فنرى كثيرين يكرهون من يخالفونهم من الرأي كراهة لا تليـق، ويجـدون الشـجاعة للمطالبة بالقضاء عليهم ونفيهم، والتضييق عليهم في أرزاقهم ، وفي فرص العمل التي هي من حقهم.. بـل مـن أبسـط حقوقهم.. وأن مظاهر الضيق بالخلاف في الـرأي لتزايـد بطريقة تتضمن مخاطر حقيقيـة علـي وجـدان الإنسـان

المصري، بحيث يغلب علي ظننا أننا نخلق مناخاً من الحصر الفكرى والعقلي القاتل، الذي يبعد بالإنسـان عـن طبيعتـه السوية، ويبعدنا بالعقل عن رحابة الحرية..

وإن هذا البعث لدعاوي (التكفير) ليقلق كثيرين، ويخيب ظن كثيرين.. وإنه ليدفع هؤلاء وأولئك ليتساءلوا علي ذلـك الذي يجري علي جبهتنا الفكرية: من أين ؟ وألـي أيـن؟.. ولعل بعضهم يقول : أليس ذلك رصاص طائش ينطلق مـن جبهة الفكر.. سيصيبنا أكثر مما يصيب أعداءنا؟!

وعلي جبهتنا الفكرية أيضاً ، نوع من التعبير عن عـدم الرضي بالاشتراكية، قد نلمح له أثراً صريحاً أو مقنعاً فـي هذا المنبر أو ذلك من منابر الرأي والتوجيه، يسفر حيناً إلي حد الرجعة الشجاعة، ويستخفي حيناً شأن المحتـرفين مـن القتلة، ومن حق كثيرين ألا يرضوا بالاشتراكية، ومن حقهم أن يختلفوا معها، لكن الذي يبدو عجيباً أن يتنـاول بعـض هؤلاء كثيراً مما إستقر طوال العشرين عاماً الماضية، وهـو يصوغ ملامح الراديكالية المصرية علي الـنمط الناصـري، يبحث عن أن هذا حصانه ضد الشيوعية، أو تمصير وتعريب للآشتراكية التي ينبغي أن تكون إسلامية، فما أظـن أن مـا

أرسي من قواعد الإصلاح الإجتماعي في بلادنا، إلا بعيد كل البعد عن الإشتراكية الشيوعية فكراً وتطبيقاً ، وربما صـلح للتعبير عن قيمته ، قول قديم للدكتور طه حسين، ساقه وهو يتحدث عما أرساه (الخليفة عمر) من معالم الإسـلام، قـال: (وما أذكر الاشتراكية، وما أذكر الشيوعية، فلم يكـن عمـر صاحب اشتراكية ولا شيوعية، لأنه أقر الملك كما أقره النبي والقرآن، ولأنه أذن في الغني كما أذن فيه النبي والقرآن)[1]

ذلك شئ يعرفه الذين يهاجمون هـذه الراديكاليـة، ولا يرضون بها، لكنه يخيفون النـاس بمـا يظنونـه يخـيفهم، ويستفزون فيهم حرصهم علي ما يدينون به ، وما يقدسـونه، والحقيقة أنهم لا يعنون كثيراً بالمقدسات وإنما الذي يعيـنهم هو أن يتيحوا لملكيتهم فرصة الإنتشار والنمو والتراكم، وألا يقف أمام إستثمارهم للمال خطر موجود، ومـا أيسـره، أو محتمل، وما أضعفه.. وإنهم ليغبون حقاً، ويضـغطون بـلا هوادة، لكي يتيحوا لذلك كله مناخاً سياسياً ملائمـاً، ونظامـا للحكم يسمح به صريحاً.. واضحاً.. وبلا أقنعة.

---

[1] طه حسين – الفتنه الكبري (١) الشيخان – دار المعارف.

وإن هذا الطموح لإقتلاع ما أرسته الراديكالية المصرية من إنجازات ليقلق كثيرين، وإنهم ليتساءلوا عن ذلـك الـذي يجري علي جبهتنا الفكرية: من أين؟ وإلي أين؟ ولعل بعضهم يقول: أليس ذلك رصاص طائش ينطلق من جبهـة الفكـر.. سيصيبنا أكثر مما يصيب أعداءنا؟!.

ويتزايد الإرتباك علي جبهة الفكـر... فيـدير بعـض الوطنيين من المفكرين، الذين لا يشك أحـد فـي إنتمـائهم للوطن، ظهورهم لذلك الذي يجري كله، فـلا يهمهـم ذلـك الإنبعاث المرعب للثيوقراطيه، ولا حتـي تلـك الـدعوات الصريحة والمباشرة المعادية لكل معطيات التحرر، يـديرون ظهورهم لهذا كله، ويوجهون كلماتهم الساخنه كطلقات بندقية – إلي صدور فصائل أخري من القوى الوطنية، وقفت دائماً معهم، وساندتهم، وداسـت علـي مرارتهـا مـن مـواقفهم الشخصية، هنا يتقلب الذاتي علي الموضوعي... ولعل هـذا المواقف هو أخطر المواقف علي جبهتنا الفكرية، لأنه يفتـت في جهد المفكرين الوطنيين ويجعل بعضهم ضحايا للـبعض الآخر.

وليس فهم هذا الموقف بعسير، فمناخ العمل الفكري في بلادنا ، يضم في أغلبيته العظمي مفردات تنتمي – من حيث أصولها الاجتماعية – للبرجوازية الصـغيرة غالبـا، هـذه الشرائح الشديدة الفردية، التي تجد نفسها في منابر إعلامية، تركز عليها الأضواء ، وتعابث فيهم غرائزهم الدنيا... مـن هنا فلا بد أن تتزايد بينهم الصراعات القاتلة، علي هذه القمة التي تعابث فرديتهم.. وتخرج بها عن الموضوعية، خاصـة في الظروف التي مكنت من كبت بعض التيـارات لحسـاب البعض الآخر..

وبرغم هذا فإن الرصاص المنطلق من هـؤلاء، يـدفع البعض للقول: أليس ذلك رصاص طائش من هؤلاء... هـو بالتأكيد موجه إلي صدورنا.. وليس لصدور أعدائنا؟

تلك كلها ظواهر تصب وتنتهي فـي مجـري قضـيتنا الرئيسية ، التي ينبغي ألا يكون لنا شاغل سـواها: قضـية الاستقلال الوطني التي تعني طرد المحتل من أرض احتلتها بهزيمتنا، وفاز فيها لأننا لم نستطع ذلك، ولو لم تكـن لتلـك الظواهر علاقة مباشرة ومؤثرة علي تلك القضية، لما كـان

لها أهمية عاجلة.. ولا نتظرت كغيرها من القضـايا التـي تنتظر منذ سنوات خمس..!

ولو فكرنا في أن نرصد التيارات الفكرية التي تعاجـل هذه القضية، رصداً علمياً ، لأجهدنا ذلك أشد الإجهاد، فمـا أكثر الاجتهادات التي يصعب تصنيفها، ويصـعب بالتـالي اكتشاف الترتيب المنطقي التي تبني عليـه نتائجهـا، ومـن الخطر أن نتجاهل هذه الاجتهادات لاختلال منطقها ، لأننـا مطالبون كذلك بتفسير هذا الإختلال العريـب فـي أجهـزة المنطق إليه من نتائج .. وتعارض سطورها الأولي سطورها الأخيرة، ذلك نراه مثلاً فيمن ينقدون موقف الاتحاد السوفيتي لموقفه من قضيه فلسطين، ثم يبنون علي هذا النقد المطالبـة بتنفيذ قرار مجلس الأمن، أو الدعوة للصلح مع العدو... علي نحو ما يفعل ((الملك حسين)) في الأردن..

وبالرغم من ذلك فنحن أمام ثلاثة محددات رئيسية تبلور موقف التيارات الفكرية والطبقات الاجتماعيـة مـن قضـية التحرير...

* أول هذه المحددات... هو الموقف من طبيعة الصراع العالي، ذلك الصراع الذي كثر الحديث عن طبيعته، وعـن

بدايته المتفجرة، التي انتهت – كما زعم الزاعمـون – إلـي صلح في قمة موسكو[1] .

وللطبقة الوسطي المصرية، بسـبب ظـروف نشـأتها ونموها، خبرة محددة، وتراث طويل حول هذه القضية، فعند أي متابعة سريعة المسار حركة التحرر الـوطني، سـنواجه دائماً بمحاولة برجوازية مصرية للاستفاده مـن التناقضـات الثانوية بين القوى الدولية المتصارعة . هذه محاولة متكرره حاولتها حركة المقاومة المصـرية المسـلحة ضـد الغـزو الفرنسي علي عهد الحملة الفرنسية. ثم حاولها (عرابي) الذي ركز كثيرا علي التناقض بين إنجلترا وفرنسا في ذلك الحين، واعتمد (مصطفي كامل) علي نفس هذا التناقض ، ثم لا حظ أن المانيا تصعد كقوى دوليـة، وأن تناقضـها مـع قـوى الاستعمار التقليدي يتزايد، ومن هنا أشار في كتابة (المسـألة

---

[1] إشارة إلي لقاء نيسكون وبريجينيف في فـي صـيف ١٩٧٣ بموسكو، وهو اللقاء، الذي قبل بعده أن الدولتين العظمتين قد إفقنا علب أبقاء الوضع العسكري في منطقة الشرق الأوسط علي ما هـو عليـه، والحفاظ علي حالة الإسترخاء العسكري علي جبهة الصـراع، وهـي الفكرة التي استند إليه السادات، في طرد الخبراء السوفييت من الجيش المصري ونقل ولائه إلي واشنطن.

الشرقية) إلي هذه النقطة ، واعتبر أن المانيا هـي الحليـف المنتظر بالنسبة لحركة التحرر الوطني المصرية، وهو مـا طبقه (محمد فريد) عملياً بتحالفة مع المانيا خـلال الحـرب الأولي.

وكان طبيعياً وقد انتهت الحرب بحل المتناقضات داخل المعسر الاستعماري، أن تغيـر حركـة التحـرر الـوطني المصرية من استراتجيتها في الإعتماد علي هذه التناقضات، وأن تلجأ إلي المفاوضة مع إنجلترا مباشرة وذلك بعد محاولة قصيرة وفاشلة للإعتماد علي أمريكا اسـتنادا إلـي مبـادئ (ولسن) الشهيرة...

وتحويل القضية الوطنية من قضية دولية إلـي قضـية ثناية يرتبط أشد الإرتباط بحل التناقض الثانوي علي الجبهـة الاستعمارية... وفي أحد رسائله من باريس، كتـب (سـعد زغلول) لعبد الرحمن فهمـي (إن المسـألة إمـا أن تحـل بالتقاضي أو بالتراضي، فأما بالتقاضي فلا يمكـن حلهـا إلا بطريقة دولية، أي بمعرفه جميع الدول ذوات الشأن بواسطة

قومسيون يتعين لهذه الغاية بواسطة عصـبة الأمـم، وأمـا بالتراضي فلا يكون ذلك إلا بالمفاوضة بين إنجلترا ومصر[٢]

وقد ظل هذا هو خط (الوفد) طوال عمـره، بـرغم أن أقساما أخري من الحركة الوطنية، كانت تحـتفظ برؤيتهـا للطابع الدولي للقضية ، وأيدت المحور قلبيـاً وعمليـاً فـي الحرب العالمية الثانية .

وخلال هذا المسار كله ، فإن الحركة الوطنية قد طعنت بإستمرار ، وثبت لها فشل الاعتماد علي التناقضات داخـل المعسكر الاستعماري، فهي بطبيعتهـا تناقضـات ثانويـة، وسرعان ما يتفق الاستعماريون علي حساب حريـة مصـر وعلي حساب القوى الوطنيه فيها.. وهكـذا خانـت فرنسـا (عرابي) ، وخذلته في حرب ١٨٨٢، ثم خانت (مصـطفي كامل) بالاتفاق الوادي الشهير (١٩٠٤) واعتـرف (ولسـن) بالحماية علي مصر ، وقضي بسرعة علـي آمـال (سـعد زغلول) في أن تساند أمريكا الحركة الوطنية المصرية.

---

[٢] راجع د.محمد أنيس: دراسات في وثائق ثورة ١٩١٩- الجزء الأول – الرسائل المتبادلة بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي.

وهذا كله يعني أن البرجوازية المصرية كانـت دائمـا تحاول أن تحل القضية الوطنية داخل الإطار الاسـتعماري، وهو ما يتضح مـن محاولاتهـا المسـتمرة للعـب علـي التناقضات الثانويه داخل المعسكر والاعتماد عليـه بشـكل أساسي.

وهذا كله يعني أن البرجوازية المصرية كانـت دائمـاً تحاول أن تحل القضية الوطنية داخل الإطار الاسـتعماري، وهو ما يتضح من محاولاتها المستمرة للعب علي التناقضات الثانوية داخل هذا المعسكر والإعتماد عليه بشكل أساسي.

ويستتبع هذا بالضرورة اسـتخدام أسـلوب المفاوضـة كأسلوب وحيد لحل القضية الوطنية، ورفض الأسلوب البديل لذلك وهو تنظيم الجماهير. وتجنيدها... إما لعجز البرجوازية عن ذلك أو لخشيتها منه وهو الأرجح.

ومنذ حاول مشايخ الأزهر أن يتفقوامع (كليبر) في أثناء ثورة القاهرة: الثانية لكي يوقف ضرب المدينة مقابل إيقـاف الثورة مما أثار الجماهير ودفعها إلي (ضربهم وبهدلتهم لأنهم

بطلوا ومرادهم يعملوا فرنسيس[1] وعبر محاولة (عرابـي) للتفاوض مع البريطانيين، ثم دعوة (حزب الأمة) ومجموعة الجريدة لسياسة (المسالمة بدل المعاندة) تـم مـنهج (سـعد زغلول) ، مدرسة المفاوضة المصرية تسير علـي دربهـا الطويل...

ولهذه المدرسة مبرارتها المعروفة من واقع خبرتهـا.. قال (سعد زغلول) مرة.

(أنا في مقدمتكم في كل ما فيه خير بلادي، وعلي قـدر فكري أري أن الطريق المفتوحة أمامي لتحقيق غرض الأمه وغايتها هي المفاوضة ، فإن كان عندك أو عند غيرك طريق آخر لاستخلاص حقوق الأمة فوضحه لي، وأنا أكـون أول العاملين في هذا السبيل)[2]

---

[1] الجبرني (عبد الرحن بن حسن): عجائب الاثار في التـراجم والاخبار – ج ٣.

[2] مجموعة خطب سعد زغلول باشا الحديث (راجع توسعا فـي تحليل هذه الفكرة في كتاب صلاح عيسـي: البرجوازيـة المصـريه وأسلوب المفاوضة)

ولسعد بعد ذلك كلمته الشهيرة عنـدما أحرجـه (عبـد الرحمن الرافعي) في مجلس النواب، وسـأله عـن موقـف حكومته من مشروعات الري التي ينفذها الاستعماريون فـي السودان، فأكد سعد أنه احتج علي هذا ببرقية، ورأي الرافعي أن هذا لا يعني شيئا ... وسخنت المناقشة بينهما..... فقال سعد مستفزا: هل عندكم تجريده (يقصد حملة عسكرية) [١]

وفي تحليل (مكرم عبيد) – سكرتير الوفد بعد ذلـك – لهذا الإتجاه قال (ما من سبيل لاستيرداد اسـتقلال أمـة، أو إستخلاص حق من حقوقها إلا بواحد مـن أمـرين أولهمـا النضال الحربي، وعماده قوة الجيش المسلحة، ثانيهما النضال السلمي وعماده قوة الحق غير المسلحة، وهي تنحصر فـي الإقناع بجميع وسائله ، والجهاد والتضحية في سـبيل هـذا الإقناع) ، وقال إن قيادرة ثورة ١٩١٩ كان عليها أن تختار بين هذين الأسلوبين (ولم يكن في مصر عاقل أو مجنـون

---

[١] المصدر السابق.

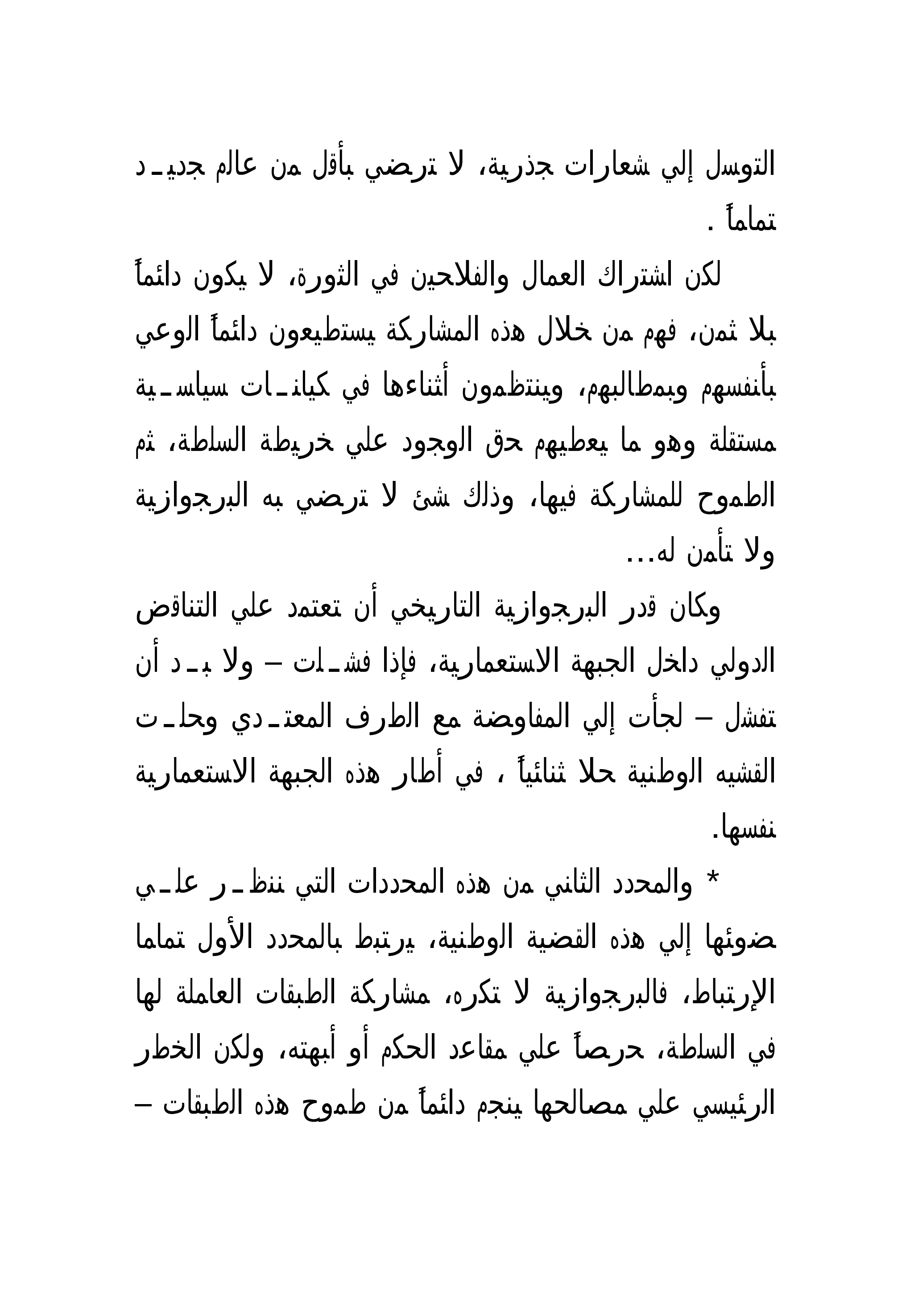
يفكر في إعلان الحرب لسبب بسيط، وهو، أنه لم يكن لنا من القوات المسلحة ما يسمح بحرب ما) [٢]

ومن المؤكد أن البرجوازية المصرية لم تكن تملك هذه التجريدة ، ولم يكن يملكها ذلك الجيش الـذي ورثتـه مـن الاستعمار ، وهو جيش إحتفـالات مسـلح بـأدوات فـض المظاهرات، ومعدات تشييع الجنازات، لكنها لم تمد البصـر أبداً إلي آفاق أبعد من أقدامها.. فلم تر في بحـر الجمـاهير الزاخر هذا الجيش، ولم تتنبه لقيمة ما فعله في شهري مارس وإبريل ١٩١٩ ، وإلي ما يمكن أن يفعله إذا ما نظمت قدراته العظيمة.

وحقيقة الأمر أننا لم نسمع عن برجوازية في التـاريخ إستولت علي السلطة بجيشها، فهي كطبقة محـدودة عـددياً، ومحدودة في طاقات نضالها، لكـن مـا أعطـي الثـورات البرجوازية – علي النمط التقليدي – تطرفهـا ذاك، وقوتهـا تلك، إنما جاء أساساً من تدفق الفقراء في مجـري الثـورة، وتحويل شعارتها من مطالب متواضعة أشـبه بالتسـول أو

---

[٢] محاضرة مكرم عبيد باشا حـول معاهـدة ١٩٣٦ بالجامعـة المصرية.



التوسل إلي شعارات جذرية، لا ترضي بأقل من عالم جديـد تماماً .

لكن اشتراك العمال والفلاحين في الثورة، لا يكون دائماً بلا ثمن، فهم من خلال هذه المشاركة يستطيعون دائماً الوعي بأنفسهم وبمطالبهم، وينتظمون أثناءها في كيانـات سياسـية مستقلة وهو ما يعطيهم حق الوجود علي خريطة السلطة، ثم الطموح للمشاركة فيها، وذلك شئ لا ترضي به البرجوازية ولا تأمن له...

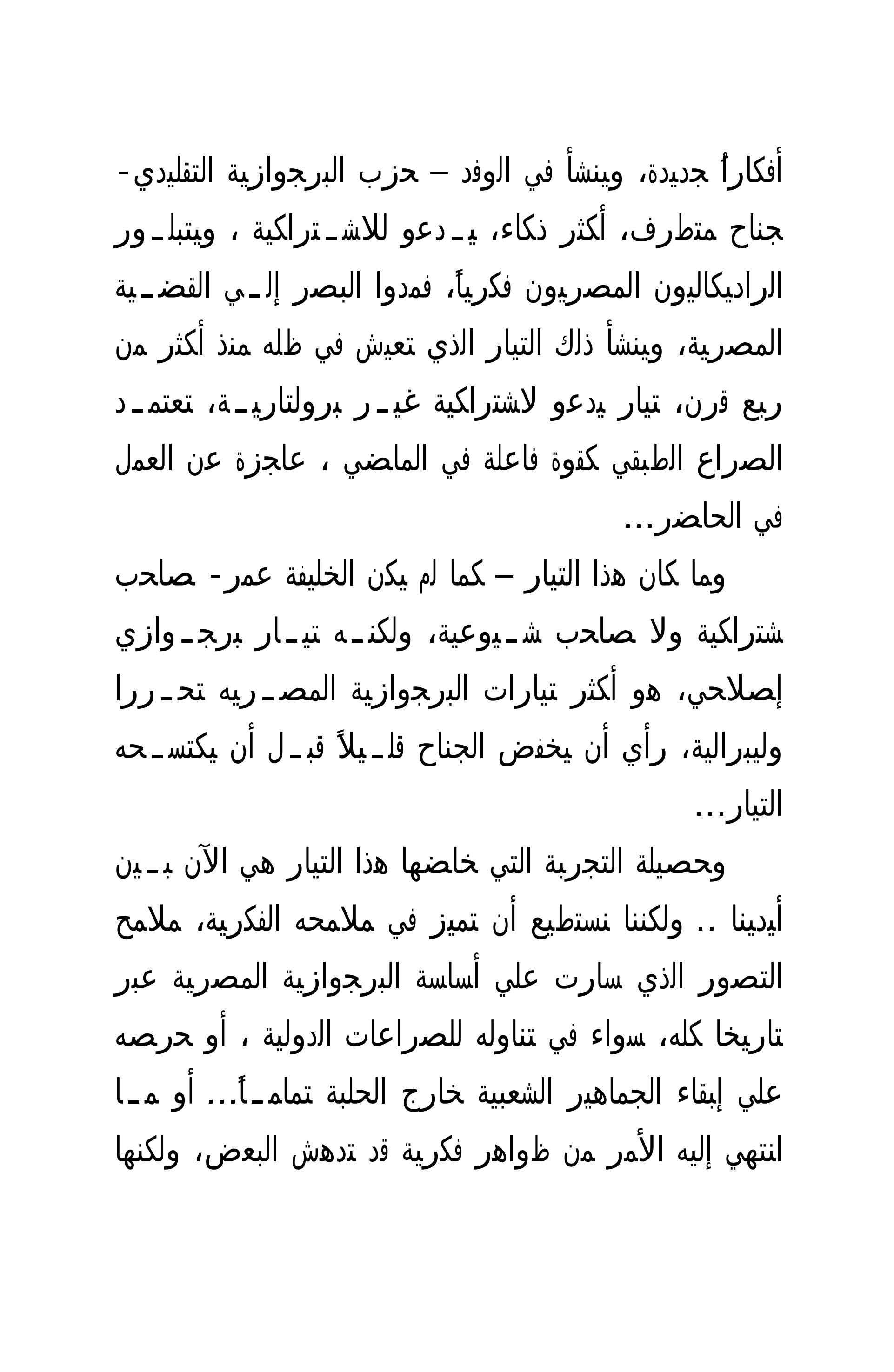
وكان قدر البرجوازية التاريخي أن تعتمد علي التناقض الدولي داخل الجبهة الاستعمارية، فإذا فشـلت – ولا بـد أن تفشل – لجأت إلي المفاوضة مع الطرف المعتـدي وحلـت القشيه الوطنية حلا ثنائياً ، في أطار هذه الجبهة الاستعمارية نفسها.

* والمحدد الثاني من هذه المحددات التي ننظـر علـي ضوئها إلي هذه القضية الوطنية، يرتبط بالمحدد الأول تماما الإرتباط، فالبرجوازية لا تكره، مشاركة الطبقات العاملة لها في السلطة، حرصاً علي مقاعد الحكم أو أبهته، ولكن الخطر الرئيسي علي مصالحها ينجم دائماً من طموح هذه الطبقات –

الذي تعتبره البرجوازية شرها غير مشروع – لتوزيع فائض قيمة العمل علي منتجية الحقيقيين، ومن فائض هـذه القيمـة تثري البرجوازية، وعليه تعيش ، وإقصاء المنتجين الحقيقيين للقيمة، عن السلطة هو الوسيلة الوحيـدة التـي تسـتخدمها البرجوازية لسلب عرقهم.

ومن هنا ارتبط التصاعد في مواجهة الإستعمار بتبلـور الطبقة العاملة الصناعية ونموها ، وظهور المنابر السياسـية المعبرة عنها، وهو ما بدأت بشائره في مصر عقب الحـرب العالمية الثانية، عندما أدركت أقسام جديدة من القوى الوطنية أن أستقلال مصر لا يتأكد إلا بتنظيم القوى الشعبية المصرية أولاً .. وتدعيم وعيها بالظاهرة الاستعمارية ثم التحالف مـع القـوى المعاديـة بطبيعـة موقفهـا ومصـالحها وفكرهـا للإمبريالية...

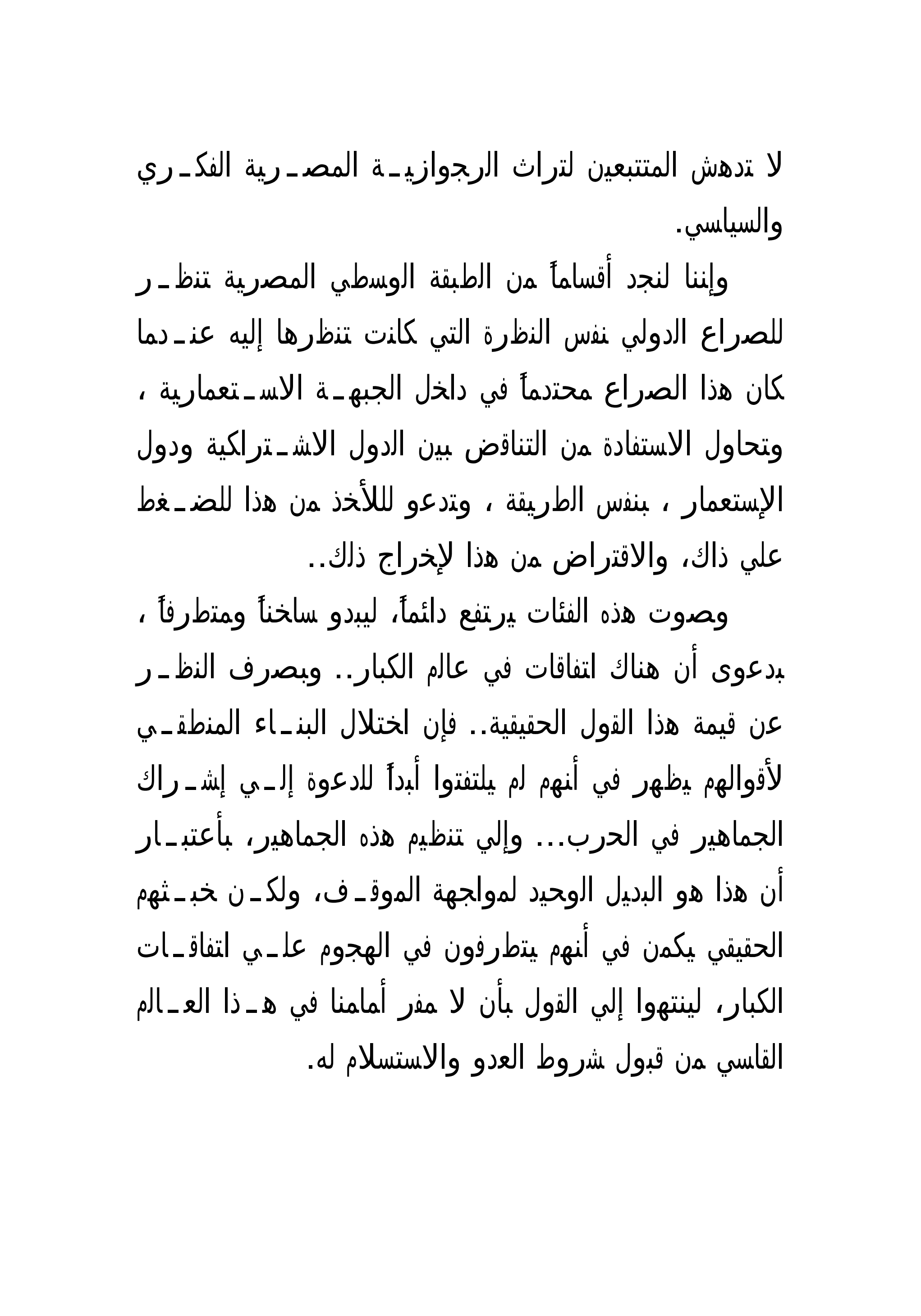
ولقد أدركت القوى التقليدية من البجوازية المصـرية ، وقواها الجديدة النامية خطر ذلك كلـه، فسـارعت (بسـرقة الكاميرا) قبل أن تسرقها القوى الصـاعدة مبـرر الوجـود نهائيا... وتبلور الجناح المستنير من البرجوازية المصـرية الصناعية ، ليجد نفسه في عالم مختلف تماماً ، فيصوغ لذلك



أفكاراً جديدة، وينشأ في الوفد – حزب البرجوازية التقليدي- جناح متطرف، أكثر ذكاء، يدعو للاشتراكية ، ويتبلور الراديكاليون المصريون فكرياً، فمدوا البصر إلي القضية المصرية، وينشأ ذلك التيار الذي تعيش في ظله منذ أكثر من ربع قرن، تيار يدعو لاشتراكية غير برولتارية، تعتمد الصراع الطبقي كقوة فاعلة في الماضي ، عاجزة عن العمل في الحاضر...

وما كان هذا التيار – كما لم يكن الخليفة عمر- صاحب شتراكية ولا صاحب شيوعية، ولكنه تيار برجوازي إصلاحي، هو أكثر تيارات البرجوازية المصريه تحررا وليبرالية، رأي أن يخفض الجناح قليلاً قبل أن يكتسحه التيار...

وحصيلة التجربة التي خاضها هذا التيار هي الآن بين أيدينا .. ولكننا نستطيع أن تميز في ملامحه الفكرية، ملامح التصور الذي سارت علي أساسة البرجوازية المصرية عبر تاريخا كله، سواء في تناوله للصراعات الدولية ، أو حرصه علي إبقاء الجماهير الشعبية خارج الحلبة تماماً... أو ما انتهي إليه الأمر من ظواهر فكرية قد تدهش البعض، ولكنها



لا تدهش المتتبعين لتراث البرجوازية المصرية الفكري والسياسي.

وإننا لنجد أقساماً من الطبقة الوسطي المصرية تنظر للصراع الدولي نفس النظرة التي كانت تنظرها إليه عندما كان هذا الصراع محتدماً في داخل الجبهة الاستعمارية ، وتحاول الاستفادة من التناقض بين الدول الاشتراكية ودول الإستعمار ، بنفس الطريقة ، وتدعو للأخذ من هذا للضغط علي ذاك، والاقتراض من هذا لإخراج ذاك..

وصوت هذه الفئات يرتفع دائماً، ليبدو ساخناً ومتطرفاً ، بدعوى أن هناك اتفاقات في عالم الكبار.. وبصرف النظر عن قيمة هذا القول الحقيقية.. فإن اختلال البناء المنطقي لأقوالهم يظهر في أنهم لم يلتفتوا أبداً للدعوة إلي إشراك الجماهير في الحرب... وإلي تنظيم هذه الجماهير، بأعتبار أن هذا هو البديل الوحيد لمواجهة الموقف، ولكن خبثهم الحقيقي يكمن في أنهم يتطرفون في الهجوم علي اتفاقات الكبار، لينتهوا إلي القول بأن لا مفر أمامنا في هذا العالم القاسي من قبول شروط العدو والاستسلام له.

* وعند النظر للمحدد الثالث، تتضح القضية أكثر، فثمة إصرار علي أن حرب التحرير الوطنية لا يمكن أن يخوضها إلا جيش نظامي مسلح بآخر صيحات الحرب الإليكترونيـة، ومثل هذه النظرة هي وليدة العناصر الرئيسـية فـي رؤيـة البرجوازية المصرية للموقف، فالحرب النظامية هـي فـي الأساس حرب محددة بالكيان الشرعي الموجود، ومحسـوبة النتائج، لا من حيث النصر والهزيمة ، ولكن من حيث ولاء القوي التي تخوضها اجتماعياً، ثم أن هذه القـوى لا تنظـر بعيداً عن التركيب الإجتماعي القائم...

ولا يصبح الأمر كذلك إذا تصاعدت الـدعوة للحـرب الشعبية ، فمثل هذه الدعوة، تفترض درجة مـن المشـاركة الجماهيرية، وما يستتبعها من وعي وتنظيم وإحساس بالوجود المستقل، وخروج من حلبة الذيلية للكيانات السائدة، وهو مـا يرفضه البعض ويصر علي رفضه بمختلف الحجج.

والشئ الملفت للنظر هنا، أن معظم إنجـازات حركـة التحرر الوطني المصرية، كانت تصاب في الصميم عند هذه النقطة، لقد أجهضت الثورة العربية ، لأن (عرابـي) ظـل يعتمد علي التناقض الدولي كوسيلة لحل القضية الوطنيـة ،

ولأنه لم يحاول أن يضمن برنامج الثورة، نقاطاً تخدم مصالح الجماهير العريضة للفلاحين، وتكفل تحشيدهم حولـه، ولـم يبذل أي مجهود لتنظيمهم.. وقد التفت لهذا في آخر لحظـة، فرسم برنامجاً يتضمن مصادرة أراضي الهاربين والخونـة والذين انضموا للخديو، وصـرح بعـض الضـباط بـأنهم سيوزعون الأراضي علي الفلاحين بعد الحرب. [1]

ونفس الأمر حدث في ثـورة ١٩١٩ ، التـي وجهـت قيادتها همها الرئيسي لقولبة الحركة الجماهيرية فـي إطـار مطامع البرجوازية وفي حدود مطالبها ، وهكـذا رفضـت الانتفاضات العفوية للفلاحين ، ولويت عنقها عن كل الـذين رفعوا السلاح ليحاربوا الاستعمار ، وحرصت علي طرقهـا المشروعة.. وبرأت ساحتها من تهـم التهـادن والمسـاومة بقولتها الشهيرة: هل عندكم تجريدة؟[2].

وهذا كله طبيعي في إطار المحـددات الـثلاث التـي طرحناها للنظر إلي القضية الوطنية، وجوهر هذه المحددات،

---

[1] راجع – صلاح عيس – الثورة العربية – المؤسسة العربيـة للدراسات والنشر بيروت١٩٧٢.

[2] راجع عبد الرحمن الرافعي – مذكراتي – دار الهلال ١٩٥٢.

هو النظر إليها من مناظر الصراع الإجتماعي في الـداخل، أن ذلك هو الذي يحدد أسـلوب الحـرب، ويحـدد النظـرة للصراع الدولي، وهو ما يحدد في النهايـة وضـع الكيـان السياسي الراهن. كما أنه هو الذي يشخص أمراضنا الفكرية والنفسية المتفشية الآن، فلا تظن أن الوضع المؤسسي للفكر المصري، - كما يتمثل في مختلف الظواهر التـي رصـدنا بعضها في بداية هذا الحديث- إلا تعبيراً عن انعكاس ذلـك التيار من تيارات الفكر المصري ، الذي ساد أكثر من ربـع قرن، وطرح رؤاه الخاصة عن حل القضية الوطنية وحـل القضية الاجتماعية بمنهج البرجوازيـة المسـتنيرة، سـاعياً (لسرقة الكاميرا) من أبطال المسرحية الجـدد ، خشـية أن يسلبوه مبرر الوجود.

والبرجوازية مهما إستنارات لا تنفي نفسها، ولا تتهاون في حق الملك، ولا تتنازل عن فـائض القيمـة المـوروث ، وبرغم أن هذا العناصر المستنيرة قد حققت كثيراً ، فقد كان الطريق أمامها مسدوداً منذ البداية، وكانت الهزيمة هي شهادة الوفاة الرسميه له، وإذا شعر بذلك بدأ يدافع باستماتة عن حقه في التواجد، فلجأ إلي أضعف الأسـاليب: معابثـة الغرائـز

الأولية للجماهير... سواء كانت قومة أو دينية ... وصل الي درجة من الابتذال تذكر بعهود الانحطاط الاجتماعي والفكري في أواخر العصر المملوكي.

ومن الطبيعي مع هذا كله أن تتشتت جهـودا الأدبـاء والفنانين والكتاب والمفكرين، وأن تزداد خشـيتهم مـن أن تكون بلادنا قد فقدت الطريق إلي المستقبل وأنعكس هذا فـي أضطراب خطواتهم.. ولا نظن أن بلـداً مـن بـلاد العـالم الرأسمالي أو غير الرأسمالي يأخذ كتابهـا وفنانوهـا مـن قضاياها هذا الموقف الغريب...

وأبلغ الأمثلة علي هذا ما عكسته المناقشات التي دارت في أوساط الآدباء والكتاب عندما طرحت قضية تشكيل اتحاد يضمهم.. فقد بلورت هذه المناقشـات، إتجاهـات غالبـاً ، وغريباً .. يركز علي الجانب المهني بالنسبة لهذا الاتحـاد.. فيري أنه لا توجد ضمانات حقيقية لمستقبل الأدباء والكتـاب في بلادنا، في الوقت الذي تتزايد فيـه أعـدادهم، ويتزايـد اعتماد الكثيرين منهم علي العمل الفنـي والأدبـي كمـورد أساسي ووحيد ، يعتمدون عليه في معاشهم، وهو ما يـؤدي إلي افتقاد الكثيرين منهم للأحساس بالأمن ، إذا ما تعرضـوا

لأي إصابه أو مرض يحول بينهم وبين العمل.. وفي نفـس الوقت فإن المشاكل المتعلقة بعلاقة الأدباء والكتاب بالناشرين والمسائل التي ترتبط بحماية حق الملكية الأدبيـة والفنيـة، وكافة الحقول المادية للأدباء والفنانين تثير الاهتمام والقلق...

وقد ركز أصحاب هذا الاتجاه علي هذه المهمة، ونظروا لاتحاد الكتاب باعتباره عمل نقابي وقاوموا بضراوة أي فكرة ترمي لأن يكون الإتحاد عملاً سياسياً، واعتبـروا أن هـذه محاولة لتخريبة قبل إنشائه، لأن هذا سيفتح الباب للخلاف في الرأي، وبالتالي لعدم إنشاء الاتحاد[1] ..

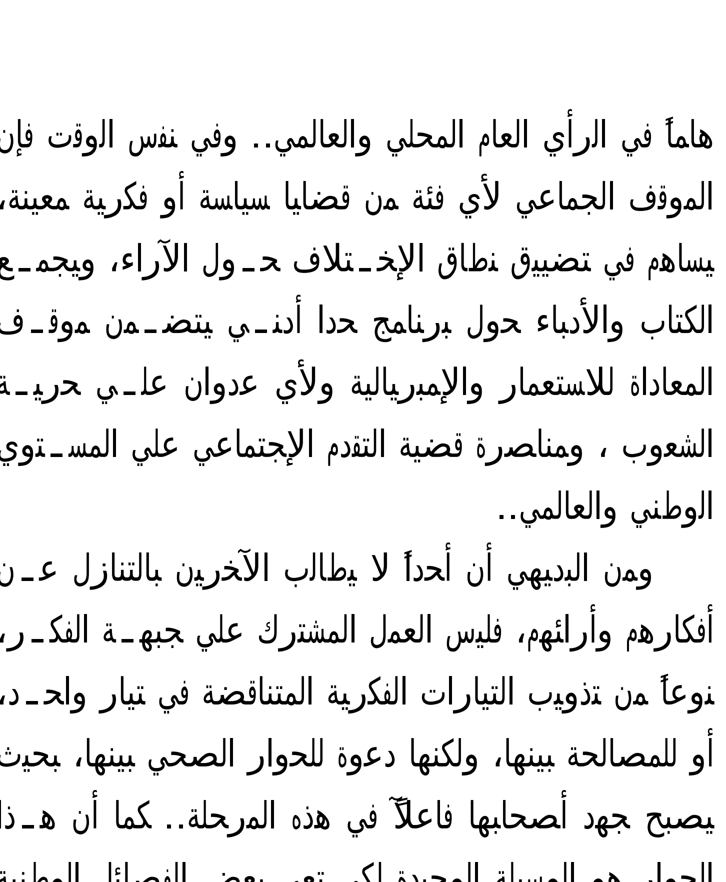
---

[1] كان وراء هذه الفكرة المرحوم يوسف السباعي، الـذي كـان حقيقة ثقافية ثابته، إبان حكم الرئيسيين عبد الناصر والسادات، الـي أن قتل في عام ١٩٧٨ في هيلتون نيقوسيا، بسبب مصاحبته للسادات إبان زيارته للقدس المحتله. وكان السباعي، أحد أهم أدوات النخبة العسكرية في المجال الثقافي، وكان يحكم هذا المجال بنفس الأسلوب، وهو تكوين شلل تدين بالولاء الشخصي له، وتقديم الخدمات إليهـا، ومقاومـه أى تنظيم مستقل للمثقفين المصريين- وسوف ترد إشارات متعددة لـدور السباعي في الفصول التالية. حـول تجربـة مـيلاد إتحـاد الكتـاب المصريين، أقرأ في هذا الكتاب الفصـل المعنـون (أسـلحه اليمـين الفاجرة.. وأسلحة اليسار الفاسدة).

ومن الواضح أن أصحاب هذا الاتجاه ، يريدون للكتاب والفنانين أن يكونوا أقوي غير فاعلة فـي الـوطن، وأنهـم ينظرون لفكرة (الوحدة) بنفس النظرة التقليدية التـي سـادت بلادنا خلال العشرين عاما الماضية ، بإعتبارها وحـدة بـلا تناقص ولا إختلاف وباعتبارها كم عددي لا محتوي له...

ولا يستطيع أحد أن ينكر أهمية المطالـب الاقتصـادية والنقابية، لكن النظرة النقابية تتسم غالبا بضيق أفق شديدة لا يستطيع أن يصل بها إلي رحابة النظـرة السياسـية، التـي تتصف بالشمول ورحابة الأفق... ومن المؤكـد أن الكتـاب الفنانين قد أدوا بعض الأدوار في نضالنا الوطني والتحرري، وساهموا علي امتداد القرن ونصف القـرن الأخيـر، فـي صياغة الوجدان المصري، ونقل العقلية المصرية إلي آفـاق الحضارة الحديثة بكل منجزاتها.. لكن هذا الدور لـم يكـن منظما بطريقة تجعل لهم رأياً ومعلناً ومؤثراً فـي مختلـف القضايا السياسية، وخاصة الآنية منها...

ولا يكفي بالطبع أن يكون للكاتـب موقفـه الشخصـي والفردي المناصر لقضية ما.. فنحن نعيش في عصر التنظيم ، حيث يكتسب الرأي الجماعي قيمة كبيرة، ويـؤثر تـأثيرا



هاماً في الرأي العام المحلي والعالمي.. وفي نفس الوقت فإن الموقف الجماعي لأي فئة من قضايا سياسة أو فكرية معينة، يساهم في تضييق نطاق الإختلاف حول الآراء، ويجمع الكتاب والأدباء حول برنامج حدا أدنى يتضمن موقف المعاداة للاستعمار والإمبريالية ولأي عدوان على حرية الشعوب ، ومناصرة قضية التقدم الإجتماعي علي المستوي الوطني والعالمي..

ومن البديهي أن أحداً لا يطالب الآخرين بالتنازل عن أفكارهم وأرائهم، فليس العمل المشترك علي جبهة الفكر، نوعاً من تذويب التيارات الفكرية المتناقضة في تيار واحد، أو للمصالحة بينها، ولكنها دعوة للحوار الصحي بينها، بحيث يصبح جهد أصحابها فاعلاً في هذه المرحلة.. كما أن هذا الحوار هو الوسيلة الوحيدة لكي تعي بعض الفصائل الوطنية والمعادية للاستعمار دورها الحقيقي فلا تطلق رصاصها الطائش علي القوى الوطنية الأخري ، وتفتعل عداء وهمياً معها، تاركة – خوفاً أو جهلاً – الحرية للقوى التي تتآمر بالجميع، تتم مؤامرتها علي حرية التعبير...

والخطوة الأولي في هذا كله هو الحوار العلني والمنظم في كل المنابر الملتزمة بالأهداف الرئيسية للنضال الـوطني في هذه المرحلة.. وهو ما يعني أن تزداد منظمات الأدبـار والكتاب فاعلية، وأن ينفض (سامر المقاهي) لينتقل رماده إلي منظمات ثقافية محددة الاتجاه في مسائل الفكـر والثقافـة.. تستطيع باتحادها أن تصنع إتحادا يليق بكتاب مصر، إتحـاد للأدباء والفنانين الذين يعنون بأشياء أهـم مـن المعاشـات والعلاوات، يعنون بالسياحة وبحرية الفكر والتعبير....

وليكن مؤتمر الأدباء والفنانين الذي يـدعو إليـه هـذا الاتحاد ، الفرصة للحوار مع أجهزة الثقافة فـي الدولـة .. تتكلم وتسع.. وتحاور.. وتبرر.. ثم تتفق ما يجب أن تكـون عليه الأمور في هذه المسائل كلها... مؤتمر يناقش ذلك الذي يجري علي جبهة الفكر بحيث لا ينطلق الرصاص من هـذه الجبهة إلي صدورنا.. ولكن إلي صدور أعدائنا!.

صنع
في حزيران

(الحرب هي حربنـا نحـن ، لا حـربكم أنتـك أيهـا اليساريون الصائبون والنظام نظامنا لا نظامكم)...

مع أول بيان عسكري صدر ظهر يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ تكشفت الأوضاع الثقافية في مصر علي حقيقتها وفيما تـلا ذلك من أيام وحتي هذه اللحظة [١] فـأن حركـة المثقفـين المصريين والتيارات الغالية علي العطاء الثقافي والفكري في مصر، لا تعكس صورة مجتمع محـارب، ولا تقـدم ثقافـة مقاومة : في معظم الكلمـات المطبوعـة أو المسـموعة أو المرئية ستفجؤك التشجات لكن أعيدها نظرات منك صائبه أن تحسب اللحم فيمن شحمة ورم. عالم المثقفـين المصـريين

---

[١] يستعرض هذا لمقال، ردرود فعل المثقفين المصريين، تجـاه حرب أكتوبر خلال أيام الحرب الفعلية، وقد كتب غالبا في نهاية أكتوبر (ت ١) ١٩٧٣، ونشر في مجلة (الثقافة) البغدادية في ديسـمبر (ك ١) ١٩٧٣.

الحقيقي هو فصائل منفصلة بلا اتصال، وشراذم متفرقة بـلا لقاء. جزر من عالم الأناء المتورم: نرجسيته ضيقة الأفـق.. لا ننظر خارجه ولو حتي ليري موطأ أقدامه. هل نتوقع منه بعد هذا أن يكون ذا رؤية شاملة للحظته الراهنة أو لمستقبله القادم؟!.

وما حدث – ويحدث- علي الجبهة الثقافية في مصـر، ليس غريباً علي من يتابعون تطورهـا، ذلـك أن (المثقـف المصري المتنكس) هو نمطها الغالب والسائد. (صـنع فـي حزيران): هذا ما يقوله وشم علي الجلود. أمـا التشـخيص السيكولوجي للحالة فيقول: إن نكسة حزيران قـد صـدمت وزلزت- إلي حد التحطيم لذي بعض المفردات – عالم الأنا قومياً وشخصياً.

علي امتداد خمسة عشر عاماً سـابقة علـي حزيـران ١٩٦٧ تورمت الذات القومية وانتفخت. في صـحف تلـك السنوات لن تقرأ عن دوله صغيرة تجتهد للتحـرر وللتقـدم ولبناء نفسها، وسط عمليات انتهاب من الداخل ومـؤامرات حصار من الخارج، لكنك ستقرأ دعاية نظام يحـرك العـالم ويصنع كل شئ فيه. نظام أنهي تماماً كل مشاكل وألقي عن

كاهله كل همومه وفرغ لتخطيط مستقبل المعمـورة، طـور نظريات الثورة وتجاوزها، وصنع ثورات في أوربا وآسـيا وأمريكا اللاتينية وبلاد واق الواق!

وبعنف الإلحاح- وأساساً بسيف المعز القطّـاع وذهبـه اللّماع- وجد المثقفون المصريون أنفسهم جـزءاً مـن هـذه اللعبة الكبيرة. إنتزعت تلك السنوات من عقـولهم جـراثيم الأصاله بعملية (بسترة) عنيفة: تسخين شـديد إلـي درجـة الموت سجنا وجوعاً، يعقبه تبريد شديد إلي درجـة المـوت تخمة ونعمة.. بعد هذا التعقيم يصلح المثقف للتصـدير إلـي الشارع المصري، فهو مضمون النتائج خال من المـرض . ولأن (المبستر) فاقد لذاته، فإنه يغطـي خـواءه ، الـداخلي بالذات الكلية : أنت ميت لأن ذاتك منفية، ولكنك جزء مـن شعب يحرك العالم ، هذا ما تقوله صـحف تحررهـا أنـت نفسك.

لكن إدراك ذلك كان خطراً علي الذات وصـعباً علـي النفس فهذه الذات المخربة من الداخل لا بد لها مـن تغطيـة أمام نفسها. والحل : الانغماس في اللعبـة بجديـة شـديدة. التحدث عن العالم من أطراف الأنوف. الهدم: مجرد كلمـة.

البناء: مجرد كلمة أخري. الشعب: معنا. مقالي: قراه ثلاثـة أرباع المعمورة وأحداث تأثيراً شديداً. شهودي علي صـحة ذلك ثلاثة من أصدقائي قرأوه وهنـأوني (ردا علـي عمـل مماثل قمت أو سأقوم به بالنسبة لمقالاتهم).

غطت الرطانة كل شئ!.

علي كثرة ما كذب (مايلز كوبلاند) – الخبيـر الشـهير للمخابرات المركزية الأمريكية – في كتابه (لعبة الأمم) فإنه كان صادقاً حين لاحظ أنه كان من الطبيعـي فـي قـاهرة الستينات أن تري فلاحاً مصرياً يقف علي خشبة السرح- أو أمام ميكرفون إذاعة أو كاميرا تليفزيون – يناقض بيوقراطياً فيزعق في وجهة بفصاحة عن حقوقه ، لكن هذا يحدث علي المسرح فقط ، أما في الواقع فـإن الزعيـق حـق مكفـول للبيوقراطي، والتذلل والرجاء هو الحـق الوحيـد المتـروك للفلاح.

علي خشبة المسرح تحـرر الفـلاح زاعقـاً ، وفـي ميكروفون الإذاعة أخذ العامل حقوقه، وانتشرت الحرية لأن التليفزيون يقول ذلك ونحـن نحـرك العـالم لأن نظريتنـا (الثورية) طورت الاشتراكية الجوجماتيى، ولـيس مهمـاً أن

نصف الذين يقولون ذلك لا يفهمون المعاني الحقيقيـة. لـك كلمه علي حدة من جملتهم الخماسية.

ويجئ حزيران فيهدم عالماً من الورق المقـوي علـي رؤوس أثقلتها النرجسـية، ويشـنق المثقفـون بكلمـاتهم ، وكالقذائف تصيبهم أعمدة الرصاص التـي وقـف (المثقـف المنتكس) عاريا هذه المرة لا يخفي خواءه رداء، ولا تغطي (بسترته) كلمات ، وتبدأ سنوات مريرة من أدب لوم الـذات: أدب الخطيئة الأولي.

بعد ثمانية أشهر من النكسة- وإبان محاكمة المسؤولين عن الهزيمة العسكرية- كتب الشاعر (أحمد عبـد المعطـي حجازي) مطالبا بمحاكمة المثقفين لأنهم (قصروا- وهم قادة الحياة – في آداء واجبهم) وحيثيات الاتهام تقول (إذا كان من أهم الأسباب التي أضعفت قدرة المجتمع علي خوض الحرب هي غياب الديمقراطية وجهلنا بحقيقة أنفسنا، وحقيقة العدو ، فالمثقفون مسؤولون مسئولية مباشرة في هذا المجال[1]

---

[1] كتب (أحمد عبد المعطي حجازى) هذا المقـال فـي فبرايـر ١٩٦٨ ونشرة في روز اليوسف، إبـان محاكمـة سـلاح الطيـران المصري، الذين نسبت إليهم آنذاك مسئوولية الهزيمة العسكرية.

لم يستجب أحد وقتها لدعوة حجـازى . ربمـا لأنهـم طرحوا هذا السؤال:

- من يزعم لنفسه صفة القاضي والكل قتلة وقتلي؟

لكن الدعوة تحققت في الواقع العملي. نصب كل مثقف منتكس لنفسه محكمة في سطور انتاجه. رثي (حجازي) ذاته، عمره الجميل في قصيدة طويلة [1] هذا رجل تغني بالمحبوب وهو في جب أودعه فيه المحبوب: نحن عشنا عمراً من تدني المشاعر. فأظلم أيها المحبوب واسجن، سننشـدك أناشـيد الفداء ونحن معلقون في مشانقك . نحن ولكنا لنخطئ، وأنت ولدت لتصيب. يمر موكبك علي زنازين أودعتنا إياها فنهتف باسمك . لكن أين كان رجال الحدود يوم هجم الجراد؟!

وتأمل عالم (ليلي والمجنون) – مسرحية (صلاح عبـد الصبور) الشعرية هؤلاء ثوار بين الخيانة والإحباط – رثاء

---

[1] هي قصيدة (مرثية العمر الجميل) التي منحت عنوانها لديوان من أجمل دواوين حجازي. والقصيدة في رأيي بيان شـعري، حـول طبيعة العلاقة المعقدة التي جمعت بين نظام عبد الناصر، والمتحمسين له من الأدباء والكتاب والمثقفين.

عنيف للذات وإحساس مرير بالفجيعة الثائر المنهار هو بطل العصر.

ليس الوجه الآخر للانهيار آخر: أمسك آخرون السكين لغزوا بها لحومهم ولحومنا. علي لسان (سبارتاكوس) وهـو علي الصليب ، صاغ (أمل دنقل) نص قانون عالم مـا قبـل حزيران – وهو من قوانين السببية – والنص هـو (علمـوه الانحناء).

بنفس القوة ينفجر حمدي- بطـل مسـرحية (ميخائيـل رومان): الزجاج [٢] ضائقا بعالم الشعور المسـتعارة. عـالم الواجهات الزجاجية الأنيقة المليئة بقنينات العفن فيراه عـالم (فساد. متكامل . عصابة . عصابة بتأكل من بييـت المـال بتخطف طعام الأطفـال) وبينمـا كـان الكـل يجعجعـون بالاشتراكية فإن المؤثرين حقاً كانوا دائمـاً يتقنـون باسـم أمريكا. بلاد السلع الاستهلاكية المثالية ويهتف حمدي.

---

[٢] نشرت مسرحية (ميخائيل رومان) (الزجاج) في بداية عـام ١٩٦٧، ومثلت باسم (العرضالجي) الذي كان هجوما لا ينقطع، علـي عصر الشعور المسـتعارة، والباروكـات السياسـية والايديولوجيـة والقومية.

- لبيك حاف الأطلنطي لبيك. اك هنا أتباع. أتباع كلاب ولاد كلاب.

لكنهم ليسوا وحدهم كذلك نحن أيضاً – المتفرجـون – مثلهم:

- الأوبرا يا ولاد الكلاب . ياللي عاملين علي وحـوش وأنتوا أرانب . الأوبرا بالعمدان الذهب والمرمر. وأنتم فـي الأرض بتاكلوا طين.

في صالة المسرح يصفق بعض الناس لحمـدي الـذي يشتمهم. يفعل ذلك النقد أيضاً ، في الصـحف، مـع بعـض الحرص. الإحساس المر بالمهانة والخيانة يلف الكل . تتزايد حاجتهم إلي من يملك شجاعة مواجهة ذاتهم – وذاته- بـدلاً عنهم. لأنهم أنفسهم – في عملية البسترة القاسية- قد فقـدوا كل شجاعتهم. في حكومة هذا الراع الضاري تنتشـر علـي المستوى الشخصي الانهيارات العصبية والنفسـية ويرحـل كثيرون إلي مصحات الاستفتاء ، الفقـراء إلـي مصـحات العصبية والأحسن حالاً إلـي مصـحات أوربـا [1] يسـير

---

[1] لعلها ليست صدفة، إن إثنين من ألمع كتاب مصـر، الـذين ارتبطوا بشكل ما، بفترة الإنتعاظ القومي، قد أصـيبوا بدرجـة مـن

الآخرون في الشوارع يحملون أنهيـارتهم علـي اكتـافهم ، ويستنزفون الدمع حتي ينفد من مآقي الناس[٢] وتنتشر الكتابة السرية، شعر بذئ يشتم النفس والآخرين ، وكأنـه بعـض فصول ألف ليلة وليلة في أزهـي عصـور انحطـاط الأدب العربي.

وربما لهذا السبب توج الشيخ (أمام عيسـي) و (أحمـد فؤاد نجم) ملكا المرحلة . عمدهما المثقفون ولا أحد غيرهم

الإكتئات تطلبت علادهم في مصحات خـارج مصـر، فـي أعقـاب الهزيمة، هما:(صلاح جاهين) (ويوسف إدريس) وفي تلـك المرحلـة نفسها، بدأت مشكلة (نجيب سرور) و (إسماعيل المهدوي) التي تفاقمت فيما عبد، وانتهت بالأول إلي حالة أشبة بالإنتحار، وقادت الثاني إلـي مستشفي الأمراض العقلية، حيث ما يزال يعـش حتـي الآن (١٩٦٩-١٩٨٥)، وكان الإحساس بالإضطهاد ومطاردة الخيانة، مملوسـاً فـي حالة لإثنين الأخرين.

[٢] انتشتر الشعر السري المعارض بعد هزيمة يونيو، ومع أنـه أصبح سرياً لأنه سياسي ومعارض، إلا أن السرية أتاحت لـه فرصـه إستخدام التعبيرات والألفاظ الجنسية الخادشة للحياء العام، أيضاً، فيمـا يمكن إعتباره نوعاً من الإيلام المقصود، وحالة مشتهاة مـن تعـذيب النفس. ومن أشهر هذه الأعمال (رباعيات) سـرية، كتبهـا الشـاعر الراحل (نجيب سرور).

علي هذه المملكة . فبـرغم بسـاطة الكلمـات والتعبيـرات وطابعها المنتزع من الشارع مباشرة فإنها لا تعود إليه مـرة أخري. وأصبح فن (أمام – نجم) هو فـن الـذين يملكـون أجهزة تسجيل كهربائية. ولم يتح له أن يصـل إلـي كثافـة المصانع أو تجمعات الفلاحية إلا فيما ندر. ووجـد المثقـف المنتكس نفسه في هذه الأعمال ، التي قد لا يعتبرف بقيمتهـا الجماليه، لكنها تتيح له شجاعه سب نفسـه التـي يفتقـدها. وتظهره للحظه من إحساسه المفجع بأنـه فريسـي وكـاذب وبهلوان.

في تجمعات (المثقفين) يبـدو [إمـام/ونجـم] مشـهدا فولكلورياً يتفرج عليه ويسمعه مجموعة من الأجانب يسجلون جلسة اعتراف نفسي بطريقة التحليـل الفرويـدي. ويمـوت (جيفاروا) فيفجع باستشهاده – الذي يجمع بين توحد الكلمـة والحياة – المثقف المصري المنـتكس الـذي عـاش هـذا الانفصال وكرسه ويغني إمام كلمات نجم المتسائلة:

(ما رأيكم دام فضلكم

يا جونسونات

يا بتوع نضال آخر زمن

في العوامات)

فيتأوه الذين يسمعون ، لأنهم هم أنفهسم دون كيشـوتات إنتصار الفلاح علي خشبة المسمرح، وتحقيـق الإشـتراكية علي يد أعدائها، والديمقراطية علي ألسنة مذيعي التليفزيون. وفي العوامة التي يسمعون فيها أو يسـترجعون أشـرطتهم المسجلة – يهتف المغني بحياتهم.

(يعيش المثقف علي مقهي ريش.

مزفلط محفلط.. كتير الكلام.

عديم الممارسة

عدو الزحام)

يضرب الكل جباههم بأيديهم ألما وندماً . ها نحن فـي يوم عاشوراء.

استشهد الحسين وحيداً ظامئاً وكان في يدك أن تنقذه فما فعلت؟.. العكس ما فعلت . فإذا دار الزمن وعادت الـذكري فادم جبهتك، وسب نفسك ، وادع الآخرين ليفلعوا ذلك . كنت من شهود يوم العيد وسألك بيلاطس:

- المسيح أم بارباس؟

صحت مع الصائحين.

- بارباس.

صاح بيلاطس:

- إني برئ من دم هذا البار. دمه عليكم وعلي أبنـائكم إلي يوم الدينونة[1] .

لذاك يحلو الشراب في جلسات الإستماع إلـي (نجـم) و(إمام) . ليغيب العقل الواعي الذي يدبر المصـالح ويعقـل التطرف: العقل المبستر.

وفي الصباح يعود المثقف إلي مقهـي ريـش – وكـل تجمعات المثقفين في مصر تنويعه علي لحن مقهي ريـش- يتحدث أو يكتب عن الحرب الشعبية، وهو لا يعرف كيـف يطلق بندقية. ولا يريد أن يعرف. أن مهمتة أن يكتب عـن الحرب الشعبية لا أن يمارسها.

وعنما يسخر (إمام – نجم) من :

(الثوري النوري: الكلمنجي

---

[1] بعد محاكمة السيد المسيح، وقبل صلبه، جاءت مناسبة، يحـق فيها إطلاق أحد المحكوم عليهم، وسأل بيلاطس الناس، هلـي يطلـق سراح المسيح، أم سراح لص حكم عليه في الفترة نفسها بتهمة السرقة فاختار الناس إطلاق سراح اللص وكان اسمه بارباس!

شفاط الدين النهبنجي

قاعد في الصف الأكلنجي

شوكولاته وكراملة)

يضحك البعض . ويتشاغل آخرون عن النظر في عيون الآخرين بالنظر في السقف، ويفتحون حفـرة فـي ألأرض لتبتلعهم – ذلك أنهم جميعا – بدرجة أو بأخري – هـم هـذا الثوري النوري الذي:

(يتمركس بعض الأيام

يتمسلم بعض الأيام

ويصاحب كل الحكام

بيتكتك لا تقول بركان

ولا بوتاجاز ولا حلة)

ولأن الضربة مباشرة وقاضية ، فإنها تنشر جانباً آخـر من نتائج عالم الأنا المحطمة ، هو عملية الإسقاط النفسـي. ينحني المستمعون كل علي الآخر. ويرشح كل اثنان مـنهم ثالثا ، ليكون بطل القصيدة أو الموديل الـذي رسـم عاريـاً بأبياته. بينه وبين نفسه، يرشح كـل طـرف مـن أطـراف (الدويتو) الهامس لزميله الآخر لهذا الدور.

في عمليات الإسقاط النفسي الفظيعة هذه يتلوث الكـل: فكل الناس خونة ويتعاملون مع أجهزة الأمن. وكل الأدبـاء يكتبون تقاريرا للمخابرات أفضل مما يكتبـون قصصـاً أو شعراً ، فإذا أعوزتكم – بعد عمر طويل- نماذج الخط كاتب أو أديب تضعونها في متحف باسمه فعليكم بأرشيف دوائـر الأمن . وكل النساء مومسات. وكل الرجال مخلون. ولا أدب ثورى إلا ما أكتبه، أو يكتبه أصدقائي الذين يبـدلونني نفـي النفاق. وحتي أعضاء التنظيم الطليعي [1] – الـذين كـانوا يتعلمون في تعميماتهم أن الشيوعيين والأخوان المسلمين هم ألد أعداء ثورة ٢٣ يوليو – يصبح لا هـم لهـم إلا إتهـام الشيوعيين بخيانة الماركسية . هذه الماركسية نفسـها التـي هاجموها وشوهوها وفهموهـا بشـكل سـطحي وقشـري،

---

[1] إشارة ألي طليعة الأشتراكيين، الذي أنشئ تنفيذاً للنص الوارد بالميثاق الوطني – ١٩٦٢ – بأن يكون هناك جهـاز سياسـي داخـل الإتحاد الإشتراكي، يكون أشبه بالحزب، وقد أنشئ بشكل سري، ومـن خلال مجموعات أنشأها قـادة النظـام، والمحـافظين، وجمـع كـل المتناقضات، وكان من بين أعضائة، ماركسيون قليلـون ممـن حلـوا تنظيماتهم المستقله في عام ١٩٦٥

وحرصوا بمناسبة – دون مناسبة – علي تلويثهـا وزعمـوا لأنفسهم تجاوزها.

ذلك كله طبيعي: إذا كيف يحتمل إنسان يعاني شـعوراً مرا بالعار أن يعيش دون أن يلوث الكـل ليسـتريح، مـن إحساسه هذا ويستعيد توازنه النفسي ، ولا يصبح مـا فعلـه استثناء بل قاعدة؟ بيد أنه دون أن يدري يدور فـي دوامـة التشهير باحثا عن موقف يتميز منه فيطفـو لـه مـن قـاع الإحساس بالسقوط الي سطح التيار. فإذا كان مثقفاً يسـارياً فإنه لا يهاجم مثقفـي اليمـين – الـذين إنتشـروا كالوبـاء وسيطروا كالأسطورة - إن ذلك لن يعطيـة تميـزاً ، وإذن فعليه أن يزايد علي اليساريين ، هنا تنقلب المسأله فتصـحب لوناً من الكوميديا السوداء، فالمعركه علي الجبهـة الفكريـة ليست معركة بين مراجعين ودوجماتيين ولا بين سـتالينيين وتروتسكاويين أو خروتشوفيين وما ويين، أنها حتي ليسـت معركة بين ليبراليين وماركسيين، فالتيار الزاحف في مصـر هو خليط من الفكـر الإقطـاعي الثيـوقراطي الكـولاكي، والليبراليون في موقف الدفاع العسير! ورغم أن هذا واضح كالشمس لمثقفي اليسار فإن جهدهم الأساسي منصرف ضـد

أنفسهم وهم يفضون اليمين بكل فصائله – حتي تلك الفصائل المعادية للإستعمار منه – رفضاً مضمونه نفيه مـن الواقـع بعمليه تجاهل غبية لا تلغي هذا اليمين من الواقـع – فهـو ذري الانتشار كالأوبئة – لكنها تلغي فقط الصراع معه مـن أرضية الاعتراف بوجوده، والاشتباك معه في أشكال مختلفة من الصراعات والتحالف- وهو غير الذيلية بالطبع- شـكل من أشكال الجدل الاجتماعي .

وفي محاولة إنقاذ (الأنا) سادت الرؤية الفاشسـتية كـل الظواهر ، وأثبت المثقفون من النمط اليسارى المنتكس، أنهم إثر عمليات البسترة، استمرأوا الشعور بالتدني تجاه الـزعيم المنزه عن الخطأ. وهو شعور أشاعع فـي معظـم أعمـال الستينات ذات النفس اليساري، رؤية تنزه الزعيم عن الخطأ، وتجعله ضحية للحاشية الفاسدة، التي ترتكب – دون علمـه وعلي عطس ما يريد- كل المعاصي والجـرائم، ، ولـذلك ناشده اليساريون، شعرا ومسرحاً وقصاً ، أن يقضي حاشـية الفاسدة، ليري الشعب الذي يحبة، ويرمي قلبه تحت أقدامـه، وهذا التدني تجاه الزعيم المعصوم، كان تعبيرا عن خلل في الفهم والوعي، وربما عن خلل في الشجاعة، آثر أن يحمـل

الفروع جرائم ، يخشي أن يواجه بها الأصول، لكنه – فـي كل الأحوال – انتهي بتتويج الفرد (الأها) في وجدان المثقف المصري، الذي شغل بتقييم من يحيطون به من أفراد، ونصل لهم محاكم داخلية وعلنية، وهكذا أصبح النقاش المجهد حول ما إذا كان فلاناً ثورياً أو انتهازيـاً هـو طـابع مناقشـات المثقفين، كأن حسم هذه المسألة هو الذي يقرر مستقبل كـل شئ، بينما يكون هذا (الفلان) غالباً مجرد وجه إنسحب مـن العمل العام، أو يكون محدود التأثير، ولكن الرؤيـة السـائدة فاشستية المنظار. وحدتها خليتها وهي الأنا: الفرد هو كـل شئ، فإذا خان فلان- وقد لا يكون هذا صحيحا بـل مجـرد تشهير – ضاعت الثورة، وينبغي أن نتفرغ تمامـا لرصـد الخونة، والتنديم بهم من وراء ظهورهم، فإذا قابلناهم إبتسمنا في وجوههم خوفاً من سلطتهم ، أو رجـاء لمنفعـه وهـو الأرجح.

ذلك أيضاً هو حال (المثقف اليمينـي المنـتكس) لكـن مأساته الحقيقية هي جهلـه المـزري وأميتـه المضـحكة ، وسنكون مكفوفي البصيرة إذا تجاهلنا أن هناك تولدا سرطانياً في هذا اليمين الجهول .. وصحيح أن هناك فرق بين المثقف

اليميني وبين الذي التزم اليمين لجهله – حتي بـذلك الـذي يتلازمه- لكن المشكلة هي الحجم الهائل لهذا اليمين الجهـول وسيطرته الفولاذية ودفاعه الشرس عـن مصـالح متدنيـة وصغيرة.

وقد يقول قائل : ليس فى هؤلاء خصم يحتـرم. وهـذا صحيح لكن تجاهل الواقع لا يعني إلا الانعزال عنه والعجز عن التأتثير فيه.

كان اليمين المنتكس جزءاً من لعبة عالم ما قبل حزيران الكذوب فقد تاجر بالاشتراكية ونحت لها في أسماء رقيقـة، فهي (عربية) مرة و (إسلامية) مرة أخري: رضي عن كـل شئ، ومدح كل شئ، لكنه فعل ذلك ليحمي نفسـه، ومـع أن عناصرة الذكية كانت قد اكتشفت مبكراً أنه لا إشتراكية هناك ولا يحزنون، لكنها – لفرط حساسيتها تجاه المسـاس بحـق الملكية المقدس – توقعت أن يؤدي الإلحاح الدعائي الرسمي، علي فكرة الاشتراكية إلي نشر وبائها وخاصة بين الشـباب، ورأت أن اللعبة بمجملها سلاحاً ذا حدين.

ولأن الحزايراني اليميني مخرب هو الآخر من الداخل ، و(مبستر) أيضاً فإن إحساسه بالعار والخزي قد قـاده إلـي

مواقع الإسقاط النفسي ذاتها فتنصل تماماً من مسؤولية النكسة – من لحظة حدوثها – وألقاها علي عـاتق اليسـار. دليلـه المكذوب أن هذا اليسار هو الذي كان يحكـم، وأن سـلاحه الملحد هو الذي هزم، وتخطيطه الكافر هـو الـذي جـري وانسحب، في لعبة التبرير والإسقاط هذه راح اليمين لاهثـاً يلصق كل رذائله السرية باليسار، ويزعم لنفسه أنه كان بطلاً فصمت عن كل الرزايا وقلبة يتمزق، ويصرف النظر عمـا إذا كان الصمت بطولة أم لم يكن، فإن جرائم اليمين الفظيعة مسجلة ومكتوبة: فهو المادح لكل شئ، والمعجب بكل شـئ، أما ضرواته فيه دليل علي معدنه الرخيص، مشكلته الحقيقية أنه كان ينفس علي بعض اليساريين ، ما ظنـه قربـاً مـن السلطة، وهذا هو الوجه الآخر لنفس اللعبة: الصراع علـي التبعية!

المثقف اليميني المنتكس يتطهر خارج نفسه: يتحرر من احتقاره لذاته باحتقار اليساري بشكل عنصـري وفاشسـتي وبكراهية مركزة تلجأ للتصفية البدنية وللتجويع أحيانـا .. لا تترفع عن التشفي في الوطن تشفياً في اليسار المضـروب- علي ما يظن اليمينيون – بالنكسة (وذلك نوع من الانحطـاط

الخلقي سببه الحقيقي تصور اليمين بأنه يعيش آخر سـنوات عمره، وهو إحساس غير صحيح، إذا أدركنا مواقع اليمـين الطبقية وتسلله المرضي في المواقع الطبقية لليسار وخاصـة وسط العمال والفلاحين).

وكان الحل الذي لجأ إليه اليمـين يسـيراً وسـريعاً : اغتراب كلي إلي الماضي يصوغ (يوتوبيا رجعيـة) ترفـع أعلام الأمس، وتتحسر علي زمن الحلفاء – راشدين كانوا أم غير راشدين – ويعث لجثث الموتي من الأفكـار والقـادة، ليتبتلوا في محرابها – وذلك كله يقدم تبريراً لعجزهم المزري عن تقديم أي رؤى صـحيحه للسـيطرة علـي الحاضـر، وارتعاش أيديهم أمام حجم التحديات التي تواجـه الـوطن، وإدراكهم أ، الرضي بهذا الحاضر صعب وبل ومستحيل.

وبرغم الإنتشار الذري لهذه اليوتوبيات الرجعيـة فـإن أمرها هين ويسير لا لأن واقع الحياة يهزمها كل يوم، ولكن أيضاً للثنائية التي يعيشها المفكر اليميني الذي يـدافع عـن اللهوعن الرسول وفي يده كأس من الخمر[1] كمـا يطالـب

---

[1] كنت أزور يوما ناشراً عربياً في حجرته بفندق (هيلتون النيل) فوجدت لديه رجل أعمال مصري، كان يفكر آنـذاك فـي إفتتـاح دار

اليساري بالحرب الشعبية وفي يده ورقـة ولـيس بندقيـة – والذي يفتعل خطراً وهمياً علي الأديان وميزانية الدولة تنفق علي المسجد الواحد ما لا يقل عن مائتي ألف جنيه، هاربـاً من مواجهة المشاكل الحقيقية للناس، الذين لا يعـانون مـن نقص المساجد ، بل من نقص المساكن .

مشكلة اليميني المغترب أنه يعيش الواقع بشكل عملـي وعقلي ويتعامل معه بقوانينه لأنه لو لـم يفعـل فستضـار مصالحه. ومعظم الذين يطالبون مثلاً بعودة المـرأة لتكـون حبيسة المقعدين: البيت والرجل، يعلمون بناتهم، ويوظفـون زوجاتهم ، ويحلمون بأن يحبسوهن علي أن تدفع الحكومـة لهن المرتبات بلا عمل[1] وإذا كانت تلك مشلكة اليمين، فـإن

للنشر، وكنا نتحدث في الموضوع، ونناقش مشروعاته لنشر التـراث، وخطر لي فجأة أن اسأله عن الإسم الذي اختاره للدار الجديدة، وكـان لحظتها مشغولا بإضافة الثلج إلي كاس مترع من الويسكي، لكنه قـال لي بجدية شديدة: دار الإسلام. والغريب أنـه دهـش حـين إنفجـرت ضاحكاً!.

[1] فيما بعد تحمس أحد أعضاء مجلس الشعب المصري، لفكـرة تقضي، بتخيير النساء العاملات، بين وضعهن، وبين البقاء، في المنزل مع الحصول علي نصف مرتباتهن بلا عمل.. والغريب أن الفكرة قـد

خطره هو تأثيراته المدمرة علي الجماهير. ذلك أن اليمينـي المغترب ينفي بعض اغترابه بثنائيته المفضوحة، لكن تركيزه المستمر بفكرة العودة للماضي ينتشر كالوباء بين الطبقـات الشعبية صاحبة المصلحة في المستقبل معابثاً عجزها عن فهم أزمتها، ومفسراً هذه الأزمه بأسباب ليست حقيقيـة، فيشـل قدرتها علي السيطرة علـي الحاضـر ، وبالتـالي يعرقـل التطور.

ويسد بعض منافذه .

علي الجانب الآخر يغترب اليسـاري المنـتكس إلـي المستقبل ، بفعل ذلك من مظلة اليميني المنـتكس: الضـيق

وجدت تأييدا أعلاميا واسع، وحماسا نسائيا عريضـاً، دون أن يـربط أحد بين ما تحصل عليه المرأة من أجر وبين ما تقوم به مـن عمـل، وكان عبد الناصر قد واجه مناقشة من هذا النـوع، أبـان اجتماعـات المؤتمر الوطني للقوى الشعبية في عام ١٩٦٢، تعترض علي الفقـرة الواردة بالميثاق التي تنص علي مساواة المـرأة بالرجـل، ولاحـظ – بدهشه – انه تلقي طلبا من المرحوم (حسن الهضيبي) المرشـد العـام الثاني لجماعة الأخوان المسلمين، عقب الثورة، يقضي بتدخل الدولـة لمنع توظف النساء، ثم اكتشف أن بنات الأستاذ الهضيبي تدرسن فـي الجامعة وتعملن.

بالحاضر وعدم الثقة به والعجز عن فهمة أو السيطرة عليه. وهو ما قادر اليسار إلي مجموعة من الممارسـات العلميـة تنتمي لعالم التمرد الرمانتيكي الذي يسـتهدف فـي معظـم الأحيان تأكيد الذات أو تدميرها وهكـذا غـاب فـي وعـي اليساري أن الثورة علم ولـيس أسـطورة، وتأكيـد لذاتيـة (الجماعة الطبقية) وليست تأكيداً لنرجسية الفـرد. وإنمحـي الفرق بين الهدف البعيد والأهداف القريبة، وبين المطلـوب والممكن، وبنوع من التشوش الذهني الغريب راح اليساريون يتخبطون ثم ينقسمون ويتشرذمون،وسادت الرؤى المرضـية للبرجوازية الصغيرة بين صفوفهم، وغلبت الرصانة اللفظية علي أفكارهم، والمظهرية والمزايدات علي نشاطهم العملـي الضئيل، بل الذي يكاد ينعدم. بحيث أصبحوا فـي مجملهـم مجرد مغتربين إلي المستقبل. إن الثورة هنا تصبح يوتوبيـا وليس علماً ، فالوعي بالضرورة لا ينسجم مع العمل من أجل تحقيقها. والعجز عن الوعي بالحاضر وفهمه والتأثير فيـه، هو أيضاً عجز عن تحقيق الضرورة.

ولا شك أن مأساة المثقف اليساري المنـتكس، كانـت أقسي وأدعي للفجيعة ، من مأساة اليميني من النمط نفسـه،

فعلي مشارف الثمانينات، فوجئ اليساريون بالواقع يجهض كل أحلامهم، بعملية قيصرية ، تكاد تعلن أن ما مضي كان وهما، وكما يحدث في الكوابيس، وجدوا أنفسهم أمام ديناصورات الماضي الوحشية، تسد الطريق: اللاعقلانية تزحف،والزمنيه تخفت، وحتي فكرة حرية العقيدة أصبحت محل رفض وازدراء . وكأن كل دساتير مصر منذ دستور عرابي (١٨٨٢) إلي دستور السادات (١٩٧١) لم تعتمدها. وهكذا بدا وكأن الخطيئة الكبرى قد ارتكبت بلا ثمن أو بلا جزاء حل اليساريون كياناتهم المستقلة، وسكتوا سنوات عن جرائم كانت ترتكب، لأن النظام يبني الاشتراكية ، وفتحوا أعينهم في الصباح، فإذا الليبرالية حلم، وإذا الرأسمالية تقدم، وإذا فكر الإقطاع يزحم الصحف، وإذا بثمرة الخطيئة الكبري خديعة كبري! كانت تلك مأساة اليسار، أما خطره، فكان فقده أحياناً للاتزان، وتآكله الذاتي، كأنه يعوض بهذا التآكل، عجزه عن الصراع حين كان لابد وأن يصارع، لذلك ارتفعت نغمته، وأرتفع صوته، وتعالي عن السيطرة علي مواقع يومية صغيرة، أو فهم طبيعة الكارثة القادمة، فكانت

النتيجة، أنه نفي نفسه إلي عالم وردي، سيتحقق بلا عمـل، ورفع شعار: إما كل شئ.. أو لاشيء!.

وهكذا أطلت الحرب، والمثقفون جزر!.

عقدة شباط:

ومع أول بيان عسكري صدر يـوم ٦ اكتـوبر (ت ١) ١٩٧٣، تكشفت أوضاع المثقفين علي حقيقتها. وقبل صدرو البيان، كانت الجبهة الثقافية، تخضـع لسـيكلوجية المثقـف الحزايراني، بشكل عام، لكن عقدة الشهور الثمانية السـابقة علي هذا ليوم، كانت مؤثرة بشكل فعـال وخـاص، وفـي البؤورة منها الهجمة اليمينية الشرسة التي قادتها لجنة النظام السابقة بالاتحاد الاشتراكي العربي، وانتهت بفصل ١٠٧ من الصحفيين والكتاب المصريين ونتج عنها (تطهير) الصحافة المصرية من كل العناصر الماركسية تقريباً، ومعظم الـذين كانوا ينتمون لتنظيم طليعة الإشتراكيين – الجهـاز السـري للاتحاد الاشتراكي العربي – وعدد مـن المتعـاونين مـع وكالات الأنباء الغربية... وآخرون ممن فصـلوا لضـغائن شخصية أو لصراعات بين أجهزة الأمن والأجهزة السياسية،

وقد استخدمت الفئتان الأخيرتان للتعميـة ولتغطيـة اتجـاه الضربة الرئيسية.

وكشف حجم الضربة عن أكاذيب اليمـين وافتراءاتـه، فمن بين أعضاء نقابة الصحفيين البالغ عددهم ١٤٠٠ عضواً فإن الماركسيين والطليعيين لم يزيدوا عـن ١٠٧، والـرقم يشمل آخرين أيضاً – ومن هنا كان الزعم بسيطرة اليسـار علي مجالات الثقافة والفكر أكذوبة دعائية لا أكثر ولا أقل [(١)]

---

(١) كانت قوائم لجنة النظام، أبرز أحداث ما قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣، وقد نتجت عن رد فعل عصبي من السادات، عل تحالف المثقفـين مع الحركة الطلابية التي كانت أعلي أصوات الإحتجاج، وأقـوى عوامل الضغط، لكي يحسم (السادات) موقفة المائع وغير الواضح، تجاة قضية تحرير الأرض المحتلة، وكانـت أولـي التحركـات الطلابية قد بدأت في ديسمبر ١٩٧١، بعد أن انتهي عـام الحسـم دون حسم، واعتذر السادات بأن الحرب الهندية الباكستانية قد أدت إلي ضباب في الرؤية منعه من حسم المعركة في ذلك العام كمـا كان قد وعد في خطبة شهرية له في الإحتفاظ بالمولد النبوي، ثـم تكررت – بشكل أقوى – في العام التالي، وفي المـرتين أشـارت تقارير الأمن إلي ان هناك عددا من الصحفيين والكتاب، تعـودوا إلقاء محاضرات في الجامعة ينتج عنها اثارة طلابها، وقد إكتفـت السلطات في عام ١٩٧٢ باستدعاء ثلاثة منهم للتحقيق أمام النيابة،

هم (محمد عودة) (ونبيل زكي) (وصلاح عيس) وقبل نهاية العـام كان البيان الشهير الذي وقع عليه (توفيق الحكيم) (وعدد كبير من الكتاب الصحفيين، قد صدر، متضمنا نقدا للسلطة التي كانت قـد عادت للإصطدام بالطلاب، لأنهم عادوا يتظاهرون طلبا للحـرب، وعلي إثر نشره في بيروت، ثار (السادات)، وبحث عـن غطـاء قانوني ودستوري يبيح له فصل الصحفيين، حتي لا يبـدو أمـام الرأي العام، أنه قد عاد إلي الإساليب التي كان يتبعها من سـماهم ب (مراكز القوي)، وتوصل الي فكرة هزلية، هي دعـوة لجنـة النظام بالاتحاد الاشتراكي العربي، لتفصل الصحفيين من عضوية الاتحاد، فيفقدون وبالتلي وظائفهم، إذا كان يشترط آنـذاك للعمـل بالصحافة، أن يوافق الاتحاد الاشتراكي علي ذلك.

وهذا هو نص البيان الرسمي، الذي نشرته الصحف المصرية في ٤ فبراير ١٩٧٣ متضمنا الإتهامات التي استندت إليها لجنـة النظـام، لفصل الصحفيين من الإتحاد الإشـتراكي، وقـوائم بأسـماء هـؤلاء المفصولين:

(إجتمعت هيئة النظام بالإتحاد الإشتراكي العربي أمس برئاسـة (حافظ بدوي) رئيس مجلس الشعب وعصوية (محمد حامد محمود)، و (أحمد عبد الآخر)، والدكتور أحمد كمال أحمد أبو المجـد) و(يوسـف مكادي) وممثل أمانه التنظيم (محمد عثمان إسماعيل).

(وقد إستعرضت الهيئة في إجتماعها التقارير السياسية التي قدمت إليها بالنسبة لعدد من أعضاء الاتحاد الإشتراكي العربي، الذين أخلـوا

بواجباتهم الاشتراكي العربي أمس برئاسة (حافظ بدوي) رئيس مجلس الشعب وعضوية (محمد حامد محمود)، و(أحمد عبد الأخر)، و(الدكتور أحمد كمال أبو المجد، و (يوسف مكادي)، وممثل أمانه التنظيم (محمد عثمان إسماعيل).

(وقد إستعرضت الهيئة في إجتماعها التقارير السياسية التي قدمت إليها بالنسبة لعدد من أعضاء الاتحاد الإشتراكي العربي، الذي أخلـوا بواجباتهم الأساسية، كأعضاء عاملين بالتنظيم السياسي الـذي يحقـق تحالف قوى الشعب العاملة.

(كما بحثت الهيئة كل التقارير التي تجمعت لذي لجنـة تقصـي الحقائق بمجلس الشعب، خلال دراستها المستفيضة، للأسباب التي أدت عن عمد وتدبير إلي المخطط الذي كان عمل لإثارة الجماهير بالأكاذيب والإشاعات والتحريض ضد نظام الدولة وتحالف قوى الشعب العامـل، وكان يشكك في كل تصرف بهدف إشاعة البلبة، وتشويه سمعة مصر، سواء بإمدام الصحافة، والإدعات ووكالات الأنباء الأجنبية بمعلومـات كاذبة أو التوقيع علي بيانات مضللة، لكي تنشر في الخـارج بهـدف إظهار البلاد وكأنها مهتزة بعدم الإستقرار والفوضي. وقد إستغلوا فـي ذلك الأجواء الديمقراطية التي حققتها حركة الجماهير فـي ١٥ مـايو لضرب الديمقراطية وأرادوا أن يحولوا مبدا سيادة القانون الي إرهـاب فكري وتحد لاحترام القانون وإهدار للحريات.

(وقد وضعت هيئه النظام في اعتبارها أن عـددا مـن هـؤلاء الخارجين علي الخط الوطني، والمحرضين ضد الوحدة الوطنية وعلي

الإعتداء علي المرافق العامة والمشجعين لمخططات التشكيك والبلبلـة في هذه المرحلة الخطيرة التي تواجهها البلاد.. وضعت هيئه النظام في إعتبارها أن عددا منهم، يتولون أعمالا حساسة في مواقـع مسـئوولية هامه، تفرض الإلتزام بمواثيق الثورة، والحرص علي دعـم الوحـدة الوطنية وتوجية الرأي مواقف مسؤولية هامة، تفرض الإلتزام بمواثيق الثورة، والحرص علي دعم الوحدة الوطنية وتوجيه الرأي العـام فـي المسار الوطني، القومي الأمين، وخاصة في مواقـع إعلاميـة، مثـل المؤسسات الصحفية أو الإذاعة أو التلفزيون، أو وكالات الأنباء.

(كما وضعت الهيئة في اعتبارها أن عددا آخر من هؤلاء أعضاء في النقابات المهنية.. وقد حاولوا عن عمد وأصرار إستغلال النقابـات التي ينتمون إليها بإصدار بيانات لا تعبر عن رأي جماهير قوى الشعب العامل، بهدف مساندة المخصصات التـي دبـرت إشـاعه الفوضـي وتفويض المبادئ الديمقراطية وتشويه عمـل المؤسسـات الدسـتورية الشرعية.

وقد قررت الهيئه إسقاط العضوية العاملة عن الآتية أسماؤهم من عضوية الإتحاد الإشتراكي، وفيما يلي القامة الأولـي (لأن الأسـماء رباعية أو ثلاثية... فقد وضعت بين حاصرتين ما ليس شائعاً في أسماء أصحابها).

١- فيليب (زكي) جلاب.
٢- محمد (عبد الفتاح أحمد) عودة
٣- حسين (محمد حسين) عبد الرازق

٤- مصطفي نبيل (عبد الخالق مصطفي)
٥- كمال (محمد) سعد
٦- محمود (أحمد محمد حسن) المراغي
٧- يوسف إدريس علي وشهرته (يوسف أدريس).
٨- عادل (محمود) حسين.
٩- أحمد عبد المعطي حجازى
١٠- فريدة (عبد المؤمن) النقاش
١١- مكرم محمد أحمد (حسين)
١٢- سمير (أمين) تادرس
١٣- الأمير (مأمون) العطار
١٤- صلاح (السيد متولي) عيسي
١٥- صافيناز (محمد) كاظم (أصـفهاني) وشـهرتها صـافيناز كاظم.
١٦- مصطفي الحسيني (شحاته)
١٧- محمد (جاد الحق) الغربي
١٨- أمير إسكندر (بولس)
١٩- السعيد حبيب (السعيد حبيب) وشهرته سعيد حبيب
٢٠- نبيل زكي (لطفي)
٢١- (محمد) محسن (إسماعيل) الخياط
٢٢- فتحي عبد الفتاح
٢٣- جمال (الدين) الغيطاني

٢٤- شوقي (المدبولي) مصطفي
٢٥- أسعد حسنين (منصور)
٢٦- (أحمد) فاروق (عبد المنعم) الطويل
٢٧- زيد (محمود) الشريف
٢٨- الإمام (أحمد كمال) الجميعي
٢٩- محسنة توفيق (عبد العزيز)
٣٠- سامي (عبد السلام) السلاموني
٣١- علي عبد الخالق
٣٢- صلاح الدين عثمان السعدني وشهرته: صلاح السعدني
٣٣- عدلي فخري (منصور)
٣٤- (أحمد) فؤاد (محمد) التهامي وشهرته: فؤاد التهامي
٣٥- (محمد) رجائي الميرغني
٣٦- أحمد فؤاد نجم
٣٧- الدكتور علي الراعي (محمد الراعي)
٣٨- محمود أمين العالم
٣٩- الفريد (مرتضي) فرج (بشارة)
٤٠- (محمد) أمل (فهيم محارب) دنقل وشهرته: أمل دنقل
٤١- إبراهيم (فهمي) منصور (غنيم)
٤٢- لويس (حنا خليل) عوض
٤٣- زكي مراد (إبراهيم)
٤٤- عبد ا (عبد العزيز) الزغبي

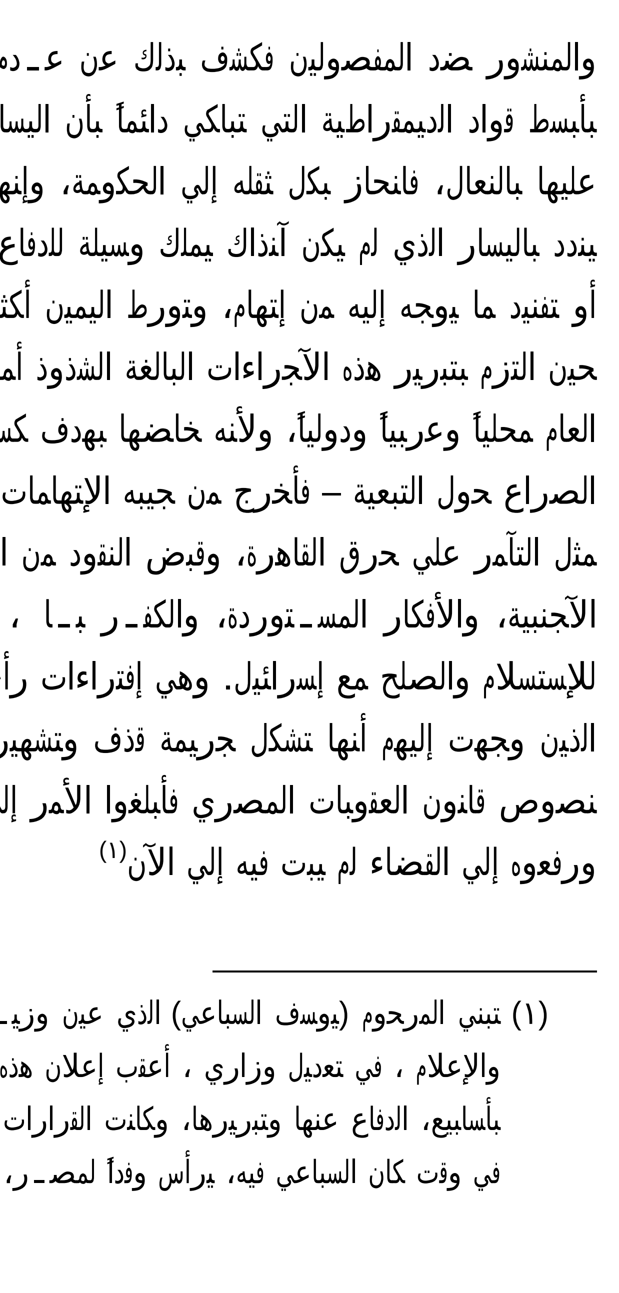
٤٥- يوسف (موسي) درويش
٤٦- حامد رضوان حامد الأزهري
٤٧- أحمد نبيل (أحمد نجيب) الهلالي
٤٨- عادل حسين (أمين)
٤٩- عبد المسحن (سيد أحمد) شاشة
٥٠- عادل كامل (فانوس)
٥١- سعد عبد الواحد (حماد)
٥٢- جلال (محمد يوسف) رجب
٥٣- عبد العظيم (محمد) الجزار
٥٤- محمد (محمد عبد العزيز) علوان
٥٥- لوقا جرجس قادس النخيل
٥٦- رشوان (مصطفي) فهمي
٥٧- علي (طه) نويجي
٥٨- دكتور مصطفي مصطفي علي السماع
٥٩- عبد المحسن (علي) حمودة
٦٠- عبد الرحمن (إسماعيل) شوقي
٦١- نزية أحمد أمين
٦٢- عبد الرازق محمد عبد العال
٦٣- بديع أحمد الشرملي
٦٤- سمير عبد الباقي (عوض)

وقد نتج عن هذه الهجمة أن توتر الجو علـي الجبهـة الثقافية توترا عنيفاً، فقد سارع اليمين إلي الهجـوم العلنـي

ونشرت الصحف في اليوم نفسه، ما وصفته بأنـه مـذكرة تقسيرية صادرت عن هيئة النظام، توضح ما يترتب علي الفصل، يقول نفسها.

(من المعروف أن الفصل من العضـوية العاملـة للإتحـاد الإشتراكي، يترتب عليه إسقاط عضوية أي تنظيم نقابي أو مجلس أدارة أو وحدة إتحاد اشتراكي أو أي مسـتوى مـن التنظيمـات السياسة المساعدة، كما يترتب عليه إبعاده عن أدارة أو وحدة إتحاد اشتراكي أو أي مستوي من التنظيمات السياسية المسـاعدة، كمـا يترتب عليه إبعادة عن أي عمل تكون العضوية العاملـة شـرطا لممارسته مثل الصحفيين ولا يجوز تبعاً لذلك أن يعتبر صـحفيا، لأن ممارسة العمل الصحفي تشترط أن يكون عضـواً بالإتحـاد الإشتراكي، علي ان تسوى حالته في المؤسسة الصحفية التابع لها ويحال إلي المعاش).

وقد تبع نشر هذه القائمة، قائمة أخري نشرت في ٧ فبرايـر ١٩٧٣، تضمنت قراراً بفصل ١٦ عضواً آخرين ، كان من بينهم ٧ كتاب وصحفيين هم :(لطفي الخولي) (ثروت أباظـة) (بهـيج نصار) (أبتسام الهواري) (أمينه شـفيق) – (ميشـيل كامـل) – (خيري عزيز).



والمنشور ضد المفصولين فكشف بذلك عن عـدم التزامـه بأبسط قواد الديمقراطية التي تباكي دائماً بأن اليسار قد داس عليها بالنعال، فانحاز بكل ثقله إلي الحكومة، وإنهمك بتشف يندد باليسار الذي لم يكن آنذاك يملك وسيلة للدفاع عن نفسه أو تفنيد ما يوجه إليه من إتهام، وتورط اليمين أكثر وخاصة حين التزم بتبرير هذه الآجراءات البالغة الشذوذ أمام الـرأي العام محلياً وعربياً ودولياً، ولأنه خاضها بهدف كسب معركة الصراع حول التبعية – فأخرج من جيبه الإتهامات التقليديـة مثل التآمر علي حرق القاهرة، وقبض النقود من السـفارات الآجنبية، والأفكار المسـتوردة، والكفـر بـا ، والـدعوة للإستسلام والصلح مع إسرائيل. وهي إفتراءات رأي بعـض الذين وجهت إليهم أنها تشكل جريمة قذف وتشهير بحسـب نصوص قانون العقوبات المصري فأبلغوا الأمر إلي النيابـة ورفعوه إلي القضاء لم يبت فيه إلي الآن[1]

---

(١) تبني المرحوم (يوسف السباعي) الذي عين وزيـرا للثقافـة والإعلام ، في تعديل وزاري ، أعقب إعلان هذه القـرارات بأسابيع، الدفاع عنها وتبريرها، وكانت القرارات قد أعلنـت في وقت كان السباعي فيه، يرأس وفداً لمصـر، فـي أحـد

إجتماعات الإتحاد العام للأدباء العرب، فأثارت ضـجة بـين الوفود العربية، وتزعم الكتـاب اللبنـاني (سـهيل إدريـس) الإحتجاج علي القرارات، بينما نشط السباعي ، مدافعا عنها، ومحاولاً منع الإتحاد من إستصدار قـرار صـريح بإدانـة تصرفات الساطه المصرية ، وهو ما لفت نظـر السـادات ، فعينه بعد عودته وزيرا للثقافة والإعلام ، حيث إلتـزم هـو (وشلته) في الوسـط الصـحفي والثقـافي ، بالـدفاع عـن الإجراءات ، بإعتبارها إنقاذ للديمقراطية من القرامطـة، أي الشيوعين..

وقد انتهز اليمين الفرصة ليصفي حسابات شخصية بين قادته وبين عدداً ممن شملتهم القائمة، ومن ذك يتزعم المفصولين، فـي تنظيم مشبوه الهدف منه حرق القاهرة، وإثارة القلاقل فيها. وكان هذا المقال موضوع قضية قذف رفعها بعض المفصولين – كنـت منهم – ضد المرحوم (صالح جودت) ، وقد أستشهد دفاع جـودت بأن التهم التي نسبها لنا وردت في البيان الرسمي الصـادر عـن لجنة النظام والمنشور في الصحف ، وطلبنا ضم صورته الرسمية ، فتبين أنه بلا أصول ، أما دفاعنا قد ركز علـي تـلاوة أشـعار وأغنيات التي كتبها المرحوم (جودت) في مـدح الملـك السـابق فاروق ، وهي من اشهي وأرق اشعار النفاق في ديـوان الشـعر العربي، وقد إستمع المرحوم جودت، لتلاوة محامينـا (المرحـوم زكي مراد) ، لأشعار نفاقه ، في جمود تام!

وقد جاءت هجمة اليمين الشرسة بنتيجة مضادة لما كان يتوقعه، الأمر الذي منع توسع الحملة من ناحيـة، وأخـرج الوسط الليبرالي من جموده وجبنه.

كانت الحملة قد ذهبت بخمسة من أعضاء مجلس نقابـة الصحفيين، هم:(مصطفي نبيـل) و (محمـود المراغـي) و (مكرم محمد أحمد) و (أمينة شفيق) و (كمال سعد)، وحاول أن يضغط علي الباقين من أعضاء المجلس، لكي يستدر منهم قرارا بإسقاط عضوية النقابة عن الصحفيين الذين تضـمنتهم قوائم لجنة النظام، حتي يفتقدون لأيه صـفة تلـزم النقابـة بالدفاع عن حقوقهم، وكانت تلك هي المحاولة التي أيقظـت الوسط الليبرالي، فتنبة لأن تكريس أوضاع مثل هذه، سيهدده في المستقبل، بفقد رزقة.

ولأن شجاعة الوسط الحقيقية لا تظهر إلا سـراً، فإنـه حين إنفرد بتذكرته الانتخابية، حمـل إلـي مجلـس نقابـة الصحفيين، في الانتخابات التي حل آنذاك أوانهـا، هـؤلاء الذين التزموا علناً بحل مشكلة المفصـولين. وهكـذا وازن الوسط الأمور، واختار مجلساً منه كذلك الـذي جـاءت بـه انتخابات ١٩٧١ وذهبت هجمـة لجنـة النظـام، بنصـف

أعضائه، فإستطاع المجلس الجديد أن يدخل مفاوضات مع الحكم، عبر النقيب الجديد (عبد المنعم الصاوي)، لحل المشكلة!.

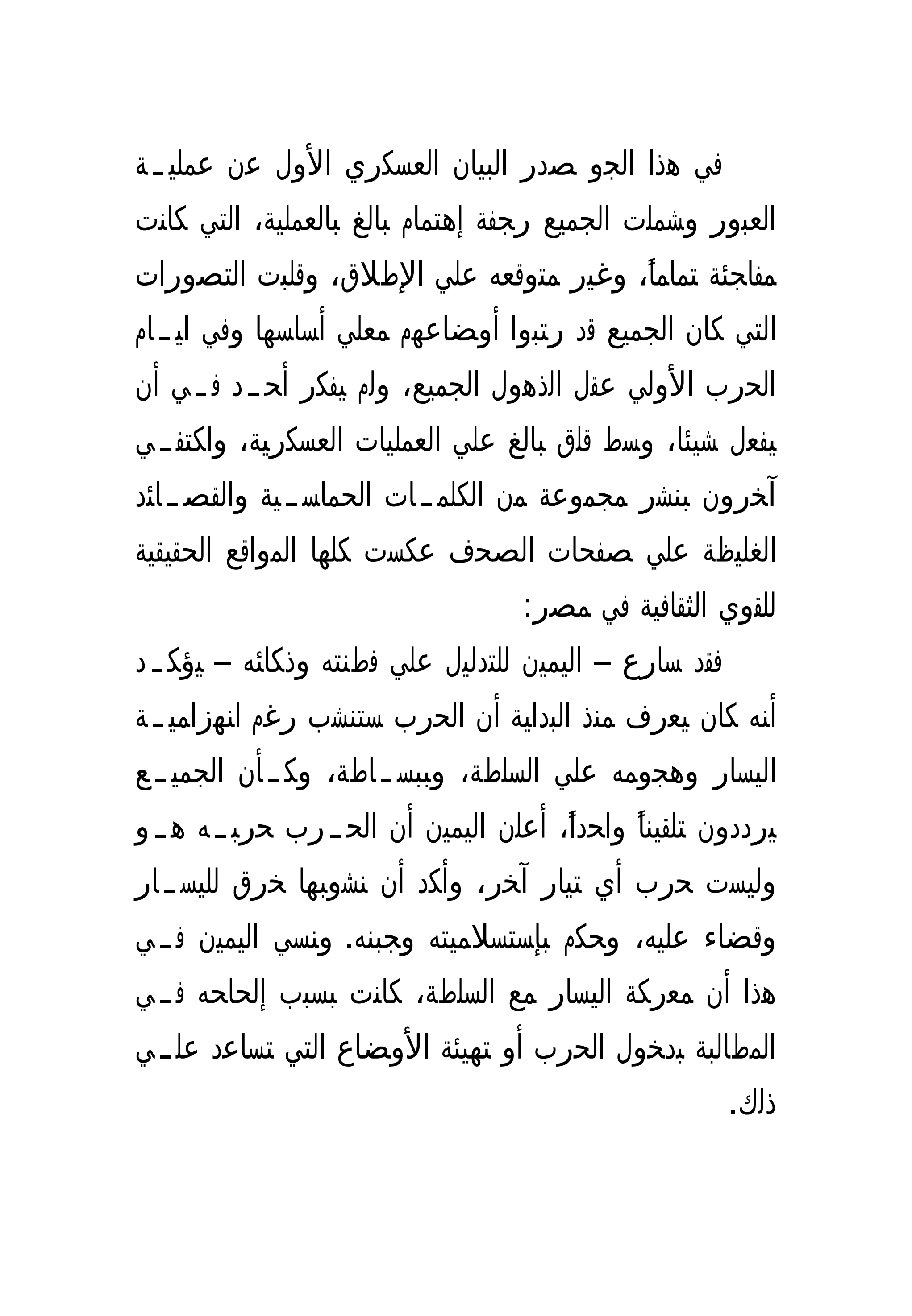
وبرغم أن المشكلة قد حلت بإعلان الرئيس (السادات) في خطابه يوم ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٣، عودة جميع الصحفيين المفصولين وحفظ الاتهامات التي وجهت لقادة الحركة الطلابية، بأنهم كانوا ينفذون مخططاً للشغب، والإفراج عن المحبوسين منهم: يقصد (فتح الباب لكل فرد في هذا الوطن لكي يدرك أننا أمام مرحلة جديدة. يجب أن نعالج فيها كل أمورنا وأن نفكر فيها في مشاكلنا) فإن ٦ أكتوبر قد أطل، وظلالها الثقيلة تحيط بعالم المثقفين ففي بعض الدور الصحفية واجه الصحفيون العائدون العديد من المتاعب، فلم يجد بعضهم مكاتبه التي كان يمارس منها عمله أو مناصبة التي كان يشغلها، فضلاً عن استشراء اليمين في دور الصحف، وتصويره قرارات العودة كلما لو كانت قرارات بالعفو عن مجموعة من الخطاة لا سحباً لتهم ملفقة لا أساس لها.

وفي مقابله تمت في أوائل تشرين الأول – أكتـوبر – ١٩٧٣ بين الصحفيين العائدين وبين (محمد حسنين هيكـل) رئيس تحرير الأهرام – لشكره علي مسـاندته لقضـيتهم – أشاروا إلي هـذه المتاعـب وطالـب بعضـهم مسـتخدما المصطلحات السياسية السائدة منذ النكسـة – بـالعودة إلـي حدود ٣ فبراير (شباط)، وأضاف آخـرون بـأن الشـهور الثمانية السابقة – بين قراري الفصل والعوده – قد شـهدت توالداً سرطانياً للأفكار اليمينية والقيادات اليمينيـة فـي دور الصحف، فتوسع اليمين بما يخل بالتوازن المفتـرض بـين القوى السياسة في مصر، وبما أن الاختلال بهذا التـوازن- في ظروف مصر الراهنة – يعرض القضية الوطنية لأخطار بالغة، فإن التصحيح الذي أعلنه الرئيس السادات للموقف، لا يجب أن يتحول إلي عملية شكلية تنتهي بالبقاء عند حدود ٤ فبراير وأن التصحيح الحقيقي يقتضي الرجوع إلي حـدود ٢ فبراير. وإقترح هؤلاء أن تكون النقاط السبعة التـي أعلنهـا الرئيس السادات في خطابه برنامجاً تعود بمقتضاه كل القوى إلي مواقعها التي كانت فيها قبل هجمة ٣ فبراير، وبالـذات النقاط الأربع الأولي وهي: تحرير الأرض – مواصلة التنمية

الشاملة – استمرار التحول الاجتماعي لصالح قوى الشـعب العاملة – تعميق الممارسة الديمقراطية. وهو أمر لا يمكن أن يحدث مع إصرار اليمين علي عدم الانسحاب مـن المواقـع التي يشغلها الآن والتي كسبها بهجمة فبراير (شباط) ١٩٧٣.

ورد (هيكل) علي ذلك بأن العودة الحـدود ٢ فبرايـر (شباط) كالعودة لحدود ٥ يونيو (حزيران)، لا يمكن أن تـتم بحل سلمي، وبما أن الصحفيين الذين أعيدوا لم يعـودوا إلا بهذا الحل السلمي، فالأمل ضئيل في عودة حقيقية إلي خطوط ٣ فبراير، وإذن فعلي العائدين أن يبـدأوا مـن الأوضـاع الراهنة، وربما تساعد ظروف المستقبل في تحسين الموقف.

وبرغم قسوة التوصيف فقد كان حقيقيا بدرجة ما، أنـه علي الأقل يعكس إدراك أحد المطلعين علي حقائق الأمـور لطبيعة الموقف. وحين أصبحت العودة لحدود ٢ شباط هـي المشكلة، تدنت أهداف المثقفين اليساريين، فقد كانوا يطالبون في ٣ فبراير بحرية لاصحافة ورفع الرقابة عنهـا وإطـلاق الحريات النقابية وتفجير المجتمـع المصـري بديمقراطيـة. فأصبحت أهدافهم بعدها، مجرد العـودة لحـدود ٢ فبرايـر (شباط)، وحتي هذا كان عسيراً أن يصلوا إليه.



في هذا الجو صدر البيان العسكري الأول عن عمليـة العبور وشملت الجميع رجفة إهتمام بالغ بالعملية، التي كانت مفاجئة تماماً، وغير متوقعه علي الإطلاق، وقلبت التصورات التي كان الجميع قد رتبوا أوضاعهم معلي أساسها وفي ايـام الحرب الأولي عقل الذهول الجميع، ولم يفكر أحـد فـي أن يفعل شيئا، وسط قلق بالغ علي العمليات العسكرية، واكتفـي آخرون بنشر مجموعة من الكلمـات الحماسـية والقصـائد الغليظة علي صفحات الصحف عكست كلها المواقع الحقيقية للقوي الثقافية في مصر:

فقد سارع – اليمين للتدليل علي فطنته وذكائه – يؤكـد أنه كان يعرف منذ البداية أن الحرب ستنشب رغم انهزاميـة اليسار وهجومه علي السلطة، وببسـاطة، وكـأن الجميـع يرددون تلقيناً واحداً، أعلن اليمين أن الحـرب حربـه هـو وليست حرب أي تيار آخر، وأكد أن نشوبها خرق لليسـار وقضاء عليه، وحكم بإستسلاميته وجبنه. ونسي اليمين فـي هذا أن معركة اليسار مع السلطة، كانت بسبب إلحاحه فـي المطالبة بدخول الحرب أو تهيئة الأوضاع التي تساعد علـي ذلك.

في اليوم الرابع للقتال بدأ التفكير جدياً في عقد إجتمـاع للأدباء والفنانين ليناقشوا دورهم في المعركة. وكالعادة فـإن بعض فصائل من اليسار هي التي فكرت في ذلك، إذا كـان اليمين يفتقد لأي رغبة في دعوة آخرين للعمل، وهو يعتبـر المعركة معركته، تتم برؤاه وبتصوراته وهو ما جعله يشمر عن سواعده، لكي يقتطف لنفسه – منفرداً – ما يتـوهم أنـه ثمارها، ويحرم الآخرين من ذلك. ولأن أدباء مصر وكتابها بلا إتحاد يضم صفوفهم كما أن العدد المشترك مـنهم فـي جمعيات عدد ضئيل للغاية، فضلاً عن شكلية هذه الجمعيات، وإفقادها تماماً لأي إمكانيات مادية او عناصر بشرية نشطة، فإن هذا كله أدي إلي افقاد الدعوة إلي شكل شرعي أو قانوني تقوم به هيئة إعتبارية لها إحترامها. وانساب الـداعون إلـي المقاهي والبارات، يدعون الأدباء الجالسين علي مقهي ريش، الواحد منهم: مخطط مزفلط كثير الكلام. عـديم الممارسـة. عدو الزحام، إلي مؤتمر لمناقشة دور الأدباء في المعركة.

ولم يتصل الداعون (بيوسف السباعي) وزير الثقافـة أو يفكروا في الإنفاق معه علي عقد المؤتمر، وإكتفوا بأن طلبوا من (توفيق الحكيم) أن يخطره بموعد ومكان المؤتمر.. ولـم

يتأكدوا من إتمام الإتصال – رغم أن المكان الذي إختـاروه لعقد المؤتمر هو: (جمعية الأدباء) التـي يتـولي (يوسـف السباعي) منصب سكرتيرها العام.

وكانت النتيجة العملية لذلك أن (يوسف) أنكر تماماً في مكالمة بينه وبين (محمود أمين العالم) – الذي اتصـل بـه يسأله عن صحة الدعوة للمؤتمر – علمه بأي شئ وقـال أن علي (من يشاء) أن يفعل (ما يشاء) لكن جمعية الأدباء لـن تفتح أبوابها إلا لعمل شرعي يصدر عنه هو نفسه.

وقد نسب إليه فيما بعد أنه قال تعليقاً علي ما ذكر له من أن (توفيق الحكيم) سيتصل به: أن الكاتب الكبير لم يتصل به في شئ، وأن علي المغامرين أن يبعدوا عن توفيق، ويكفـي أنهم كادوا يقودونه إلي (داهية). وكان (السباعي). يشير بذلك إلي بيان (توفيق الحكيم) الشهير الذي كان أحد أسباب فصل الكتاب والصحفيين.

وقد اعتذر (توفيق الحكيم) بعد ذلك بأن مرضـه حـال بينه وبين الاتصال بالسباعي وإبلاغه بالدعوة.

وعندما ذهب (من يشاء) ليفعل (ما يشاء) وجـد مبنـي (جمعية الأدباء مغلقة بالسلاسل، وتعليمات محددة للحـارس

بعدم السماح لأحد بالدخول. ووقف أدباء مصـر يفاوضـون البواب الذي سمح لهم أخيراً بالـدخول، علـي أن يجتمعـوا بكامل الوقار، وينصرفوا بمنتهي الأدب!.

وسرعان ما أكتشف المجتمعون عدم جدوى ما فعلـوا، فالبرنامج المقترح لنشاط الأدباء والفنانين في الحرب، كـان في معظمة برنامج تعبوي، يقـوم علـي إصـدار صـحف وملصقات فنيه، والسفر إلي القري لإلقاء القصائد، وزيـارة الجرحي، وزيارة جبهة القتال، وتخصيص بـرامج إذاعيـة للتعبئة والحشد، وكل هذا لا يمكن تنفيذه دون إمكانيات الدولة ودون صلة بأجهزتها الرسمية، إذ أن خطوط القتال، خطوط عسكرية، لا يباح المرور بينه، لكل من هب ودب، لمجـرد أنه أديب. هكذا اكتشـف الأدبـاء أن حضـور (السـباعي) للاجتماع مهم، وأن شعار الاجتماع للاجتماع، لا فائدة منـه، فاجتمعوا ليبدءوا من الصفر، وشكلوا وفداً، ليقابـل يوسـف السباعي ويتفق معه علي موعد جديد لعقد المؤتمر.

وبسبب الظلال الكثيفة التي كانت سابقة علـي الحـرب فإن العلاقات بين (يوسف السباعي) وبين مجموع المثقفـين المصريين اليساريين كانت قد تدهورت بشكل مرعب، فمـن

ناحية كان (يوسف السباعي) – بحكـم سـكرتيرتيه العامـه لجمعية الأدباء واتحاد كتاب آسيا وأفريقيا والمجلس الأعلـي لرعاية الفنون والأداب ورئاسته لمجلس إدارة مؤسسـة دار الهلال الصحفية – قد تورط في المشاركة في حملة الهجـوم علي الصحفيين والكتاب الذين هجمت عليهم لجنـة النظـام هجمتها اليمينية الشرسة. ثم تورط بعد ذلك في الدفاع عـن هذه الإجراءات وتبريرها، ووقف بضرواة ضد أي محاولـة إحتجاج علي عمليات الاضطهاد التي جرت بحقهم أو علـي الأقل التوصية بإعادتهم، عن مؤتمر الأدباء بتونس – وكـان يرأس الوفد المصري فيه – وعن اجتمـاع المكتـب الـدائم لإتحاد كتاب آسيا وأفريقيا الذي عقد في موسكو، الأمر الذي كان رد فعله الطبيعي مزيد من الهجوم عليـه فـي أوسـاط اليساريين، وهو ما استغلته بطانة من اليمين الجهول تحـيط (بيوسف السباعي) دفعته إلي مزيد من التورط في الهجوم – دفاعاً عن نفسه – لتستفيد هذه البطانة من مناصبة المتعـددة في الحصول علي مكاسب لا تتيحها لهـا مواهبهـا الأدبيـة المتدنية.

وكان منطقياً أن يرفض (يوسف السباعي) مقابلة الوفـد الذي كلف بالإتفاق معه وكان منطقة، هو ذاته منطق الجوقة التي تحيط به، فالحرب هي حربنا نحن، وليست حربكم أنـتم أيها الصائبون، والنظام نظامنا لا نظامكم، وقد كنتم تهاجمونه منذ شهور، وتدعون أنه لن يحارب، فلمـاذا تطلبـون الآن مشاركته في ثمار الحرب التي أقسمتهم أنه لن يقيم لها قائمة.

ويبدو أن (السباعي) لم يستطع أن يقاوم طويلاً الإلحاح العام علي ضرورة أن ينشط الأدباء والكتاب في المعركـة، فسارع يدعو إلي عقد اجتماع لمجلس إدارة جمعية الأدبـاء واستصدار منه قرارات وتوصيات تحدد دور الأدبـاء فـي المعركة. ثم أعلن في الصحف عن دعـوة عامـة للأدبـاء والفنانين لمناقشة دورهم في المعركة. مؤكداً أشعار (حـرب اليمين وحده).

الشعاع اليتيم:

في الساعة السابعة من مساء ١٥ أكتوبر – وبعد عشرة أيام كاملة من بدء المعركة – عقد المؤتمر المنتظر، وكـان واضحا من اللحظة الأولي أنه مليئ بعوامـل الإحبـاط وأن نجاحه يتوقف علي خروج الأدباء والفنانين من قواقع وثياب

المثقف الحزيراني ليتطهر كل منهم بالرغبة في العمل ولـو في أدني مستوياته، فينتفي اغترابه بفهـم الواقـع ومحاولـة التأثير فيه حيث هو واقع وكائن، وأن يدرك كل طرف قوته الحقيقية وقوة الآخر، ونقاط الاتفاق التي يمكن أن تقود إلـي أرضية مشتركة تمكن المثقفين من آداء أي دور ممكن، وكان نجاحه أيضاً رهيناً بوعي اليسار – بكل هذا – ووعيه أيضا بأن العمل المشترك ليس نفياً للعمل المستقل، أذا أراده أو قدر عليه.

بدأ (يوسف السباعي) المـؤتمر بأنـه يريـد اجتماعـاً (منضبطاً) وهو تعبير عسكري يعنـي الالتـزام بالنظـام – وأشار إلي ظروف الحرب التي يعيشها الوطن، والتي تتطلب وحدة وطنية قوية لا تقبل بالمغامرة السياسة، أو الشغب. ثـم قرأ بعد ذلك قرارات جمعية الأدباء والتي تتضـمن تنظـيم رحلات للأدباء والفنانين أفلام فيها، وإصدار مجلة أسبوعية للأدب وثقافة الحرب، وتنظيم زيارات لجبهة القتـال عنـدما تسمح الظروف بذلك، وتنظيم زيارات الجرحـي الحـرب، وتنظيم التبرع بنسخ من مؤلفات الكتاب والأدبـاء للنـاقهين منهم.

ولم يكن هناك اختلاف حول هـذه الخطـط كأسـلوب للعمل. وإن كان آخرون يطمحون إلي تشكيل كتيبة مقاتلة من الأدباء والفنانين تحمل السلاح، ولكن هذا الطموح لـم يلـق حماساً، ذلك أن مشاركة الشعب في الحرب بحمل السلاح لم تكن واردة لدي أي مستوى من مستويات الحكم في مصـر من ناحية، ولأن طبيعة الأدباء والكتاب المصـريين تفضـل الكلام والكتابة والثرثرة علي حمل السلاح.

النقطة المحورية التي جري بشأنها الخلاف كانت: مـن ينظم هذا كله؟ أي باختصار: من يقود من؟، فـي قـرارات جمعية الأدباء نص علي أن تشكل (أمانة عامة) مقيمة مـن مجلس إدارة الجمعية، تتولي تنظيم إسهام الأدباء والفنانين في الأنشطة التي حددتها مقررات الجمعية، وينوب عنهـا أحـد الموظفين الإداريين في تسلم مقترحات الأدباء ومشـروعاتهم للعمل، علي أن يكون مقر جمعية الأدباء مفتوحا يومياً للقـاء الأدباء وللنقاش حول نشاطهم.

وعندما فتح (يوسف السباعي) باب الحوار حول هـذه المقررات، تقدمت مجموعه من الاقتراحات:

* إقترح قدمه (محمود أمين العالم) بأن يصـدر عـن المؤتمر بيان سياسي يتضـمن تحيـة (الـرئيس السـادات) (والرئيس الأسد) وتحيـة الجيشـين المصـري والسـوري والدعوة لاستمرار القتال في كل الظـروف، حتـي تتحقـق المطالب الوطنية للشعوب العربية، وتحية الصداقة المصرية السوفيتية، ومساندة الشعوب والحكومات العربيـة للحـرب، والعمل بإلحاح علي تهيئة أوضاع الجبهة الداخليـة الحـرب طويلة وشرسة مع العدو، وشجب موقف الولايات المتحـدة العدواني.

* اقتراح آخر من (محمود أيمن العالم)، أيضاً بتوجيـه رسالة إلي كتاب وأدباء العـالم يوضـح موقـف المثقفـين المصريين من قضية العدوان بإعتبار أن معركـة الشـعوب العربية هي جزء من حركى التحرر الوطني العالمية الهادفة إلي تحرير الشعوب العربية وقهر الصهيونية التي تمثل نازية جديدة.

* إقترح آخر من القصاص (محمد صدقي) باسـتخدام إمكانيات الثقافة الجماهيرية في تحرك الأدباء والفنانين وسط

القري وبين صفوف الفلاحين وخاصة في القري المجـاورة لجبهة القتال.

ووافق المجتمعون علي الإقتراحـات الثلاثـة وأعلـن (يوسف السباعي) أنه سيحيل مشـروع البيـانين المـرفقين بالإقتراحين المقدمين من (محمود أمين العالم) لتعيد الأمانـة العامة صياغتهما مع مقدم المشروعين، وهـو إعـلان بـدا غريباً، لأن أحداً من الحاضرين لم يعترض علي شـئ ممـا ورد بمشروع البيانين مما أكد أن لدي الوزير تحفظات علي ما ورد بهما.

وحتي ذلك الوقت. فإن المشكلة التـي كانـت تطـوف بالرؤوس هي مشكلة الأمانه العامة، فجمعيـة الأدبـاء – أو مجلس إدارتها بالتحديد! ينتمي لتيار واحد ومدرسة واحدة من تيارات ومدارس الأدب والفن، وفيما بعد قال أحد شعراء من الناحية الفنية ولا يستلطفون كثيراً الحديث عـن العمـال أو الفلاحين من الناحية السياسية، وترك أمر إختيار ما ينشر في المجلة الأسبوعية، أو يلقي في النـدوات والتجمعـات مـن أشعار، له تكرر المهزلة التي كان يمثلهـا الكاتـب الكبيـر الراحل (عباس العقاد) الذي كان يرأس لجنة الشعر بالمجلس

الأعلي للفنون والأداب، ويحيل قصائد الشعر الحديث بتأشيرة منه إلي لجنة النثر.

وبينما يفكر البعض في طرح تعديل لترطيـب الأمانـة العامة حدث تصرف أحدث توتراً حاداً في الاجتماع فقد طلب المخرج المسرحي (محمد عبد العزيز) الكلمه وهاجم (يوسف السباعي) هجوما عنيفا وقال إن المشروع المطـروح بـين وقراطي، وأن المطلوب عمل ثوري يتيح العمل لكل الفنانين، وذكر أنه ومجموعة من المخرجين المسرحيين متعطلين عن العمل منذ سنوات طويله، وأنه قابل (يوسف السباعي) فـي نفس الصباح لحل المشكلة، ولكن الـوزير عاملـة بفظاظـة وطرده من مكتبه.

وقد علق (السباعي) علي ذلك بأن مشكلة (محمد عبـد العزيز) مشكلة معقدة وأن المؤتمر عقد لمناقشة دور الأدبـاء والفنانين في المعركة وليس لحل المشاكل الشخصية.

وقام الشاعر (أحمد فؤاد نجم) ليتكلم والتوتر الذي أحدثه هجوم (محمد عبد العزيز) يسود الجو، فأيد الجزء الأول من كلام عبد العزيز مـن أن المشـروع المطـروح ذو طـابع بيروقراطي، وطالب بتشكيل الأمانة العامة بالإنتخـاب وأن

ينتخب الحاضرون من بينهم أمانة عامة بالإنتخاب السـري المباشر!.

وكما توقع البعض استفزت كلمة نجم (يوسف السباعي) إستفزازاً شديداً وقد وصفها هؤلاء بأنها جاءت تجاهلاً تامـاً لخطوط الحدود بين القوى الثقافية في مصر، وحجم اليمـين ومواقعه، ودعوة له لكي يتخلي عن القيادة، بينما هو في قمة تصوره بأنه هو الذي عبر بثقافته وبمساندته فكرياً للسـلطة، وجاءت كلمة نجم أيضاً لتعكس مبالغة في تصور جماهيريـة اليسار.

وهكذا رفض (السباعي) الفكرة بعنف وأعلن أن لـيس لديه إلا المقررات التي صدرت عن جمعيـة الأدبـاء وأنـه سوف يعرضها للتصويت، وحين فعل فازت بأصوات اليمين فقط. وأعلن اليسار أنه يوافق عليها مـع بعـض التعـديل. والتزام الوسط الحياد وكان هو القوة الغالبة فـي المـؤتمر. وإزاء بعض التعليقات الغاضبة قال (يوسف السـباعي) أنـه أخطأ إذا دعي للمؤتمر وأنه كان يتوقع هذه النتيجة وأعلـن فض الإجتماع، وجمع أوراقه وغادر إلـي حجرتـة بمبنـي جمعية الأدباء.

ساد الإنفعال جو الإجتماع وتحول بعد نهاية المؤسـفة إلي مجموعة من الإنهيارات النفسية والتـوترات التشـنجية، وكشف المثقف الحزيراني عن طبيعتـه العصـابية فوقـف كثيرون يتحدثون في إنهيار بالغ عـن لهـو الأدبـاء بينمـا الشهداء يسقطون كل لحظة. وزاد الطين بلة أن تسـلل إلـي مقر الإجتماع مشعوذ ينتمي إلي أحد الطرق الصوفيه تحدث مطالباً المجتمعين بتنظيم نشاط المريدين في حلقـات الـذكر لدعم المجهود الحربي – ووزع كتيباً يتضمن أوراداً وأذكاراً كفيلة بتحقيق النصر بإذن ا ، وببركـة سـيدي الرفـاعي، وطالب الأدباء بتأليف مثلها.

وتزعم بعض أدباء الشباب الدعوة لأن يستر المـؤتمر بصرف النظر عن وجود (السباعي) أو عدم وجوده، وحتـي هذه اللحظه فإن أحداً لا يعلم ماذا كانوا يقصدون بالإستمرار فيه، وهم يعلمون أن إمكانياتهم الذاتيه الضـئيلة والمحـدودة خاصة أنهم سبق لهم عقد المؤتمر السابق، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً وأجلوه حتي يحضره السباعي.

ورأي (محمود أمين العالم) و (يوسف أدريس) و (سهير القلماوى) أن هناك ضرورة لإقناع (يوسف السباعي) بالعودة

إلي رئاسة الإجتماع لمحاولة الوصول إلي تصور مشـترك يضمن وحدة الأدباء والفنانين ويضمن إسهاماً إيجابياً لهم في المعركة فغادروا القاعة للاجتماع في مكتبه والتفـاهم علـي برنامج حد أدني للقاء.

وتحول الجو في القاعة إلي معركة حربية مـن النـوع البذئ.. فأمام إصرار بعض أدباء الشباب ودعوتهم المتشنجه إلي البقاء في القاعه ولتفعل بنا القوة مـا تشـاء وإنشـادهم (بلادي... بلادي) لسيد درويش، ثار (بعد العزيز الدسـوقي) – وهو نائب يوسف السباعي في سكرتارية جمعية الأدبـاء وفي رئاسة تحرير مجلة (الثقافة) – وأعلن بأن المبني ملـك الجمعية الأدباء، وأن علـي الجميـع أن ينصـرفوا فـوراً، وعارضه البعض قائلين بأن حق الكلام للأدباء فقط. وإعتبر الدسوقي ذلك تعريضاً بمستواه الأدبي والفني. فرد عليهم بأنه أديب أباً عن جد. وإستخدم عضلاته القوية- في جسده وفـي لسانه- في الرد عليهم، فأنكر أنهم أدباء أو يعرفون الكتابـة، وردوا عليه بقولهم أنه أحد حملة حقائب (يوسف السـباعي)، وأنه لولا هذا لما صح- ولا في الأحلام – أن يكـون مثلـه نائباً لرئيس تحرير المجلة الثقافية الشـهرية الوحيـدة فـي

مصر، ووقف (عبد العزيز الدسوقي) يعيرهم بـأنهم خونـه وعملاء لمراكز القوي، وأنهم (كتاب عرائض) لا أكثـر ولا أقل ولا شأن لهم بالمعركة ولا بالحرب، فهـم منـذ ثمـانين أشهر يهاجمون رئـيس الجمهوريـة، ويشـهرون بـالجيش المصري، ويطالبون بالصلح مع أسرائيل، وأن أدبهم الأسود هو أدب كتابه العرائض، وجمع التوقيعات، من المقاهي علي مطالبات سياسة. وحدث إشتباك بالأيدي بينه وبين بعضـهم وارتفعت المقاعد وكثرت الانهيارات النفسـية والتشـنجات العصبية.

وأصبح المؤتمر، قاعة في مستشفي للأمراض العقليـة، وحاول البعض أن يناقش (عبد العزيز الدسوقي) بهدوء داعياً إلي إستمرار الإجتماع لمحاولة الوصول إلي تصور مشترك، يجمع بين كل وجهات النظر. فرفض وقال أن مـا يجـري مؤامرة. وبمجهود شديد اقتنع بأن يستمر الاجتماع. وقبل ان يرأس الاجتماع بنفسه ليطمئن أن لا مؤامرة هنـاك، علـي أساس أن يعبر المجتمعون عن آرائهم، لترفع إلـي يوسـف السباعي، بإعتبارها توصيات غير ملزمه، ووافقـت أغلبيـة المجتمعين علي هذا الحل علي أساس أن المطلوب هو عمل

مشترك يحفظ وحدة المثقفين – من كل الاتجاهات والتيارات – ضد الاستعمار والإمبرايالية.

علي أن رئاسة الدسوقي للإجتماع لم تسـتمر إلا فتـرة قصيرة إذا عاد (محمود أمين العالم) و (يوسف إدريـس) و (سهير القلماوي) من الداخل وتولت الأخيرة رئاسة الجتماع، فعبرت عن استنكارها لما حدث، وقالت أن المقررات المعلقة هي مقررات جمعية الأدباء، وأن علي من يوافـق عليهـا أ، يعمل في أطارها وعلي من يرفضها أن يتفضل إلي جمعيتـه إن كانت له جمعية أو أن يعود إلي مقهاه.

وتكلم (محمود أمين العالم) فقال أن العمال هو مقيـاس الإخلاص للأهداف المشتركة وأن جمعيـة الأدبـاء سـتفتح أبوابها علي أساس برنامجها الذي أعلنته، ودعـي الأدبـاء الوطنيين الراغبين في مشاركتها جهدها لـدعم الحـرب أن يتواجدوا في مقر الجمعية، وأن يجعلـوا بـذل الجهـد هـو الأساس.. وأشار إلي أن هناك معركة وطنية محتدمه – كان هذا يوم ١٥ أكتوبر وفي اليوم العاشر للقتال – تتطلب تناسي الخلافات والأحقاد، وهو ما لن يتم بمناقشات تفـح الجـروح

القديمة. ولكن بعمل مشـترك كفيـل بالتغلـب علـي كـل التناقضات الثانوية.

ونبه (يوسف إدريس) فـي كلمتـه إلـي أن المعركـة المتفجرة بين الأدباء لا تعبر عن تناقضات عامـه. فمـع أن الأدباء المصريين مختلفون في مدارسهم الفنية وفي إنتماءاتهم الفكرية وفي مواقعهم السياسية وفي أجيالهم المتتالية، فإن ما ظهر في الإجتماع لا يعبر بالضرورة عن هذه التناقضـات الرقيمة، ولكنه يعبر عن تناقضات أخـري متدنيـة ومنهـا المنافسات في العمل، والأحقاد الشخصية، والمصالح الدنيوية القصيرة النظر.

واتفق الثلاثة علي أن المعركة الوطنية المحتدمـة الآن تتم بقيادة الرئيس السادات ومعاونية التنفيذيين ومنهم (يوسف السباعي) وأن هذه القيادة مقبولة لديهم. وفي ختـام كلمتـه إقترح (يوسف أدريس) أن يوجه المـؤتمرون دعـوة إلـي (يوسف السباعي) للعودة إلي رئاسة المؤتمر، فوافقوا علـي ذلك.

بعودة (يوسف السباعي) إلي رئاسة الاجتماع بدأ الجـو أكثر تفاؤلا بالنجاح وبدا (السباعي) أكثر ميلاً للتفاهم، فمـع

أنه قد أصر علي أنه لا يقبل أي تعديل في المقررات التـي أعلنها، إلا أنه قبل أن ينظر، في توصية غير ملزمـة بـأن يوسع الأمانة العامة بضم عضوين أو أكثر لضـمان تمثيـل التيارات الأدبية، وإقترح (عبد العزيز الدسـوقي) عليـه – هامساً – ضم (يوسف إدريس) و (محمـود العـالم) ولكـن العالم- الذي كان يجلس بجوار السباعي مباشـرة – طلـب ترك الأمر للسباعي يدبره كما يريد.

وأشار (أحمد عبد المعطي حجـازي) ألـي التعـاون المشترك بين الجميع، وقال للسباعي: أننا نسينا كل ما نالنـا منك شخصياً من متاعب وإسـاءات، وأن عليـك أيضـاً أن تنسي، ورد (السباعي) بأنه دعي (حجازي) للتعـاون معـه مراراً، ولكنه هو الذي يرفض وأنه يوافق أن ينسي الجميـع كل ما فات. وبدا واضحاً أن الأمانة العامة ستوسـع بضـم العالم وحجازي ويوسف إدريس إليها.

قبلات الود كانت ما تزال ساخنة حين عـدل (يوسـف السباعي) عن كل وعودة، فقد تقلصت الأمانة العامة لتصبح عبد العزيز الدسوقي وحده، الذي رفض في مساء نفس اليوم أن يضمن البيان السياسي أي نقاط برنامجيـة كانـت فيـه،

وحذف منه كل البنود عدا تحيات الأدباء للرؤساء وللجيوش، ورفض أن يتضمن أي عبارة شكر أو تقدير أو حتي تحيـة للاتحاد السوفيتي، واستبدل كلمة الولايات المتحدة الأميريكية بكلمة الاستعمار دون تحديد لهويته، وهي تعـديلات لحقـت أيضاً الرسالة التي وجهها الأدباء إلي نظـرائهم فـي بـلاد العالم.

من ناحية أخري فإن الأدباء الشـبان رفضـوا العمـل المشترك، وأعلنوا في نهاية الإجتماع أنهم لن يعملـوا مـن خلال (جمعية الأدباء) وكان إعلانهم هذا يعني أنهم لن يعملوا علي الأطلاق، إذ ليست لديهم أي إمكانيات مادية للعمل، وهم لا يحصلون علي أي إعانة من وزارة الثقافة، بل إن العـدد المنظم منهم في جمعيات لا يتجاوز خمسين أو أقـل، وهـي جمعيات فقيرة تدفع إيجار الغرف التي تؤجرها كمقـر لهـا بصعوبة شديدة.

وقد رفضوا بعصبية شديدة، أي محاولة لإقناعهم بـأن العمل المشترك يتم دائما علي أساس الحد الأدنـي وأنـه لا يمنعهم من العمل المستقل لو أرادوه أو قـدروا عليـه، وأن الممارسة العملية هي التي ستكشف أمام الجميـع مـن هـم

المخلصين حقيقة القضية تحرير الوطن ولدور الثقافة الجـاد في ذلك، وأنهم أكثر وعياً من فصائل اليمين وأكثـر نشـاطاً بجهد صبور أن يقنعوهم بفائدة العمل المشترك وجدواه، وأن هناك مشاكل متعددة يمكن حلها عـن طريـق هـذا العمـل المشترك، علي رأسها ما أعلنه (السباعي) من موافقته علـي إقتراح قدم إليه بأن يبذل نفوذه لإلغاء القوائم السوداء التـي تضم أسماء بعض الأدبار والكتاب الممنوعين من التعامل مع الإذاعة والتليفزيون والصحف، أو من أحدها لإتاحة الفرصة لكل الاتجاهات للتعبير عن نفسها ولتدعيم مرافـق الإعـلام بكفاءات حقيقية، وما أعلنة عن إصدار مجلة أسبوعية لثقافة المعركة.. الخ.

وقاد تمرد اليسار الرومانتيكي إلي ما كـان طبيعيـاً أن يحدث، عادوا إلي المقاهي يثرثرون بالحرب الشعبية، وثقافة المعركة وغلبتهم طبيعـتهم الحريرانيـة، طبيعـة المثقـف المنتكس، فقادوا حملة تشهير ضد أنفسهم وتركوا كل شـئ لليمين، فأصدر نشرة رديئة وشديدة التخلف آسمها (التحرير) ملأها بكلام لا معني له ولأ سماء نصفها لا علاقة له بالأدب ولا بالفن..

إن هو إلا شعاع واحد من يوم واحد من تشرين: عرى كل شئ، طفيلية اليمين وضـراوته وسـيطرته، وإغتـراب اليسار الطفولي وحرصه علي أن يحقق إمـا (كـل) أو (لا شئ).

والمعجزات......
لا تتكرر

(بدت نكسة ١٩٦٧ ضربة قدرية، غير مفهومة وغير مبررة.. لا يتم تجاوزها إلا بمعجزة قدرية أخري...). •

كان نشاط الصحفيين المصريين أبان حرب أكتوبر هو نقطة الضوء الوحيدة في حركة المثقفين المصريين. وبقدر ما كشفت عنه الحرب من تعرية كاملة لمجتمع المثقفين المصريين وعجز كل فصائلهم عن العمل المنفرد أو المشترك وسط سيطرة اليمين الجهول وتردد الوسط وصمته، وإغتراب اليسار وطفولته، فإنها قد كشفت وبنفس القدر عن مأساة سيطرة الخزافة علي العقل المصري والحرية المصرية دون معترض أو محتج. وفي كلا الأمرين – وبرغم تحفظات

• مراجعة تتناول الخريطة الفكرية لحرب أكتوبر ١٩٧٣، كتبت في ديسمبر ١٩٧٣، ونشرت في مجلة الثقافة العراقية – في فبراير ١٩٧٤.

عديدة – كانت الصحافة المصرية والصـحفيين المصـريون نقاط ضوء قليلة ووحيدة.

ومع اللحظات الأولي للقتال كانت نقابة الصحفيين أولي المراكز المستنيرة التي تحركـت بحيويـة وفاعليـة وسـط جماهيرها للعمل وكانت النقابة مـا تـزال تعـيش شـعوراً بالانتصار لم يمض عليه أسبوع، عقب صدور قرار الرئيس السادات بعودة الصحفيين المفصولين والـذي كـان تتويجـاً لنضال مجلس النقابة الجديد الذي انتخب علي أساس برنامج يلتزم نقابياً بقضية إعادة كل الكتاب الـذين هجمـت علـيهم زعانف اليمين في لجنة النظام السابقة بالإتحـاد الإشـتراكي العربي. وكانت نقابة الصحفيين هي أسرع المنظمات الثافية حركة فمنذ اليوم الأول للحرب بدأت اجتماع عام للصحفيين ليتدارسوا فيه الدور الذي يجب عليهم أداؤه وتمهداً للمـؤتمر أصدر مجلس النقابة نشرة يومية بعنـوان (الصـحافة فـي المعركة) بدأت بالفعل في الصدور يوم ١٠ أكتوبر – تشرين – في أربع صفحات من قطع – التابلويد-.

وعقد المؤتمر المنتظر يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٣ ورأسـه (عبد المنعم الصاوي) نقيب الصحفيين وحضـره (إبـراهيم

شكري) أمين المهنيين بالاتحاد الاشتراكي العربي، والدكتور (رفعت المحجوب) أمين الدعوة والفكر بالاتحاد، و(علـوي حافظ) عضو مجلس الشعب، و (محمد أحمد) الوزير بمجلس إتحاد الجمهوريات. وصدر عن الإجتماع بيان سياسي مـن أهم البيانات التي صدرت خلال الحرب، وأكثرهـا تبلـوراً وتحديداً. إن لم يكن البيان الوحيد الذي يعكس وجهـة نظـر مشتركة للقوى الوطنية والتقدمية في مصر وسط ركام مـن بيانات الهيئات الأخري تفتقد لأي رؤية سياسة لها معني.

وقد تضمن البيان في بنوده الأولي تأييداً وتحية للرئيس (السادات) الذي اتخذ قرار الحرب. وتحية وتقديراً للـرئيس (الأسد) وللجيشين المصري والسوري وقيادتهما.. والتقـدير الكامل لكل الجهود العربية التي تشارك في المعـارك سـنداً لمصر وسوريا (واثقين من أن هذه المشاركة سوف تتصاعد إلي ذات المستوي الذي يتطلبة المصير العربـي المشـترك) كما تضمن قراراً يشكر كل الأصدقاء الذين وقفوا إلي جانب الحق العربي، وقدموا السند الذي يمكن من تأكيد هذا الحـق وحمايته وصونه وخاصة الاتحاد السوفيتي والدول الصـديقة

علي امتداد العالم الثالث وقوى السلام والتقدم والاستنارة في أوربا وفي كل مكان.

وحدد البيان جوهر المعركة في انهاء معركة (ضد قوى الإمبريالية الأمريكية التي تساعد إسرائيل والتـي حرضـتها ومولت عدوانها المتكرر وصنعت منها

آداة لضرب حركة التحرر الوطني في العالم العربي).

وانطلاقا من كل ذلك رصد الصـحفيون فـي بيـانهم مجموعة من المطالب هي:

* تأكيد وحدة كل القوى الوطنية تجاه الهـدف الواحـد والممثل في جبهة القتال حشداً لكل الطاقـات وإدراكـا لأن الهدف الراهن للمرحلة هو تحرير الأرض المحتله وهو هدف ينبغي أن يعلو علي أية تناقضات أخري وأن يتأكد للمواطنين جميعاً أن مصر لن تفض اشتباكها مع العدو طالما أن له قدماً في الأرض العربية وهذا يعني أن نعد الجمـاهير لمعركـة

طويلة وشرسة يمكن أن تمتد إلي كـل مكـان مـن أرض وطننا[1]

* إن روح الإلتزام والإنضباط التـي سـادت الشـعب المصري منذ بدء القتال وحتي الآن ينبغي تعمقيها حتي تذوي في الجماهير مشاكلها الصغيرة وذلك أن كثيراً من مشـاكل الحرب سوف تجد حلولاً من المشاركة المسؤولة والمطلبـوة من جانب الجماهير، عندما تصبح عوناً للسلطة وللأجهـزة التنفيذية سواء فيما يتعلق بأعمال الدفاع المدني والإصـلاح السريع لأي دمار يمكن أن يلحق في مرافقنا. وكذلك ضـبط الاستهلاك ومراعاة سلوك الحرب في كل المستويات.

* إن تسليح الجماهير في المناطق المتاخمة والمواجهة لمواقع القتال وفي المناطق ذات الطبيعة الاستراتيجية أو التي تضم أهدافاً حيوية – كمرحلة أولـي – فـوق أنـه يشـكل احتياطياً فعالاً لقواتنا المسلحة، فإنه يسهم في ضرب وإفشال

---

[1] بعكس هذا المطلب فيما هو واضح من نصه مخاوف تـرتبط بالماضي القريب، أو بحرب ١٩٦٧، وهي مخاوف أثبتت صحتها فيما بعد..

محالاوت الإسرائيليين التي لا شك سيقومون بها في العمـق المصري انتقاما لعمليات رادعه في جبهة سيناء.

* إن علي الشعوب العربية وخاصة في الدول المصدرة للبترول أن توجه علي الفور ضرباتها للمصالح الأمريكيـة، ان علي الأمريكيين أن يعرفوا أن أساطيلهم العسكرية التـي تهدد حرية الوطن العربي وطائراتهم التي تنقل المؤونة إلـي إسرائيل تتحرك بالبترول العربي. إن عليهـا أن يعرفـوا أن دولة الرفاهية التي أقاموها إنما كانت حصيلة النزح المستمر للثروة والطاقة البترولية العربية.

*إن الصحفيين المصريين يطالبون كل السكان العـرب في الأرض المحتلة بأن يعلنوا علي الفور العصيان المـدني علي سلطات الاحتلال، ويطالبون العمال الفلسطيين بالامتناع الفوري عن العمل في منشآت العدو، ويطـالبون المقاومـة الفلسطينية المسلحة بالانطلاق للعمل وراء خطـوط العـدو لقطع خطوط إمداداته.

وطالب البيان بعد ذلك كله الأصدقاء في العالم كله (أن يزدوا من دعمهم المادي والسياسي لمصر وسوريا والـبلاد العربية المشتركة في القتال). وطالب الدول الإفريقية (بقطع

علاقاتها بإسرائيل) وأن تتأكد كل قوى الاستنارة والتقدم فـي أوربا الغربية (بأن معركتنا هي معركة تحرير ودفـاع عـن الإنسان العربي وأن إنتصارنا في هذه المعركة هو الأسـاس الحقيقي لإقامة جسور الثقة والتفاهم والمصالح المشتركة بين أوربا الغربية والعالم العربي).

وأنهي الصحفيون البيان بالتزام بأن يقف (القلم والعلـم جنوداً في معركة التحرير التي لن تكـون مجـرد تحريـر لأرض مصرية أو عربية جري إحتلالها في إنتصار إسرائيل خاطف، وإنما ستكون إحدي علامات التفوق البشرى وتحرير الإنسان).

وبعد مناقشة طويلة حول ضرورة مشاركة الصـحفيين في المعركة الدائرة تقرر إنشاء غرفة عمليات في مبني نقابة الصحفيين تعمل علي تنسيق جهودهم وحشدها في المعركة.

وبرغم إستنارة البيان وفاعلية المرحلة الأولي من نشاط الصحفيين إلا أن الوقف المفاجئ لاطلاق النار، قد ألقي بظله علي غرفة العمليات التي انشأتها النقابة، والتي تضمنت خطأ رئيسياً – كفكرة- من البداية، إذا لم تشكل جماعات فرعيـة لها أو لجان فنية تنظم المبادرات التي تصدر عـن القاعـدة

الصحفية العريضة وظلت الغرفة منظمه قيادية معزولـة – تضم عددا من العناصر النشطة، لكن إسهام المثقفين عمومـا في الحرب لم يكن مطلوباً أن يكون قاصرا علي نخبة ممتازه أو نشطة، بل أن يتعدد ويمتد إلي القاعدة الجماهيرية ذلك أن الحرب ليست في حاجة إلي كل الناس، فحسب ولكن النـاس أيضاً – وخاصة المثقفين – في حاجة أيضـاً إلـي الحـرب ليتطهروا بها ويندمج كلاً منهم في ممارستهم ويتوحدون من ذلك الإنقسام المرغب بين الـوعي والفعـل وبـين الكلمـة والبندقية.

وقد عكست (المعركة) – النشرة اليومية التي أصدرتها نقابه الصحفيين – أكثر الـرؤى إسـتنارة فـي الصـحافة المصرية علي وجه العموم وكانت تقدم تحليلاً سياسياً يوميـاً للأوضاع العسكرية والسياسية في كل جبهات الحرب المحلية والعربية والدولية وجمعت حولها، وصيت فيها كل التيارات الوطنية والتقدمية وأخذت فرصة التعبير عن نفسـها وعـن تصورها لقضايا الحرب والسـلام. ولكـن هـدوء الجبهـة العسكرية قد انعكس علي صفحات الأعداد الأخيـرة منهـا فتوراً وهدوءاً وفقد الذين كانوا يصدرونها حماسهم لها، ثم ما

لبث موعد صدورها أن أصبح إسبوعياً... ثم ماتت فجأة كما ولدت فجأة.

العقل في محنة:

وما لبثت التيارات المستنيرة التي عكست تنفسها علـي صفحات (المعركة أن انتقلت لتمارس نفـس الـدور علـي صفحات الصحف اليومية ولكنها فعلت ذلك علـي إسـتحياء ووسط ركام من الأفكار المتخلفة والمحنطة. وكان أهـم مـا أنجزته هذه التيارات المستنيرة هـو دفاعهـا عـن العقـل وتصديها لتيار من الخرافة المتقنعة بالدين والمعادية لجوهره والجاهلة – أو العازفة عن فهم – التراث العقلانـي البـاهر للإسلام، والتي كانت بعيدة كل البعد عن أي فهـم مسـتنير لجوهر أي رسالة دينية، فضلاً عن تأجيجها المستمر لنيران الفتنة الطائفية، في غفلة عما يمكن أن تحدثه من آثار خطيرة علي حرية الوطن ومستقبله.

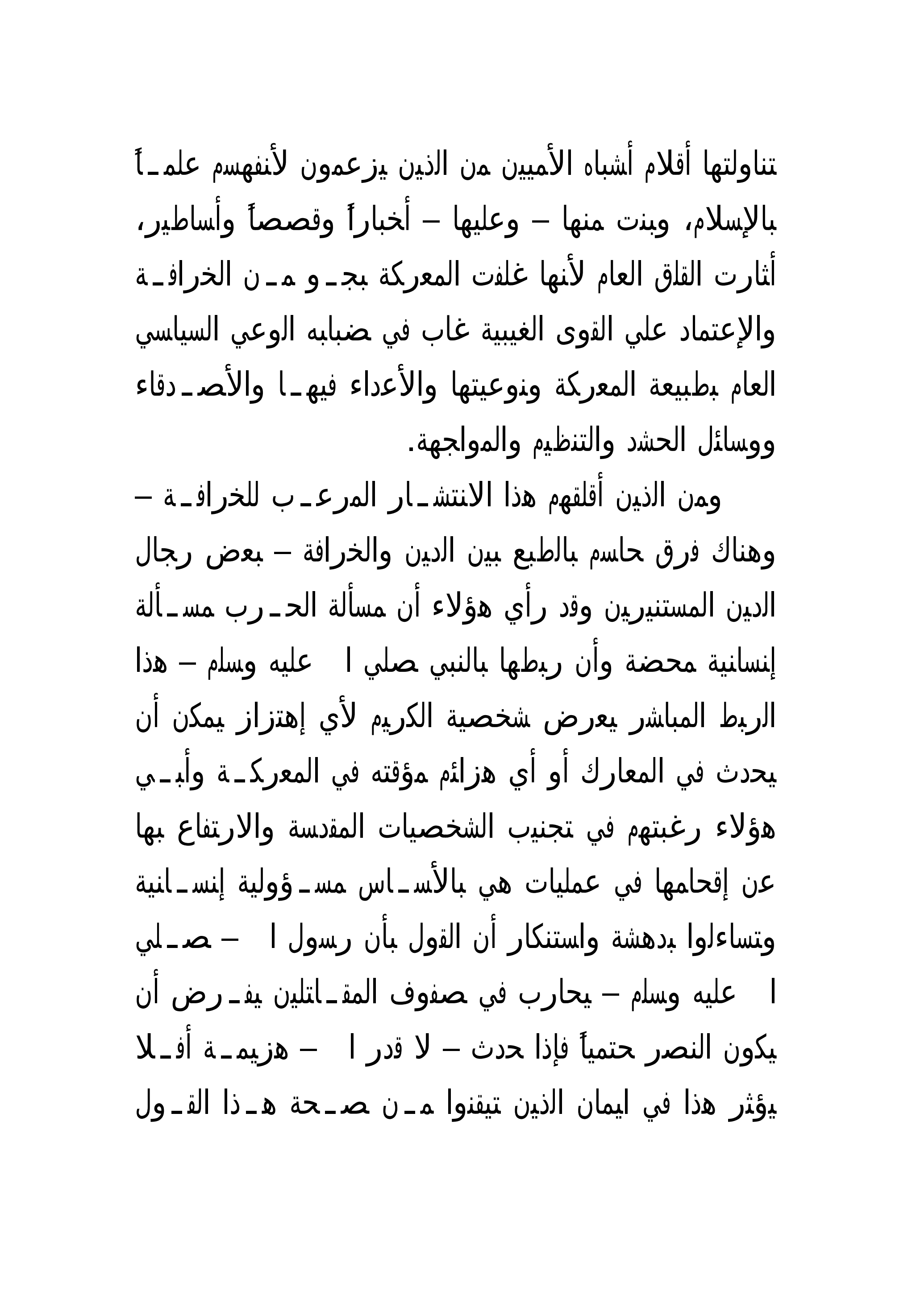
وكان تيار الخرافة قد توج نفسه بخطبه شـهيرة ألقاهـا أحد كبار رجال الدين المسلمين الذين يتولون منصباً رسـمياً وفي صلاة أول جمعه بعد الحرب وأعلن فيهـا أن شخصـاً أميناً صادقاً يعرفه قد أنبأه بأنه رأي في المنـام رسـول ا

صلي ا عليه وسلم وأنه تجول معه علي الضـفة الشـرقية لقناة السويس وقال الخطيب أن الشخص الصادق الـذي رأي المنام طاب منه إبلاغه للرئيس السادات وبني علي ما نقـل إليه نتيجة بأن الرسول –صلي ا علية وسلم – يقاتل بـين صفوف المقاتلين[1]

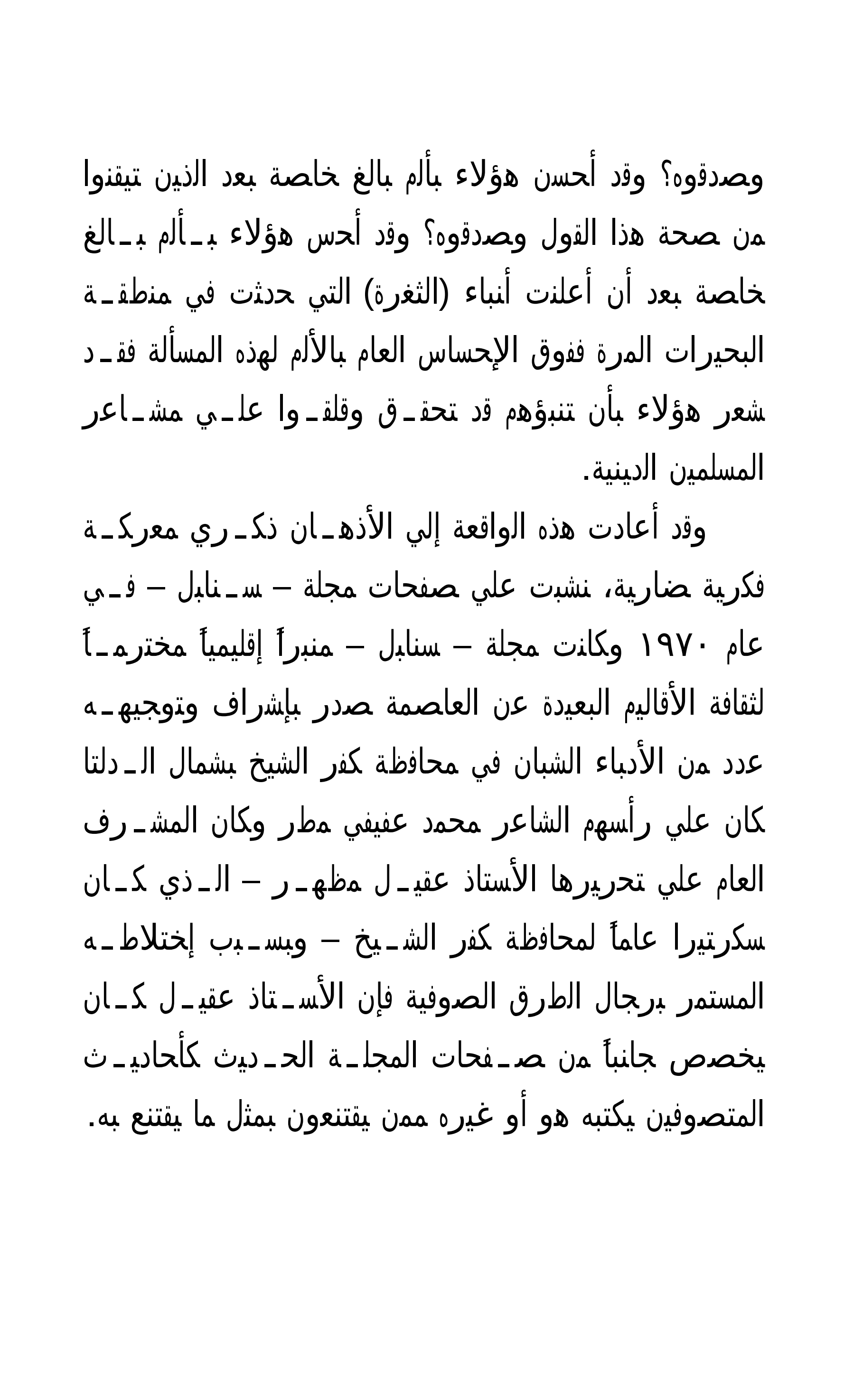
وأحدثت الخطبة رجفة شعبية عارمة إذا عابثت المشاعر الدينية العميقة للمسلمين من المصـريين ولكـن كثيـرين – ومنهم بعض رجال الدين – رأوا أن إشاعة مثل هذه الأفكار قد يخلق حالة من التواكل علي جبهات القتال، وتوقعـوا أن تتزايد هذه النغمه وأن تتسع ليبني عليها مناخ مـن الأفكـار غير العلمية وسط جماهير الشعب، وهو ما حدث بالفعـل إذا

---

[1] تطلبت ظروف الملاءمة السياسية ، وقت كتابة هذا المقـال، أعغفال الأسماء في هذه الواقعة، وهذه الظروف نفسها تتـيح الآن، أن نقول، أن صاحب الرؤيا، هو السيد حسين الشـافعي، نائـب رئـيس الجمهورية آنذاك، وقد أبلغها لفضيلة الشيخ عبد الحليم محمود، الـذي كان شيخاً للأزهر آنذاك، وقد ألق هذه الواقعة في خطبة له، بالجـامع الأزهر، أذيعت في التليفزيون، والشيخ محمود، هـو صـاحب القـول المشهور، تعليقا علي قرار السادات بإخراج الخبراء السـوفييت مـن الجيش المصري (تضيع سيناء.. ولا تضيع عقيدتنا).


تناولتها أقلام أشباه الأميين من الذين يزعمون لأنفهسم علمـاً بالإسلام، وبنت منها – وعليها – أخباراً وقصصاً وأساطير، أثارت القلق العام لأنها غلفت المعركة بجـو مـن الخرافـة والإعتماد علي القوى الغيبية غاب في ضبابه الوعي السياسي العام بطبيعة المعركة ونوعيتها والأعداء فيهـا والأصـدقاء ووسائل الحشد والتنظيم والمواجهة.

ومن الذين أقلقهم هذا الانتشـار المرعـب للخرافـة – وهناك فرق حاسم بالطبع بين الدين والخرافة – بعض رجال الدين المستنيرين وقد رأي هؤلاء أن مسألة الحـرب مسـألة إنسانية محضة وأن ربطها بالنبي صلي ا عليه وسلم – هذا الربط المباشر يعرض شخصية الكريم لأي إهتزاز يمكن أن يحدث في المعارك أو أي هزائم مؤقته في المعركـة وأبـي هؤلاء رغبتهم في تجنيب الشخصيات المقدسة والارتفاع بها عن إقحامها في عمليات هي بالأسـاس مسـؤولية إنسـانية وتساءلوا بدهشة واستنكار أن القول بأن رسول ا – صـلي ا عليه وسلم – يحارب في صفوف المقـاتلين يفـرض أن يكون النصر حتمياً فإذا حدث – لا قدر ا – هزيمـة أفـلا يؤثر هذا في ايمان الذين تيقنوا مـن صـحة هـذا القـول



وصدقوه؟ وقد أحسن هؤلاء بألم بالغ خاصة بعد الذين تيقنوا من صحة هذا القول وصدقوه؟ وقد أحس هؤلاء بـألم بـالغ خاصة بعد أن أعلنت أنباء (الثغرة) التي حدثت في منطقـة البحيرات المرة ففوق الإحساس العام بالألم لهذه المسألة فقـد شعر هؤلاء بأن تنبؤهم قد تحقـق وقلقـوا علـي مشـاعر المسلمين الدينية.

وقد أعادت هذه الواقعة إلي الأذهـان ذكـري معركـة فكرية ضارية، نشبت علي صفحات مجلة – سـنابل – فـي عام ١٩٧٠ وكانت مجلة – سنابل – منبراً إقليمياً محترمـاً لثقافة الأقاليم البعيدة عن العاصمة صدر بإشراف وتوجيهـه عدد من الأدباء الشبان في محافظة كفر الشيخ بشمال الـدلتا كان علي رأسهم الشاعر محمد عفيفي مطر وكان المشـرف العام علي تحريرها الأستاذ عقيـل مظهـر – الـذي كـان سكرتيرا عاماً لمحافظة كفر الشـيخ – وبسـبب إختلاطـه المستمر برجال الطرق الصوفية فإن الأسـتاذ عقيـل كـان يخصص جانباً من صـفحات المجلـة الحـديث كأحاديـث المتصوفين يكتبه هو أو غيره ممن يقتنعون بمثل ما يقتنع به.

وفي شهر إبريل – نيسان- ١٩٧٠ كتب الأستاذ (عقيل مظهر) في (سنابل) مقالاً بعنوان (قطره من بحر القرآن – دولة أبي العينين).. وفي هذا المقال استعرض ظاهرة تزايد إنتظام المريدين في سلك الطرق الصوفية، وخاصة أتباع (سيدى إبراهيم الدسوقي) وقال أن الدسوقي هو رابع رؤساء الأولياء الأربعة ويعني بهم: أحمد الرفاعي وعبد القادر الجيلاني وأحمد البدوي و إبراهيم الدسوقي ورداً علي سؤال طرحه علي نفسه حول أسباب ذلك النشاط الملحوظ لأبناء الطريقة في ترديد أحزاب الدسوقي والإلتزام بأوراده وأذكاره، بل وانخراط الكثيرين في طريقته، قال الأستاذ (عقيل): إن لكل قطب من الأقطاب الأربعة الكبار أهل الحقيقة، دورة كونية ومساحة من الزمن، يكون هو فيها صاحب التصريف في الملك كله بسمواته السبع وأراضيه السبع وبحاره السبع ومن فيهن. فإذا أظلت دولة القطب او قارب فجرها علي الظهور كان ذلك إيذاناً يتجمع المريدين من حوله يقرؤون أحزابه ويرددون أوراده ويدعون بدعائه ويذكرون ا بما يختاره لهم من أسماء.

واستطرد الأستاذ (عقيل مظهر)، يقول ما يلي بـ النص:
(وإني بعد إذن من شيخي، أسأله أن يأذن لي فيه: أقـول أن دولة أبي العينين خاتم الأقطاب وخبيرا الخبراء قـد ظهـر فجرها وأطل زمانها وقاربت شمسها أن تري للعين المجردة وأستأذنه أيضاً أن أقول: أنني وأبناء طريقنا كمريدين، وخدما لصاحب الوقت، نسأله أن يتخذ من مصر مظهـرا لدولتـة الباطنية، فيؤدها ويناصرها فتنشر بلادنا الواءاها علي العالم أجمع، وتتحقق وحدة العرب والمسلمين في دولـة كبـري، تبسط رواقها علي الدنيا بأسرها، نعم لقد بشرنا شيخنا خليفة الدسوقي بأنه عند قيام دولة أبي العينين، فإن ذلـك سـوف يكون إيذاناً بنهاية دولة الصهيونية ومحو أسرائيل، والقضاء عليها قضاء مبرماً لا إنفكاك عنه بل ونهاية لكل من عـاون إسرائيل مهما كانت سطوته وجبروته).

وأثار المقال ضجه عكستها الأعداد التاليه من –سنابل – ورفضة بشدة المتدينون ورأوه خطراً علي الأديـان، فقـال الأستاذ عبد البديع شلبي (انه دعوة لعبادة الأولياء فهو وثنية. وطالب بعد الخوض في أشياء بعيدة عن المعقول وإختـراع أشياء ما أنزل ا بها من سلطان. وعلق ساخراً علـي زوال

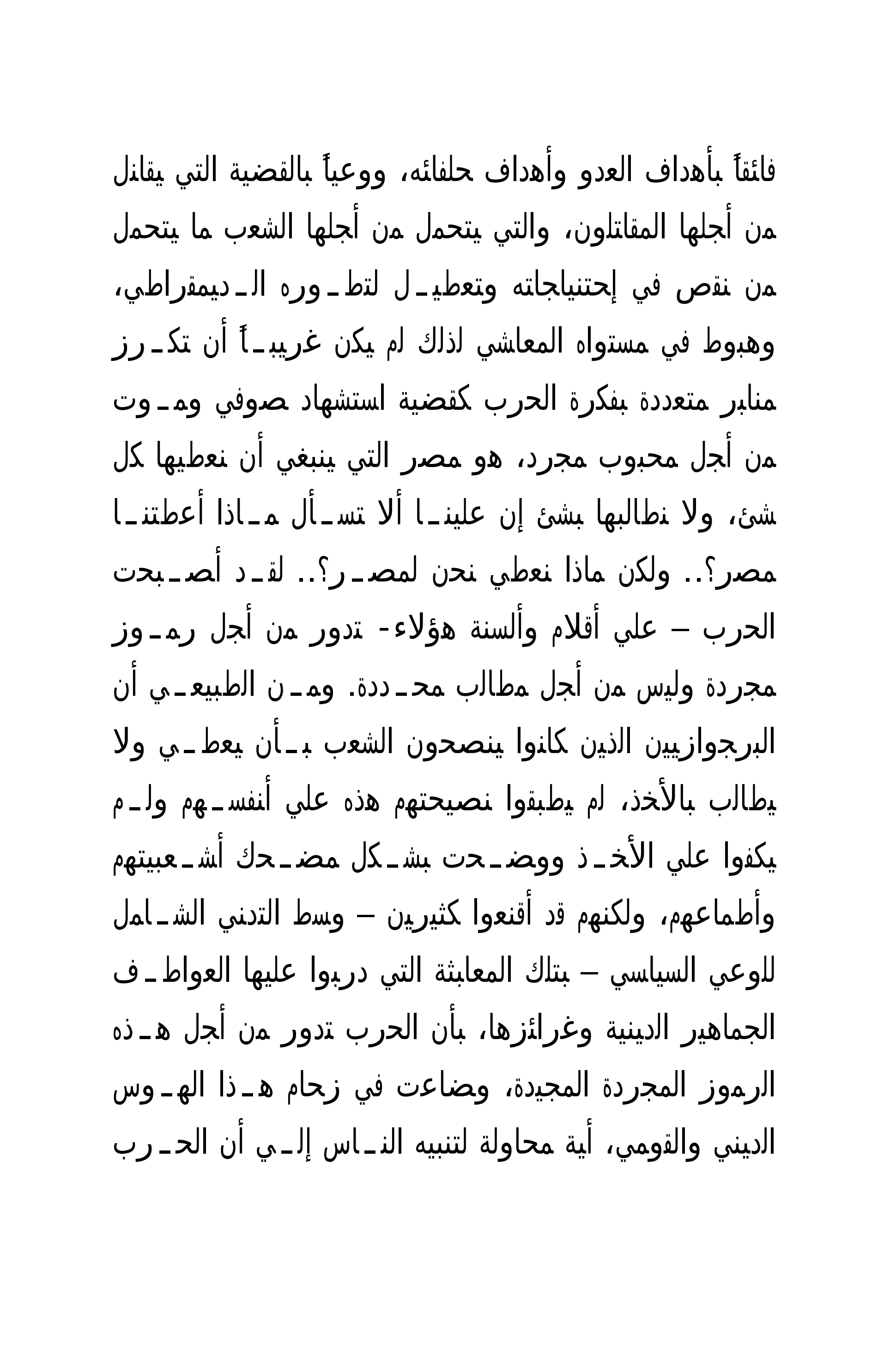
إسرائيل بظهور دولة أبي العينين فقال: إن ذلك لا يكون بتكوين الفرق الصوفية وحمل المسابح وتلاوة الأوراد فحسب. وإلا كان أولي بذلك رسول ا صلي ا عليه وسلم المؤيد بعناية السماء، ولكان إكتفي بذلك وأراح نفسه من الدعوة للجهاد وتكوين الجيوش، وتحمل مشاق الحرب والطعان، ولما جعل الجهاد رأس الأمر كله وأعلي درجه في الإسلام. وختم رده بقوله: كفانا إتكالاً وتوكلاً علي ترهات إخترعناها فالقوم قد وصلوا إلي آفاق أمرنا نحن قبلهم بارتيادها كمسلمين من ١٤ قرناً وما زلنا قابعين في غمرة الأوهام والأحلام).

وقال الأستاذ عبد الواحد بيومي المدرس بمعهد منوف الديني (هلي يعني ارتباط زوال إسرائيل بقيام دولة أبي العينين أن إسرائيل لن تزول إلا إذا بزغت هذه الدولة هلي معني ذلك أننا لن نتخلص من إسرائيل[1]

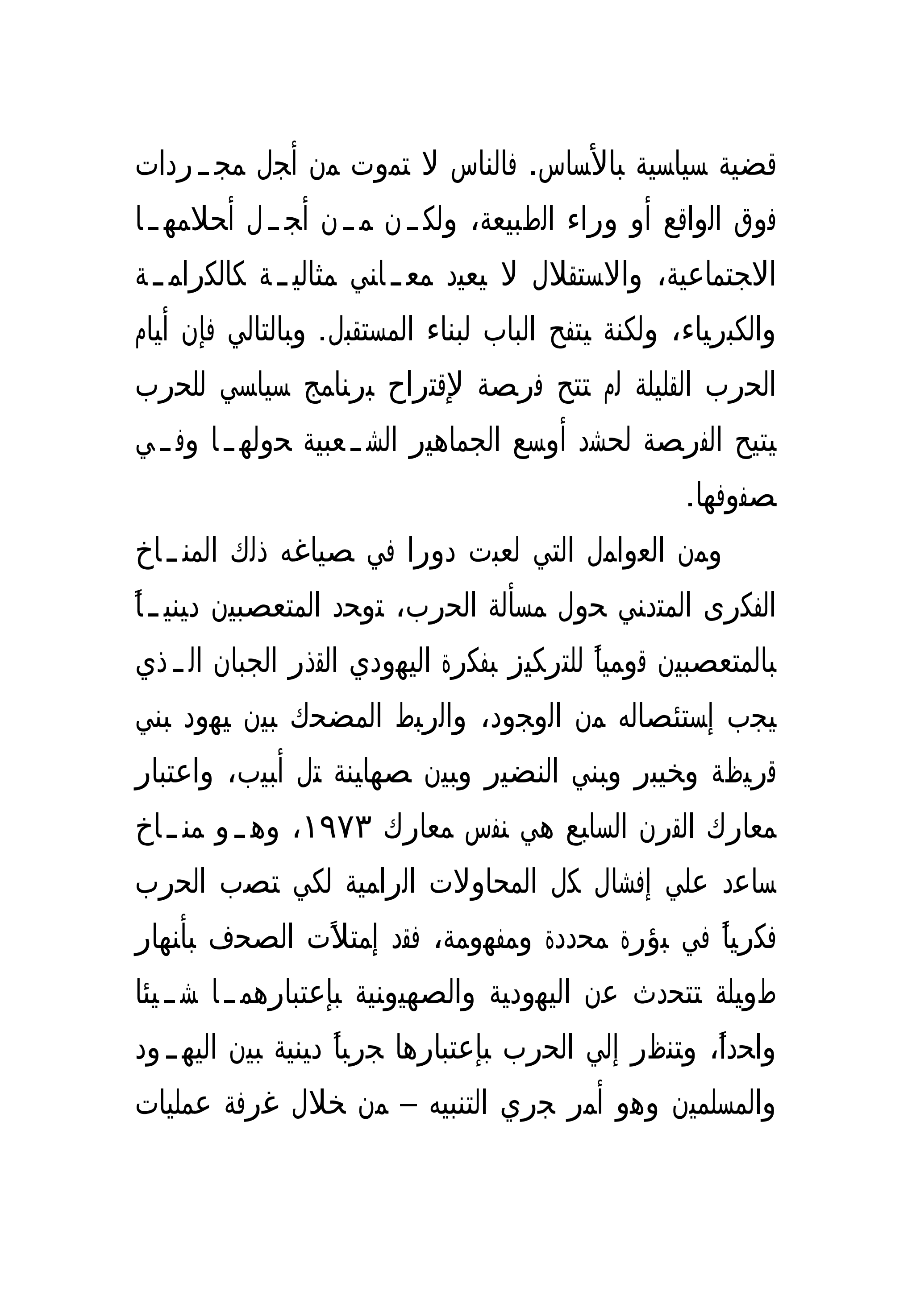
أعاد إنتشار هذا التفكير الخرافي أثناء الحرب القلق إلي عقول المثقفين الذين كانوا يدركون أن الحرب معركة علمية صعبة المراس، وأنها عمل دنيوي بحت، تتطلب وعياً سياسياً

---

[1] مجلة سنابل – عدد مايو ١٩٧٠.

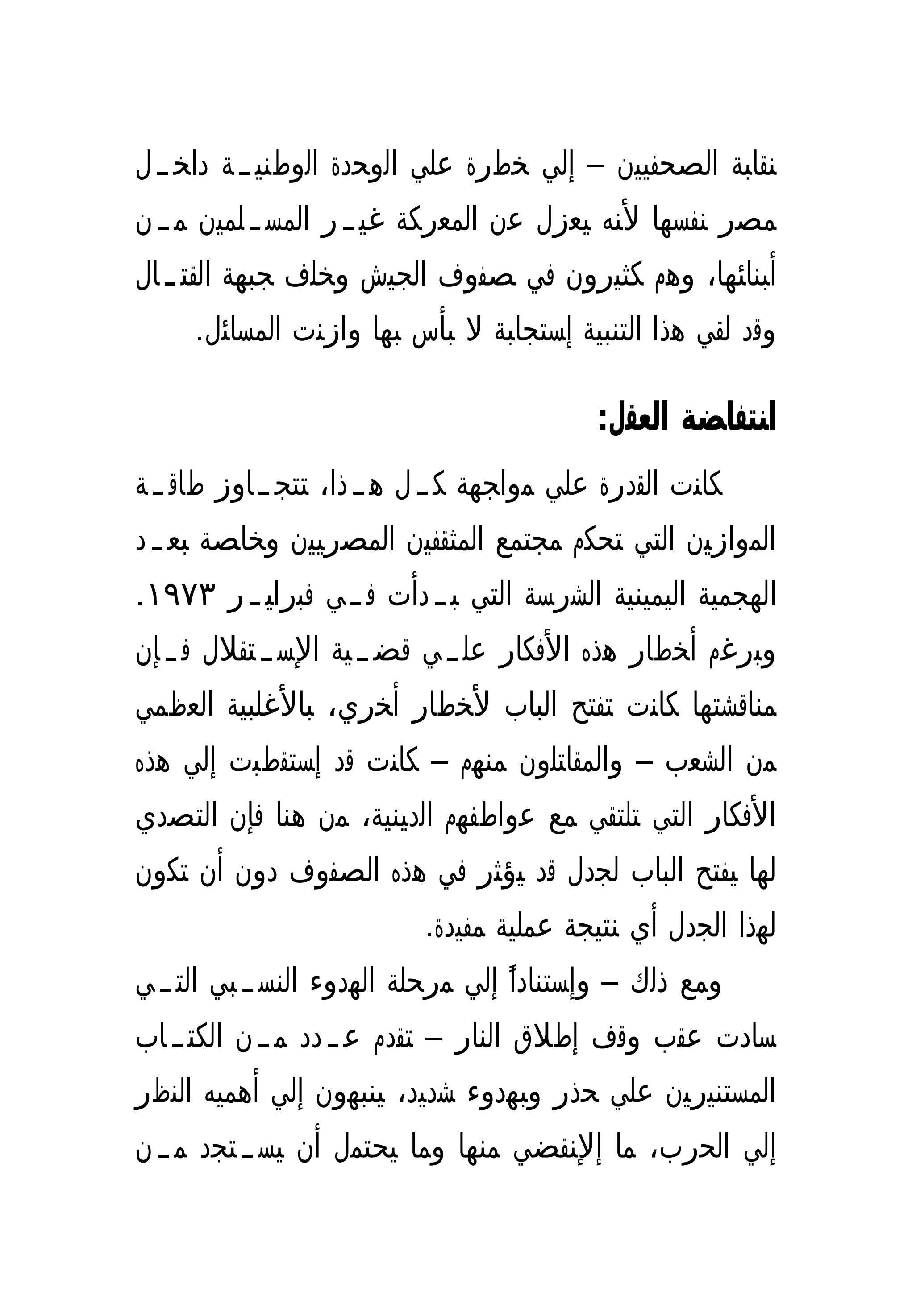


فائقاً بأهداف العدو وأهداف حلفائه، ووعياً بالقضية التي يقاتل من أجلها المقاتلون، والتي يتحمل من أجلها الشعب ما يتحمل من نقص في إحتنياجاته وتعطيـل لتطـوره الـديمقراطي، وهبوط في مستواه المعاشي لذلك لم يكن غريبـاً أن تكـرز منابر متعددة بفكرة الحرب كقضية استشهاد صوفي ومـوت من أجل محبوب مجرد، هو مصر التي ينبغي أن نعطيها كل شئ، ولا نطالبها بشئ إن علينـا ألا نسـأل مـاذا أعطتنـا مصر؟.. ولكن ماذا نعطي نحن لمصـر؟.. لقـد أصـبحت الحرب – علي أقلام وألسنة هؤلاء- تدور من أجل رمـوز مجردة وليس من أجل مطالب محـددة. ومـن الطبيعـي أن البرجوازيين الذين كانوا ينصحون الشعب بـأن يعطـي ولا يطالب بالأخذ، لم يطبقوا نصيحتهم هذه علي أنفسـهم ولـم يكفوا علي الأخـذ ووضـحت بشـكل مضـحك أشـعبيتهم وأطماعهم، ولكنهم قد أقنعوا كثيرين – وسط التدني الشـامل للوعي السياسي – بتلك المعابثة التي دربوا عليها العواطـف الجماهير الدينية وغرائزها، بأن الحرب تدور من أجل هـذه الرموز المجردة المجيدة، وضاعت في زحام هـذا الهـوس الديني والقومي، أية محاولة لتنبيه النـاس إلـي أن الحـرب



قضية سياسية بالأساس. فالناس لا تموت من أجل مجـردات فوق الواقع أو وراء الطبيعة، ولكـن مـن أجـل أحلامهـا الاجتماعية، والاستقلال لا يعيد معـاني مثاليـة كالكرامـة والكبرياء، ولكنة يتفح الباب لبناء المستقبل. وبالتالي فإن أيام الحرب القليلة لم تتح فرصة لإقتراح برنامج سياسي للحرب يتيح الفرصة لحشد أوسع الجماهير الشـعبية حولهـا وفـي صفوفها.

ومن العوامل التي لعبت دورا في صياغه ذلك المنـاخ الفكرى المتدني حول مسألة الحرب، توحد المتعصبين دينيـاً بالمتعصبين قومياً للتركيز بفكرة اليهودي القذر الجبان الـذي يجب إستئصاله من الوجود، والربط المضحك بين يهود بني قريظة وخيبر وبني النضير وبين صهاينة تل أبيب، واعتبار معارك القرن السابع هي نفس معارك ١٩٧٣، وهـو منـاخ ساعد علي إفشال كل المحاولات الرامية لكي تصب الحرب فكرياً في بؤرة محددة ومفهومة، فقد إمتلأت الصحف بأنهار طويلة تتحدث عن اليهودية والصهيونية بإعتبارهمـا شـيئا واحداً، وتنظر إلي الحرب بإعتبارها حرباً دينية بين اليهـود والمسلمين وهو أمر جري التنبيه – من خلال غرفة عمليات


نقابة الصحفيين – إلي خطرة علي الوحدة الوطنيـة داخـل مصر نفسها لأنه يعزل عن المعركة غيـر المسـلمين مـن أبنائها، وهم كثيرون في صفوف الجيش وخلف جبهة القتـال وقد لقي هذا التنبية إستجابة لا بأس بها وازنت المسائل.

انتفاضة العقل:

كانت القدرة علي مواجهة كـل هـذا، تتجـاوز طاقـة الموازين التي تحكم مجتمع المثقفين المصريين وخاصة بعـد الهجمية اليمينية الشرسة التي بـدأت فـي فبرايـر ١٩٧٣. وبرغم أخطار هذه الأفكار علـي قضـية الإسـتقلال فـإن مناقشتها كانت تفتح الباب لأخطار أخري، بالأغلبية العظمي من الشعب – والمقاتلون منهم – كانت قد إستقطبت إلي هذه الأفكار التي تلتقي مع عواطفهم الدينية، من هنا فإن التصدي لها يفتح الباب لجدل قد يؤثر في هذه الصفوف دون أن تكون لهذا الجدل أي نتيجة عملية مفيدة.

ومع ذلك – وإستناداً إلي مرحلة الهدوء النسـبي التـي سادت عقب وقف إطلاق النار – تقدم عـدد مـن الكتـاب المستنيرين علي حذر وبهدوء شديد، ينبهون إلي أهميه النظر إلي الحرب، ما إلإنقضي منها وما يحتمل أن يسـتجد مـن

مراحلها، علي أساس أنها عملية عقلية وعلميـة بالأسـاس.. وبرغم أن ما فعله هؤلاء كان مجرد إشـارات لا تغنـي ولا تفيد في تبديد الأفكار الخرافيه فقد كان رمز احتجاج علي هذا الركام من الخرافة الذي لف جو الحرب.

وكان الدكتور (فؤاد زكريا) أستاذ الفلسفة بكليـة آداب عين شمس أول من تصدي بصراحة للمعركـة فـي مقـال بعنـوان – معركتنـا والتفكيـر اللاعقلـي [الأهـرام فـي ١٩٧٣/١١/١٨] يعتبر من أخطر ما كتب أثناء الحرب، وفي هذا المقال قال الدكتور فؤاد إنه كان يستطيع أن يفهم – لا أن يغتفر – انتشار ألوان من التفكير اللاعقلي بعد يونيو ١٩٦٧ لكن ما لا يتسطيع أن يفهم أو يغتفر – أن تظهر ألوان جديدة من هذا التفكير بعد النكسة كان طبيعياً لأن قسـوة الهزيمـة غير المتوقعة والإحساس بالهوان والمذلة والعجز، والشعور بأن كل شئ يسير في طريق مسدود كل هذه كانت عوامـل ساعدت علي انتشار موجات من التفكير اللاعقلـي وجعلـت الأذهان أكثر استعداداً لقبول تفسيرات غيبية للظواهر وهيأت العقول لنوع من الإستسلام جعلها تفقد ملكاتها النقدية وتركن إلي التصديق الساذج لكل بدعة وكل خرافة تجد فيها أي نوع

من التعويض [1] وقال انه حتي بعد النكسة كان هذا الانتشار للفكر اللاعقلي خطرا في وقت كنا في حاجة الي كل ذرة من عقلنا وعلمنا وفكرنا السليم حتي نحارب بها عدواً ماكراً يجيد إستخدام كل أسلحة العصر. خاصة وأن من أكثر التعلـيلات التي شاعت بصدد الهزيمة أنها قد حلت بنا لأننا ابتعدنا عـن طريق التقوي، وهو تعليل يعمي عيون الناس عن العوامـل الأساسية التي كان لابد أن يفهموا أنهـا صـنعت الهزيمـة كمؤامرات الصهيونية المتعاونة مع الإمبريالية، وكالأخطـاء التي ارتكبناها نحن أنفسنا فضلاً عن أن عدونا كـان طـول تاريخه أشد منا ابتعاداً عن التقوى طوال عمره. فلمـاذا إذن يكتب النصر لعدو كهذا إذا كان مقياس النصر أن الهزيمـة هى التقوي؟.

وأبدي الدكتور (فؤاد زكريا) دهشته لانتشار هذا الفكـر اللاعقلي بعد العبور الذي كان عملاً علمياً عقلياً، ومع ذلـك

---

[1] كانت حكاية ظهور السيد العذراء، فوق قبة كنيسة الزيتـون، هي أشهر الخرافات التي أعقبت نكسة ١٩٦٧، أقراء الدراسة الممتعة، التي كتبها صادق جلال العظيم في تحليل الظروف الإجتماعيـة التـي خلقت هذا الوهم في كتابه (نقد الفكر الديني).

فقد عادت التعليلات اللاعقلية تطل برأسها من جديد وكان ما يثير الإشفاق من هذه التعليلات هو أنها تهيب بقوى غير منظورة قيل أنها حاربت معنا ولم يدرك مرددوا هذه الأقاويل، أن تصديقها معناه أن الذي إنتزع النصر ليس هو الجندي المصري، بدمه وعرقة وشجاعته، ومعناه أن العلم والتخطيط والحساب الدقيق لم يكن له إلا دور ثانوى في كل ما حدث.

وقال د. زكريا: إن تصديق هذه الأقوال يعني أن ما حدث كان معجزة وأن الأمور لو تركت لكي تسير في مجراها الطبيعي لأمكن أن يحدث ما حدث وهو ما وصفه د. فؤاد بأنه (جحود شديد لتضحية الجنود) لينتقل مفسراً العلم والإيمان الذي قاد إلي النصر فالعلم هو الذي نعرفه جياً، أما الإيمان فهو الرغبة الجارفة التي زادت إلحاحاً طوال السنوات الست في تحرير الأرض والإيمان بأن هناك قضية عادلة تستحق أن يضحي المرء من أجلها حياته هؤلاء كانوا جنود الخلفاء الذي وقفوا يحاربون معنا. ورصد الكاتب خطراً آخر لهذا التفكير اللاعقلي، إذا هو يؤدي إلي إضعاف موقفنا العام تجاه إسرائيل التي تقوم علي خرافة غير علمية،

وفي وسعنا أن تستغل الميول العلمانية القوية التي تسود المجتمعات الغريبة أما إذا إلتجأنا إلي اللاعقلي فنحن نفوت علي نفسنا التفوق المعنوى علي العدو، فالأهداف الحقيقية التي تحارب من أجلها، أهداف يستطيع أن يفهمها ويقدرها أكثر الناس تمسكا بالعقلانية. فليس هناك ما هو أقرب إلي العقل من الكفاح ومن أجل استعادة جزء مغتصب من أرض الوطن واسترداد حقوق شعب شرده غزاة دخلاء

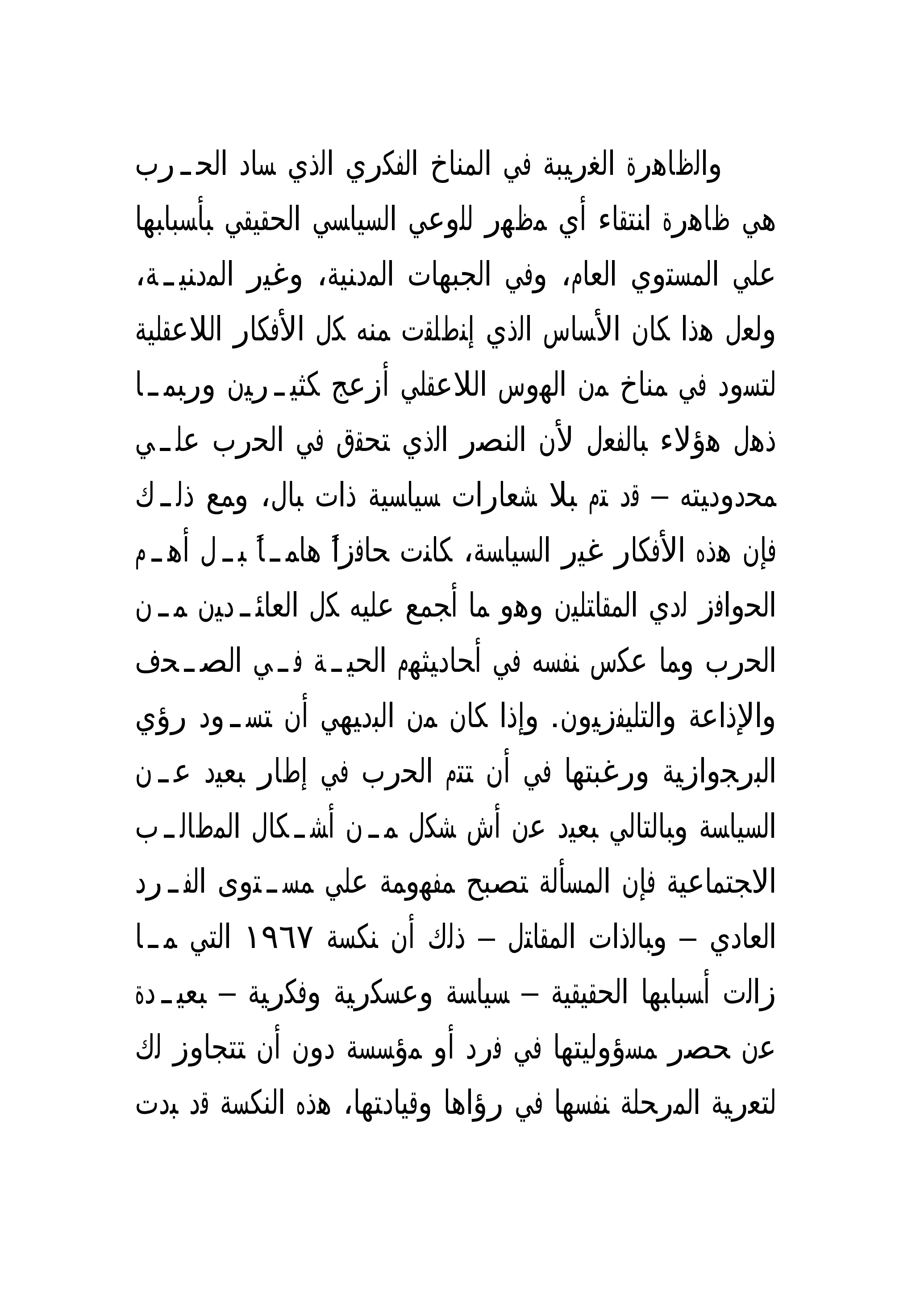
وطالب د. زكريا بأن ينسجم هدفنا العام الطويل الأجل فما دام هذا الهدف متمشياً مع العقل فمن الواجب أن تكون تصرفاتنا الجزئية القصيرة الأجل منسجمة مع هذا الهدف العام، ولو حدث غير ذلك لكانت الصورة النهائية منطوية علي مفارقة غريبة: إذ يكون أحد طرفي النزاع مسايراً في أهدافه العامة لإتجاه التاريخ والتطور والتقدم، ومع ذلك يسلك في تصرفاته اليومية مسلكاً مضاداً للعقل ولمسار التاريخ. ولكل ما شيدته حضارة الإنسان الحديث من قيم، ولكنه يخدم هذه الأهداف عن طريق مسلك يومي عقلاني علمي يرد كلي حادث إلي أسبابه الحقيقية ويعلل الظواهر بقوانينها الفعلية.

أحدث المقال كما كان متوقعاً من البداية ضجة واسـعة وسارع عدد من خطباء المساجد بـالهجوم علـي صـاحبه وإتهامه في دينه وسارع آخرون من الذين كانوا أكثر رغبـة في الفهم وفي الحوار بالرد عليه فـي مقـالات لـم تنشـر (الأهرام) نصها الكامل بل لخصتها، ورد عليها الدكتور فؤاد رداً موجزاً رغبه من (الأهرام) في عدم توسعة النقاش ويبدو أنها كانت رغبة رسمية.. وسارع بعض من أهـل اليمـين باعتبار فتح الموضوع للحوار (دسيسة يسارية، وجزء مـن حركة يسارية منظمة) فكتب عبد العزيز الدسوقي يقول: (ما السر في أن بعض الأقلام القليلة جداً أخذت في هـذه الأيـام تصرفنا عن قضية المصير العربي أو بمعنـي أدق تشـغلنا عنها بإثارة بعض الأفكار الجانبية التي شبعت جدلاً وحواراً منذ طلع هذا القرن بدعوى تحريـرا العقـل مـن الخرافـة والجمود وعبادة الماضي وأنا بطبيعة الحال لست ضد هـذا الهدف الجليل، ولكنني ضد هذا التخطيط المبتـذل، وترديـد الشعارات الجوفاء والتمسح في المنهج العلمي، فقد لاحظـت أن الحديث عن هذه الأمور قد أخذ صورة الحملة المنظمـة التي تديرها وتسيطر عليه يد واحدة فـي محاولـة للتـأثير

النفسي وإبراز الأمر وكأنه حرب مقدسـة ضـد الخرافـة والجهل والتقوى الساذجة).

ومن الطريف أن كلام عبد العزيز الدسوقي هذا قد نشر في ملحق مجلة الثقافة الأسبوعي (التحرير) وهو المجلة التي كان يفترض أنها مخصصة لثقافة المعركة والمعبرة عن كل المثقفين [العدد ٧ في ١٩٧٣/١٢].

وبرغم هذا فأن مثقفين يساريين كثيرين، إعتبروا أن فتح الموضوع – من حيث التوقيت – هو خطر يجب درؤه وكان منهم الكاتب الكبير (نجيب محفوظ) الذي أشـار فـي أحـد دروسه التي كان يكتبها في (الأهرام) بعنـوان – دروس ٦ أكتوبر – إلي أن الإنقسام حول هذا الموضوع يحدث بلبلـة في صفوف المقاتلين وهو ما نبه إليه آخرون كانوا يوافقـون (د. فؤاد زكريا) فيما تصدي له ولكن عيونهم كانت علـي المناخ الفكري العام الذي سادته منذ سنوات طويلـة وعقـب النكسة، رغبة رسمية في نشر الأفكار اللاعقليـة والتركيـز بها، لأنه كانت الوسيلة الوحيدة التي تفسر ظـروف النكسـة بعوامل لا تضع المسؤولين عنها في قفص الاتهام السياسـي للجماهير.



والظاهرة الغريبة في المناخ الفكري الذي ساد الحـرب هي ظاهرة انتفاء أي مظهر للوعي السياسي الحقيقي بأسبابها علي المستوي العام، وفي الجبهات المدنية، وغير المدنيـة، ولعل هذا كان الأساس الذي إنطلقت منه كل الأفكار اللاعقلية لتسود في مناخ من الهوس اللاعقلي أزعج كثيـرين وربمـا ذهل هؤلاء بالفعل لأن النصر الذي تحقق في الحرب علـي محدوديته – قد تم بلا شعارات سياسية ذات بال، ومع ذلـك فإن هذه الأفكار غير السياسة، كانت حافزاً هامـاً بـل أهـم الحوافز لدي المقاتلين وهو ما أجمع عليه كل العائـدين مـن الحرب وما عكس نفسه في أحاديثهم الحيـة فـي الصـحف والإذاعة والتليفزيون. وإذا كان من البديهي أن تسـود رؤي البرجوازية ورغبتها في أن تتم الحرب في إطار بعيد عـن السياسة وبالتالي بعيد عن أش شكل مـن أشـكال المطالـب الاجتماعية فإن المسألة تصبح مفهومة علي مسـتوى الفـرد العادي – وبالذات المقاتل – ذلك أن نكسة ١٩٦٧ التي مـا زالت أسبابها الحقيقية – سياسة وعسكرية وفكرية – بعيـدة عن حصر مسؤوليتها في فرد أو مؤسسة دون أن تتجاوز لك لتعرية المرحلة نفسها في رؤاها وقيادتها، هذه النكسة قد بدت

للرأي العام – مع تدني الوعي وافتقاد التنظـيم – كضـربة قدرية غير مفهومة وغير مبررة، الأمر الذي عكس إحساساً بأن تجاوزها لن يتم إلا بمعجزة قدرية أخري، وخاصـة وأن السنوات الست السابقة قد شهدت تشجيعاً رسمياً علي نشـر الفكر اللاعقلي والخرافة (ظاهرة ظهور العذراء فوق كنيسة الزيتون عام ١٩٦٨ مثلاً) للسبب الذي ذكرناه آنفاً، كما أنها شهدت- ولتبرير العجز عن الفعل خلال هـذه السـنوات – نشراً واسعاً لفكرة أن العدو قوى وهرقلي، والانتصار عليـه يكون مستحيلاً، وبالتالي فإنه يحتاج إلي معجزة، وليس إلـي تنظيم شعبي وبناء سياسي، ووعي فكري، وترتيـب جديـد للقوى الطبقية ومن خلال هذا المناخ تولـدت كـل الأفكـار اللاعقلية التي سادت طوال معركة أكتوبر، وبعدها وما زالت إلي الآن واقفة بالمرصاد لأي محاولة لتسييس، الحرب فـي أهدافها أو تنظيمها إذا كان طبيعياً أن يعتبر العبور معجزة... وكل ما يخشاه المخلصون لقضية وطنهم مـن المثقفـين، أن يكمل المكرزين بهذا بهذا اللاعقل، الجملة المحفوظة والتـي تقول: والمعجزات لا تتكرر.

حرب المذكرات السياسية
في الفكر العربي

يوماً قا لي أكبر ناشر وموزع للكتـب فـي العـالم العربي:

- علمتني تجربتي في نشر الكتب أن أي كتاب مهما كانت قيمته وأيا كان مؤلفه لا بد وأن يظل في السوق عامين علي الأقل حتي تنفد نسخه.. لكن السنوات الأخيرة جـاءت بظاهرة غريبة، جعلت كتباً لا قيمة له تنفذ في أقل من أسبوع وتطبع ثلاث طبعات في شهر!!

والكتب التي يشير إليه الناشر العربي الكبير كلها من نوع واحد... إنها ملايين من الكلمات المرصوصـة تـدور حول شخصية سياسية واحدة هي الرئيس المصري الراحـل (جمال عبد الناصر)، بل أن الوسيلة الوحيدة لكـي تصـبح مؤلفاً وتكسب نقوداً هي أن نكتب كتاباً يتضمن أيه حـوارات مع أية شخصيات سياسة، ممن كانوا علي مصرح الحـوادث

في عصر (عبد الناصر) أو أن تكتب أي كلام (هجوما علي الرجل) أو (أي كلام) دفاعا عنه!

ومنذ عامين أصدر أحد محرري دار (أخبار اليوم) هو الأستاذ (سامي جوهر) كتاباً بعنوان (الصامتون يتكلمون) ضمنه مجموعة من الأحاديث مع ثلاثة كانوا شـركاء لعبـد الناصر في الحكم حتي عام ١٩٦٣، وهم السادة (عبد اللطيف البغدادي) و (كمال الدين حسين) و (حسن إبراهيم)، وبـرغم أن الكتاب لا قيمة حقيقية له، إلا أنه طبع ست طبعـات فـي ستة أشهر متوالية!.

وبمجرد نفاذ الطبعة الأولي وفي ظرف شهر واحد، سارع اثنان آخران من

لا يحتمله البلد.. وتفاديا لخديعـة إعلاميـة كانـت خيوطها قد بدأت تظهر علي صفحات الصحف في مقـالات كتبت في جريدة الجمهورية وصور بها مجلس القيادة وكأنـه يبتغي الديمقراطية، وكان الاختلاف بيننا لا يعـدو المسـائل الشخصية.

وكان مـرور الأيـام دون إعـلان موعـد محـدد للانتخابات يدخل الأمور، في ضباب، يفقد الناس بعضا مـن الثقة في التزامي أمامهم.

وتعددت الآراء في أسلوب عبور الفترة المتبقية علي تنفيذ قرارات ٥ مارس.... وكتب القائمقام يوسـف صـديق بطل الثورة الشجاع مقالا في جريـدة المصـري يـوم ٢٤ مارس اقترح قيام وزارة ائتلافيـة مـن الوفـد والإخـوان المسلمين والاشتراكيين والشيوعيين برئاسة الـدكتور وحيـد رأفت لإجراء انتخابات البرلمان الجديد.

وجد هذا الرأي صدي طيبا في نفسـي... إذ يعيـد الحياة للأحزاب فيضمن الديمقراطية... ويحقق تشكيل جبهة وطنية لا توجد خارج إطارها قوى سياسية ذات بال.

وظهر رأي الوفد في الحالة موضحا أن النحـاس لا يفكر في الترشيح لرئاسة الجمهورية وأنه يتمسـك بالنظـام الجمهوري والإصلاح الزراعي ويطالب بعودة الحياة النيابية فورا حتي تستقر الأوضاع.

وصرحت للصحافة قائلا أنني لـن أتراجـع عمـا استهدفته من عودة الحياة النيابية ورددت علي الذين يتخوفون

من عودتها بقولي إننا ما ثرنـا إلا لإعادتهـا سـليمة مـن الشوائب... كما صرحت أيضا بأنني لا أنوى تكوين حزب.

وكانت هناك معركة فكرية واضحة علي صـفحات الصحف... جريدة المصري تتبني قضية عـودة الأحـزاب والديمقراطية ويدافع عن ذلك دفاعا حارا... وجريدة الأخبار تهاجم فكرة الانتخابات وتحذر من جهل المواطنين.

أذكر أن جريدة الأخبار في هذه الفترة كانت تواصل أسلوبها في الإشارة لتحويل أنظار الجماهير عـن مشـكلتها الحيوية الرئيسية، فنشرت مثلا يوم ٢٢مارس ما نشيت يقول (فتاة مصرية تتحول غدا الي رجل) ونشرت صورة الفتـاة علي ٣ أعمدة.

وكان مصطفي أمين حامل رتبة البكوية من الملـك واحد المقربين له من الصحفيين، قد تحول بعد الثورة فجـاة لمهاجمة الملك والسراي وفضح أخبارهم الشخصـية حربـا وراء الإثارة وزيادة التوزيع... وكان هذا يصـرف أنظـار الناس عن الاهتمام بحاضرهم ومستقبلهم لمتابعـة فضـائح الماضي، الأمر الذي جعل الصحف تسايرهم في هذا التيـار حتي لا تتخلف في التوزيع...

كان هذا الموقف اللأخلاقي في ذاته لا يرضيني ولا يريح نفسي.

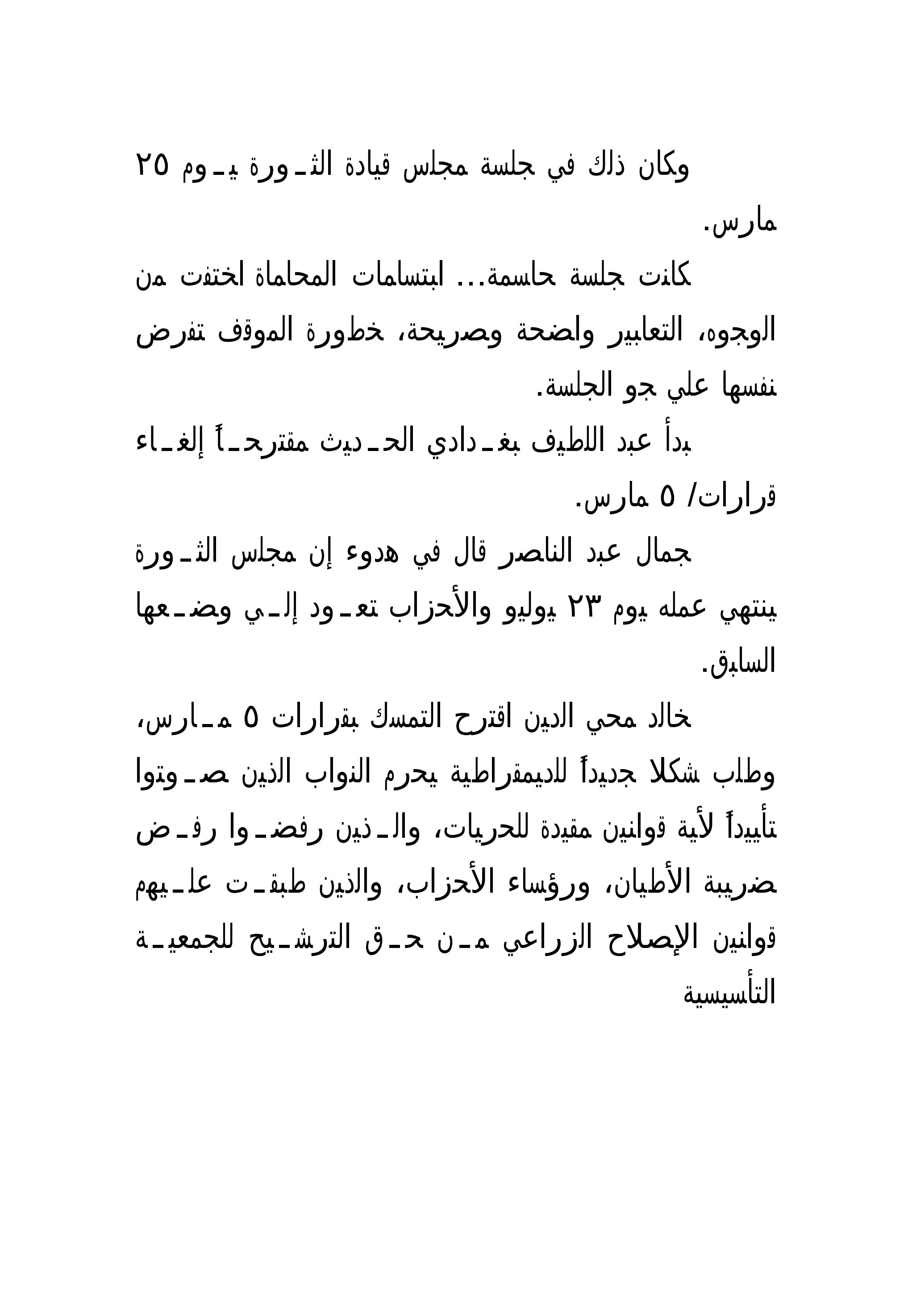
ص ١٣٣ من الطبعة البيروتية لمذكرات محمد نجيب مصطفي أمين يحرف الناس عن الاهتمام بحاضرهم!

فيضمن الديمقراطية... ويحقق تشكيل جبهة وطنية لا توجد خارج إطارها قوى سياسية ذات بال.

وظهر رأي الوفد في الحالة موضحاً أن النحـاس لا يفكر في الترشيح لرئاسة الجمهورية وأنه يتمسـك بالنظـام الجمهوري والإصلاح الزراعي ويطالب بعودة الحياة النيابية فوراً حتي تستقر الأوضاع.

وصرحت للصحافة قائلا إنني لـن أتراجـع عمـا استهدفته من عودة الحياة النيابية ورددت علي الذين يتخوفون من عودتها بقولي إننا ما ثرنـا إلا لإعادتهـا مسـلمة مـن الشوائب... كما صرحت أيضاً بأنني لا أنوي تكوين حزب.

وبعد جلسة المؤتمر المشترك يوم ٢٠ مارس التـي تكهرب فيا الجو بعد مناقشة موضوع الانفجارات التي حدثت في القاهرة أصبحت أتوقع حدوث شئ ما... ولم يطـل بـي الانتظار.



وكان ذلك في جلسة مجلس قيادة الثـورة يـوم ٢٥ مارس.

كانت جلسة حاسمة... ابتسامات المحاماة اختفت من الوجوه، التعابير واضحة وصريحة، خطورة الموقف تفرض نفسها علي جو الجلسة.

بدأ عبد اللطيف بغـدادي الحـديث مقترحـاً إلغـاء قرارات/ ٥ مارس.

جمال عبد الناصر قال في هدوء إن مجلس الثـورة ينتهي عمله يوم ٢٣ يوليو والأحزاب تعـود إلـي وضـعها السابق.

خالد محي الدين اقترح التمسك بقرارات ٥ مـارس، وطلب شكلا جديداً للديمقراطية يحرم النواب الذين صـوتوا تأييداً لأية قوانين مقيدة للحريات، والـذين رفضـوا رفـض ضريبة الأطيان، ورؤساء الأحزاب، والذين طبقـت علـيهم قوانين الإصلاح الزراعي مـن حـق الترشـيح للجمعيـة التأسيسية

ص ٢٠٧ من الطبعة المصرية من المذكرات نفسها وقد شطب كل ما يمس مصطفي أمين!!.

الصحفيين المصريين يردون علي (سامي جـوهر) فصدر كتاب بعنوان (الصامتون يكـذبون) وآخـر بعنـوان (الصامتون في الميزان) وكان الكتابان أتفـه مـن الكتـاب الأصلي، وسخر مثقفوا القاهرة من ظاهرة الارتـزاق مـن وراء (عبد الناصر)، وقالوا أن هناك كتاباً ثالثاً في الطريـق بعنوان (الصامتون يرقصون) ورابع بعنـوان (الصـامتون يضحكون) وهكذا!.

ومشكلة هذا النوع من الكتب أنه يفسد التاريخ ويفسد السياسة، وفيما عدا كتب قليلة تعد علي أصابع اليد الواحـدة، فإن كل الذي كتب دفاعاً عن (عبد الناصر) أو هجوماً عليه، هو في معظمة كلام فارغ حقيقة، خاصـة أن الهـدف مـن ورائه في ٩٠ بالمائة من الحالات كان هدفاً تجارياً محضاً...

والمسؤول الأول عن حملة الهجـوم علـي (عبـد الناصر)، وحملة الدفاع المبتذلة عنه، هـو (عبـد الناصـر) نفسه، فخلال سنوات حكمه التي امتدت ثمانية عشـر عامـاً طويلة كان هناك تصور خاطيء بأن نشـر الحقـائق مهمـا

كانت تافهة ولا معني لهـا، يهـز هيبـة الحكـم، ويشـجع (الغوغاء) علي الحديث فيما ليس من حقها، وهكـذا حـدثت عشرات بل مئات التصرفات غير المفهومة ظلت من وجهـة نظر الناس، طوال سنوات، ألغازاً تتطلـب تفسـيراً، منهـا الخلاف في كواليس الحكم، واستقالة وزير أو نائب لـرئيس الجمهورية، دون سابق إنـذار، ودون أي إشـارة للسـبب الحقيقي، وهو ما جعل مصر أكبر مصنع للإشاعات السياسية طوال حكم (عبد الناصر)... والغريب أن عشرات الإذاعات التي كانت تعادي حكمه – كل أو بعض الوقت – كانت تذيع هذه الحقائق... وكان رجل الشارع في مصـر يعرفهـا... وينقلها إلي غيره، حتي أصبحت واحداً من مبررات السرور العصبي للناس، في وقـت تحالفـت فيـه مجموعـة مـن الإحباطات النفسية علي الشعب العربي عموماً – والمصري خصوصاً – جعلت تبادل هذه الإشاعات نوعاً من المطهـر النفسي لكثيرين ممن أحبطتهم نكسات الانفصـال والهزيمـة وغيرها.

ومسؤولية (عبد الناصر) لا تعني أن الذين هاجموه، بذلك الأسلوب المبتذل والرخيص كانوا علي حق... خاصـة

أن معظم المهاجمين كانوا هم الذين مدحوا الرجل وشببوا به، بل إنهم، عندما كان قوياً، ساعدوا علي ترسيخ وتأكيد سلبيات حكمه، وهم في هجومهم عليه الآن لا يهـاجمون السـلبيات لأنها – بحكم المنطق – أصبحت تاريخاً غير قابل للتكرار – لأن (عبد الناصر) نفسه ليس موجودا لكي يمارس سـلبيات جديدة- لكنهم يستهدفون ما أرسي الرجل من إيجابيات فـي حياة وطنية وأمته العربية...

وذلك هو وجه الفساد السياسي في حملة الهجوم علي الرجل، ووجهه الآخر، أن الذين تحمسوا للدفاع عنه، افتقدوا الذكاء البسيط الذي يجعلهم يدركون حقيقة بديهية، وهي أنـه من المستحيل أن يكون هناك نظام بلا أخطاء، والدليل البسيط علي هذا أن حكم عبد الناصر قد صفي نفسه بنفسـه ثـلاث مرات، وبطريقة بالغة القسوة:

* كانت الأول إبـان أزمـة مـارس (آذار) ١٩٥٤ المعروفة، التي انتهت بخروج اللواء (محمد نجيب) – الزعيم الواجهة لثورة يوليو ١٩٥٢- ومعه الجناح اليساري لثـورة يوليو الذي كان يراهن آنـذاك علـي قضـية الديمقراطيـة

الليبرالية، وهي تصفية شملت عدداً من ضباط الصف الثاني من حركة الضباط الأحرار التي صنعت الثورة..

* وكانت الثانية عقب نكسة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ عندما صفي جناح (المشير عبد الحكيم عامر) وتخلص (عبد الناصر) من المؤسسة العسكرية كمؤسسة حاكمة وتشمل هذا تصفية قاسية للمخابرات المصرية، وصفها (صلاح نصر) – مدير المخابرات المصرية الأسبق – بأنها اختراق قامت بـه المخابرات الأمريكية للمخابرات المصرية.

* وكانت الثالثة عندما صفي الرئيس السـادات فـي ١٥ مايو (أيار) ١٩٧١ جناح (علي صبري) تصفية جذرية، شملت تقليس الظل الناصري عن ثورة ٢٣ يوليـو، لـيحكم بمنهج لا أحد ينكر أنه مختلف كل الإختلاف عن منهج (عبد الناصر).

ولا معني لهذه التصفيات إلا أن الحكم كان يدرك أن هناك أخطاء فيه، وأن هناك أجنحة منه لا تسير علي الخـط المقبول من قيادته، بصرف النظر عن التقييم الحقيقي لهـذه التصفيات من وجهة نظرنا)، لكـن (الناصـريين الحنابلـة يخطئون جداً عندما يدافعون عن الرجل من منطق أنه بـلا

أخطاء، فيخسرون بذلك معركتهم السياسية ضد خصـومهم، ويفسدون هم الآخرون السياسة كما يفسدها مـن يهـاجمون الرجل ولا يرون فيه خيراً وينسبون إليه كل شرور العالم!!.

وإذا كان الإفساد السياسي في حملة الهجـوم علـي (عبد الناصر) هـو الخطـر الأكبـر والأدعـي للاهتمـام وللمواجهة، فإن إفساد التاريخ هو خطر مترتب علي الخطـأ الأول.. وكثير من الناس يظنون أن أي كلام هـو (تـاريخ) وأن أي (مذكرات) هي صادقة مائـة فـي المائـة، بينمـا المؤرخون أنفسهم ينبهون دائماً إلي أن (المعاصرة حجـاب) ومعني هذا أن كل الذين يعاصرون ظاهرة معينة لا يمكن أن يحكموا عليها حكماً موضوعياً لأن المعاصرة تعني العاطفة.. تعني الحب والكره والحقد والتورط والمصلحة وبهذا فهـي مفسدة للرأي الموضوعي عن الظاهرة...

وعلي عكس ذلك فإن مرور سنوات طويلـة، كفيـل بأن تهدأ الأعصاب وتختفي العاطفة، ليأتي الذين يسـتطيعون أن يعالجوا الأمر بهدوء وروية، ويحكموا من خلال الوثـائق والحقائق الباردة، لا من خـلال العواطـف والمصـالح!.. والوحيد الذي وضع الأمر موضعه الصحيح في دفاعه عـن

(عبد الناصر) هو (محمد حسنين هيكل) الذي يعتبر الناصري النقي الوحيد في العالم العربي، والذي لم يسقط علـي (عبـد الناصر) أحلامه كما فعل بعض اليساريين العـرب، ممـن صوروا عبد الناصر بما لم يكن فيه، والذين يتشنجون أحياناً في الدفاع عن أهداف لم يزعمها الرجل لنفسه، كما أنه ليس في حاجة إليها عموماً، فقد كان زعيمـاً عربيـاً أدي لأمتـه الكثير، وما زال علي آخرين أن يستكملوا ما عجزت عنـه زعيماً عربياً أدي لأمته الكثير، وما زال علـي آخـرين أن يستكملوا ما عجز عنه بحكم تكوينه أو بنية نظامه أو ظروف المرحلة التي حكم خلالها.

إن (محمد حسنين هيكل) منظر الناصـرية الـذكي (والإيديلوجست) المعتمد لديها... يقول فـي مقدمـة كتابـه (الطريق إلي رمضان)- الذي تناول جزءا من تاريخ عبـد الناصر (-وأنا لم أدع لنفسي صفة المؤرخ)... الذين عاشوا وقائع من التاريخ لا يستطيعون التأريخ لهـا، لأن رؤيـتهم مشوبة بتجربتهم الذاتية، وقصاري ما يستطيعون تقديمه هـو شهادة للتاريخ وليست تأريخاً.. وهناك فـارق ضـخم بـين الإثنين، وبعكس الشاهد فإن المؤرخ صاحب معمـل يقـوم

بتجميع الشهادات والوقائع والوثائق، ويعمل في مناخ متحال من القيود السياسية بمعناها آلآني والضيق الأفق – وخاصـة في عالمنا العربي الذي حول الصراع السياسي إلي نوع من الصراع القبلي- والنتيجة المعملية تنتهي في النهاية إلي حكم أقرب للموضوعية!).

والمناسبة التي تدعونا إلي إثارة هذا الموضوع مـن جديد، هي صدور الطبعة المصرية من مـذكرات (اللـواء محمد نجيب)، الزعيم الراجعة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهي المذكرات التي تضمنت فيما هو معروف هجوماً ضارباً علي الرئيس الراحل (جمال عبد الناصر)، وصل إلي حد الإيحاء بأنه كان عميلاً للمخابرات الأمريكية..!

وصدور هذه الطبعة المصرية من مذكرات (اللـواء محمد نجيب)، يحمل الدليل علي مدي ما ارتكبتـه (حـرب المذكرات) من آثام في حق السياسة.. وفي حق التاريخ!.

والمسألة ببساطة أن الطبعة المصرية من مـذكرات (اللواء محمد نجيب) تختلف عن الطبعة اللبنانيـة... ففيهـا فقرات محذوفة.. وأخري أعيد صـياغتها.. وهـذا نمـوذج للإفساد الذي لحقته السياسة بالتاريخ!.

فقد خرج اللواء نجيب من عزلته قبل أكثر من عمين لينشر مذكراته في مجلة (الحوادث) اللبنانية، فأثارت ضـجة كبرى عند نشرها، وتدخل (محمد حسـنين هيكـل) رئـيس تحرير الأهرام – وكان له نفوذه القوى في السلطة المصرية حينذاك – ومنع دخول أعداد مجلة (الحوادث) التي تتضـمن المذكرات إلي مصر... إذ كانت تتضمن تعويضاً به، فضـلاً عن تعويضها بعبد الناصر....

وبرغم أن الرقابة علي النشر فـي القـاهرة منعـت دخول أعداد المجلة إلا أنها سمحت بدخول نسخ محـدودة لا تتجاوز الألف من الكتاب الذي ضم مذكرات اللواء نجيب وقد نفذت في أيام قليلة – ولاحظ الذين قرأوهـا أن المـذكرات تتضمن هجوماً واضحاً علي الأخـرين (علـي ومصـطفي أمين)، صاحبا دار (أخبار اليوم)، وزعيما التيـار المعـادي للناصرية في الصحافة والسياسة المصرية.. وكانا – عنـدما صدرت المذكرات في كتاب قد عـادا إلـي مكانتهمـا فـي الصحافة المصرية... وشلح (هيكل) من مكانه العتيـد فـي (الأهرام) وفقد نفوذه السياسي بعد خلافه الشهير مع (الرئيس السادات) حول ما سماه هو نفسه (إدارة الصراع السياسـي

بعد حرب أكتوبر)... وقد ذهب بعض المراقبين وقتها إلـي القول بأنه لولا شلح (هيكل) لما حدث ولا فـي الأحـلام أن يقرأ مصري واحد مذكرات تتهم كلا من هيكل وعبد الناصر بأنهما عميلان للمخابرات الأمريكية.

ولم يكن في هجوم اللواء (محمد نجيب) علي أخبـار اليوم أمري غريب... فمن المعروف أن (أخبار اليـوم) قـد وقفت موقفاً معاداي للواء (محمد نجيب) إبان أزمة مـارس آذار – ١٩٥٤، وساندت (عبد الناصر) بكل قوتها، ولم تكن في مساندتها له تنطلق من أسس مبدأيه، ولكنها كانت تعلم أن (عبد الناصر) هو مركز الثقل الأساسي في حركة الضـباط الأحرار، وأن انتصاره مؤكد علي خصم العجـوز وهكـذا راهنت (أخبار اليوم) علي الجواد الرابح.

وفي تلك الفترة هاجمت (أخبار اليوم) اللواء (محمـد نجيب) ولعبت كما يقول اللواء نجيب نفسه فـي مذكراتـه، دوراً (مخرباً) للإيقاع بين الضباط، ولمنع التوصل إلي قرار يسمح بإطلاق الحريات الديمقراطية.

ومن أطراف الذكريات التاريخية عن موقف (أخبار اليوم) وقتها، ما يرويه أحد الضباط الذين كانوا بالقرب مـن

(محمد نجيب) آنذاك فعندما أقال مجلس قيادة الثورة (محمـد نجيب)، الذي كان يتمتع بشعبية هائلة، خرجت (أخبار اليوم) بالخبرعلي صدرها، وبحكمة، في زاوية (حكمة اليوم) التـي كانت – وما زالت – تتضمن من خلال (التورية) رأي أخبار اليوم في الأحداث، وكانت حكمة الأسبوع الذي أقيـل فيـه (محمد نجيب) هو (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد ا فإن ا حي لا يموت).

وبعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ – ونتيجـة لوقـائع أزمة مارس – آذار ١٩٥٤ – المعروفة – عاد (اللواء محمد نجيب) إلي منصبه في رئاسة الجمهورية، وتصادف أن قابل (مصطفي أمين) صدفة في مجلس قيادة الثورة فـي اليـوم التالي لعودته للسلطة فقال له:

هو صحيح محمد مات؟!،،

وأسرع (مصطفي أمين) يتواري من وجـه (اللـواء نجيب) ويفكر في حكمة أخـري تحسـن علاقتـه بـرئيس الجمهورية التي ظنه ذهب ولن يعود، فإذا به يعود بعد ثلاثة أيام!.

كان طبيعيا إذن أن يهاجم (اللواء نجيب) في مذكراته (أخبار اليوم) وصاحبيها وأن يفضح دروهما في أزمة مارس – آذار- ١٩٥٤، لكن ما لم يكن طبيعياً هو أن إسم اللـواء نجيب بدأ يتكرر في صحف دار أخبار اليـوم رغـم ذلـك الهجوم...

وكانت أول مرة ظهر فيها اسم (اللواء نجيب) بعـد شهور قليلة من صدور مذكراته في طبعتها البيروتية، عندما نشرت (أخبار اليوم) في باب (عزيزتي أخبار اليوم) رسـالة من قارئ يسألها عن مذكرات (اللواء محمد نجيـب)، وقـد أجاب عليه (مصطفي أمين) – الذي كان آن ذاك يـ ـرد علي أسئلة القراء ويصوغ آراءهم، وغالبا من يؤلفها عنـدما يخدم ذلك غرضاً من أغراضه- قائلاً. إن مـذكرات محمـد نجيب الكاملة، والحقيقية ستنشر قريباً في مصر.

وكان هذا أول إعلان بأن مذكرات نجيب التي نشرت في لبنان ليست حقيقية وهو ما جعل كثيرين ينتظرون هـذه الطبعة الحقيقية. وبينما هم ينتظرون كشفت اخبار اليوم مـن نشرها آراء لقراء تدافع عن (اللواء محمد نجيب)، وتتهم عبد الناصر بشر التهم، كان أقساها مقال كتبه (أحمد حسـين) –

وهو زعيم سياسي سابق لحرب مصر الفتاة – يتهم عبد الناصر بأنه سرق الثورة من صانعها الحقيقي (اللواء محمد نجيب)!

وهكذا تأكل أن هناك تحالفاً جديداً بين (اللواء نجيب) وبين (أخبار اليوم) وأن اللواء العجوز قد نضم إلي الجوقة التي نظمتها (أخبار اليوم) للهجوم علي عبد الناصر.

ومع أنه كان واضحاً أن هناك صفقه عقدت بين الطرفين، إذا يفيد كليهما لا شك الهجوم المكثف والمستمر علي عبد الناصر، فإن السؤال الذي أطل برأسه كان: ماذا قدم اللواء نجيب لدار (أخبار اليوم)... مقابل هذا التحالف الجديد؟!

ومنذ أسابيع ليست بالقليلة صدرت الطبعة المصرية من مذكرات اللواء (محمد نجيب) لتحمل الإجابة علي هذا السؤال: فقد شطب اللواء نجيب من المذكرات كل ما يتعلق بأخبار اليوم.. وموقف التوأمين قبل الثورة وبعدها.. والغريب أن الطبعتين اللبنانية والمصرية بلا ناشر معروف. فليس علي الطبعة اللبنانية اسم أي دار للنشر... والطبعة المصرية عليها اسم ناشر وهمي!

وفي صفحتي ١٠٥، ١٠٦ من الطبعة البيروتية مـن كتاب (كلمتي للتاريخ) الذي تضمن مذكرات اللواء نجيـب، قال وهو يتعرض للظلم الاجتماعي الذي كان سائداً في مصر قبل ثورة ١٩٥٢، وموقف الصحف منه: أن (أخبار اليـوم) كانت تبرز هذه المظالم وجاء في نص المذكرات وكثير مـن الأفكار والفلسفات كانت تصور الأمور للنـاس بأنهـا سـنة الحياة وأن علي النفس أن تقبل ما قسم لها به بـل ونشـرت جريدة (أخبار اليوم) تقول: (إن الملك فاروق هـو المحسـن الأول... وأنه الطارق الذي يطرق أبواب بعض الناس فـي ليلة القدر).

وفي الطبعة المصرية (ص ١٩٦) غير اللواء نجيب هذه الفقرة وجعلها: (ونشرت صحيفة) متستراً علي (أخبـار اليوم) وحاذفاً اسمها من هذه الواقعة الثابتة!.

وفي صفحة ١٣٣ من الطبعة البيروتية من المذكرات استعرض اللواء نجيب اتجاهات الصحف المصرية إبان أزمة مارس – آذار ١٩٥٤ تجاه قضية الديمقراطيـة مؤكـداً أن أصحاب أخبار اليوم شاركوا في صنع ما يعتبـره (اللـواء نجيب) ديكتاتورية عبد الناصر) بأساليب مختلفة، كان منهـا

أثناء الأزمة عملت علي تحويل أفكار الناس عـن معركـة الديمقراطية.

(أذكر أن جريدة أخبار اليوم في هذه الفتـرة كانـت تواصل أسلوبها في الإثارة لتحويل أنظـار الجمـاهير عـن مشكلتها الحيوية الرئيسية، فنشرت مثلاً في يوم ٢٢ مـارس (آذار) ما نشيت يقول: (فتاة مصرية تتحول غداً إلي رجـل ونشرت صورة الفتاة علي ٣ أعمدة.

ويواصل (اللواء نجيب) في نفس الصفحة من الطبعة البيروتية الحديث عن (مصطفي أمين) فيقول:

(وكان مصطفي أمين حامل رتبه البكوية من المالـك وأحد المقربين له من الصحفيين، وقد تحول بعد الثورة فجأة لمهاجمة الملك والسراي وفضح أخبارهم الشخصـية جريـاً وراء الإثارة وزيادة التوزيع.. وكان هـذا يحـرف أنظـار الناس عن الإهتمام بحاضرهم ومستقبلهم لمتابعـه فضـائح الماضي، الأمر الذي جعل الصحف تسايرهم في هذا التيـار حتي لا تتخلف عن التوزيع، كان هذا الموقف اللاأخلاقي في ذاته لا يرضيني ولا يريح نفسي).

وكل هذا الكلام شطب من الصفحة ٢٠٧ من الطبعة المصرية للمذكرات... فلا تتضمن هذه الصفحة أي إشـارة إلي الإثارة ولا إلي موقف (مصطفي أمين) الذي لـم يكـن يرضي اللواء نجيب عندما أصدر الطبعـة البيروتيـة مـن المذكرات، وأصبح فيما يبدو يرضيه بعد شهور قليلـة هـي الفرق بين صدور الطبعتين البيروتية والقاهرية!.

وفي صفحتي ١٣٥، ١٣٦ نشر (محمد نجيب) واقعة اتصاله، بمصطفي النحاس) زعيم حزب الوفد للتأكيد من أنه ألغي قرار تحديد الإقامة الذي كان مفروضا عليه والذي كان الاتفاق بين – (محمد نجيب عندما أصدر الطبعة البيروتيـة من المذكرات، وأصبح فيما يبدو ترضية بعد شهور قليلة هي الفرق بين صدور الطبيعتين البيروتية والقاهرية!.

وفي صفحتي ١٣٥، ١٣٦ نشرا (محمد نجيب) واقعة اتصاله (بمصطفي النحاس) زعيم حزب الوفد للتأكد من أنـه ألغي قرار تحديد الإقامة الذي كان مفروضا عليه والذي كان الاتفاق بين (محمد نجيب) ومجلس القيادة قد تم علي إلغائه والإفراج عن كافة الزعماء السياسيين الموقوفين لتهيئة لجـو لعودة الحياة الديمقراطية وقال:

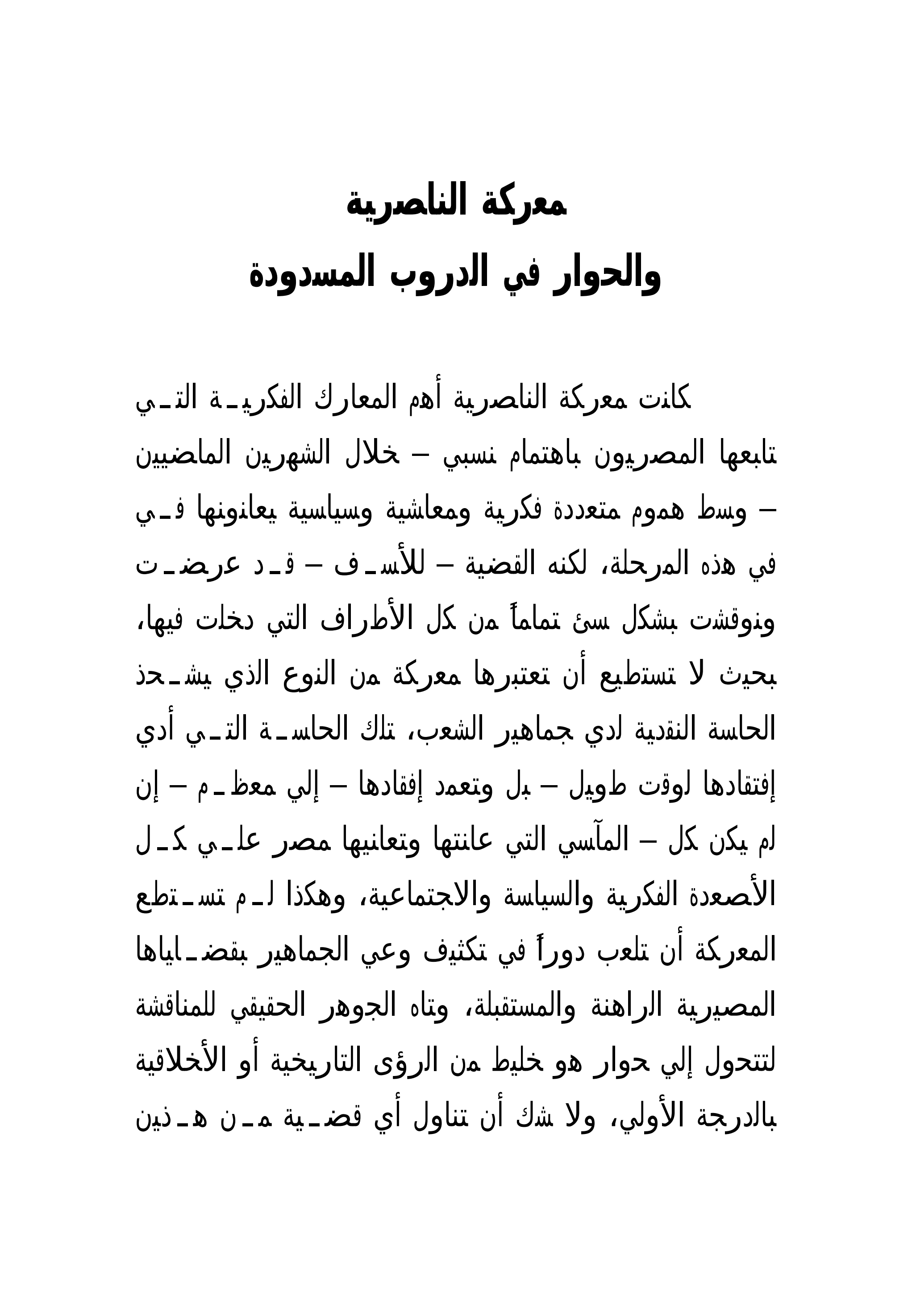
(وكانت هذه المكالمة فيمابعد سبباً في أشاعه أراجيف نشرتها صحيفة (الأخبار) عن اتصالات سريعة بيني وبين الأحزاب).

وجاءت الطبعة المصرية في صفحة ٢١٠ تغفل اسم الجريدة وتجهله ليصبح النص: سبباً فـي إشـاعة اراجيـف نشرتها أحدي الصحف عن...).

وجاء في الطبعة البيروتية (١٤٢) إشـارة ذكرهـا محمد نجيب عن موقف جريدة (الأخبار) فـي عـام ١٩٥٤ عندما كانت تعارض في عودة الديمقراطية آنذاك، إذا ذكـر أنه من (مظاهر الإثارة المتعمدة في ذلك الوقت مـا نشـتره صحيفة (الآخبار) من صورة كبيرة في صـفحتها الأولـي الخالد محي الدين وهو يسبقني بخطوات وعقب الخروب من جلسة ٢٥ مارس وكأنها توحي للناس بأن الشيوعيين قادمون لتخفيفهم من الديمقراطية!

أما الطبعة المصرية فقد أوردت الفقرة في صـفحة (٢١٩) وقد حذف اسم (الأخبار) لتحل محلة عبارة (إحـدي الصحف)!.

ولا معني لهذا التغيير الذي حدث في مذكرات اللواء محمد نجيب إلا أنه الرجل يخضع للهوي فيما كتب عن عبد الناصر: أنه شاهد يغير شهادته في خلال شهور قليلة لأسباب قد لا تهم... وربما لو أصدر طبعـة أردنيـة أو كويتيـة أو مغربية من المذكرات لعدل في صفحات أخري.. ! وهذا هو خطر الاعتماد علي حرب المذكرات فـي تقيـيم حـوادث التاريخ ! فهي حرب أفسدتها التاريخ.. وأفسـدت السياسـة وخلقت مؤلفين من العدم وناشرين من الهواء... والأخطر كم ذلك كله. أنها جعلت من الخونة أبطالاً ومن الأبطال خونة.



معركة الناصرية
والحوار في الدروب المسدودة

كانت معركة الناصرية أهم المعارك الفكريـة التـي تابعها المصريون باهتمام نسبي – خلال الشهرين الماضيين – وسط هموم متعددة فكرية ومعاشية وسياسية يعانونها فـي في هذه المرحلة، لكنه القضية – للأسـف – قـد عرضـت ونوقشت بشكل سئ تماماً من كل الأطراف التي دخلت فيها، بحيث لا تستطيع أن تعتبرها معركة من النوع الذي يشـحذ الحاسة النقدية لدي جماهير الشعب، تلك الحاسـة التـي أدي إفتقادها لوقت طويل – بل وتعمد إفقادها – إلي معظـم – إن لم يكن كل – المآسي التي عانتها وتعانيها مصر علـي كـل الأصعدة الفكرية والسياسة والاجتماعية، وهكذا لـم تسـتطع المعركة أن تلعب دوراً في تكثيف وعي الجماهير بقضـاياها المصيرية الراهنة والمستقبلة، وتاه الجوهر الحقيقي للمناقشة لتتحول إلي حوار هو خليط من الرؤى التاريخية أو الأخلاقية بالدرجة الأولي، ولا شك أن تناول أي قضـية مـن هـذين

المنظورين فقط يبعد بها درجات عن الواقع الـراهن وعـن المستقبل القريب، وبينما تعيش مصر – والمنطقـة العربيـة عموماً – مرحلة تفرض علي تناول موضوع كهذا الموضوع بالذات تناولاً يربط بهذه المرحلة، فإن هذا الارتباط قد فـك هو الآخر، وتاه ما بقي من جوهر الموضوع ليتحـول إلـي قضية خلقية تماماً من النوع الـذي يصـلح الإحـراج فيـه بالحديث الشريف (اذكروا محاسن موتاكم) أو بالمثل الشعبي الدارج (يا بخت من قدر وعفا) أو بعبارة (•)

دعاء مثل (ربنا يسامحنا كلنا) !!.

وعلي الرغم من أن المعركة بهذا المنظـور تغـري تماماً بالانصراف عنها، إلا أنها – ومن هذا المنظور نفسـه، تغري أيضاً بتناولها، ذلك أننا مطالبون – في كل الأحوال – ألا نفقد صبرنا تجاه واقعنا الفكـري، وأن نحـاول تحليـل ظواهره وفهمها وتشخيص علله وأمراضه، ويقـدم رصـد الاتجاهات المتعددة لهذه المعركة مادة علمية تصلح لتحليـل وفهم وتقييم الوضع الراهن علي الجبهة الفكرية في مصـر،

(•) نشرت في مجلة الثقافة البغدادية – يوليو ١٩٧٤

وما تعانيه من قحط شديد، وما ألفته عليهـا الظـروف مـن ظلال ثقيلة الوطأة. ومهام بالغة التعقيد.

وكالعادة كان موقف اليمين واضحاً تماما الوضـوح، ولكنه ليس الوضوح الذي تشعه رؤوس تملك عقولاً، وإنمـا إفرازات جهل وجاهلية ونفاق، لكنه في كل الأحوال – مـع اختلال بنائه المنطقي – كان منسجماً مع واقع أصحابه ومع رؤيتهم ورؤاهم، ومع مصالح الشـرائح الاجتماعيـة التـي ندبتهم أو ندبوا أنفسهم للدفاع عنها. لكن موقف بعض فصائل اليسار – مع صحة منطقهم – لم يكن فـي كـل الأحـوال منسجماً مع رؤي أصحابه ولا مع الأهداف الاستراتيجية التي يزعمون لأنفسهم العمل من أجلها.

العودة إلي البداية:

ومن الصعب أن نحدد بدقة البداية الفعليـة للهجـوم علي (عبد الناصر)، ذلك أن الشهور الثمانية التاليـة لوفاتـه كانت قد شهدت تركيزاً شديدا علية وعلي ضرورة استمرار خطه ومبادئه وبرمجة، وكتب وقيل وقتها الكثير فـي هـذا الاتجاه علي الأصعدة الرسمية والشعبية. وقد أسـتمر هـذا التركيز بعد أن انفرد الرئيس (السادات) بالسـلطة، وخـلال

عملية تصفية ومحاكمة جناح (علي صـبرى) لكـن نغمـة أخري بدأت – علي صعيد المعالجة الدعائية – في خلال هذه الفترة، هي استخدام مصطلح (ثورة ١٥ مـايو) بـدلاً مـن التعبير الذي استخدم الرئيس (السادات) نفسه وهـو (حركـة ١٥ مايو)، وما لبثت هذه النغمة أن علا صـوتها تـدريجيا لتعطي الايحاء صراحة بأن هناك (ثورة جديدة) في مصـر، وهو ما أثار قلق الناصريين الأرثوذكسيين الذين رأوا في هذا المعني استبدالاً لثورة ٢٣ يوليو بثورة جديدة وبقيادة جديدة.

وزاد من تعقيد الموقف أن الصراع علـي السـلطة الذي استمر حوالي شهرين قبل ا، ينتهي في ١٤ مايو ١٩٧١ بهزيمة واعتقال جناح (علي صبري) – كان قد جذب إليـه قوى متعددة – ولكنها محدودة العدد – راهن كل منها حسب مصالحة لاشخصية في الغالب – مع احتمال ضئيل لوجـود موقف سياسي – علي أحد طرفي الصراع، وكانت النتيجـة التي انتهي اليها الصراع تعنـي هزيمـة الـبعض فكريـا، وانتصار الآخرين، وضياع مصالح هؤلاء وازدياد مكاسـب أولئك. وقد تركز هذا الرهان في ميدان الفكر والصحافة وفي الأبنية الفوقية لبعض المؤسسات، ولم تكن له أية علاقة علي

(الإطلاق بحركة الجماهير الشعبية، فالنظام الناصري بمجمله وبكل أجنحته، وباعتراف أصدقائه المتيمين بـه.. وأعدائـه المشهرين به، وحلفائه الذين يتفقون معه في بعض ما دعـا إليه، كان حريصاً دائماً علي أن يضـع الجمـاهير الشـعبية خارج الحلبة، وأن يتصارع بعيداً عنها وبسرية مطلقة. وأن لا يسمح لها بأن تكـون – لا سـمح ا – طرفـاً فـي أي صراع!

وكانت المشكلة التي واجهتها القوى الوطنية المستقلة عن النظام الناصري بكل أجنحته، والتي تتحالف معـه فـي خطه العام المعادي للإمبريالية، والتي كان تناقضها الثـانوي معه يأخذ درجه من الحدة في بعـض الظـروف، وخاصـة إصراره المستميت علي كبت الحريات الديمقراطية، وعداؤه الدائم والمستمر للعناصر الديمقراطية والماركسية، وإصراره علي عدم التعاون مع العناصر المستقلة عنه إلا بعد أن يتأكد من تحطيم ذاتيتها وإفقادها هويته أو تحويلها إلي ذيل تابع له، كانت المشكلة من وجهة نظر هؤلاء هي حيرتهم في تحديـد موقف في ظرف صراع حاد علي السلطة، يدركون أنه ليس صراعاً سياسياً بالأساس، وأن ما يدفع بعض أطرافه للظهور

بمظهر (اليعاقبة) هو مجرد الرغبة في إحكام قبضتهم علـي السلطة، كما أن مراهنة الأطراف الأخـرى علـي قضـية الديمقراطية يدعو للريبة لا للثقـة، فالرهـان علـي قضـية الديمقراطية لعبة قديمة مارستها كثيراً المجموعات المختلفـة لسلطة ٢٣ يوليو خاصة عندما تدفعها الظروف إلي صـراع بين أجنحتها ترع معه كل جناح، ضرورة الرهائن علي شئ محبوب ومطلوب جماهيرياً لتصفية مـن ينافسـونها علـي السلطة. وكانت كل تجارب (الثورة) تؤكد هذه، فأزمة مارس (أذار) ١٩٥٤كانت صراعاً علي السلطة داخل مجلس قيـادة الثورة، ولإدراك العناصر المصارعة أن الجماهير الشـعبية تشتاق بشدة لأى إنفراج ديمقراطي، فقد سارع كل منها إلـي ارتداء مسموح الديمقراطية، مؤكداً أن يسـعي إليهـا بينمـا يسعي الآخرون إلي الدكتاتورية.

وعندما اشتد الصراع بين (عبـد الناصـر) و(عبـد الحكيم عامر) في عام ١٩٦٢ – الإحساس (عبد الناصر) بأن المشير قد أحكم قبضته علي الجيش – سارع عـاملا إلـي الرهان علي الديمقراطية وقد استقالته مسببة، أعـاد طبعهـا وتوزيعها كمنشور بعد النكسة – وإبان تجدد واشتداد الصراع

بينهما في صيف ١٩٦٧، وكان منشوراً مضـحكاً بالفعـل، لدرجة أنه أثار سخرية (علي نور الـدين) – النائـب العـام وممثل الاتهام في قضية (شمس بدران) ومجموعه المشـير- فتساؤل في مرافعته ضد المتهمـين (أي ديمقراطيـة كـان يقصدها (شمس بدران): ديمقراطية المعـتقلات والتعـذيب والزنازين والمباحث الجنائزية العسكرية؟!!.

وكان من رأي بعض مفردات هذه القـوى الوطنيـة المستقلة، إن المحك الذي يخرجها من حيرتها هـو تغليـب التناقض الرئيسي علي التناقض الثانوي، ولما كان لا خلاف هناك علي أن التناقض الرئيسي – كان ومـا يـزال – مـع الإمبريالية الأمريكية وحلفائها، فإن لا ديمقراطية الجناح الذي كان يسمي باليساري، لا تدفع لعدم تأييده، طالما يأخذ موقفـاً صحيحاً ومتشدداً في المسالة الوطنية، ورد علـيهم آخـرون بضرورة ربط التناقض الثـانوي بـالرئيس، ومـع ثانويـة التناقض مع السـلطة الناصـرية بمجملهـا حـول قضـية الديمقراطية، إلا أن الارتباط بين التناقض الثانوي والرئيسي يفترض موقفاً مختلفا، فسيادة الظروف اللاديمقراطية قد أدت إلي التصرف في القضية الوطنية بشكل يهدد مستقبل الوطن،

وضربوا مثلاً لذلك بقبول مبادرة روجرز، وتقـديم النظـام المصري لمبادرة ٤ فبراير ١٩٧١ – التي وافق عليها الجناح (اليساري) في السلطة وقتها بتعديلات شكلية.

ورأي فريق ثالث أن الموقف كله خارج أطار العمل السياسي الممكن، فليس في مصر أي قوى سياسـية منظمـة قادرة علي الحركة، والدخول في الصراع بشكل شخصـي، مسألة مضحكة، وليس له أي معني علي الاطلاق، لأنها لـن تغير في نتائجه، هذه النتائج التي لم تكن معروفـة أصـلاً، لتعود النظام الناصري علي صراعات فوقية وسلطوية، ولعل هؤلاء كانوا يفضلون أن ينجح النظام في رأب الصداع الذي وقع في صفوفه، والذي حدث بشكل مبكر وفي ظروف لـم تكن بالقطع أفضل الظروف.

في ضوء هذا كان موقف هذا الفريق الثالـث هـو الحياد التام، وانتظار النتائج النهائية للتغير الجديد في السلطة لمعرفة اتجاهه ثم الحكم عليه، في ضـوء أهـداف محـددة وواضحة، هي المزيـد مـن السياسـة الوطنيـة المعاديـة للإمبريالية، وما يتضمنه هذا من تحالف مبدأي مع كل القوى العالمية المساندة لحركة التحرر الوطني العربيـة وإطـلاق

الحريات الديمقراطية الحقيقية لكل القوي السياسية التي تخدم هذا الهدف.

لكن كثيرا من الناصريين الأرثوذكسيين في مصـر. كانوا قد تكونوا سياسياً وفكرياً في ظروف معقدة، الأمر الذي جعل منهم نماذج سياسية شديدة التعقيد ومختلفة تماماً عن أي قوى سياسية أخري في أي بلد من بلاد العالم، فقـد افتقـدوا دائماً – وبسبب طابع النظام الناصري نفسه – عملية التربية السياسية الحقيقية التي تكفلها التنظيمات والأحزاب السياسة – علنية وسرية – أعضائها وكوادرها، مـن حيـث العلاقـة التنظيميـة الموضـوعية، والإخـلاص للأهـداف ولـيس للأشخاص، وللبرامج وليس للأجهزة البوليسـية، والصـراع السياسي وليس الشخصي، كما أنهم أميون تماماً فيما يتعلـق بالنشاط السياسي العملي، وديماجوجيون بشكل مزري، ولهذا عجزوا بإستمرار عن أي قدرة علي التحريـك الجمـاهيري البطئ والعملي، وفهمهم لخريطة التحالفات السياسـية فهـم خاطئ تماماً، فلا هم لهم إلا تحطيم حلفائهم، وهم يستدرجون غالباً إلي المواقع اليمينية بينمـا يظنـون أنفسـهم يعاقبـة متطرفون، ولهذا ينجحون دائماً في اتخاذ مواقف (عنتريـة)

شديدة المظهرية، قليلة الجدوي، ويتخـاذلون فـي الغرفـة الضيقة وفي المساومات التحتية، وتصـورهم لجمـاهيريتهم مضحك، فهم شديدو المبالغة في جماهيرية أفكارهم، وخاصة في مصر التي لا جماهيرية لأى تيـار سياسـي فيهـا، لأن النظام الناصري قد وهبه ا قدرة غير محدودة علي تحطيم أي جماهيرية حتي جماهيريته هو نفسه!

والغريب أن النموذج الناصري، قد إفتقد تمامـاً لأي شجاعة للنقد والنقد الذاتي، لهذا كان يغير آراءه بطريقة تدعو للدهشة الشديدة، فقبل قبول (عبد الناصر) لمبادرة روجـرز سارع منظرو الناصرية، يهاجمون المقترحات ويرفضـونها ويحللون مبررات الرفض مـن خـلال مـوقفهم السياسـي والإيديولوجي، ثم فوجئوا بعبد الناصر يقبلهـا ويربـك لـه مغزلهم، فلم يصمتوا ولكنهم سارعوا يناقشـون المقترحـات ويكتشفون الوجاهة في قبولها.. دون أن ينقـدوا أنفسـهم أو يعلنوا بشجاعة أنهم أخطأوا الفهم.

ومن الصعب أن تجد النموذج الناصري سياسياً خالياً من التناقض، فالناصرية التي اعتمدت فكرياً تلفيقياً يقوم علي مصالحة مضحكة بين الطبقات وعلي نفـي دائـم ومسـتمر

لقانون الصراع الطبقي، قد خلقت هذه الإزدواجية في نفوس وعقول أتباعها المتشنجين، فقد ظل الناصريون يروجون مثلاً أن (محمد حسنين هيكل) هو عميل للمخـابرات الأمريكيـة: فإذا سألت أحدهم أن يقدم لك مبرراً لقربه الشديد مـن عبـد الناصر، قال إن عبد الناصر لا يعلم، وهو نوع من التفكير لا أجد ما أطلقه عليه، إذ كيف يعلم تابع يقف في الصـف العاشر معاومة خطيرة كهذه، وتغيب عن الذي كانت في يده أجهزة من أعتي أجهزة التصنت والتجسس في العالم كلـه.. والمناقشة المنطقية المعقولة لا بد أن تقوم علـي معادلـة أن (هيكل) إذا كان عميلاً للمخابرات الأمريكية فلا بد أن (عبـد الناصر) هو الآخر كذلك، ولما كان هذا الاحتمال غير وارد، فلا جدال أن اتجاهات (هيكل) الغريبة عموماً ليست عمالـة، ولكنها تعكس وجهة نظر مشتركة بينه وبين عبد الناصر.

وسنخطئ جميعاً وفي كل أنحاء الوطن العربـي إذا تجاهلنا هذه الحقيقة الواضحة، هي أن (هيكل) هـو المنظـر المعتمد لدي الناصرية والمتحـدث الرسـمي بإسـمها، وأن دراسة مقالاته وكتبه والخطب التي كـان يصـوغها لعبـد الناصر، هي المصدر الأساسي لفهم الناصرية كما هي فـي

الواقع، ولكن كثيرين أسقطوا علي (عبد الناصر) مـا لـيس فيه، ومنحوه دوراً يتجاوز دوره الحقيقي، وسنظلمه ونظلـم الحقيقة إذا تصورنا وحشاً، أو قيمنا حكمه تقييماً سلبياً، فـلا جدال في أنه كان أكبر وأهم وأعظـم زعمـاء البرجوازيـة المصرية في كل تاريخها الطويل، وأن الثورة البرجوازيـة المصرية في ظل حكمه قد حققت ما لم تحققه في أي حلقـة أخري من حلقات الثورة الوطنية الديمقراطيـة ذات الأفـق البرجوازي، وأنه كان في إطار هذا الأفـق أكثـر زعمـاء البرجوازية المصرية وطنية وعداء للاستعمار، ولكن الوطنية البرجوازية – وخاصة في مرحلة تحقق الثورة البرجوازيـة في عصر الإمبريالية – دائماً محل نظر!!

وكـان طبيعيـاً أن يـأتي النمـوذج الناصـري- الأرثوذكسي بالتحديد – بهذا الشكل، فهو نموذج ناضل وهو في السلطة، وتربي في أحضانها، ووجد نفسه مطالباً دائمـاً بتبرير كل تصرفاتها، فإذا هاجمت هذه السـلطة الشـيوعية والشيوعيين وشنت حملة صليبية منحطة ضـدهما، ارتـدي مسوح أعتي مفكري اليمين وأخذ يتحدث – بسطحية وشعوذة فكرية– عن الاستعمار الروسي، والغزو الفكري وغيرها من

حثالات الأفكار ونفايات النظريات، التـي تروجهـا وكالـة المخابرات الأمريكية، وبينما كانت البرجوازية مسيطرة فـي مصر، خرج (عبد الناصر) بنظرية الإشتراكية الديمقراطيـة التعاونية، أسرع منظرو الناصرية يتحـدثون عـن التجديـد النظري العبقري الذي أدخلته هذه النظرية علي عالم الفكـر الثوري، وقارنوا بينها وبين الليبرالية والماركسية، وانتهـوا بأنها أفضل منهما، وأنها أتت بما لم يأت به الأوائـل، ذلـك نفس ما حدث أيام الحديث عمـا سـمي – ب (الاشـتراكية العربية) و (التطبيق العربي للاشتراكية العلمية)، فقـد جـاء تقرير الميثاق ليحدد بالضبط معنـي (الاشـتراكية العلميـة) مؤكداً أنها الاشتراكية التي تعتمد في التنفيذ كل تطبيقات العلم الحديث في ميادين الانتاج والخدمات) (محاضـر المـؤتمر القومي للقوي الشعبية ص ٤٧٠)، وقال (عبد الناصر) إنهـا اشتراكية علمية تعتمد علي العلم، كل حاجة بتعتمد علي العلم حتي كرة القدم!!)). لكن هذا التفسير العبقـري للاشـتراكية العلمية كان يصدر لليمين الاجتماعي والفكري لطمأنته بينما كان يصدر لليسار همسات تؤكد أن عبد الناصـر ماركسـي

متنكر، وأنه لا يريد استفزاز الرجعية ولـذلك فهـو يتقنـع ويضحك علي أهل اليمين.. وأن هذا تكتيك ذكي!!.

ولأن الايديولوجيــة لا تعــرف بدعــة (التكتيــك الإيديولوجي) فقد وقع (التنظيم الطليعـي) – وهـو الجهـاز الخاص أو الحزب الاشتراكي الذي أنشئ بشكل سري داخل إطار الاتحاد الاشتراكي – الذي أنشئ بشكل سـري داخـل إطار الإتحاد الاشتراكي – في خطـر شـديد، أشـار إليـه (الدكتور جمال العطيفي) – وكيل مجلس الشعب المصـري في مقال أخير له بالأهرام – هو خطر التحول إلي منظمـة فاشية نتيجة لافتقادة لإيديولوجية حقيقية سـوى إيديولوجيـة الذيلية للسلطة والتبعية لها والدفاع عنها ظالمة ومظلومـة!.. وانعكس واقع السلطة في مصر علي هذا التنظيم الغريب، فقد بدا يتشكل بتكليف من (عبد الناصر) لعدد من معاونيه بـأن يجند كل منهم مجموعات يختار أعضاءها بمعرفته، وكـان من هؤلاء (سامي شرف) – وزير شؤون رئاسة الجمهورية حتي ١٥ مايو ١٩٧١- و (شعراوي جمعة) – وزير الداخلية الأسبق – و (محمد حسنين هيكل) وآخرون، كانوا مختلفـي الإتجاهات متناقضي الإيديولوجيات – إذا فرضنا أن هنـاك

إيديولوجية محددة لكل منهم – وتحكمت عوامـل شخصـية وشللية في إختياراتهم، وما لبث الشيوعيون – أو بعضـهم – أن استدرجوا إلي ويستخدمها في إبقاء الجماهير بعيدة تمامـاً عن الحلبة، ويساوم بها مع الاتحاد السـوفيتي، فيسـتدرجه ليكون عملية طعماً للولايات المتحدة الأمريكية، يبتزها بـه، ويحاول عن طريقة أن يدلف إليها.

وكان طبيعياً أن ينتهي الصراع علي السلطة بانشقاق التنظيم الطليعي فسارعت بعض قياداته إلـي الاتفـاق مـع المنتصر، بينما ظلت عناصر أخري متشبثة بتأييدها للعناصر التي هزمت في المعركة مبررة موقفها بأنهـا تعتبـر هـذه العناصر أكثر يعقوبية وتطرفاً في المسألة الوطنيـة، وانهـا تشكل المجموعة الناصرية في السلطة، وأنها ذات اتجاهـات اشتراكية بل وقيل أنها مجموعة ماركسية أو كانت علي وشك أن تصبح كذلك!!.

وكان طبيعياً أن تسارع أفواج من اليمين الناصـري للتحالف مع المنتصرين والدفاع عنهم، كان علـي رأسـهم (محمد حسنين هيكل) المنظر الرسمي للناصـرية، وأقـرب الناس جميعاً إلي عبد الناصر، وأن تشن معركة ضاربة ضد

العناصر التي سقطت عن السلطة بتهمـة خيانتهـا للثـورة ومعادتها للقومية العربية واستغلالها نفوذهـا وأضـطهادها المواطنين وفتحها المعتقلات والسجون..الخ..

وظلت المعركة من الناحية السياسية قاصـرة علـي الهجوم علي من عرفوا بمراكز القوي – وهـ وتعبير أطلقـه (عبد الناصر) لأول مرة في أواسط الستينات إبان صـراعه مع (عبد الحكيم عامر) – فلم تطل شخص (عبد الناصـر) وأن كان الناصريون قـد أخـذوا يرصـدون عديـداُ مـن التصرفات كدليل علي إهمال قيمة الزعيم الراحل، ومنها عدم الاحتفال اللائق بذكراه الأولي ثم الثانية، وعدم إذاعة فقرات من تراثه أو خطبه في الإذاعة أو علي شاشـة التلفزيـون، وتوقف مشروعات تمجيده، فلم يقع له أي تمثال يخلد ذكراه، وتوقفت المطابع الرسمية عن إعادة طبع خطبة وأحاديثـه – فيما عهدا ما فعله (هيكل) في (الأهرام) – وارتفعت نغمـتهم علواً وهم يرصدون نشر مذكرات (اللواء محمد نجيـب) – رئيس الجمهورية الأسبق – في إحدي المجـلات اللبنانيـة، وقيل ونشر وروج، أن هذا كله لم يتم بعيـداً عـن موافقـة ورضا الأجهزة الرسمية في مصر.

وكانت قوى اليمين الإجتماعي والسياسي والفكري قد ندبت نفسها مدافعة ومؤيدة للنظام الجديد، ومن هنـا أخـذت الفرصة لكي تنشر علي نطاق واسع أفكارها المتدنية الرديئة، فحرصت علي التأكيد المستمر علي أفكار منها (أن مصر قد عادت إلي الإيمان)، وهي عبارة تبدو بريئة المظهر ولكنهـا كانت تعني لكل من يتلقاها أن مصر كانت ملحدة في عصر (عبد الناصر)، وظلت الأمور تعتقد خاصة بعـد أن سـاءت العلاقات بين مصر والإتحاد السوفيتي، وبعد إن شن النظـام حملة دعائية واسعة ضد كل فصائل اليسار إبـان الحركـة الطلابية في أواخر ١٩٧١ وأواخر ١٩٧٢.

وسط هذا الجو وقعت حرب أكتوبر!.

عودة الشبح الأمريكي:

كانت الحرب بلا شك مفاجأة مذهلة لكل المـراقبين السياسيين في مصر، إذا لم تكن متوقعة علي الإطلاق، فقـد أعطي النظام إيحاء بأنه لن يطلق رصاصة واحدة في حياته، ومن هنا فقد كان رد فعلها – لدي كل القوى الوطنية عموماً واليسارية خصوصاً – هو الفرح الغامر والتأييـد المطلـق، واستطاع الجميع أن يدوسوا مراراتهم من المناخ العام الـذي

كان يسود مصر، في الشهور السبع السابقة علـي الحـرب، والتي انطلقت خلالها قوى اليمين كالكلاب المسعورة ترهـب وتهدد وتسيطر بالجهل والجهالة.

وقد تنبه الناصريون في وقت مبكر إلـي أن بعـض الأقلام اليمينة التي كتبت عن الحرب، تحاول التنكـر لـدور (عبد الناصر) في الإعداد لها، وأنها تروح لنغمة أن مصر قد انتصرت لأنها اتبعت سياسة جديدة تماماً، عادت بهـا إلـي الإيمان، وخططت بشكل جديد، وابتعـدت عـن المزايـدات والمغامرات، واتبعت سياسة عربية تجمع ولا تفرق،

ورغم أن هذا كان من وجهة نظر كل القوى الوطنية – أو بعضها – يتضمن إنكاراً لدور الزعيم الراحل (عبـد الناصر) في إعادة بناء الجـيش المصـري وشـن حـرب الاستنزاف، كما أنه يتضمن إفتراء واضـحاً، إذا أن الـذين يتهمون (عبد الناصر) بالإلحاد، يعفون قبل غيرهم كذب هذه الدعوي، فقد كان معظمهم من رجال الدين الرسميين الـذين أغرقهم عبد الناصر بالإمتيازات والمنح، فضلاً عما رصـد في عهده من أموال طائلة لبناء المساجد والبعثات الدينيـة.. الخ. برغم هذا الإنكار والافتراء، فقد رأت، قـوى وطنيـة

متعددة أن فتح معركة مع المفترين هو نوع مـن الصـغار، الذي لا مبرر له، وأن الظروف التي يمـر بهـا الـوطن – خاصة بعد وقف إطلاق النار – تفرض الاهتمام بشئ أكثـر جدية، من مجـرد إنصـاف (عبـد الناصـر) إذ أن مهـام ومتطلبات المرحلة، لم تكن توزيع الفضل، ولكـن اكتشـاف الطريق لتأكيد استمرار النضال ضد الإمبريالية، والذين ماتوا واستشهدوا في النهاية هم أبناء الشعب وهم أصحاب الفضـل الأكبر في أي إنجاز عسكري تحقق أو سوف يتحقق، ولـيس هذا الفرد أو ذاك.

على أن ما فجر المناقش بشكل سياسي أكثر عمقـاً كان مجموعه من العوامل الهامة:

* العامل الآول:. الدور الذي لبعته الولايات المتحدة الأمريكية في عملية الفصـل بـين القـوات علـي الجبهـة المصرية، وهو ما صحبته حملة دعائية واسعة في الصـحف المصرية قامت بها الأقلام الموالية للغرب، وكان الاهتمـام الدعائي بزيارات (الدكتور كيسنجر) مبالغاً فيه بصورة تدعو للدهشة فقد صورت أمريكا كما لو أنها حليفة العرب، تحارب في صفوفهم وتتبني قضيتهم، الأمر الذي أدهش رجل الشارع

العادي الذي كانت الصحف قبل أسابيع قليلة مـن الحـرب وأثنائها تنقل له أنباء معدات الدمار والقتال التي اسـتخدمت قليلة من الحرب وأثنائها تنقل له أنباء معدات الدمار والقتـال التي استخدمت في قتل المصريين علي الجبهـة المصـرية، والعراقيين والمغاربة والأردنيين والفلسـطينيين والسـوريين علي الجبهة السورية، والتي نقلتهـا الولايـات إلـي أرض الحرب مباشرة!..

وكان طبيعياً أن تعطي هذه الحملة – التي تزعمتهـا أقلام قريبة الصلة دوائر الحكم – الإيحاء بأن مصر قد رتبت علاقاتها الدولية، بحيث تدور الفلك الأمريكـي، وقـد انتقـد (إحسان عبد القدوس) – وهو وثيق الصلة بالدوائر الرسـمية – متأخراً جداً هذا الاهتمام، ونفي الاستنتاجات التـي بنيـت عليه. وارتبط بهذا كله تركيز شديدا – علي أصعدة سياسـية رسمية وشعبية – علي علاقات مصر الدولية التي أفسدها ما سمي بالتصرفات الخاطئة والمغامرات، وهـو مـا أعطـي الإيحاء بأن (عبد الناصر) أفسد علاقة مصر بأمريكا، وفهـم بأنه هجوم عليه. وقد فهم تيار التقارب بين مصر وأمريكا – داخل مصر وخارجها – علي أنه يتضمن عدولا عـن خـط

(عبد الناصر) وقيل بأن (عبد الناصر) كـان معاديـاً مـن الناحية المبدأية للولايات المتحدة الأمريكية وهـو مـا يـتم العدول عنه رسمياً الآن في مصر. وإذا نحينا جانباً الدلالات المتعددة للتقارب المصري الأمريكي الآن، فإن تصوير هـذه العلاقات في عهد (عبد الناصر) بأنها علاقات عـداء كامـل أمر غير صحيح. ولا بد من الاعتراف بأن عبد الناصر، قد ترك تراثاً وخبرة وشخصيات، أنشأت مؤسسة أمريكية داخل بنية نظامه، قد تكون إنكمشت أحيأناً، ولكنهـا ظلـت باقيـة وكامنة.. وقادرة علي الحركة.

* العامل الثاني: سوء العلاقات مع الإتحاد السوفيتي ومصر كنتيجة طبية لإنفراد أمريكا بحل المشكلة، ولإنكـار دور السوفيت في دعم الدول العربية أثناء الحرب وقبلها، وقد تبع هذا القول بأن هذا هجوم علي علاقة مبدأية أرساها (عبد الناصر) وعدول عن خطه،وبالمثل فإننـا إذا نحينـا جانبـاً الدلالات المتعددة للتنافر المصـري السـوفيتي الآن، فـإن تصوير علاقات عبد الناصر بالسوفيت بأنها علاقات تحالف مبدأية وإستراتيجية، أمر غير صحيح هو ثابته من مؤسسات

النظام الناصري، قد يخفت دورها أحياناً – وقد يختفي تماماً، ولكنه يظل دائماً قائماً..

* العامل الثالث: تقارب مصر مع مجموعة الأنظمة العربية اليمينية في المنطقة، وتنافرها مع الأنظمة التقدمية، وهو التقارب الذي كان من دلالاته التركيز الشديد علي دور الأنظمة الأولي في الحرب والمبالغة في هذا الدور، ورغم محدوديته، وبالمثل إهمال دور الأنظمة الأخري، فضلاً عن برود العلاقات وفتورها مع الأنظمة الثورية، وهو ما فسر بأنه عدول عن الخط الذي كان ينتهجه عبد الناصر في التصدي. بالعداء للأنظمة التقليدية والتقارب مع الثوريين العرب.

العامل الرابع: انتشار الدعوة إلي العدول عن الإنجازات والمكاسب التي تحققت لجماهير الشعب المصري خلال السنوات العشرين الأولي من حكم ثورة يوليو، فقد طالبت لجنة الخطة والميزانية في مجلس الشعب المصري ببيع ثورة يوليو، فقد طالبت لجنة الخطة والميزانية في مجلس الشعب المصري ببيع القطاع العام إلي الرأسماليين المحليين أو العرب، وصورت بعض الأقلام سياسة الانفتاح

كما لو كانت سياسة لايجدها قيد، ودعوة علنية لرأس المـال الأوروبي والعربي لاستثمار نفسه في مصر، وخرج ساسـة العهد الملكي ومفكريه يكتبون في الصحف يمدحون الـرئيس (السادات) بقصد دم (عبد الناصر) لا بقصد مدح (السادات)، وتكاثرت الشكاوى من الظلم الذي وقـع فـي (الماضـي)، والإلحاح في المطالبة برفع الحراسات.. الأمر الذي ثار مـع كل العوامل السابقة قلقا شديداً في صفوف القـوى الوطنيـة الحريصة علي استقلال السوق المصـرية، والتـي كانـت ومازالت تري أن الإستقلال هو قضـية السـوق بالدرجـة الأولي، وأنه ليس استرداداً للأرض فقـط. ولكنـه أصـلاً وأساساً الحفاظ علي عدم تحول الاقتصـاد المصـري إلـي إقتصاد تابع للاحتكارات الدولية.

ولكن الأمر الذي فجر هذا كله، وحول الأمـر إلـي أزمة، كان صدور قرار بالإفراج عن الصـحفي المصـري (مصطفي أمين) الذي كان قد حوكم في يوليو ١٩٦٥بتهمـة عمالته للمخابرات الأمريكية، وصدر الحكم عليـه بالسـجن لمدة ٢٥ عاماً، وقد سبق الإفراج عنه عودة شـقيقة التـوأم (علي أمين) من بيروت، وقد أثار القـرار دهشـة شـديدة،

واعتبره البعض دلالة علي التقارب المصـري الأمريكـي، وذهب آخرون إلي أنه كان شرطاً من شروط (كيسـنجر)[1] في مباحثات الفصل بين القوات. وكان ممكناً أن يمر الأمـر بسهوله- رغم هذا كله – لو أنه اقتصر علي مجرد الإفـراج الصحي عن صحفي اتهم بالتجسس وعودة شقيقه، لكـن مـا أثار القلق كان السماح للأخوين بالكتابة فـي اليـوم التـالي للإفراج عن (مصطفي أمين)، إذا أفردت جريـدة الأخبـار القاهرية العمودية الأخيرين من الصفحة الأولي لخبر الإفراج ولم تذكر أنه (إفراج صحي) وكتب (مصطفي أمين) بعنوان (عصر العبور) اعتبر نفسه فيها واحداً مـن (المظلـومين) الذين عبروا من الظلم إلي العدل، وقال أن مصر تمـر فـي عصر جديد هو عصر العبور (عبور الجيش المصري مـن الهزيمة إلي النصر، وعبور الشعب العربي من الإنقسام إلي الوحدة، وعبور سمعة العرب من الهـوان إلـي الكرامـة، وعبور المظلومين من الظلم إلي العدل، وعبور الخائفين من

---

[1] فيما بعد ذكر محمد حسنين هيكل في كتابة (بـين الصـحافة والسياسة) (ص ٣٧٣) أن السادات ألمح أمامة إلي أن الإفـراج عـن مصطفي أمين تم بطلب من كيسنجر.

القلق والرعب إلي الطمأنينة والأمان والاستقرار وعبور المقيدين من الأغلال إلي حياة الأحرار).

وهي مقارنة لم تخف دلالتها علي الذين قرأوها إذا كانت تتهم عهد (عبد الناصر) بأنه عصر الهزيمة والإنقسام وهوان السمعة والظلم والخوف والرعب. وهي نفس المعاني التي كررها (علي أمين) في كلمته بعنوان (يارب) التي قال فيها أنه كان واثقاً ان ا لن يتخلي عنه (لأنه ينصر كل مظلوم) وقال انه كان وأخيه (ينتظران دورهما في الإنصاف) (الأخبار القاهرية – ٢٧-١-١٩٧٤).

وتزايدت دهشة الكل بعد ذلك عندما أدي اعتراض (محمد حسنين هيكل) علي حجم دور الولايات المتحدة في حل الأزمه في ثلاث مقالات متتالية [1] إلي إقالته من منصبه بعد أقل من أسبوع من الإفراج (عن مصطفي أمين)، وعين (علي أمين) مديراً لتحرير (الأهرام) – ثم رئيساً لتحريره- مكان هيكل، وهكذا رد التوأمين لهيكل الجميل بشكل أخلاقي حقاً، فقد أصر(هيكل) علي أن يلقب (مصطفي أمين) طوال

---

[1] جمع هيكل هذه المقالات، بعد ذلك في كتاب صدر بعنوان (عند مفترق الطرق).

فترة محاكمته علي صفحات الأهرام بلقب (الأستاذ) وحتـي بعد الحكم عليه، وكان يقوم بزيارته في السجن مـع (سـعيد فريحة)، وكتب كلمه في الصفحة الأولـي بـالإهرام يهنـئ بالإفراج عنه، وتردد أن مصطفي أمين سيعين رئيساً لتحرير (الأخبار)، وصدر قرار بذلك الفعل،ولكنه لـم ينفـذ بسـبب مرض مصطفي وحاجته للعلاج.

وبمجرد تولي (علي أمين لرئاسة تحرير (الأهـرام) بدأ يمارس دوره في الهجوم علي عهد عبد الناصر، وذلـك من خلال بابه اليومي الشهير (فكرة)، وقام هذا الهجوم علي عدة محاور رئيسية:

* المحور الأول: هو تصوير نفسه وشقيقه بأنهمـا كان مظلومين عصف بحريتها وحقوقهما، مركزاً بشدة علي هذا المفهوم، فقد اعتذر في أول فكرة كتبها للقارئ لأنه تأخر عن الكتابة (فمعذرة لهذا التأخير.. ولا أتصور أنه سـيتكرر بعد أن نزع الساعاتي (عقارب) الأمس مـن كـل سـاعات بلادي). ولأن حكام الأمس كانوا (عقارب) فقـد كـان هـو مظلوماً (كان أخي (مصطفي أمين) في زنزانة.. كـان فـي زنزانة كل مظلوم) (الأهرام – ٤ فبرايـر ١٩٧٤)، وهـو

يتحدث عن نفسه فيقول (فلقد ذقت الظلم واكتويـت بـه، ولا أحب أن يذوق عربي واحدا ولا مصري واحدا ما ذقته مـن سياط الظالمين، ولولا إيماني بأن أنور الفجر ستبدد يوماً مـا سحب الظلام لكفرت ببلادي، نريد أن نبدأ عصر العبـور... عبوراً من عصر المظلومين المنتظرين إلي عصر الإنصاف الفورى لكل مظلوم (الأهرام ٨ مارس ١٩٧٤)، وروي مـن مظاهر إضطهاده أنه منع من زيارة قبر أمه، بـل أن (أحـد صغار الموظفين كان يضم باقة الورد في عيد الأم علي قبر أمي، ثم رأي ولاة الأمور أن باقة الورد تقول للناس إنني ما زلت علي قيد الحياة، فاشتروا ولاءة بلقمة عـيش لأطفالـه الجائعين) (الأهرام ٢١- ٣- ١٩٧٤).

وتدعمت هذه الفكرة بسيل من الكتابات ملأت صحف القاهرة ترحب بعودة الأخوين، وكان غريباً أن إيحاءا ما قـد خلاق لدي كثيرين بأن الكتابة عن التـوأمين أمـر مطلـوب ومرضي عنه رسمياً: فسارع كثيرون يبشرون الشعب بعودة البطلين، لدرجة تورد معها (عبد المـنعم الصـاوى) نقيـب الصحفيين فأرسل برقية يؤيد فيها الإفراج عـن (مصـطفي أمين)، كانت محل مسألة في مجلس نقابة الصحفيين، الـذي

كان من رأيه ورأي جماهير الصحفيين والكتـاب الـوطنيين والتقدميين، أن الإفراج عن (مصطفي أمين)، كانـت محـل مسألة في مجالس نقابة الصحفيين، الذي كان من رأيه ورأي جماهير الصحفيين والكتاب الوطنيين والتقدميين، أن الإفراج الصحي عن (مصطفي أمين) هو مسألة إنسانية محضـة لا يمكن أن تنسحب إلي إسقاط التهمة التي ثبتت عليـه بحكـم قضائي، ولا يمكنه أن تسـقط عنـه إلا بإعـادة محاكمتـه ومحاكمة الذين لفقوا له التهمة محاكمة علنية أمـام القضـاء العادي، فإذا برأه وأدان من لفقوا له التهمة، التهمة محاكمـة علنية أمام القضاء العادي، فإذا برأه وأدان مـن لفقـوا لـه التهمة، رد إليه اعتباره، لأن قضايا التجسـس ليسـت مـن القضايا السياسية، ولكن هذا الرأي لم يلـق آذانـا صـاغية، وسار تلاميذ (مصطفي أمين) و (علي أمين)، يكتبون عنـه ليقدمونه في صورة البطل المطلوب لمضطهد، فكتب (موسي صبري) يقول (أنه قرأ جميع محاضـر تحقيقـات قضـية (مصطفي أمين) أربع مرات، وكل مرة ازداد إقتناعاً بقسـوة ظلم الإنسان، م (الأخبار ٧-٣-١٩٧٤)، وكتـب كثيـرون منهم (محمد الحيوان)و (إبراهيم الورداني) و (عبد الـرحمن

فهمي) في الجمهورية، و (أحمد زين) و (حامد دنيـا) فـي (الأخبار) في هذا الاتجاه.

* في المحور الثاني: حرص (علي أمين) علي تأكيد جماهيريته الشعبية الفائقة مؤكداً أنه يمثل الشعب المصـري، فذكر (أن حب الناس الذي دخل زنزانتي وزنزانة أخي، كان هو الهواء النقي الذي يملأ صدورنا وأشـعه الشـمس التـي تحمل لنا أنوار الفجر) وقال أنه (وجد الشعب المصري فـي انتظاره وقد فتح ذراعيه، وأنه لـم يخطـر ببالـه أن فـي استطاعة شعب أن يفتح ذراعيه تسع سنوات) (الأهـرام ٤-٢-١٩٧٤)، وروج (محمد فهمي عبد اللطيف) لهذه الفكـرة الغريبة فزعم أنه (بعد جولة مع جموع الشعب امتدت أكثـر من ساعتين، خرجت بتلك الحقيقيـة الواضـحة، وهـي أن الشعب المصري شعب أصيل بطبيعته يقظ الروح والوجدان دائماً لا ينسي أبداً، لقد وجدت (مصطفي أمين) عند الشعب ملئ القلب والنفس، ملئ الوجدان والحنان، لم نسـتطع تسـع سنوات في السجن أن نفصله عن ضمير هذا الشعب أو نبعده عن تفكيره وتقديره،بل لقد زادته السنون التسع حبـاً وقربـاً ومكانه في نفس الشعب وقلبه وجعلت منه في تقـدير هـذا

الشعب معني من معاني النصر الأكبـر) (الأخبـار ٦-٢-١٩٧٤).

ومع التأكيد علي الشعبية أكد (علي أمين) أيضاً علي الرسمية، فحرص في كل ما يكتب علي التأكيد بأنـه قريـب الصلة بالرئيس السادات) فمـرة يكتـب (رأيـت الـرئيس السادات، وهو يفتح الباب للصحافة لنطلق، كنت أجلس أمامه في الصحراء الغربية وهو يصدر هذا القرار التاريخي) ومرة يقول (قال لي الرئيس (أنور السادات) أنه يفكر في مسـتقبل مئات الألوف من الجنود والضباط الأبطـال الـذين حققـوا لمصر معجزة...) (الأهرام ٨-٢-١٩٧٤)، وتزايـد الشـك ليصبح شبه يقين بأن (علي أمين) يعبر عـن رأي مصـر الرسمي، جعل حرصه علي تكرار هذا القول، وعلي ذكر أنه يعرف الرئيس (السادات) منذ ثلاثين عاماً، وعلي الكثير من الأخبار في بابه الأسبوعي (أخبار الغد)- الذي حـل محـل مقالة) (هيكل) بصراحة – منسوبة للرئيس حتـي الأخبـار التافهة التي لا يمكن أن يكون رئيس الجمهورية مصدرها.

* واستكمالاً لهذين المحورين، حرص الأخوان علي تلميع تاريخهما الماضي، وبرغم أنه تاريخ لا يتضمن شـيئاً

يدعو للفخر، بل لعلهما لو كان أكثر حصافة – لأخفيـاه، إلا أنهما قدما نفسيهما في مقابلة تليفزيونية، باعتبارهما مبعوثـا العناية الإلهية، ومنقذا الصحافة الأمريكية ورجلا الثـورات الصحفية اللذان أحدثا الثورة الصحفية الأولي، ثم اختفيا عـن مصر تسع سنوات ظلت فيها الصـحافة المصـرية خامـدة راكدة، وأكد أنهما عاد ليثورا الثورة الصحفية الثانية، وعلق (علي أمين) علي المستوي الحرفي الجريدة (أخبار اليـوم) فترة غيابة عنها، فقال أنه (كان يقرأها في الخـارج فيراهـا أحياناً ترتدي قبقاباً، وفي أحيانا أخري كـان يراهـا تمشـي حافية)، وقال عن (الأهرام) أنه بعد عودته (تمكن من شراء ملابس داخليه لها، وأنه بسبيل إحضار فستان الزفاف)، وقال (مصطفي أمين) أن أحد الضباط قد أنبأ، وهو في السـجن بأن اسمه واسم شقيقه قد رفعا من فوق جريـدة (الأخبـار) وصحف دار الأخبار باعتبارهما مؤسسين لها، وأنه رد علي ذلك بأن (الهرم الأكبر لم يكتب عليه اسم خوفو ومـع ذلـك فكل الدنيا تعرف من أنشاه)!

وأثارت هذه المقابلة التليفزيونية ضجة هائلة، وعقـد محررو (الأهرام) اجتماعاً تكلم فيه باسمهم (لطفي الخـولي)

وحضره رئيس مجلس إدارة (الأهرام) – د. محمد عبد القادر حاتم – واحتجوا فيه بشدة علي ما قاله (علي أمين) وقالوا إنه يتضمن إهانة لهم. وأن (الأهرام) قد أخذ مكانتـه لا يجهـد (هيكل) فقط، ولكن أصلا بجهد محرريه وصـحفييه وكتابـه وعماله، وأن (علي أمين) لن يضيف شيئاً إليه، وأنه بما قال يهدر جهدهم طوال السنوات السابقة، ويريد أن يفرض تياره كمدرسة للإثارة وصحافة المانشت الأحمر ومعابثة الغرائز، وبعد مناقشة حادة رأي الـدكتور حـاتم – حرصـاً علـي استرضاء محرري (الأهرام) – أن يدير مقابلـة تليفزيونيـة أخري تحدث فيها (علي أمين) عن (الأهرام) فعبـر عـن احترامه لكتابة ومحرريه واعترافه بفضله علـي الصـحافة المصرية.

لكن (علي أمين) لم يستوعب هذه التجربـة بشـكل صحيح، فهو يتحدث عن عودته حيث (لم أجد فـي بـلادي شجرة واحدة من أشجار الحقد والكراهية، بذور الحقد رأيتها منذ تسع سنوات تغطي كل شبر من أرض بلادي، لم تنبـت شجرة واحدة، وكان المفروض أن تنبت غابات من أشـجار الحقد والكراهية).

(الأهرام ٧ فبراير ١٩٧٤).

* وحرص (علي أمين علي الكتابة الدائمة في هـذا الاتجاه الذي يوحي بأن عصر (عبد الناصر) كـان عصـر الحقد علي الناجحين واللامعين والأغنيـاء- وهـي فكـرة برجوازية مضحكة يبررها به البرجوازيون عادة لصوصيتهم محاولين تصوير جهد الطبقات العاملة في الحصـول علـي حقوقهم بأنه حقد طبقي من كسالي أفقرهم كسـلهم وأغبيـاء أضاع غباؤهم فرصة الغني مـنهم – فكتـب مبشـراً أننـا (سنزرع الحب في كل شبر من الأرض وسنغسل بلادنا من الحقد والكراهية والحسد، لن نحقد علي الناجحين ونحطمهـم بل سنحاول أن تضاعف عددهم).

وفي هذا الاتجاه نفسه كتب (علي أمين) يعلن بأننـا (سنرد للقانون اعتباره وقداسته، ولن نسمح لحاكم أن يدوسه بقدمه أو يتحايل علي مـواده، أو يسـتخدمه للانتقـام مـن خصومه ثم يحرم هؤلاء الخصوم من استخدام القانون لرفـع الظلم الذي وقع عليهم، نحن نعيش فـي عصـر العبـور... العبور من عصر الصمت علي الظلم إلي عصر لا صـمت فيه، من عصر خوف الشعب من طغيان الأقوياء إلي عصر

احترام الحاكم لشـعب شـجاع عظـيم) (الأهـرام ٢٦-٣-١٩٧٣)، وقد بلغ هذا الهجوم المتواري قمته عنـدما كتـب (علي أمين) فكره عن النظافة ختمها بقوله (ليس من المعقول أن تتمتع النظافة في بلادنا بإجازة عمرها أكثر من عشـرين سنه) (الأهرام ١٤-٢-١٩٧٤).

وتوازى مع هذا التيار تيار آخر يهاجم (عبد الناصر) في الصحف الأخري بشكل ضمني، فكتب (ممدوح رضـا) في الجمهورية يقول (ما أحوجنا لأن ندرك جميعاً أننا نعيش مناخاً جديداً لا تربطه بأي منـاخ سـابق سـوى الـذكري والعربة) (الجمهورية ١٢-٣-١٩٧٤).

وكتب الدكتور (وحيد رأفت) – وهو أسـتاذ قـانون سابق بالجامعة ومحامي مشهور، يقول بوضوح (بدا شـعب مصر وللمرة الأولي من حوالي عشرين عاما يستنشق نسـيم الحرية، ولا مغالاة في القول أنه بفضل هذا المنـاخ الجديـد الذي بدأت تلوح في الأفق معالمه منذ أواخر عـام ١٩٧٠ – يلاحظ أن (عبد الناصر) مات في ٢٨ ستبمبر ١٩٧٠ – حقق جيش مصر معجزة العبور في العاشر من رمضان (الأخبار ١٥ مارس ١٩٧٤).

ثم تقدم الأستاذ (صالح جودت) نائب رئيس تحريـر (المصور) يضعه النقط علي الحروف ولا شك أن المعسـكر اليميني الضاري، قد أساء اختيار الفارس الذي يدافع عنـه، فالأستاذ (صالح جودت) معروف كشاعر من شـعراء كـل الملوك، مداح من الذين مدحوا شعراً ونثراً كل من حكمـوا مصر من (الملك فؤاد) إلي (الرئيس السادات)، ولكنه اختار بطريقة الإسقاط النفسي، أن يحاسب (عبد الناصر) لأنه يتكلم ولا يفعل، فقال إن الأعوام العشرين السابقة، كانت مواجهـة رائعة، بهرتنا في البداية كما بهرت الأمة العربية كلها وهكذا آمن العرب بهذا الماضي أيمانا يقترب مـن حـد العقيـدة، وأصبح صاحب هذا الماضي نصف إليه تقام لـه التماثيـل وتقدم له القرابين، وتنشأ باسمه الهيئات والمنظمـات، التـي تهتف بسمه وتعتنق إيديولوجيته.. هذه هـي الواجهـة أمـا التطبيق فقد كان شيئاً مختلفاً بالمرة... كان التطبيـق هنـا، عانيناه نحن المصريين – وحدنا، ولم يكن فيه مـن سـمات الواجهة شئ، النظام الاجتماعي الذي طبق علينا كان ظاهره العدالة الإجتماعية، ولكنه انتهي إلي إفقار الأغنياء وتجويـع الفقراء). وهاجم علاقات مصر الدوليـة فـي عهـد (عبـد

الناصر) كان يهاجم (الملك حسين) ويهدد (الملـك فيصـل) بنتف ذقنه، وأن نظامه هو الذي أدي إلـي النكسـة، وأنـه اضطهد كل القوى وكل الطبقات، وقال إن (مـن حقنـا أن نطلق الرصاص علي كل من يفكر في أن يحرك فمه يبعـث هذا الماضي من القبر) (المصور – ١٤-٣-١٩٧٤).

وتواكب مع هذا الهجوم الشخصي علي عبد الناصر هجوم علي أسس النظام الناصري الاجتماعيـة والسياسـية، وعلي كوادره المشتغلة بالعمل العام، فكتب (زهير جرانه) – وهو محام سابق وكان عضواً بالحزب الوطني- يهاجم فكرة الوحدة العربية فقال (ولا يفوتنا في هذا المقام أن ننبه إلـي أن ما ندعو إليه من تكامل الـروابط الثقافيـة والاقتصـادية والمالية بيننا وبـين الـدول الشـقيقة العربـي، لا يعنـي بالضرورة قيام وحدة سياسية بينهما، ذلك أننا ممن يعتقـدون أن مثل هذا التعامل الذي نرجوه يكفل لكل دولة من الـدول المذكورة من التناسق والترابط فيما بينها ما يغني عن الجري وراء ألوان أخري من التلاصق قد يكون ضررها أكبر مـن نفعها) (الأهرام ٢٤-٣-١٩٧٤).

وهوجمت نظـم وإجـراءات الحراسـات والتـأميم ومصادرة الأموال التي لجأ النظام الناصـري عـام ١٩٦٤، عندما وجد أن مبدأ التعويض الذي وضعه يستلب جزءاً هاماً من الأموال التي قصد بالتأميم توجيهها إلي التنميـة، فكتـب (سعد فخري عبد النور) يقول (ومن المفارقات المخجلة التي يثيرها بعض فلول مراكز القوي السابقة للاعتراض علي أنها الحراسات، أن رد الأموال أو مقابلها إلي أصحابها، سـوف يحمل الخزانة العامة للدولة غبناً لا قبل لها به، وهو منطـق أقل مايمكن أن يوصف به، أنه منطق اللصـوص وقطـاع الطرق، لأن هذه الأموال لم تكن مملوكة أسلاً للدولة، حتـي تتملكها قسراً من أصحابها وبدون أن تـؤدي عنهـا الـثمن المشروع،والاشتراكية بريئة عن استلاب الأموال، والعدالـة الاجتماعية لا معني لها إذا لم تقم علي معني العدالة ذاتهـا) (الأهرام ٩-٣-١٩٧٤).

وزعم أكثر من قلم، وأكثر من مؤسسة، أن القطـاع العام ينحسر ولا يحقق فائضاً، وقال الـدكتور (أحمـد أبـو إسماعيل) رئيس اللجنة الاقتصادية في مجلـس الشـعب أن (القطاع العام في مصر، لم يعد قادراً علي تغذية النمو فـي

الاقتصاد المصري، إذا أصبح هـذا النمـو يتوقـف علـي الفوائض التي يمكن أن تتحقق من أنشطة القطاع الخاص، أو من موارد سيادية أو من استثمارات أجنبية أو عربية) (أخبار اليوم ٦-٤-١٩٧٤).

وهاجم (علي أمين) التأميم، وطالب بأن (ترد الدولـة للأفراد كل ما اغتصبت منهم (الأهرام ١٤-٣-١٩٧٤) وأن تعوض كل الذين صادرت ملكيتهم، وبدأ يهاجم القطاع العام من طرف خفي، فزعم بأن الداخلين إلـي أحـد المحـلات التجارية المعروفة رأوا منظراً عجيباً، بائعة واقفـة خلـف المائدة التي توضع فوقها المعروضات، وقد أجلست طفلهـا الصغير فوق قصرية ليتبرز) وزعم أن هذا حدث في أحـد محلات القطاع العام (الأهرام ٢٧-٢-١٩٧٤).

وكان طبيعياً أن ينتقل الهجوم إلي الشيوعيين، باتهام الناصريين بأنهم شيوعيون، وهو ما ينفونه هم أنفسهم بشدة! ثم الهجوم علي الإتحاد السوفيتي بضـرواة شـديدة، فكتـب (صالح جودت) و (إبراهيم البعثي) في (المصور) يطالبان بتطهير الصحافة من الذين يعتنقون المـذاهب المسـتوردة، وكتب (علي الدالي) في الجمهورية يقول: (يجب أن يعـود

الكهنوت الاشتراكي المنحرف إلي حجمه الطبيعـي أمـا أن يختلف الأمر علي الرأي العام فيصبح هذا الكهنوت حراً في احتلال المنابر التي يملكها الشعب بنص القانون، فـإن هـذا يعطي فرصة كبيرة للبلبلة الثورية وعدم الثقة في الصـحافة، فالشعب المصري العربي لا يدين بـالولاء العقائـدي لهـذا الكهنوت الخطر، لذلك يصبح من العجب العجاب أن يعبـر هذا الكهنوت الاشتراكي عن الشعب، وثورة الشعب من فوق منابر الشعب) (١٤-٣-١٩٧٤)، وكتب (ممدوح رضـا) و (إبراهيم الورداني) في نفي الاتجـاه (الجمهوريـة فـي ٧-٣و٢١- ٣و٤- ٤و ١١-٤).

أما الاتحاد السوفيتي، فقد كان سئ الحـظ للغايـة، ففجأة أصبح هو وليس أمريكا – الذي يسقي المصريين المر، وقال (أنيس منصور): (كان الـروس يحتكـرون السـلاح المصري وذقنا الويل علي أيديهم، وشربنا المر أيام الحـرب الأخيرة وبعدها، فقد رفضوا أن يرسلوا لنا أسلحة تمكننا من الدفاع عن أنفسنا) (الأخبار ١٩-٤-١٩٧٤)، وأكـد (علـي أمين) أننا (لن نسدد الحساب من حريتنا ومن اسـتقلالنا،ولن نمشي في الطابور مغمضي العيون، وراء الاتحاد السوفيتي،

ولن نرتدي المعاطف إذا هطلت الثلوج في سيبريا.. لن نقبل أن يتحول السفير الروسي في بلادنا إلي مندوب سامي ولـن نسمح لأحد أن يكون ولي أمرنا.. أو أن يتوهم أنه الوصـي علي بلادنا) (الأهرام ٤-٤-١٩٧٤). وفي هذا المعني كتـب أيضاً – في ٣٠ مارس و ١١ فبراير ١٩٧٤-، واتهم (علي أمين) الاتحاد السوفيتي بأنه كان يورد لمصر الحقد فقال (إن طبيعة أرض بلاد النيل تصلح لزراعـة الحـب ولا تصـلح لزراعة الكراهية، حتي السماد الذي استوردناه من الخـارج وغطينا به أرضنا، فشل في تحويلهـا إلـي أرض صـالحة لزراعة الكراهية) (الأهرام ٧ فبراير ١٩٧٤).

وحتي عندما قرر علي أمين أن يمدح شـيوعياً هـو الرئيس اليوغسلافي (تيتو)، فقد مدحه بطريقة تشـبه الـذم، فقال أنه زار قصور ملوك الدنيا (فلـم أر قصـراً كقصـور (تيتو)، القصر الذي يعيش فيه والقصور التـي أعـدت لـه لإقامة الزوار من الملوك والرؤساء.. رأيت وأنا أتجول مـع زميلي (إحسان عبد القدوس) أجمـل حديقـة فـي الـدنيا.. الزهورالملونة التي لم نر مثلها منسقة بأناقة وسـحر رسـام عالمي...) (الأهرام ١-٤-١٩٧٤).

علي الناحية المقابلة بدا المدح في كل أعـداء عبـد الناصر التاريخيين فيكتب (زهير جرانه) يتباكي لأن مصـر حرمت نفسها من الرأسماليين الأجانب، فقال إن مصر كانت مأوى ومقاما لجاليات أجنبية من مختلف الجنسيات اختلطـوا بأهلهاوجلبوا معهم ألوانا متنوعـة مـن الخبـرة والثقافـة والمشارب وأضاف أن من رأيه (وجوب المحافظة علي تلك الروافد الوافدة إلينا بغير إرهاق لطاقتنا، فإنهـا تصـلح لنـا أبواق دعاية طيبة علي المسرح الدولي، وهو الاعتبار الـذي غفلنا عنه حين سلطنا علي تلك الجاليات الأجنبية التي أقامت بمصر أسلحة تعسفية قاسية، لم تفد منها المصلحة العامة شيئاً وخسرنا صداقات كان أولي بنا أن نصونها ونبقـي عليهـا (الأهرام ٢٤-٣-١٩٧٤). وهاجم (علي أمين) القانون الذي يمنع المصريين من أن يكونوا وكلاء لشركات أجنبية وقـال إن هذا غباء.

وفي الوقت نفسه بالغت كل الأقلام اليمينية في الدور الذي سيلعبه رأس المال الأجنبي، ونشرت حملة من الدعايـة له، مؤكداً للشعب الذي يعاني من نقص شديد في احتياجاتـه الأساسية أن الرخاء في الطريق، وأن الغرب سيقدم كل شئ،

وأعلن (علي أمين) أن ألوف الملايين تـدق أبوابنـا اليـوم) (الأهرام ٢٩-٣-١٩٧٤) وربط بين دخول رؤوس الأمـوال الأجنبية مصر وبين تعـويض الرأسـماليين والاقطـاعيين السابقين عن أموالهم المصادرة، لأنه إذا حدث هذا (سـتتأكد الدنيا أن مصر عندما تقول أنها لن تصادر أموال أي أجنبي أو مصري في المستقبل إلا بحكم قضائي، فإنها تعنـي مـا تقول،والدليل علي ذلك أن رددت كل حق ضـاع بـالأمس) (الأهرام ١٤-٣-١٩٧٤)، وهو ما ستكون نتيجته أن (تـرد للجنيه المصري قيمته العالمية القديمة، وستتضاعف قيمته في عواصم العالم، سيشتري الجنية المصري ضعف مايشـتريه اليوم من البضائع، ويومها ستنخفض الأسعار، فـإن مصـر ستدفع في البضائع والحبوب المستوردة نصف مـا تدفعـه اليوم، ولن يهرب بعدها جنية واحد من مصر. إن كل جنيه سيعود إلي مصر مع ألوف الملايين من الدلاورت والعملات الصعبة التي ستتدفق علي مصر (الأهـرام ٥-٣-١٩٧٤).

وهكذا وقع عبد الناصر في مصيدة اليمين!.

اليمين الفائق الشجاعة:

علي الرغم من أن الرقابة علي الصحف قد رفعت في الأسبوع الأول من فبراير – شباط- ١٩٧٤، إلا أن المناخ العام الذي رفعت فيه لم يسمح بالفعل لأحد أن يمارس هذه الحرية، ذلك أن الوسط الصحفي كان يعيش أيامها صدمة العصف (بمحمد حسنين هيكل) الذي ظل ثابتاً في مكانه ١٧ عاماً وفي كل الظروف، بسبب معارضته للدور الذي تلعبه الولايات المتحدة في حل الأزمة. ولما كان (هيكل) معروفاً بتعاطفه مع الغرب عموماً، فقد كان لاعتراضه دلالات خطيرة بالنسبة للمعارضين لهذا الغرب، كما أن عودة (علي أمين) وحلوله محل (هيكل) قد أحدثت ارتبكات عنيفة وجعل كثيرين يتنبأون بأخطار جديدة قادمة في الطريق.

وعندما حاولت الأقلام الوطنية واليسارية أن تتحرك لتدافع عن الخط الوطني المعادي للإمبريالية، ولتلح في الحفاظ علي استقلال السوق القومية من الوقوع في براثن التبعية، فوجئت بأن رؤساء تحرير الصحف يترفون بحساسية شديدة، لأن الاقلاع التي تتولي الهجوم علي عبد الناصر

معروفة بصلتها ببعض دوائر الحكم فالأستاذ (صالح جودت) وثيق الصلة بالدكتور حاتم – وكان نائباً لـرئيس الحكومـة وقتها – و(علي أمين) لا يكف عن الإعلان عن أنه قريـب جداً من أعلي سلطة في الـبلاد، وهكـذا غامـت الرؤيـة وتصرف رؤساء التحرير الآخرين علي أسـاس أن الحملـة تحوز الرضي. ومن هنا تحرجوا أن يسمحوا للأقلام الوطنية واليسارية أن تدخلها مرافعة.

ومما زاد في تعقد الموقف أمـام هـذه الأقـلام أن القضية الوطنية نفسها كانت ما تزال مطروحة، صـحيح أن الاشتباك قد فك علي الجبهة المصرية، لكن ذلك لا يعني من وجهة نظر هذه القوى أن الحرب قد انتهت، فهي مشتعلة من ناحية علي الجبهة السورية، ثم إن الإغراق في الحديث عـن التعمير وفتح القناة وعود المهجرين والاسـتقرار والانتفـاع والرواج، يثير القلق إذا أن معناه أن الحرب لن تستأنف، وإن الضغط العسكري علي إسرائيل سيتوقف في الوقت الذي مـا زالت فيه تحتل أرضاً مصرية وسورية وأدرنية فضلاً عـن أن المنافذ أمام هذه القوى للتعبير عن رأيها كانت معدومـة

لذلك التزمت الصمت كارهة بعد أن كتبت عشرات المقالات رفضت أو منعت من النشر أو أجلت إلي أجل غير مسمي

لكن الموقف لم يستمر مجمداً بهذا الشكل لتحرك عدة عوامل:

* الأول ما أثارته عودة (علي أمين) وتعيينـه فـي منصبه من اعتراضـات تمثلـت فـي احتجـاج محـرري (الأهرام) الذي أجبره علي الاعتذار فـي التليفزيـون، فـم المساهمة التي قدمها (علي أمين) نفسه لخصومه بتورطـه في الدفاع عن قضايا خاسرة مـن وجهـة النظـر العامـة. والغالب أن (علي أمين) قد حدث له تثبيت فكـري ونفسـي علي مرحلة الأربعينات، فهو ما زال يتصـور أن صـحافة الإثارة، وعالم الأزرار الوهمي يجوز رضي القراء، ومازال يفهم الدعاية بشكل فج، ومن المؤكد أنه أساء للرئيس السادات حيث تصور أنه يخدمه ويدعو لحكمـه، وذلـك بحكايـات مضحكة، كقوله (رأيت في ساعات الفجر منذ أيام عمال بناء يعملون في بناء عمارة تحت أنوار المصـابيح الكهربائيـة، ودهشت وسألتهم عن سبب استمرارهم في العمل تلك الليلـة طوال الليل، فنظروا لي في دهشة وقالوا: منذ يوم ٧ أكتوبر

نتبادل العمل في ساعات الليل، بل ل، نتغيب في أيام العيـد يوماً واحداً من عملنا.. سألتهم هل طلب منكم المقاول ذلك.. قالوا باسمين: نحن الذين طلبنا من المقاول أن نتناوب العمل في ساعات الليل والنهار.. لقد تغيرت الدنيا بعد ٦ أكتـوبر) (الأهرام ٨-٤-١٩٧٤)، وقد أثارت حكايـات مثـل هـذه سخرية المصريين رغم تقديرهم العميق لما أداه جيشهم فـي الحرب، وذلك لفجاجة أسلوب الدعاية نفسه، وكذبه، فالقاهرة كانت مظلمة تماماً في ٧ أكتوبر فكيف عمل البنـاؤون فـي ضوء الكهرباء؟.

ثم ما لبث (علي أمين) أن هاجم عمال البيـع فـي محلات القطاع العام بالحكاية الوهمية التي رواها البائعة التي اصطحبت طلفها الرضيع إلي محل عملها ودعتـه لقضـاء حاجته علي منصة البيع وأمام الزبائن، فأرسلت لـه النقابـة العامة لعمال البيع تطلب منه اسم العاملة أو المحـل الـذي وقعت فيه، أو تصحيح الواقعة لأنها غير صحيحة،واستفزته العزة بالأثم فكتب ليسب مجلس إدارة النقابة، مؤكـداً أنهـم هلافيت، وأصدرت النقابة بيانا حاداً، رفض (علـي أمـين) نشرة، وكتب يشتمها مرة أخري متهماً مجلس إدراتها بأنـه

مجموعة من البلطجية، ورفعت النقابة ضده قضـية قـذف ووزعت بياناتها التي أصدرتهاعلي أوسع نطاق!

وانتقل الأمر إلي الصحف الحائطية في الجامعة التي أخذت تهاجم (علي أمين) بشدة وتكرة بماضيه في خدمـة الملكية والاستعمار البريطاني والأمريكي، وتأييده لمعاهـدة (صدقي – بيغن) وفيما بعد تساءل المؤتمر العاشر للطـلاب عن الظروف التي عين فيها (علي أمين) رئيساً لتحرير أكبر صحيفة يومية في مصر، في حين أن شقيقة قد حكـم فـي قضية خيانة وتجسس، وما لبثت الضجة التـي حـدثت فـي أوساط الطلبة والشباب أن عكست نفسها علي مجلة (الشباب) التي تصدر عن منظمة الشباب، فكتبت تهاجم (علي أمـين) و(صالح جودت) وأجرت مع الأخيـر حـوارا صـدامياً، وسألته عن تقييمه لحكم عبد الناصر هل هو في مجمله سلبي أم ايجابي، فلم يرد علي السؤال ولكن أبدي دهشة لأن (واحد يأخذوا منه ٣٠٠ فدان ملكه ويعطوا له ٢٠ جنيه مرتب هـو ومراته.. طب إزاي ده الحمار بتاعه بياكل بعشـرين جنيـه لوحده والحمار بعشرين جنيه؟ وبمثل هذه المنطق المضـحك والذي يتجاهل أن هناك مصريين من البشر – لا من الحمير

يتقاضون مرتباً من الدولة لا يزيد عن ســتة جنيهــات فــي الشهر، أجاب (صالح جودت) عن سؤال عن السبب الذي لا يجعله يمارس شجاعته في نقد الأوضاع الحالية بدلاً من نقــد الماضي، فقال: إن هناك سلبيات الأن ولكن لا يكتب عنها بل (يتصل بالوزير الفلاني مثلاً أو المسؤول عن القطاع وأقول له فيه عندك كذا وكذا وهو عليه الإصلاح لأن الصحافة مش تشهير (الشباب-١٦-٤-١٩٧٤).

ثم دخل الاتحاد العام للعمال المعركة فأصــدر بيانــاً حاداً هاجم الذي أداه، والمكاسب التي يكفلها للطبقة العاملــة، من حيث الأجور وشروط العمــل والتأمينــات الاجتماعيــة المتعددة ضد العز والبطالة وأمراض المهنة، ودورة في دعم الاستعداد العسكري والأعباء العامة التي يتحملها ومنها تحمله بمرتبات خريجي الجامعة الذين يعينون جميعاً في وحداتــه، واعترض علي سياسة الانفتاح كما يروج لها اليمين، مطالباً بأن يكون في إطار خطه قومية تحرص علي استقلال السوق القومية وعدم وقوعه في براثن التبعيــة، وطالــب بترتيــب أولويات الرؤوس الأموال الوافدة، فتبدأ برأس المال المحلــي ثم العربي، ثم القروض الأجنبية رؤوس الأمــوال الفرديــة

الأجنبي، وقد صدر البيان بضغط شديد من النقابات الفرعية التي ضغطت علي الاتحاد، الذي يسيطر عليه مجلي يميني، فاضطر لإصداره خوفاً من حدوث اضطرابات من جمـاهير العمال ولم ينشر هذا البيان صحف القاهرة الصباحية ونشره الاتحاد في صحيفته الأسبوعية المحدودة التوزيـع، وعنـدما حاول بعض الكتاب اليساريين التعليق عليه فـي الصـحف اليومية الواسعة الانتشار لم تنشر تعليقاتهم.

وكتب (مصطفي بهجـت بـدوي) رئـيس تحريـر الجمهورية أول مقال صريح ومباشر في قضية الهجوم علي عبد الناصر، رد فيه علي (صالح جودت) مفجـراً القضـية التي حاول اليمين أن يستخدم فيها الطرق والأساليب التحتية، وقد أشار (مصطفي بهجت) في مقاله إلي (البلبلة التي تجرح عهد الثورة وعبد الناصر ابتداء من سنة ١٩٥٢ حتي توفـاه ا في سبتمبر ١٩٧٠، ونحن لا يمكن أن نلغي تاريخنا هكذا بجرة أقلام أو شطحاتها أو أهوائها) وأشار إلي مقال (صالح جودت) الذي (لم ينفرد بمثل هذا الإتجـاه، وإنمـا شـاركه البعض، ولكن كان أكثرهم صراحة وضرواة وخطأ، وأبـدي دهشه (لأن بعض الصحف العربية تبحث في هـذا الاتجـاه

بينما نقف نحن موقف المتفرج) وتحفظ فقال: إنه لا يصـادر حرية أحد، ولا يرغب في إرهاب أحد، وأنه ليس بينه وبـين (صالح جودت) إلا كل خير، كما أنه ليس ممـن يتشـنجون بالناصرية، ولا من عباد الأشخاص)، وانتهي إلـي أن لـه (بعض تحفظات وانتقادات علي فترة حكم (عبـد الناصـر) شأني في ذلك شأن الكثيرين ومن بينهم رجل الشارع العادي الذي أحبه وهو يعرف فيه أخطاء البشر، وتلـك طبيعـة أي فترة يمكن أن تطول فيكون لها وعليها) وذكر أنه قد يكـون أشار إلي هذه الأخطاء في قليل مما كتب خلال حكم (عبـد الناصر) وقد يكون انساق مع التيار الحماسي، وربما أجفـل أحياناً ولكنه (أعجب كثيرا جداً بالإنجازات الوطنية الجسـور والمكاسب الاشتراكية خلال فترة طويلة حافلة). وانتهي إلي أن (عبد الناصر كان شخصية فذة في تاريخ مصر والوطن العربي وابناً باراً يمثل بعث وانطلاقة مرحلة بعيدة الأثر في المنطقة والعالم. وأن تقييمه الحقيقي ملك الأجيـال القادمـة) وخلص إلي أن الرئيس السادات لا يمكنه أن يوافق علي هذا الاتجاه، لا لحبه (عبد الناصر) فقط ولكن لأنه (يحب ثـورة يوليو كثيراً جداً.. حب أحد البناة الشرعيين المباشرين).

وانتقل (مصطفي بهجت بدوي) إلي الرد علي (صالح جودت) فقال إن محاولته إنكار شرعية الماضي هو (تزيـد يتنكر للتطور الطبيعي لأن لا شئ يبدأ من فراغ) وقال إنه لا يود أن يحاسب (صالح جودت) علي ما كتب شعراً ونثراً عن عبد الناصر، ولكن الذي يأخذه عليـه (هـو هـذا التعمـيم المتعسف، الذي يسلب الماضي من كلـي إيجابيتـه وكـان عشرين سنة ذهبت في الهباء تماماً لم ينجز إلا واجهة براقة كما يردد). واستعرض إنجازات ثورة يوليو وأبدي دهشـته من تنكر (صالح جودت) لها، واستخفافه بحرب الاستنزاف وقال إنه (ضد الظلم الشنيع أيضـاً، رفـع العشـرين سـنة الماضية وإلغاءها من تاريخنا بما فيها من تجربـة وخطـأ، ومن مكاسب وإنجازات ومن قصور وسوء تطبيق). وقـال: (وليس بالأمر الشاذ – رغم ما قد يعارضه بعض المتطرفين – أن يكون أبناء الطبقة المتوسـطة البرجوازيـة مـؤمنين بالثورة، بل بحتمية الحل الاشتراكي في بلد من البلدان النامية كبلادنا، ما داموا وطنيين مدلهين بحب بلادهم). وأشار ألـي انه واحدا من أبناء هذه البرجوازية أمـم لأسـرته مصـنع، ووضع بعض أقاربه تحت الحراسة، ولكن ذلك لم يمنعه من

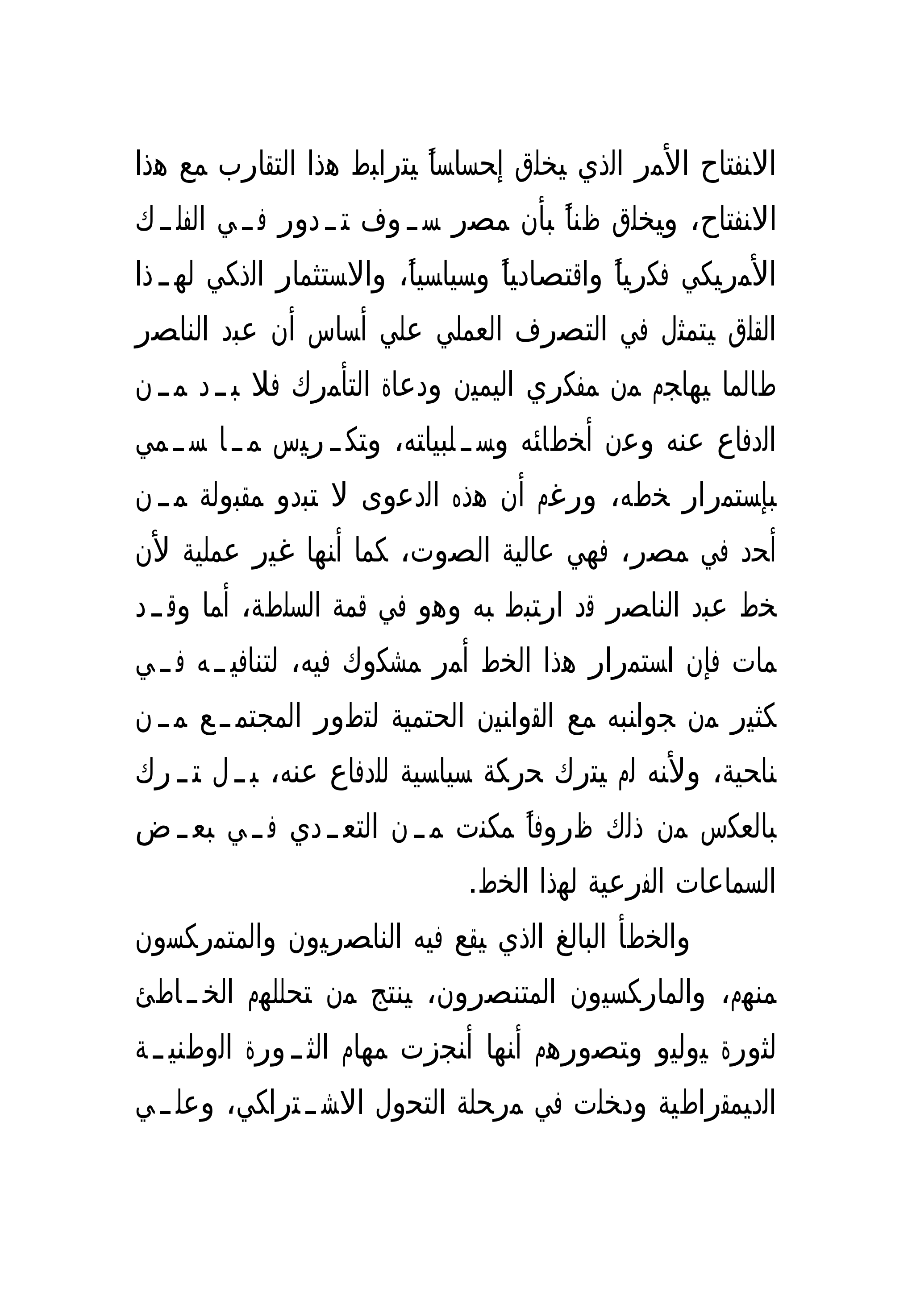
تأييد الثورة، وأنهي (مصطفي بهجت) مقاله ببرنـامج هـام يدعو كل القوى الوطنية للقاء حوله يطالب فيه (بالكف عـن تبادل الاتهامات وعن المطالبة بعزل فريق أو آخر، فالوحدة الوطنية تتطلب حشد كل الجهد للوطن، وبـاحترام الماضـي احتراماً للنفس، مع رفع المظالم بغير التواءات أو تشـويهات تحت أي شعار، والالتفاف إلي المعركة الوطنية التحريريـة فهي ضخمة وشاقة وتحتاج للجميع، (الجمهورية ٢١ مـارس ١٩٧٤).

وأحداث مقال (مصطفي بهجت بدوي) صدى هائلاً، وتلقي تأييدات واسعة النطاق بالبريد والبرق والهاتف، وفـي صحف الجامعة، وفي المؤتمر العاشر للطلاب، خاصة أنـه نشر في فترة كان من الهجوم علي (عبد الناصر) قد تصاعد فأحدث رد فعل عربي، من الناصريين في الـوطن العربـي وصل إلي حد الهجوم الضاري علي النظام المصري الأمـر الذي عكس الإحساس بأن الحملة التي تصور بهـا اليمـين المصري أن يخدم ويدعم النظام قد تحولت إلي حملة ضـده، وأتت بنتائج لم تكن متوقعة، وعقب زيارة (كمـال شـاتيلا) أمين التنظيم الناصري بلبنـان لمصـر، ولقائـه بـالرئيس

السادات، كتب في (الأهرام) مدافعاً عن الناصرية، وانسحب) (علي أمين) في تعليقه علي كلمة شاتيل انسحاباً غير كريم، وتنكر لكل ما كتب حتي السد العالي الذي قال أن عبد الناصر نفي مهندساً مصرياً لأنه وصفه بأنه مشروع فاشل أصبح فجأة – من فرط إخلاص علي أمين لمواقفه وشجاعته – عملا بطولياً... وأصبح عبد الناصر – في رأيه الحر الشجاع – صاحب فضل (لم ينكر مصري واحد فضل عبد الناصر، فقد حقق الجلاء عن مصر وبني السد العالي واسترد قناة السويس من الأجنبي وردها للمصريين (والذين يتفقدون الثورة) لا يقللون من شأنها بل يعتزون بها ويريدون أن تبلغ أقصي درجات الكمال... إننا لا نخاف علي ثورة عبد الناصر من النقد لأننا عرفناها وعشناها ودفعنا مع الشعب المصري ثمنها) (الاهرام ٢٦-٣-١٩٧٤)

الحرية إلي مصيدة اليسار الناصري:

الشئ الغريب في هذه المعركة كلها موقف بعض فصائل اليسار، وهو موقف ساهم في بلبلته الناصريون الأرثوذكسيون، الذي يستثمرون بذكاء القلق الذي يثيره التقارب المصري الأمريكي، وعدم تحدد مفاهيم سياسة



الانفتاح الأمر الذي يخلق إحساساً يترابط هذا التقارب مع هذا الانفتاح، ويخلق ظناً بأن مصر سوف تدور في الفلك الأمريكي فكرياً واقتصادياً وسياسياً، والاستثمار الذكي لهذا القلق يتمثل في التصرف العملي علي أساس أن عبد الناصر طالما يهاجم من مفكري اليمين ودعاة التأمرك فلا بد من الدفاع عنه وعن أخطائه وسلبياته، وتكريس ما سمي بإستمرار خطه، ورغم أن هذه الدعوى لا تبدو مقبولة من أحد في مصر، فهي عالية الصوت، كما أنها غير عملية لأن خط عبد الناصر قد ارتبط به وهو في قمة السلطة، أما وقد مات فإن استمرار هذا الخط أمر مشكوك فيه، لتنافيه في كثير من جوانبه مع القوانين الحتمية لتطور المجتمع من ناحية، ولأنه لم يترك حركة سياسية للدفاع عنه، بل ترك بالعكس من ذلك ظروفاً مكنت من التعدي في بعض السماعات الفرعية لهذا الخط.

والخطأ البالغ الذي يقع فيه الناصريون والمتمركسون منهم، والماركسيون المتنصرون، ينتج من تحللهم الخاطئ لثورة يوليو وتصورهم أنها أنجزت مهام الثورة الوطنية الديمقراطية ودخلت في مرحلة التحول الاشتراكي، وعلي

ضوء هذا يتصورون أن الدفاع عن خط عبد الناصـر هـو دفاع عن الاشتراكية، وهو عندما يطالبون باستمرار ثـورة ٢٣ يوليو بنفس هياكلها التنظيميـة وإيـديلوجيتها التلفيقيـة، يضحكون علي أنفسهم وعلي الجماهير لأنهم بذلك يـدافعون عن كبت عملية الجدل الإجتماعي، ويتركون لليمين المتأمرك واليمين الوطني، الفرصة لكي يظهر بصـورة الـديمقراطي المدافع عـن الحريـات الديمقراطيـة ويضـربون قضـية الإشتراكية في الصميم بدفعاهم عن إسـتمرار البرجوازيـة تنفرد بالحكم، ويركزون جهدهم علي تصور أثبتت التجارب أنه تصور تخريبي وهو أن وجود مـا يسـمي بمجموعـه إشتراكية في السلطة، تتنزل عليها الإلهامـات الإشـتراكية، كفيل بالانتقال بمصر الي الاشتراكية!!.

وثورة ٢٣ يوليو ظاهرة برجوازية تنطبـق عليهـا السمات العامة التي انطلقت منها كل الحلقات السـابقة مـن الثورة البرجوازية المصرية، مع بعض السمات التي لا تنفي طبيعتها، وكظاهرة برجوازية فإن قيادتها تنقسم دائمـا إلـي (يعاقبة) (وجيروند) ومن هنا فإن محاولة تصوير السـادات كما لو كان يلغي خط عبد الناصر هي خطـأ مقصـود، إذا

الحقيقية أن السادات هو إستمرار طبيعي لظاهرة يوليو فـي ظروفها الجديدة. والرؤي التي يطرحها لحل القضية الوطنية والصراع المصري الإسرائيلي هي نفسها الرؤي الناصـرية ولو رصدنا بعد اتجاهات عبد الناصر منذ المهمة التي لم تتم حين كلاف زكريا محي الدين في ٥ يونيو ١٩٦٧ بالذهب إلي واشنطون وإعطاء الأمـريكيين وعبـدا بالسـماح للسـفن الإسرائيلية بالمرور في مضيق تيران بأعلام غير إسرائيلية، ثم تنازله عن الحكم لزكريا محي الدين بعد النكسة مع علمية باتجاهاته الغريبة، وقبوله لمبادرة روجرز، ونظرتـه للحـل السلمي كحل إستراتيجي للقضية الوطنية.. الخ، ثم لو لاحظنا أن معاوني السادات الآن الذين يطالبون بسياسة الانفتاح كان عبد الناصر هو الذي اختارهم – ومـنهم (د.عبـد العزيـز حجازى)- ومشاريع مثل مشاريع المناطق الحرة وتشـجيع القطاع الخاص مشروعات قديمة طرحها عبد الناصر عـام ١٩٦٦، وكذلك رفع الحراسات وتصفيتها... الخ، هذه دلائل تؤكد أن السادات لا يلغي الناصرية، ولكنـه ابـن مخلـص للجناح اليميني منها، الذي كان حقيقية ثابتة من حقائقها، ولم يكن عرضا جانبياً، أو ظاهرة صدفية.

ورغم هذا فقد سارعت القوى الوطنية اليسـارية – غير الماركسية – تنظر للموضوع من زاوية خاطئة. ومنهم الأستاذ (محمد عود ة) الذي كتب يدافع عن القطاع العام فأكد أنه (ليس القطاع الحكومي أو قطاع الدولـة، ولكـن قطـاع شعبي إشتراكي) وصرح بأننا لا نقيم (دولة أغنية أو دولـة قوية لصالح الأغنياء أو الأقوياء ولكننا نقيم دولة اشـتراكية تحقق الرخاء والعدالة) [الجمهوري ١٨-٤-١٩٧٤]، وناقش قضية الديمقراطية فأشار إلي أن هناك أزمة ديمقراطية فـي هذا العصر بدأت من (قصور وفشل الديمقراطيـة الغربيـة البرلمانية، ثم عجز الديمقراطية الأخري الشرقية الماركسـية عن أن تقدم البديل الأفضل ثم البحث المستمر المضني فـي دول العالم الثالث ممن لا تريد أي النظامين ولا بد لهـذا أن نبحث عن نموذج جديد)، وناقش ما حدث في عهـد (عبـد الناصر) من عصف بالحريات وقال إن هذا كان طبيعيا لكثرة التآمر علي الثورة، وقال إن الأجهـزة البوليسـية انحرفـت بسبب عدم تسييسها تسيساً عميقاً يضمن ولاءها واستقامتها ثم خضوعها لرقابة ويقظة سياسة صارمة يقـوم بهـا التنظـيم السياسي (الجمهورية ١٣-٤-١٩٧٤)، وطالب لهذا بتقويـة

الإتحاد الإشتراكي الذي أصابته عيوب وسلبيات نتيجة لتخليه عن أول مهامه وهي (تنيظم المشاركة الشعبية اليومية في البناء وفي النقد المستمر). وطالب بأن يموج التنظيم بالفكر السياسي الاشتراكي إذ يجب أن يسلح به الجماهير ليمنحها الثقة وليحميها من كل محاولات الغزو أو الانحراف الفكري، ففي مصر يشتد الصراع المذهبي، وفي الصراع يصبح الاستيلاء علي منطقة، استيلاء علي عقول وقلوب الجماهير أولاً، وطالب بتحصين الجماهير وتحصين الشباب خاصة وهم المستقبل إذ (لايمكن أن نترك فراغاً أو قلقاً أو انفصاماً تنفذ منها كل التيارات الفاسدة) (الجمهورية ٢٧-٤-١٩٧٤)، ولم يحدد (محمد عودة ما هي التيارات الفاسدة التي يريد تحصين الشباب منها، ومهل من بينها الماركسية مثلاً!!

ومن الواضح أن أي محاولة لكبت عملية الجدل الاجتماعي، وبقاء البرجوازية تحكم منفردة، هي في النهاية ضد مصالح الجماهير الشعبية، ومن هنا جاء الخطأ الرئيسي في المعالجة اليسارية لقضية الناصرية، من محاولة إضفاء قداسة علي (عبد الناصر) ومنع اليمين من الهجوم عليه أو نقده نقداً موضوعياً – ومن البديهي أن التجريح والسباب ليس

حواراً ولا نقداً – بدلا من المطالبة بحوار واسع بين مختلف الاتجاهات لتقييم المرحلة السابقة من كل وجهات النظر، وفي حين يندد اليمين بالمعتقلات والسجون تبررها بعض الأقـلام اليسارية، وترفع شعارات مضحكة تطالـب السـلطة بمنـع الأقلام اليمينية من الكتابة، بدلاً من القتال مع هـذه السـلطة لكي تصبح الديمقراطية التي تدعو إليها ديمقراطية حقيقيـة، تتيح لكل الإتجاهات أن تعبر عـن نفسـها تعبيـراً حقيقيـاً ومستقلاً، ومن خلال منابر فكرية وسياسية وكيانات تنظيمية مستقلة، والتصور المضحك الذي ساد طوال) (عهـد عبـد الناصر) بأن السلطة تختار انتمائها السياسي، بشكل انتقـائي ما زال قائما لدي البعض، من هنا يجئ انتظارهم بأن ينـزل الوحي علي السلطة فتصبح يسارية دون جدل أو ديمقراطيـة أو نضال، ولا شك أن الوضع العام في مصر يـدعو للقلـق الشديد، ولو كانت ورقة أكتوبر قد حسمت بعض القضـايا، فإن ما ينبغي أن تهتم له القوى اليسارية هو أن تجهـد بكـل السبل للحصول علي حرياتها الديمقراطية، لقد كانـت هـذه القضية مطروحة أيام (عبد الناصر) وما زالت مطروحة إلي اليوم، والناصريون يخطئون لأنهم مـا زالـوا يتصـورون

أنفسهم القوة الوحيدة في الساحة، وأن اجتهادهم هو الإجتهاد الوحيد الصحيح، ولهذا يطالبون بتقوية الإتحـاد الاشـتراكي لكي يكرروا المهزلة التي أعلنها (هيكل) فـي عـام ١٩٦٥، عندما كتب يقول أن الشيوعيين ألقوا بأعلامهم الحمراء أمام أبواب الإتحـاد الاشـتراكي) ويتصـورون أن الشـيوعيين والماركسيين مطالبين بمساعدتهم في إعادة بنـاء تنظـيمهم الورقي الذي لم يكن له هم ولن يكون له هم، إلا بأن تتحول كل القوي الاجتماعية إلي ذيل للبرجوازية تعطيها تفويضـاً للحكم باسمها، وأن يلقي الجميع أعلامهم الحمراء والخضراء والصفراء، لكي تتحول مصر إلي بلد لا ذاتية سياسية لأحـد فيها، الأمر الذي أثبتت كل الظروف أنه أخطر علي مصـر من السماح للأقلام المتأمركة بالكتابة، فهذه الأقلام ستنحسـر معركتها بالقطع في أي مناخ ديمقراطي حقيقي، يسمح لقوي اليسار- بمن فيهم الناصريون- بتعريتها وفضـحها ماضـياً وحاضراً ومستقبلاً.

والواقع أن الناصريين لا يقلون في عدائهم للماركسية عن قوى اليمين الضاربة الآن في مصر، وينبغي علـيهم أن يعيدوا تقييم أفكارهم وأساليبهم، ذلك أن نرجسيتهم المرضـية

ستؤدي بهم إلي الهزيمة، وعندما يكتب (كمال شاتيلا) فيقول أن المطالبة بعودة الأحزاب في مصر هـو خـروج علـي الناصرية، يثبت أنه ابن مخلص لتياره، لكنه بالتأكيد نعتقـد للوعي بالمصالح التاريخية يثبت أنه ابن مخلص لتياره، لكنه بالتأكيد نعتقد للوعي بالمصالح التاريخية للشـعب المصـري والشعوب العربية، هذه المصالح التي لن يحققها إلا إطـلاق عملية الجدل الاجتماعي من القفص الذي وضعها فيـه عبـد الناصر، ومهما كانت قيمة ما أنجزه عبد الناصر مـن دور حركة التحرر الـوطني المصـرية والعربيـة، فـإن هـذه الإنجازات لا تصلح بديلاً عن هذا الجـدل، كمـا أن هـذه الإنجازات قد توقفت فعلاً بموت عبد الناصر. إن الناصـرية اتجاه في مصر وليست كل مصـر، وينبغـي أن يعتـرف الناصريون بهذا قبل أن يدعو الآخـرين للتحـالف معهـم، ليستخدمونهم ثم يصفونهم!.

حوار مع الناصرية والماركسية
محمد عودة تجربة الماضي وآفاق المستقبل

أكثر من أي وقت مضي [1]، فإن العلاقة بين القوى الثورية في الوطن العربي، لم يعد ممكناً أن تترك للصدفة أو لعلاقات الود غير المبدئية، أو العقد الماضـي وحساسـياته. وإذا كانت السمة الأساسية للواقـع العربـي الـراهن، هـي التكثيف المستمر للهجمة الإمبريالية الأمريكية الشرسة علـي الثورة الوطنية في المنطقة، وما يستتبع ذلك من ردور أفعال تنتعش معها قوى اليمين العربية، سواء تلك المتحالفة مباشرة مع الإمبريالية والعملية لها، أو تلك التـي تغلـب تناقضـها الثانوي مع القوى الثورية علـي تناقضـها الرئيسـي مـع

---

[1] نشر هذا الحوار في مجلة (تحافـة) البغداديـة ، فـي مـايو ١٩٧٤، وبعد أن بدأت ملامح الردة السـادتية تتصـح ، وكـان مـن المحاولات المبكرة، لوضع أسس جديـدة للحـوار بـين الشـيوعيين والناصريين.

الإمبريالية، نتيجة لتدني الوعي، أو لمحدودية تناقضها مع الإمبرايالية أصلاً.

ولقد كان ضرورياً – قبل وقت طويل – أن يكون الحوار بين القوى الثورية قضية مطروحة وملحة، فالهجمة الإمبريالية لم تكن شيئاً مفاجئاً، بل كانت متوقعه، ولكن الذي لم تنتبه إليه القوى المعادية للإمبريالية بمختلف فصائلها – هو أن تقليل حجم هذه الضربة أو شحذ القوى لمقاومتها رهين بتحقيق تحالف جبهوي فعال بين هذه القوي.

ومن الأسف أن القضية بهذا الشكل قد طرحت نفسها علي الفكر الثوري العرب في وسط الستينات[٢]، ولكن تناولها كان أقل حيوية من ضرورتها، وبمعدل أبطأ من إلحاحها، ومن هنا جاءت الهجمة اليمينية الشرسة لقوي الإمبريالية بعدوان يونيو (حزيران) ١٩٦٧ ففاجأت هذه

---

[٢] كان عبد الناصر قد طرح في الميثاق، فكرة وحدة الهدف بديلا لوحدة الصف ، وفي عام ١٩٦٦طرحت للحوار العام قضية وحدة القوى الثورية . وأجرت مجلة الطليعة ، بتكليف منه مسلسلة حوارات مع الأحزاب العربية التقديمة، لكن ذلك، لم يتطرق لحوار مع القوى التقدمية في الداخل، التي كان عبد الناصر يرفض استقلالهما وتمايزها أصلاً

القوى وضربتها ضربة قوية وألزمتها التذبذب بـين مـوقفي الدفاع والتراجع.

ومرة أخري ونتيجة للواقع المعقـد الـذي فرضـته أوضاع هزيمة حزيران، تاهت قضية وحدة القوى الثوريـة بين قطبي موقف الدفاع والتراجع، في حين أن حسـم هـذه القضية كان أحد المداخل الرئيسية لحل القضية الوطنية فـي عالمنا العربي، حلا صحيحاً يتسجيب، وينسجم، مع المطامع المشروعة لجماهير الشعوب العربية.

برغم كل شئ فإنه – وأكثر من أي وقت مضي – لا مفر ولا بديل من الحوار بين مختلـف الفصـائل الثوريـة المعادية للإمبريالية، وخاصة تلك التي تنتظر للقضية الوطنية في ارتباطها بالانتقال إلي الأفاق الاشتراكية، حوار يستهدف الوصول إلي تحالف جبهوي فعال بين بين هذه القوى علـي المستوي النظري والعملي. وليس من الإخلاص فـي شـئ للقضية الوطنية في وطننا العربي، أن تتـرك قضـية هـذا التحالف للصدفة، او أن يفتقد الحوار لشجاعة الالتزام بالهدف الأساسي، فيخضع للمجاملات أو المزايدات أو تتحكم فيه عقد الماضي وحساسيته، أو يخضع للعوامل الشخصية، تلك كلها

محاذير ينبغي أن نتنبه – وأن ننبه لهـا – باسـتمرار، وأن نقاومها بشراسة في أنفسنا وفي الآخرين.

وإنطلاقاً من هذا يجئ. هذا الحـوار مـع الأسـتاذ (محمد عودة). الكاتب والمفكر المصري المعـروف الـذي ارتبط أسمه – أكثر ما ارتبط – بالتجربة الناصـرية، فقـد قضي الأعوام العشرين السابقة مـن عمـره – وعمرهـا – يدعمها بجهده وفكره كواحد من ألمع الكتاب السياسيين فـي الصحافة المصرية، وعبر منابر متعددة بدأت ب (المصور) ثم (صباح الخير)، و(روز اليوسف)، و (الأخبـار)، حيـث استقر الأن في (الجمهورية) [1] وفوق هذا وذاك فقد أتيحـت للأستاذ عودة فرصة التفاعل مع الفكـر الثـوري والواقـع العملي لعصرنا من خلال زيارات متعددة لمعظم بلاد العـالم كان يهتم خلالها بدراستها والتفاعل مع واقعهـا الاجتمـاعي واتجاهاتها الفكرية والثورية.

والأستاذ عودة ينتمي سياسياً إلي ما اصـطلح علـي تسميته ب (اليسار الناصري)، وهو يمثل اجتهاداً خاصاً فـي

---

[1] ضمن تصفية محرري ، اليسار من الجمهورية ، نقل الأستار عودة في مارس ١٩٧٥، إلي روز اليوسف.

فهم (الناصرية)، ويحاول في كل ما يكتبه أن يتفاعـل مـع تجربتها في ضوء هذا الاجتهاد، وقد بلور هذا المفهوم فـي كتابة (ميلاد ثورة) الذي صدر الجزء الأول منه عام ١٩٧١.

وقد سمحت لنفسي – لكي يؤتي هذا الحوار ثمرته – أن أتمثل موقف الفصائل المختلفة من الماركسيين المصريين من التجربة الناصرية، وأن أنقـل وجهـات نظـرهم – أو بعضها – في محاولة الحصول علي ورد منه عليها، ولكنـي – بالطبع – لم أسمح لنفسي بالرد علي ما أدلي به من أفكار، إذ كان هدف الحوار منذ البداية هو تحديـد نقـاط الاتفـاق والاختلاف وحصرها، لكي تكون أمام كل المهتمين بـالفكر الثوري والمتحاورين حول قضية الجبهة الوطنية في عالمنـا العربي.

وإضافة إلي كل هذا أو أن أوضح أنني فيما نقلت من أفكار وفيما تلقيت من إجابة، لم أكن – ولم يكن الأستاذ عودة أيضاً – نمثل أي كيانات سياسية، لكن الحوار بمجملة قد دار في إطار النقاش والاجتهاد الفردي، الذي يـتلمس اتجاهـات القوي، وليس بالضرورة أن ينتمي إليها عضوياً.

وهذا هو نص الحوار:

صلاح عيسي: أستاذ عودة.... يتردد فـي كتاباتـك القول بأنك اشتراكي ثوري، فما هي ماهية هذه (الاشـتراكية الثورية)؟ وكيف تتميز عن الماركسية مـن جهـة، وعـن الاشتراكية الديمقراطية من جهة أخري؟

محمد عودة: الاشتراكية الثورية هي فهـم خـاص للاشتراكية العلمية ضوء ظروف مجتمعات العالم الثالث، أو هي تطبيق الاشتراكية في هـذا المجتمعـات. وأنـا أنظـر للاشتراكية العلمية باعتبارها وسيلة للتغلغـل فـي مشـاكل ومتناقضات مجتمع معين، للوصول إلـي أفضـل الطـرق لمواجهة هذه المشاكل، وحل تلك التناقضات. وفي عصـرنا الراهن سنجد ثلاث نماذج للاشتراكية: الاشتراكية الماركسية والاشتراكية الديمقراطية ثم الاشتراكية الثورية أو اشـتراكية العالم الثالث.

وليس صدفة أن الاشتراكية الماركسية قـد ضـربت جذورها في البلاد الأسيوية، وأن الاشتراكية الديمقراطية قـد زرعت نفسها في أوربا الغربية، هذه كيانات اجتماعية لهـا خصوصية ونوعية، تفرض أن يكون استيعابها للاشتراكية ذا

نوعية خاصة، وبعد ظهور العالم الثالث في الخمسينات، كان لا مناص من أن تبرز مفاهيم أخري لتحقيـق الاشـتراكية، فماذا تفعل في مشاكل مجتمع كـالمجتمع الهنـدي، يمـوج بمتناقضات اجتماعية من نوع غريب؟.. وكيـف تسـتوعب الاشتراكية مشاكل المجتمع الهندوكي أو العربي الإسـلامي. هذه مجتمعات فرضت علـي الاشـتراكيين أن يسـتوعبوا الاشتراكية العلمية، علي ضـوء الحقـائق التـي تطرحهـا تناقضات هذا العالم الذي يعاني مـن النهـب الاسـتعماري، وتنتشر فيه الإيديولوجيات المتخلفة، ويفتقد لأي تبلور طبقي حقيقي، والاستيعاب الخلاق للاشتراكية العلمية هـو لوحيـد القادر علي الوصول بهذه المجتمعـات إلـي مفـاتيح لحـل مشاكلها.

إن الاجتهادات الاشتراكية السابقة لـم تكـن كافيـة لمواجهة واقع هذه البلاد المتخلفة ولا يعنـي هـذا أن هـذه الإجتهادات خاطئة، ولكنها أساليب لمجتمعات محددة، حققت نجاحاً لا شك فيه في مجتمعاتها، وليس بالضرورة أن تحقق نفس النجاح في واقع ذو خصوصية معينة كواقع بلاد العـالم الثالث.

وإذن: هل كان الطريق السوفيتي المعتمد علي حزب لينيني قوى صالحاً ربما. ولكن ما العمل إذا كان هذا الحزب اللينيني غير موجود؟.

وهب كان الطريق الصيني الذي يعتمد علي حـزب فلاحي قوى وجيش ثوري شعبي صالحاً؟. ربمـا.. ولكـن السؤال السابق ما زال مطروحا.

وهو أيضاً يواجه التساؤل الثالـث حـول صـلاحية طريق أوروبا الشرقية في الانتقال إلـي الاشـتراكية، عـن طريق جبهة وطنية في ظل وجود الجيش الأحمر.

وقد كان علي اشتراكي العالم الثالـث أن يسـتوعبوا بعقل مفتوح هذه الطرق الموصـلة إلـي الاشـتراكية، وأن يدرسوا بعض عيوب التطبيق: هل كانت (الدولية) مثلاً فـي مصلحة الحركة الاشتراكية؟ ألم تؤدي إلـي تعـدد مراكـز الإشعاع؟ ألم تلق قيوداً علي حركـة وتفكيـر العديـد مـن الأحزاب الإشتراكية؟.

في هذا الإطار من الفهم، فإن الاشـتراكية الثوريـة ليست سوى الاشتراكية العلمية كما ينبغي أن تواجه ظروف العالم الثالث. وهي حرة في الحركة وفي البحث، أنها ملتزمة

بالاشتراكية العلمية وليست ملتزمة بأنمـاط معينـة، وهـي متحررة من هذه النمطية التي يتصور البعض أنها شئ ملازم للاشتراكية. والتحرير هنا ليس تمرداً يرفض، ولكنه استيعاب ودراسة وتمثل ثم اختبار. إن التجربة السوفيتية مثلاً تصـبح بهذا المعني مدرسة وليست معبداً.. وفي المدرسـة يتنـاقش الناس، أما في المعبد فهم يسمعون فقط!.

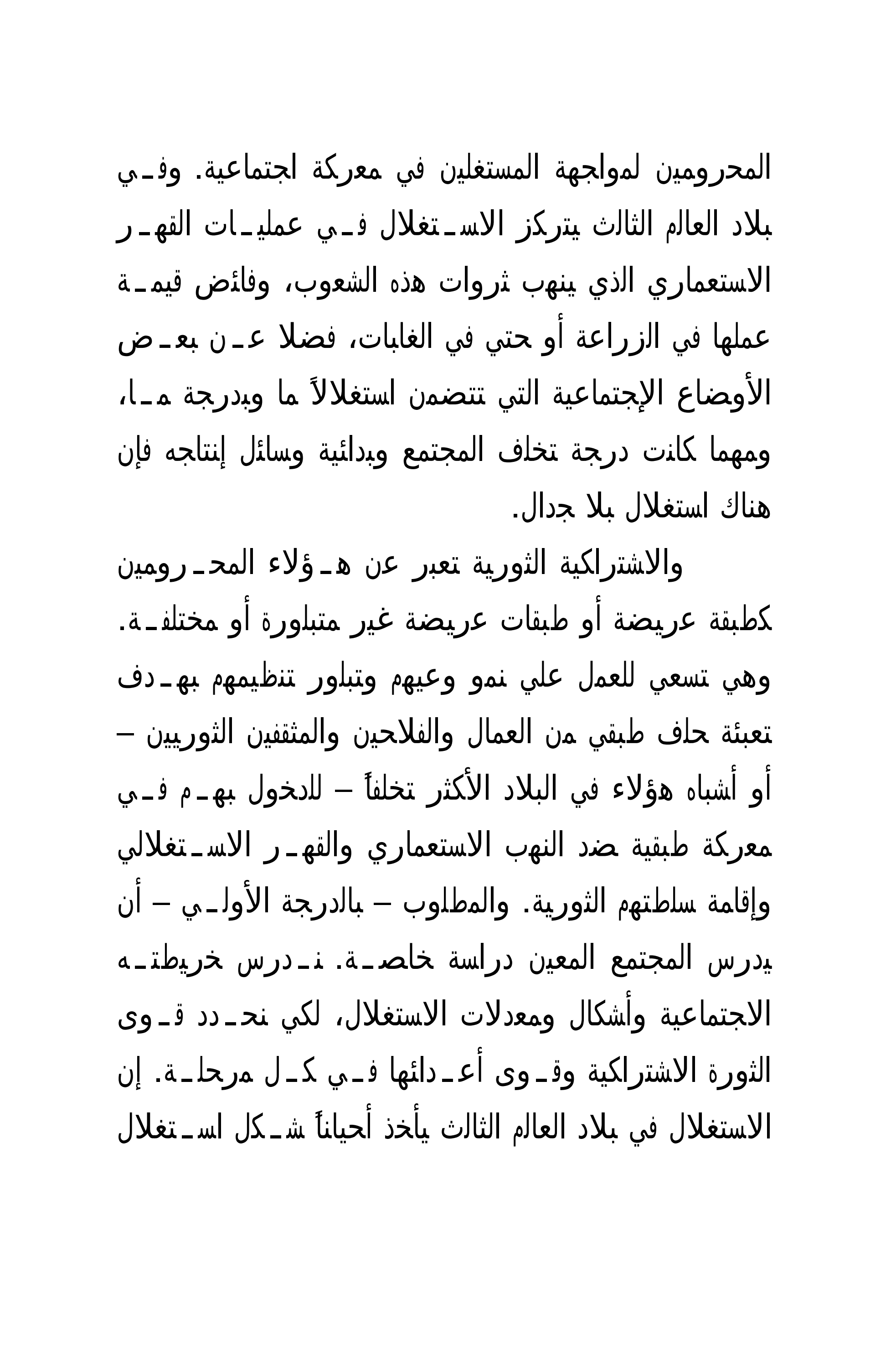
صلاح عيسي. المتفق عليه بداهة أن الإشتراكية هي ايديولوجية طبقة.. فإذا كانت الماركسـية هـي إيديولوجيـة الطبقة العاملـة، وبالـذات البروليتاريـا الصـناعية، فـإن الاشتراكية الديمقراطية قد انتهت إلـي أن أصـبحت تيـار وسطي برجوازي، فأي الطبقات تمثل الاشتراكية الثوريـة؟ هل هو تيار فكري قائم في الهواء، أم أنـه يمثـل مصـالح طبقات محددة... وما هي؟.

محمد عودة: لا اختلاف في أن الاشتراكية العلميـة هي – بشكل عام – إيديولوجية الطبقة العاملة، سواء الشرائح التي تعمل باليد أو بالفكر، ولكن الاشتراكية لا بد أن تصهر في الواقع، فعندما يتوفر في مجتمع ما أغلبية مـن الطبقـة العاملة اليدوية، فإن الإشتراكية تنصب في هذا القالب وهو ما

سيؤثر في موقف الطبقة العاملة التي تبيع قوة العمل الـ ذهني ويحدد موقعها، والعكس صحيح.

في العالم الثالث فإن الأمر مختلف فلا طبقة عاملـة ولا برجوازية ولا بروليتاريا بالمفهوم الكلاسيكي. ما نواجه به هو خليط من الطبقات المحرومة التي تنتهبها الاحتكاريـة العالمية، طبقات مختلطة ومهملة من الداخل، هناك بـالقطع إختلافات قد تجد تبلوراً طبقياً في بلاد كالهند ومصر، ولكن ماذا تجد في بلاد أفريقيا السوداء؟ أو في اليمن، هنا لا تجـد صراعاً اجتماعياً أو طبقياً بالمعني المفهوم، فدرجـة تطـور المجتمع نفسه تتدني بالصراع ليصبح صراعاً قبلياً أو طائفياً. إن الماركسية قد ظهرت في ظل تبلور طبقي واضح، أو مـا يمكن أن نسميه في ظل إزدهار برجـوازي بروليتـاري... ومن هنا كانت إيديولوجية البروليتاريا.. لكن من أين نجـئ بهذه البروليتاريا في العالم الثالث!.

الجانب الآخر من الاشتراكية – غير أنها إيديولوجية طبقة – هو أنها انتقال بالإنسانية من مرحلـة متخلفـة إلـي مرحلة متقدمة، ومن مرحلة استغلال الإنسان للإنسان إلـي مرحلة نفي هذا الإسـتغلال، وهـي بهـذا المعنـي تعبـئ



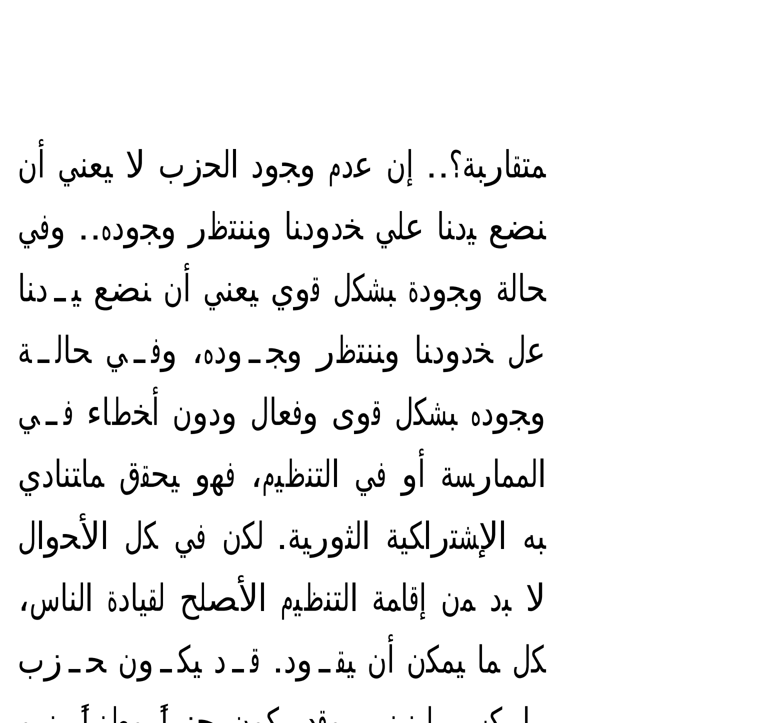
المحرومين لمواجهة المستغلين في معركة اجتماعية. وفي بلاد العالم الثالث يتركز الاستغلال في عمليات القهر الاستعماري الذي ينهب ثروات هذه الشعوب، وفائض قيمة عملها في الزراعة أو حتي في الغابات، فضلا عن بعض الأوضاع الإجتماعية التي تتضمن استغلالاً ما وبدرجة ما، ومهما كانت درجة تخلف المجتمع وبدائية وسائل إنتاجه فإن هناك استغلال بلا جدال.

والاشتراكية الثورية تعبر عن هؤلاء المحرومين كطبقة عريضة أو طبقات عريضة غير متبلورة أو مختلفة. وهي تسعي للعمل علي نمو وعيهم وتبلور تنظيمهم بهدف تعبئة حلف طبقي من العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين – أو أشباه هؤلاء في البلاد الأكثر تخلفاً – للدخول بهم في معركة طبقية ضد النهب الاستعماري والقهر الاستغلالي وإقامة سلطتهم الثورية. والمطلوب – بالدرجة الأولي – أن يدرس المجتمع المعين دراسة خاصة. ندرس خريطته الاجتماعية وأشكال ومعدلات الاستغلال، لكي نحدد قوى الثورة الاشتراكية وقوى أعدائها في كل مرحلة. إن الاستغلال في بلاد العالم الثالث يأخذ أحياناً شكل استغلال

الكيان القومي كله.. ومن هذه الدراسة تكون البداية لحشد حلف طبقي من المستغلين والاشتراكية الثورية هي أيديولوجية هذا الحلف وهي وسيلته للوعي وللتنظيم.

صلاح عيسي: ربما يقود هذا إلي خلاف في مفهوم التنظيم، فالماركسية تنظر للأحزاب كطلائع سياسية لطبقات محددة، فكيف تنظر الاشتراكية الثورية إلي هذه القضية؟

محمد عودة: هل نبدأ مما هو كائن أم بما يجب أن يكون؟ الصحيح في منظور الاشتراكية – بمختلف طرقها المتعددة للتحقق – هو الحزب ذي الايديولوجية الواضحة والتكوين الطبقي المحدد، والبرنامج السياسي الواضح، والكوادر المتمرسة والمناضلة والمرتبطة بالجماهير. هذا هو الطريق الأمثل. ولكنه لا يصنع ولا يفرض. لماذا كان هناك حزب شيوعي قوى في الصين. بينما لم يكن هناك حزب بنفس الدرجة من القوة في الهند، وهما متجاورتان، وتخضعان لظروف حضارية



متقاربة؟.. إن عدم وجود الحزب لا يعني أن نضع يدنا علي خدودنا وننتظر وجوده.. وفي حالة وجودة بشكل قوي يعني أن نضع يـدنا عل خدودنا وننتظر وجـوده، وفـي حالـة وجوده بشكل قوى وفعال ودون أخطاء فـي الممارسة أو في التنظيم، فهو يحقق ماتنادي به الإشتراكية الثورية. لكن في كل الأحوال لا بد من إقامة التنظيم الأصلح لقيادة الناس، كل ما يمكن أن يقـود. قـد يكـون حـزب ماركسي لينيني. وقد يكون حزباً وطنياً ينمو وعيه بالمشكلة الطبقية. قد يكون جيشاً وطنياً يأخذ مهمة الحزب والجـيش ويـؤدي فـي ظروف خاصة دور التحول الثوري. أن هذا كله يعني الإيمان بحقيقة أساسية وهي أن قوة الجماهير الحقيقية في تنظيمها وأن يعبر عنها حزب سياسـي ثـوري ولكـن تحـت أي شعارات؟.. هذه مسألة تبدأ من الواقع المحدد

لكل بلد في إطار المبادئ الأساسـية العامـة للاشتراكية.

صلاح عيسي: في ضوء هذا الطرح النظري العام.. هـل تعتبر (الناصرية) من ضمن تيار الاشتراكية الثورية؟

محمد عودة: بالقطع.. بل إن عبد الناصر ساهم مسـاهمة فعالة في صياغة هذا التيار.. ولكني أفضـل استخدام تعبير (التطبيق العربـي المصـري للاشتراكية الذي بدأه وقـاده جمـال عبـد الناصر).

صلاح عيسي: أوافق علي أن نستخدم مصطلح (الناصرية) بالمفهوم الذي وحدته.. علـي أن نسـتخدمه كتعبير لتسهيل مهمة التحاور. فهل توافق؟.

محمد عودة: أوافق.

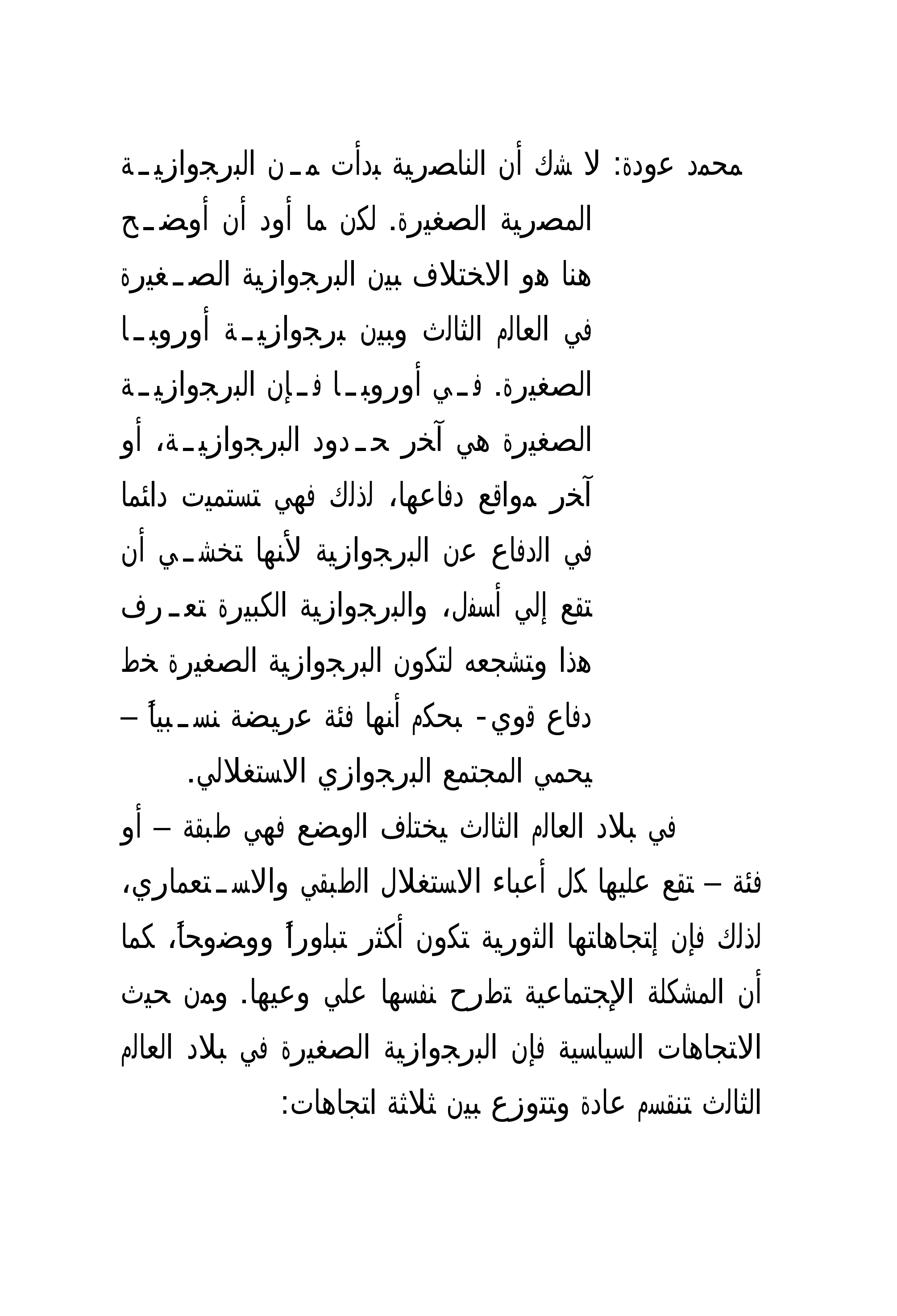
صلاح عيسي: أود أن اطرح عليك الخطوط العامة للنقـد الذي يوجهه الماركسيون للناصرية، ولسـت في موقف الدفاع عن هذه الانتقادات، لأنها لا تعبر كلها عن رأيي بالتحديد – الـذي قـد

يكون أقسي أو أهدأ من ناحية، وأني أود أن أتيح لك فرصة للرد تحدد نقـاط الإخـتلاف والاتفاق بين الناصرية والماركسية كتيـارين ثوريين معاديين للاستعمار من ناحية أخري. وفي ضوء هذا فـإن فصـائل كثيـرة مـن الماركسيين تري في أحلام العدل الاجتماعي التي طرحتها الناصرية نوعا من اشـتراكية البرجوازية الصغيرة، تلك الاشتراكية التـي تنتمي في النهاية للتيار البرجـوازي ككـل. فماذا تقول؟

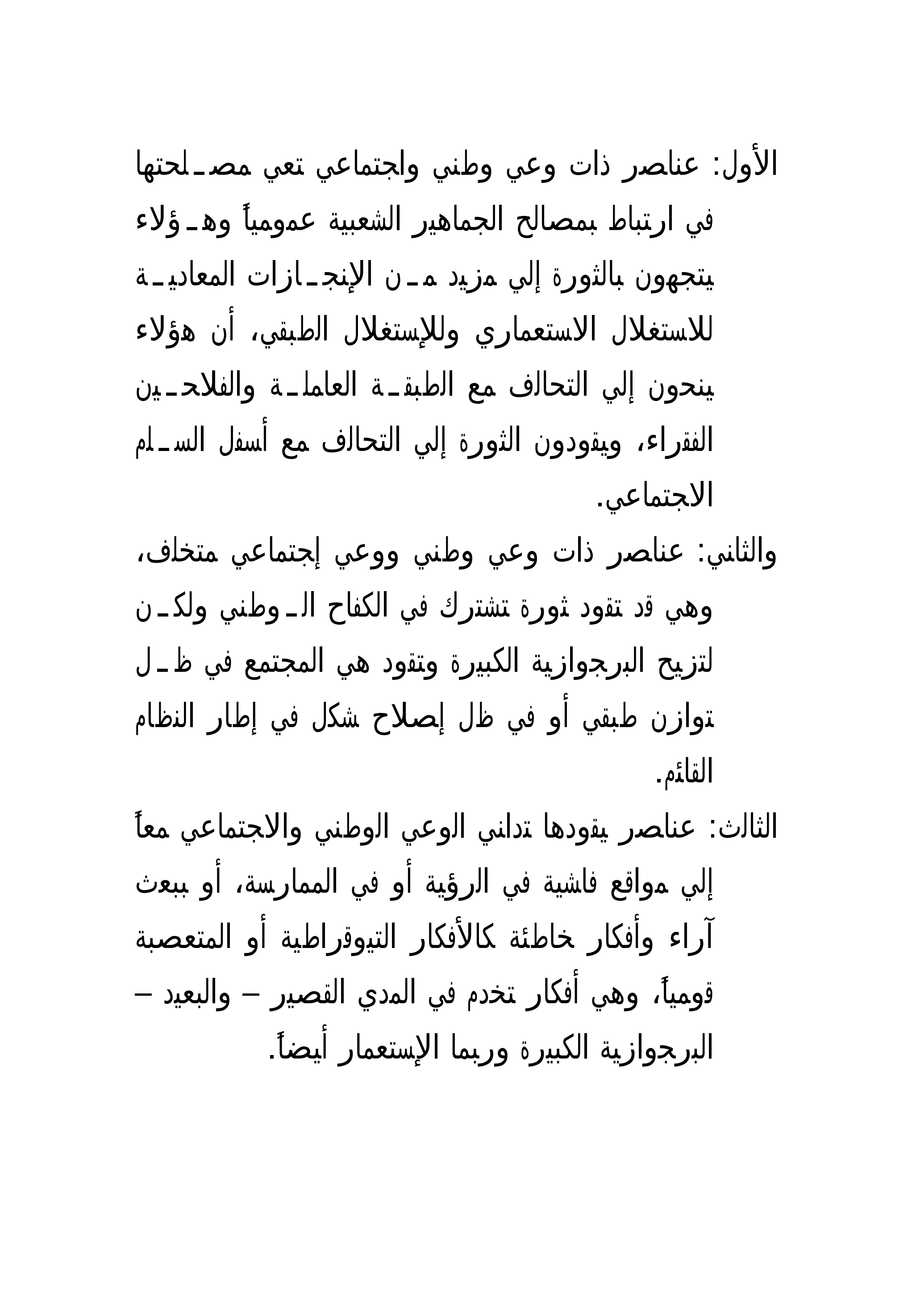
محمد عودة: أرحب بالطبع بأي حوار، وأظن أنه ضروري ومطلوب. وبشكل عام فإن هناك نقداً يسارياً للناصرية من كل الفصائل التي تتصـور أو تقف بالفعل علي يسارها، وهذا نقد إيجـابي للناصرية لا بد أن تشجعه وأن تخلق حوارا بين الناصرية وبين الماركسية وبـين كافـة الاتجاهات اليسـارية الأخـري كالتيـارات القوميـة اليسـارية (القـوميين العـرب –

البعثيين – المقاومة الفلسطينية)، وأنا أعتقد بأن علي كل الإتجاهات التقدمية والثورية أن تتحاور، ذلك أن مأساة الثورة العربية كانت في المعارك غير الضرورية بين فصائل الثورة العربية. وهذه المعارك كانت هي المصدر الرئيسي لقوة اليمين العربي والرجعية العربية. وفيما يطورها ويدفعها إلي الأمام ويتحاور ويتفاعل معها. وهناك نقد ماركسي ساذج يرفض الناصرية رفضاً تماماً ويصفها بأنها إجهاض للثورة أو ثورة مضادة، ومثل هذا النقد في رأيي لا هو ثورية ولا هو وطنية، وبالطبع فإن الهجمة اليمينية الضاربة علي الناصرية والتي تتخذ الناصرية قناعاً لتهجم بالهجوم عليه علي كل فصائل الثورة وتصفيها تماماً ليست موضوعنا.

صلاح عيسي: هذه بداية موفقة... وإذن فماذا تقول في مسألة (اشتراكية البرجوازية الصغيرة)؟


محمد عودة: لا شك أن الناصرية بدأت مـن البرجوازيـة المصرية الصغيرة. لكن ما أود أن أوضـح هنا هو الاختلاف بين البرجوازية الصـغيرة في العالم الثالث وبين برجوازيـة أوروبـا الصغيرة. فـي أوروبـا فـإن البرجوازيـة الصغيرة هي آخر حـدود البرجوازيـة، أو آخر مواقع دفاعها، لذلك فهي تستميت دائما في الدفاع عن البرجوازية لأنها تخشـي أن تقع إلي أسفل، والبرجوازية الكبيرة تعـرف هذا وتشجعه لتكون البرجوازية الصغيرة خط دفاع قوي- بحكم أنها فئة عريضة نسـبياً – يحمي المجتمع البرجوازي الاستغلالي.

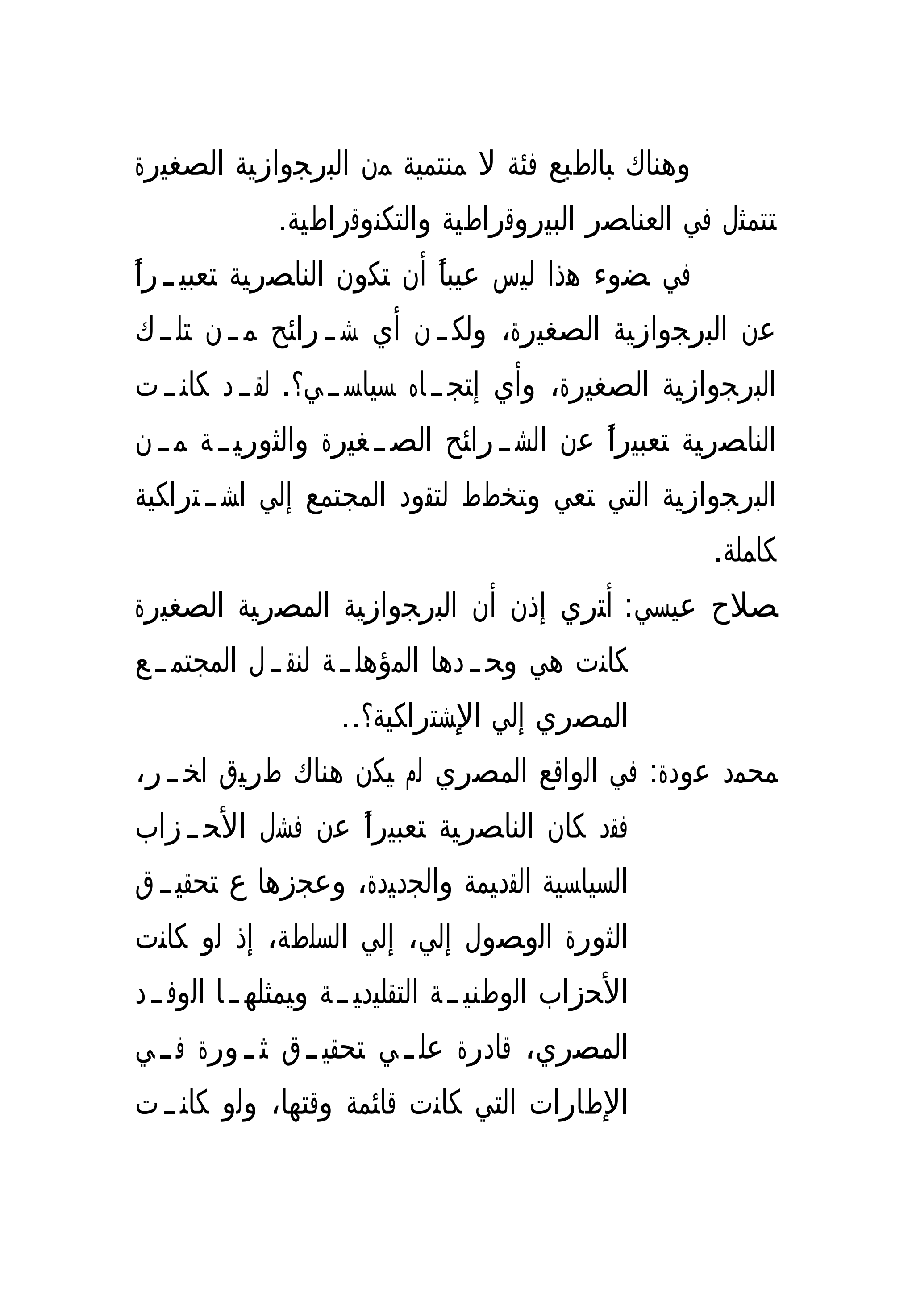
في بلاد العالم الثالث يختلف الوضع فهي طبقة – أو فئة – تقع عليها كل أعباء الاستغلال الطبقي والاسـتعماري، لذلك فإن إتجاهاتها الثورية تكون أكثر تبلوراً ووضوحاً، كما أن المشكلة الإجتماعية تطرح نفسها علي وعيها. ومن حيث الاتجاهات السياسية فإن البرجوازية الصغيرة في بلاد العالم الثالث تنقسم عادة وتتوزع بين ثلاثة اتجاهات:



الأول: عناصر ذات وعي وطني واجتماعي تعي مصـلحتها في ارتباط بمصالح الجماهير الشعبية عموماً وهـؤلاء يتجهون بالثورة إلي مزيد مـن الإنجـازات المعاديـة للاستغلال الاستعماري وللإستغلال الطبقي، أن هؤلاء ينحون إلي التحالف مع الطبقـة العاملـة والفلاحـين الفقراء، ويقودون الثورة إلي التحالف مع أسفل السـلم الاجتماعي.

والثاني: عناصر ذات وعي وطني ووعي إجتماعي متخاف، وهي قد تقود ثورة تشترك في الكفاح الـوطني ولكـن لتزيح البرجوازية الكبيرة وتقود هي المجتمع في ظـل توازن طبقي أو في ظل إصلاح شكل في إطار النظام القائم.

الثالث: عناصر يقودها تداني الوعي الوطني والاجتماعي معاً إلي مواقع فاشية في الرؤية أو في الممارسة، أو ببعث آراء وأفكار خاطئة كالأفكار التيوقراطية أو المتعصبة قومياً، وهي أفكار تخدم في المدي القصير – والبعيد – البرجوازية الكبيرة وربما الإستعمار أيضاً.



وهناك بالطبع فئة لا منتمية من البرجوازية الصغيرة تتمثل في العناصر البيروقراطية والتكنوقراطية.

في ضوء هذا ليس عيباً أن تكون الناصرية تعبيـراً عن البرجوازية الصغيرة، ولكـن أي شـرائح مـن تلـك البرجوازية الصغيرة، وأي إتجـاه سياسـي؟. لقـد كانـت الناصرية تعبيراً عن الشـرائح الصـغيرة والثوريـة مـن البرجوازية التي تعي وتخطط لتقود المجتمع إلي اشـتراكية كاملة.

صلاح عيسي: أتري إذن أن البرجوازية المصرية الصغيرة كانت هي وحـدها المؤهلـة لنقـل المجتمـع المصري إلي الإشتراكية؟..

محمد عودة: في الواقع المصري لم يكن هناك طريق اخـر، فقد كان الناصرية تعبيراً عن فشل الأحـزاب السياسية القديمة والجديدة، وعجزها ع تحقيـق الثورة الوصول إلي، إلي السلطة، إذ لو كانت الأحزاب الوطنيـة التقليديـة ويمثلهـا الوفـد المصري، قادرة علـي تحقيـق ثـورة فـي الإطارات التي كانت قائمة وقتها، ولو كانـت

الحركات الجديدة كالشيوعيين والإخوان المسلمين والاشتراكيين الديمقراطيين قادرة علي ذلك لفعلته. ولقد قامت الحركة الناصرية وبدأت وطنية ولكنها اكتشفت في مواجهة القضية الوطنية الطريق الذي سارت فيه. ولقد كان ممكناً للقوى اليسارية وقتها أن تدفعها للأمام بالنقد وليس بالهجوم، بالحوار وليس بالعداء.

صلاح عيسي: أيمكن من وجهة نظر الاشتراكيين الثوريين تعميم فكرة حتمية قيادة البرجوازية الصغيرة للثورة الوطنية والاشتراكية؟.

محمد عودة: البرجوازية الصغيرة في بلادنا وبلاد العالم الثالث لا مناص لزمن طويل أن تتصدر قيادة قضيتنا الوطنية والاجتماعية حتي تقوم طبقة عاملة حقيقية، وحتي يتصحح الكيان الإجتماعي وتقوم طبقة عاملة قوية وتتحطم علاقات الإنتاج الإقطاعية أو شبة الإقطاعية وهذه حتمية تاريخية لا مفر منها. كيف يمكن

أن تقوم ثورة بروليتارية بـلا بروليتاريـا أو
فلاحين أو إنتلجنسيا ماركسية!

صلاح عيسي: أليس هناك احتمال أن تخون هذا البرجوازية
الصغيرة الثورة؟.

محمد عودة: هو احتمال ضئيل، وبالطبع فإن تصدرها للثورة
رهين بألا تخون، وأظن أنه محتوم عليهـا أن
نسير في طريق الثورة، لكن هذا لا يمنع مـن
أنها قد تتأرجح بين العداء للاستعمار والتهادن
معه، ولا بد أن نقبل حقيقة أنها القيادة الوحيدة
المتوفرة ونلائم أنفسنا لها.

صلاح عيسي: يلاحظ بعض المتتبعين لتطـورات الحركـة
الشعبية في مصر علي مشارف ثـورة يوليـو
١٩٥٢. أن تفسيخ النظام القديم قد تم بنضـال
شعبي منظم، لم يكن قوياً تماماً، ولكن كان في
اتجاه التبلور ولهذا تمكن (عبد الناصر) بجهـد
قليل من هز نظام كانت تناقضاته الداخلية قـد
هزته. وفي حين كان منتظراً أن تستفيد حركة
(عبد الناصر) من هذا المد الشعبي الديمقراطي

فإنها- وهذا مـا يركـز عليـه العديـد مـن الماركسيين- قد وضعت الشعب في القفـص، وطردته من الحلبة، وحكمت بالأجهزة الإدارية والبوليسية، وبرغم أن بعض إنجازاتها كانـت لمصلحة الشعب في المدي المباشر والتاريخي، فأن الناقدين يرون أن الخسارة بوضع الشـعب في القفص أكثر فداحة مـن المكاسـب التـي تحققت بالفعل، فمـن ناحيـة أدي هـذا إلـي العصف بهذه المكاسب عند أول منحني، ومن ناحية أخري فان الشعب المنظم هـو وحـدة القادر علي تحقيق مكاسب أفضل وحمايتهـا. فماذا تقول؟!.

محمد عودة: أود أولاً ألا ننسي أن (بعد الناصر) كان بطـلاً تاريخياً، والأبطال التـارخيون لا يحاسـبون بالحسابات العادية أو بالموازين الشائعة. أذكر أن أحدي الصحف الهندية نشرت مـرة مقـالاً عنوانه (نهرو... هل هو ديكتاتور؟) وأخـذت تتحدث عن ديكتاتورية (نهرو) وأنه يسـتطيع

أن يفعل ما يشاء، ثم تساءل الكاتب: هل هـذا في صالح الهند أم ضدها؟.. وقال في النهايـة إنه لصالحها. وقد اتضح فيما بعد أن صـاحب هذه المقالة هو (نهرو) نفسه!.. ولا أظـن أن أي مقـاييس عاديـة تصـلح لتقيـيم أدوار شخصيات مثل (نهرو) أو (غاندي) أو (عبـد الناصر) أو (ستالين) أو (لينين) أو (ماوتسـي تونج) فعند النظر إلي هذه الشخصيات سنواجه علي الفور بأن لهم سطوة شخصـية وتـأثير فردي علي الظواهر السياسـية فـي بلادهـم ومنطقتهم وعالمهم وهذه ظـواهر لا يفسـرها المنطق العادي.

لقد كان عبد الناصر استمراراً ل (محمـد علـي) و (إبراهيم) و (عرابـي) و (سـعد زغلـول) و (مصـطفي النحاس)، والملاحظة العامة أن من يقود مصـر لا بـد أن يكون دائماً عملاقاً ذلك أن موقع مصر الاستراتجي يجعلهـا دائماً في مركز من يلعب دوراً قيادياً في منطقة حساسة فـي العالم، وهي بذلك تواجه تحديات لا حد لها، ومن هنا كانـت

دائماً عملقة من يقودها. ومن الملاحـظ أن كـل القيـادات التاريخية المصرية قد اتهمت بـنفس التهمـة: الديكتاتوريـة والجبروت الغاشم. وجهت هذه التهمة إلي (عرابي) وأن تعلم من الذين اتهموه بهذا، أنهم أنفسهم الذين اتهموا بهـا (سـعد زغلول) فوصفهم بأنهم برادع – أو مطايا – الإنجليز، واتهم (مصطفي النحاس) بأنه ديكتاتور، بينما كتب صحفي مشهور يرد، فقال إنه حاكم ضعيف لأنه يترك أعداء الشعب وأعداء الديمقراطية يتآمرون به لأنه ديمقراطي.

إن من يقود مصر لا بد أن يكون في حجم التحديات التي تواجه مصر ولقد كان (عبد الناصر) في إطار الزعامة التاريخية لمصر تحدياً لكل النظام الاستعماري الاسـتغلالي، كان الآخرون يتحدون هذا النظام نسبياً، أما هو فقد تنـاقض معه تناقضاً عدائياً وتحداه تحديثاً كاملاً، من هنا كان حجـم زعامته، ومن هنا كان محتاجاً إلي قوة مركزية كبيرة، تمكنه من الصدام مع النظام الإمبريالي والاستغلال الطبقي، وكانت هذه القوة هي مصدر اتهامه بالديكتاتورية بأقسي وأشرس ما اتهم به الآخرون. وليس صحيحاً أنه قهر الجماهير المصرية أو نفاها أو أبعدها، وقد كان طول حياته في صفها وكانت في

صفة، وأذكرك بأفواج الجماهير التي خرجت في عامي ٥٢و ١٩٥٣ بعد الثورة، وفي ١٩٥٦ أيام تأميم القنال، ويوم خطبة الأزهر أثناء العدوان الأول في ٢ نوفمبر ١٩٥٦، وجماهير يوم الانفصال في سوريا، وجماهير ٩و ١٠ يونيـو والـذين دعوه يوم وفاته عام ١٩٧٠، ولا أظن أن جماهيرنا المصرية التي عركتها السياسة منذ حملة نابليون، وأنت من المهتمـين بدراسة التاريخ وتعرف هذا، فهل تظن أن جماهيرنا مسحوقه بهذه الدرجة؟ لقد وزع (عبد الناصر) الأرض وبني الجـيش والمصانع وأدخل أبناء الفلاحين الكليات العسكرية، ومعنـي هذا انه أدخل الجماهير إلي حلبة التقدم وإلـي نسـيج قيـادة النظام الاجتماعي، وأطلق حريتها الحقيقية، في بلاد العـالم الثالث فإن الحرية الحقيقية للجماهير تبـدأ بتحريرهـا مـن الاستعباد والاستغلال... من الجوع والجهل. وهـذه..حريـة (عبد الناصر) وتلك هي ديمقراطيته.

صلاح عيسي: نحن نتحدث فيما أظن عن الجماهير باعتبارها (ذوات سياسية) أنا لا أشك في أن عبد الناصر قد حاز حب أقسام عريضة من الشعوب العربية، لكن الجماهير تكون في الأوضاع الثورية حيث هي واعية ومنظمـة، امـا

المواكب فإن عوامل عديدة قد تتدخل فيها، ولعلك تـذكر أن حفل زفاف (الملك فاروق و (الملكة ناريمان) في عام ١٩٥٠ قد شهد زحاماً لا مثيل له. وما أود أن أسألك عنه: هل تظن أن العلاقة بين (عبد الناصر) والجماهير كانت سليمة تمامـاً وكما ينبغي أن تكون؟

محمد عودة: أظن أن خطأ (عبد الناصر) الرئيسـي والكبير أنه كان الوحيد القادر علـي تعبئـة وتنظـيم هـذه الجماهير في تنظيم سياسي يعبر عنها، ويجند أفضل عناصر الشعب المصري، ولكنه اعتمد علي العلاقة المباشـرة بينـة وبين الجماهير، وصحيح أنه لم يتنبه لهذا الخطأ مبكراً، لكنه علي أي الأحوال ظل يبحث ويعاني للوصـول إلـي هـذا التنظيم. وتطور من (هيئة التحرير) الخاويـة والفاقـدة لأي محتوي إلي (الإتحاد القومي) الزاخر بالتناقضـات، وانتهـي إلي (الاتحاد الاشتراكي) الذي كان في سنوات الأخيرة وعقب برنامج مارس ١٩٦٨ قد وضع قدمه إلـي بدايـة الطريـق الصحيح، وربما كان (عبد الناصر) ينوى أن يواصل البحث للوصول، ولكنه مع هذا مسؤول عن أنه لم يترك لنا تنظيمـا شعبياً وترك هذه الثغرة الكبيرة.

وهناك نقطة أخري، كان (عبد الناصر) يحكم وسـط تناقضات ضارية داخلية وخارجية لقد كانت مصر محاطـة بالتهديدات التي شنتها المخـابرات الإسـرائيلية والألمانيـة الغربية والأمريكية، ووسط هـذه التهديـدات الأخطبوطيـة الدولية كان لا بد أن يبني أجهزة أمن قوية. ولكن ربما كانت غلطة (عبد الناصر) الكبيرة أنه لم يضـع لهـذه الأجهـزة الحدود التي كان يجب ألا تتجاوزها، الأمر الـذي أدي إلـي تجاوز هذه الأجهزه لحدودها في حالات. ولكن عند المقارنة بالثورات الأخري فإن انتهاك الشرعية في مصر كـان فـي أضيق الحدود وكان نسبياً، ومهما كانت الحـالات إلا أنهـا كانت حالات، وهذا ليس تبريراً ولكنه رد علي من يريـدون تصوير (عبد الناصر) كما لو كان سجاناً كل مهمتـه إيـداع الأبرياء في المعتقلات والسجون.

صلاح عيسي: المشكلة لم تكن في الخطأ في إيداع أفـراد في المعتقلات فقط، ولكن أساسـاً فـي تحطـيم الكيانات الحزبية الثورية التي كانت قائمة وقـت الثورة، والتي لم يكن ثمة تناقض رئيسي بينهـا

وبين النظام الجديد، وبعضها كان ينتمي لجماهير هذه الثورة!.

محمد عودة: لقد واجه (عبد الناصر) مؤسسـات سياسـة قوية: الوفد الأخوان المسـلمون. الشـيوعيون. الحزب الاشتراكي... الخ.. لق رفـض الوافـد التعاون معـه بسـبب الإصـلاح الزرعـي.. والأخوان رفضوا التعـاون معـه إلا إذا حـول مصر إلي دولة ثيوقراطية. وانقسم الشـيوعيون إلي قسمين أحدهما كان راغباً في التعاون معـه بشرط والثاني رفضه تماماً وأعلن أنـه عميـل للمخابرات الأمريكية، ثم لجأ (الإخـوان) إلـي الإرهاب الدموي وهو طريقهم التقليدي، فكـانوا أول من أطلـق الرصـاص. وحينمـا تطلـق الرصاص ضد صورة، فـإن الإرهـاب حلقـة مفرغة، فالإرهاب الثـوري لا بـد وأن يواجـه الإرهاب الرجعي بالنسبة للشيوعيين فلـم يكـن لديهم تشخيص حقيقي للثورة أو ميـزان دقيـق لقوتهم، ومن هنا تعقدات الخريطة أمامـه.. وإذا

كانت معظم هذه القوى لم نستطع أن تحدد موقفاً صحيحاً فلماذا نتصور أن (عبـد الناصـر)، - وكان في هذا الوقت مجرد ضابط وطني معادي للاستعمار – كان مفروضاً أن يعي بالضـرورة وأن يتصرف علي أساسها.

صلاح عيسي: ألا نعتقد أنه كان الأوفق وقتهـا أن تجمـع ثورة يوليو ١٩٥٢ الأحزاب الوطنيـة المعاديـة للإستعمار والأحزاب التقدمية واليسارية في جبهة وطنية كنـت قـادرة علـي التفاعـل والتـأثير المشترك.

محمد عودة: لا شك أن هذا كان التصرف السـليم، ولـو حدث لما حدثت مشاكل كثيرة.. علي الأقل لمـا حدثت نكسه ١٩٦٧.

صلاح عيسي: يعتقد كثيرون من الماركسيين، أن العلاقـه بين (عبد الناصر) وبين المعسكر الإشتراكي لـم تكن علاقة مبدئية، وأنه كان يبني سياسته علـي أساس الأخذ من أحـد المعسـكرين لمسـاومة المعسكر الآخر.

محمد عودة: أذكر لك أنني كنت في موسكو ذات يوم وسألت متحدثاً رسمياً في وزارة الخارجية السوفيتية: لماذا تحتفون بعبد الناصر هذا الاحتفاء غير العادي وهو ليس متحمساً للشيوعية. فقال لي: نحن نحترم (عبد الناصر) لأن ما يقوله في موسكو هو نفس ما قد يقوله في واشنطن. وهذا هو الفرق بين وبين كثيرين من زعماء العالم الثالث. كانت سياسة (عبد الناصر) الخارجية سياسة مبدئية. لقد كان على (عبد الناصر) في عام ١٩٥٤ أن يختار ويحدد مصير مصر في المعترك الدولي: هل ينضم لحلف الشرق الأوسط وتصبح مصر قاعدة أطلنطية كما فعلت تريكا أو إيران، أو أن يختار باندونج. وعبأت قوى الغرب نفسها واحتشدت كما لم يسبق لها أن فعلت لإرهابه وترغيبه، فقد كانت تدرك مصر ما لم تصبح أطلنطية فان الشرق الأوسط كله سيضيع من قبة الأطلنطي. وكانت المعركة غير متكافئة ومع ذلك – وبرغم أنها

كانت، أولي معاركة الكبيرة – فقد خاضها (عبد الناصر) وقبل التحدي واختار باندونج. وباختياره لها نجحت باندونج. كان يمكن أن تقتصر فتصبح سياسة آسيوية فقط تنتهي عند حدود الهنـد،لكن (عبد الناصر) نقل إليها الشرق الأوسـط كلـه. وكانت سياسة باندونج مكسباً لحركـة التحـرر الوطني وللجبهة العالمية المعاديـة للاسـتعمار واللإمبريالية. وكانت بداية سياسة عدم الإنجـاز وهي تعني الحرية في تأييد المواقـف الدوليـة حسب المواقع والمصالح لمجموعة باندونج.

صلاح عيسي: يذهب (مايلز كوبلانـد) العميـل الشـهير للمخابرات الأمريكية إلي القول بـأن القـروض التي أخذتها مصر من المعسكر الاشتراكي برغم التسهيلات الإئتمانية الكبيرة وضآلة الفوائد، تكاد توازي القروض التي حصلت عليها من الـدول الغربية برغم أن قروض الدول الغربيـة كانـت بفائدة مرتفعة جداً وبشروط في الاستثمار. وهو يقول من ناحية أخري أن سياسة باندونج كانـت

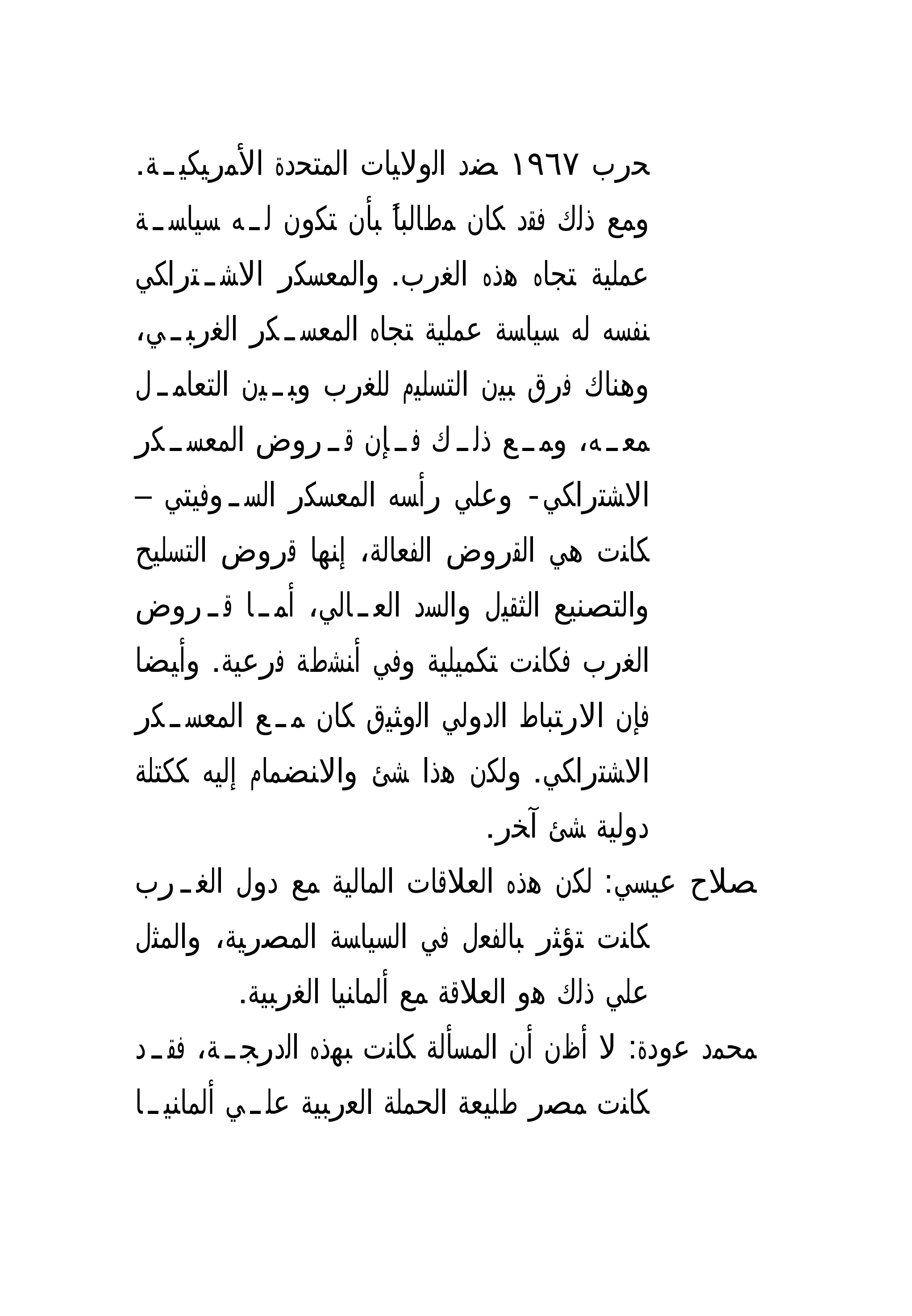
مكسباً في النهاية للولايات المتحـدة الأمريكيـة لأنها عزلت عن الشيوعية دولاً آسيوية كانت بها حركات ثورية قوية. فماذا تقول؟.

محمد عودة: أنني أعترض أولاً علي الاستشهاد بكوبلانـد، فنحن لا ننتظر من عميل للمخابرات الأمريكيـة إلا إثارة الشك في الزعماء الوطنيين المعـادين للإمبريالية الأمريكية، ولعلنا نذكر (لعبة الأمم) و (الطائرات تتحطم في الفجـر) و (خروشـوف يتـذكر) و (مـذكرات بانوكوفسـكي).. الـخ. وبالنسبة لمسألة بانـدونج، فلـيس صـحيحاً أن الأمريكيين قد رحبوا بها، فقد هاجمهـا (دلاس) هجوماً عنيفاً، وقد أدت سياسة باندونج إلي فشل السياسة الأطلنطية لأنه لا معني للأطلنطي دون الشرق الأوسط، ومنـذ الخمسـينات والسياسـة الأمريكية في العالم كلـه تبنـي علـي أسـاس السيطرة والتحكم في هذه المنطقة الحساسة مـن العالم، ولم تكن معركـة ١٩٥٦ سـوى هجـوم أمريكي غربي بدأت خطوط الأولي من الإنزعاج

الأمريكي من باندونج. وقد تشكك الإتحاد السوفيتي في البداية بباندونج، ولكنه أدرك بعد ذلك أهمية هذه السياسة ودورها الفعال في مقاومة الإمبريالية، وفي دعم التحالف بين حركات التحرر الوطني والعالم الاشتراكي.. وفي دعم هذا التحالف كان عبد الناصر من أكثر زعماء العالم الثالث صلة وارتباطاً وصدقة بالمجموعة الاشتراكية.

صلاح عيسي: وماذا عن القروض؟!

محمد عودة: نحن نتعامل مع عالم معقد، وفي التعامل معه لايمكن أن تنعزل أو أن تتجاهل حقيقة وجود الكتلة الغربية، إن العالم العربي – ومصر في قلبه – لا يمكن إلا أن تكون له سياسة تجاه الغرب، سياسة تقوم علي التعامل معه وحماية أنفسنا منه، إما تجاهله والتصرف علي أساس أنه غير موجود فهذه حماقة لا يتحمل إنسان أو سياسي مسؤوليتها. لقد خاض (عبد الناصر) حرب ١٩٥٦ ضد الغرب الأوروبي. وخاض


حرب ١٩٦٧ ضد الولايات المتحدة الأمريكيـة.
ومع ذلك فقد كان مطالباً بأن تكون لـه سياسـة
عملية تجاه هذه الغرب. والمعسكر الاشـتراكي
نفسه له سياسة عملية تجاه المعسـكر الغربـي،
وهناك فرق بين التسليم للغرب وبـين التعامـل
معـه، ومـع ذلـك فـإن قـروض المعسـكر
الاشتراكي- وعلي رأسه المعسكر السـوفيتي –
كانت هي القروض الفعالة، إنها قروض التسليح
والتصنيع الثقيل والسد العـالي، أمـا قـروض
الغرب فكانت تكميلية وفي أنشطة فرعية. وأيضا
فإن الارتباط الدولي الوثيق كان مـع المعسـكر
الاشتراكي. ولكن هذا شئ والانضمام إليه ككتلة
دولية شئ آخر.

صلاح عيسي: لكن هذه العلاقات المالية مع دول الغـرب
كانت تؤثر بالفعل في السياسة المصرية، والمثل
علي ذلك هو العلاقة مع ألمانيا الغربية.

محمد عودة: لا أظن أن المسألة كانت بهذه الدرجـة، فقـد
كانت مصر طليعة الحملة العربية علـي ألمانيـا

الغربية برغم القروض والبعثات، وكانت مصـر علي علاقة ودية بألمانيا الديمقراطية لدرجـة أن (أولبرخت) زار مصر ضيفاً علي (عبد الناصر) في أوج العلاقة مع المانيا الغربية. وهناك تعبير مشهور لنهرو يقول فيـه أن هنـاك انتهازيـة مشروعة وأخري سـاقطة. وطالمـا أن (عبـد الناصر) كان يحاول الاستفادة مـن التناقضـات الدولية لصالح وطني فما كان يفعله ليس خطيئة. وفكرة (عبد الناصر) الأساسية كانت تنطلق مـن الإيمان بقاعدة الدفاع من الداخل والاعتماد علي الذات، وكان ذلك العامل الحاسم في فكره وهـو في السياسة الدولية قد أخذ شكل عدم الانحياز.

صلاح عيسي: فيما يتعلق بالسياسة العربية. فإن ممارسات عبد الناصر في السياسة العربية تتهم عادة بأنها قامت علي قاعدة الاعتماد علي الأجراء ولـيس الشركاء، وأن المجهود الأساسي لأجهزة النظـام المصري قد وجه لتحطيم القـوي الثوريـة ذات الكيانات الحزبية، وأن هذه الأجهزة قد أفسـدت

ودمرت القوى الثورية العربية بظن أنها تستطيع أن تقيم انقلابات عسكرية فيها تكون بديلة عـن هذه الأحزاب الجماهيرية. فما رأيك فـي هـذا الإتهام؟!

محمد عودة: الواقع أن تجربة الوحدة المصرية السـورية، أول وآخر تجارب الوحدة العربية في عصـرنا، تكشف عن خطأ كل الأطراف التي شاركت فيها وأخطاء منطلقاتها، فلماذا تحمل الناصرية وحدها العبء؟.. لقد ابتسرت الوحدة وجـرت بسـرعة لاهثة، ولأسباب عارضة، فقد كان الخوف مـن الشيوعية هو الذي حرك الأطراف السورية التي جاءت تطلبها، وفي فتره الوحدة الأولي لم يكـن ثمة خوف من شئ وظهرت الوحدة باعتبارهـا حلا لمشاكل سوريا كلها. وأذكر أننـي سـألت (أكرم الحوراني) عما إذا كان هناك خوف علي الديمقراطية في سوريا من وحدتها مع مصـر، فكان رده: أن نصف أعضاء البرلمان السوري – وقتهـا – يقبضـون مـن السـعودية.. وكـان

الشيوعيون السوريون من أشد المتحمسين لعبـد الناصر. وقد قال لي (خالد بكداش) أيامها وكنت أقارن بين (عبـد الناصـر) و (سـوكارنو) أن المقارنة بينهما ظلم فادح لعبد الناصر، وأن (عبد الناصر) لا يقارن إلا بما وتسي تونغ. ومؤتمر (الحزب الشيوعي العراقي) عام ١٩٥٦- ووثائقه موجودة- يعبر عن رأي متحمس في قيادة (عبد الناصر). فما الذي حدث؟ لماذا أصبحت قضـية الحزبية هي القضية الأولي بعد الوحدة، ولمـاذا انتشر القول بديكتاتورية (عبد الناصر) ولمـاذا غضب (الحوراني) لمجلس النواب الـذي كـان نصف أعضائه يقبضون من السـعودية وكيـف تصرف (بكداش) كما تصرف؟ ولمـاذا أخطـأ الشيوعيون العراقيون فقـالوا: (إن روانتـري – وكيل وزارة الخارجية الأمريكية- قد وجد له في مصر عملاء جدداً) في حين أن مصـر كـات طوال حكم نوري السعيد هي مـلاذ الشـيوعيين وملجأهم.

صلاح عيسي: أتعني أنه لم تكن هناك أخطاء؟.

محمد عودة: لا أريد أن أبتر الموضوع، ولا أن أحوله إلي كشف حساب بارد، ولكن تعال نتـناقش لنعـرف بالتحديد ماذا فعل (عبد الناصـر) فـي السـاحة العربية.. إذا حللنا دوره فسنصل إلي الذي أنـت شغوف بالبحث عنه، ولكن في إطار ظروفه، أنا مثلك شغوف بالبحث عن هذا الخطأ لا للتشـفي في الأموات، كما يفعل اليمين العميـل المتـدني أخلاقياً والخائن سياسياً، ولكن لأنني أثـق أنـك تريد أن نصل إلي مستقبل أفضل من ماضـينا، وهذا ما أريده أيضاً..

صلاح عيسي: أوافقك علي هذا التشخيص لهدف الحـوار، وفي رأي أن عبد الناصر كـان خطـوة علـي الطريق، وربما نحن نتحاور للبحث عن مزيـد من الخطوات... فكيف تري الموقف الناصـري علي الساحة العربية من هذا المنطلق؟..

محمد عودة: لا يستطيع أحد أن ينكر أن (عبـد الناصـر) حدد الاختيار العربي والثوري لمصر. وأنت تعلم

أن استراتيجية الاستعمار الغربي منذ أيام محمـد علي كانت إبقاء مصر مصرية داخل حـدودها. وكانت أول تجربة في أقامة دولة عربية هي التي بدأها (محمد علي) (وإبراهيم) ثم ضربتها أوربا كلها مجتمعة.. ووضع بالمرستون القاعدة التـي قالت إن مصر كأساس لقوة عربية هـي أكبـر خطر يهدد المصالح الأوروبيـة، ولـيس فقـط المصالح البريطانية، ولهذا اجتمعت أوروبا كلها لأول مرة وآخر مرة بما فيها فرنسـا صـديقة (محمد علي) وضـربت التجربـة، وأصـبحت القاعدة أن أمبراطورية الرجـل المـريض فـي تركيا، أكثر مناسبة لأوروبا من دولـة عربيـة فتية. وظلت مصر مصرية حتي قيـام الجامعـة العربية التي قامت بوحي من (أنتـوني أيـدن) بهدف إنشاء قوة عربية تحت الوصاية البريطانية لمواجهة الخطر الأمريكي وما سـمي بـالخطر السوفيتي. وبرغم ذلك ظل الصـراع الفكـري والسياسي قائماً في مصر يتساءل عن موقفهـا:

هل هي عربية؟ هل هي إفريقية، أم أوروبية بحر متوسطية، أم هي شئ فريد في ذاته؟. وجاء (عبد النصار) وحطـم كـل الأطـواق الإيديلوجيـة والإستراتيجية التي كانت تحيط بمصـر وحـدد الاختيار العربي الثوري والتزم به طوال حياته، واختار شعارات الحريةوالاشـتراكية والوحـدة كأهداف لهذا الاختيار.

وعندما حل (عبد الناصر) أولي مشـاكله العربيـة، وهي مشكلة السودان حلاً يقوم علي الفهم الديمقراطي لقضية الوحدة، وجد أمامه المشكلة الثانية وهي المشكلة السـورية.. ومنذ الحرب العالمية الثانية وسوريا ميدان الصراع عنيـف وجاد بين بريطانيا وأمريكا اللتين أردتا الحلول محل فرنسـا المطرودة. كانت الولايات المتحدة تريد سوريا قاعدة لحماية خطوط البترول وخط دفاع ثان عن إسرائيل ثم قاعدة الحلف الشرق الأوسط، وكانت بريطانيا تريدها ضرورة إستراتيجية لتحقيق الهلال الخصيب وموازنة النفوذ الأمريكـي. وهكـذا أصبحت سوريا ميداناً لأول تجربة للإمبريالية الأمريكية لنقل أسلوبها الاستعماري وهو حكم الكولونيلات المأجورين الذي

طبقته واعتمدت عليه في إمبراطوريتها في أمريكا اللآتينيـة إلي الشرق الأوسط وذلك بانقلاب (حسني الزعيم) الذي دبر ونفذ من الألف للياء عن طريق السفارة الأمريكية في دمشق، ثم أصبحت سوريا حقل تجارب للانقلابات كما هو معروف، حتي جاء الإنقلاب الوطني الذي لم يكد ينجح حتـي تهـدها حاف بغداد وبدأ الضغط لإرغامها علي دخول حاف بغـداد، وفي تلك المرحلة الدقيقة تطلعت القوى الوطنية والتقدمية في سوريا الي مصر، ومدت الثورة المصرية التي كانـت فـي عمرها الأول يدها إلي سوريا، وبهذا فقـط أمكـن حمايـة المسيرة التقدمية لدمشق.. وجاءت معركة خاف بغداد وكانت فاصلة... حددت مصير الشرق الأوسط ولعبت دوراً أساسياً فى تاريخ هذا العصر كله ، وكان إفشال حاف بغداد ضـربة قاصمة للسياسة الغربية التي أرادت تكملة حاف الأطلنطـي ومحاصره الإتحاد السوفيتي بأحزمة متصلة ومترابطة مـن الأحلاف والقواعد، وتكملة لهذا الجهد كانت سياسة بانـدونج بديلة لسياسة الحزام المحاصر للثورة الاشتراكية الأولي، وما سبقها وتلاها من ممارسات (عبد الناصر) كشراء السلاح من المعسكر الاشتراكي، كل هـذا أبقـي السياسـة الأطلنطيـة

محاصرة في أوروبا وهزيلة في جنوب شرق آسيا، وهكـذا فشلت سياسة الغرب تحت الزعامة الأمريكية فـي حصـار الإتحاد السوفيتي ثم (تحريره) كخطوة تالية كما كـان يقـال أيامها. ومن المؤسف – وهذا مجرد استطراد – أن المعسكر الاشتراكي وعلي رأسه أصدقائنا الثورة العالمية، ويعتبرونها إنجازا هاماً في حماية حركـة التحـرر الـوطني والتقـدم الاجتماعي في العالم كله. في حين هذا هو ما ينساه بعـض العرب!.

المهمة التالية التي قام بها (عبد الناصر) هي تحطيم حائط العزلة بين المشرق والمغرب العربيين وبـذلك أفشـل أيضاً السياسة الإمبريالية لتقسيم الوطن العربي إلي مغـرب من نصيب فرنسا، ومشرق من نصيب بريطانيا، ثم الانتقال بليبيا من إيالة إيطالية إلي منطقة حـرام تعـزل الأنصـبة، وعندما دخلت أمريكا بعد الحرب لتحل محل الجميع فوجئت بعبد الناصر في الساحة، يؤيد ويـدعم إنتفاضـات تـونس والمغرب واستقلال ليبيا في مواجهة كل المؤامرات الدوليـة لتقسيمها بين مناطق النفوذ. ولا جدال في أن وقـوف (عبـد

الناصر) مع ثورة الجزائر كان موقف المشارك فيها ولـيس المتفرج أو المؤيد بالكلمات.

وكانتا الإمبريالية الأمريكية قد أرادت أن تجعل مـن شبه جزيرة العرب إمبراطورية للبترول وقدساً للأقداس وأن تكون القوة السائدة فيها هي السعودية، بحيث تدور كـل دول وإمارات البترول في فلكها، كانت إمبراطورية البترول هـي القضية التي تضع الولايات المتحدة كل مواردها وخبراتهـا في حمايتها وضمانها. ثم وقعت ثورة اليمن في البلد الذي لم يكن يخطر ببال أحد أنها ستقع فيه وأدرك (عبـد الناصـر) برؤيته التاريخية مغزي هذه الثورة وماذا تعتمد في المنظور المستقبلي ولهذا أرسل الجيش المصري إلي هناك في عمـل من أعظم الأعمال الثورية في تاريخ الأمة العربية وزعـزع الجيش المصري كل مشاريع إمبراطورية البتـرول الآمنـة وقلب موازين القوى وولادت جمهورية عربية يمينه سـاعدت في ولادة جمهورية يمنية ديمقراطية شعبية، لا شك أن قيامها قد تم بمساندة مصر مهما حاول كثيرون إنكار هذا.

صلاح عيسي: أود أن نقف بصورة أكثر تركيزاً وتفصيلاً عند تجربة الوحدة المصرية السورية لنحللها من المنظور الناصري.

محمد عودة: عندما بدا واضحاً أن سوريا مهدده من كـل جانـب، تركيـا والعـراق وإسـرائيل ولبنـان والسعودية والأسـطول السـادس فـي البحـر المتوسط؟ تأكـد أنهـا الهـدف الإسـتراتيجي للإمبريالية الأمريكية.. وأصبح سندها العربي هو مصر، وسندها الدولي هو الإتحـاد السـوفيتي، وكان تطلعها للوحدة مع مصر تطلـع طبيعـي ومشروع، بل ضرورة وجود، ولكن شكل الوحدة وطريقة تحقيقها وتوقيتها كان هو المشكلة، كـان (عبد الناصر) يريدها أن تتم ناضجا وفي اللحظة الملائمة تماماً أما الأطـراف السـورية فكانـت متعجلة بالنسبة للخطر، وكما قلنـا خوفـاً مـن الحزب الشيوعي السوري الذي كان قوته تتزايد. وبعد فشل عدوان ١٩٥٦ قررت أمريكا إسـقاط الحكم الوطني في الأردن فأسـقطته، وقـررت

إسقاط الحكم الوطني في سوريا وأعدت بالفعـل خطة مفصلة بإشراف رجل الانقلابـات (لـوي هندرسون) لتنفيذها بمساعدة تركيـا والعـراق، وكان إرسال الجيش المصري إلي سوريا عـام ١٩٥٧ أول خطوة لإفشال هذا المخطط.

وإذن فإن الأطراف السورية قـد تعجلـت الوحـدة، لأسباب موضوعية وذاتية أو حزبية. والبنـاء الفـوقي فـي سوريا – أي الأحزاب والتنظيمات السورية علـي اخـتلاف اتجاهاتها – يتميز بأنه دون مستوي القاعدة السورية الشعبية، ولهذا لم يستطع أي حزب منها أن يستقطب الأغلبية العظمي من الشعب السوري، وبعد الوحدة ربما كانت أنسب فرصـة لحل الأحزاب السورية كلها وإعادة جبهة القـوي الوطنيـة والتقدمية والثورية التي كانت متكاملة في التجمـع الـوطني وإقامة تنظيم سياسي سوري حقيقي في مسـتوي الجمـاهير السورية التي كانت أغلبها بعيدة عن الأحزاب والتي وجـدت في الوحدة وفي قيادة عبد الناصر خلاصها.

وكان التطور السليم أن يندمج حزب البعث في القوى التقدمية الأخري وتندمج فيه وأن يلتصق بالقيادة الثورية لعبد

الناصر وبذلك تتكامل مقومات قيادة وإيديولوجيـة وتنظـيم سياسي شعبي عريض ويستقطب الجمهورية كلهـا. ولكـن حزب البعث السوري الذي قام يملأ الفـراغ بـين تجاهـل الأحزاب البرجوازية للقضية الاجتماعية وتجاهـل الحركـة الشيوعية العربية للقضية الوحدوية، كان مفروضاً أن يجمـع مزايا الأحزاب البرجوازية والشيوعية ويضيف إليها ويعتمد توسيع قاعدته الجماهيرية وعلي تعميق فكره وعلي اجتـذاب أوسع قطاعات ممكنه من الوطنيين والاشتراكيين.. ولكن ما حدث هو العكس تماما كانت قوة حزب البعث فـي اعتمـاده علي الجيش والضباط الإنقلابيين وأهمل جماهيره، ولم يلعب الدور الذي كان مؤهلاً له، ثم انه تعامل مع عبد الناصر علي أساس أن يكون عبد الناصر وسيلته في النفاذ إلي مصر والي العالم العربي لتحقيق سياسات حزبية ضيقة الأفق.

وبالنسبة للعراق فان (عبد الناصر) كان يدرك تماماً مغزي العراق بالنسبة للثورة العربية، وقـد قـاد المعركـة الفاصلة ضد (نوري السعيد) الذي كان رجـل الغـرب فـي المنطقة، ووقفت مصر مع كل الأحرار والثوار العراقيين بلا تحيز قبل الثورة العراقية، واثر قيامهـا وإذن فـإن القـوي

الثورية العراقية قد أخطأت لا شك وأساءت لعبـد الناصـر وجرحت عبد الناصر، وخاصة عندما اتهمـه الشـيوعيون بالعمالة ارواانتري.

صلاح عيسي: ماذا كان الحل الأمثل في نظرك وقتها؟.

محمد عودة: الحوار... كان الحوار بـين القـوى الثوريـة، الناصريين والبعثيين والشيوعيين وكل العناصـر القومية الأخري، كان المطلوب، حوار مهما كان حاداً فلا شك أنه كان سيكون إيجابياً ورفاقياً، ولو حدث هذا الحوار الرفـاقي الايجـابي لخرجنـا بمزيج من الناصرية والبعثية والماركسية، كـان يمكن أن تكون أساساً لإيديولوجية عربية ثوريـة أصيلة.. ولا أشك في أن الصراع بـين (عبـد الناصر) والقوي الثورية في العراق كان بدايـة الإنحسار الذي بلغ ذروته في عام ١٩٦٧، ولـو كانت الوحدة بين مصر وسوريا والعراق قد تمت عام ١٩٦٣ لقامت دولة عظمي كانت تسـتطيع تحرير العالم العربي كله وتغيره، وكنا وفرنا ١٦

سنة من سنة ١٩٥٨ إلي الآن... هـي سـنوات الإنحسار الثوري العربي.

صلاح عيسي: لكننا لم نحدد بعد مسئوولية (عبد الناصر) في هذا الإنحسار... أتعني أن الآخرين أخطأوا ولكنه لم يخطئ؟!.

محمد عودة: طبعاً كانت هنـاك أخطـاء. فلـو فرضـنا أن ممارسات هذه الأحزاب كلها خاطئة من منطلـق أن تناقض (عبد الناصر) معها لم يكن تناقضـاً إيديولوجياً أو طبقياً، ولكن كان تناقضاً سياسـياً، فقد كان علي (عبد الناصر) أن يبنـي الحـزب الثوري العربي في سوريا وفي مصـر، ولكـن الإتجاه القومي الذي كان ميتاً في مصـر كـان معادياً في سوريا، ولهذا قاد الانفصال. وبـالطبع فإن الحملة الدعائية التي نشبت في أعـوام ٥٩-١٩٦٥ بين القوى الثورية العربية كانـت خطـأ بالغاً من كل الأطراف التي اشتركت فيها. ولقـد وددت لو كان (عبد الناصر) أرحب صدراً فـي تعامله دعائياً مع البعثيين والشيوعيين ولكن فعله

كان رد فعل، وفي كل الأحوال فينبغي ألا نسمح بتكرار هذه الأخطاء!.

صلاح عيسي: ما هو في رأيك الخطأ الرئيسي فـي النظـام الناصري الذي ولد أخطاءه الأخري وخاصة في السياسة العربية؟

محمد عودة: تبدأ سلبيات عبد الناصر وتنتهـي فـي العـالم العربي بأنه لم يكن يعتمد علي تنظـيم سياسـي ثوري عربي، يتعامل تعاملاً سياسياً وثورياً مـع كل التنظيمات والقوى، ولهذا اعتمد علي الأجهزة الإدارية. ولا نريد أن نغمط حق كثيـرين فـي الأجهزة المصرية لعبوا أدواراً بطوليـة ولكـن الاعتماد علي أجهزة بوليسية وبيروقراطية مهما كانت وطنية رجالها، يتضمن منزلقات خطيـرة وعلي الأقل فإن هذا الأجهزة كانت أبعد ما تكون عن فهم إيديولوجية العصر وحركة الجماهير.

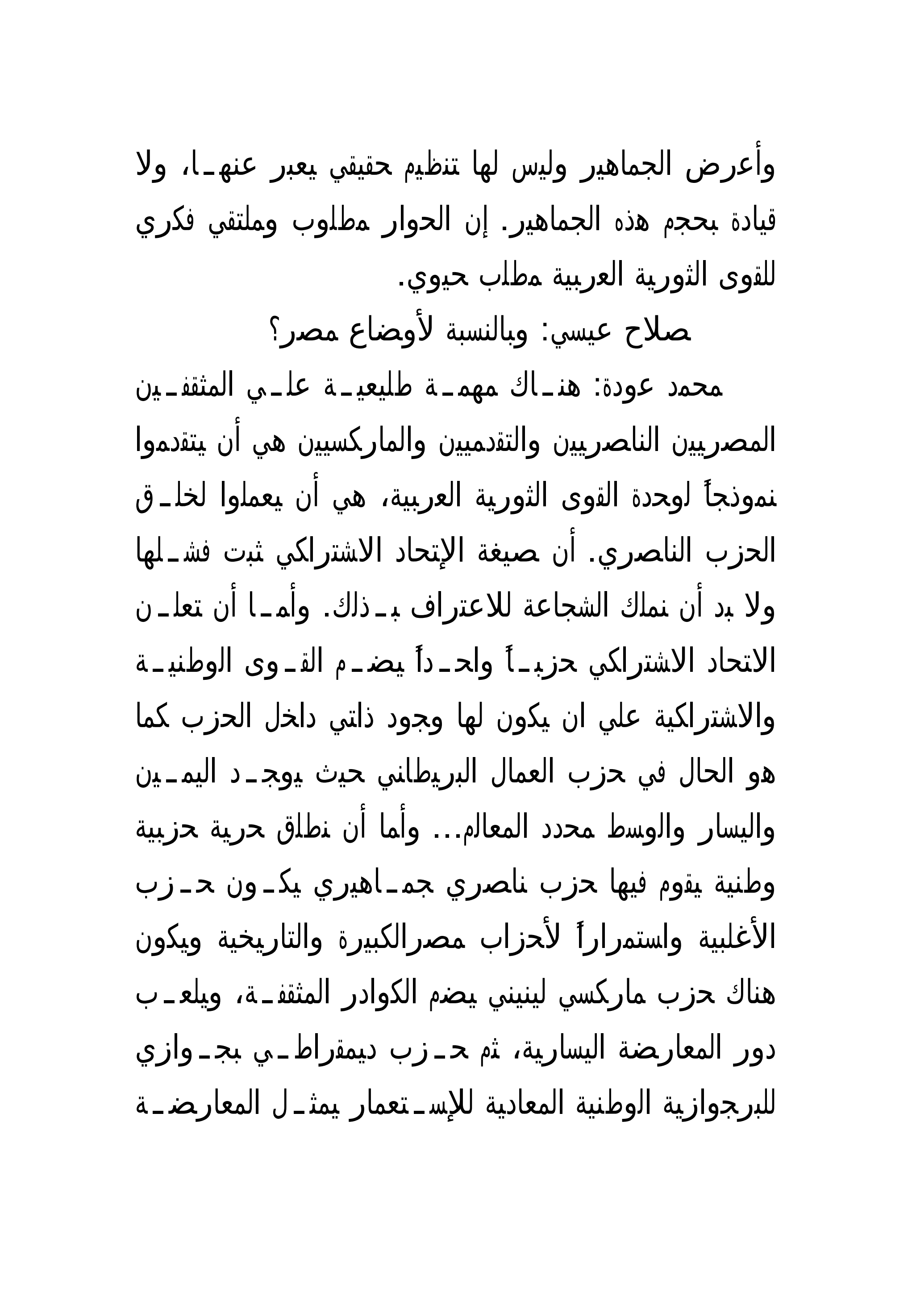
ومن ناحية أخري فإن (عبد الناصر) كـان محاطـاً بعبادة الجماهير العربية من المحيط إلي الخليج، وقـد خلـق لديه هذا إحساساً متزايداً بالكرامـة الشخصـية والاعتـزاز

بثوريته، ومن هنا كان شديد الحساسية تجاه النقـد والحـوار الحاد وخصوصاً العلني منه،ولكنه – رحمه ا – كان ينبغي أن يكون أرحب صدراً، وأن يلعب دور الأخ الأكبر والأقوي وأن يدرك كثيراً من الحساسيات العربية، وخاصة لدي القوى الثورية.

صلاح عيسي: والآن... إن عبد الناصر لـيس فـي الساحة.. وحتي في حدود التصور الذي قدمته عن أهدافه فإن هذه الأهداف لم تستكمل ولم تتحقق كلها... فكيـف تتصـور العلاقة بين القوى الثورية العربية والناصريون بالطبع فصيلة من فصائلها؟ ما هي أوضاعها الراهنة وكيف تتجاوزها؟

محمد عودة: مهما كانت مواقفنا من (عبد الناصـر) فإنه كان نتاج جيله أو عصره، ومهمتنا بعـد ذهـاب (عبـد الناصر) أن نسيطر علي عواطفنا وعقولنـا وأن نسـتخلص بموضوعية كاملة كل دروس وعظات المرحلة التي قادهـا: القوى الثورية التي بدأت قواها في الصراع فيما بينها لابد أن تبتدع صيغ وطرق عمل مشتركة جديدة، إن المنطقة العربية في إخصاب وتفاعل وتوالد مستمر لا يستطيع أحد أن يتنبـأ بما قد تتمخض عنه أن هناك ثـورة فـي الـيمن، ودولـة

ديموقراطية شعبية فيها، وهناك ماركسية في حضر مـوت، وعبوراً في السويس، والجزائر التي كانت مقاطعة فرنسـية أصبحت دولة ثورية. إن كل ما تستطعيه القوى الثوريـة أن تواصل كهدف دفع الأمور في الاتجاه الثـوري باسـتمرار. فالثورة العربية كالثورة الروسية والثورة الصـينية والثـورة الفيتنامية سوف تتمخض عن أشكال جديدة، أن وضع القوى الثورية الآن به نقاط ضوء وظلال أيضاً. إن الخلافات بـين جناحي حزب البعث الحاكمين في سوريا والعراق يجـب أن تحل لا لمصلحة الحزب فقط، ولكن لمصلحة الثورة العربيـة ككل وصحيح أن كثيراً من العقد والتعصبات ضد الماركسية والشيوعية في العالم العربي قد ذابت، كما انتهت إلـي حـد كبير المواجهة بين القوميـة العربيـة والشـيوعية، ولكـن الشيوعيين إلي الآن لم يعبروا الماركسية بالدرجة المطلوبة، ولم يلتصقوا بالواقع العربي، ولم يصلوا إلي صـيغة عمـل حقيقية، والتجربة الفريدة والممتازة التي تجري فـي الـيمن الجنوبية يعيبها بعض التزمت والتعالي الذي لا مبـرر لـه، والذي يعزل هذه التجربة الثورية الطيبة عـن التـأثير فـي عالمها العربي. ومشكلة الناصرية هي أنه استقطبت أعمـق



وأعرض الجماهير وليس لها تنظيم حقيقي يعبر عنهـا، ولا قيادة بحجم هذه الجماهير. إن الحوار مطلوب وملتقي فكري للقوى الثورية العربية مطلب حيوي.

صلاح عيسي: وبالنسبة لأوضاع مصر؟

محمد عودة: هنـاك مهمـة طليعيـة علـي المثقفـين المصريين الناصريين والتقدميين والماركسيين هي أن يتقدموا نموذجاً لوحدة القوى الثورية العربية، هي أن يعملوا لخلـق الحزب الناصري. أن صيغة الإتحاد الاشتراكي ثبت فشـلها ولا بد أن نملك الشجاعة للاعتراف بـذلك. وأمـا أن تعلـن الاتحاد الاشتراكي حزبـاً واحـداً يضـم القـوى الوطنيـة والاشتراكية علي ان يكون لها وجود ذاتي داخل الحزب كما هو الحال في حزب العمال البريطاني حيث يوجـد اليمـين واليسار والوسط محدد المعالم... وأما أن نطلق حرية حزبية وطنية يقوم فيها حزب ناصري جمـاهيري يكـون حـزب الأغلبية واستمراراً لأحزاب مصرالكبيرة والتاريخية ويكون هناك حزب ماركسي لينيني يضم الكوادر المثقفـة، ويلعـب دور المعارضة اليسارية، ثم حـزب ديمقراطـي بجـوازي للبرجوازية الوطنية المعادية للإسـتعمار يمثـل المعارضـة

اليمينية الوطنية، علي أن يحدد الإطار والحـوار والصـراع بين هذه الأحزاب في مياق جبه وطنية (١) هذه الصيغة لا بد أن تكون مصرية صرفة تثبت نجاحها في مصـر قبـل أن تتطلع إلي العالم العربي وتكون نواة التنظـيم السياسـي الأم الذي تلتف حوله التنظيمات العربية التقدمية.

---

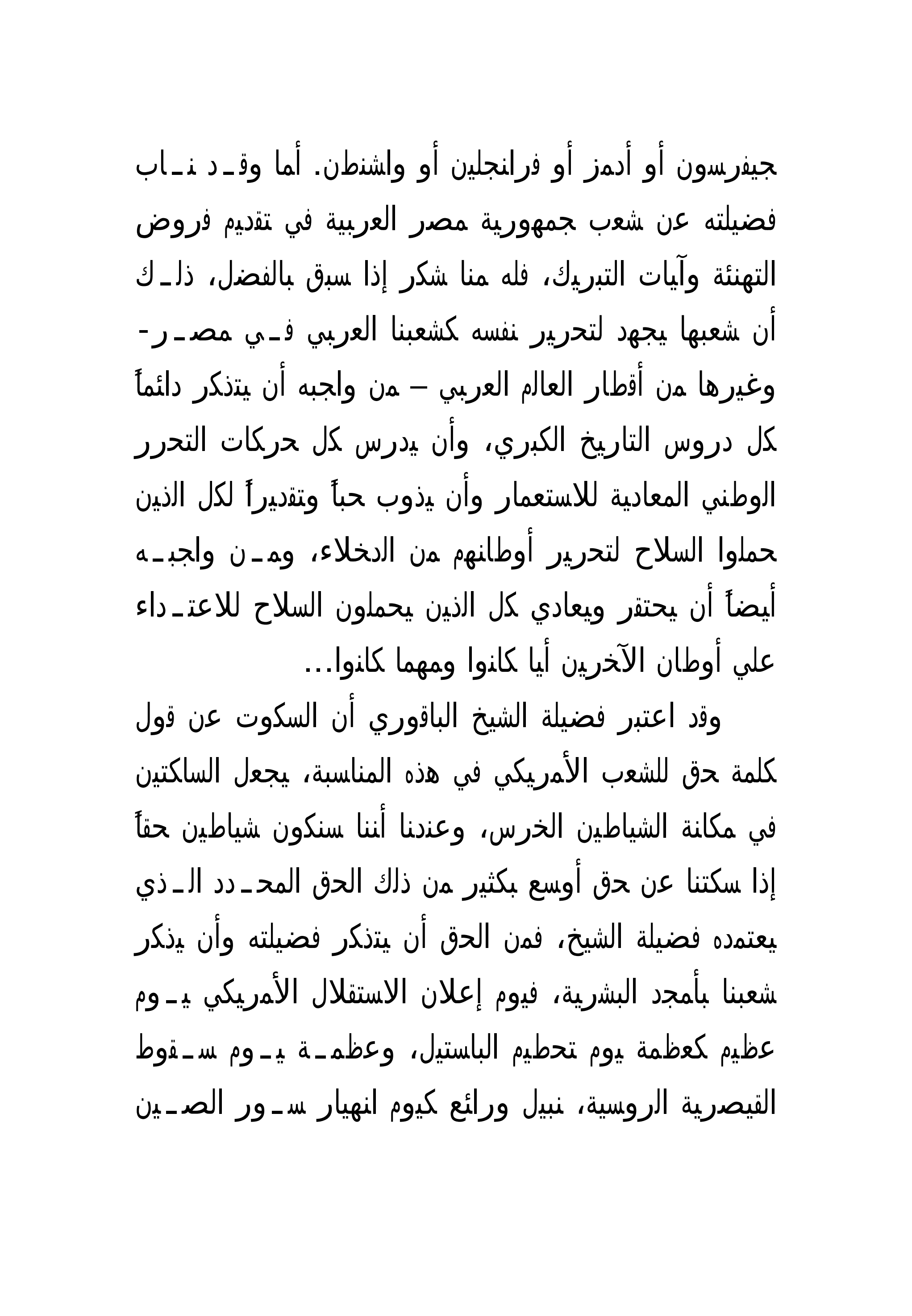
[١] طرحت هذه الفكرة ، قبل التطورات التي انتهـت بـالإقرار بالتعدية الحزبية في مصر عام ١٩٧٦ .

شياطين
صاحب الفضيلة

أؤكد لفضيلة الشيخ (أحمد حسن الباقوري) أننـا لسـنا شياطين خرساء، ولسنا شياطين متكلمين، فليطمئن فضـيلته أننا لم نسكت عن الحق، ما صمتنا عنه قبل اليوم وإلي يـوم يسترد ا وديعته فينا، حتي لو قطعت منا الألسنة، أو مزقت الأشلاء، أو نفيت الرؤوس عن الأبدان.•

ولفضيلته علينا حق الشكر، فقد تذكر وحـده دون كـل المصريين والعرب، كاتبين وقارئين وأميين، أن يوم الإثنـين أول يوليو هو يوم عيد الاستقلال الأمريكـي فكتـب علـي صفحات (الأخبار) يحي هـذه الـذكري، ويهنـي الشـعب الأمريكي العظيم يوماً، ولا جحد أحد – علي مـر التـاريخ وتناقض المواقف – ما قدموه للبشرية من جهد، من ذا ينكر

• نشر هذا المقال في الجمهورية ، في ٤ يوليو ١٩٧٤ ... وهـو يشير إلي واحدة من الإيماءات الأولـي ، للغـزل الأمريكـي باللغـة الأزهرية .. الذي مارسة تيار مسلمي البترودولار فيما بعد..



جيفرسون أو أدمز أو فرانجلين أو واشنطن. أما وقد ناب فضيلته عن شعب جمهورية مصر العربية في تقديم فروض التهنئة وآيات التبريك، فله منا شكر إذا سبق بالفضل، ذلك أن شعبها يجهد لتحرير نفسه كشعبنا العربي في مصر- وغيرها من أقطار العالم العربي – من واجبه أن يتذكر دائماً كل دروس التاريخ الكبري، وأن يدرس كل حركات التحرر الوطني المعادية للاستعمار وأن يذوب حباً وتقديراً لكل الذين حملوا السلاح لتحرير أوطانهم من الدخلاء، ومن واجبه أيضاً أن يحتقر ويعادي كل الذين يحملون السلاح للاعتداء علي أوطان الآخرين أيا كانوا ومهما كانوا...

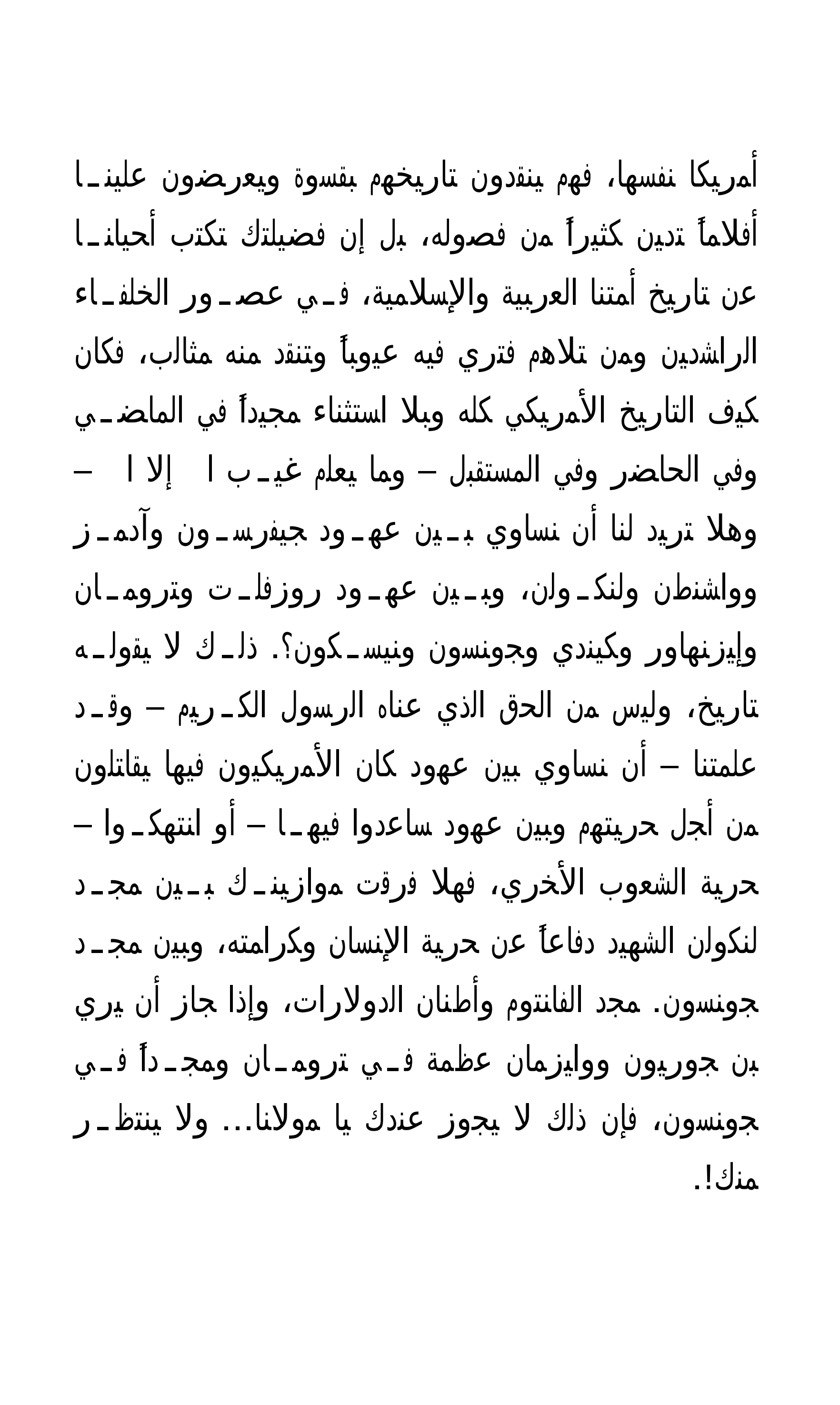
وقد اعتبر فضيلة الشيخ الباقوري أن السكوت عن قول كلمة حق للشعب الأمريكي في هذه المناسبة، يجعل الساكتين في مكانة الشياطين الخرس، وعندنا أننا سنكون شياطين حقاً إذا سكتنا عن حق أوسع بكثير من ذلك الحق المحدد الذي يعتمده فضيلة الشيخ، فمن الحق أن يتذكر فضيلته وأن يذكر شعبنا بأمجد البشرية، فيوم إعلان الاستقلال الأمريكي يوم عظيم كعظمة يوم تحطيم الباستيل، وعظمة يوم سقوط القيصرية الروسية، نبيل ورائع كيوم انهيار سور الصين

تحت ضغوط الفلاحين العراة المتشـوقين للعـدل والحريـة والخبز، كيوم أطلقت فتح أول رصاصة، كيوم انطلقت أولي شرارات الثورات في فيتنـام ولاوس وكمبوديـا والجزائـر وبغداد وطرابلس ودمشق.. كيوم حاصرت الـدبابات قصـر عابدين وطردت الملك الذي كانت تعاديه فضيلة الشيخ!.

لكن ذلك الحق الذي سكتنا عنه فكنا شـياطين خرسـاً، يتضمن عند شيخنا الباقوري قولـه إن الولايـات المتحـدة الأمريكية (دولة عظيمة في نشأتها لأنها قامت علي العدل أو عدل السلام، وإذا كان المستقبل وثيـق الصـلة بالحاضـر والماضي، فإن أغلب الظن أن هذه الدولة العظيمة مـواطن آمال الذين يؤثرون الحرية علي العبوديـة والعدالـة علـي الطغيان والأخوة الإنسانية التي أثرها ا لعباده علي مـا لا اختيار لهم فيه من التعالي بالأجناس والعروق).

أما وقد قال فضيلته ذلك فليأذن أن نقول: ذلك حقك يـا سيدنا.. ولكنه ليس حق الرسول الكريم الذي قصد إليه عندما قال أن الساكت عن الحق شيطان أخرس!.

وما أظن يا شيخنا أن تعسفك هذا في تنـاول التـاريخ الأمريكي واعتباره كله دفعة واحدة شيئاً مجيداً، يحدق فـي


أمريكا نفسها، فهم ينقدون تاريخهم بقسوة ويعرضون علينا أفلاماً تدين كثيراً من فصوله، بل إن فضيلتك تكتب أحيانا عن تاريخ أمتنا العربية والإسلامية، في عصور الخلفاء الراشدين ومن تلاهم فتري فيه عيوباً وتنقد منه مثالب، فكان كيف التاريخ الأمريكي كله وبلا استثناء مجيداً في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل – وما يعلم غيب ا إلا ا – وهلا تريد لنا أن نساوي بين عهود جيفرسون وآدمز وواشنطن ولنكولن، وبين عهود روزفلت وترومان وإيزنهاور وكيندي وجونسون ونيسكون؟. ذلك لا يقوله تاريخ، وليس من الحق الذي عناه الرسول الكريم – وقد علمتنا – أن نساوي بين عهود كان الأمريكيون فيها يقاتلون من أجل حريتهم وبين عهود ساعدوا فيها – أو انتهكوا – حرية الشعوب الأخري، فهلا فرقت موازينك بين مجد لنكولن الشهيد دفاعاً عن حرية الإنسان وكرامته، وبين مجد جونسون. مجد الفانتوم وأطنان الدولارات، وإذا جاز أن يري بن جوريون ووايزمان عظمة في ترومان ومجداً في جونسون، فإن ذلك لا يجوز عندك يا مولانا... ولا ينتظر منك!.

فلماذا نكون شياطين لأننا تذكرنا ذلك فما طاوعتنا قلوبنا أو أقلامنا أن نقول ما قلت، والرسول العظيم – وقد تعلمنـا منك – لم يكن يعني بالسكوت عن الحق.. السكوت عن مدح كل شئ في التاريخ الأمريكي... فلماذ ا تلقي بنا فتاواك يا شيخنا وأمامنا إلي النار دون موجب؟!..

ولقد يكون من حق فضيلتك أن تـري فـي الولايـات المتحدة موطن آمالك شخصياً، أما وقد اعتبرتها موطن آمال الذي يؤثرون الحرية علي العبودية والعدالة علي الطغيان – ونحن منهم – فهلا سمحت أن نقول أنك تفرض علينا وعلي الشعب المصري – الذي كتبت نيابة عنـه – كعبـة أحـلام وموطن آمال قد لا يكون راغباً فيها، وما نظن أننا أخطأنـا فهم ذلك الذي جاء في ورقة أكتوبر، أو في خطب الـرئيس السادات من أن تحرير الإدارة المصرية هو الهدف، ولـيس من تحرير الإرادة أن يكون لمصر كعبة أحـلام أو مـوطن آمال.

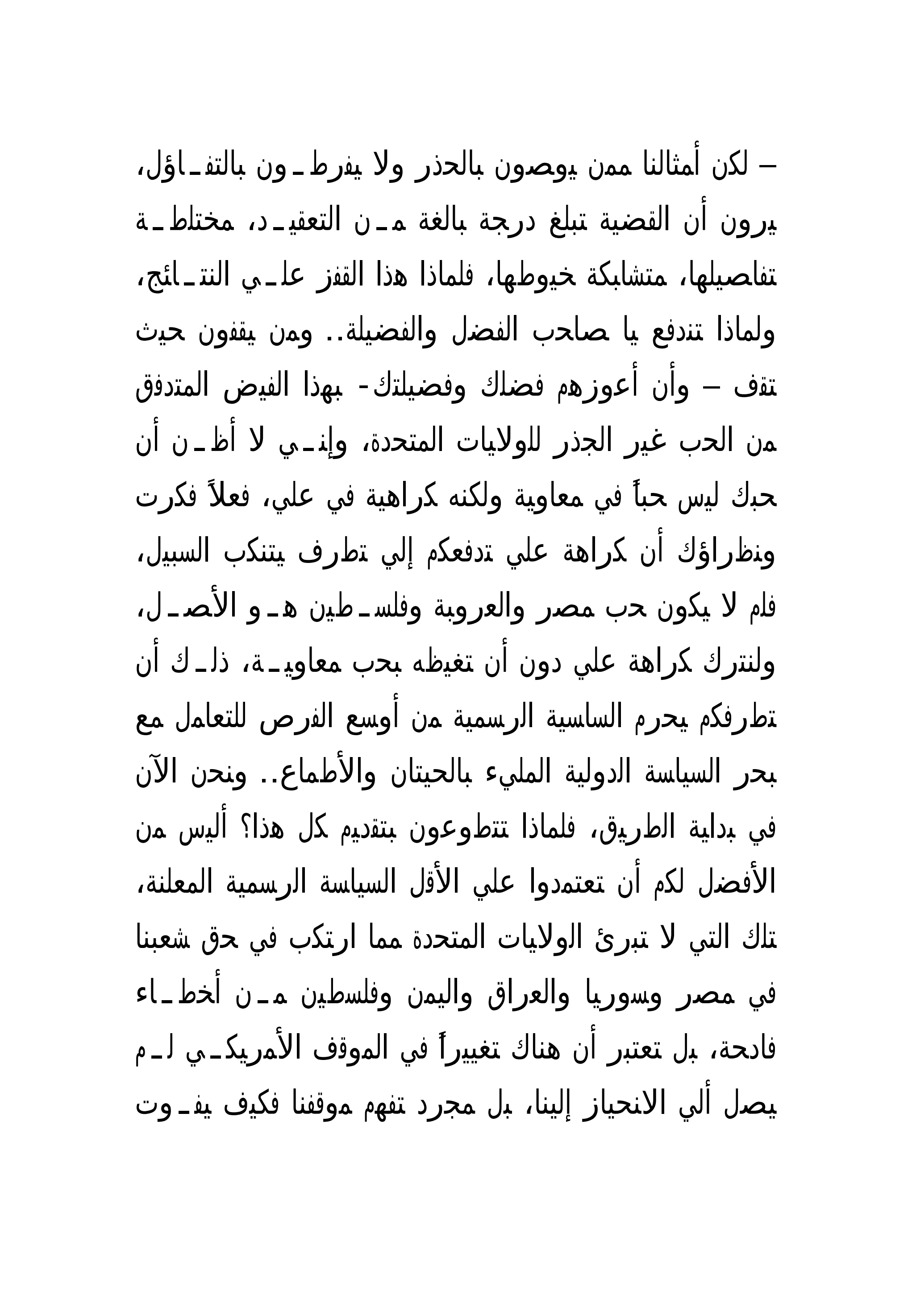
وهل تأذن لبعض مريديك يا شيخنا الجليل أن يتجاسروا فيسألونك: في أي بلاد العالم توجد تلك العبودية التي تفضـل عليها حرية تراها في الولايـات المتحـدة فتعتمـدها كعبـة

آمالك؟!. وأين بالتحديد علي الخريطة يوجد ذلـك الطغيـان الذي تؤثر عليه عدالة واشنطن؟ لعل ذلك لا يكون في بـلاد يعطي فيها من لديه فضل زاد لمن لا زاد له، ويصبح الناس فيها شركاء في ثلاثة: الناروالكلأ والنار ولا يبيت إنسان فيها علي الطوي فيخرج علي الناس شاهراً سيفه.

وهل أجهدك البحث يا قطبنا الجليل في سيرة الرسـول الكريم والخليفة عمر والصحابي أبي ذر، وعشرات غيـرهم ممن دفعوا وانتصروا للمستضعفين في الأرض من النسـاء والرجال والولدان فما وجدت بعد ذاك البحث ما يزودك بعدل وحرية تتوق إليهما...

ظننت يا شيخنا – وليس كل الظن إثماً – أنك واجد في القرآن والسنة وما تركه السلف الصالح مـن الأئمـة عـدلاً وحرية يفضلان عندك عدل واشنطن وحريتها.. فهـلا يبلـك مثلي، بضاعته من ذلك العلم جد متواضعة، أنها لكبيـرة، أن يقولها مريدا لشيخه، فهلا غفرت لنا تطاولنا.

ولقد يكون من حقك أن تكون صديقاً للولايات المتحـدة الأمريكية، ونظراؤك في ذلك حقهم أن يعبروا عن أرائهـم، وأنهم ليفعلون – ربما أكثر مم يفعل أي أحد في هذا الـوطن



– لكن أمثالنا ممن يوصون بالحذر ولا يفرطـون بالتفـاؤل، يرون أن القضية تبلغ درجة بالغة مـن التعقيـد، مختلطـة تفاصيلها، متشابكة خيوطها، فلماذا هذا القفز علـي النتـائج، ولماذا تندفع يا صاحب الفضل والفضيلة.. ومن يقفون حيث تقف – وأن أعوزهم فضلك وفضيلتك- بهذا الفيض المتدفق من الحب غير الحذر للولايات المتحدة، وإنـي لا أظـن أن حبك ليس حباً في معاوية ولكنه كراهية في علي، فعلاً فكرت ونظراؤك أن كراهة علي تدفعكم إلي تطرف يتنكب السبيل، فلم لا يكون حب مصر والعروبة وفلسـطين هـو الأصـل، ولنترك كراهة علي دون أن تغيظه بحب معاويـة، ذلـك أن تطرفكم يحرم الساسية الرسمية من أوسع الفرص للتعامل مع بحر السياسة الدولية المليء بالحيتان والأطماع.. ونحن الآن في بداية الطريق، فلماذا تتطوعون بتقديم كل هذا؟ أليس من الأفضل لكم أن تعتمدوا علي الأقل السياسة الرسمية المعلنة، تلك التي لا تبرئ الولايات المتحدة مما ارتكب في حق شعبنا في مصر وسوريا والعراق واليمن وفلسطين مـن أخطـاء فادحة، بل تعتبر أن هناك تغييراً في الموقف الأمريكـي لـم يصل ألي الانحياز إلينا، بل مجرد تفهم موقفنا فكيف يفـوت

علي حصافتك أن يكون ثمن مجرد تفهم موقفنـا أن تصـبح واشنطن موطن آمالنا.. إذا ما الذي يبقي لفضيلتك لكي تقوله عنها لو انحازت إلينا... إننا لم نسكت عن الحق يا شـيخنا، وإننا لنجهد لكي تعود أمريكا إلي عصر البراءة، إلي زمـن جيفرسون وفرنكلين ولنكولن، ألي سـنوات تحريـر العبيـد ووثيقة حقوق الإنسان. فهلا صليت معنا لكي يعود ذلـك العصر فلا نسمع عن فيتنام، او اضـطهاد الزنـوج وهـلا جاهدت دفاعاً عن الإنسان ليتحرر حقاً ويمتلك مصيره، إننـا نجلك يا صاحب الفضيلة ونحترم جهداً قدمته لهـذا الـوطن حبا وفي الناس يوم قلت – قبل الثورة – كلمة حـق فـي وجه إمام ظالم وفاجر.. ونحن نختلف معك حباً في ا وفي الناس، ودفاعاً عن النفس أيضاً، فقد أفتيت يا شـيخنا بأننـا شياطين خرس، فهلا خففت عن بعض مريديك هـذا الحكـم القاسي؟!.

يحيا الوفد...
مانيفستو السماسرة والكومبرادور

(لا يهم ما إذا كانت مسرحية أم مهزلة، لأنها لست كذلك، المهم أنها بشارة ملوك العهد الجديد).

المسرحية اسمها: (يحيا الوفد) [(١)] والمخرج والمؤلف والبطل هو الفيلسوف كلي الإجرام الأستاذ (فايز حلاوة) آخر صيحات الفكر المصري التعس الحظ، الذي تتكون روافده الآن من مادحي الملوك، والمتغزلين في الطواغيت، والباكين علي زمن الاستعمار السعيد، ممن تلقوا (ثقافتهم) – مع الاعتذار الشديد للكلمة – من فتات الكلمات المتناثرة علي موائد (كباريه بديعة مصابني) ومن أفواه جنود الحلفاء السكاري أثناء الحرب الكونية الثانية، ومن التراث البديع والرائع الذي تركته لفلاحي مصر (زوبه الكلوباتية) و (خضرة الضباطي) و... (السلطانة زبيدة) وغيرهن من

(١) نشر هذا المقال في مجلة (الثقافة) البغدادية – عام ١٩٧٥.

مشاهير العوالم والغوازي والراقصات وأصوات أحياء البقاء!!

مشهد واحد من هذه المسرحية يلخص كل شئ:

عبد الودود: فلاح مصري تعس وفقير وجائع، رفع رأسه إلي السماء، بسط كفيه داعياً ومبتهلاً إلي ا ، وخلفه جوقة من أمثاله: فلاحين مصريين، أكثر جوعاً منه وأبلغ فقراً، حفاة وعراة وموجوعين وبلهاء وتعساء، لعلها صلاة عيد الأضحي، أو ليلة قدر يستجاب فيها للدعاء. لذلك يؤيد الفلاحين كل عبارة في الدعاء بكلمة: آمين. وأما نص الدعاء فهو شعار طبقة اجتماعية، وفلسفة مرحلة، أيديولوجية عصر علي وشك أن يبدأ، يقول الدعاء:

- اللهم ارحمنا يا أرحم الراحمين من الناس الفقريين، اللهم لا تجلعنا من أهل اليسار، بل من أهل اليمين، اللهم ارزقنا المال بالملايين، واجعل لنا نصيباً من الدولار والاسترليني!.

ومن المؤكد أن (عبد الودود) ليس ممثلاً لفقراء الفلاحين أو بروليتاريا الريف، هؤلاء الذين يصلون ، ويحلمون أن يأتي يوم قد تتحسن فيه الأحوال فيمتلكون مصيرهم حقاً

ويقلقهم أن ترتفـع إيجـارات الأراضـي الزراعيـة، وأن تتضاعف الأسعار- كما قال تقرير رسمي- مرة كل سـنة، ويرتعبون من يوم يعود فيه المرابون اليونـانيون والأرمـن والسماسرة الإنجليز والفرنسيون كالتراب، وينتشـر الفقـر والجوع كما كان الحال أيام اسماعيل، وتصبح مصر سـوقاً للبغايا والقوادين، وتنتهك أعراض الرجال وكرامات النسـاء وتتفكك الأسرة، ويفكرون وقتها في وأد بناتهم خشية العـار والإملاق.

ولأن (عبد الودود) فلاح في مسرح (تحية كاريوكا) فإن مهمته أن يضحك هؤلاء الذي يسيرون وقد علقـوا لافتـاتهم الكومبرادورية فوق ظهورهم، لذلك يصلي ويصلون للدولار والاسترليني، ويدعون ا أن يـرحم العـالم مـن النـاس (الفقريين) – أي الذين يجلبون الفقـر – وهـم فـي هـذه المسرحية (السوفييت) الذين وصفهم (عبد الودود) – أكثـر من عشر مرات – بـأنهم (أولاد كلـب وحيوانـات)، ولأن جمهور الصالة ليس من الفلاحين – بل ليس من المصـريين أصلاً – فإن عاصفة من التصفيق تدوي مؤيدة دعـاء عبـد الودود وسبابه البذئ، عاصفة يطلقها تجار الشنط، والسماسرة

والذين أثروا من مقاولات الحرب، ومن يعدون أنفسهم بالريح الوفير عندما تصبح القاهرة هونج كـونج أخـري، والـذين ينزون شبقاً لأموال الإحتكارات الأمريكية ويريدون أن يبيعوا مصر – وكل أقطار الوطن العربي – لواشنطن بثلاثين قطعة من الفئة.

الأمعاء الغليظ لبرجوازية السبعينات.

ولأن مصر – كوطنها العربي – بلد العجائـب، فـإن برجوازيتها – موديل السـتينات والسـبعينات – لا تطـرح فكرها في نصوص محترمة إلا نادراً، ومـا أقـل الوثـائق الفكرية التي يستطيع مـن يقفـون فـي القطـب المنـاقض للبرجوازية طبقاً أن يجدوا فيها ما يستحق عناء التفكيـر أو المواجهة، وربما كان شـيئاً مضـحكا بالفعـل أن تطـرح البرجوازية المصرية – فـي عهـود مختلفـة – أفكارهـا وإيديولوجيتها في اسكتشات راقصة، أو مسرحيات من نـوع (يحيا الوفد) أو مقالات من تلك التي يكتبهـا (صـالح بـك جودت) ومصطفي بك أمين) و (إبراهيم بك الورداني)!.

تلك ظاهرة لا نسـتطيع أن نفهمهـا إلا بـإدراك تلـك الملاحظة التي تصدق علي مراحل متعددة في حياة أقطـار

عربية أخري، كما تصدق علي بلدان العالم الثالث، فعنـدما تواجه طبقة مهجنة، كونت فائضها مـن الزراعـة أساسـاً، ونمت علي أجمحه المحاولة الإمبريالية لاستنزاف السـوق، وتبنت وهي تصحو قومياً شعارات ثيوقراطيـة، وكـرزت بمقولات فاشستية، ووقعت في أواخر أيامها في أيدى العسكر يتاريا، فلا تتوقع أن تجد طبقة أصيلة في فنونها أو آدابها أو فكرها، ويجوز لك عندئذ أن تعتمد (يحيا الوفد) باعتبارها ما نيفستو العصر الجديد.

وأيضاً، فأمام تلك المسرحية – كما هو الحال أمام ثقافة هذه الشرائح الكومبرادورية من البرجوازية – فليس هنـاك مبرر علي الإطلاق للحديث عن الفن، ولكن هنـاك داعيـاً للحديث عن ظاهرة (مسرح كاريوكا) نفسه، هـذه الظـاهرة التي فهمت خطا لدرجة دفعت فنانين كبار للدفاع عنه، ومنحه شهادات بأنه مسرح (النقد السياسي) أو (الضحك الهـادف)، هذا الإدعاء الذي بدأ (مسرح كاريوكا) به حياته، فصدقه فنان كبير مثل (يوسف إدريس) وكتب مرة يقول عـن مسـرحية (البغل في الإبريق) إن مخرجها ومؤلفها (فايز حـلاوة) قـد

استطاع بحق أن يضيع أصبعه علي ما تهفو إليه النفوس في المسرح عام ١٩٦٧ بلغة ١٩٦٧ وسرعة ١٩٦٧).

وأضاف يوسف إدريـس يقـول: أن (فـايز حـلاوة) بمسرحيته (روبابكيا) و (البغل في الإبريق) قد (وجد طريقة الخاص إلي قلب الجمهور، بحيث يستطيع بقدرة وبقـوة، أن يبقيه في حالة تمسرح تام طوال العرض المسرحي، مستفيداً من كل تجارب المسرح المصري، ملبياً تلك الـدعوة التـي تصاعدت من الأعماق، تطالب بخلق أشكال مصرية للمسرح ومواضع مصرية).

وتحمس الأستاذ (رشدي صالح) في المرحلـة نفسـها، فوصف مسرحية (البغل في الإبريـق) بأنهـا تنتمـي إلـي (المسرح الانتقادي الساخر، وتتصف بارتفاع درجة السخونة في النقد، والسرعة في الحركة وانتشـار الموضـوع علـي مساحة واسعة، وقد أتيح لي أن أشاهد هذا الجـنس الأدبـي والفني في زيارتي لألمانيا الغربيـة، ولا أظـن أن (فـايز حلاوة) قد تابع هذا المسرح الألماني الذي أتحدث عنه، ولكنه يعرف عن دراية أنه يمكن أن يستجمع فن الكوميديا قوتـه، ويحقق غرضه إذا ضم عنصر التسلية إلي عنصر الـرأي،

وقد صنع هذا بمهارة شديدة في مسرحيته (روبابكيا) وعـاد يضيفه في مسرحيته الجديدة البغل في الإبريق).

ولا ملامة علي هؤلاء فقـد اسـتطاع منظـور الفـن البرجوازيين أن يخلقوا – بالدعاية – من (نجيب الريحـاني) فيلسوفاً، لكن ذلك لم يخف حقيقة مسرحة الذي حرص دائماً علي أن يقدم لمجتمع السادة في المدينة موضوعاً ليسـخروا منه، وعندما كان هؤلاء السادة هم الباشوات الأتراك وتجـار القطن الأجانب والإرستقراطية المتمصرة، كانـت شخصـية (كشكش بيه) هي شخصية المصري بـين بـراثن (نجيـب الريحاني) ليقميه موضوعا لسخريته: رجل ضعيف أمـام أي امرأة، ساذج وغبي ومسرف، عمدة ريفي أبلـه يـأتي إلـي القاهرة ومعه ثمن القطن فتحيط به الراقصـات والعـاهرات وتسرقنه منه، هكذا كانت مصر أيامها تقدم للسادة في مسرح الريحاني.

وعندما أصبح السادة شيئاً آخر: البرجوازية المصـرية الصناعية والتجارية الصاعدة – ربما كان هذا العمدة الريفي ذاته واحدا من مفردتها – انتقل الريحاني إلي مرحلة تقـديم البرجوازي الصغير، ابن المدينة المسحوق والمنضغط، الذي

يقع في مشاكل ضارية ثم تهبط عليه فجأة ثروة من السـماء في شكل ورقة يا نصيب أو زوجة ثرية تهتم بفحولته الجنسية وتسعي إليها.

والهدف في كلتا الحالتين أن يضحك السادة علـي مـن يستغلونهم، وأن يتطهروا من أي إحساس بالإثم قد يخـالجهم تجاه هؤلاء المستغلين (بالغين المفتوحة (١)

وقد بدأت فرقة تحية كاريوكا المسرحية عملها في أوائل الستينيات، مستغلة شهرة الراقصة التي لمعت في كباريهـات الحرب الكونية الثانية، والتي حفظ اسمها المميز كل جنـود الحلفاء الذين ألقت بهم أقدارهم إلي القاهرة في تلك السنوات – خاصة أنها – وهي فلاحة فقيرة خرجت هاربة من قريتها – أضافت الي اسمها لقباً أمريكياً، استعارته من اسم رقصـة الكاريوكا أحدث وأشهر الرقصات الأمريكية في ذلك الزمن، الذي كانت فيه (السيدة تحية) موضة العصر لجنود الحلفـاء

---

[١] كان أول من قال بهذا التحليل لمسرحيات الريحاني وصدم به الإتجاه الدعائي (الذي كان يقيم أعماله، باعتبارها فلسفة ساخرة، هـو الكاتب الكبير يحي حقي، في بداية الخمسينات.

في (صالة وكاباريه بديعة مصابني) نضر ا أيامها، وسقاها بالخير العميم!!.

ومنذ البداية كانت الفرقة مهددة بالتوقف وبـأن تلقـي مصير فرقة (إسماعيل ياسين) التي نشأت علـي أنقاضـها، فشباب بطلتها – تحية كاريوكا – كان قد أوشك علي الأفول، وأصبح صعباً أن تروج الفرقة برقصة لراقصة غرب شبابها وترهل جسدها الرشيق الذي طالما تأود علي مشهد من جنود الحلفاء في ليالي السمر وسهرات الترفيه عن أبطال الـدفاع عن الديمقراطية أمام جحافل النازية.

وفضلاً عن هذا، فإن مؤلف مسرحيات الفرقـة (فـايز حلاوة) المذيع السابق بإذاعة القاهرة- ليس موهوباً كمؤلـف مسرحي، وكل إمكانياته تكمن في القدرة علي صياغة مشاهد تمثيلية من النمط الإذاعي الذي اتقنه في عمله الأصلي، ثـم صقلت هذه الإمكانيات من خلال التفاعل مـع جمهـور ذي نوعية خاصة أقبل علي الفرقة أصلاً لمشاهدة الأيام الأخيرة لتحية كاريوكا في الرقص.

وسرعان ما إكتشفت الفرقة الوليدة عالماً كـاملاً مـن (الفن المسرحي) سداه ولحمته هو الجنس: يعابـث غرائـز

جمهوره بالكلمات البذيئة، وبالحركـات البذيئـة ويسـتخدم المؤلف تطبيقاً له الكلمة الواحدة بمعنيين أحداهما برئ للرقابة والآخر جنسي وقح للمتفرج، وتدريجياً أصبحت صالة مسرح تحية كاريوكا- ككل صالات مسارح القطاع الخـاص فـي مصر- مكاناً تتفجر منه ضحكات عصبية تنز شبقاً، وتفـح رغبة، وتحول الحياة إلي ذكور وإناث ولا شئ غير هذا.

ولكن ذلك لم يكن كافياً لكي تتميز فرقة (تحية كاريوكا) عن مثيلاتها من الفرق الخاصة في وقت كانت مسارح الدولة فيه تنتشر وتغري المتفرج بثمن رخيص للتذكرة، أيامها كان الموضوع المفضل للمسرح التجاري يقوم علي (تيمة ثابتـة) هي الزوج والزوجة والعشيقة – أو والعشيق و (كانت هـذه التيمة) تتيح للمستثمرين في هذا النوع من الفن الإقتصـادي فرصة لأقصي الربح، لأنها تخلق مجموعة مـن المواقـف المعقده، ظن أباطرة المسرح التجاري أنها الدراما، كمـا أن الموضوع بطبيعته يتيح أوسـع الفـرص لمـلأ المسـرحية بالتوريات الجنسية، وفضلاً عن هذا فهو لا يتطلب مجهـوداً في التاليف أو في الإخراج أو حتي في حفظ الأدوار، لكـن هذا الموضوع كان قد أصبح بشعا وسمجاً لدرجـة أنـه أدي

إلي إفلاس فرقة (إسماعيل ياسين) التي ظلت أسيرة له طوال عمرها بحكم أن مؤلف مسرحياتها (أبو الســعود الأبيــاري) كان يعيد صياغته الأوبريتات التي كان يؤلفها لكبارية (بديعة مصابني) أيام الحرب ويحولها ألي مسرحيات. وكان معظمها يدور حول هذا الموضوع ولا شي سواه.

كانت مصر الخمسينيات والستينيات هي مصر تكــوين الطبقة الجديدة، عندما نمت شرائح جديدة من البيروقراطيــة البرجوازية، أصبح (المــنظم) مالــك العلاقــات الإنتاجيــة الرأسمالية التقليدي مفهوماً مجرداً، فهو لا يمالــك ولا يــدير ملكيته، ولكنه يسيطر علي الملكية، التي وصفت فيهــا بعــد بأنها ملكية الشعب، أصله في الغالب من العسكريتاريا، ثقافته صفر، أفقه لا يتسع لأبعد من أقدامه، التي تعودت أن تصطك مع إرتفاع كفه إلي جبهته مؤكدة شعار السمع والطاعة ونفــذ الأوامر دون مناقشة، نفذها ثم تظلم بعد ذلك.!

بحكم تكوينها ذاك، افتقدت هذه الطبقة لكــل ذوق فنــي حقيقي: إنها ليست البرجوازية الأوربية التي نمت الرومانسية علي جناحها، والت تفاعلات مــع الإنســكلوبيدين، فولــدتهم وتولدت منهم، وربما يلخص كل شئ ملاحظة رصدها أحــد

الراصدين، فحتي نمط الأثاث، في بيـوتهم كـان نموذجـا لذوجهم: حجرة نوم استيل، وحجرة صالون مودرن، لوحات ممعنة في الكلاسيكية، وأثاث لا معقلو، يعجبون بالكلاسـيك من الموسيقي، (وبالطشت قاللي) من الإغاني، في واحدة من تلك السنوات- بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ قال كبير هـؤلاء لألفريد فرح بعد أن شاهد إحـدي هزليـات مسـرح أمـين الهنيدي:

شايق المسرح... عايزين من ده؟!

وبالقطع فإن هذا الكبير قد أحرج (الفريد فـرح) الـذي وجد كل مواهبه تخسير في منافسة ظالمـة أمـام قـاض لا يعرف من مؤلفي الدراما سوى (سمير خفاجي) و (بهجـت قمر) وأمثالهما من مؤلفي هزليات القطاع الخاص، فإذا علمنا أن الكبير صاحب هذا الرأي كان – بشهادة كثيرين – مـن أفضلهم، أدركنا مدي وعي هذه العسكريتاريا ومـدي توقهـا الفني، لكن المسألة مع هذا لم تكن شخصية، كانـت البنيـة الاجتماعية نفسها تفرض سيادة فنون تلك الطبقة، لهذا لمـع (عبد المنعم مدبولي) و (فؤاد المهندس) وملوك الكوميديا من

خلال موضوع كان هم مفردات تلك الطبقة وشاغلهم المقـيم هو الجنس!!

من خلال سيطرة الأجهزة البوليسية وصـراعها علـي السلطة دخل الجنس ضمن موضوعات أمن الدولة وحمايـة الوطن طويلاً، وبينما كانت المخابرات الإسرائيلية تجمع أدق وأوفي المعلومات عن مصر عسـكرياً واقتصـادياً، كانـت المخابرات المصرية مشغولة بجمع أو في المعلومـات عـن فسيلوجيا الأعضاء الجنسية لكل المهتمين بالعمل العـام (١) وبرغم أصولهم العسركية فقد افتقدوا للخصائص السيكولوجية لفرسان العصور الوسطي، وتبقي لديهم الوهم بأنهم مقبـولين لدي النساء.

وقد ثبت فيما بعد – وفي محاكمات المسـؤولين عـن نكسة حزيران ١٩٦٧- أن المؤسسة العسـكرية المصـرية كانت غارقة لأذنيها في المخدرات والخمر والنسـاء وكـل

---

(١) مصطفي أمين، شريك هذه الأجهزة ، والمتمرد عليهـا ، ثـم ضحيتها كتب يقول أنها كانت تعلم بالموعد الأسبوعي الذي يلـم فيـه الجنزال موشي ديان بعشيقته، في الوقت الذي جهلت فيه تماماً بخطتـه لضرب المطارات المصرية في ٥ يونيو (حزيران) ١٩٦٧.

مظاهر الانحلال الخلقي. وبرغم ذلك كانت مؤسسة طويلـة اللسان فاجرة الإدعاء. كانت تملك مجموعـة مـن الكهنـة وفريق من الجلادين. نجح الكهنة في خلق أجهـزة دعايـة عملاقة قامت بعملية غسل مخ ضاربة ومستمرة، وبأسـلوب مقتدر، بينما تكفل الجلادون – أكثر من ٢٠ جهازا للرقابـة والتصنت – بالتصدي لمن يقاوم مخه عمليات الغسيل.

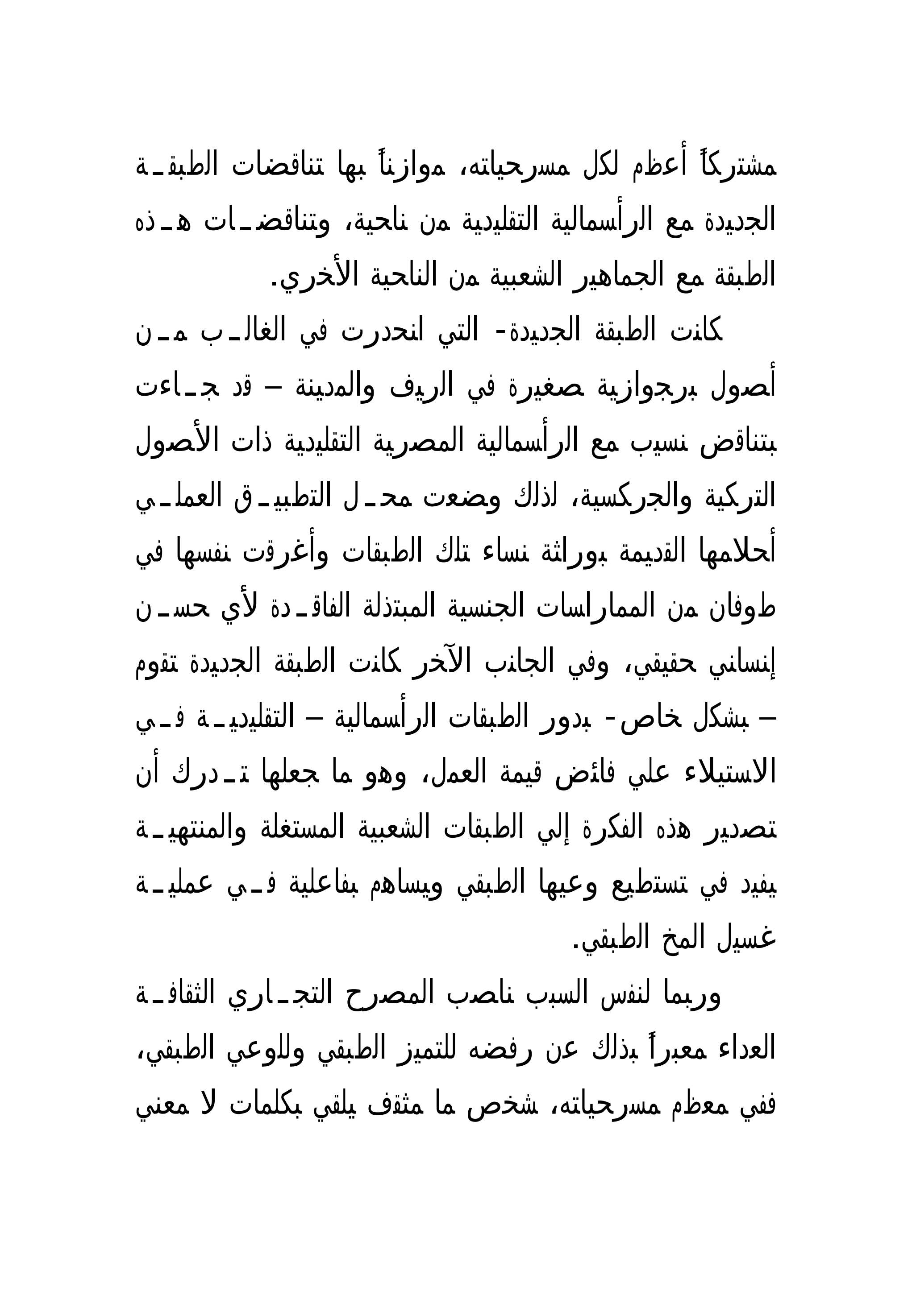
في تلك السنوات تقـدم المسـرح التجـاري ليطـرح إيديولوجية تلك الشرائح من البرجوازية، أو علي الأقل ليكون رافدا هاماً من روافد تكوين تلك الإيديلوجية – التي رفعـت شعارا (شايف المسرح؟... عايزين من ده) ذلك أن هذا النوع من المسرح كان قد توصل – بالتجربة والخطأ – إلي إشباع كل ما تريده وتتطلبـه، إنـه لا يرضـي مـزاج مفرداتهـا الشخصي فحسب، ولا تتطهر بما تراه علي خشبته فقط، لكنه أيضاً كان أنفس السلع التي صدرتها إلي الجماهير الشعبية – وخاصة في المدن – من خلال التليفزيون والإذاعة وتكتلـت وسائل الإعلام مجتمعة لتحويل نجم هذا المسرح إلي أبطـال لا يخلو برنامج إذاعي أو تليفزيوني أو صحيفة أو مجلة من أخبارهم وتصريحاتهم وصورهم، الأمر الذي مهد الجو تماماً

لكي يؤثر وسائلة، ويساهم مساهمه إيجابية في عملية (غسيل المخ الطبقي) التي كانت تجري آنذاك بهمة لا تعرف الكلال.

بطريقة ما وبشكل متكرر لا يخلو من إلحاح، خلق هذا المسرح (دويتو القرد والحسناء) (أو ثنائي الرجـل القبـيح الخلقة والمرأة الجملية. الرجل فقير وتعس وسـيئ الحـظ، والمراة حسناء وبيضاء وغندورة وصوتها حسـي وشـكلها جنسي، ليس صدفة أن معظم ملوك الكوميديا المصرية مـن الرجال الذين يفتقـدون للوسـامة: (نجيـب الريحـاني) و (إسماعيل ياسين) و (عادل إمام) و (أمين الهنيدي) و (فـؤاد المهندس) بينما معظم بطلاتها نماذج جنسية نسبياً: شـويكار وميمي شكيب ونيللي وبوسي وصفاء ابـو السـعود وهالـه فاخر. هذا التلازم خلقته التجربة العمليـة التـي أكـدت أن الثنائي بهذا الشكل يرضي شيئا ما لدى المتفـرج، فـالمرأة الجملية الغندورة الثرية، تقع في حب هـذا الرجـل القـرد وتشتهيه، وتفضله عن غيره من أبنـاء طبقتهـا المفتقـدين للذكورة، ذوى الملامح الأنثوية غالباً، فالفقير المسحوق رغم فقره الناتج عن سواء الحظ – وليس عن الانتهاب الطبقي – يملك جاذبية جنسية خاصة لنساء الطبقات العليا.

وفي البلاد المستعمرة تنصرف التناقضـات الطبقيـة – عند نقص الوعي وافتقاد وسائل وأسـاليب النضـال- إلـي دروب فرعية وقد رصد (فرانز فانون)- عند تحليله لأحـلام شعوب المستعمرات – أن رجـال هـذه الشـعوب يحلـون تناقضهم مع المستعمرين من خلال أحلام جنسية يضـاجعون خلالها نساء من يقهرونهم، لدرجة يتكـون معهـا مـزاجهم الجنسي مرتبطاً بالأشكال المميزة لنساء هؤلاء المستعمرين، وبهذا الحل المزيف يوازن سـاكن المسـتعمرة المسـحوق والمستغل والمنتهب نفسه سيكولوجياً، وهذه بضاعه يمكن أن يصدرها إليه من يمارسون القهر الطبقي – من الخـارج أو الداخل – بذكاء شديد، لـذلك نجحـت سـينما البرجوازيـة المصرية في ترويج هذه الفكرة، فالبروليتاري أو الفلاح دائماً ذو فتوة جنسية، بينما الرأسمالي عنين بشكل دائـم، وبينمـا يغرق العامل في أحلام مزيفة بالحلول محل الرأسمالي فـي فراشة فإن الرأسمالي ينتهز هذا الغيب عن الـوعي لينهـب عرقه.

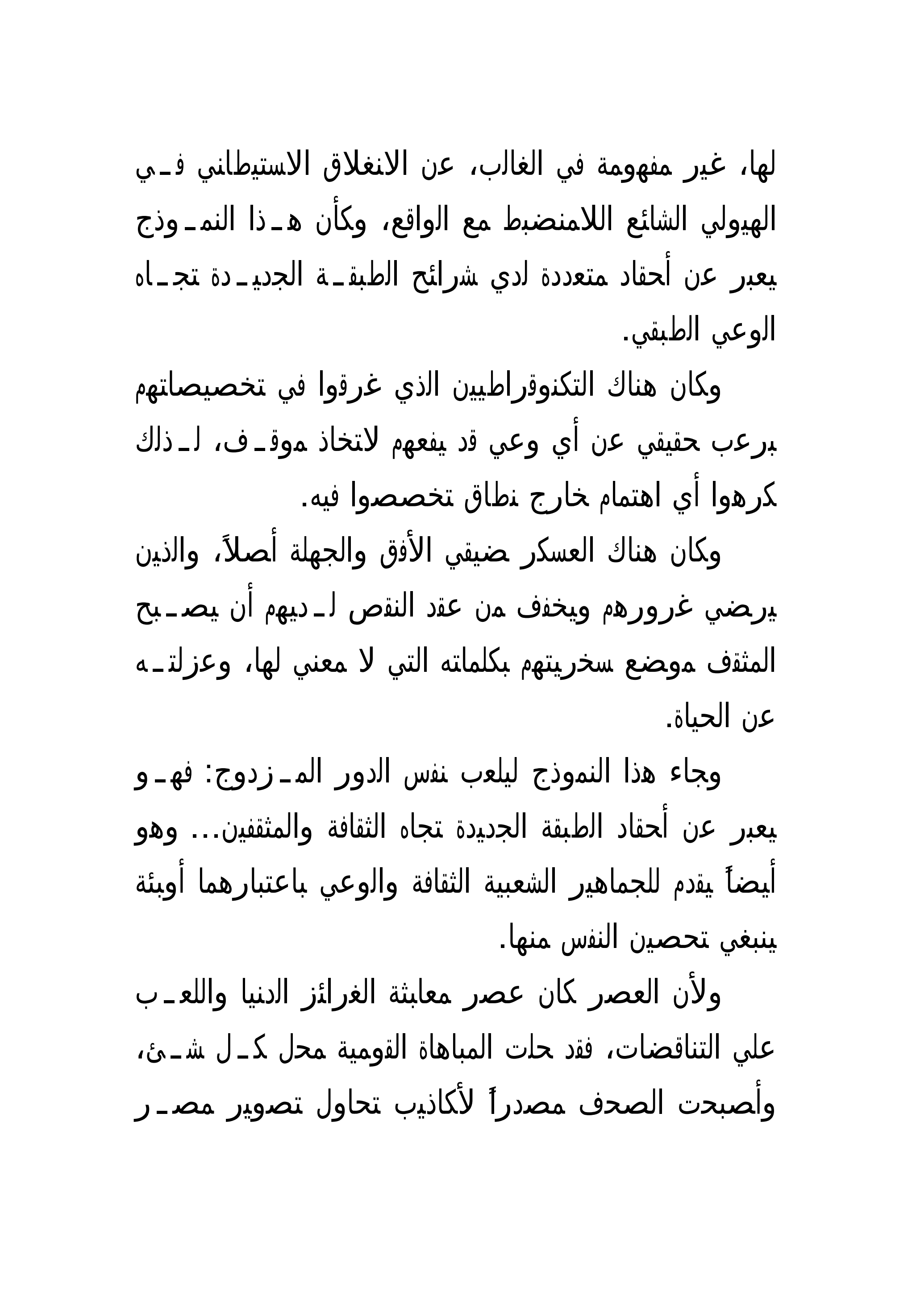
ببساطة ودون مجهود يذكر، وتعلماً من التجربة، نقـل المسرح التجاري المصري تلك (التيمـة) لتكـون قاسـماً



مشتركاً أعظم لكل مسرحياته، موازناً بها تناقضات الطبقـة الجديدة مع الرأسمالية التقليدية من ناحية، وتناقضـات هـذه الطبقة مع الجماهير الشعبية من الناحية الأخري.

كانت الطبقة الجديدة- التي انحدرت في الغالـب مـن أصول برجوازية صغيرة في الريف والمدينة – قد جـاءت بتناقض نسيب مع الرأسمالية المصرية التقليدية ذات الأصول التركية والجركسية، لذلك وضعت محـل التطبيـق العملـي أحلامها القديمة بوراثة نساء تلك الطبقات وأغرقت نفسها في طوفان من الممارلسات الجنسية المبتذلة الفاقـدة لأي حسـن إنساني حقيقي، وفي الجانب الآخر كانت الطبقة الجديدة تقوم – بشكل خاص- بدور الطبقات الرأسمالية – التقليديـة فـي الاستيلاء علي فائض قيمة العمل، وهو ما جعلها تـدرك أن تصدير هذه الفكرة إلي الطبقات الشعبية المستغلة والمنتهيـة يفيد في تستطيع وعيها الطبقي ويساهم بفاعلية فـي عمليـة غسيل المخ الطبقي.

وربما لنفس السبب ناصب المصرح التجـاري الثقافـة العداء معبراً بذلك عن رفضه للتميز الطبقي وللوعي الطبقي، ففي معظم مسرحياته، شخص ما مثقف يلقي بكلمات لا معني



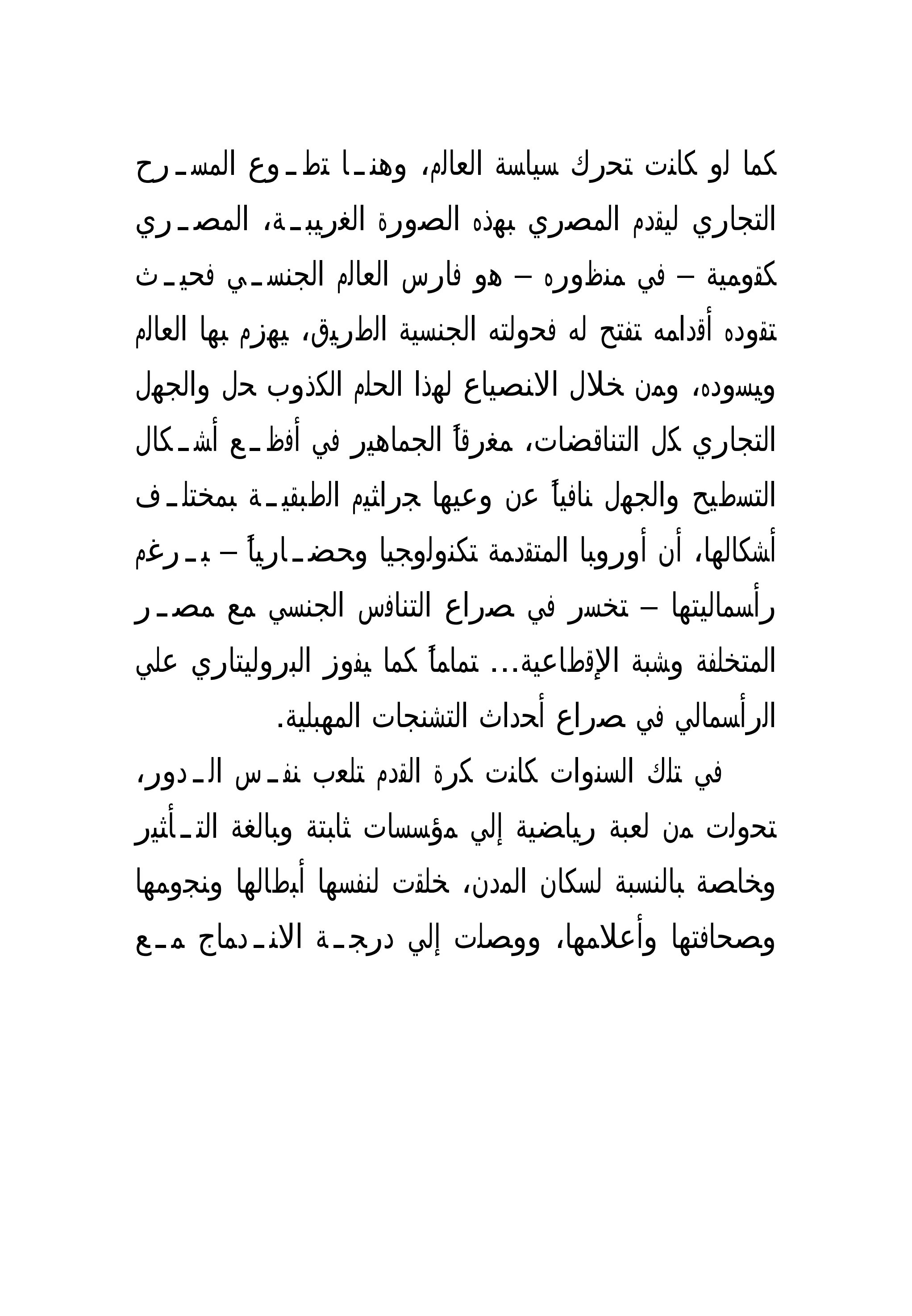
لها، غير مفهومة في الغالب، عن الانغلاق الاستيطاني فـي الهيولي الشائع اللامنضبط مع الواقع، وكأن هـذا النمـوذج يعبر عن أحقاد متعددة لدي شرائح الطبقـة الجديـدة تجـاه الوعي الطبقي.

وكان هناك التكنوقراطيين الذي غرقوا في تخصيصاتهم برعب حقيقي عن أي وعي قد يفعهم لاتخاذ موقـف، لـذلك كرهوا أي اهتمام خارج نطاق تخصصوا فيه.

وكان هناك العسكر ضيقي الأفق والجهلة أصلاً، والذين يرضي غرورهم ويخفف من عقد النقص لـديهم أن يصـبح المثقف موضع سخريتهم بكلماته التي لا معني لها، وعزلتـه عن الحياة.

وجاء هذا النموذج ليلعب نفس الدور المـزدوج: فهـو يعبر عن أحقاد الطبقة الجديدة تجاه الثقافة والمثقفين... وهو أيضاً يقدم للجماهير الشعبية الثقافة والوعي باعتبارهما أوبئة ينبغي تحصين النفس منها.

ولأن العصر كان عصر معابثة الغرائز الدنيا واللعـب علي التناقضات، فقد حلت المباهاة القومية محل كـل شـئ، وأصبحت الصحف مصدراً لأكاذيب تحاول تصوير مصـر



كما لو كانت تحرك سياسة العالم، وهنا تطوع المسرح التجاري ليقدم المصري بهذه الصورة الغريبة، المصري كقومية – في منظوره – هو فارس العالم الجنسي فحيث تقوده أقدامه تفتح له فحولته الجنسية الطريق، يهزم بها العالم ويسوده، ومن خلال الانصياع لهذا الحلم الكذوب حل والجهل التجاري كل التناقضات، مغرقاً الجماهير في أفظع أشكال التسطيح والجهل نافياً عن وعيها جراثيم الطبقية بمختلف أشكالها، أن أوروبا المتقدمة تكنولوجيا وحضارياً – برغم رأسماليتها – تخسر في صراع التنافس الجنسي مع مصر المتخلفة وشبة الإقطاعية... تماماً كما يفوز البروليتاري علي الرأسمالي في صراع أحداث التشنجات المهبلية.

في تلك السنوات كانت كرة القدم تلعب نفس الدور، تحولت من لعبة رياضية إلي مؤسسات ثابتة وبالغة التأثير وخاصة بالنسبة لسكان المدن، خلقت لنفسها أبطالها ونجومها وصحافتها وأعلامها، ووصلت إلي درجة الاندماج مع

السلطة السياسية العليا، لاعبة نفس الدور المزدوج: إرضائهم وتسطيحنا [1].

تلك كلها بعض مظاهر اللعبة التقليديـة، لعبـة الحكـم بالكاهن والجلاد، (محمد حسنين هيكل) و (فؤاد المهنـدس) من جانب و (شعراوي جمعة) و (المباحـث العامـة) مـن الجانب الآخر. وما يتغير هو الوجوه فقط لذلك يجـئ علـي أمين وفايز حلاوة، ويجئ معهما خلفاء البرجـوازي الـتعس الحظ شعرواي جمعة!.

ومن البداية أضاف (فايز حلاوة) شـيئاً جديـداً إلـي مسرحه، هو النقد السياسي. وبالتجربة والخطأ، أدرك أن هذا النقد – بنوعية خاصة – مطلوب ومرغوب، ثم هـو مربـع أساساً.

كان افتقاد الطبقات المصرية – وخاصـة الشـعبية – المستمر لمنظماتها الطبقية الديمقراطية – سياسة وإقتصادية-

---

[1] كتب الناقد الرياضي عبد الرحمن فهمي كتاباً صغيراً عنوانه (الكورة والسياسة) [دار الشعب – القاهرة ١٩٧٧] يتضمن أقاصيصـاً مذهلة حول الإهتمام الهستيري بكرة القدم علي صعيد القيادات السياسية والعسكرية العليا للبلاد حتي هزيمة حزيران ١٩٦٧

قد جعل المشكلة اللاديمقراطية مرضاً مستوطناً كالبلهارسـيا والإنكلستوما، لذلك سارع الكهنه يضـيفون تـوابلاً جديـدة لقاموس الكهانة ينفسون من خلالها عن البخـار المحبـوس، فبدأوا لعبة تطريز المسرحيات بفكاهات تنتقد بعض الظواهر الجزئية والهامشية التي لا تتعرض لأسس النظام ولا تخـل بديمومته، مقدمة تلك الظواهر كأعراض جانبية فلا بأس من السخرية من طوابير الجمعية التعاونية، حيث تقف جمـاهير الشعب الكادح بالسـاعات فـي الشـمس للحصـول علـي احتياجاتها من السلع الغذائية، ولا مانع من التفكه علي سرعة تغيير القوانين أو التنديد بالانتهازيين، كأن هؤلاء شئ آخـر غير الظاهرة بمجملها، ليس أساس بنيانهـا، ملايـين مـن التفاصيل الصغيرة تقدم معزولة عن ظروفهـا وأوضـاعها فتبدو المشكلة الاجتماعية في مصر كأنها مشكلة أخلاقيات لا مشكلة بنيان إجتماعيي متكامل يقوم علي الاستغلال ويعمـل علي تكرسيه.

كل ذلك ف نفس الجو والإطار والأقاليم التـي تعودهـا المسرح التجاري، ودون ابتعاد عنها.

إن (يحيا الوفد) ليست صـيحة جديـدة، ولـن تكـون الأخيرة، ومن الخطأ أن يتصور أحد أنها مسـرحية تهـاجم السوفييت أو يسرع بالهجوم عليها لهذا السبب ذلك أنها أخطر من ذلك بكثير وأهم من ذلك بكثير(٢)

إن كثيرين من الذين تعودوا أن ينظروا إليـه بمقـاييس السياسة، سيسدون أنفسهم تقززاً من رائحة مضمونها الكريه، لكن الذين يجهدون للنظر في ظواهر الواقع المصـري فـي المرحلة الراهنة، المهمومون ببرجوازية مصر الغربية الشأن والمنبت والأصل والمستقبل، هؤلاء ينظـرون إلـي (يحيـا الوفد) باعتبارها وثيقة بالغة الأهمية. ليس المهم عندهم أنهـا مسرحية لأنها ليس كذلك، ولكـن المهـم أنهـا مانيفسـتو السماسرة والكومبرادور ملوك العصر الجديد.

---

[٢] تعرضت (يحيا الوفد) إلي هجوم يساري كاسح شنته الأقـلام الناصرية والماركسية في بعض المنابر التي كان لهم بها بعض نفـوذ حتي ذلك الحين، ومنها مجلات ، (روز اليوسف) و(الطليعه) وقد تركز النقد اليساري للمسرحية علي الدفاع عن الصداقة المصرية السـوفيتية، وأستعراض معونات السوفيت لمصر. راجع مقال خيـري عزيـز – الطليعة القاهرية – ١٩٧٥.

من هم الفاسكونيين؟

مع افتتاح الستار تغني الجوقة لمواكب القادمين لمصـر حاملين الرخاء والرفاهية، معلنة أن مصر تفتح ذراعيها لهم، لأنهم يأتون لها بالخير العميم، ثم يتقدم (أبو القاسـم) أمـين الاتحاد الاشتراكي بقرية (كفر السلام) ليقدم لنا نفسه، فـتعلم منه أن وفداً أجنبياً من بلاد صديق آت لزيارة كفـر السـلام، ولسنا في حاجة إلي مجهود لنعـرف أن هـذا الوفـد وفـد سوفيتي، فمذيعة التليفزيون التي تساعد (أبـو القاسـم) فـي التعريف بالوفد تتحدث عن جمهورية (فاسكونيا) الديمقراطية التي جاء منها الوفد، فتقـدم لنـا معلومـات عـن الإتحـاد السوفيتي، من حيث عدد السـكان والتضـاريس والمنـاخ، واللافتة التي تعلقها القرية بعد ذلك ترحيبـاً بالوفـد كتبـت بحروف روسية.

علي لسان (أبو القاسم) نعلم أن دولة (فاسكونيا) دولـة صديقة تساند مصر في الأمـم المتحـدة وتسـتخدم الفيتـو لصالحها في مجلس الأمن، وعندما يقدم الوفـد بعـد ذلـك، نعرف كل من أفراده، بلقب (الرشيق)، وهو تحريـف غيـر ذكي للقب (الرفيق)، ثم أننا نكتشف أن الماكيير قد لعب فـي

وجوه الممثلين الذين اختيروا أسلاً بحيث يعطون – بمكيـاج قليل – تأكيداً بأنهم سوفييت، بملامح وجـوههم وأجسـادهم المميزة.

وإذن فإن المسرحية تختار هذا التفاعل بـين الشـعبين (المصري) (والسوفيتي) لكي تبدي فيـه رأيـاً، وعلينـا أن نفهمهما لا بإعتبارها عملاً فنياً- لأنها ليست كذلك أصـلاً- ولكن باعتبارها اتجاه سياسي، بصرف النظر عـن تقييمنـا لأصحاب الرأي أنفسهم، ودون اعتداد بتاريخهم – الذي قد لا يرضينا- ودون أن يحول بيننا وبين ذلك علمنا بأنهم ليسـوا من أهل ذلك كما يقول أساتذة الفقه، فكل تلك التحفظـات لا تنفي أن هذه المسرحية ترضي جهـات رسـمية- أو شـبه رسمية-، وتعبر عن رؤاها ورؤى الشرائح الإجتماعية التي تنتمي إليها وتمثلها[(١)]

[(١)] كان متوتراً آنذاك، أن (فايز حلاوة) من الحلقة الضيقة التـي تشارك السادات جلساته الخاصة، ومنها إستوحي مسرحيته، بل قيل أن كثير من النكات التي تتضمنها المسرحية تعبير عن آراء هـذه الحلقـة الضيقة في الإتحاد السوفيتي. وكان السادات كما قال الذين يعرفـون، يتأثر إلي حد كبير بآراء المقاول الكبير عثمان أحمد عثمان، الذي كان

ولا ينبغي أن نكون ضيقي الأفق، فلا نري من المسرحية إلا أنها هجوم علي شعب صديق وعلي نظام اجتماعي يجوز إحترام خصومه- ألد خصومة- ويخيفهم منه ويرعبهم بما حقق وأنجز. إن ذلك وارد بالقطع، ولكن (يحيا الوفد) باعتبارها ما نيفستو سياسي لطبقة اجتماعية، لا تقصر جهدها علي تلويث هذا الشعب الصديق، ولا مجرد هجائه بطريقة فجة ومبتذلة، ولكنها تبدي رأيا في حاضر مصر – والمنطقة العربية – وفي مستقبلها. وينبغي إذا أردنا أن نشخص الاتجاهات السياسية للشرائح الاجتماعية التي تمثل المسرحية رؤاها واتجاهاتها أن نفهم هذا الرأي بشكل كامل وصحيح.

إن الذين تصدوا للمسرحية باعتبارها نصاً يهاجم السوفييت كانوا محقين لا ريب، لكن اقتصارهم علي هذا الجانب من المسرحية لم يقنع كثيرين من الذين تقصر عواطفهم عن هذا الود الشديد تجاه الشعوب الصديقة لأمتنا

قد أصبح حموا ابنته. ويلاحظ أن يحيا الوفد، انتجت وعرضت بعد حرب أكتوبر، وعودة العلاقات المصرية الأمريكية، وإنتعاشة الطبقات القديمة.

العربية، فتظل عواطفه محدودة أو يلحقها بعض العقم هؤلاء الذين يزعمون بأنهم يحبون أوطانهم فقط، وبـرغم أنـه لا تناقض هناك في الرؤية الصحيحة بين حب الوطن، وحـب أصدقائه، وبرغم أن من يحبون السوفييت كله فـإن إقنـاع المواطن العادي والوطني التقليدي – غير الاشتراطي – بأن المسرحية تقدم رؤية معادية للوطنيـة المصـرية وللقوميـة العربية، وتدعوا إلي مستقبل تلحق خلالـه أقطـار عالمنـا العربي بالفلك الأمريكي، مـازال هـو الإمطـار الصـحيح للتصدي لمانيفستو السماسرة والكومبرادور. لقـد اسـتثمرت إدارة المسرح موقف الذين هاجموا هـذه المسـرحية لأنهـا هاجمع السوفييت فسارعت تعلق علي واجهتها لافته مبتذلـة تقول فيها (مسرحية مصرية ١٠٠% لا شرقية ولا غربيـة، متهمة من نقدوها بأنهم ليسوا وطنيين... وهكذا رمونا بدائهم وانسلوا.

نحن إذن في قرية (كفر السلام)، إنها تبـدو (مصـر) فاختيار الاسم نفسه له دلالته، والقرية كما نفهـم مـن (أبـو القاسم) مشغولة بالاستعداد لاستقبال (الوفد الفاسكوني) القادم من دولة فاسكونيا الديمقراطية الصديقة، ومذيعة التليفزيـون

قد انتهت من تقديم معلومات عن الدولة الصديقة، والسيد أبو القاسم – أمين الإتحاد العربي بالقرية- قد أعد كل شئ، إنـه يبدو آلة صماء لا تفهم ولا تنفذ إلا ما لقن لها من نصـوص وتعليمات.

من القاهرة أرسلت له الأمانة العامة للإتحاد الاشتراكي كافة التعليمات: الخطبة التي يلقيها ترحيباً بالوفـد، ونـص الشعارات التي يكتبها علي لافتات باللغة العربيـة، واللغـة الفاسكونية، والتعليمات تتضمن كل شئ، حتي نوع الوجبـة التي سيأكلها الوفد الصديق.

ويدخل مأمور الشركة لكي يطمئن علي تنفيذ التعليمات، وعلي الفور يؤكد له (أبو القاسم) أن كل شئ علي ما يـرام، وأن اللافتات أعدت، ونعرف أنها أعدت بالإكراه، إذا كـان خطاط القرية محبوساً في مركز الشرطة بتهمة التعدي علـي أحد المواطنين، ونتيجة لتدخل أبـو القاسـم، تغيـر وضـع المواطن المظلوم، فأصبح بقدرة قادر ظالماً، وأصبح الخطاط هو المعتدي عليه، فاعتذر له المواطن وتنازل عن شـكواه، ومقابل ذلك كتب الخطاط هو المعتدي عليـه، فاعتـذر لـه

المواطن وتنازل عن شكواه، ومقابل ذلـك كتـب الخطـاط اللافتات (بطيب خاطر وبالتراضي) كما ذكر أبو القاسم.

وإذا تحل تلك المشكلة تبرز مشكلة أخري، إذا يتبين من التعليمات الواردة أن الوفد الزائر، يضم إمرأة وأن علي (كفر السلام) أن تتيح لها لقاء علي التنظيم النسائي بها، ولمـا لـم يكن هناك تنظيم من هذا النوع في القرية، فإن أبـو القاسـم يتطوع لحل المشكلة بأسهل الطرق، فيرسل فـي اسـتدعاء (رئيفة) زوجة (عبد الودود) ويقترح أن تجلس في ركن مـن أركان المكان حاملة لافته كتب عليها: (التنظيم النسائي) وأن تنضم إليها مذيعة التليفزيون، وبذلك تحل المشـكلة ويخلـق التنظيم النسائي من العدم.

وتدخل (رئيفة) تحيه كاريوكا- إلي المسرح، مقدمة لنا نفسها باعتبارها ضحية المعسكر الاشـتراكي بكـل دولـة وأحزابه، فمنذ اللحظة الأولي لدخولها تعلـن ريبتهـا مـن الدعوة، فعند زيارة الوفد البلغاري للقرية- في زمن سابق – اقتنص أبو القاسم منها ديكاً رومياً كانت تملكه فأطعمه للوفد، وعند زيارة الوفد الروماني وقعت علـي رأسـها مصـيبة أخري، ويوم زار السيرك الروسي القرية أجبرت علي دفـع

جنيه كامل- وهي الفقيرة- لكي تشـاهد(شـوية حيوانـات رواس)!.

وبعد مجهود تقتنع رئيفة وتجلس حاملة اللافتـة معلنـة أنها لن تدفع فلساً واحداً ولن تضحي إلا بحمل اللافتة.

ويقبل الوفد علي موعد- دون مترجم – ويرتبك الجميع، ويقف شاب تعرف أن اسمه (شحته). يحمل في عنقه لافتـه بعنوان (التقدميون المصريون يرحبون بالوفـد الفاسـكوني) ولكن أهل القرية يطردونه فيفر هارباً، وتبرز مشكلة: كيـف يتفاهم الوفد مع فلاحي كفر السلام، وقـد تـأخر المتـرجم، وأفراده لا يتكلمون سوى الفاسـكونية – وأهـل القريـة لا يعرفون سوى العامية المصرية، وهكذا يسارع الأهالي بإلقاء أغاني هزلية من تلك التي تردد في ملاهي شارع الهرم مثل (السح الدح) و (الهقة النقة). ولأن الفاسكوينين قـوم بلهـاء، فهم يتصورون أن الأصدقاء المصريين ينشدون نشيد مصـر الوطني، فيقومون بإلقاء نشيد بالغ الحرارة، ومـن الصـدف الغريبة أن النشيد سوفييتي.

ومنذ اللحظة الأولي – نكتشف أن الوفد – الذي يتكـون من أربعة رجال وامرأة- يضم رجالاً مزبببي الهيئة، وجوهم

سمينة متكورة كالدببة، ورابعهم طويل وأعرج، والمرأة تبدو بلهاء، وهم جميعاً ذوى كروش ضخمة، خـاملين ويفتقـدون للنشاط، لا يعرفون كيف يضحكون، كلامهم زعيق، وظلهـم ثقيل.

وتنعقد مشكلة الاتصال بين الوفدين بسبب حاجز اللغة، وتعلق (رئيفة) علي ذلك مترجمـة علـي أيـام الاحـتلال الإنجليزي لمصر، لقد عرف المصـريون الإنجليزيـة فـي غمضة عين، بينما هؤلاء الفاسكونيين لم يعلموا أحـدا ولـم يتعلموا من أحد، وتدليلاً علي ذلك لم يتذكر أحد الـواقفين أن هناك شابا من أبناء (كفر السلام) حصل علي الدكتوراة مـن (فاسكونيا)، وإذا يحضر نكشف علي الفور أنه جاهل لم يتعلم كلمة واحدة من الفاسكونية خلال ثلاث سنوات أقامها هناك، وبرغم ذلك حصل علي الدكتوراة في الأقنعـة المسـرحية، وتصل في هذه اللحظة برقية من مترجم الوفد نعلم منها أنـه متأخر لعذر قاهر، ولكن البرقية تكشف عـن مـدي علمـه بالعربية فهي ركيكة تكشف عن... أنه جاهل ككـل أهـالي فاسكونيا وككل من تعلموا فيها.

ويصبح لا مفر هناك من ابتكار برنامج لتسلية الوفـد، بدلاً من الصمت وانتظاراً لحضور المترجم، وتقترح (رئيفه) استدعاء زوجها (عبد الودود) ومعه (مسعد) للترفيـه عـن الضيوف، ولمجرد ذكر اسم (مسعد) أمام أهلي القريبة يبـدو الخجل علي الوجود ثم نفهم السبب حين نعلم أن (مسعد) هذا هو (تيس) – ذكر مـاعز – وأن رئيفـه و (بعـد الـودود) يتعيشان من تأجيره لمن يريد من أهالي القرية لكي يمـارس الجنس مع ما يملون من إناث المـاعز، اسـتجلاباً للنسـاء، وتتفجر علي خشبة المصرح ألفاظ من تلـك التـي تخجـل لمحترفات من النساء من قولها، تتضمن ثوريات وتشـبيهات جنسية مبتذلة.

ويدخل عبد الودود- فايز حلاوة – ومعه (مسعد) ليحولا المشهد إلي فاصل من جلسات الحشاشين، (فعبـد الـودود) فخور جداً بالفتوة الجنسية التي يحوزها ذكر المعـاز الـذي يملكه، والذي يرضي كل إناث الماعز في القريـة، مقابـل خمسين قرشاً للقفزة الواحدة، والذي يري عبد الودود أنه قادر علي ارضاء إناث الإنسان أيضاً، فهن – في منظـوره – لا تهتممن إلا بهذا وحده.

وتتعقد المسألة عندما يكتشف (أبو القاسم) أمين الإتحـاد الإشتراكي، أن هناك تعليمات جديدة وصـلت مـن الإمانـة العامه بالقاهرة، تنص علي ضرورة تناول الضيوف للغـذاء علي أن تكون المائدة مكونه من (جدي) – أو ذكر ماعز -، وبالرغم أن هناك أكثر من جدي في القرية، أحدها لذي أبـو القاسم نفسه، والآخر يملكه مأمور المركز، فضلاً عن ثالـث يملكه أحد أهالي القرية، وأخيراً الجدي (مسعد)، الذي يملكه عبد الودود وزوجته رئيقة ويتعيشان منه، علي الـرغم مـن ذلك كله فإن (أبو القاسم) يجري القرعة لاختيـار الضـحية التي سيلتهمها الوفد الفاسكوني بطريقة عمديةومغرضة. كتب اسم الجدي (مسعد) في كل أوراق القرعة، وإذا يحتج (عبـد الودود) و (رئيفة) علي ذلك، يندفع أبو القاسم معلناً أن هـذه التضحية في سبيل الأصدقاء الذي يقفون بجانبنا في مجلـس الأمن ويساندوننا ويستخدمون الفيتو لصالحنا.. والذين يقفـون مع القضية ومع البلد في محنتها، إذا ذاك تهتف رئيفة:

إذا كان عشان البلد يبقي بالسم الهاري يا أولاد الكلب!.

ويأكل (أولاد الكلب السوفييت) الجدي، يحتلـون بيـت (رئيفة) و (عبد الودود)، ويخرجون بعد المأدبـة يمسـحون

علي كروشهم الضخمة ويعبرون عن سعادة بالغة بالطعـام، ويبدون أمامنا كائنات جائعة لا تأكل في بلادها، وكأنها أتت خصيصا لكي تأكل!.

وبعد الغذاء، وعلي إثر وصول المترجم، تبـدأ حفلـة التعارف بين أهالي القرية والوفد الصديق، وساعتها نكشـف شخصية المترجم الفاسكوني، من خلال صورة كاريكاتوريـة لرجل جاهل يتفاصح وهو لا يعرف كلمه وحيدة صحيحة من اللغة العربية، فهو يقول (أيها السيدون) بدلاً من أيها السادة، ويقول (هذا الحيون) بدلاً من (هذا الحيوان).

إنه باختصار نموذج للجاهل المتعـالم. أحـد الوجـوه المتعددة لعالم الأصدقاء الأغبياء!.

وجة آخر لهذا العالم نراه عندما تبدأ حفلـة التعـارف- كما تنص التعليمات الرسمية التي جـاءت مـن القـاهرة – فالمترجم يقدم أعضاء الوفد الفاسكوني بشكل يضحكنا منهم، أن أسماءهم تبدو طويلة ومركبة وتتضـمن مقـاطع يسـهل عزلها وحدها لإعطاء دلالات يظن مؤلف المسـرحية أنهـا مضحكة، بعضها أسماء للفضلات البشرية، أو ألفاظ جنسـية أو ما يشبة ذلك، وهم – كما يقدم المترجم- يحملـون صـفاً

طويلاً من المؤهلات العلمية التي تبدو في نظـر الفلاحـين المصريين لا معني لها، إنها تبعث علـي الضـحك عنـدما يترجمها المترجم الجاهل المتفاصح، إن الكانديدات والدرجات العلمية في علـوم الطبيعـة والكيميـاء والـذرة والفضـاء والإقتصاد التي يقدم به المترجم أعضاء الوفد تبدو لجمهـور الصالة تافهة: نوع من السخافة، قوم مضـحكون يضـيعون أعمارهم فيما لا يفيد، ولا يدل مظهرهم علي أنهم يحصـلون كل تلك الشهادات وحتي لو كانوا يحملونها فهل يدل مظهرهم علي أنهم يحصلون كل تلك الشـهادات وحتـي لـو كـانوا يحملونها فهي في نظر المؤلف تؤكد أنهـم ثقيلـوا الظـل، ويفتقدون لخفة الدم، ولا يتقنون اللعب بالورقات الـثلاث، أو الكسب من المتاجرة بالفتوة الجنسية.

ويرفض (عبد الودود) أن يستمر المترجم فـي تقـديم أعضاء الوفد الفاسكوني بالتتابع ويصر علي أن يتم التعريف بالتبادل: واحد من أهالي القرية وواحد من الوفد، هنا تبلـغ المهزلة قمتها: لا قيمة لشئ عند السماسرة، ولا قيمة لشـئ عند الكومبرادور، فأهل كفر السلام أو المصريين- يبـدون علي لسان (عبد الودود) مليئين بالفضـائل العظيمـة، فهـذا

يحمل درجة الدكتوراة من أكاديمية المعلم زلطة في النصـب والفهلوة، وهذا خبير في التسول من جامعة (أبـو طشـت)، وهذا يحمل درجة B.S.C في العباطـة والهيافـة والتفاهـة والخيبة، إنهم باختصار قوم بلا فضائل إلا البلاهـة، بـالغوا الغباء، ميزتهم الوحيدة أنهم فرسـان العـالم فـي الفحولـة الجنسية، في الذكاء الرخيص، إنهـم يسـتطيعون أن يعبـوا الهواء (وأن يطلونه دوكو) كما تقول أغنية مبتذلة، رفعت من شأن الإيديولجيست (أحمد عدوية) مغني السماسرة في ملاهي شارع الهرم.

ولأن السماسرة يستطيعون أن يبيعوا المطـر والهـوا والشمس، ويملكون القدرة علي طلاء الهواء بالـدوكو، فـإن (الإستشهاد) في رأيهم سخافة وبلاهة سـواء كـان الشـهيد سوفييتياً أو فلسطينياً أو مصرياً: أن يموت الإنسان في سبيل قيمة فوق ذاته شئ لا يصدر في منظور السماسرة إلا عـن مجانين، وهكذا يتقدم المترجم (الفاسكوني) ليعـرف أهـالي (كفر السلام) بالمرأة الوحيدة في الوفد الفاسكوني فيذكر أنها أم لسبعة من الشهداء سقطوا في سلسلة من الحروب يذكرها المترجم، بدءاً من حرب التحرير الوطنية، وإنتهـاء بحـرب

مقاومة النازيه، وبعد ذكر إسم كل واحد من أبنائها استشهد. لكن (عبد الودود) – الذي كان جالساً في مواجهتها منذ بداية دخولها يبادلها وتبادله نظرات جنسية بالغة الوقاحة والدلالـة – يخاطب جمهور الصالة مؤكدا أنه وحده الذي يعرف مـاذا تريد تلك المرأة، وفي وهج نظراته يتحرك بكاء المرأة الـي فحيح من ذلك النوع الذي تدعو بـه الأنثـي ذكرهـا إلـي المضاجعة، وبصوت عال يترحم عبد الودود علي مسـعد – ذكر الماعز الذي استشهد وأكله الوفد الفاسـكوني – إذا لـو كان حياً لأرضي شبق أم الشهداء: ودخولاً في المنافسة مـع الوفد الضيف، يعرف (عبد الودود) المرأة الوحيدة في الوفـد المصري ممثلة التنظيم النسـائي الـوهمي وشـريكته فـي الإرتزاق من فحولة المرحوم(مسعد: زوجتة رئيفـة، إنهـا الأخري أم لسبع شهداء، لكنهم جميعاً توفـوا فـي معـارك وهمية: معركة (الجدي الكبري) ومعركة (أبي قير الجوية)، معارك لم تحدث أبداً ولم يسمع عنها أحد في التاريخ القـديم أو الحديث، وتبلغ المزلة ذروتها – مرة أخري- إذ يتحـدث (عبد الودود) عن وفاة أحد الأبناء في معركة ذات اسم هزلي ويردف (استشهد بعد أن حطم للعدو مجنزرتان وسبع آليات)

مستخدما مصطلحات ونصوص البلاغات العسكرية للمقاومة الفلسطينية، تلك التي يعرفها الشعب المصري لأنها متميـزة عن نظيرتها المصرية.

بعد فترة من الوقت تصبح (كفر السلام) قرية مظلمـة مقهورة، ففي بداية الفصل الثاني نري قوانين العصر الجديد في القرية المصرية، عصر الإحتلالا الفاسكوني (والقـوانين لافتات معلقة علي جدران المنازل وهي تمنع كل شئ: الكلام ممنوع، والصمت ممنوع، والجلوس ممنوع، كذلك الوقوف، كل شئ يبدأ بكلمة: لا. لا تضحك. لا تبكي. لا تكذبي!.

لقد أصبحت (كفر السلام) سجناً كبيراً توأد فيه الحرية، ولا أحد يدري لماذا جاء الوفد؟

وبينما يقول (أبو القاسم) أن الفاسكونيين جاءوا لإقامـة مشاريع فإن القرية لا تري شياً لأن كل المشروعات تحـت الدراسة، والقرية تحلم بالخير فلا تجد خيراً، وتغـرق فـي معادلة إقتصادية صعبة يقـوم ممثـل الاتحـاد الاشـتراكي بشرحها: فدولة فاسكونيا عن – طريق وفدها – تستورد منـا القطن وتصدر إلينا الماكينات. التي تعمـل فـي المصـانع ليصدر إنتاج المصانع إلي (فاسكونيا) فترسل إلينا قمحاً.

ويسأل الفلاح:

هل يزرعون القمح في فاسكونيا.

فيجيب أبو القاسم:

لا إنهم يستوردونه من أمريكا ويصدرونه إلينا.

ويرد الفلاح:

ولماذا هذا كله.. لماذا لا نستورد القمـح مـن أمريكـا مباشرة؟!!.

في مواجهة هذه المشاكل تفكر (رئيفة) و (عبد الودود) – بعد أن فقدا مصدر رزقهما – الجدي مسعد – في الهجرة إلي الخارج وتتذكر (رئيفة) أن لها ابن أخ اسمه (فرج) كان قد هاجر إلي أمريكا قبل عشرين عاماً وفـي جيبـة خمسـة وعشرين قرشا فقط، واختفت أخباره، وتلح في أن يرسل إليه (عبد الودود) برقية علهم يرحلون إليه، ويعلق (شحته) علـي هذا الحلم بأنه يعكس رغبة فـي الإرتمـاء فـي أحضـان الإمبريالية، فيطرده الفلاحون ويشيعونه بالسباب خارج خشبة السرح.

و (شحته) ذلك الذي يعلق لافته (التقدميون المصريون) هو اليساري المصري – كما يراه الفيلسوف الكبيـر فـايز

حلاوة – وهو يقذف به في وجوهنا كل عشر دقائق ليقـول كلاماً غير مفهوم، يردد كالببغـاء ألفـاظ (البرجوازيـة) و (الإمبريالية) و (التقدمية) و (الرجعية)، ويصوغ منها جمـلاً يفتح لها الفلاحون أفواههم عجباً ودهشـه وغبـاء، فهـم لا يفهمونه، وهو يهاجمهم، إنه يبدو وحيداً لا أحد معـه، وهـو دوده كتب، ثقيل الظل إلي درجة مقززة.

ومع تعقد الموقف وتأزمه يأتي الحـل مـن حيـث لا يحتسب أحد، فجأة تأتي برقية من واشنطن تعلن أن (فروج) سيصل منها إلي القرية لزيارة عمته، ونفهم أنه (فرج) – ابن شقيق رئيفة- ذلك الذي هاجر إلي أمريكا قبل عشرين عامـا وفي جيبة قروش قليلة، ولأن البرقية وصلت من أمريكا في يومين، ومن الاسكندرية إلي (كفر السلام) في أسبوعين، فإن (فروج) – أو فرج- يصل القرية في نفس اليوم.

ومنذ اللحظة الأولي نكتشف إلي أي مدي هـو رائـع وجميل وظريف هذا الوافد الأمريكي، إنه رشيق وليس أكرشاً كالفاسكونيين، وهو ذكي وليس بليداً، وهو مليـئ بالحيويـة وأنيق ووسيم، ومعه زوجة جميلة ترتدي الميكروجيب، وهـو (جنتلمان) بكل معني الكلمة، فهو لم يأت ليأكل زاد القريـة،

ولكنه أتي لكي يوزع عليها الهدايا: لكل فلاح تفاحة أمريكية ملفوفة بالسيلوفان وسيجارة (كنت) يشعلها لهم بنفسـه بينمـا نكتشف أن زوجته الأمريكية- كأقربائها الإنجليـز- زكيـة وسريعة الإلتقاط تعلمت منه العامية المصرية، وتـتكلم بهـا بكل فصاحة.

وفي الضوء الأمريكي الوافد تكتشف القريـة إلـي أي مدي هي تعيسة، وسرعان ما تفقد صبرها وتهم بالهجوم علي الفسكانيين الدخلاء وإخراجهم بالقوة، بعـد أن فقـد (عبـد الودود) و (رئيفة) مصدر رزقهما ودارهمـا. وحـط الفقـر والقهر بكلكله علي كل الناس، إذا ذاك يكشف الضيوف عـن وجههم الحقيقي فإذا هم ليسوا أصـدقاء ولا محبـين لكـنهم محتلون ومستعمرون، يملكون سلاحاً حقيقياً يخرجـون بـه ويشهرونه في وجه الفلاحين المساكين، ويهم (عبد الـودود) بقيادة الفلاحين في هجوم ضد الـدخلاء يسـانده فـي ذلـك (فرج)، بينما يقف (شحته) ممثل التقـدميين – فـي صـف المعتدين علي إستقلال بلاده من الوفـد الفاسـكوني، ولكـن مأمور الشرطة يتدخل ويفك الاشتباك بين الفريقين!.

وإذا يتدهور الموقف إلي تلك الدرجـة، فـإن (فـرج) يعرض علي عمته (رئيفة) وزوجها (عبد الودود) أن يصحباه إلي أمريكا، ونحن نراهما في بداية المشـهد الأخيـر مـن المسرحية وقد تغير كل شئ في حياتهما، لقد عادا من أمريكا إلي القرية، وقد إنقلبت حالهما رأساً علـي عقـب: أصـبحا فاحشا الثراء، بنيا بيتاً جميلاً مؤثثاً بالرياش الفاخر، به مـن كل شئ نسختين، وارتدي (عبد الودود) ملابس رعاة البقـر. وأصبح هو ورئيفة يتقنان الحديث بالإنجليزية.

ويثير ذلك (حسد القرية)، ذلك الإحساس المتدني الـذي يملكة الفقراء ضد الأغنياء، والذي يدفع (عبد الـودود) إلـي التفلسف منهماً كل الفقراء بالحقد علي الأغنياء طالباً منهم أن يسعوا إلي ثراء مماثل، بدلاً من الحقد والغل.

وإلي جانب الحسد، فإن ثراء (عبد الودود) و (رئيفـة) يثير أيضاً رغبة أهل القرية في التزلف إليهما والتقرب منهما ونفاقهما، بما في ذلك مذيعة التليفزيون التي تعمـل مرشـدة سياحية ومترجمة وتتقن عدة لغات، ومع ذلك فإن كـل هـذا الجهد لا يكفل لها إلا مرتباً شهرياً لا يسمح لها أن تعيش كما يعيش الزوجان العائدان من أمريكا، بل أن هذا الحسد يتحول

لدي مأمور الشركة إلي رغبة في الكسب فينـافق الـزوجين أملاً في مشاركتهما في مشاريع اسـتثمارية، ولا يعتـرض عليهما سوى (أبو القاسم)- أمين الاتحاد الاشتراكي – الـذي يتهمها بالرجعية والرأسمالية، ولكن (عبد الودود) يذكره بأنه قبل أن يدخل الإتحاد كان فقيراً ومفلساً فأصبح من أصـحاب الأطيان! ويضيع إعتراض (شحته) في كلماته غير المفهومة أصلاً عن العملاء والرجعيين، وما يشبه ذلك من مصطلحات لا يفهمها الفلاحون. وإذا يتحدث الزوجـان عـن مصـدر ثرائهما فسوف ندهش للطريقة السهلة التي كونا بهـا تلـك الألوف المؤلفة من الجنيهات ففي إنجلترا كسبا جائزة (سباق الدربي) الشهير، وفي فرنسا انطلق (عبد الـودود) يمـارس الحب ممارسة القادم من عالم لا هم لـه إلاالجـنس، وكمـا ذكرت (رئيفة) فإنه فاق في ذلك المرحـوم (مسـعد) ذكـر الماعز الشهيد – وتفوق عليه، ثم إنهما لعبا قماراً فكسبا مئات الألوف من الدولارات والفرنكفات والإسترليني!

تلك إذن مصادر ثروة (رئيفة) و (عبد الودود)، ولعلهـا أيضاً مصادر ثورة (فرج) ابن أخيهـا الـذي غـادر قريـة كفرالسلام قبل عشرين عاماً وفي جيبة عشرة قروش فعـاد

مليونيراً، مصادر الثروة كان يراها السمساران هي: كسـب أوراق اليانصيب والمتاجرة بالفحولة الجنسية، وبالطبع فـإن المسرحية لا تقول لنا كيف تتحول إمرأة إلي مليونيرة. فـإذا كان الرجل قد أصبح مليونيراً بفحولتـه الجنسـية، فـالمرأة تستطيع أن تصبح كذلك بفحولتها الجنسية أيضاً، وهذا هـو مفهوم التنمية الاقتصادية لدي آل كاريوكا.

وبينما المفاوضات تدور بين (فـرج) وأهـالي القريـة محاولاً خلالها أن يعلمهم أن طريق الثـروة مفتـوح أمـام الجميع، وأنه بدلاً من الحسد والحقد، عليهم أن يعملوا ويجدوا كما عمل هو وجدا واجتهد، عارضاً عليهم مشـاريع تـؤدي للربح، في تلك اللحظة كان الفاسكونيون مختفين في مكان ما من القرية، ولكن منـدوبهم (شـحته) – ممثـل اليسـاريين المصـريين – يظهـر ليلقـي بشـتائمه، ويثيـر تعقيـدات بيروقراطية هو و (أبو القاسم).

وينكشف (شحته) في أول فرصة ينفرد فيهـا بزوجـة (فرج) الأمريكية فيهجم عليها ويحاول اغتصـابها، وهكـذا تدرك متأخراً سر شحته المطوي، إنه ليس أكثر مـن شـاب يعاني من عطش جنسي ضار، جائع للمرأة لأنه يغرق نفسه

في قراءة لا معني لها، ويلاقي (شحته) جزاءه، فينقله مأمور الشرطة إلي السجن، ويحاول أحد الواقفين أن يتشـفع فيـه، ذكراً أنه شاب صغير السن، قليل التجربة مطالباً بالتسـامح معه.

وهنا يندفع (عبد الودود) و (رئيفة) يعترضان علي هذا المنهاج مطالبان باتخاذ أقسي الإجراءات ضد هذا الولد، ذلك أن التساهل معه ومع أمثاله لم يؤد إلا مزيد مـن المصـائب للقرية، ويطرز عبد الودود كلامه، بحديث عن الديمقراطيـة مؤكداً أن (شحته) غير ديمقراطي وأنه يقول عن كـل مـن يختلف معه الرأي أنه (رجعي) و (إمبريالي) وينهـي عبـد الودود نظرية السماسرة في الديمقراطيـة مطالبـاً مـأمور الشرطة بأن يعيد تربية (شحته) بطريقتـه المعروفـة فـي السجن.

وتطبيقاً لمفهوم (آل كاريوكا) للحياة والسياسة، فإن الوفد الفاسكوني عندما يعلم بالقبض علي شحته يسارع علي الفور للإحتجاج، لكن مأمور الشرطة يرفض الإحتجاج بصـرامه، وينتهي الأمر فينكشف الوفد الفاسكوني فإذا جميع أعضـائه يعرفون العامية المصرية، وإذ هم مجموعة أشبه بالجواسيس

جاءوا يتجسسون علي البلد، وهكذا تطردهم القريـة، ويبـدأ عصر الثراء والإزدهار الذي يخطط لـه (فـرج) بعـد أن تخلصت القريه من كل أعدائها: (الفاسكونيين) و (أبو القاسم) و (شحته)!.

وتنطلق الجوقة تغني للاستقلال، لمصر التـي هـي لا شرقية ولا غربية، ولا يمين ولا يسار ولكنها مصر فقط!.

الفاسكونيين إذن ليسوا السوفييت فقط.

ولكنهم كل ما هو وطني ومعادي للإمبريالية الأمريكية.

- أنهم (شحته) ذلك الذي لا تفهم بالتحديد مـاذا يرمـزون بشخصيته.. ولأنهم جهلة تمامـاً بالتنويعـات المختلفـة للشخصية المعارضة، لذلك رسموا شخصية تصلح رمزاً للشيوعي والناصري، وللبعثي وللقومي العربـي. إنهـم يتصـورون أن الإمبرياليـة والرجعيـة والبرجوازيـة والتقدمية كلمات لا توجد إلا في القاموس الشيوعي.

- وهم (أبو القاسم) ممثل الاتحاد الإشتراكي مـن الـنمط الناصري، ذلك يحذر من الوفد الأمريكي، فـلا يجـدون مفراً من الهجوم عليه وتذكيره بأنه استفاد وربـح مـن انتمائه إلي الطبقة الجديدة وأنه نزح عرق العمال.

- وهم المقاومة الفلسطينية التي يسخرون من بياناتها العسكرية.
- وهم حركة التحرر الوطني العالمية والمعسكر الاشتراكي كله. بما فيه الصين.

عودة المانيفستو:

ولأن (يحيا الوفد) ليست مسرحية، ولكنها مانفيستو شرائح قوية ومؤثرة فقد تحزب لها علي الفور الذين رأوا فيها تعبيراً عن مصالحهم ورؤاهم، ودعا لها كل الذين يهمهم تروج أفكارها وتنتشر.

وهي في مرحلة الإعداد، كتبت عنها (أخبار اليوم) تحقيقاً ينبه إلي أهميتها، وبعد عرشها خصص لها (علي أمين) يوما في كلمته الصباحية (فكرة) دعا فيها المصريين إلي مشاهدتها باعتبارها نصاً يدافع عن لوطنية المصرية واستقلال مصر ضد الغزاة، وعندما حاول عدد من النقاد الوطنيين والتقدميين أن ينبهوا غلي خطورة ما تبشر بها لمسرحية من أفكار، وأن يردوا عليها ويتفدوها منعوا من ذلك.

كتب عنها (رجاء النقاش) مقالاً للمصور- المجلة التـي يعمل بها، حاول- كما قال لي – أن يجعله هادئاً يقـدر مـا يستطيع، وأن ينبه فيه إلـي أن المسـرحية تسـئ للشـعب المصري نفسه قبل أن تسئ إلي أحد آخر، ولكن المقال منع، منعه (صالح بك جودت) نائب رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير وقتها- ذلك الذي كتب قبل عام يقـول أن إسـتقبال الشعب المصري لنيكسون هو إستفتاء علـي النظـام الـذي يرتضيه المصريون والدولة التي يريدون أن يصادقوها.

وعندما كتب أحمد عبد الحميد عنها (للجمهورية) ينقـد رؤاها، شطبوا نصف المقال وتركـوا لـه النصـف الـذي يستعرض فيه المسرحية بحيث بدا كما لو كان المقال دعايـة لها لا إعتراض عليها!.

ومنذ أول لحظة كانت المسرحية محل حماية ورعايـة قوى لا قبل لأحد بها، فهي قد مـرت مـن الرقابـة علـي المصنفات الفنية، التي تعلن أنها لا تسمح بالمسرحيات التـي تعرض بعلاقات مصر الدوليـة أو تسـئ إليهـا، وخاصـة علاقاتها بالدولتين الأعظم، وتطبيقاً لهذا فإن الرقابـة علـي المصنفات الفنية تشطب أي هدوم علي أمريكـا مـن كـل

المسرحيات، وبرغم هذه المساواة الجائرة بين من ضـربوا قري مصر بطائراتهم ومن حموها بصواريخهم، مرت (يحيا الوفد) وهي تحمل كل هذه الشـتائم الرذيلـة فـي الشـعب السوفيتي، وأجيز نصها الذي يحمل كلمات لا يجيز عـرف سليم أن تقال عن أعداء أو أصدقاء مثـل (أولاد الكلـب) و (الحيوانات)... الخ، ما سمحت به آداب وأخلاق السيد فـايز حلاوة!.

وكان مرورها من الرقابة الدعاية لها علـي صـفحات الصحف، التي يسيطر عليها جميعاً أقرباء وأصدقاء الولايات المتحدة الأمريكية، مقدمة لمـا حـدث بالفعـل، إذا رآهـا السوفييت، وقيل – والعهـدة علـي القـائلين – أن الرفيـق (جروميكو) – وزير الخارجية السوفيتي – عنـدما اسـتقبل السيد اسماعيل فهمي وزير الخارجية المصري في موسـكو في أبريل- نيسان – ١٩٧٥ قد أستفز عندما أخذ (إسـماعيل فهمي) يتحدث عن الصداقة التـي تكنهـا مصـر للشـعب السوفيتي، فأمر بمن أحضر له شريط تسجيل عليـه نـص (يحيا الوفد) وأداره وأسمع (إسماعيل فهمي) رده علـي مـا يقال من صداقة بين مصر والإتحاد السوفييتي!.

ووصل الخبر إلي (أخبار اليوم) طبعاً، وكتب (ابـراهيم سعده) يروي الواقعة مجهلة، ولكن بطريقة تجعلها مفهومـة للجميع، ثم قدم السفير السوفييتي في القاهرة إحتجاجاً علـي ذلك، وصدر قرار من الرقابة بسحب ترخيص المسرحية!.

إلي هنا بلغت المهزلة ذروة جديدة!.

إن ما تفعله الرقابة في مصر يظل غالباً سراً، فما أكثر الأفلام والمسرحيات التي شطبت منها فصول وفقرات، ومـا أكثر الكتب التي يكتب الرقيب علي صفحاتها الأولي يطبـع بعد الشطب في صفحات كذا وكذا، لكن هذا كله لا ينشر، ولا ينشر بالتحديد في صحف القاهرة ولا تبرر الرقابة علناً مـا شطبته، لكن (يحيا الوفد) وحدها: هـذا المانيفسـتو القـوي المدعوم، وجد صحف القاهرة الصباحية كلهـا فـي صـفه، ومجلات القاهرة الإسبوعية في حزبه.

في ٣ مايو (آيار) ١٩٧٥ – كتبت الصحف كلها خبـراً عنوانه [بعد إحتجاج دولة كبري: وقف مسرحية (يحيا الوفد)] وقالت إن الدولة الكبري قالت في احتجاجها أن في المسرحية مساساً بها، وكتبت (إعتدل ممتاز) مديرة الرقابة إلـي فـايز حلاوة تقول: (حفاظاً علي مصالح الدولة العليا واستناداً إلـي

حقي المخول لي فإنني أمنع عرض المسرحية إبتـداء مـن الأربعاء ٣٠ إبريل (نيسان) ١٩٧٥.

كان تسريب الخبر والسماح بنشره عمليـة مقصـودة، وعلي الفور تحرك أصدقاء الولايات المتحده، لبسوا الثـوب الديمقراطي، وكتب (إبراهيم سعده) في أخبار اليـوم يقـول: (ليس من حق أي إنسان – مهما كان – أن يفرض رأيه علي غيره أو يمنعه من التعبير عن وجهة نظره، وليس من حـق أي دولة – مهما كانت – أن تتدخل لخنـق حريـة الـرأي والتعبير في الدولة الأخري!! [أخبار اليوم ٧٥/٥/١٠].

وهكذا أضئ النور الأخضر ليندفعوا في حمله همجيـة جديدة- يبررون بها مكارثيتهم – تزعم السوفييت هم أعـداء الحرية والديمقراطية، واليسار هو عدو الحريات [هذا اليسار المسكين المصادر والمكمم والذي كان العديدون من مفرداته أيامها في السجون]. (لكن أحداً لم يقل هل طالب السـوفييت بمنع المسرحية حقاً) أم أنهم احتجوا عليها لأن بهـا مساسـاً وبشعب مفروض أنه كان بينه وبين مصر أيامها ومعاهـدة صداقة!.

نسيا لجميع أو تناسوا أن السوفييت احتجوا فقط ولكـن الرقابة اليت سمحت هي التي منعت!.

وهكذا أكملت الحملة الصحفية وإجراء المنع المقصـود ما جاءت المسرحية أصلاً لتقوله، وملـك فرسـان اليمـين الوقاحة- التي لا تنقصهم – لكي يقولوا أنه ليس بالمنع تكون الديمقراطية وأن علي من يريد أن ينقد المسرحية، ويعريهـا أن يفعل فهذه هي الحرية[أخبار اليوم – ١٩٧٥/٥/١٠] لكي ما نسوه كان: أين يستطيع الإنسان أن يقول هذا الرأي وكـل الصحف يرأس تحريرها (فايز حلاوة)!.

وكان طبيعياً أن يحكـم القضـاء باسـتمرار عـرض المسرحية، واستند الحكم علي أساس شكلي هو أنه ليس مـن حق الرقابة أن تسحب الترخيص بعد أن منحته، ثم أن وزارة الثقافة بعد أن أصدرت قرار المنع سمحت بعرض المسرحية في المحلة الكبري لمدة يومين علي أساس أن هذا تعاقد سابق علي قرار المنع.

ودشنت الصحف القرار بالإفراج فنشرته في صـفحاتها الأولي، وقالت (أخبار اليوم):

إنتهي عصر الرأي الواحد وإنتهت معـه التبعيـة لأي معسكر).

وكتب (أنيس منصـور) فـي نفـس عـدد الأخبـار (١٩٧٥/٥/٢٤) يقول عن المسرحية (إن الناس رأوا فيها ما يحبون أن يروا وسمعوا ما يعجزون عن التعبير عنـه فـي صورة تهزهم بالضحك أو بالبكاء).!

وعادت يحيا الوفد وكان ينبغي أن تعود، إنهـا ليسـت مسرحية، وليست حملة ضد السوفييت، أنهـا مـا نيفسـتو السماسرة والكومبرادور، لذلك عادت!.

هكذا يتكلم السماسرة:

يحيا الوفد تقدم المانيفستو السياسي والإجتماعي لأكثـر شرائح البرجوازية المصرية تأثيرا وفاعلية وثقلاً هذه الأيام، إنها مقدمة فحسب سوف تستكمل كمـا بشـرت الصـحف بمسرحية أخري انتهي (فايز حلاوة) بالفعـل مـن تأليفهـا واختار لها عنواناً (إلي اليسار در).

واضح من العنوان أن شخصيته (شـحته) فـي (يحيـا الوفد) سوف تكون محور المسرحية الجديـدة، وأن منظـر

(الكمبرادور) سوف يبدي رأيه في اليسار المحلي بمختلـف فصائله في المسرحية الجديدة.

ولسنا في حاجة كما أظن إلي إنتظار المسرحية الجديدة لنستكنه رؤي وتصـورات البرجوازيـه (الكمبرادوريـة)، فالخطوط العامة واضحة علي كل حال فـي (يحيـا الوفـد) نفسها:

إنها تريد أن تريح بأسرع ما يمكن، ووسـيلتها لـذلك ليست المشاركة في عمل إنتاجي، ولكن السمسرة والوساطة، إنها تنفض شخصية العصامي تلك التي طرحت نفسـها فـي الأدب البرجوازي كنموذج يحتذي، يوم كانـت البرجوازيـة تصعد ضد أفكار الإقطار وتصوراته محكمـة المجتمـع ذي الطبقات المقفولة القائم علي هرم طبقي، بين طبقاته أسـوار حديديدية، رافضة فكرة الأرومة المتوارثة، كان العصـامي أيامها هو (نبي) العصر الجديد، لكنه رغم أصـله الطبقـي المتدني كان يصعد بجهده وعرقه وابتكاره ومواهبه.

في (يحيا الوفد) فإن الكومبرادوريين يبشرون بالصعود من خلال كسب أوراق اليانصيب والمتاجرة فـي الفحولـة

الجنسية- وهي الميزة الوحيدة التي يرونهـا فـي الشـعب المصري.

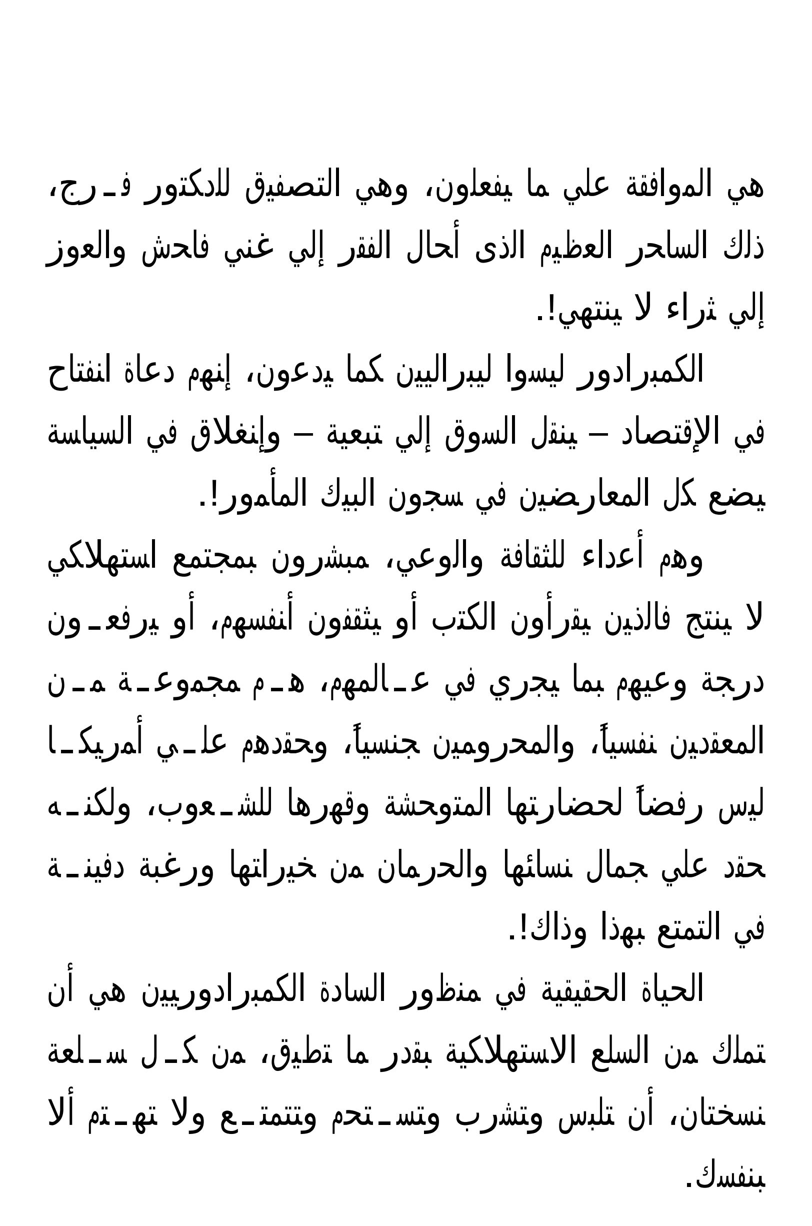
إن (عبد الودود) و (رئيقة) في بداية المسرحية يكسبان من مهنة تنتمي إلي (نقابة القوادين) فكـل مواهبهمـا فـي (مسعد) ذلك الجدي الذي يملك فحولة جنسية تمكنه من تلقيح إناث الماعز مقابـل خمسـين قرشـاً (للوثبـة) الواحـدة، لكنهما،وبعد أن يخلصهما الفاسكونيون من تلك المهنة الشائنة يصران عليها، ويقرران أن يمارسها الدعارة علي مسـتوي عالمي، ويحل (عبد الودود) محل (مسـعد)، ويكسـب مـن المتاجرة بفحولته وإرواء غليل أوروبا وأمريكـا العطشـانة جنسياً.

ولأن الكومبرادوريين المصريين هم تطور البرجوازية متخلفة مثلة بالفكر الزراعي والقبلي، فإن ما تفرزه أمعاؤهم الغليظة من أفكار قد تبدو مضحكة لنا، ولكنهم فـي الحقيقـة يريدون أن يقلبوا الآية، إنهم يصورون الموضـوع للشـعب المصري والعربي، علي نحو معكوس، فنحن الذين سـنغزو أوروبا وأمريكا وليست هي التي سوف تغزونا، نحن الـذين

سنقتحمهم جنسياً وليسوا هم الذين سـيحولون بيوتنـا إلـي مواخير.

ولأن مجتمعنا يسوده الكمبرادوريون، لابد وأن ينتهـي بإحتراف ابناء وبنات الطبقات الفقيرة والمتسوطة الصـغيرة للدعارة وتجارة المخدرات وتكوين العصابات، فإن تغطيـة ذلك نفسياً مطلوبه بمعابثة الغرائز الدنيا والمتخلفة لدي تلـك الشرائح وتحويل شعروها بالقهر الطبقي وإغتصاب فـائض قوة عملها، إلي شعور بالمباهاه الجنسية،وهذا ما تـروج لـه يحيا الوفد.

وديمقراطيتها المدعاة هي تكريز بالفاشية اليمينية وتمهيد لها، ودفاع عنها، ففي نهاية المسرحية تطالـب (رئيفـة) و (عبد الودود) بتأديب (شحته) وعدم التسامح معـه، وهـم لا يريانه صاحب موقف أو عقيدة سياسية من حقه أن يبشر بها، ولكنه عندهما عميل وجاسوس للسوفييت، وهو غير وطنـي أصلاً، بدليل أنه يعترض علي الخير العميم الذي جـاء بـه الأمريكي الطريف الدكتور (فروج) أو (فرج) أو (كيسنجر)، ولا تعامل مع هذا النمط من المصريين في رأي الكومبرادور إلا بالسجون والمعتقلات والتأديب، إن الديمقراطية في رأيهم


هي الموافقة علي ما يفعلون، وهي التصفيق للدكتور فـرج، ذلك الساحر العظيم الذى أحال الفقر إلي غني فاحش والعوز إلي ثراء لا ينتهي!.

الكمبرادور ليسوا ليبراليين كما يدعون، إنهم دعاة انفتاح في الإقتصاد – ينقل السوق إلي تبعية – وإنغلاق في السياسة يضع كل المعارضين في سجون البيك المأمور!.

وهم أعداء للثقافة والوعي، مبشرون بمجتمع استهلاكي لا ينتج فالذين يقرأون الكتب أو يثقفون أنفسهم، أو يرفعـون درجة وعيهم بما يجري في عـالمهم، هـم مجموعـة مـن المعقدين نفسياً، والمحرومين جنسياً، وحقدهم علـي أمريكـا ليس رفضاً لحضارتها المتوحشة وقهرها للشـعوب، ولكنـه حقد علي جمال نسائها والحرمان من خيراتها ورغبة دفينـة في التمتع بهذا وذاك!.

الحياة الحقيقية في منظور السادة الكمبرادوريين هي أن تملك من السلع الاستهلاكية بقدر ما تطيق، من كـل سـلعة نسختان، أن تلبس وتشرب وتسـتحم وتتمتـع ولا تهـتم ألا بنفسك.

وهم يسقطون كل عاهاتهم النفسية علي أعدائهم الطبقين علي المستوي العالمي والمحلي:

فالسوفييت في رأيهم – وكل دول أوروبا الشرقية – قوم جائعون شبقون للطعام بلداء الحس، أكلوا الجي بكل وقاحـة وخرجوا يتغزلون شعراً في محاسنه ومفاتنه.

واليسار المحلي شبق للجنس وغير ديمقراطي.

والشعب حقود متدني الأخلاق لأنه يتساءل عن مصـدر التفرقة بين البشر في الثراء وفي الإشباع المشروع والطبيعي من احتياجاته، ولأنه يطالب بحقه المشروع في أن يعيش في مجتمع بلا طبقات!.

لقد كان (انجلز) علي حق عندما سـخر مـن تشـهير القساوسة القديم بالمادية- كتيار فلسفي- عنـدما صـوروها علي أنها شراهة وسكراً وملذات حسية وشهية وبخل وطمـع وجري وراء المادة. ذلك التشهير الذي وصفه (انجلز) متفكهاً فقال (لقد ألصقوا بها باختصار كل الرذائـل الدنيئـة التـي ينغمسون هم أنفسهم فيها سراً).

ذلك ما يفعله البرجوازيون عموماً والكمبرادوريون منهم علي وجه الخصوص، إنهم يتناسون أن المجتمع البرجوازي

هو مجتمع المنافسة والتقاتل علي الريح، مجتمع سرقة عرق الآخرين، المجتمع الذي ينتشر فيـه الفقـر فتبيـع النسـاء لحومهن، وبيع الرجال رجولتهم، إنه مجتمع الشراهة الحقـد والأمراض النفسية والإنهيارات العصبية، مجتمع الزهـري والسيلان والبلاجرا والقراع، والرجل الذي يقتل أخـاه فـي سبيل الميراث، أو مـن أجـل حفنـة دولارات لأن قانونـه الأساسي هو قانون أقصي الربح، قانون الصراع حتي الموت من أجل الربح.

تلك الرذائل التي يرتكبونها سراً يلصقونها بالسـوفييت وبالشعب وباليسار وبالوطنيين... بكل ما ليس أمريكياً.

إن الوطنية في منظورهم سخف، ومع ذلك – فبعـد أن حكم القضاء بإعادة عرض المسرحية علقـوا علـي بـاب مسرحهم لافتة تقول (صيحة حق مصرية ١٠٠% لا شرقية ولا غريبة)- لكن هذه الصيحة المصرية ١٠٠% تنظر إلـي الإستشهاد باعتباره سخفاً وتفاهة، بدأ من أغنية أم البطل التي غنتها شريفة فاضل أيام حرب أكتـوبر – تشـرين الأول – ١٩٧٣، عندما استشهد ابنها الطيار في الحرب، والتي يعلق (عبد الودود) عليها بأن الإبن استشهد فـي شـارع الهـرم،

سخرية من الأم التي تغني في ملاهي ذلك الشارع السـياحي العظيم، وإرضاء لأحقاد أو منافسات يكنونها لها لا تهمنا في شئ، لكن السخرية من الاستشهاد لا تستثني حتـي حـرب أكتوبر،وهي سخرية تطول المقاومة الفلسـطينية وحـروب التحرير في شروق أوروبا.

وهذه الصيحة المصرية ١٠٠% تنتهي بتخاص مصـر من (المسـتعمرين السـوفييت) (والمسـتعمرين اليسـاريين والوطنيين) الدخلاء وبقاء الأمريكيين ومن قبلوا مشـاركتهم في مشاريعهم الاستثمارية.

ومع ذلك يصرون علي أنها كلمة حق مصرية ١٠٠% إنها بالقطع ليست شرقية ولا مصرية ولا وطنيـة، ولكنهـا أمريكية ١٠٠%!.

ولأنهم ميكافيليون بطريقة مقززة، فلا ضـرورة علـي الإطلاق لأن تناقشهم بالمنطق، إنهم يكذبون وهم يعلمون ذلك ويصرون عليه، ما الفائدة في تذكيرهم بـأن السـوفييت لـم يجوعوا مصر، بل إن العكس هو الـذي كـاد يحـدث، وأن الشعوب السوفيتية تعاني من بعض أزمات فـي إحتياجاتهـا لكي تساعد حركة التحرر الوطني، ما الفائدة في أن تقول لهم

أن الأمريكان لم يجيئوا برجاء وان مصر تعاني – بإعترافات رسمية – من مشاكل إقتصادية.

ما الفائدة أن تسألهم:

*أين هذه المساعدات الأمريكية؟ وأين هذا الرخاء الذي تدفق بعد قدوم الدكتور فروج؟

*ما الفائدة في مطالبتهم بأن يقدموا لك دليلاً علـي أن السوفييت رفعوا السلاح في وجة المصريين عنـدما طالـب هؤلاء بخروج خبرائهم من مصر؟.

هؤلاء قوم فاجرين يبلغ فجرهم درجه لا يصدقها عقل، لذلك فإن (رئيفة) تطلـب مـن المتـرجم أن يـذكر الوفـد الفاسكوني بحادثة (بحر البقر) وهكذا يصـورون السـوفييت باعتبارهم مسؤولين عن بحر البقـر، ومفهـوم بـالطبع أن مسؤوليتهم تنجم من أنهم لم يتصدوا للقتلة الحقيقيين، الذين لم يذكرهم أحد بسوء علي الإطلاق فلا أحد يذكر (الفانتوم) ولا (السكاي هوك)، ولا أطنان المساعدات التي قدمها ويقـدمها الدكتور فروج إلي إسـرائيل، تمامـاً كمـا نسـوا المـيج والسوخوي والسام ٣ والسام ٦، كل شئ!.

إن كل شئ مغلوب ومعكوس في منطقهم:

*السوفييت هم الأعداء، لم لا؟.. أليسوا هم مصدري الفانتوم لإسرائيل عدوتنا، أليسوا هم الذين ساندوها في كل مجال؟

*الأمريكان هم الأصدقاء، لم لا؟ أليسوا هم الذين أمدونا بالسام ٦ ووقفوا بجانبنا في حرب أكتوبر وصنعوا لنا ولسوريا جسراً جوياً؟

....ولكن ما لم ننساه ولن ننساه أننا أمتين، وأن أصدقائهم ليسوا أصدقائنا، وأعداؤهم ليسوا أعدائنا!.

الديمقراطية...
وايديولوجية الكل في واحد

(....فالبرجوازية التي فركت كفيها سروراً قبل عشرين عاماً لأن المؤسسات الليبرالية قد سـقطت فخلصـتها مـن أعدائها الطبقيين دون أن تمس حريتها في الاستثمار تفـرك اليوم كفيها حبوراً مطالبة بعودة حرية الإستثمار دون عـوده هذه المؤسسات).

بعض الذي يجري علي جبهة الفكر – وربمـا كلـه – يدعو للدهشة!

فوسط الحاح ديمقراطي شديد يتغني بالحريـة ويشـبب بالديمقراطية، ويحلم بعالم وردي لا قهر فيه ولا كبت، تتكرر نغمة واحدة: فالذين يلحون اليوم بالحرية، يزعمـون بـإنهم كانوا كذلك طول عمرهم، أصـحاب رأي ظلمـوا وكبتـوا ومنعوا من تنوير شعب مصر بآرائهم الناضجة التـي هـي وحدها- دون كل الآراء- الطفيلة بتحقيقـي مصـالح هـذا الشعب... أما أصحاب الآراء المخالفـة فهـم فاشـيون ولا

ديمقراطيون ينبغي صيانة الحرية منهم، بمنعهم مـن الإدلاء بالرأي أو الكلام في شؤون الوطن!.•

وأهل اليمين في بلادنا قوم أمرهم عجب، فهم ينكـرون هويتهم ويثورون إذا ما قلت عن أحـدهم أنـه (يمينـي) أو (رجعي) أو (محافظ) ويعتبرون ذلك لا أخلاقيـة ويرفعـون شعاراً نصه: لا تصنفوا النـاس فكلنـا مصـريون. وبهـذا يكشفون عن إحساسهم الداخلي بأن اليمينيـة عاهـة ينبغـي

• كتب هذا المقال في فبراير ١٩٧٤، وكان مقرراً أن ينشر ، في مجلة (الكتاب) القاهرية فـي مـارس ١٩٧٤، ولكـن الرقابـة علـي الصحف، وكانت ما تزال مفروضة آنذاك، إعترضت علـي نشـره ، فظل دون نشر، حتي رفعت هذه الرقابة، فنشرته الكاتب فـي عـددها الذي صدر في يوليو ١٩٧٤. وكان هذا لمقال، أحد البدايات المبكـرة لأزمه (الكاتب)، التي تفجرت بعد ذلك وفي شهر سبتمبر مـن العـام ذاته، إذا كانت الإستشهادات الواردة به ، تتضمن نقداً لـرؤي رسـمية كانت شائعة آنذاك، وتتكرر بإلحاح علي أقلام الحلقة الثقافيـة الضـيقة التي كانت تحيط بالأستاذ يوسف السباعي، وزير الثقافـة، والـرئيس الأعلي للهيئة العامة للكتاب، التي كانت تصدر عنها (مجلة الكتـاب)، وهو ما جعل مفردات من هذه الحلقة تطالب بفـرض الرقابـة علـي (الكاتب).

التبرؤ منها، كما يكشفون عن مدي إخلاصهم الحقيقي لقضية الديمقراطيه، ذلك أن القول بأننا كلنا مصريون يعني أن نكون كلنا رأي واحد وإتجاه واحد- هو رأيهـم واتجـاههم كلنـا مصريون يعني أن تكون كلنا رأي واحد واتجاه واحد- هـو رأيهم وإتجاههم بالطبع – وبذلك لا نكون ديمقراطيين هـي دار المصريين جميعاً، بمختلف آرائهم وإجتهادتهم، ومواقعهم الفكرية والطبقية، تتيح لهم جميعا أن يعبروا عمـا يعتقـدون ويدعون الآخرين إلي أفكارهم، ويدافعون عـن مصـالحهم الطبقية في مؤسسات ديمقراطية حرة، لا يحدها قيـد سـوى الإخلاص لقضية الديمقراطية نفسها.. فالذين يدعون لآرائهم بالمسدسات والقنابل والمـؤامرات والإنقلابـات العسـكرية يعرضون البناء الديمقراطي للخلـل ويسـتخدمون أسـاليب فاشية، والذين يستعدون السلطة علي من يختلفون معهم فـي الرأي، لا يختلفون عمن يفتقدون لأبسط تقاليد الحوار العلـيم ويندفعون إلي مباذل التشهير الشخصي، وكل هؤلاء ليسـوا مخلصين لقضية الديمقراطية مهما قالوا أو فعلوا.

ومصر حيث هي دار المصريين جميعـاً- هـي فـي المنظور الديمقراطي- قطر من أقطار وطن عربي، تـرتبط

معه بالوجدان والمصلحة، ومع الإطار القطري الذي يضم – كل أهلها- والقومي الذي يضمها مع عالمها العربي – فـإن مظاهر التنوع والاختلاف داخل هذا الإطار موجودة بكثـرة، إن المصريين يتمايزون طبقياً: فهناك البرجوازيون بمختلف شرائحهم: هؤلاء الذين يشترون قوة العمل، وهنـاك العمـل بمختلف شرائحهم: الذين يبيعون قوة عملهم. وعلـي جبهـة الفكر هناك الذين يؤمنون بفكر البرجوازية ورؤاها: حريـة التملك وحرية الإستثمار وحرية التجارة وحرية إنتقال رؤوس الأموال. وهناك الذين يؤمنون بفكر العمال والفلاحين ويرون الملكية شراً لأنها تتضمن استغلالاً هو جوهرها ويطـالبون ويجهدون لإلغائها. وبين هؤلاء وأولئك هناك الراديكـاليون الذين يجنحون إلـي يسـار الليبراليـة أو إلـي اشـتراكية البرجوازية الصغيرة، فيطالبون التدخل للحـد مـن شـرور الملكية دون إلغائها، ويعتبرون أن لها وظيفة إجتماعية يمكن أن تؤديها ويفرقون بين ما يسمونه ملكية مسـتغلة وأخـري غير مستغلة. والذين يرفعون شعار: لا تصنفوا الناس كلنـا مصريون، يريدون للمصريين أن يتسـاووا فـي المصـرية ويرفضون بشراسة أن يتساووا في نصيب عادل من ثروات

بلادهم. وعنما نقول أنه لا يمين هناك ولا يسار فمعني هـذا أننا كلنا أغنياء أو كلنا فقراء، وهو ما لا يستطيعون الـزعم بأنه حقيقي.

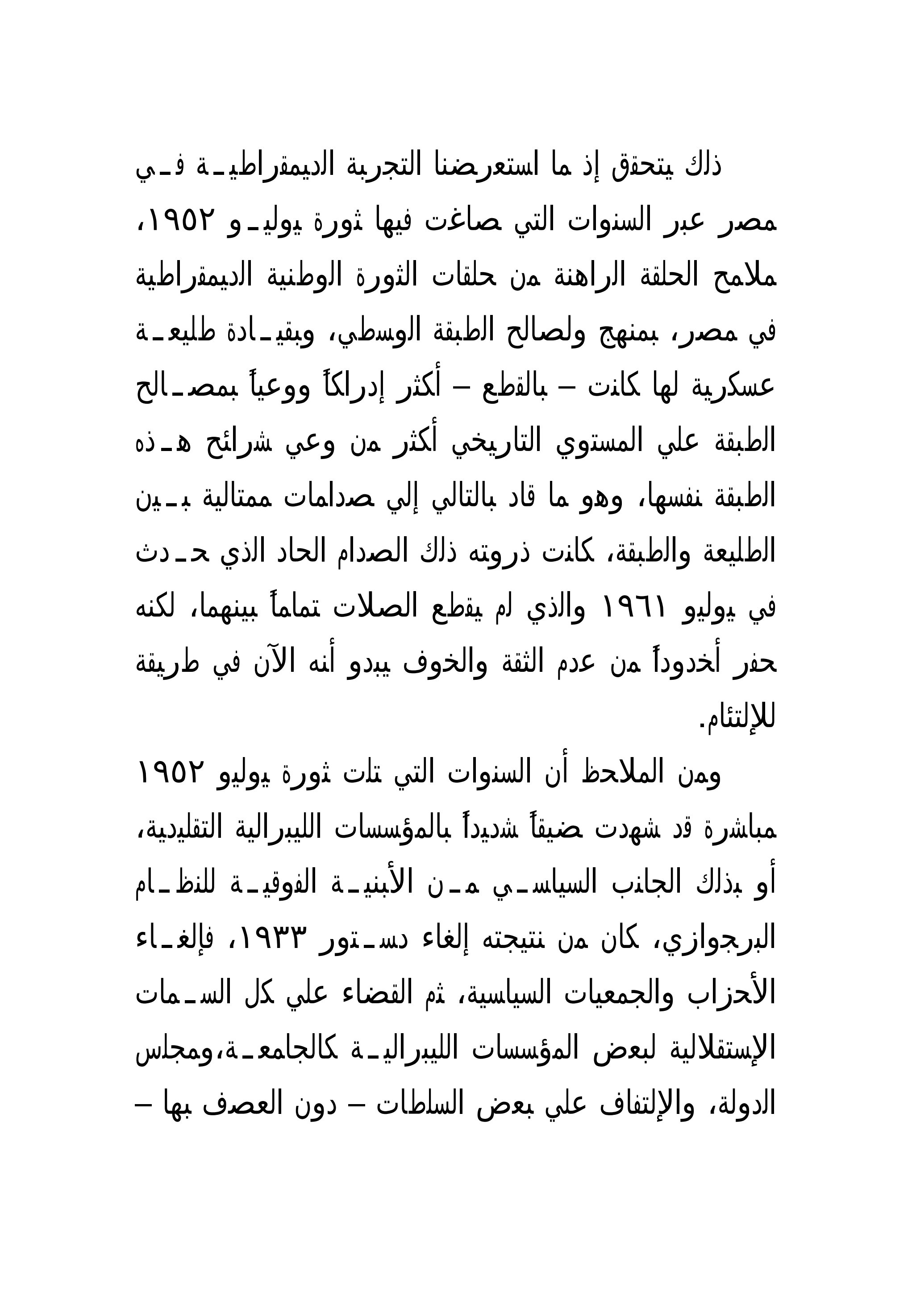
وما يطلق اليوم علي جبهة الفكر من طلقات تظن أنهـا تستهدف الظروف اللاديمقراطية، لا تصيب فـي الواقـع إلا صميم الديمقراطية، ذلك أنها طلقات معسـكر واحـد مـن معسكرات الفكر، لا يهدف بها إتاحة الفرصة لأن يتكلم الكل – تيارات وطبقات – ولكن أن يتكلم هـو وحـده بـزعم أن الآخرين لم يكونوا مخلصين مثله لقضية الديمقراطية!.

البرجوازية... ورايات الديمقراطي:

وخلال الأسابيع التي تلت حرب أكتوبر ١٩٧٣، كثـر الحديث عن قضايا الديمقراطية في مصر، وبشكل لم يسـبق له مثيل ربما في خلال العشرين عاماً الماضية، وهذا طبيعي ومنطقي، إذ الذي لا شك فيه أن الشرائح العليا مـن الطبقـة الوسطي في مجتمعنا، كانت – وما زالت – تجتهد منذ وقت طويل لتعدل الأبنية الفوقية بما يتلاءم مع مصالحها المتنامية، ومع ماحققته من تراكم رأسمالي إختزنته في ظروف خـوف من أن تتعرض لما تعرضت له زميلات لها بقرارات يوليـو

١٩٦١، لكن هذا التراكم يـدعوها الآن للإسـتثمار وهـذا الإستثمار يجلعها تلح في المطالبة بحمايتها فيشـتط بعـض منظريها في القول فيتهمون كل ما جري في العشرين عامـاً الماضية بأنه كان ظلماً وظلاماً، وهي التي إسـتفادات منـه أكثر مما استفادت أي طبقات أخري في المجتمع، ورضـيت به رضي لا يجاوزه حد. وربما فجع كثيرون بهذا التنظيـر الردئ للرغبة في حماية الاسـتثمار، لكـن تلـك أخـلاق البرجوازية المصرية علي أي حال.. وتلـك قـدرتها علـي التفكير.

ولأن هذا الإلحاح الديمقراطي لا يهم فحسب البرجوازية المصرية الرغبة في الربح، ولكنه يهم أيضاً مختلف الطبقات الاجتماعية فإن من المفيد دائماً أن نحاورها- كجـزء مـن عملية الجدل الإجتماعي – فيمـا تـدعو إليـه مـن شـكل للديمقراطية، لكي نوصف ونفسر جـوهر دعوتهـا ونحـدد بالتـالي موقـع جمـاهير الشـعب – العمـال والفلاحـين والبرجوازية الصغيرة – علي خريطة الإنفراج الـديمقراطي الذي تدعو إليه البرجوازية اليوم وتلح عليه.



ذلك يتحقق إذ ما استعرضنا التجربة الديمقراطيـة فـي مصر عبر السنوات التي صاغت فيها ثورة يوليـو ١٩٥٢، ملامح الحلقة الراهنة من حلقات الثورة الوطنية الديمقراطية في مصر، بمنهج ولصالح الطبقة الوسطي، وبقيـادة طليعـة عسكرية لها كانت – بالقطع – أكثر إدراكاً ووعياً بمصـالح الطبقة علي المستوي التاريخي أكثر من وعي شرائح هـذه الطبقة نفسها، وهو ما قاد بالتالي إلي صدامات ممتالية بـين الطليعة والطبقة، كانت ذروته ذلك الصدام الحاد الذي حـدث في يوليو ١٩٦١ والذي لم يقطع الصلات تماماً بينهما، لكنه حفر أخدوداً من عدم الثقة والخوف يبدو أنه الآن في طريقة للإلتئام.

ومن الملاحظ أن السنوات التي تلت ثورة يوليو ١٩٥٢ مباشرة قد شهدت ضيقاً شديداً بالمؤسسات الليبرالية التقليدية، أو بذلك الجانب السياسـي مـن الأبنيـة الفوقيـة للنظـام البرجوازي، كان من نتيجته إلغاء دسـتور ١٩٣٣، فإلغـاء الأحزاب والجمعيات السياسية، ثم القضاء علي كل السـمات الإستقلالية لبعض المؤسسات الليبراليـة كالجامعـة،ومجلس الدولة، والإلتفاف علي بعض السلطات – دون العصف بها –

كالقضاء الذي جوبه بمحاكم ذات سلطات خاصـة كمحـاكم الثورة والشعب والمحاكم العسكرية، ثم كـان الصـدام مـع الصحف الذي بلغ ذروته في عامي ١٩٥٣، ١٩٥٤ وإنتهـي بإلغاء وتصفية كل الصحف ذات الخط السياسـي الواضـح وبقت في الميدان الصحف المحايدة.

وانتهي هذا كله بتصفية هـذه الأشـكال الديمقراطيـة والعصف بها دون أي إعتراض من البرجوازية المصـرية التي كانت تطمح إليه، بعد أن ضاقت بالمؤسسات الليبراليـة وعبرت تقارير (إتحاد الصناعات) عن هـذا الضـيق فـي الأعوام السابقة علي الثورة ساخطة علي عدم استقرار الحكم السياسي،وعلي سيطرة الرؤي الزراعية عليه، ناقدة الأفـق المحدود لهذه الرؤي التي تحبس أموالها في شراء الأراضي بالإفقار المتزايد للعمال الـزراعيين، مـن انكمـاش سـوق المستهلكين، وتثير قلقا اجتماعياً يسـتفز دعـوات (الهـدم) ويجعل مصر أرضاً ممهدة لما تسـميه البرجوازيـة عـادة بالأفكار المستوردة.

ومما زاد من ضيق البرجوازية المصرية بالليبرالية ذلك المد الديمقراطي الجار فالذي أطلقت عقاله حكومة الوفد فـي

العامين السابقين علي الثورة مباشـرة، والـذي دفـع إلـي الصدارة أفكاراً اجتماعية تخشاها البرجوازية وتخافها، فقـد تزايد الهجوم علي توزيع الملكية وإنتشرت الأفكار الداعيـة إلي إعادة توزيعها وتكـاثرت إضـرابات العمـال وهبـات الفلاحين، وكشفت مأساه حريق القاهره- بـرغم إحتمـالات التآمر فيها – عن فقر اجتماعي وصل إلـي حـد الشراسـة الفائقة، لا يعيبه سوى عفويته ولا وعيه، وهي عيوب كانـت البرجوازية تعي أن استمرار أى منـاخ ديمقراطـي كفيـل بتلافيها. وأمام هذه الحقائق كلها تنكرت البرجوازيةلليبراليـة تنكراً سريعا ، وشيعتها دون أن تذرف دمعة واحدة.

ومنذ بداية حلقاتها الأولي تميزت الثورة البرجوازية في مصر بطابع خاص، إذا كانت دائما قصيرة النفس في عدائها للاستعمار، وفي حدتها للمطالبة بالسوق،وهو الأمـر الـذي أختزل الطابع الحاد لحركة الجماهير الشعبية فـي النضـال الوطني، بل أن الرغبة في إختزال هذا الطابع العنيف، كانت سبباً ثانيا لقصر نفس البرجوازية التي كانت تسـارع دائمـا لحل تناقضها مع الاستعمار، حرصاً علي مكاسبها، ورغبـة في طرد الجماهير الشعبية من الحلبة، خوفاً من أسد ينطلـق

من قمقم ولا يعود إليه، إذ ظـل طـويلاً مطلـق السـراح، والنتيجة الطبيعية لهذا الموقف المعقد أن الطبقات الشعبية قد قدمت نفسها وقوداً للثورة البرجوازية، وخرجت من المعركة بأدني المكاسب. وبينما شهدت ثورات أوروبا البرجوازية مداً ديمقراطياً جارفاً، علي عهد صعود البرجوازية للسطلة مكن الطبقات الشعبية من الحصول علي حقوق ديمقراطي، أهمها حق التنظيم المستقل إقتصادياً وسياسياً، ثمناً متواضعاً- ولكنه هام – لدمائها التي كانت وقود الثورة، ولتضـحياتها التـي كانت السلم الذي صعدت فوقه البرجوازية الي السلطة، بينما حدث هذا في أوروبا، فإن ما حدث في مصـر كـان شـيئاً مختلفاً، إذ لم تحصل الطبقات الشعبية علي ثمن يتناسب مـع تضحياتها، فظل حق التنظيم النقابي غير معترف به ألي عام ١٩٤٣، ورفض حق التنظيم السياسي بشراسة فائقـة عنـد صياغة دستور ١٩٢٣ بالإضافات الغريبة التي ألحقت بحجز مواد حرية الصحافة والاجتماع والتي تصادر هـذا الحـق حرصاً علي ما سمي ب (وقاية النظام الاجتماعي)!!.

وإذن فإن إخـلاص البرجوازيـة المصـرية لقضـية الديمقراطية- في مفهومها المثالي الذي تصوغه الفرضـيات

الليبرالية- مشكوك فيه منذ ميلادها وليس بعد نموها، ذلك أن الثورات البرجوازية التقليدية – أوروبا – لم تصل إلي التنكر لليبرالية، إلا في مراحل تالية لصعودها وتمكنهـا ونموهـا، وبرغم أن الواقع الاجتماعي والسياسي في مصر، قد فرض شيئاً مختلفاً نتيجة للتآمر الإستعماري الرجعي الـذي حـاول باستمرار إقصاء الشرائح الأكثر وطنية وليبراليه – والتـي تمثلت سياسياً في حزب (الوفد) – عن السلطة، الأمر الـذي أتاح للجماهير الشعبية حرية أكثر للحركة في ظل التحـالف مع هذه الشرائح، إلا أن هذا التحالف ظل ذيلية مستمرة نتيجة لأن الطبقات الشعبية لم تنفصل بكيانات سياسية مستقلة.

ولأن ما يهم البرجوازية أصلاً من الحريات الليبراليـة هو حرية التملك والإسـتثمار، فـإن سـقوط كـل الأبنيـة الديمقراطية التقليدية في مصر عام ١٩٥٤ لم يزعجها، بـل ارتاحت له كل الإرتياح، فهو لـم يهـدد علاقـات الإنتـاج الرأسمالية، بل كان حافزاً لنموها بـالهجوم علـي عـدوين شرسين لها أقواهما بقايا العلاقات الإقطاعيه التي كانت تحول دون نسيان رأس المال في الاستغلال الصناعي، وأخطرهما تمردات الطبقات الشعبية التي كانت تحاول انتزاع حقوقهـا

الديمقراطية. وتواكب مع هذه التصفية للديمقراطية السياسية، خطوة علي طريق تصفية وتحكم علاقات الانتاج الإقطاعيـة بقانون الأصلاح الزراعي الأول الذي لم يتح فحسب للشرائح الصناعية من البرجوازية أن تجر الفائض من الريع الزراعي إلي الاستثمار في الصناعة – وهو ماكان اتحاد الصـناعات يلح عليه أحاً شديداً في الأعوام السابقة علي الثورة- ولكنـه أتاح أيضا التوسع في قاعدة مستهلكي الإنتـاج الرأسـمالي وبشر بتوسع وإزدهار مستهلكي الإنتاج الرأسـمالي وبشـر بتوسع وازدهار وأبعد شبح الفقر وما يستتبعه مـن دعـوات (للهدم).

وعلي عكس تساهلها وارتياحها للتخاص مـن الأبنيـة الديمقراطية في السياسة، فإن البرجوازية كانت شديدة التنمر والحساسية تجاه أي محاولة للتدخل في حرية الإستثمار حتي ولو كان ذلك لصالحها، ففي عـام ١٩٥٤ صـدر الكتـاب السنوي لأتحاد الصناعات معبراً عن رؤي مثل هـذه، فقـد طالب بزيادة الرسوم علي الواردات وتخفيض الضرائب علي الإنتاج الصناعي، وشكا من نقص القوة الشـرائية، وطلـب بإعادة النظر في التشريعات القائمة لتهيئـة الجـو الصـالح

للإستثمار الفردي وتخفيض أسعار الخامـات، وشـكا مـن (التفاوت العريض بين نمو الإستثمار وزيادة السكان) ورحب بإتجاه الحكومة لرصد ٣٥ مليوناً من الجنيهات للقيام ببعض المشروعات الإستثمارية الجديدة، ونصح بالعمل علي ترغب الأفراد، وهم في رأيه الذين يملكون مفتاح الموقف في إقتفاء أثرها. ويرغم أن هذه الطلبات كلها كانت محاولة الجر الدولة لدعم الإستغلال الرأسمالي، فإن (نشرة البنك الأهلي) عبرت عن قلق شديد من دعوة الحكومـة للتـدخل فـي الحريـة الإقتصادية،وعلقت علي ذلك قائلة (هذا أمر يدعو للرثاء حقاً، فلو كان رجال الصناعة يفضلون العيش في جو من الرعاية الحكومية المستمرة – كما تعيش النباتات غير الإقليمية فـي بيوت من الزجاج – فإن من الصعب أن يتكهن المرء متـي سيتاح للصناعة أن تواجه الظروف التي تعيش فيها الصناعة أن تواجة الظروف التي تعيش فيهاالصناعة الفردية الحـرة) (المجلد ٧- العدد الأول – ١٩٥٤- ص ٣،٤).

فيما تلا ذلك من سنوات، وخاصة في أعقـاب حـرب السويس، كانت الحريات الديمقراطية علي الأسس الليبراليـة تتعرض لتعديل يتنافي مع هذه الأسس، فقـد انتهـت فتـرة

الأنتقال بصيغة سياسية لا تنتمي في شئ إلي الليبرالية، ومع ذلك فإن البرجوازية لم تعترض ولم تضق، كان كل همها هو الحصول علي ثمار الحرب لحسابها فعندما مصرت البنـوك الأجنبية والاسـتثمارات الإنجليزيـة والفرنسـية وأنشـئت المؤسسة الإقتصادية ألحت البرجوازية في المطالبـة بنقـل ملكية الأجانب إليها بدلا من نقلها إلي ملكية الدولة ممثلة في هذه المؤسسة، وهو ما دفع المشرفين عليها إلي التصريح بأن المؤسسة لا تنوى أن تستمر ولكنها تدير مشروعات اقتصادية إدارة رشيدة وبشكل مؤقت وسجلت نشرة بنك مصر بارتياح أن (المؤسسة لن تحتفظ بأسهم الشركات التي تؤسسـها بـل بمجرد تيسير سبل النجاح لها تطرح أسهمها للبيع في السوق) (السنة الثانية – العدد ١ – مارس ١٩٥٧-ص ٨).

كانت البرجوازية تنو بـلا ليبراليـة سياسـة، دون أن تضيق أو تشكو مما تصفه اليوم بأنـه كـان مرحلـة ظلـم وإظلام، وبسبب ظروف نشأتها المحاصرة لجأت إلـي أقـل المجالات تعرضاً للأخطار كالتجارة ولمقاولات والإسـكان، وبرغم ذلك إزداد نصيب الرأسمالية الكبيرة مـن الفـائض الإقتصادي، فارتفع نصيبها من إجمالي القيمة المضافة فـي

الصناعة من ٥٧% عام ١٩٥٢ إلي ٦٣% عام ١٩٥٦ إلـي ٦٧% ما قيمته ٤٤,٢ مليون جنيه بمعدل ٣٥% مـن رأس المال.

ويبدو أن كان ضرورياً في تلك الفترة نمو البرجوازيـة أن تنمو بلا هذه الليبرالية، وعلي العكس مما يرجونه بإلحاح مرضي هذه الأيام فإن منظري البرجوازية هم الذين صاغوا الأسس العامة لنظرية الحريات كما هي فاعلة إلـي لحظتنـا الراهنة وقدموها لبقية اطبقات موشاة بمنطق محكـم ولكنـه مزيف، فإذا كان ما مضي ظلماً وظلاماً فإن الضحية بالقطع لم تكن البرجوازية، كما أنه الجاني بالتأكيد لم يكن جمـاهير الشعب!.

إيديلوجية الكل في واحد:

وجوهر نظرية الحريات الديمقراطيـة كمـا صـاغتها البرجوازية المصرية في حلقتها التي ما زالت ممتدة، هو نفي قوانين التناقض الإجتماعي والسعي إلي عالم من الوحـدة لا يختلف في بنائه عن عالم الوحده اللآهوتي، ولا جدال في أن هذه النظرية كانت الوحيدة التي تحقق للبرجوازية المصـرية في الخمسينات والستينيات مصالحها، فقد كان علي الشـرائح

الصناعية من هذه البرجوازية – وهي قلب الطبقة المحرك – أن تشق الطريق للطبقة ككل وسط نوعين من الأشواك: تلك التي يلقيها أعداؤها من الإمبرياليين في سبيلها بجهدهم المستمر للعودة بالسوق المصرية إلي أسار التبعية، وتلك التي تنبتها الاشتراكية العالمية في قلوب أعدائها الطبقيين.

في هذا المناخ القاسي شقت البرجوازية المصرية طريقها بسلاحها الجديد والجيد حقاً، وبإقتدار يدعو للعجب والإعجاب عملت بدأب علي إلغاء فاعلية الصراع الطبقي، وذلك بأغراق الشرائح الاجتماعية التي يهمها هذا القانون في طوفان يفقدها الوعي به. ولأن هذا القانون ليس قانوناً طبيعياً فإن الوعي به هو العامل الحاسم في تحقيق فاعليته، وإغراق أصحاب المصلحة في تحقيقة تحت ركام من الاجتهاد العقلي الشبيه بعمليات غسل المخ، كفيل بتعطيل فاعليته![1].

(١) في الفترة بين إعتراض الرقابة علي هذا المقال ونشره في الكاتب، نشر في جريدة (بيروت) البيروتية، علي سبعة مقالات، بدأت في ١٩ مايو ١٩٧٤، وكان النص المنشور في (بيروت) أحد موضوعات التحقيقي معي ، ضمن أول وجبة من الصحفيين المقيمين في الداخل، تقدم للتحقيق أمام المدعي

الإشتراكي وقد سألني المحقق – وهو الأستاذ محمـد توفيـق الحداد- حول هذه الفقرة ، قائلاً. :

- هل تعتقد أن إركاء الوعي بقانون الصراع الطبقـي بـين طبقات المجتمع المصري ضروري لتحقيق الإشتراكية؟

وقد أجبته: الدستور القائم والقانون، يحددان حقوقاً وواجبات للمواطن المصري، والدفاع عن المصالح الطبقية حق من حقوق هذا المواطن بموجب الدستور، ومعترف بهـا قانونيـاً، والقـول بالوعي يعني حرية التعبير الديمقراطي السلمي عن مصالح كـل الأفراد، وكل الطبقات.

وعاد المحقق ليسألني: هل تحقيق الإشتراكية الوارد الإشارة إليها في مقالك يستتبع قيام صراع طبقي وجدل إجتماعي؟.

وقد أجبته : الخط العام للمقال، لا يتحدث في الواقـع عـن تحقيق الإشتراكية، ولكن عن الديمقراطيـة ، ويعتبرهـا شـرطاً أساسياً لأي تقدم في مصر).

وكنت قد إعترضت في بداية التحقيق ، علي ما يسمي ببدعة التحقيق السياسي، التي كانـت أسـاس تحويلنـا إلـي المـدعي الإشتراكي. وأعلنت أن أي تحقيق – هو أستجواب، والإسـتجواب هو إتهام ، وعلي ذلك فلن أجيب إلا علي الوقائع التـي تسـتخدم للتدليل علي أن هناك تهمه ما ، وقد أربك هذا المحقق، الذي كـان قد أعد أسئلته، بحيث تتضمن إستفهاما حـول عقيـدتي الفكريـة، وآرائي السياسية. ودارت بيننا محاورة مجهدة ، ظللـت مصـراً

خلالها علي موقفي ، وهو ألا أجيب علي أي سؤال بشأن آرائـي ومعتقداتي، لأن ذلك يعني قبولي لمبدأ أرفضـه، وأهـدار الحـق دستوري أتمسك به، هو حقي في أن أعتقد ماأشاء وأتبني ما يعـن لي من آراء وكان المحقق متعاطفاً مع وجهة نظري،ولكنـه كـان مقيداً بالتوجيهات العامة التي حددها جهاز المدعي العام الإشتراكي معنا، وكنا سبعة صحفيين وكتاب هم (محمد حسنين هيكل ومحمد سيد أحمد وأحمد حمروش وصلاح عيسي وأحمد فؤاد نجم وفريدة النقاش وحسين فهمي) ، وقد اضطر المحقق لتأجيل التحقيق معي إلي اليوم التالي (١٩٧٨/٦/٢٧)، حيث حاول، أن يستخدم فقرات من المقالات التي قدمتها أجهزة الأمن كأدلة إتهام ، لكي يقـودني إلي إجابة علي اسئلته عن معتقداتي وآرائي. وقد وجدت أنني قلت في محضر التحقيق معي إستطراداً في الإجابة التي ذكرتها آنفـاً، ما يلي بالنص، (وأنا ملتزم بعدم الإجابة في أس إستجواب علي أية أسئلة تتعلق برأي السياسي أو عقيدتي ... وإنما أرد علي وقـائع معينة).. وأذكر أن المحقق حاول أن يستفزني فذكر لـي أن كـل الذين مثلوا للتحقيق معه، قد أجابوا علي الأسـئلة، ولـم يقـدموا إعتراضاً كالذي قدمته ، وإنهم كانوا شجعانا في الدفاع عن آرائهم ، وقد أجبته بإقتضاب: كل شيخ وله طريقة. وحين قال لي علـي سبيل المناوشة: إلا تدعو أحد لارائك؟ هـل تـرفض أن تقنعنـي بصوابها وأن تناقشني فيها. قلت له: لو أغلقت محضرك السمي... وقبلت دعوتي إلي فنجان قهوة علي المقهي المواجه لمكتبك، فـإن

وكمجرد أمثلة يمكننا أن نرصد مجموعة مـن الأفكـار وأشكال التنظيم والممارسات التي حققت بها البرجوازية هذا الهدف فيما يلي:

*فهناك من الأفكار ذلك الحرص علي معاينة الغرائـز الفطرية للطبقات المستغلة – بفتح الغين- وأضـفاء هـالات القداسة علي هذه الغرائز. أن الوطن مثلاً يتحول إلي مفهوم مجرد تماماً، فالمصرية أو العروبة، وثن يستلب من الإنسان أي قدرة علي مناقشة أوضاعه- إن عليه بحسـب المفهـوم البرجوازي الذي يقدم له – أن يغترب في هذا الوطن، ومـن هنا أصبحت المطالب الطبقية من المحرمات علي المستغلين بينما كان الذين يستغلونهم لا يتلزمون بهذا القيد. وإنسـحبت هذه القداسة علي حائزي الأدوار السياسية، فعلي الرغم مـن أن قليلاً منهم من يجئ بإختيار شعبي، فإن معاونيهم يزعمون لأنفسهم تمثيل الثقة الجماهيرية، ومنظريهم يزعمـون أنهـم

باستطاعتي أن أناقشك في كل شئ.. ولكن المشكلة أنك تستجوبني أي تتهمني، وأنا لا أقبل أن تكون آرائي أو معتقـداتي موضـوع اتهام، لأنني اتمسك بالنص الدستوري، الذي يصون حرية الـرأي والعقيدة ويكفلها لكل المصريين.

يعبرون عن رأي الشعب، ويفترض هؤلاء وأولئك بأن من لا يرضي عنهم أو ينقدهم هو خائن للوطن.

* والبناء العام للمجتمع يقوم علـي افتـراض وحـده متعسفة تمثل انتكاسة للأفكار الليبرالية ولا تنتقل بالقطع إلـي الأوضاع التي تهيئها الأفكار المناقضـة لليبراليـة أو التـي تتجاوزها من أمامها، فالسلطات الثلاث التي يقول بها الفكـر الليبرالي – التنفيذية والتشريعية والقضائية – تندمج في مقولة لويس السادس عشر (أنا الدولة). وكل الطبقات تصبح طبقـة واحدة، وكل الأفكار تصبح فكرة واحدة. وكـل المنظمـات الجماهيرية تصبح منظمة واحدة. وهذا العـالم المتوحـد، لا يتواحد علي أساس برنامج متفق عليه، أو حد أدني مشـترك للعمل، ولكنه يلتحم إعتسافاً علي قاعدة نفي الطبقات الأخري لتصبح البرجوازية هي التي فوضت للتعبيـر عـن الكـل، ويصبح فكرها التلفيقي هو إيديولوجية الجميع. وبحذق شديد رسمت الخطط ليتحول التحالف بين الطبقات حـول هـدف العداء للإستعمار واستقلال السوق عن أي تبعية، إلي ذيليـة مستمرة تتجاوز اللقاء حول هدف واحد ومؤقت إلـي تبعيـة دائمة وحول كل الأهداف من منظور أهـداف البرجوازيـة،

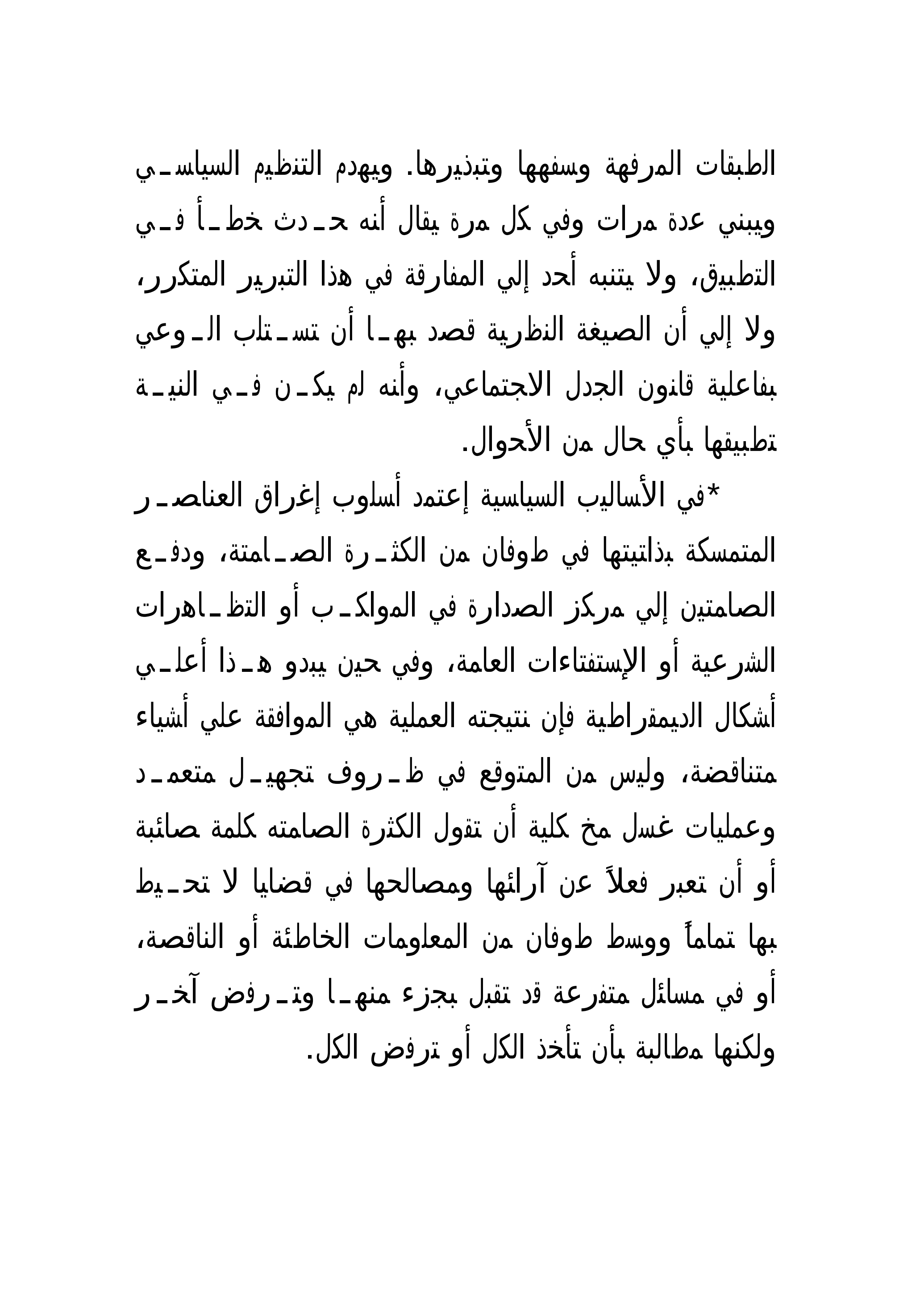
لذلك تزايد الإلحاح ليفقد كل إنسان هويته الذاتية والطبقيـة، ويغترب إلي أفكار كلية كالقومية العربية أو الوطن. وتحددت المواقف من تيارات الفكر حسب مصالح البرجوازيـة، فـي أواخر الخمسينات إنطلق منظورها – الديمقراطيون بشدة هذه الأيام!! – يهجمون علي اليسار وهم فخـورون بيمينيـتهم، يزدرون اليسارية كل الازدراء ويفتـرون عليهـا بجهلهـم وجاهليتهم، وفي أوساط الستينيات خلعوا ببسـاطة أرديـتهم اليمينية وداروا أسولهم مؤكدين أنهم يسـاريون مـن نسـل يساريين وأن جدهم الأعلي كان ماركس. وتحـدث مفكـرو اليسار – بسطحية نادرة – عن تأميم الصراع الطبقي، وعن تحقيق الإشتراكية لا بفعل قوانين الجدل الإجتماعي ولكن عن طريق الإلهام التي يهبط علي القمة فيحل كل شئ، وتبـادلوا القبلات مع جلاديهم، وكرز الإثنان عالم غياب الحدود بـين الأشياء. عالم الكل في واحد. الواحد هنا هو البرجوازية!.

*بمقتضي قوانين هذا العالم فإن المنظمات السياسية لـم تعد منابر لتجميع طبقي أو فكري، ولكن مباني فخمة فقط، لا ينضم إليها الراغبون في العمل العام، ولكن الموظفين الـذين يخشون من تأخير علاواتهم، ويفخر محافظ سـابق لإحـدي

محافظات وسط الدلتا أنه ضم إلي تنظيم ما، أكبر عدد ممـن إنضموا إليه في محافظات القطر الأخرى (١) إنها منظمات لإلغاء الهوية، فعلي كل من له (ذات) سياسية أن يلم بطاقتـه للبواب ثم ينصرف إلي منزله، وكل المنظمات الجماهيريـة تابعة لمنظمة أم بناؤها يقوم نظرياً علي التحالف بين طبقات، لكن ليس من حق أي فئة أو كيان اجتماعي متميز أن يناقش حلفاءه فيما يتخذونه ضده من إجراءات تضر مصـالحه، إذا المفروض إلا تكون له مصالح أبداً. فالتفكير في المصالح هو قصر نظر وتدن خلقي من الشعب وانهيار في الوعي وعـدم تقرير لمصالح الوطن العليا التي لا تتضـرر أبـداً بتخمـة

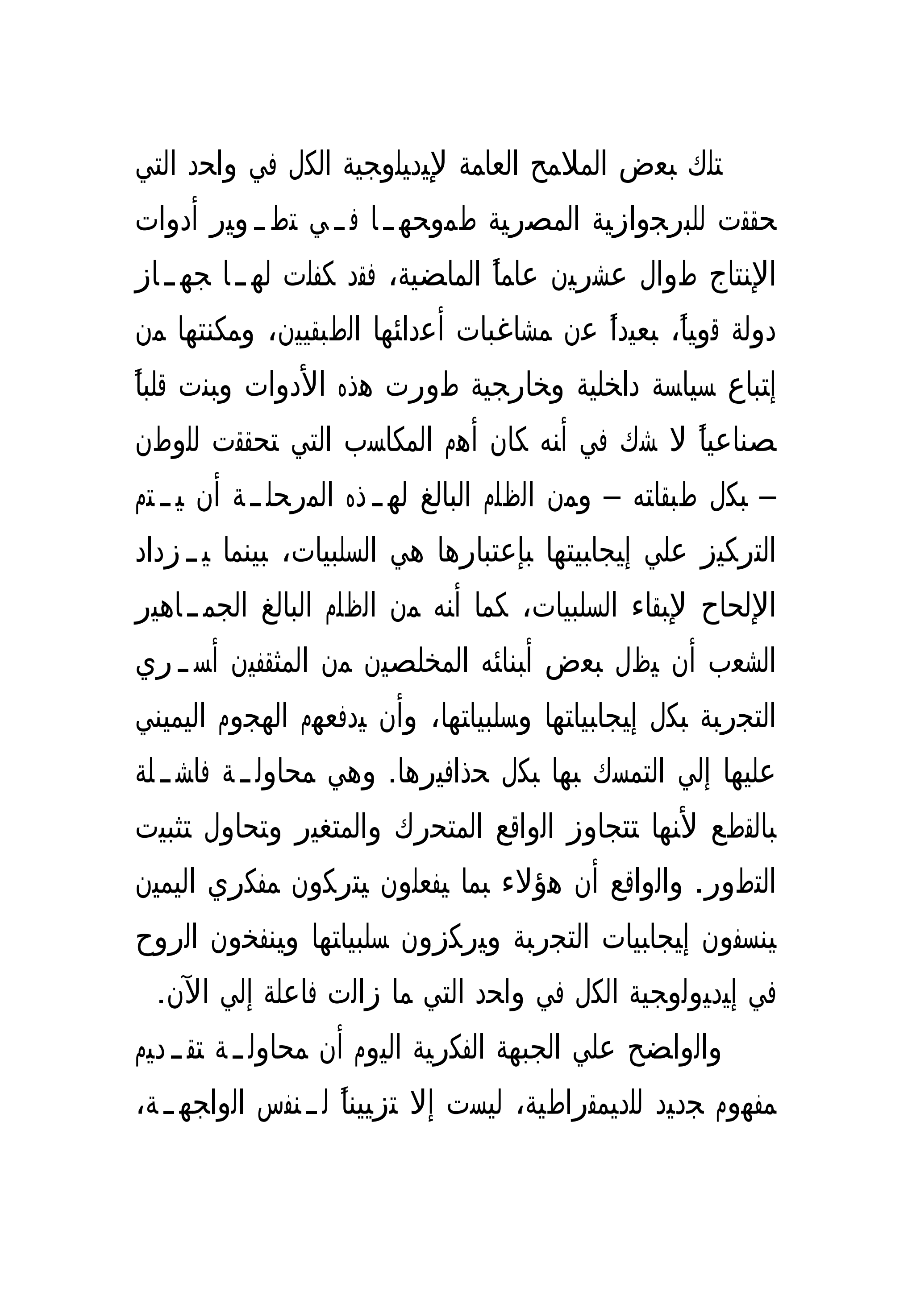
---

(١) هو (إسماعيل فريد) محافظ الدقهلية في فترة تأسيس الإتحـاد الإشتراكي العربي ١٩٦٣، وقد ضم إليه أكبر عدد من الأعضاء فـي بقية محافظات الجمهورية. إذا كان يحصل إشتراكات الإتحـاد، مـن الفلاحين نظير إنهاء معاملاتهم مع الجمعيات التعاونية الزراعية. كمـا كلف وعاظ المساجد لمديريات الأوقاف، بتحصيل الإشـتراكات ممـن يتلقون هذا الوعظ، من الفلاحين والفلاحات، الـذين كـانوا يـدافعون إشتراكات الإتحاد الإشتراكي ويبصمون علي إستمارة العضوية، ظنـاً منهم، أن الواعظ يجمع تبرعات لبناء مساجد وزوايا وتقديم مسـاعدات للفقراء.!

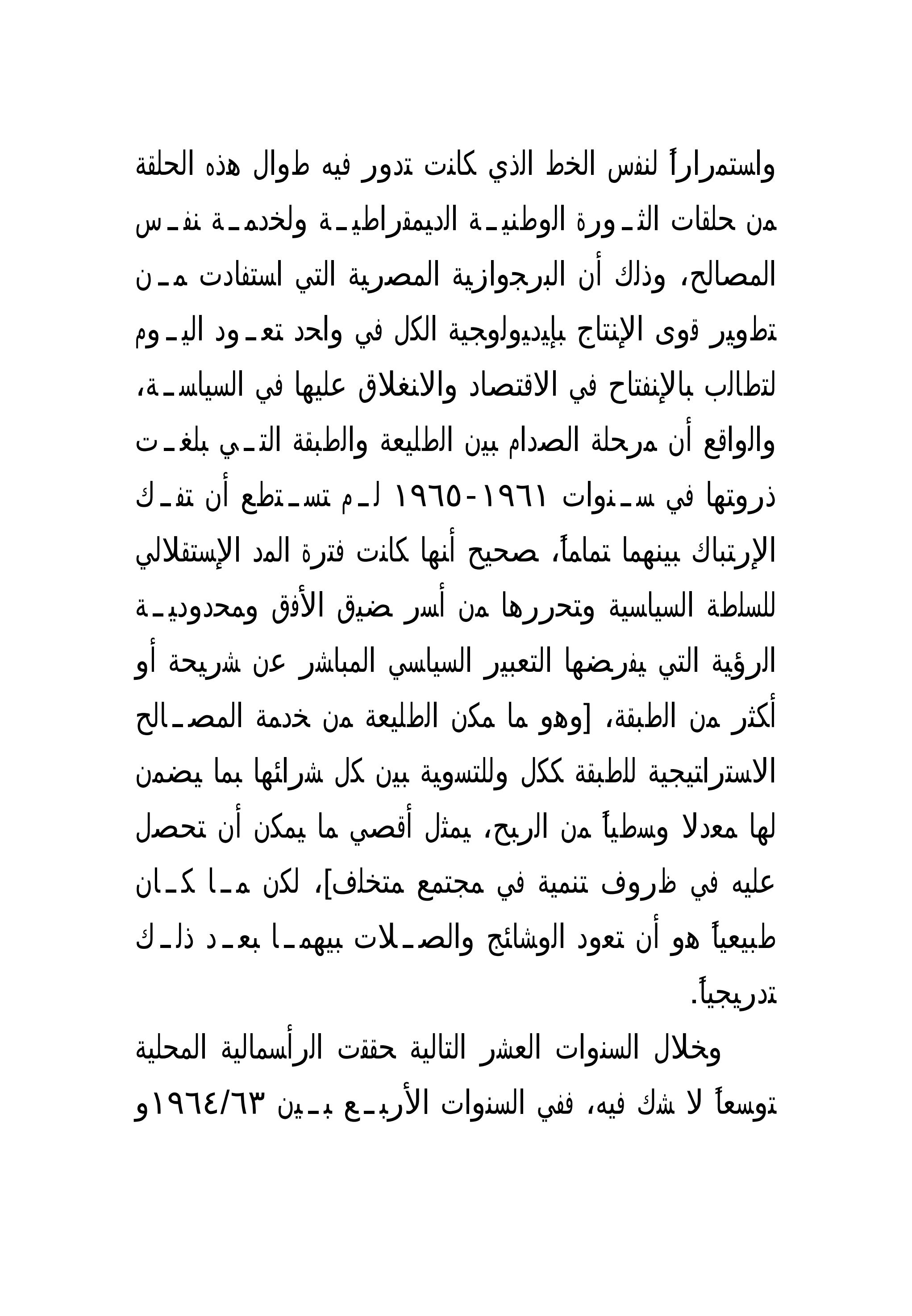


الطبقات المرفهة وسفهها وتبذيرها. ويهدم التنظيم السياسـي ويبني عدة مرات وفي كل مرة يقال أنه حـدث خطـأ فـي التطبيق، ولا يتنبه أحد إلي المفارقة في هذا التبرير المتكرر، ولا إلي أن الصيغة النظرية قصد بهـا أن تسـتلب الـوعي بفاعلية قانون الجدل الاجتماعي، وأنه لم يكـن فـي النيـة تطبيقها بأي حال من الأحوال.

*في الأساليب السياسية إعتمد أسلوب إغراق العناصـر المتمسكة بذاتيتها في طوفان من الكثـرة الصـامتة، ودفـع الصامتين إلي مركز الصدارة في المواكـب أو التظـاهرات الشرعية أو الإستفتاءات العامة، وفي حين يبدو هـذا أعلـي أشكال الديمقراطية فإن نتيجته العملية هي الموافقة علي أشياء متناقضة، وليس من المتوقع في ظـروف تجهيـل متعمـد وعمليات غسل مخ كلية أن تقول الكثرة الصامته كلمة صائبة أو أن تعبر فعلاً عن آرائها ومصالحها في قضايا لا تحـيط بها تماماً ووسط طوفان من المعلومات الخاطئة أو الناقصة، أو في مسائل متفرعة قد تقبل بجزء منهـا وتـرفض آخـر ولكنها مطالبة بأن تأخذ الكل أو ترفض الكل.


تلك بعض الملامح العامة لإيديلوجية الكل في واحد التي حققت للبرجوازية المصرية طموحهـا فـي تطـوير أدوات الإنتاج طوال عشرين عاماً الماضية، فقد كفلت لهـا جهـاز دولة قوياً، بعيداً عن مشاغبات أعدائها الطبقيين، ومكنتها من إتباع سياسة داخلية وخارجية طورت هذه الأدوات وبنت قلباً صناعياً لا شك في أنه كان أهم المكاسب التي تحققت للوطن – بكل طبقاته – ومن الظلم البالغ لهـذه المرحلـة أن يـتم التركيز علي إيجابيتها بإعتبارها هي السلبيات، بينما يـزداد الإلحاح لإبقاء السلبيات، كما أنه من الظلم البالغ الجمـاهير الشعب أن يظل بعض أبنائه المخلصين من المثقفين أسـري التجربة بكل إيجابياتها وسلبياتها، وأن يدفعهم الهجوم اليميني عليها إلي التمسك بها بكل حذافيرها. وهي محاولـة فاشـلة بالقطع لأنها تتجاوز الواقع المتحرك والمتغير وتحاول تثبيت التطور. والواقع أن هؤلاء بما يفعلون يتركون مفكري اليمين ينسفون إيجابيات التجربة ويركزون سلبياتها وينفخون الروح في إيديولوجية الكل في واحد التي ما زالت فاعلة إلي الآن.

والواضح علي الجبهة الفكرية اليوم أن محاولـة تقـديم مفهوم جديد للديمقراطية، ليست إلا تزييناً لـنفس الواجهـة،

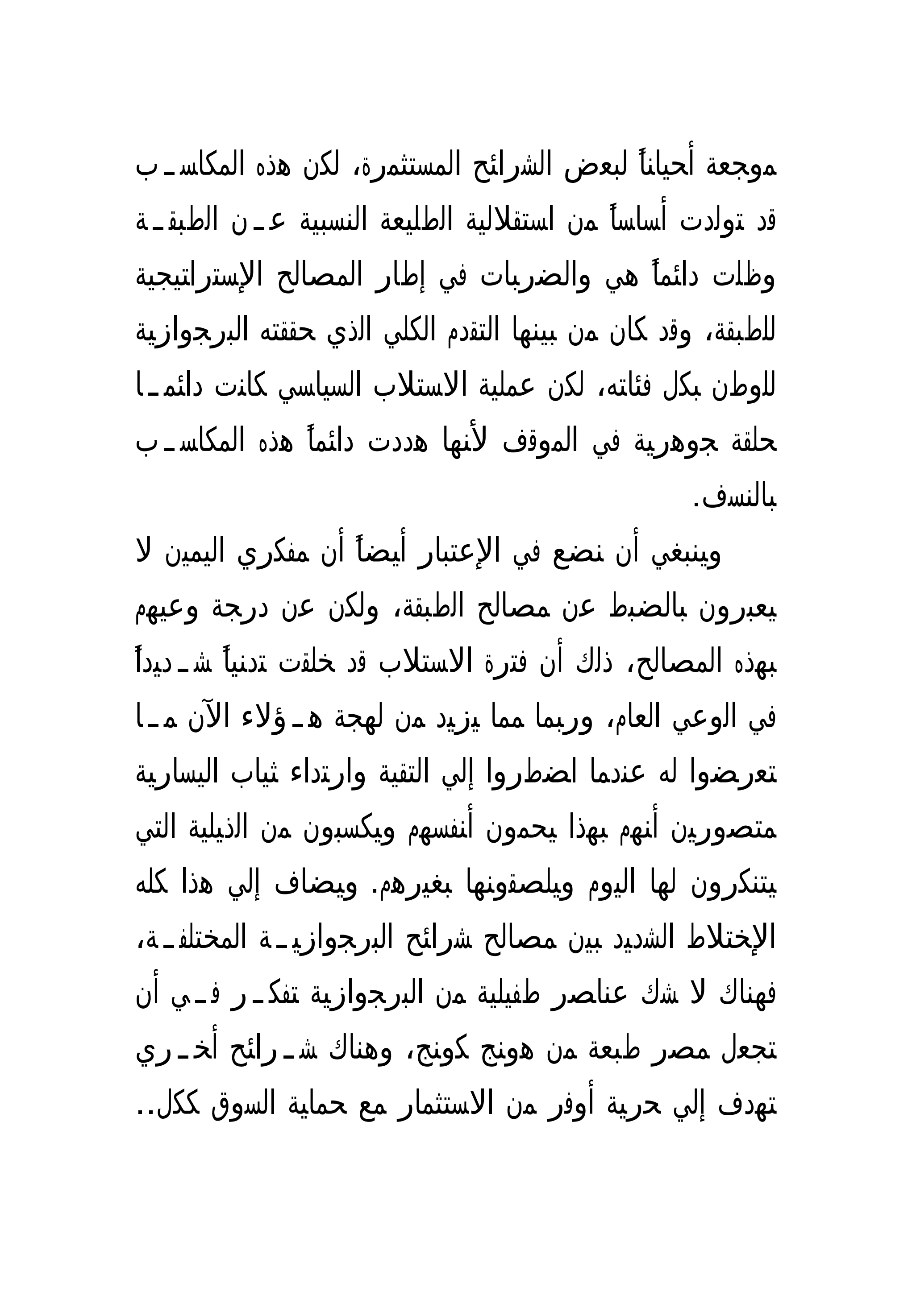


واستمراراً لنفس الخط الذي كانت تدور فيه طوال هذه الحلقة من حلقات الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة ولخدمـة نفـس المصالح، وذلك أن البرجوازية المصرية التي استفادت مـن تطوير قوى الإنتاج بإيديولوجية الكل في واحد تعـود اليـوم لتطالب بالإنفتاح في الاقتصاد والانغلاق عليها في السياسـة، والواقع أن مرحلة الصدام بين الطليعة والطبقة التـي بلغـت ذروتها في سـنوات ١٩٦١-١٩٦٥ لـم تسـتطع أن تفـك الإرتباك بينهما تماماً، صحيح أنها كانت فترة المد الإستقلالي للسلطة السياسية وتحررها من أسر ضيق الأفق ومحدوديـة الرؤية التي يفرضها التعبير السياسي المباشر عن شريحة أو أكثر من الطبقة، [وهو ما مكن الطليعة من خدمة المصـالح الاستراتيجية للطبقة ككل وللتسوية بين كل شرائها بما يضمن لها معدلا وسطياً من الربح، يمثل أقصي ما يمكن أن تحصل عليه في ظروف تنمية في مجتمع متخلف]، لكن مـا كـان طبيعياً هو أن تعود الوشائج والصـلات بيهمـا بعـد ذلـك تدريجياً.

وخلال السنوات العشر التالية حققت الرأسمالية المحلية توسعاً لا شك فيه، ففي السنوات الأربـع بـين ١٩٦٤/٦٣و

١٩٦٧/٦٦ إرتفع إنتاج القطاع الخـاص بنسـبة ١٣٢,٤% بينما لم يرتفع معدل إنتاج القطاع العام عن ١٢١,١%، وفي السنوات الثلاث التي تلات النكسة إرتفعت نسبة الزيـادة فـي القمية المضافة في القطاع الخاص إلي ٣١٠% بينما لم تـزد القيمة المضافة للقطاع العام عن ١١٨%. وجزء من هذا كله يرتبط بعملية نزح القطاع الخاص للقطاع العام، وهـو مـا سجلته لجان تقصي الحقائق التي شـكلها مجلـس الشـعب للتحقيق في أسباب خسارة بعض الشركات الصـناعية فـي القطاع العام.

والواقع أن البرجوازية كانت تمارس عمليات اسـتلاب اقتصادية سياسية لعرق الطبقات الشعبية ولحريتها السياسـة، وهذا الاستلاب الآن يسعي لتقنين نفسه بالطرق علي أبـواب حرية الاستثمار بقوة، ولكنه فيما يبدو يصر علي عدم التخلي عن عملية الإستلاب السياسي، والنغمة السائدة علـي ألسـنة وأقلام مفكري اليمين اليوم هي محاولة وتصـوير الانتمـاء الطبقي للسلطة خلال العشرين عاماً الماضية كما لـو كـان إنتماء لهؤلاء، وصحيح أن هذه الأعوام العشرين قد قـدمت مكاسب متعددة للطبقات الشعبية، وأنهـا شـهدت ضـربات



موجعة أحياناً لبعض الشرائح المستثمرة، لكن هذه المكاسـب قد تولدت أساساً من استقلالية الطليعة النسبية عـن الطبقـة وظلت دائماً هي والضربات في إطار المصالح الإستراتيجية للطبقة، وقد كان من بينها التقدم الكلي الذي حققته البرجوازية للوطن بكل فئاته، لكن عملية الاستلاب السياسي كانت دائمـا حلقة جوهرية في الموقف لأنها هددت دائماً هذه المكاسـب بالنسف.

وينبغي أن نضع في الإعتبار أيضاً أن مفكري اليمين لا يعبرون بالضبط عن مصالح الطبقة، ولكن عن درجة وعيهم بهذه المصالح، ذلك أن فترة الاستلاب قد خلقت تدنياً شـديداً في الوعي العام، وربما مما يزيد من لهجة هـؤلاء الآن مـا تعرضوا له عندما اضطروا إلي التقية وارتداء ثياب اليسارية متصورين أنهم بهذا يحمون أنفسهم ويكسبون من الذيلية التي يتنكرون لها اليوم ويلصقونها بغيرهم. ويضاف إلي هذا كله الإختلاط الشديد بين مصالح شرائح البرجوازيـة المختلفـة، فهناك لا شك عناصر طفيلية من البرجوازية تفكـر فـي أن تجعل مصر طبعة من هونج كونج، وهناك شـرائح أخـري تهدف إلي حرية أوفر من الاستثمار مع حماية السوق ككل..

علي أن المشترك في مصالح كل الشرائح هو ذلك الإلحـاح علي إقتصاد حر بلا جدل إجتماعي.. اقتصاد حر بلا حريـة سياسية.

والإلحاح المستمر علي تصوير البرجوازية كمـا لـو كانت ضحية لتعسف العمال والفلاحين، وتصـوير اليمـين الفكري كما لو كان ضحية لليسار لا يخدم إلا هذا الهـدف، فنحن نقرأ عن ضحايا الحراسات وعن المعتقلات والسـجون والتعذيب ومحاكمات الدجوي، دون أن يتفضل أحد المتباكين علي أولاد الناس الذين فرضت عليهم الحراسة فاضطروا إلي ركوب التاكسيات وإلي التداوي في المستشفيات العامة (اقرأ الأخبار في ١٩٧٤/٣/١٠) بتذكر أو بالتذكير بالذين مـاتوا ويموتون كل يوم – طوال العشرين عاماً الماضـية – فـي المستشفيات والذين يطردون منها بلا علاج. ودون أن يذكر أحد أن الشيوعيين حوكموا أمام (الـدجوى) وحكـم علـيهم بعشرات السنوات فاستحق لذلك أيامها تحية مفكري اليمـين المتباكين اليوم علي الديمقراطية، ودون أن يـذكر أحـد أن هناك من كتاب اليسار من طردوا من أعمالهم وفصلوا منها، والغريب أن المعتقلات قد ضمت في فترة الأخوان المسلمين

والشيوعيين وعملاء الاستعمار وجواسيسه والإرهابيين وعملاء للمخابرات الإسرائيلية والمتحالفين معها، كما ضمت أيضا عدداً من أعضاء التنظيم الطليعي ونصف أعضاء اللجنه المركزية الأولي لمنظمة الشباب وأكثر من ١٥٠ من أعضائها وموجهيها، بينما كان كل هؤلاء الباكين علي الديمقراطية أحرار يأكلون ويشربون ويسكبون ويؤيدون هذا في الصحف.

ويبدو التناقض الواضح علي الجبهة الفكرية عندما نقرأ لكاتب يقول أنه (يتخيل العالم بدون طعام وشراب ولا يتخيله بدون حرية الفكر وحرية العقيدة وحرية الضمير) (التحرير – الملحق الأسبوعي لمجلة الثقافة الشهرية – ٧٤/٢/٢٢) وبعد أقل من أسبوعين يسارع نفس الكاتب ليقول عن مجلة تختلف معه في الرأي أنها (تمارس دوراً بغيضاً في إفساد حياتنا الفكرية والأدبية وتتصرف كمؤسسة سياسية مستقلة تصدر البيانات وتدين الناس، وتستخدم الفلول الباقية لمراكز القوى الغاربة التي لا تزال تتلكأ في ساحاتنا الأدبية والفكرية

(التحرير – ٨ مارس ١٩٧٤)(١) الآمال. فالذين يقفزون في الطوابير ويأكلون بالبطاقات ومات ويمـوت أبنـاؤهم فـي جبهات القتال، فعلوا ذلك من أجل كـل مـا هـو سـريالي وميتافيزيقي في العالم، لقد ماتوا في سبيل مصـر والتـراب والأرض والكرامة، وهذا صحيح تماماً ولكن مـن منظـور مختلف فالكرامة تعني بين ما تعني عدم الوقوف في الطوابير وعدم العصف بالمكاسب، والأرض غريزة حيـث تضـمن

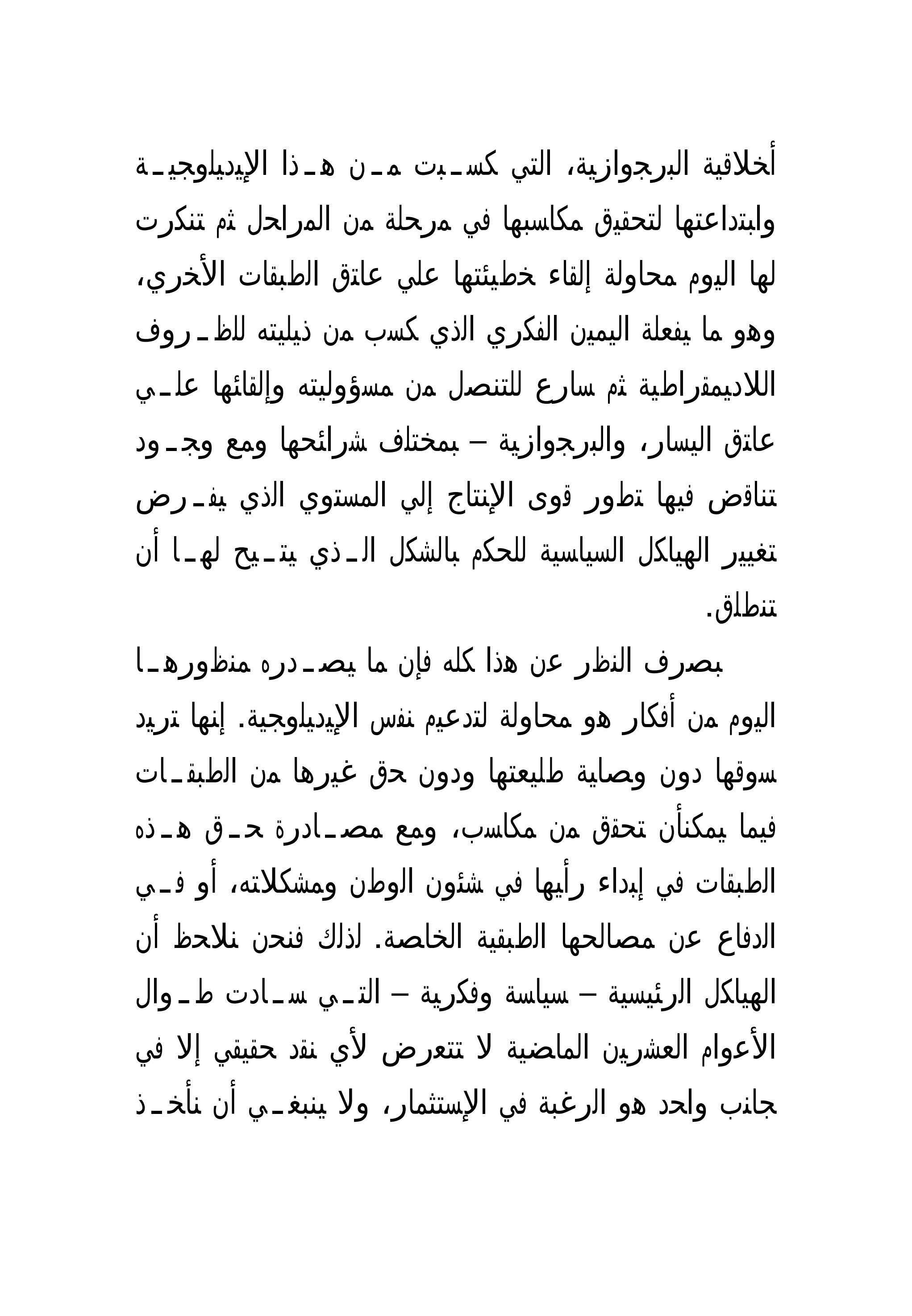
---

(١) كاتب هذين المقالين هو عبد العزيز دسوقي، الذي كان أشـبة بأركان حرب للأستاذ يوسف السباعي، وزير الثقافة آنذاك، فقـد رأس في عهده تحرير المجلة الثقافية الوحيدة التي كانت تصدرها الدولة وهي مجلة (الثقافة). وكانت (التحرير) التي نشرت هـذا الكـلام، (راجـع الفصل المعنون: صنع في حزيران – من هذا الكتاب). وكانت الإشارة إلي المجلة التي تمارس دوراً بغيضاً في أفساد الحياة الثقافية ، إشـارة إلي مجلة الكاتب ذاتها، التي كانت – كالثقافة والتحرير – تصدر عـن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وهي من الإشـارات المبكـرة، التـي أكدت بعد ذلك ضيق السباعي بوجود منير يساري يصدر عن دارالنشر المملوكه للدولة، وقد تفجرت الأزمة في العام نفسه، وبعد أحداث ١٨و ١٩ يناير ١٩٧٧، ثم إجلاء اليسار عن الصحافة المصيرية بشكل كامل ، فغيرت قيادة روز اليوسف (عبد الرحمن الشرقاوى وصلاح حـافظ) وأغلقت (الطليعة).

للإنسان نصيباً من ثروة وطنه تعادل جهده في تحقيقه، فالذين ماتوا لم يستشهدوا في سبيل مفاهيم مجردة، ولكن من أجـل آمال محددة، إن منظري البرجوازية يصدرون للشعب وطناً مجرداً وسيريالياً ويطالبون لأنفسهم بالوطن الحسـي. فعلـي الشعب أن يعيش بالبطاقات ومن حقهم أن يطالبوا بالقطـاع العام.

وحتي العدل يكال له بكيلين. ف (الإشـتراكية أعظـم وأرقي من أن يكون سلب المال أسلوباً من أساليب تطبيقهـا) (الأهرام ١٩٧٤/٢/٢٧)، ولكن أحداً لا يقول أن الرأسـمالية أرقي من أن يكون سلب العرق وحقوق العمال أسـلوباً مـن أساليب تطبيقها، لذلك يسود الإلحاح للمطالبة بإعادة الأرض اليت كانت تحت الحراسة، ومع التسليم بأن فرض الحراسات كان أسلوباً خاطئاً ولا علاقة له بالإشتراكية علي الإطـلاق، فإن المدهش أن أحداً لا يجتهد للمواءمة بين مطلـب رفـع الحراسات وبين حماية الفلاحين الذين ملكت لهـم الأرض أو الزراع التي يستأجرونها.

إن الإخلاص لقضية الديمقراطية لا يكـون بـالحرص علي إيديولوجية الكل في واحد. ويصرف النظـر عـن لا



أخلاقية البرجوازية، التي كسبت من هذا الإيديولوجية وابتداعتها لتحقيق مكاسبها في مرحلة من المراحل ثم تنكرت لها اليوم محاولة إلقاء خطيئتها علي عاتق الطبقات الأخري، وهو ما يفعلة اليمين الفكري الذي كسب من ذيليته للظروف اللاديمقراطية ثم سارع للتنصل من مسؤوليته وإلقائها علي عاتق اليسار، والبرجوازية – بمختلف شرائحها ومع وجود تناقض فيها تطور قوى الإنتاج إلي المستوي الذي يفرض تغيير الهياكل السياسية للحكم بالشكل الذي يتيح لها أن تنطلق.

بصرف النظر عن هذا كله فإن ما يصدره منظورها اليوم من أفكار هو محاولة لتدعيم نفس الإيديلوجية. إنها تريد سوقها دون وصاية طليعتها ودون حق غيرها من الطبقات فيما يمكنأن تحقق من مكاسب، ومع مصادرة حق هذه الطبقات في إبداء رأيها في شئون الوطن ومشكلاته، أو في الدفاع عن مصالحها الطبقية الخاصة. لذلك فنحن نلاحظ أن الهياكل الرئيسية – سياسة وفكرية – التي سادت طوال الأعوام العشرين الماضية لا تتعرض لأي نقد حقيقي إلا في جانب واحد هو الرغبة في الإستثمار، ولا ينبغي أن نأخذ

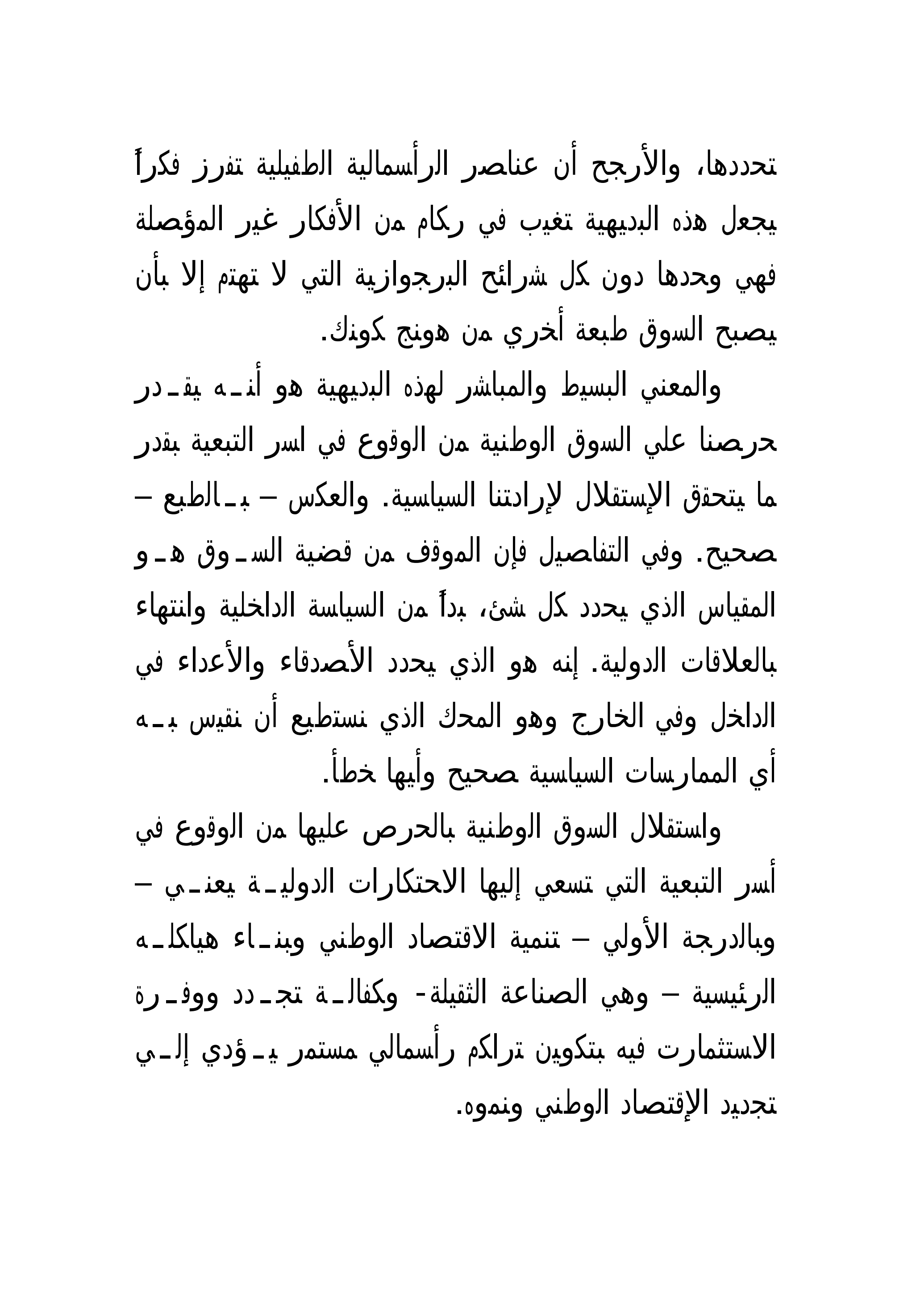
الكلام الكثير عن نقد الظروف اللاديمقراطية مأخذ الجد لأنه في جوهره تكريس لهذه الظروف.

إن الليلة أشبه بالبارحة، فالبرجوازية التي فركت يـدها سروراً قبل عشرين عاماً لأن المؤسسات الليبرالية قد سقطت فخلصتها من أعدائها الطبقيـين دون أن تمـس حقهـا فـي الإستثمار، تفرك اليوم كفيها حبـوراً مطالبـة بعـودة حـق الإستثمار دون عودة هذه المؤسسـات، وذلـك هـو مـدي إخلاصها لقضية الحرية وتلك حدود ديمقراطيتها.

فما هو المدي الذي يمكن أن تنسجم فيه هذه المطالبـة الملحة مع مصلحة الوطن العليا؟!.. بمعني آخر.. أين تلتقي هذه الرغبة مع الهدف المشـترك لكـل الطبقـات، هـدف الاستغلال الوطني؟!.

الاستقلال ليس استرداداً للأرض فقط:

إن قضية الاستقلال هي مسألة السوق بالدرجة الأولي، لكن هذه القضية البديهية لا تبدو واضحة بجلاء أمام منظري البرجوازية،وهو ما يكشف عن تدني وعيهم العام بمصـالح الطبقة التي ندبروا أنفسهم للدفاع عنها، كما أنه أيضا يكشف عن الخلط بين أفكار شرائح البرجوازيـة المختلفـة وعـدم



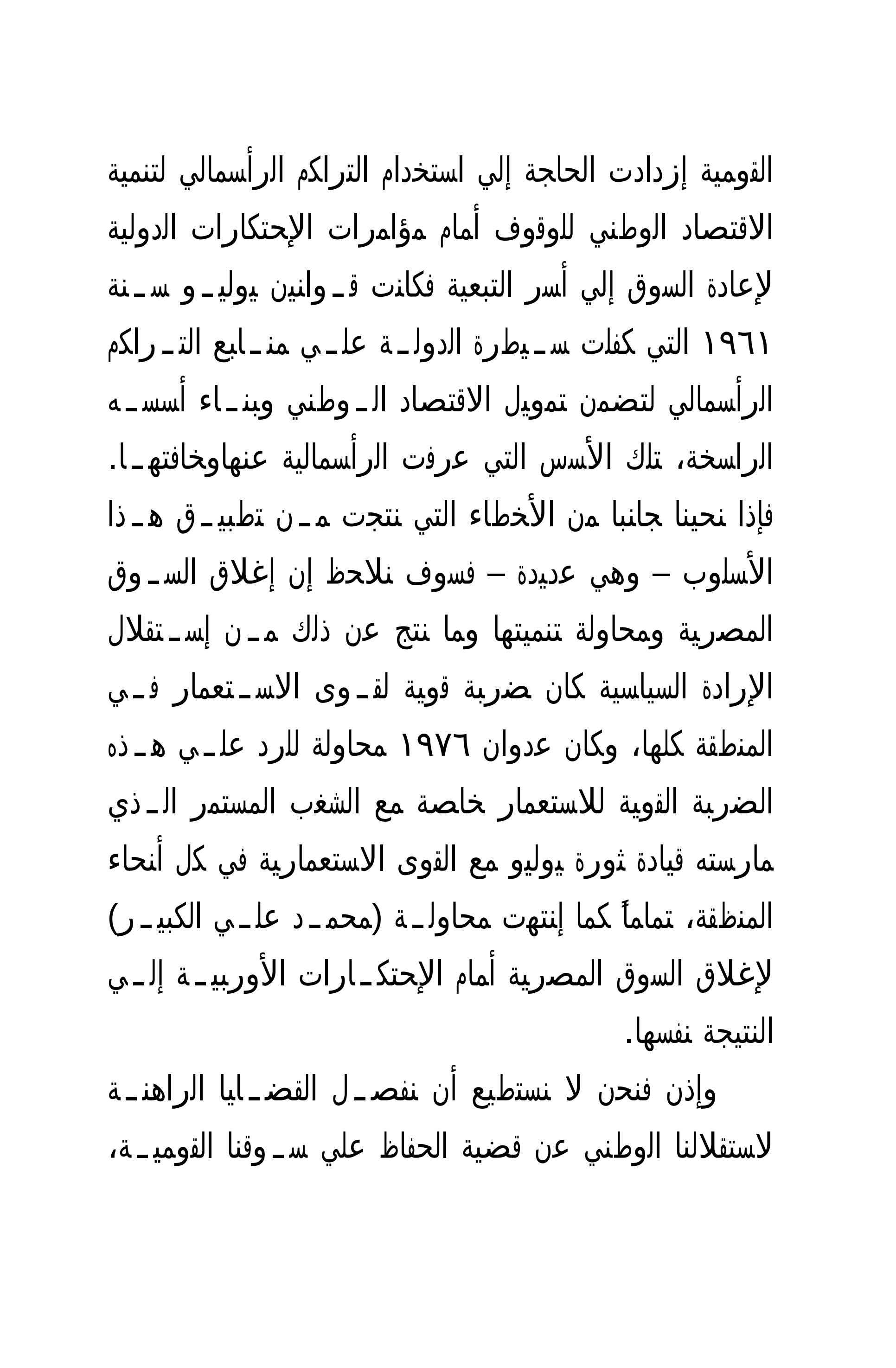
تحددها، والأرجح أن عناصر الرأسمالية الطفيلية تفرز فكراً يجعل هذه البديهية تغيب في ركام من الأفكار غير المؤصلة فهي وحدها دون كل شرائح البرجوازية التي لا تهتم إلا بأن يصبح السوق طبعة أخري من هونج كونك.

والمعني البسيط والمباشر لهذه البديهية هو أنـه يقـدر حرصنا علي السوق الوطنية من الوقوع في اسر التبعية بقدر ما يتحقق الإستقلال لإرادتنا السياسية. والعكس – بـالطبع – صحيح. وفي التفاصيل فإن الموقف من قضية السـوق هـو المقياس الذي يحدد كل شئ، بدأً من السياسة الداخلية وانتهاء بالعلاقات الدولية. إنه هو الذي يحدد الأصدقاء والأعداء في الداخل وفي الخارج وهو المحك الذي نستطيع أن نقيس بـه أي الممارسات السياسية صحيح وأيها خطأ.

واستقلال السوق الوطنية بالحرص عليها من الوقوع في أسر التبعية التي تسعي إليها الاحتكارات الدوليـة يعنـي – وبالدرجة الأولي – تنمية الاقتصاد الوطني وبنـاء هياكلـه الرئيسية – وهي الصناعة الثقيلة- وكفالـة تجـدد ووفـرة الاستثمارت فيه بتكوين تراكم رأسمالي مستمر يـؤدي إلـي تجديد الإقتصاد الوطني ونموه.

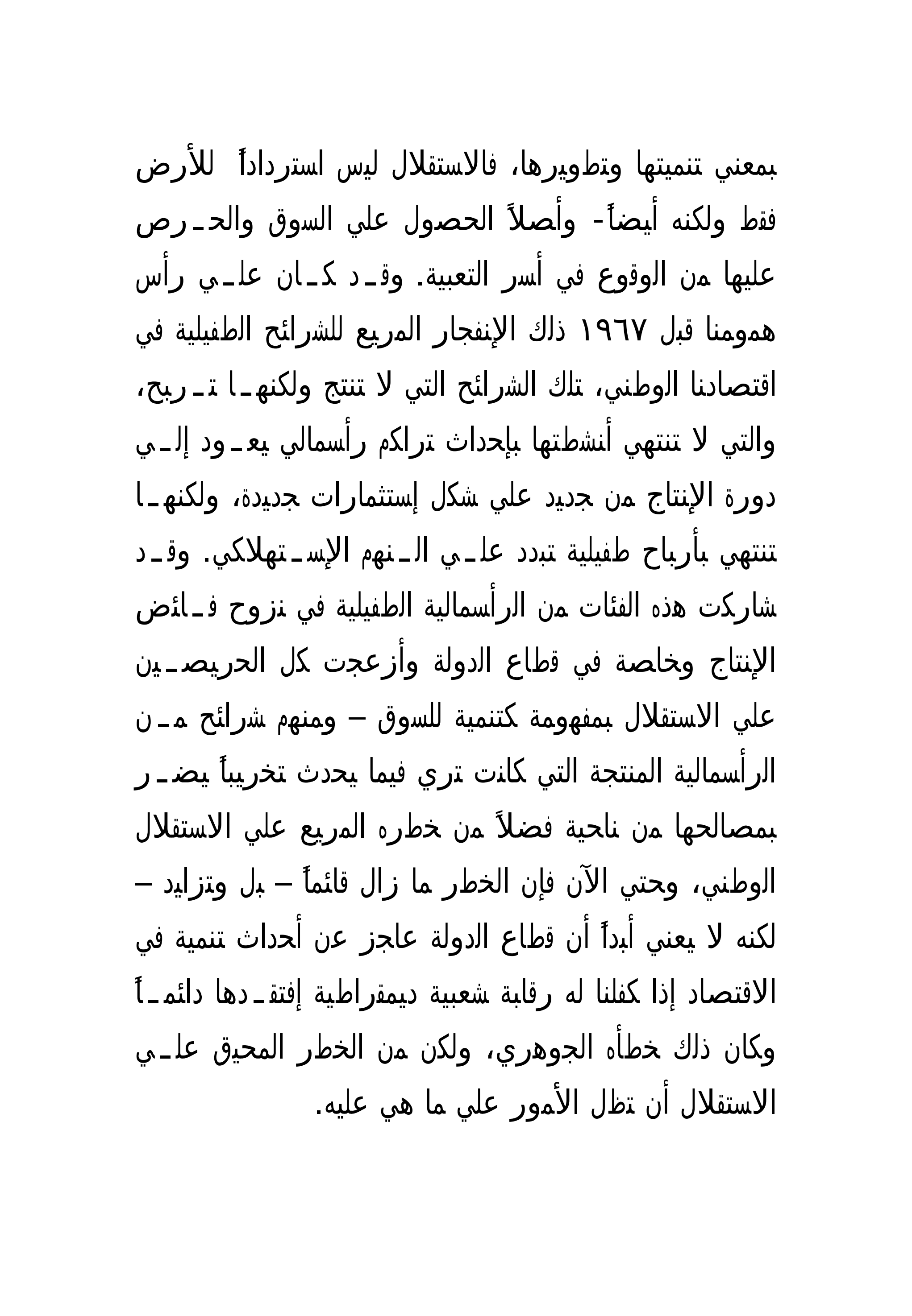
من هنا كانت مسألة السوق هي المسألة المحورية فـي قضيتنا الوطنية منذ بدايات الحركة الوطنية وما زالت كـذلك إلي الآن. فمنذ بدأ تحـول الرأسـماليات الأوروبيـة إلـي احتكارات تتلمظ وتسعي لالتهام الأسواق لتصدر إليها الفائض من رأسمالها، بدأت الشرائح الرأسمالية الوليدة فـي بلادنـا تسعي للاحتفاظ بسوقها القومية، وبـدأت الحركـة الوطنيـة تتصاعد في حلقات متتابعة مع نمو كل شريحة جديـدة مـن شرائح هذه الرأسمالية، وتبعاً لدرجات النمو كان الصراع مع الاستعمار يزداد ويتعقد في حركة لولبية ومتصاعدة وخاصة مع ميلاد ونمو الشرائح الصناعية التي تزداد رغبتهـا فـي سوقها القومية وبالتالي تزداد حدتها في المطالبة بها.

ومن المؤكد أن ثورة ٢٣ يوليو كانت في هذا الإطـار أكثر حلقات ثورتنا الوطنية، وإنها قد أنجزت في هذا الإطار ما عجزت عنه معظم الحلقات السابقة بحكم أنها كانت تعبـر عن شرائح أكثر تطوراً وبالتالي أكثر رغبه في السوق وأكثر حدة في المطالبة به، في إطار التاريخ العام والتكوين الخاص للشرائح البرجوازية التي جاءت تعبيرا عنها. وفي مرحلة ما من نضال ثورة ٢٣ يوليو من أجل الحفـاظ علـي السـوق



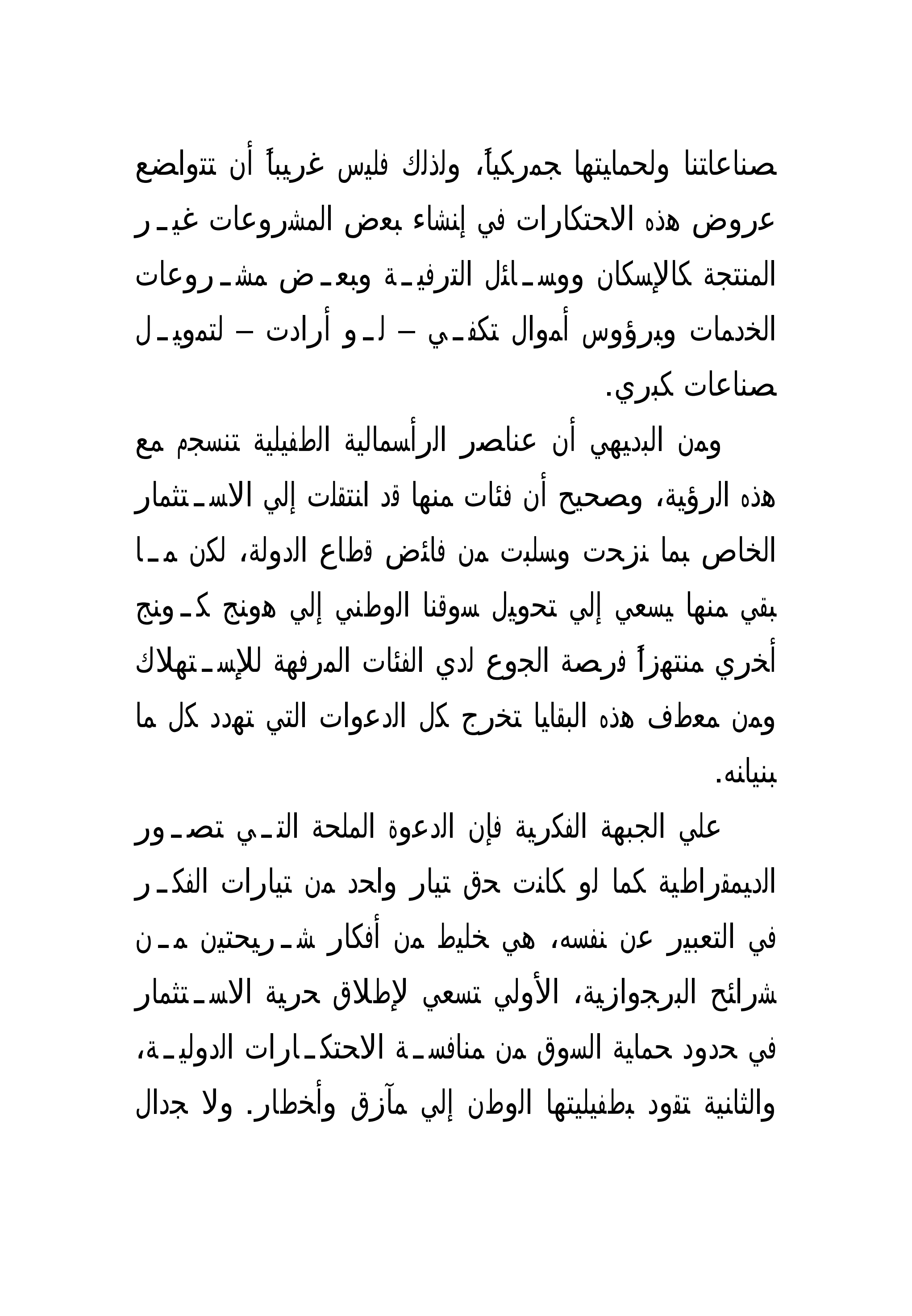
القومية إزدادت الحاجة إلي استخدام التراكم الرأسمالي لتنمية الاقتصاد الوطني للوقوف أمام مؤامرات الإحتكارات الدولية لإعادة السوق إلي أسر التبعية فكانت قـوانين يوليـو سـنة ١٩٦١ التي كفلت سـيطرة الدولـة علـي منـابع التـراكم الرأسمالي لتضمن تمويل الاقتصاد الـوطني وبنـاء أسسـه الراسخة، تلك الأسس التي عرفت الرأسمالية عنهاوخافتهـا. فإذا نحينا جانبا من الأخطاء التي نتجت مـن تطبيـق هـذا الأسلوب – وهي عديدة – فسوف نلاحظ إن إغلاق السـوق المصرية ومحاولة تنميتها وما نتج عن ذلك مـن إسـتقلال الإرادة السياسية كان ضربة قوية لقـوى الاسـتعمار فـي المنطقة كلها، وكان عدوان ١٩٧٦ محاولة للرد علـي هـذه الضربة القوية للاستعمار خاصة مع الشعب المستمر الـذي مارسته قيادة ثورة يوليو مع القوى الاستعمارية في كل أنحاء المنظقة، تماماً كما إنتهت محاولـة (محمـد علـي الكبيـر) لإغلاق السوق المصرية أمام الإحتكـارات الأوربيـة إلـي النتيجة نفسها.

وإذن فنحن لا نستطيع أن نفصـل القضـايا الراهنـة لاستقلالنا الوطني عن قضية الحفاظ علي سـوقنا القوميـة،



بمعني تنميتها وتطويرها، فالاستقلال ليس استرداداً للأرض فقط ولكنه أيضاً- وأصلاً الحصول علي السوق والحـرص عليها من الوقوع في أسر التعبية. وقـد كـان علـي رأس همومنا قبل ١٩٦٧ ذلك الإنفجار المريع للشرائح الطفيلية في اقتصادنا الوطني، تلك الشرائح التي لا تنتج ولكنهـا تـربح، والتي لا تنتهي أنشطتها بإحداث تراكم رأسمالي يعـود إلـي دورة الإنتاج من جديد علي شكل إستثمارات جديدة، ولكنهـا تنتهي بأرباح طفيلية تبدد علـي الـنهم الإسـتهلاكي. وقـد شاركت هذه الفئات من الرأسمالية الطفيلية في نزوح فـائض الإنتاج وخاصة في قطاع الدولة وأزعجت كل الحريصـين علي الاستقلال بمفهومة كتنمية للسوق – ومنهم شرائح مـن الرأسمالية المنتجة التي كانت تري فيما يحدث تخريباً يضـر بمصالحها من ناحية فضلاً من خطره المريع علي الاستقلال الوطني، وحتي الآن فإن الخطر ما زال قائماً – بل وتزايد – لكنه لا يعني أبداً أن قطاع الدولة عاجز عن أحداث تنمية في الاقتصاد إذا كفلنا له رقابة شعبية ديمقراطية إفتقـدها دائمـاً وكان ذلك خطأه الجوهري، ولكن من الخطر المحيق علـي الاستقلال أن تظل الأمور علي ما هي عليه.

ولا شك أن برامج التنمية المحدودة التي إتبعناها فيمـا عرف بالخطة الأولي (١٩٥٩/١٩٦٤) كانت مثقلة بالعيوب، ولكن لجوءنا بعد نهاية هذه الخطة إلي الانكماش في بـرامج التنمية كان خطأ بالغاً، ففي ١٩٦٥ جعلنا الخطة سبعية وعلي مرحلتين ثم تواضعت لتصحب مجرد ميزانيات سنوية، وهو ما أوقعنا في خطأ أكثر فداحة عندما توقفت برامج التنمية بعد عوان ١٩٦٧، وفي ظروفة المعقدة، فقد غامت علينا من تلك اللحظة الرؤية الصحيحة لمسألة الإستقلال الوطني واهتممنـا بالأرض الضائعة – وهو اهتمام ضرورى وحـق – ولكـن ليس أقل أهمية ألا تضيع السوق، ووسط الارتباك الذي نـتج عن توقف التنمية بزيادة التضخم وببروز الأزمات المتعـددة في السلع والخدمات برزت الـدعوة الخطيـرة الـي تلبيـة إحتياجات السوق من الإستمارات من الخارج دون اسـتيعاب للتجربة تلبية احتياجات السوق من الإستثمارات من الخـارج دون استيعاب للتجربة التاريخية التي تثبت أن ما تسعي إليـه الإحتكارات الأمريكية والأوروبية الغريبة كان وما يزال، أن تفتح سوقنا لاستهلاك سلعها المصنعة ولتصـدي رأسـمالها المالي، وهو ما يتنافي مع أي محاولة قـد نحاولهـا لتنميـة



صناعاتنا ولحمايتها جمركياً، ولذلك فليس غريباً أن تتواضع عروض هذه الاحتكارات في إنشاء بعض المشروعات غير المنتجة كالإسكان ووسائل الترفية وبعض مشروعات الخدمات وبرؤوس أموال تكفي – لو أرادت – لتمويل صناعات كبري.

ومن البديهي أن عناصر الرأسمالية الطفيلية تنسجم مع هذه الرؤية، وصحيح أن فئات منها قد انتقلت إلي الاستثمار الخاص بما نزحت وسلبت من فائض قطاع الدولة، لكن ما بقي منها يسعي إلي تحويل سوقنا الوطني إلي هونج كونج أخري منتهزاً فرصة الجوع لدي الفئات المرفهة للإستهلاك ومن معطف هذه البقايا تخرج كل الدعوات التي تهدد كل ما بنيانه.

علي الجبهة الفكرية فإن الدعوة الملحة التي تصور الديمقراطية كما لو كانت حق تيار واحد من تيارات الفكر في التعبير عن نفسه، هي خليط من أفكار شريحتين من شرائح البرجوازية، الأولي تسعي لإطلاق حرية الاستثمار في حدود حماية السوق من منافسة الاحتكارات الدولية، والثانية تقود بطفيليتها الوطن إلي مآزق وأخطار. ولا جدال

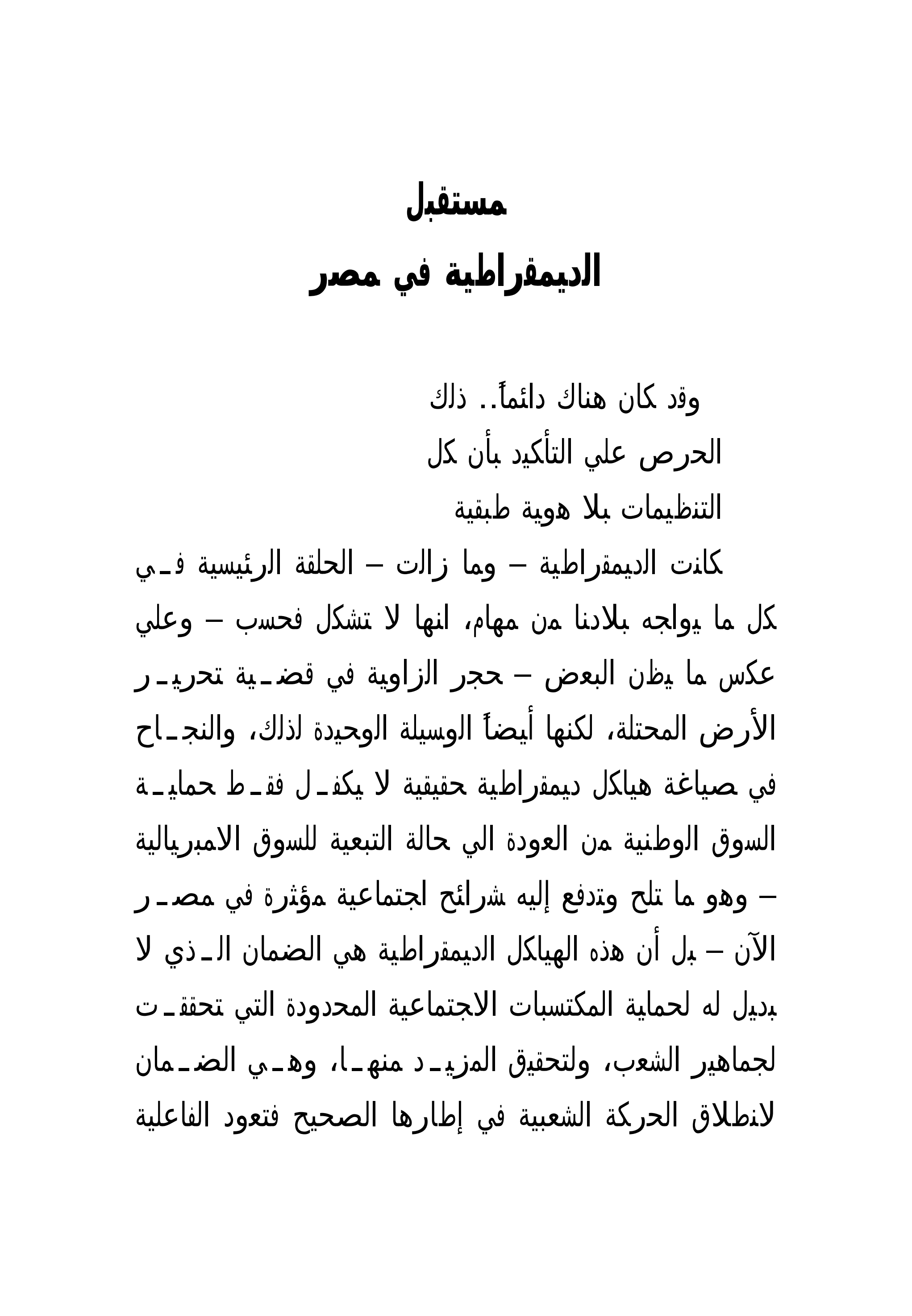
في أن هذا التيار فكرياً يشكل نفس الخطر الذي تشكله تلـك العناصر الطفيلية.

إن الديمقراطية هي في الأساس جدل إجتماعي وجـدل بين تيارات الفكر، لكن هذا الجدل ينبغي أن يقوم علي قاعدة وطنية معادية للاستعمار، وهو ما يعني أن تطلق الحريـات الديمقراطية وبلا حدود لكل الطبقات والفئات والتيارات التي تنسجم مصلحتها ورؤاها مـع المصـالح الوطنيـة للشـعب المصري بمجمل فئاته، وهو ما يتطلب تحديداً دقيقـاً لهـذه المصالح، التي لا خلاف في أنها تشمل بين ما تشمل حمايـة السوق القومية وتنميتها والعداء للإستعمار والتبعية السياسـية والاقتصادية له، والحفاظ علي مجموع المكاسب التي تحققت لجماهير الشعب خلال العشرين عاماً الماضية، مـن حيـث الأجور وساعات العمل ونشر مظلة التأمينـات الاجتماعيـة والاستمرار في برامج التنمية وتطويرها لتصبح خططاً فـي طريق الشمول تدريجياً.

تلك ملامح أساسية في أي أرضية مشـتركة يمكـن أن تضم المصريين – بمختلف شرائحهم وطبقاتهم وتيـاراتهم – عند الحد الأدني من اللقاء. لكن ذلك لا يمكن أن يتحقق دون

منظور جديد للديمقراطية يتجـاوز أيديولوجيـة الكـل فـي واحد... ليعترف بأن تنوع المصريين لا ينفي وحدتهم، وأن هذا التنوع يفترض التعامل معه سياسياً وتنظيمياً وإيديولوجياً من أرضية الاعتراف بالطبقات الاجتماعية ككيانات منفصلة، ومتصلة، لكل منها مصالحه ومطامعه الخاصة التي ينبغي أن نكفل لها في كل الأحوال حق التعبير المستقل عن نفسها، كما أن بينها ما هو مشترك، ينبغي أن نتحاور لاكتشـافه فتحـدد بشكل دقيق ما نتفق فيه وما نختلف عليه ليكون لقاؤها بعـد ذلك لقاء لذوات سياسة وليس لأفراد عديمي الهوية.. فلنبـدأ بالتنوع لنصل إلي الوحدة وليس العكس... فإذا كانت الوحدة ضرورية فإن التنوع أساس، ونفي التنوع هو إلغاء للوحدة.

ذلك وحـده الـذي يحـدد مـدي إخلاصـنا للقضـية الديمقراطية، وهو أيضاً المحك الذي نستطيع أن نقـيس بـه إتجاه الطلقات العديدة التي تطلق اليوم علي جبهة الفكر.. هل تستهدف أعداء الديمقراطية أم تستهدف الديمقراطية نفسها.



مستقبل
الديمقراطية في مصر

وقد كان هناك دائماً.. ذلك
الحرص علي التأكيد بأن كل
التنظيمات بلا هوية طبقية

كانت الديمقراطية – وما زالت – الحلقة الرئيسية فـي كل ما يواجه بلادنا من مهام، انها لا تشكل فحسب – وعلي عكس ما يظن البعض – حجر الزاوية في قضـية تحريـر الأرض المحتلة، لكنها أيضاً الوسيلة الوحيدة لذلك، والنجـاح في صياغة هياكل ديمقراطية حقيقية لا يكفـل فقـط حمايـة السوق الوطنية من العودة الي حالة التبعية للسوق الامبريالية – وهو ما تلح وتدفع إليه شرائح اجتماعية مؤثرة في مصـر الآن – بل أن هذه الهياكل الديمقراطية هي الضمان الـذي لا بديل له لحماية المكتسبات الاجتماعية المحدودة التي تحققـت لجماهير الشعب، ولتحقيق المزيـد منهـا، وهـي الضـمان لانطلاق الحركة الشعبية في إطارها الصحيح فتعود الفاعلية

لقانون الجدل الاجتماعي، إذا تعيه وتمارسـه- مـن خـلال منظماتها السياسية والنقابيـة المسـتقلة- جمـاهير العمـال والفلاحين، فتتحقق الحتمية التاريخية- التي يتوهم كثيـرون تحقيقها- وتتحول مصر الي مجتمع اشتراكي[1].

والمحك الفعلي لإخلاص كل الذين يجتهدون الان فـي المسألة الديمقراطية، هو وعيهم بمصالح الوطن، ومصـالح الطبقات الوطنية ونجاحهم في استخلاص صيغة ديمقراطيـة يستطيعون بعد نضالهم من أجل تطبيقها أن يحيلوا مصر إلي بلاد ديمقراطي بالفعل لا بالكلام، بالممارسـة لا بالمؤسسـات الفارغة من أي محتوي،وبين هؤلاء يتميز دور الذين يندبون أنفسهم للتعبير عن مصالح العمال والفلاحين، إذ لـو افتقـد هؤلاء الوعي بما هو صحيح في هذه المرحلة، لو تشوشـوا بين أفكارهم التلفيقية ومفاهيمهم المغلوطة التي ظلوا يرجون لها سنوات، منذ فقدوا اسـتقلالهم الايـدلوجي فـي أواسـط الستينات، لو نزعوا للدفاع عن الخطأ بمزيد من الخطأ، فإن

---

[1] نشر هذا المقال في عدد سبتمبر ١٩٧٤ من مجلة (الكاتـب) القاهرية وكان نشره هو الذي صعد الأزمة إلي ذروتها.. علي النحـو الذي نشير غليه الفصول التالي.

خيوطا كثيرة سوف تفلت، ومصالح كثيرة وعزيـزة سـوف تضيع... ولو إلي حين.

والقول بأن الديمقراطية كانت وما زالت الحلقة الرئيسية في كل ما يواجه بلادنا من مهام، قول جديد قديم.. اكتشـفه البعض مبكرا منذ بدأت ملامح هذه الحلقة الراهنة من ثورتنا الوطنية ذات الأفق البرجوازي تتضح[٢] وتـأخر اكتشـاف

---

[٢] يفيد من يرغب في فهم وجهة النظر التي نطرحها فـي هـذا المقال أن يرجع إلي بعض اجتهاداتنا المبكرة حول نفس الفكرة، ومنها الثورة بين المسير والمصير (مجلة الحرية البيروتية – سبتمبر ١٩٦٦) – لماذا سقط الفكر الليبرالي في مصر: (جريدة المساء القاهرية- يوليو ١٩٦٥)، وهناك بعض الإجتهادات الحديثة منهـا: المنطـق الثـوري والخائفون من الديقراطية (الجمهوريـة القاهريـة ٠ يونيـو ١٩٧١)- المنظور الديمقراطي لقضية الوحدة الوطنية في مصر (دراسات عربية البيروتية- فبراير ١٩٧٣) – طلقات لا تطيش علي جبهـة الفكـر – إيديلوجية الكل في واحد (الكاتب ديسـمبر ١٩٧٢ ويوليـو ١٩٧٤) – خريطة فكرية للمستقبل العربي (قضايا عربية البيوتية- مـايو ١٩٧٤) ثم ثلاث دراسات نشرت في جريدة الثقافة البغدادية بعد حرب أكتـوبر هي: لمثقف الحزيراني في ضوء شعاع يتـيم مـن تشـرين (فبرايـر ١٩٧٤)، والمعجزات لا تتكرر (إبريل ١٩٧٤)، معركـة الناصـرية

الآخرين له حتي وقعت نكسة ١٩٦٧ عندما بدأ واضحا للجميع أن الظروف اللاديمقراطية كانتسببا مباشرا للهزيمة العسركية التي حلت بنا، والتي ألزمت المد التحرري العربي والمصري بالذات موقف الدفاع ثم البدء بالتراجع البطئ الخطي. علي أثر ذلك تزايد الإلحاح الشعبي علي ضرورة تعديل هيكل النظام السياسي في مصر، بحيث يسمح بمشاركة كل القوي الوطنية والديمقراطية في اتخاذ القرار السياسي، ويتيح لها أن تكون قطبا فاعلاً في الحركة السياسية، كتعبير عن مشاركة كل الطبقات الوطنية التي تتفق في الأهداف الاستراتيجية لهذه المرحلة – في سلطة الحكم. وقد عبر هذا الإلحاح عن نفسه في انتفاضات شعبية كانت رموزها تتمثل في الحركة الطلابية في أدوارها المتعاقبة التي بدأت في مارس ١٩٦٨، وتحركات العمل والصحفيين والمثقفين، وقد انفجرت كلها في مناخ بالغ التعقيد. إذ تناقضت واختلفت الرؤي حول أهمية ذلك بين هذه القوى من جانب، وبين من كانوا يمارسون ضغطا لكي يبقي النظام السياسي المصري

والحوار في الدروب المسدودة (يوليو ١٩٧٤) . و(حرية الصحافة وقضية الديمقراطية في مصر) (أبريل ١٩٧٤).

كما هو. كما أن هذه الانتفاضات قد تحركت من مناخ بعدت الشقة بينه وبين تراث النضال الديمقراطي المصري الطويل، فتشوشت اجتهاداتهـا ذات الأفـق البرجـوازي الصـغير، وارتبكت بعض خطواتها، وعجزت عن صـياغة منطلقـات سليمة وموحدة لنضالها.

وقد ساهم في تعقيد الموقف، كان هناك وما زال بعض الذين يرون أن مسألة الديمقراطية ليست هي الحلقة الرئيسية في كل ما يواجه بلادنا من مهام، ويطرحون اجتهادهم فـي تصور يري أن بعضا من أرضنا المصرية والعربية ما يزال يرزح تحت عبء الاحتلال، ينبغي أن نعطي له الأولويـة، فاذا ما فتحنا باب الديمقراطيـة تعـددت الآراء واختلفتـت، وتصارعت القوى وتنـاحرت، وتفتتـت الوحـدة الوطنيـة وتناثرت، واذا أردنا أن ننسب هذا الـرأي لأصـحابه فإنـه يصدر في الغالب عن رؤى رسمية – أو يحلو لها أن تدعي ذلك – ولعله بعض خبرة هذه الحلقة مـن حلقـات ثورتنـا الوطنية التي تعودت السلطة فيها أن تحكـم بـلا رقيـب أو مشارك. لكن آخرين ينتمون للفكر الناصري- فـي بعـض إجتهاداته التي تياسر مـا تطبـق فتظـل أسـيرة الـرؤى

البرجوازية رغم ذلك – وحلفاء لهم من الماركسـين الـذين فقدوا استقلالهم الأيديولوجي. في أواسط الستينات فتنصـروا ما يطيقون، يقبلون بهذه الفكرة ويروجون لها، وينظرون إلي الديمقراطية كشر مستطير علي تحرير الأرض، ويربطون – وهذا هو الأهم –بينها وبين مـا يسـمونه الخطـر علـي الاشتراكية في مصر، ولأن هؤلاء البرجوازيين المتياسـرين يظنون أن مهام الثورة الإشتراكية – أو تمـر بهـا- فهـم يعتبرون المطالبة بالديمقراطية مطلبـا لا يصـدر إلا عـن البرجوازية الساعية إلي تصفية (الاشتراكية).

ولا أحد ينكر أن التناقض الريسي كان – ولا يـزال – بين القوى الوطنية في مجموعها، وبين الامبريالية العالميـة التي تمثلها الولايات المتحدة الأمريكيـة كقطـب رئيسـي، وإسرائيل كشريك وقاعدة لها في المنظقة، وبـرغم ثانويـة التناقض مع القوى الاجتماعية السائدة فـي المجتمـع، فـإن التجربة التاريخية تثبت أن العجز عن ربط التناقض الرئيسي بالثانوي قد افدح خطر هدد قضية التحرر الـوطني، ومنـذ ثورة عرابي – وإلي الآن – تؤكد هذه التجربـة أن سـيادة الظروف اللاديمقراطية تؤدي غالبا الي التصرف في القضية

الوطنية بشكل يهدد استقلال الوطن. ومن البديهي أن النظـر الي القضية الوطنية يختلف بين طبقة وأخري وتنـوع فيـه الاجتهادات، وأسلوب الحل الذي قد يحقق مصحلة طبقة مـا، قد يحقق الحد الأدني من مصالح طبقة أخري، وربما يضـر بمصالحها ومحط صحة اجتهاد هذه الطبقة وتلك فـي حـل القضية الوطنية هو مدي انسجامه مع مصالح بقية الطبقـات الوطنية، وفي المنظور التاريخي فإن جماهير الشعب الكادح هي أكثر الطبقات وطنية وأكثرها حرصـا علـي اسـتقلال الوطن وتحرر أراضية.

ومنذ عدوان ١٩٦٧ والرؤى تتنوع تجاه حـل قضـية الاحتلال الاسرائيلي، إلي ان استقطبت في تيارين رئيسيين.

*اعتمد أولهما أسلوب حل القضية في أطـار الجبهـة الامبريالية وبمساعدتها، حتي أدي هذا الي بعض التنـازلات التي يقول بأنها غير جوهرية أو مبدئية. وكان هذا يعني لديه تفصيلياً. استغلال التناقضات الثانوية في الجبهة الامبريالية، والضغط علي هذه الجبهة ككل بالجبهة المعاديـة لهـا فـي الصراع العالمي. وحل ما كان يعتبـره (مشـاجرات) فـي المنطقة العربية. وقد اعتمدت وجهة النظر تلك قرار مجلس

الأمن رقم ٢٤٢ كاستراتيجية لهـا، وفـي العمـل العمـل العسكري اعتمدت أسلوب الحرب المفاجئة والمحدودة يقـوم بها الجيش النظامي وحده. وحققت اجتهادها ذلـك بانتصـار أكتوبر ١٩٧٣ ***(١)***

---

(١) كانت هذه الفقرة، هي أول نقد علني في مصر، لما عرف فيما بعد بالإدارة السياسية لحرب أكتوبر، وقد إستثمرها بذكاء، وزير الثقافة – آنذاك- يوسف السباعي، ليصعد المواجهة مع اسرة تحريـر مجلـة (الكتاب) التي نشرت المقال، وقد أشار فيما بعد، وعنما تفجرت الأزمه ، بمقال نشرة كامل زهيري فـي الجمهوريـة (١٨ سـبتمبر ١٩٧٤) بعنوان عصا الوزير، إلي هذه الفقرة، فاستشهد بها، وعلق عليها قـائلا بالنص (وأنا أري في هذا الي الشعب المصري، إن هذه محاولة لتدمير كل ما بذله الشعب المصري والجيش المصري من أجل تحقيق إنتصار استعدنا به كرامتنا، وأكدنا به قدرتنا، وعبرنا به اهرمة واليـأس ، وأن الإنتصار لم يكن أبدا تحقيقاً لحل إمبريالي، وإنما هو تحقيـق لأصـالة شعب وقدرة جيش وشجاعة قائد، وأن عبور أكتوبر الذي ضحينا فيـه بدماء شهدائنا الأبرار ، ورفعنا رأسنا به أمام العالم كله... أيمكـن أن يحاول أحد إعتبارة تحقيقا لحل (أمبريالي... أن محاولة تشوية إنتصار ٦ أكتوبر هو تشوية لوجه مصر ولوجة العرب، وإنكار لكل ما قام بـه أبناؤنا الأمجاد ، ونتيجة لإيمانهم بربهم وبقيمهم الخالدة.. وأنا لا أعتبر الخلاف بيني وبين صاحب المقال ورئيس التحرير خلافـا شخصـيا.

*علي الطرف المناقض رأي آخرون أن القضية هـي جزء من النضال العالمي للأمبريالية، ولذلك ألحوا دائما علي ضرورة توثيق العلاقات بهذه الجبهة عربيـا ودوليـاً، بمـا يتطلبه ذلك من أعتماد أسلوب الحرب الشعبية الطويلة ضـد العدو، وإعادة تنظيم الجبهة الداخلية لهذا الغرض.

وحتي هذه اللحظة فإن هـذه الاجتهـادين لا يـزالان مطروحين في الساحة المصرية والعربية. يعبر كـل واحـد منهما عن رؤي شرائح اجتماعية محددة. وقد أخذ أولهمـا –

ولكنه خلاف وطني ، لان انتصار ٦ اكتوبر الذي غير الموازين فـي المنطقة بل وفي العالم لا يحتمل أن يقول عنه مصري ولا عربي انـه جاء تحقيقا للأسلوب الإمبيالي.. وإذا كنت كمواطن إعتبر هذا الإتجـاه إنحرافا عن الخط الوطني ، فإنب اعتبر كوزير تصدر المجلـة عـن وزارته مسؤلاً عن نشر هذا الإنحـراف، وإن مـن حقـي ان اضـع الضمانات لعدم تكراره، وأن رئيس التحرير ينشره لهذه الإنحـراف لا يشكل ضمانات لعدم تكراره ، وأن من حقي أن أضع أي عنصر يمكن ان ينبه إلانحراف قبل قبل وقوعة حتي يمكن مناقشـة صـاحبه فيـه (الحقيقة في موضوع مجلة الكاتب بقلم يوسف السباعي – الجمهوريـة القاهرية في ٢٢ سبتمبر ١٩٧٤). وقد رددت علي الـوزير فـي ٢٤ سبتمبر بمقال عنوانه (دع مائة زهرة تتفتح ولو أدمتك أشواكها)

الذي اعتمد رسمياً منذ ١٠ يونيو ١٩٦٧- الفرصة لتجريـب نفسه، بينما ما زال الاتجاه الآخر يصر علي سلامة منهجـه وأسلوبه وان كان بعيداً عن ساحة التأثير الفعلي. وفي حـين بدا للبعض وهما أن الذين اعتمدوا رسـميا الأسـلوب الأول يمارسونه كتكتيك مرحلي، ودللوا علي ذلك بالوقـت الـذي طرحت فيه اجتهادات مثل (المقاومـة الشـعبية) و (لجـان المواطنين من أجل المعركـة) (والجـيش الشـعبي) وكثـر الحديث حولها، لكن وهم هؤلاء قـد تبـدد إذ ظلـت هـذه المنظمات مرد مبان ورقية، وتأكد أن ما كان معتمداً رسـمياً منذ لحظة الهزيمة كان الإجتهـاد الأول، وأن البرجوازيـة المصرية ألمت مخلصة لتراثها التاريخي منذ أول حلقاتهـا، وهو أن تحل القضية الوطنية في اطار الجبهة الامبريالية *(1)*

وإذن فإن الذين يتصورون أن الديمقراطية خطر علـي الاستقلال لا يفعلون أكثر من أن يدعموا هذا الاجتهاد الـذي قد تكون لهم عليه تحفظات، يجتهدون للتعبير عنها فتعجزهم

---

[١] راجع دراستنا (البرجوازية المصرية وأسـلوب المفاوضـة) (دراسات عربية – يوليو ١٩٧٢) – صدرت هذه الدراسة فيما بعد في كتاب بذات العنوان

وسائل التعبير في مجتمع يفتقد للديمقراطية الحقيقية، ويظلون معدودين كأفراد، لأنهـم يفقـدون لمنظمـاتهم الديمقراطيـة المستقلة، فيخرم اجتهادهم بذلك من أن يطرح نفسـه علـي الساحة السياسية، برغم أنه قد يكون الأسـلم أو الأصـح أو المقبول شعبياً.

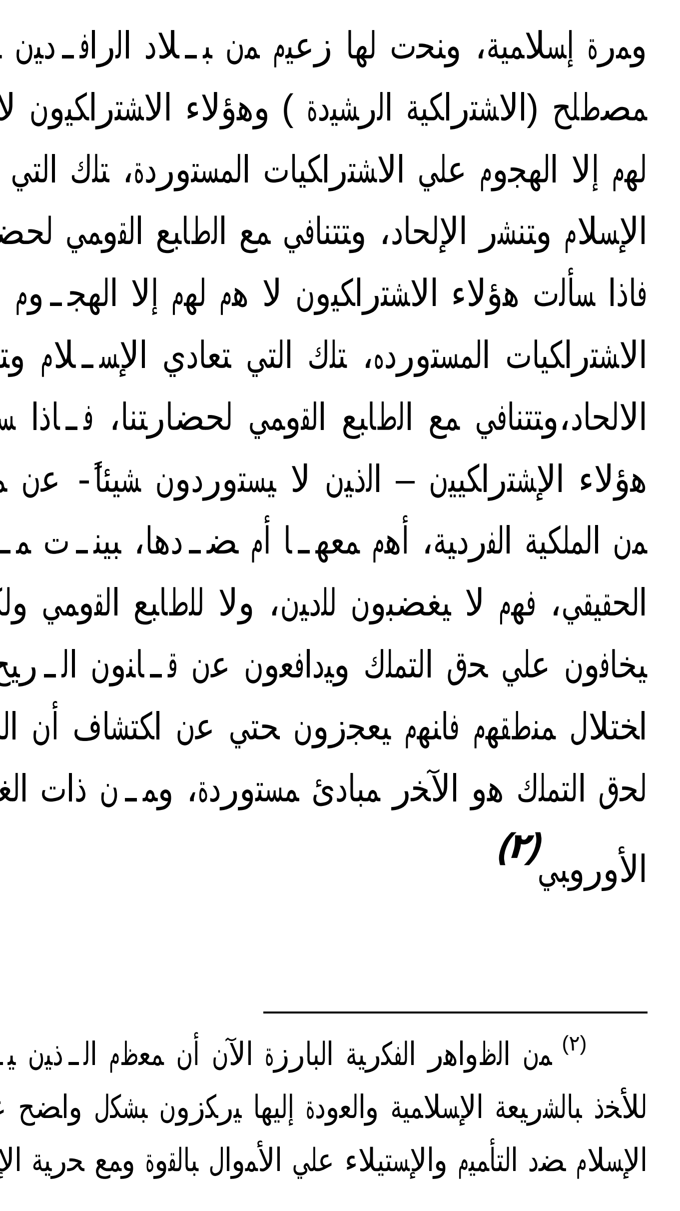
والقول بأن الديمقراطية تفتح الباب للصراع والشـقاق، وتلهي الوطن عن مهام التحرير، قول يتجاهل واقع بلادنا منذ الهذيمة، ذلك أن أشكال الصراع المتدنية لم تتوقف، وبينمـا يكون الصراع الديمقراطي السياسي شكلا راقيا، فان ظروف غياب الديمقراطية قد طرحت العديد من الصراعات المدمرة، وولد الكبت السياسي والاجتماعي أشطالاً من الشقاق الهابط، أبرز أمثلته، وأقربها الفتنة الطائفية التي شهدتها بلادنا فـي صيف ١٩٧٢.

ولا يبقي من الهجوم (المتياسر) علي الديمقراطية سوى القول بأنها تقضي علي إشتراكية تحققت، ووتيح للبرجوازية التي (سقطت) أن تعود لتعامل في الساحة السياسـية، وهـو قول لا يصدر إلا عن قوم إما أنهم لا يقرأون الإحصـاءات الرسمية، وهو قول لا يصدر إلا عن قوم أما أنهم لا يقرأون

الاحصاءات الرسمية التي توصف البنيان الطبقي في بلادنـا [1]، أو أنهم – وهو الأرجح – يتحدثون عن اشتراكية أخري غير تلك التي يتحدث عنها الاشتراكيون العلميون، فيعتمدون الاصلاح الاجتماعي ورأسمالية الدولية كمرادفين للاشتراكية. واذا كان من حق أي أنسان أن يقبل من الأفكار ما يشاء، فان من واجبه أن يعي في أي مكـان يقـف، وبعـض فضـل الديمقراطية أنها تنقذنا من ذلك التداخل بـين الأيـديلوجيات، وتعيد لكل منها نقاءها، فما أكثر الناصريين الـذين يظنـون أنفسهم – أو يظنهم الناس – ماركسيين، وما أكثر الماركسيين الذين يغفلون عن أنهم قد أصبحوا ميثاقيين منذ قبلوا مقولـة المجموعة الاشتراكية في القمة، وقبلوا بالتنازل عن استقلالهم جريا وراء السراب الذي أسموه وحده القوي الاشتراكية، فلا هم احتفظوا بالاستقلال ولا هم وصلوا الي الوحده. وما أكثر اليمنيين الذين يعلنون أنهـم اشـتراكيين ويتحفظـون بـأن اشتراكيتهم تنبع من ظروفنا، يسمونها أحيانا اشتراكية عربية،

---

[1] راجع دراستنا (البرجوازية المصرية وأسـلوب المفاوضـة) (دراسات عربية- يوليو ١٩٧٢) صدرت هذه الدراسة فيما بعد فـي كتاب بذات العنوان.



ومرة إسلامية، ونحت لها زعيم من بلاد الرافدين يوما مصطلح (الاشتراكية الرشيدة) وهؤلاء الاشتراكيون لا هم لهم إلا الهجوم علي الاشتراكيات المستوردة، تلك التي تعادي الإسلام وتنشر الإلحاد، وتتنافي مع الطابع القومي لحضارتنا، فاذا سألت هؤلاء الاشتراكيون لا هم لهم إلا الهجوم علي الاشتراكيات المستورده، تلك التي تعادي الإسلام وتنشر الالحاد،وتتنافي مع الطابع القومي لحضارتنا، فاذا سألت هؤلاء الإشتراكيين – الذين لا يستوردون شيئاً- عن موقفهم من الملكية الفردية، أهم معها أم ضدها، بينت موقفهم الحقيقي، فهم لا يغضبون للدين، ولا للطابع القومي ولكنهم يخافون علي حق التملك ويدافعون عن قانون الريح، ولا اختلال منطقهم فانهم يعجزون حتي عن اكتشاف أن الحماس لحق التملك هو الآخر مبادئ مستوردة، ومن ذات الغرب الأوروبي **(٢)**

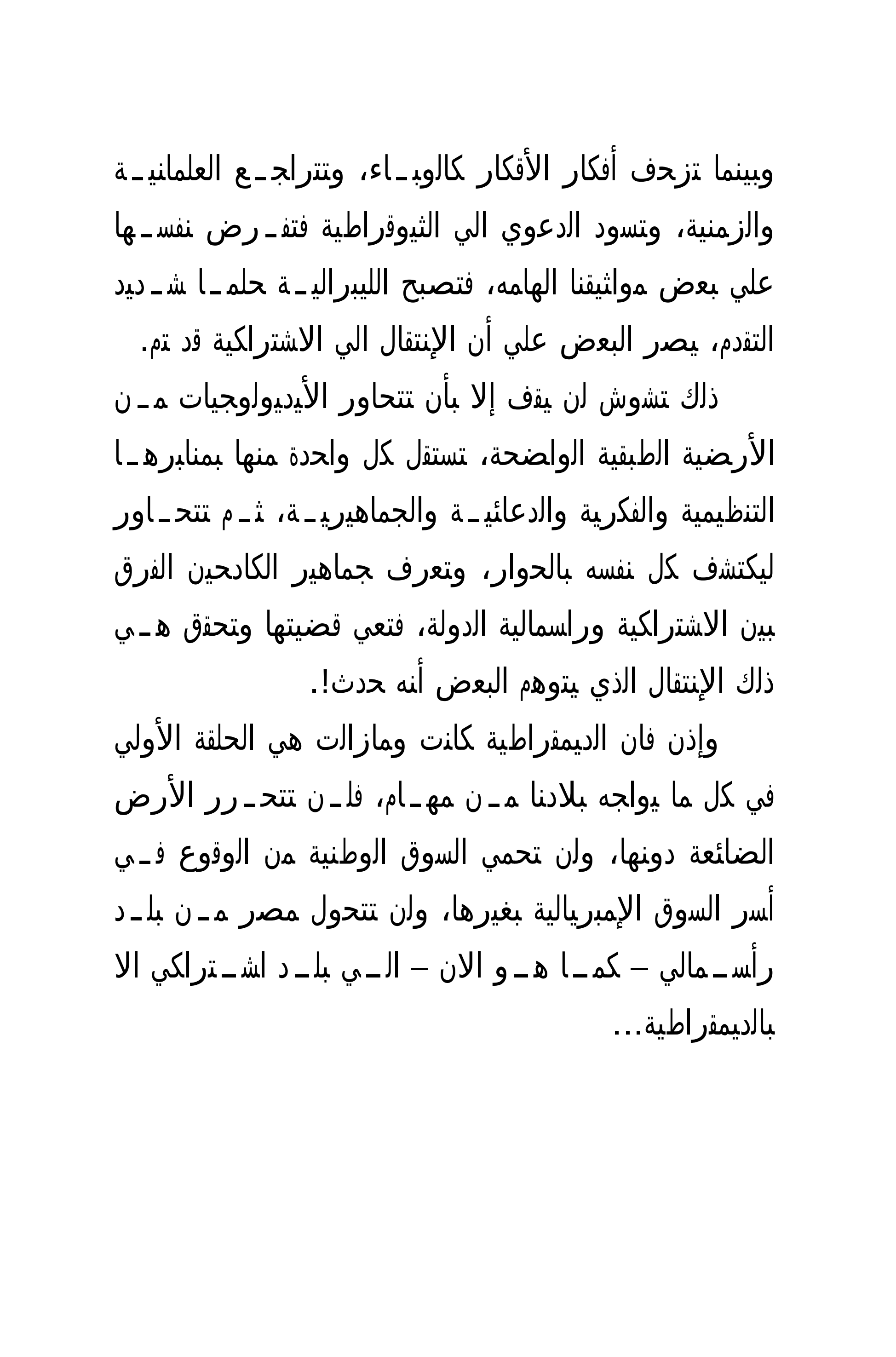
---

[٢] من الظواهر الفكرية البارزة الآن أن معظم الذين يدعون للأخذ بالشريعة الإسلامية والعودة إليها يركزون بشكل واضح علي أن الإسلام ضد التأميم والإستيلاء علي الأموال بالقوة ومع حرية الإستثمار

ولقد أدي هذا التشوش البالغ الي تـداخل المسـائل، إذا فقدت كل الأيديلوجيات استقلالها، وتقنعت كلها بالاجتهـادات الرسمية يحاول أن يأولوا الميثاق فيجدونـه مطواعـا بـين أيديهم، فهو حمال أو جه، يرضي به أقصي اليمـين ويقبلـه أقصي اليسار، والكل شراح ومفسرون لا أصـحاب رأي أو موقف، والذين أصدروه يطبقونه كما قصدوا له أن يطبـق، فإذا خذل التطبيق اليسار أو أغضب اليمين اعتذروا لهم بـأن هذا خطأ الطبقين. ومن هنا كان طبيعياً أن يظن الـبعض ان التحول الاشتراكي قد أنجز، فيعمون حتـي عـن اكتشـاف التناقض الصارخ بين الأبنية الفوقية للمجتمع، وأبنيته التحتية [(1)]، والتناقض الصارخ داخل كل بناء من هذين علي حده.

– راجع علي سبي المثال أعداد مجلة الإعتصام التي تصدرها الجمعية الشرعية ومعظم الدوريات الدينية التي تصدر في مصر.

[(1)] من أمثلته طوال العشرين عامـاً الماضـية أن المؤسسـات (السياسية الإشتراكية) كانت تضم أعتي أعداء الاشتراكية الذين أسفروا عن وجههم أخيرا بينما كان الإشتراكيون في السجن أو في الشـارع، وبقاء جهاز الدولة والتشريع – وخاصة المدني – في حمايـة الملكيـة الفردية.



وبينما تزحف أفكار الأفكار كالوبـاء، وتتراجـع العلمانيـة والزمنية، وتسود الدعوي الي الثيوقراطية فتفـرض نفسـها علي بعض مواثيقنا الهامه، فتصبح الليبراليـة حلمـا شـديد التقدم، يصر البعض علي أن الإنتقال الي الاشتراكية قد تم.

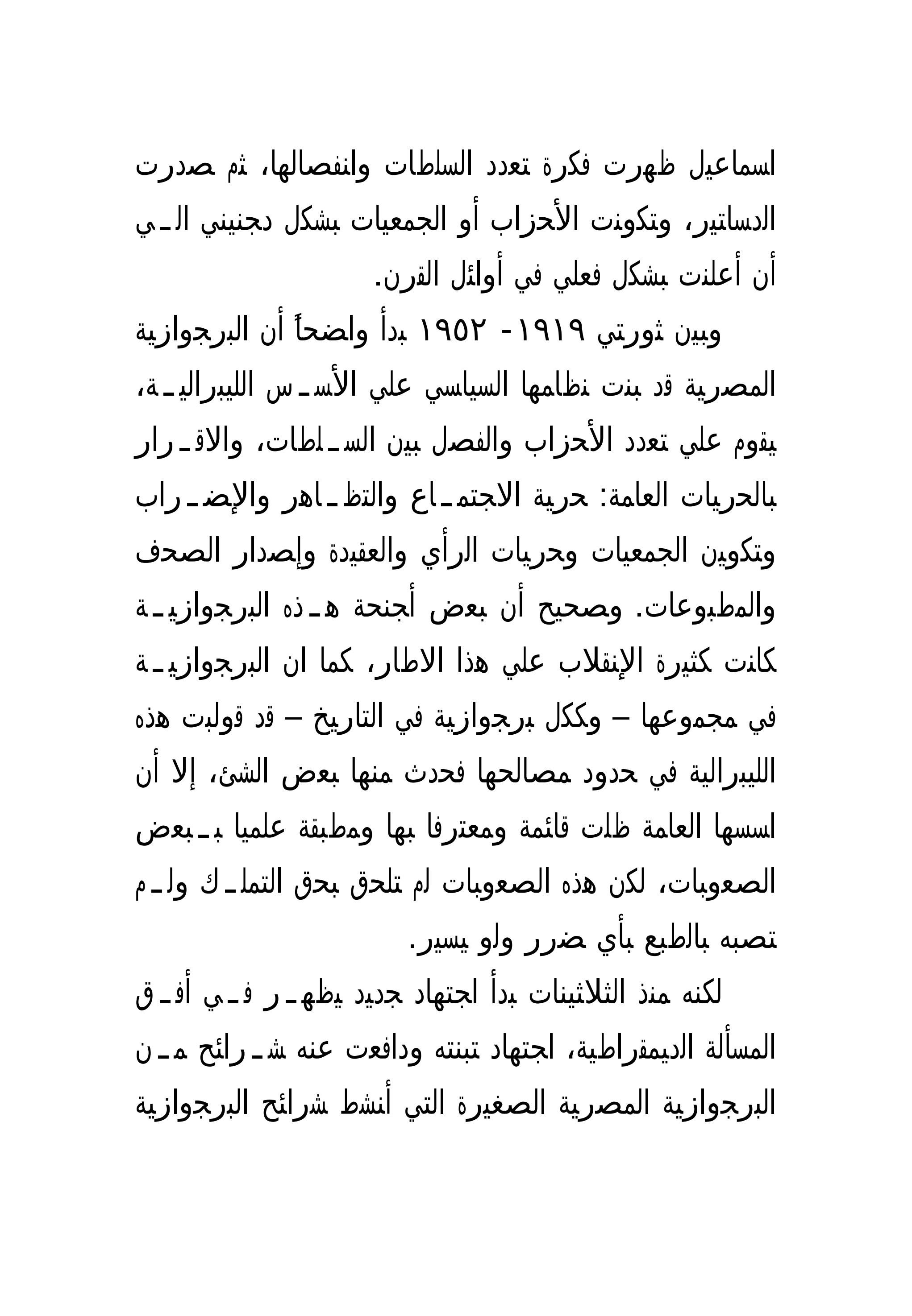
ذلك تشوش لن يقف إلا بأن تتحاور الأيديولوجيات مـن الأرضية الطبقية الواضحة، تستقل كل واحدة منها بمنابرهـا التنظيمية والفكرية والدعائيـة والجماهيريـة، ثـم تتحـاور ليكتشف كل نفسه بالحوار، وتعرف جماهير الكادحين الفرق بين الاشتراكية وراسمالية الدولة، فتعي قضيتها وتحقق هـي ذلك الإنتقال الذي يتوهم البعض أنه حدث!.

وإذن فان الديمقراطية كانت ومازالت هي الحلقة الأولي في كل ما يواجه بلادنا مـن مهـام، فلـن تتحـرر الأرض الضائعة دونها، ولن تحمي السوق الوطنية من الوقوع فـي أسر السوق الإمبريالية بغيرها، ولن تتحول مصر مـن بلـد رأسـمالي – كمـا هـو الان – الـي بلـد اشـتراكي الا بالديمقراطية...

ولأننا عشنا طـويلا نفصـل تعسـفاً بـين الأهـداف والوسائل.. فـان السـؤال الأكثـر إلحاحـا الان هـو: أي ديمقراطية؟!

اجتهاد يوليو الديمقراطي:

جاء اجتهاد ثورة ٢٣ يوليو الديمقراطي مختلفـا عـن اجتهاد الحلقات التي سبقتها من الثورة الوطنية الديمقراطيـة ذات الأفق البرجوازي. ويمكن القول بشـكل عـام أن هـذه الحلقات قد أعتمدت بوسائل متنامية الأصول العامـة للفكـر الليبرالي، تبشر به وتصوغ علي أساسه النظام السياسي فـي خطوات تواكبت مع التدرج في نمـو وتبلـور البرجوازيـة نفسها، واذا كانت الليبرالية هي فلسفة الشـرائح الاجتماعيـه التي تنظر للعالم من خلال وجهة نظر المستثمر الذي يسعي للربح، ويحطم كل الحواجز التي تحول بينه وبين الفاعلية في العالم، فإنها في البلاد المتخلفة والمستعمرات تتطبع بطـابع قومي، وربما تفرض نفسها بشكل شديد البطء، بل هي تختلط بأفكار من رواسب الاقطاع، ولأن نمو البرجوازية الصناعية – قبل الطبقة المحرك – كان بطيئاً، فقد طاشـت تطبيقـات الليبرالية في مصر. بل وتأخرت. علي أنه منذ أواخر عهـد



اسماعيل ظهرت فكرة تعدد السلطات وانفصالها، ثم صدرت الدساتير، وتكونت الأحزاب أو الجمعيات بشكل دجنيني الـي أن أعلنت بشكل فعلي في أوائل القرن.

وبين ثورتي ١٩١٩- ١٩٥٢ بدأ واضحاً أن البرجوازية المصرية قد بنت نظامها السياسي علي الأسـس الليبراليـة، يقوم علي تعدد الأحزاب والفصل بين الســلطات، والاقـرار بالحريات العامة: حرية الاجتمـاع والتظـاهر والإضـراب وتكوين الجمعيات وحريات الرأي والعقيدة وإصدار الصحف والمطبوعات. وصحيح أن بعض أجنحة هـذه البرجوازيـة كانت كثيرة الإنقلاب علي هذا الاطار، كما ان البرجوازيـة في مجموعها – وككل برجوازية في التاريخ – قد قولبت هذه الليبرالية في حدود مصالحها فحدث منها بعض الشئ، إلا أن اسسها العامة ظلت قائمة ومعترفا بها ومطبقة علميا بـبعض الصعوبات، لكن هذه الصعوبات لم تلحق بحق التملـك ولـم تصبه بالطبع بأي ضرر ولو يسير.

لكنه منذ الثلاثينات بدأ اجتهاد جديد يظهـر فـي أفـق المسألة الديمقراطية، اجتهاد تبنته ودافعت عنه شـرائح مـن البرجوازية المصرية الصغيرة التي أنشط شرائح البرجوازية

في العمل الثوري علي عهد ثورة عرابي وفي مرحلة ما بين الثورتين (١٨٨٢- ١٩١٩) ثم بدأت من الثلاثينـات رحلـة خروجها الطويلة من تحت وصاية الشرائح المتوسطة التـي مثلهاحزب الوفد، لتستقل أيديولجيات فتطـرح رؤاهـا فـي حركتي الإخوان المسلمين ومصر الفتاة. تناقضت الحركتـان في المنطلـق رؤاهـا فـي حركتـي الإخـوان المسـلمين ومصرالفتاة. تناقضت الحركتان في المنطلق،جاءت الأولـي بجذورها من الدين الاسلامي، وجاءت الثانية بأصولها مـن الفراعنة، لكنهما اتفقتا في شئ واحد: بالمعاول الشديدة فـي جذور الليبرالية. كات الإخوان المسـلمون إنتفاضـا علـي الأسس العلمانية لليبرالية المصرية، دعوة سافرة الي دولـة يحوز المسلمون انتقاضا علي الأسـس العلمانيـة لليبراليـة المصرية،دعوة سافرة إلي دولة يجوز المسلمون من أبنائهـا حق المواطنة ويصبح الآحرون أهل ذمة أو مستأمنين. وتلغي فيها الأسس الزمنية للتشريع، فلا يشرع أهل كل زمان بمـا يوافق المصلحة، بل يطبق التشريع الخالد الـذي جـاء مـن السماء ليصلح لكل زمان ومكان، وتندمج السلطات الـثلاث التي فصلها مونتسيكو في سـلطة الخلفيفـة كحـاكم دينـي

وسلطان دنيوى، ولا تعود الأمة مصدر السلطات لأن الخليفة هو ظل ا علي الأرض يطبق شريعته ويسأل أمامه أو أمام أئمة الإسلام، لا أمام ممثلي الشعب المنتخبين. واتفق الاخوان مع مصر الفتاه في ذلك الهجـوم الضـاري علـي النظـام الحزبي، يشهران بفساده، ويدعوان الي إلغائه.

في ذلك الوقت صدرت (عودة الروح) لتوفيق الحكـيم، لتكون مانيفستو المرحلة، ها نحن أمام دعوة تكتشف مميزات مصر فترى وحدة بين الفلاح وبهائمـه، وبـين الاقطـاعي وخدمة وتنتظر عصرا سيأتي بالمخاص ذلك الذي سيصـبح الكل فيه واحدا. وفي هذا المناخ تربي الضـباط الأحـرار، قرأوا عن أتاتورك الذي ينبي تركيا المستقلة بالغاء (التهريج) الديمقراطي الليبرالي وتعليق كل المعارضين في المشانق[1]

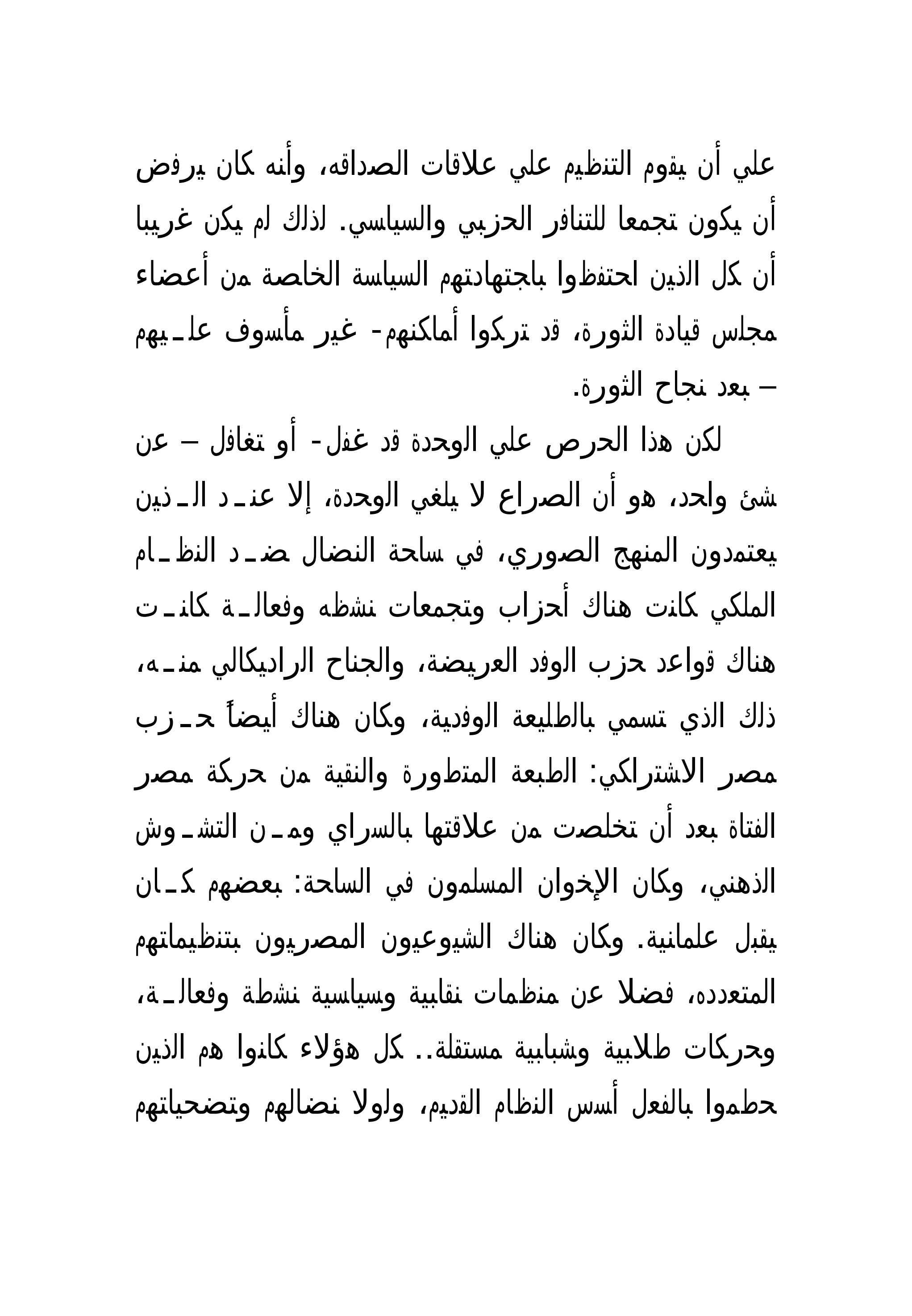
---

[1] في زاوية عنوانها (ضيف التحرير) كانـت تنشـرها مجلـة (التحرير) أولي المجلات التي أصدرتها ثورة ٢٣ يوليو، سأل قـارئ أنور السادات عن الكتاب الذي أثر في حياته، فقال: كتاب الذئب الأغبر مصطفي كمال اتاتورك، الذي ألفه أرمترونج ، فمنذ قرأته تغير مسـار حياتي (التحرير ١٩٥٣) ويلاحظ أن أنور السادات وشـقيقة عصـمت يحملان أسماء لزعماء حركة الاتحاد والترقي التركية. وكانت السنوات

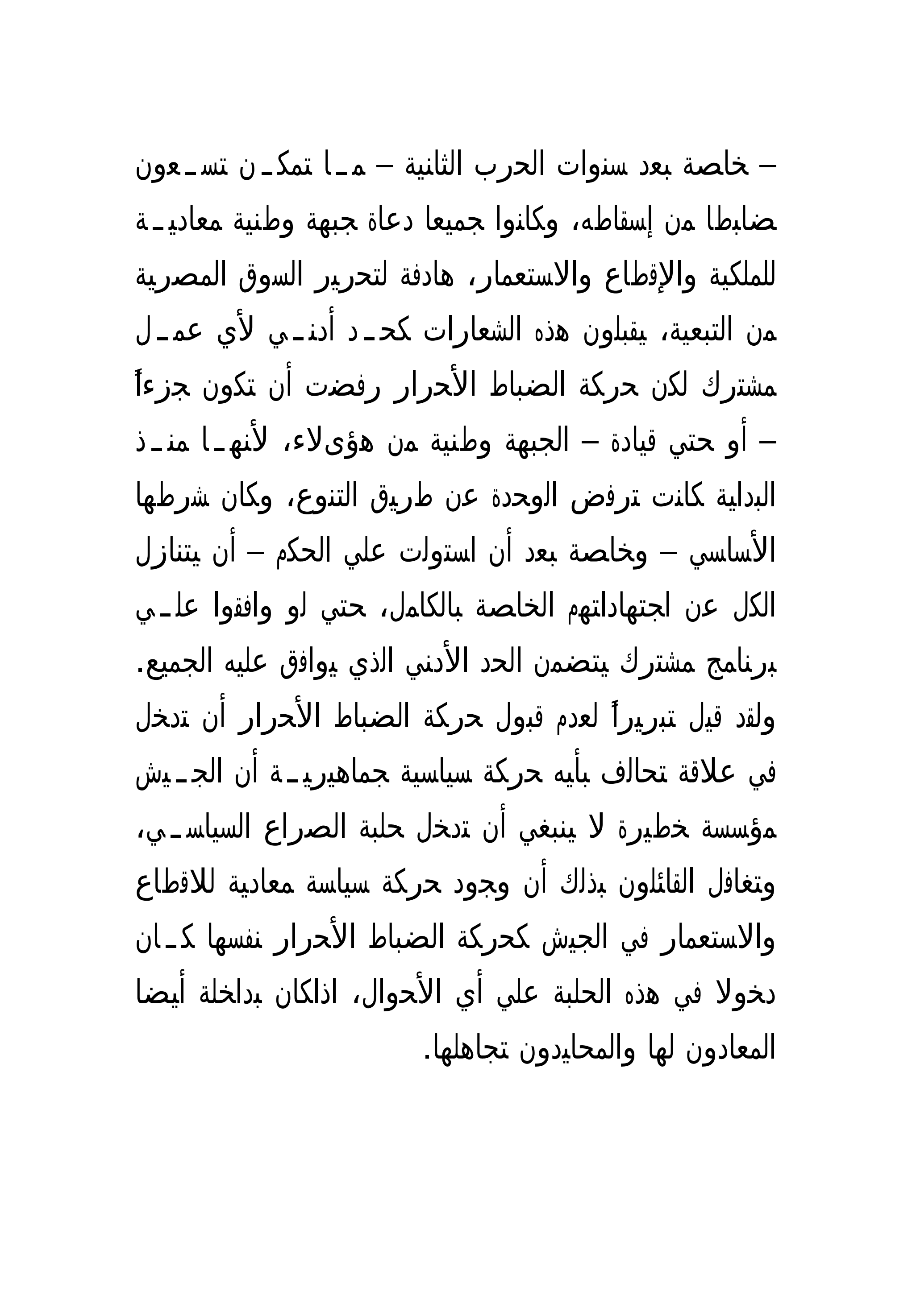
وتربوا في منظمات تكره الأحزاب والحزبية وتعارضـهما، وقرأوا عودة الروح فتشبعوا بفكرة الواحد الذي يندمج فيـه الكل. وعندما وقع الوفد – حزب البرجوازية الليبرالية الكبير – معاهدة ١٩٣٦. معلنا بذلك أن هذه كل طاقاتـه.. أخـذت البرجوازية الصغيرة الفرصة للترويج لأيديلوجية الكل فـي واحد، وظلت تنتظر المستبد العادل. وفي الجيش حيث تربي الضباط الأحرار وتكونوا كانت الفكرة تتأكد بطبيعة النظـام العسكري نفسه، نظام السمع والطاعة.حيث القائد لا ينـاقش ولا يرد له أمر، وحيث تفرض الضرورة تطويع كل مـدني قادم من الخارج وكسر كل قدرة لديه علي مناقشة الأوامر.

فيما بعد قال جمال عبد الناصر في فلسـفة الثـورة أن الجيش كان وحدة المؤهل للقيام بالثورة، ومن مبرراته لـذلك قوله (كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرب ما بين أفرادها اطار واحد، يبعد عنهم إلي حد ما صراع الأفراد والطبقات)، وفي بعض ما نشره أنور السادات من ذكرياته عـن فتـرة تكون الضباط الأحرار ذكر أن عبد الناصر كـان يحـرص

التي ولد فيها معظم اعضاء مجلس قيادة الثورة، هي سنوات المد التـي شهدت بناء تركيا الحديثه، علي يد الجنرال مصطفي كمال أتاتورك.


علي أن يقوم التنظيم علي علاقات الصداقه، وأنه كان يرفض أن يكون تجمعا للتنافر الحزبي والسياسي. لذلك لم يكن غريبا أن كل الذين احتفظوا باجتهادتهم السياسة الخاصة من أعضاء مجلس قيادة الثورة، قد تركوا أماكنهم- غير مأسوف علـيهم – بعد نجاح الثورة.

لكن هذا الحرص علي الوحدة قد غفل- أو تغافل – عن شئ واحد، هو أن الصراع لا يلغي الوحدة، إلا عنـد الـذين يعتمدون المنهج الصوري، في ساحة النضال ضـد النظـام الملكي كانت هناك أحزاب وتجمعات نشظه وفعالـة كانـت هناك قواعد حزب الوفد العريضة، والجناح الراديكالي منـه، ذلك الذي تسمي بالطليعة الوفدية، وكان هناك أيضاً حـزب مصر الاشتراكي: الطبعة المتطورة والنقية من حركة مصر الفتاة بعد أن تخلصت من علاقتها بالسراي ومـن التشـوش الذهني، وكان الإخوان المسلمون في الساحة: بعضهم كـان يقبل علمانية. وكان هناك الشيوعيون المصريون بتنظيماتهم المتعدده، فضلا عن منظمات نقابية وسياسية نشطة وفعالـة، وحركات طلابية وشبابية مستقلة.. كل هؤلاء كانوا هم الذين حطموا بالفعل أسس النظام القديم، ولولا نضالهم وتضحياتهم



– خاصة بعد سنوات الحرب الثانية – مـا تمكـن تسـعون ضابطا من إسقاطه، وكانوا جميعا دعاة جبهة وطنية معاديـة للملكية والإقطاع والاستعمار، هادفة لتحرير السوق المصرية من التبعية، يقبلون هذه الشعارات كحـد أدنـي لأي عمـل مشترك لكن حركة الضباط الأحرار رفضت أن تكون جزءاً – أو حتي قيادة – الجبهة وطنية من هؤلاء، لأنهـا منـذ البداية كانت ترفض الوحدة عن طريق التنوع، وكان شرطها الأساسي – وخاصة بعد أن استولت علي الحكم – أن يتنازل الكل عن اجتهاداتهم الخاصة بالكامل، حتي لو وافقوا علـي برنامج مشترك يتضمن الحد الأدني الذي يوافق عليه الجميع. ولقد قيل تبريراً لعدم قبول حركة الضباط الأحرار أن تدخل في علاقة تحالف بأيه حركة سياسية جماهيريـة أن الجـيش مؤسسة خطيرة لا ينبغي أن تدخل حلبة الصراع السياسـي، وتغافل القائلون بذلك أن وجود حركة سياسة معادية للاقطاع والاستعمار في الجيش كحركة الضباط الأحرار نفسها كـان دخولا في هذه الحلبة علي أي الأحوال، اذاكان بداخلة أيضا المعادون لها والمحايدون تجاهلها.

وإذن فقد اعتمد الضباط الأحـرار فكـر البرجوازيـة الصغيرة ذاك الذي تكون في الثلاثينات باحثا عـن المسـتبد العادل، حالما بدولة قوية ترفرف عليها أحلام الرخاء، متنكراً لأي رؤية طبقية، عاجزا عن تحديد ملامحه، فأمريكا دولـة رخاء والاتحاد السوفيتي دولة رخاء والمانيا الهتارية دولـة رخاء، وهو يريد دولة رخاء فيتساوى لدية- وهمـا – كـل هؤلاء.. يختلط تراثـه بتجربـة اتـاتورك ومحمـد علـي وموسوليني وهتلر يرفض الليرالية لكنه لا يرفض الراسمالية وقد افلتت الفرصة من يد الضباط الأحـرار لكـي يحققـوا ماكانوا يطمحون اليه بافضل الأساليب مرتين، الأولي وهـم يعدون للانقلاب، والثانية في أزمة مارس ١٩٥٤، فقد كـان ممكنا أيامها ان يكونوا جبهة وطنية ديمقراطية مـن قواعـد حزب الوفد، والجناح المتقدم من الإخوان المسلمين وحـزب مصر الاشتراكي والشوعيين، بقيادتهم كحزب قال عن نفسه يوما أنه اشتراكي جمهوري.

في ساحة المجتمع كانـت شـرائح مـن البرجوازيـة المصرية الكبيرة التي نمت خلال الحرب العالميـة الثانيـة تنتظر ايديلوجية مثل هذه: وحده بلا تنوع. تجمع في مسـتبد

عادل. كان الضباط الأحرار في مجملهم من أبناء الشـرائح الصغري أو الوسطي من البرجوازية يحملون، لكن الواقـع الاقتصادي هو الذي حدد من الذي فاز بالثورة علي الأقل في سنواتها التسع الأولي.. وهكذا لم تستول البرجوازية الصغيرة علي السلطة – كما يقول بعض إخواننا الماركسيين في مصر والعالم العربي- فالبرجوازية الصغيرة أصلاً ليست لها مواقع انتاجية تدفع بها السلطة، وربما كان التعبير الدقيق أن نقـول ان البرجوازية الصغيرة كانت في (الحكومة) بينمـا كانـت البرجوازية الكبيرة في (السلطة).

والاجتهاد الذي طرحتـه ثـورة ٢٣ يوليـو للمسـألة الديمقراطية لم يتبلور مرة واحدة، لكنـه خضـع فـي كـل الأحوال – وربما لهذه اللحظة لقاعة واحدة، هي اعتماد حرية التملك باعتبارها الحرية الوحيدة من الفكر الليبرالي والـدفاع عنها بنظم وهياكل ديمقراطية مستعارة من الأنظمة الشمولية، في أول أيام الحركه أكد الجيش انه سيحمي دسـتور ١٩٢٣ وألصق بذلك ملصقات في الشوارع، ثم ألغي هذا الدسـتور نهائيا وشيعة بألف لعنه، وأكد أن كل ما يطلبة من الأحزاب هو تطهير نفسها، ثم حلها وشيعها بحملة دعائية ضارية مـا

زالت تلاحقها الي الآن [1] وأعلن فترة انتقال مدتها ثـلاث سنوات لوضع دستور جديد، وعين جمعية تأسيسية لوضـع ذلك الدستور.. فاختارت ان تكون مصر جديد، فاختارت أن تكون جمهورية برلمانية متعددة الأحزاب وقبلت بما كان قـد أنجز حتي ذلك الحين من إصلاحات اجتماعية لكنه اسـتبدل مشروعها بمشروع من عنده هو دستور ١٩٥٦ ليعلن مصر جمهورية رئاسية بلا أحزاب، بل بما عرف بعد ذلك بالإتحاد القومي.

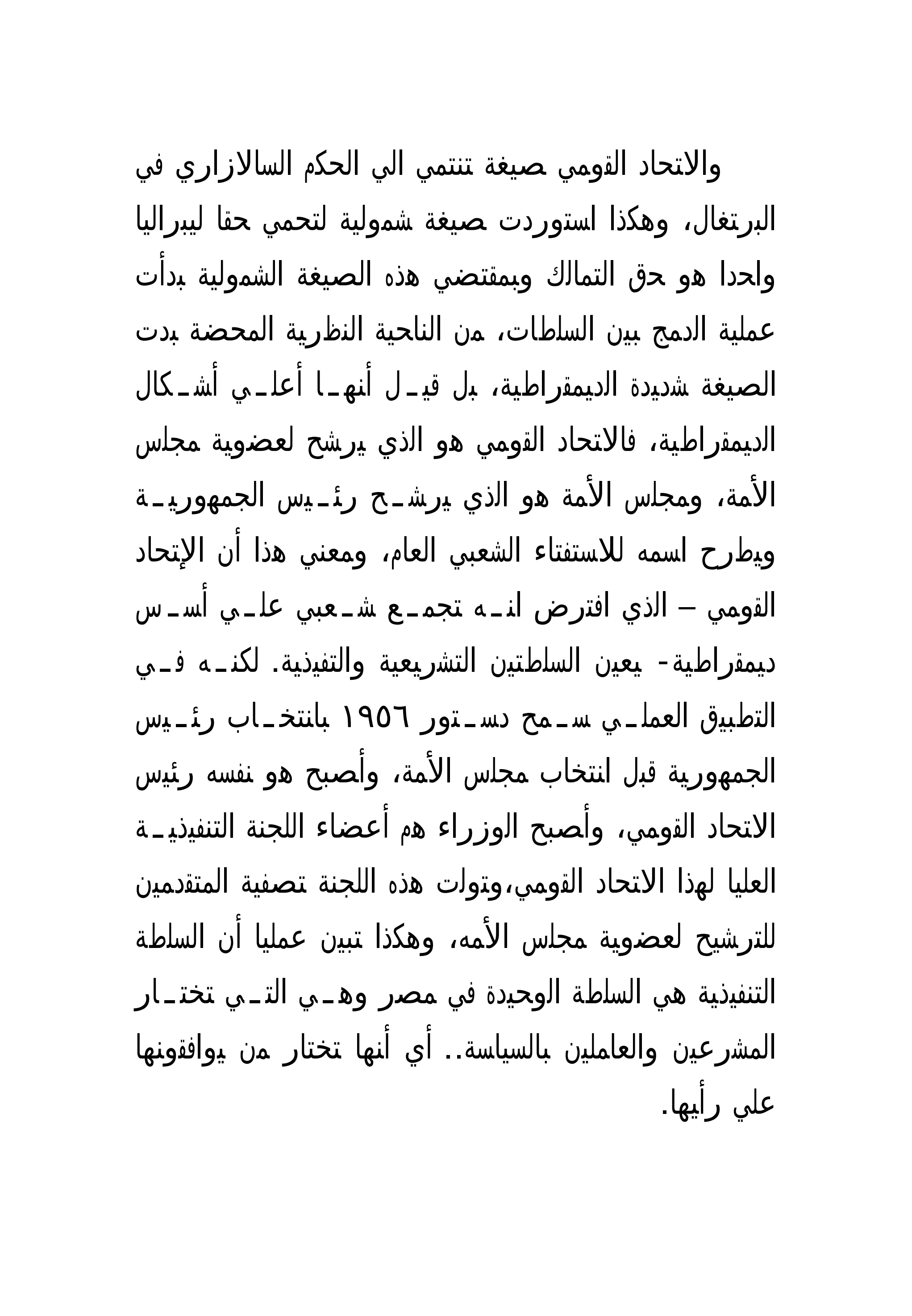
لقد اخذ دستور ١٩٥٦ بنفس المبادئ التي تأخذ بها كل الدساتير البرجوازية من حيث حماية لملكية والدفاع عنها، إذا أقر حرية النشاط الإقتصادي الخـاص، وأكـد أن الملكيـة الخاصة مصونة وأن القانون ينظم أداء وظيفتها الاجتماعية، وحرم نزع الملكية إلا للمنفعة العامة ومقابل تعويض عـادل وفقا للقانون، وأكد أن المصادرة العامة للأموال محظـورة،

---

[1] يختلف الدارسون لتاريخ مصر مع كثيـر مـن الأجتهـادات الرسمية التي قيمت النشاط الحزبي في مصر قبل الصورة هذا التقيـيم غير المتصق ، ومظم وثائقنا الرسمية ومنها ورقـة اغسـطس تعتمـد تقييماً يدعو للإختلاف من وجهة نظر المؤرخين المحايدين.

ولا تكون عقوبة المصادرة الخاصة إلا بحكم قضاء (المـواد من ١٨-١١ ومادة ٥٧ من دستور ١٩٥٦).

وهذا الاهتمام البالغ بالتأكيد علي حرية التملك والتشـدد في صيانتها لم يقابله اقرار بحرية الـذين لا يملكـون حـق التعبير عن مصالحهم، إذا نابت الدولـة عـنهم فـي ذلـك، فتعهدت بأن تيسر لهم مستوى لائقاً من المعيشـة وتعهـدت بدعم الأسرة وحماية الأمومة والتوفيق بـين عمـل المـرأة وواجباتها الأسرية وحماية النشئ والمعونـات الاجتماعيـة (المواد ١٧- ٢٥). وفي حين أقر نظريا في الدسـتور حـق تكوين النقابات والجمعيات وحرية الاجتماع، وأقرت حريـة الصحافة والطباعة والنشر، وحرية الرأي والبحـث العلمـي وحق التعبير، إلا أن هذا الإقرار قد افتقد وسائله، لأن حـق تكوين الأحزاب قد صودر، بنص الدستور علي أن (يكـون المواطنون اتحادا قومياً لبناء الأمة بناء سليما من النـواحي السياسي والاجتماعية والاقتصادية، ويتولي الاتحاد القـومي الترشيح لعضوية مجلس الأمة، وتبين طريقة تكـوين هـذا الاتحاد بقرار من رئيس الجمهورية).



والاتحاد القومي صيغة تنتمي الي الحكم السالازاري في البرتغال، وهكذا استوردت صيغة شمولية لتحمي حقا ليبراليا واحدا هو حق التمالك وبمقتضي هذه الصيغة الشمولية بدأت عملية الدمج بين السلطات، من الناحية النظرية المحضة بدت الصيغة شديدة الديمقراطية، بل قيـل أنهـا أعلـي أشـكال الديمقراطية، فالاتحاد القومي هو الذي يرشح لعضوية مجلس الأمة، ومجلس الأمة هو الذي يرشـح رئـيس الجمهوريـة ويطرح اسمه للاستفتاء الشعبي العام، ومعني هذا أن الإتحاد القومي – الذي افترض انـه تجمـع شـعبي علـي أسـس ديمقراطية- يعين السلطتين التشريعية والتنفيذية. لكنـه فـي التطبيق العملـي سـمح دسـتور ١٩٥٦ بانتخـاب رئـيس الجمهورية قبل انتخاب مجلس الأمة، وأصبح هو نفسه رئيس الاتحاد القومي، وأصبح الوزراء هم أعضاء اللجنة التنفيذيـة العليا لهذا الاتحاد القومي،وتولت هذه اللجنة تصفية المتقدمين للترشيح لعضوية مجلس الأمه، وهكذا تبين عمليا أن السلطة التنفيذية هي السلطة الوحيدة في مصر وهـي التـي تختـار المشرعين والعاملين بالسياسة.. أي أنها تختار من يوافقونها علي رأيها.

ولقد كان هناك دائما ذلك الحرص النظري علي التأكيد بأن كل التنظيمات بلا هوية طبقية، أنها أمة بأكملها تجتمـع علي الحب والوحدة بلا صـراع، فهيئـة التحريـر تنظـيم (لمختلف طبقات الأمة، هدفه إقامة وحدة وطنية داخل إطـار من المحبة والتعاون لتحقيق الأهـداف الوطنيـة) والاتحـاد القومي (لم يكن يمثل حزبا ولايمثل احتكار لفئة من النـاس ولكنه كان يمثل أبناء الأمة كلهم بجميع طبقاتهم داخـل أدار من المحبة والوحدة الوطنية لحل المتناقضات بوسائل سلمية). وفي وقت متأخر.جداً – وعندما أصبح ضـروريا ً تبريـر كوارث عديدة وقعت – اضطر الذين روج هذه الاجتهـادات الي سحبها، وأكدوا أن الاتحاد القومي كان منظمـة طبقيـة يسيطر عليه ويوجهه الذين يملكون ويستثمرون، فعندما وقع الصدام بين الطليعة السياسية وطبقتها بقرارات يوليو ١٩٦١، قيل أن (هناك عناصر رجعية واستغلالية استطاعت التسـلل الي هذا الاتحـاد، واخـذت تهـاجم القـرارات والقـوانين (الاشتراكية) وتشكك في جديته أو تذيع الإشاعات والأراجيف عنها ، بل بدأت هذه العناصر تعيد تنظيم صفوفها لمحاولـة الانقضاض علي مكاسب قوى الشعب العاملـة). فـي هـذا

الوقت نفسه اكتشف الذين قالوا ذلك أن الاتحاد القومي لم يكن محبة ولا وحدة، ولم يذوب تناقضا بشـكل سـلمي أو غيـر سلمي وإنما كان – كما اكتشفوا فجأة – تجمعا شعبيا يغلـب عليه الطابع الفردي، وكان اقترابا غير منظم تجاه مجموعـة من الأماني العامة ليس له أى منهاج تفصيلي تلتقـي عنـده جهود جماعية علي اساس فكري واضح لتصدر عنـه إرادة شعبية عميقة ومؤثرة)[(1)] وبذلك أكدوا أنه كان منظمة شكلية هدفها تمييع عملية الجدل الاجتماعي وكبت حركة الـذين لا يملكون.

وعندما طرحت المسألة الديمقراطية نفسها علي الإهتمام العام عقب انفصال سوريا عام ١٩٦١ ، ومن خلال تشـهير شديد قام به الانفصاليون بحكم الأجهزة البوليسية الذي كـان يسود اقليمي الجمهورية تكشفت الآثار السلبية لمرحلة الجزر الديمقراطى الشديد ، لا على الجماهير فحسب ، ولكن علـى سلطة الحكم أيضا ، كما أن العديد من الأحلام التـي علقهـا البعض علي قرارات يوليو قد اجهضت بسبب الإصرار علي

[(١)] هذه التقييمات كلها وارده في الكتاب السنوي الأول للأتحـاد الإشتراكي ١٩٦٤- مطابع الشعب

الإبقاء علي نفس الهياكل التي كانت الديمقراطية تمارس من خلالها ، أو بمعني أدق، التي لم تكن تمارس من خلالهـا . فاللجنة التحضيرية التي دعيت لتكاف بالدعوة الـي مـؤتمر وطني للقوي الشعبية، جاءت لجنه معينة من السلطة التفيذية ، وجرت مناقشاتها في ظروف جزر ديمقراطـي حـاد، اذا كانت المعتقلات فاغرة الأفواه ومليئة بكل الـذين اجتهـدوا للعمل للعام قبل الثورة وأثنائها. والأحكـام العرفيـة معلنـة والصحف مراقبة وملك – اسما – الإتحـاد القـومي الـذي اجتمعت اللجنة للأعداد لبيل له بسـبب رجعيتـه. وجـرت انتخابات المؤتمر الوطني للتقوي الشعبية في نفس المنـاخ، وطرح الميثاق للنقاش، فانعزلت عن مناقشته القـوى التـي تستطيع ان تفجر منه شيئا يدفع الحركة الي الأمام ديمقراطيا، وجاءت قوى الوسط الحريص علي الملكية ، الشـرس فـي الدفاع عنها، لتكون مركز الثقل في أعما المؤتمر، ولتصدير تقريرها الشهير الذي فسر أهم نقاط الميثـاق، فالاشـتراكية العلمية تعني في راية الاستفاده مـن العلـوم فـي تطبيـق الاشتراكية ، ومساواة المرأة بالرجل في حـدود الشـريعة، ونسبة ال ٥٠% مخصصه لفلاحين يملكون ٢٥ فداناً فأقـل،

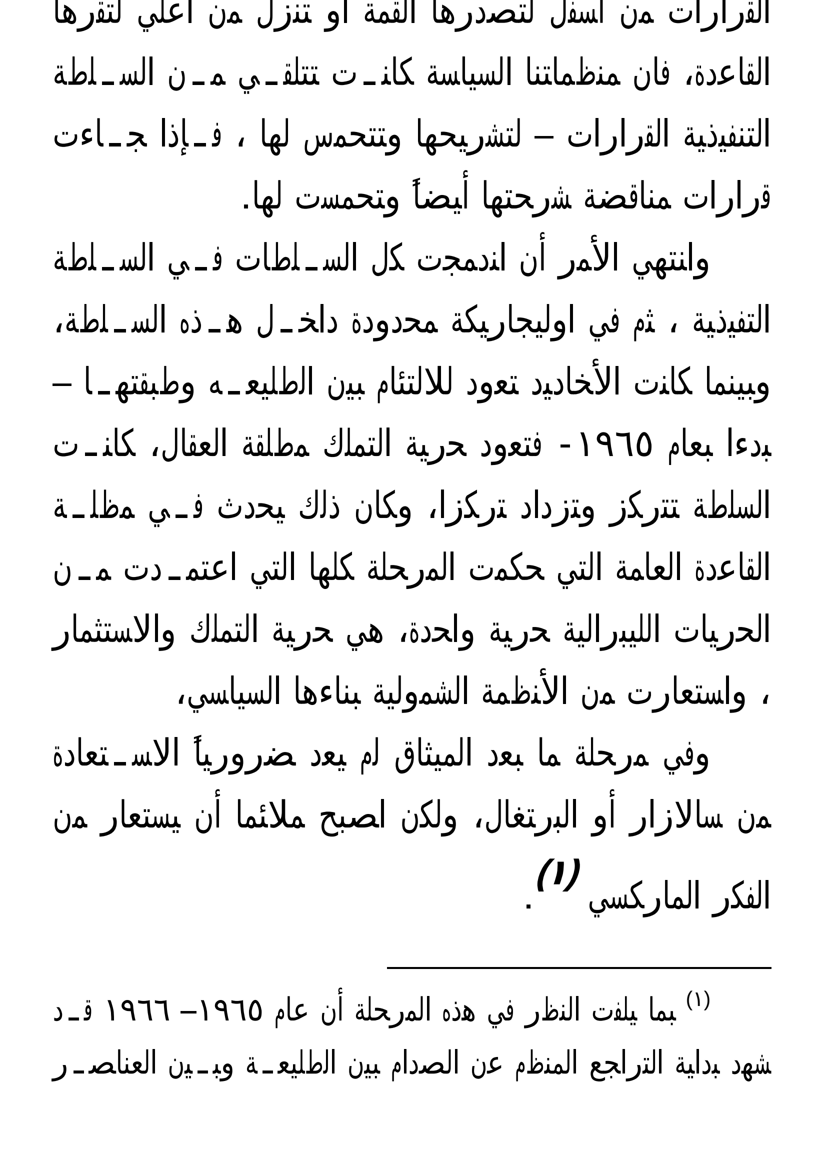
ولعمال يعملون بعقود عمل فردية ويتوقفون قبل درجة المدير العام *(١)*

وجاءت نسبة ال ٥٠%، مثالاً وتاكيداً علي سياده منهج طرد القوى الشعبية طردا فعلياً من حلبة العمل السياسـي ، فهي البديل الذي اختير بذكاء ليحل محل حق هذه الطبقـات في التعبير السياسي عن نفسها، وكشف تطبيقة عمليـا لمـده عشر سنوات عن هدفه الحقيقي ونفس الأمر بالنسبة لممثلـي العمال في مجال ادارات المؤسسات الذي لم يمنـع انتهـاب الطبقة الجديدة لهذه المؤسسات بل نقل معظم ممثلي العمـال في هذه المجالس الـي صـف التحـالف مـع البرجوازيـة البيروقراطية.

في كل ذلك اعتمد أسلوب التنظيم الهرمي، فـي هيئـه التحرير وفي الاتحاد القومي وفي الاتحاد الاشـتراكي بكـل مراحل هدمه وإعادة بنائه، حيث تضيق تدريجيا دائرة الذين يتخذون القرار وتتسال السطلة بالتفويض لتجميع علي القمـة فإذا اللجنة التفيذيه العليا – اذا شكلت – هي نفسها الحكومـة

---

(١) تشكل محاضر المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ١٩٦٢ – وثيقة هامه علي تدني الوعي السياسي لذي اعضائة.



وبعكس المتبع في أي منظمـة ديمقراطيـه حيـث تصـعد القرارات من أسفل لتصدرها القمة او تنزل من اعلي لتقرها القاعدة، فان منظماتنا السياسة كانـت تتلقـي مـن السـلطة التنفيذية القرارات – لتشريحها وتتحمس لها ، فـإذا جـاءت قرارات مناقضة شرحتها أيضاً وتحمست لها.

وانتهي الأمر أن اندمجت كل السـلطات فـي السـلطة التفيذية ، ثم في اوليجاريكة محدودة داخـل هـذه السـلطة، وبينما كانت الأخاديد تعود للالتئام بين الطليعـه وطبقتهـا – بدءا بعام ١٩٦٥- فتعود حرية التملك مطلقة العقال، كانـت السلطة تتركز وتزداد تركزا، وكان ذلك يحدث فـي مظلـة القاعدة العامة التي حكمت المرحلة كلها التي اعتمـدت مـن الحريات الليبرالية حرية واحدة، هي حرية التملك والاستثمار ، واستعارت من الأنظمة الشمولية بناءها السياسي،

وفي مرحلة ما بعد الميثاق لم يعد ضرورياً الاسـتعادة من سالازار أو البرتغال، ولكن اصبح ملائما أن يستعار من الفكر الماركسي [(1)].

[(١)] بما يلفت النظر في هذه المرحلة أن عام ١٩٦٥– ١٩٦٦ قـد شهد بداية التراجع المنظم عن الصدام بين الطليعـة وبـين العناصـر

في مباحثات الوحدة الثلاثية تناول جمال عبد النصـار نظرية فصل السلطات بالنقد من منظور ماركسي ، (أنا ضد مبدأ فصل السلطات أصـلا، وباعتبـار أن عمليـة فصـل السلطات ذي خدعة كبرى، ليه؟.. لأن الحقيقة مافيش حاجـة اسمها فصل السلطات، لأن اللي عنده الأغلبية في البرلمـان هو اللي بياخد السلطة التنفيذيـة والتشـريعية. اذن القيـادة السياسية اللي عندها الأغلبية بتبقي في يدها حاجتين: السلطة التفيذية والسطلة التشريعة، وبالتالي السلطة القضـائية ، لأن السلطة القضائية خاصعة للسلطة التشريعية مهما قالوا عنهـا

المستمرة، ورغم ذلك فإن السيد علي صبري – وكـان أمينـا عامـا للإتحاد الإشتراكي أيامها – كان ينشر في جريدة الجمهوريـة أفكـاراً شديدة اليسارية، أهمها تعريفه الشـهير للرأسـمالية الوطنيـة بأنهـا البرجوازية الصغيرة، هذا في الوقت الذي كان قـد صـفي فيـه كـل العناصر اليسارية التي كانت في منظمة الشباب والمعـد الإشـتراكي وبعض العناصر من خارج الإتحاد الإشتراكي فـي حملـة إعتقـالات أكتوبر ١٩٦٦ الشهيرة . وكان الرئيس الراحل عبد الناصر قـد أدلـي بحديث يتضمن أيضا أجتهاداً مثل هذا . وهو مثال علي تناقضات كثيرة بين الإقوال ولأفعال ظلت سمة رئيسية من سمات العمل السياسي فـي بلادنا خلال الأعوام العشرين الماضية.

انها مستقلة. وأن الكلام ده اللي طلع في فرنسا أيام منتسكيو علي فصل السلطات كلام نظرى ولكنه واقعا لم ينفذ)[٢] هذا السعي لدمج السلطات بنقدها نقداً ماركسياً تواكب مع استعارة صيغة أخري من التجربة السوفيتية هي صيغة السـوفيتات ، قال عبد الناصر (في روسيا لم يعتمدوا علي الحزب بـس... الحزب سنة ١٧ كان عشرة لآلف... ولكن اعتمـدوا علـي مجالس السوفيتات اللي هي تآلف العمال والفلاحين ... لـو كان لينين اعتمد علي الحزب بس ما كانش مشي، لازم قوى الشعب العاملة تيجي. والحزب لـن يكـون إلا القائـد وإلا الطليعة، الحزب بس حيبعد بقية الناس. ازاي تلم الدنيا كلهـا وتخليها تمشي معـاك: المجـالس الشـعبية. ازاي بتتكـون المجالس الشعبية؟. من قوى الشعب العاملة فـي البرنـامج الأول لينين قال: كل السلطة لمجالس السـوفيتات، الخمـس

---

[٢] مباحثات الوحدة الثلاثية – طبعة الدار القوميـة ص ٤٥٦ – ٤٥٧ .

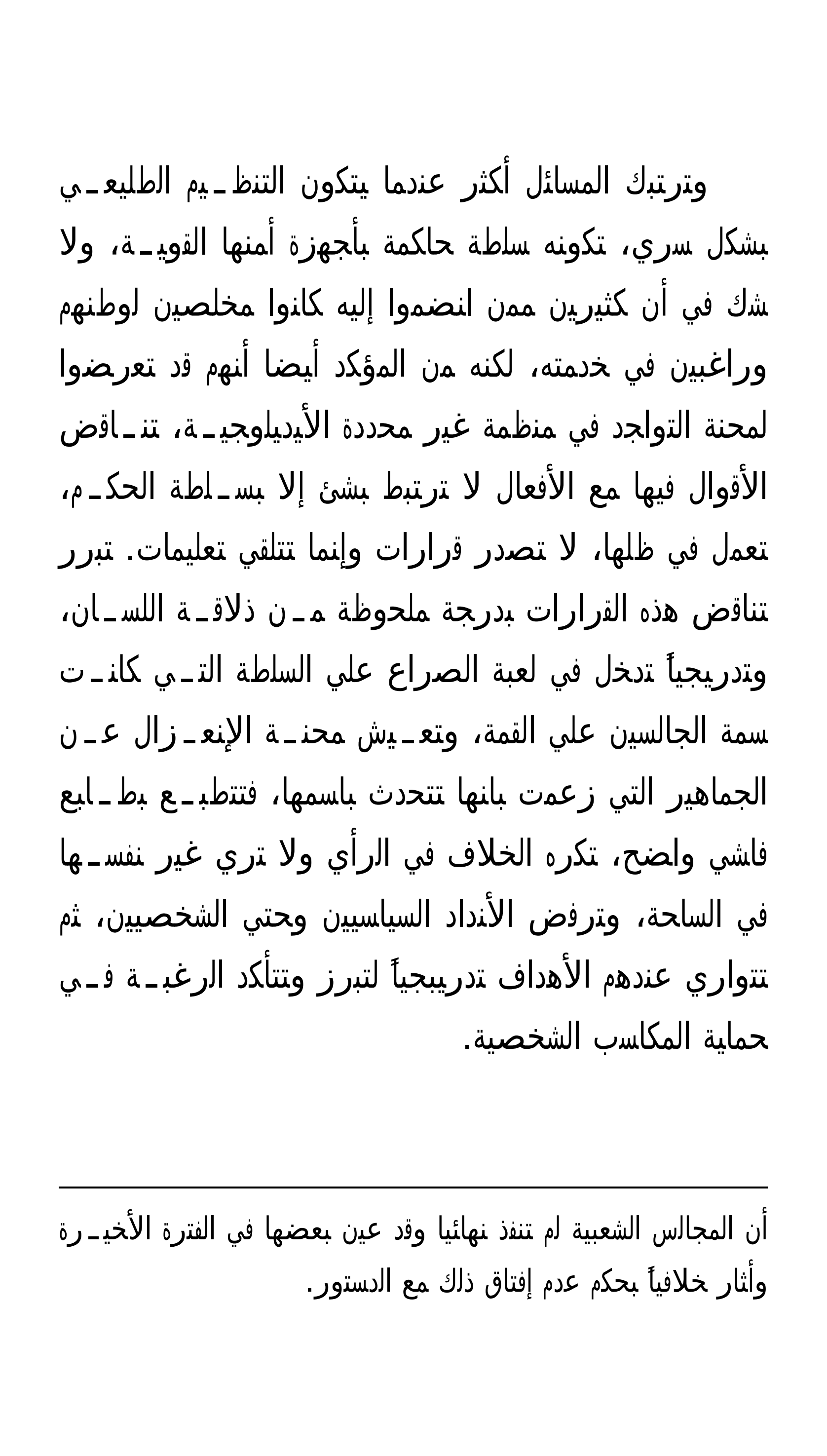
سنين الأول كله مبني علي هذا . مـا قـالش كـل السـلطة للحزب. وما قالش ديكتاتورية الحزب.(٣)

لكن هذه الاستعارة المراكسية ترفض الأساس الطبقـي للماركسية، انها استعارة تغطي وتحمي طبقات اخري، مـن هنا كان منطقيا أنه عند مناقشة ميثاق الوحدة الثلاثية تجـئ فقرة في إحدي المواد تحدد من هو أعداء الشـعب فتضـيع بينهم (كل من عمل أو يعمل لفرض سيطرة الطبقة الواحـدة علي المجتمع) فإذا ما اعترض عضو غير مصري طالبا ان يكون النصر (كل من عمل أو يعمل لفرض سيطرة الطبقـة المستغلة أو الطبقات المستغلة علي المجتمع) قيل لـه (.. ده ممكن الشيوعية كما تكون موجودة، وهم مبـدأهم سـيطرة البروليتاريا علي المجتمع... دكتاتورية البروليتاريا يعنـي. بيتهيأ لي ، النص ده تعمل أساسا عشان دول)(١).

---

(٣) المصدر نفسه ص ٥٦١ .

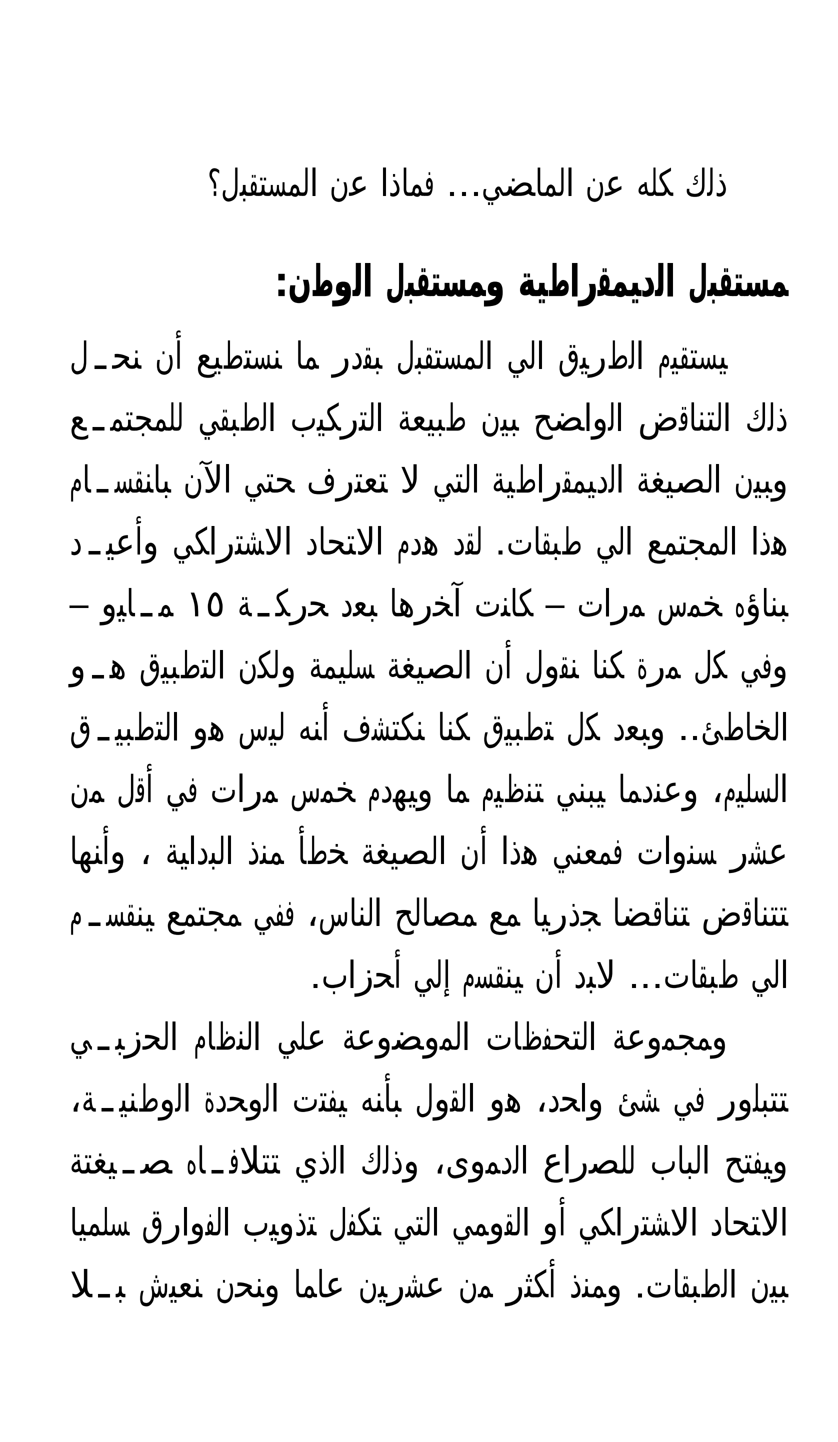
(١) راجع المناقشة حول هذه النقطة في المصدر نفسه ص ٣٦٩/ ٣٧٠ وقد صدر هذا الإعتراض عن السـيد كمـال الـدين حسـين ، وعارضه السيد طالب شبيب، وكان الرئيس الراحل عبد الناصـر مـع رأئ شبيب ولكن الميثاق أعلن وفيه رأي كمال الدين حسين. ويلاحـظ



وترتبك المسائل أكثر عندما يتكون التنظـيم الطليعـي بشكل سري، تكونه سلطة حاكمة بأجهزة أمنها القويـة، ولا شك في أن كثيرين ممن انضموا إليه كانوا مخلصين لوطنهم وراغبين في خدمته، لكنه من المؤكد أيضا أنهم قد تعرضوا لمحنة التواجد في منظمة غير محددة الأيديلوجيـة، تنـاقض الأقوال فيها مع الأفعال لا ترتبط بشئ إلا بسـلطة الحكـم، تعمل في ظلها، لا تصدر قرارات وإنما تتلقي تعليمات. تبرر تناقض هذه القرارات بدرجة ملحوظة مـن ذلاقـة اللسـان، وتدريجياً تدخل في لعبة الصراع علي السلطة التـي كانـت سمة الجالسين علي القمة، وتعـيش محنـة الإنعـزال عـن الجماهير التي زعمت بانها تتحدث باسمها، فتتطبـع بطـابع فاشي واضح، تكره الخلاف في الرأي ولا تري غير نفسـها في الساحة، وترفض الأنداد السياسيين وحتي الشخصيين، ثم تتواري عندهم الأهداف تدريبجياً لتبرز وتتأكد الرغبـة فـي حماية المكاسب الشخصية.

أن المجالس الشعبية لم تنفذ نهائيا وقد عين بعضها في الفترة الأخيـرة وأثار خلافياً بحكم عدم إفتاق ذلك مع الدستور.

كثيرون يحاولون أن يحملوا فرداً مسئولية هـذا كلـه. وهذا نوع من الصغار الفكري، إذا الحقيقة أن الظاهرة نفسها قد تكونت بهذا الشكل، بحكم ضرورة تاريخية فرضت نفسها، ولو كانت الحركة الثوريـة المعاديـة للاسـتعمار – علـي مشارف الثورة – أكثر تبلورا وتنظيما، لم تخطئ في تقـدير مدي قوتها ومدي ضعف وتـدهور النظـام القـديم، اذن لا ستطاعت أن تفرض الصيغة التي كانت أكثر ملاءمة لتطور مصر الـديمقراطي: صـيغة الجبهـة الوطنيـة المعاديـة للامبريالية، لكنها عجزت – الظروف تاريخية – عن ذلك . وكان طبيعياً أن تطـرح البرجوازيـة المصـرية الصـيغة الديمقراطية التي طبقتها طوال الأعوام العشرين الماضـية، فتستعير أشكالا شـمولية لمجتمـع يحمـي بالنـاب حريـة الاستثمار، وتمارس أوسع عمليـات التضـليل الأيـديلوجي وأكثرها أحكاما وبراعـة فتنظـر – أو تفلسـف – للبنيـة الرأسمالية بأفكار لها صفة اليسارية، هذا كله طبيعـي ففـي زمن ينتصر فيه النظام الاشتراكي علي المسـتوي العـالمي يصبح من الصعب علي البرجوازية ألا تتقنع، فحتـي فـي أمريكا نفسها يتحدثون عن الرأسمالية الشعبية!!.



ذلك كله عن الماضي... فماذا عن المستقبل؟

مستقبل الديمقراطية ومستقبل الوطن:

يستقيم الطريق الي المستقبل بقدر ما نستطيع أن نحـل ذلك التناقض الواضح بين طبيعة التركيب الطبقي للمجتمـع وبين الصيغة الديمقراطية التي لا تعترف حتي الآن بانقسـام هذا المجتمع الي طبقات. لقد هدم الاتحاد الاشتراكي وأعيـد بناؤه خمس مرات – كانت آخرها بعد حركـة ١٥ مـايو – وفي كل مرة كنا نقول أن الصيغة سليمة ولكن التطبيق هـو الخاطئ.. وبعد كل تطبيق كنا نكتشف أنه ليس هو التطبيـق السليم، وعندما يبني تنظيم ما ويهدم خمس مرات في أقل من عشر سنوات فمعني هذا أن الصيغة خطأ منذ البداية ، وأنها تتناقض تناقضا جذريا مع مصالح الناس، ففي مجتمع ينقسـم الي طبقات... لابد أن ينقسم إلي أحزاب.

ومجموعة التحفظات الموضوعة علي النظام الحزبـي تتبلور في شئ واحد، هو القول بأنه يفتت الوحدة الوطنيـة، ويفتح الباب للصراع الدموى، وذلك الذي تتلافـاه صـيغتة الاتحاد الاشتراكي أو القومي التي تكفل تذويب الفوارق سلميا بين الطبقات. ومنذ أكثر من عشرين عاما ونحن نعيش بـلا

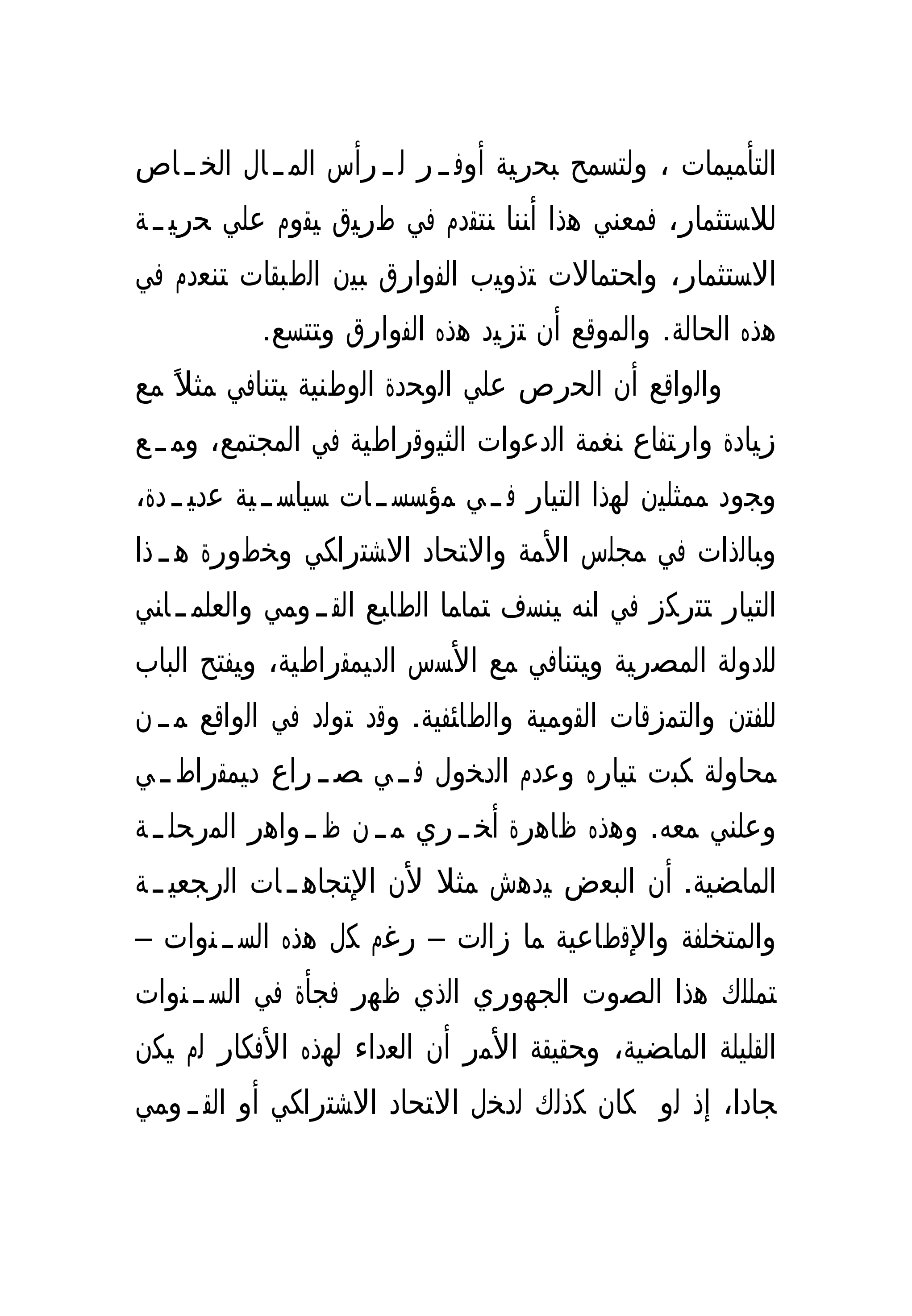
نظام حزبي فهل توقفت الصراعات حقا؟.. ما حدث هـو أن الصراعات السياسية الراقية قد اختفـت وحلـت محلها الصراعات الأقل رقيا. اختفت الأحـزاب السياسـية وتكونت الشلل والتجمعات الشخصية. وبـدلا مـن الـولاء الموضوعي للأهداف – سمة النظام الحزبي برغم كل عيوبه – انتقل الولاء إلي الأشخاص، ليطرح ما سـمي رسـميا ب (مراكز القوي). وشهدت السلطة مجموعة مـن الإنشـقاقات والخلافات التي لم تقع دائماً علي أساس موضوعي. ثـم أن الصراع الطبقي الدموي يجد فرصته الأكبر عنـدما تسـود عمليات الكبت الاجتماعي وعندما تفقد طبقـة مـن طبقـات المجتمع فرصـتها للنضـال الـديمقراطي والسـلمي عـن مصالحها، وهو لا ينتج أبداً بمبادرة من الطبقات المطحونـة والخاضعة للاستغلال، ولكنه يتولد من رفـض المسـتثمرين والمستغلين الخضوع لمنطق العدل في توزيع عائد العمـل. يضاف إلي هذا أن القول بأن الاتحاد الاشتراكي نجـح فـي

تذويب الفوارق بين الطبقات، قول لا توافق عليه الإحصاءات الرسمية التي تؤكد العكس[1]

وإذا كانت ورقة اكتوبر قد جاءت لتؤكد تثبيت أوضـاع الملكية كما هي عليه الآن ، ولتسد الباب امـام مزيـد مـن

---

[1] اتبع السادات في بداية حكمه أسـلوب، إصـدار المانيفسـتو السياسي الذي يحدد هويه الحكم، وكان أول بياناته المشـتعلة ، بيـان وبرنامج ١٠ يونيو ١٩٧١ الذي اصدره عقب انتصاره علي مجموعـة علي صبري، وفيه ثبت الإتجاه الراديكالي الذي الطـابع العـام لفكـر الميثاق الوطني الصادر عام ١٩٦٢، مع تأكيد علي إطلاق الحريـات الديمقراطية، وفي نهاية العام ذاته، صدر برنامج العمل الوطني، وهـو برنامج إصلاحي تفصيلي يتعلق بمجالات النشاط والخـدمات، أشـبه ببرامج الحكومات، وفي عام ١٩٧٤، صدرت ورقـة أكتـوبر، التـي طرحت فكرتين محوريتين ، الأولي هي تثبيت أوضاع الملكية الخاصة وطمأنه الفئات الوسطي في المجتمع علي أنها لن تتعرض إلي مزيد من التأميمات، والثانية، هي القول بتعدد الأراء في داخل الاتحاد الشتراكي، وهي التي تطورت فيما بعد إلي المنابر ثم التنظيمـات ثـم التعدديـة الحزبية. ومع أن كل هذه البيانات قد طرحت للإستفتاء العـام، إلا أن السادات، آثر فيما بعد، أن يتخلص من قيودها، وخاصة أن الجديد منها لم يكن ينسخ القديم ، فأعلن انه لا ميثـاق، ولا ورقـة أكتـوبر، وأن الإطار العام الذي ينظم المجتمع هو الدستور.



التأميمات ، ولتسمح بحرية أوفـر لـرأس المـال الخـاص للاستثمار، فمعني هذا أننا نتقدم في طريق يقوم علي حريـة الاستثمار، واحتمالات تذويب الفوارق بين الطبقات تنعدم في هذه الحالة. والموقع أن تزيد هذه الفوارق وتتسع.

والواقع أن الحرص علي الوحدة الوطنية يتنافي مثلاً مع زيادة وارتفاع نغمة الدعوات الثيوقراطية في المجتمع، ومـع وجود ممثلين لهذا التيار فـي مؤسسـات سياسـية عديـدة، وبالذات في مجلس الأمة والاتحاد الاشتراكي وخطورة هـذا التيار تتركز في انه ينسف تماما الطابع القـومي والعلمـاني للدولة المصرية ويتنافي مع الأسس الديمقراطية، ويفتح الباب للفتن والتمزقات القومية والطائفية. وقد تولد في الواقع مـن محاولة كبت تياره وعدم الدخول فـي صـراع ديمقراطـي وعلني معه. وهذه ظاهرة أخـري مـن ظـواهر المرحلـة الماضية. أن البعض يدهش مثلا لأن الإتجاهـات الرجعيـة والمتخلفة والإقطاعية ما زالت – رغم كل هذه السـنوات – تملك هذا الصوت الجهوري الذي ظهر فجأة في السـنوات القليلة الماضية، وحقيقة الأمر أن العداء لهذه الأفكار لم يكن جادا، إذ لو كان كذلك لدخل الاتحاد الاشتراكي أو القـومي

معركة إيديلوجية ضدها. لقد عوامل الإخوان المسلمون مثلا كعصابة لا كتيـار سياسـي وفكـري، وحوربـوا بـنفس أيديولوجيتهم، وعلي شراسة المعارك التي شنت ضدهم، فإن أحدا– علي الصعيدين الرسمي والشعبي – لم يحاور أفكارهم ، ولم يعلن رفض تيارهم الثيوقراطي، بـل العكـس شـنت المعركة ضدهم دعائياً وفكريـا علـي أسـاس أن الاتحـاد الاشتراكي أكثر ثيوقراطية منهم[1] بديلاً لها فكرة التحـالف

---

[1] برغم كل هذا الهجوم علي الأخوان المسلمين ودخول معارك تصفية جسدية ضدهم بالسجن والإعتقال وإعدام أكثر من عشـرة مـن قادتهم ، فإن أفكارهم ما زالت تملأ الساحة الفكريـة، والـدعوة إلـي الخلافة علنية في منابر متعددة، وتصدر أحياناً من جهـات رسـمية – راجع مثلاً كتاب الإتجاهات الوطنية للأدب الحـديث للـدكتور محمـد حسين – جزءان – مطبعة المعارف ١٩٦١، وهو كتاب كـان مقـرراً للتدريس بكلية الأداب بالاسكندرية وهو يعتبر دعاة القومية المصـرية والعربية من عرابي إلي سعد زغلول إلي عزيـز المصـري عمـلاء للإستعمار الغربي المسيحي. وقدة طبع ونشر ودرس في حياة الـزعيم الراحل عبد الناصر الذي كان – كما هو معروف – من دعاة القوميـة العربية. وهذا دليل علي خطأ الهجوم البوليسي علي التيـارات الفكـرة وإفلاسه.

كما وردت في الميثاق الوطني، وقدمت تطـويرات جديـدة عليها – خاصة في ورقة اغسطس(٢) أهمها الإقـرار بـأن صيغة التحالف هي الأساس ، ولكن شكله قابل للإجتهاد. لكن ورقة أغسطس عندما جاءت لتجتهد في الشكل كررت نفـس الشكل القديم: البناء التنظيمي القائم علي التسلسل الهرمـي.. وبهذا وضعت أمام اجتهادها صعوبات عديدة، أنهـا تطـرح فكرة عضوية التنظيم السياسي المفتوحة لمن يقبـل وثـائق الثورة الرئيسية كبرنامج مرحلي ، وترفض اعتبار اليمينيـة واليسارية تهمة، وتقر وجودهما كاجتهاد سياسـي فتعتـرف

---

(٢) كانت فكرة فك الإتحاد الإشتراكي إلي أحزاب، تتغذي طـوال السنوات الأولي من حكم السادات، بضغط الشرائح الإستثمارية، التـي كانت تخشي من إستمرار الطابع الشمولي للسلطه ، وحين تولي سـيد مرعي منصب الأمين الأول للجنة المركزية للإتحاد، طـرح للحـوار فكرة تعدد الإتجاهات داخل الاتحاد الإشتراكي وقد شاركت أيامهـا – وكنت أعمل في قسم الأبحاث في جريدة الجمهورية– في طرح الفكرة للحوار العام، حيث بدا أن هناك غيار غالب يميل للتعددية في الأراء.. وبعد جلسات للحوار والمناقشة، صـدرت ورقـن تطـوير الإتحـاد الإشتراكي في أغسطس ١٩٧٤، التي كانت أساساً فيما بعـد ، لفكـرة المعارضة المتحركة داخل الإتحاد الإشتراكي ثم المنابر فالأحزاب!.

بذلك – لأول مرة – بأن في مصر يمـين ويسـار وتتعـالم معهما من أرضية الاعتراف بوجودهما، وتقر تعدد المنـابر، وحرية كل الطبقات في التعبير عن نفسها داخـل منظمـات التحالف...

لكن ذلك كله – مع أنه تطوير هام وحقيقـي – يواجـه بنوعين من الصعوبات:

*الأول صعوبات تنتج من تعذر تطبيق ذلك كلـه دون تناقض يذهب بجوهره، فتعدد المنابر مثلاً يتناقض مع البناء التنظيمي الهرمي، ويتناقض مع الزام الأقلية بالقبول بـرأي الأغلبية – وهو إلزام لا يكون الا في التنظيمات الحزبية التي أنكرت الورقة ذاتها أن الاتحاد الاشتراكي منها – ويتنـاقض مع ملكية الاتحاد الاشـتراكي للصـحف ، وعـدم السـماح بإصدار صحف خارج إطاره ، فالصحف الحالية لا تشـكل كل منها منبرا لتيار متميز، بل يعمل فيهـا صـحفيون مـن مختلف التيارات الفكرية، يتحكم في نشـر آرائهـم رؤسـاء تحرر ليسوا بالضرورة محايدين ويملكون بذلك حق مصادرة رأي أي تيار يختلف معهم (أبرز مثـال لـذلك مـا يعانيـه الصحفيون الناصريون والماركسيون في مؤسسـتي أخبـار

اليوم ودار الهلال التي تقودهما عناصر معادية لهذين التيارين بشكل علني) وهو أمر يفرض إعادة (تسكين) الصحفيين حسب تياراتهم ليستقبل كل تيار بصحيفة.

ويضاف إلي هذا أن الورقة تقبل التعبير عن الرأي داخل منظمات الاتحاد، وتلزم الأقلية برأي الأغلبية، وتصادر حق إبداء الرأي في الخارج، ومعني هذا أنها تحيل الاتحاد الإشتراكي إلي حزب بالفعل، وتحرم المعارضه من الدعوة إلي رأيها جماهيرياً، وتجبرها علي مايسمي في التنظيمات الحزبية بالصراع الداخلي في بناء واسع وعريض ويفتقد لأسس الالتزام الحزبي.

*المجموعة الثانية من الصعوبات تتعلق بالآثار التي ما زالت تسود مناخنا السياسي من المرحلة الماضية، ورغم أن حركة التصحيح قد أعقبتها مطالبات جماهيرية عالية باطلاق الحريات العامة، والغاء كل القوانين المقيدة للحرية ، إلا أن تعقد الظروف قد حال دون تحقيق تلك المطالبات علي الوجه الصحيح، لقد كان هناك وما زال رغبة في الغاء أي قانون أو نصوص قانونية تحول دون الدعوة الديمقراطية للأفكار المختلفة، لكن هذه الرغبة لم تتحقق بل أدت بعض الظروف

الي اتخاذ اجراءات علي عكسها، والي استصدار تشـريعات تنتمي للمناخ السابق، أو التفكيـر فـي استصـدارها، مثـل مشروع قانون المدعي العام الاشـتراكي وقـانون محـاكم الحراسات (وهو قانون يطلق يد السلطة التنفيذية في اعتقـال المواطنين كما تشاء).. ثم أن تشريعاتنا ما زالت تحجر علي حرية الرأي، فقانون العقوبات الذي صدر في بدايـة ١٩٧٠ يتضمن نفس النصوص التي أدخلها صدقي باشا فيه ليكـافح بها الأفكار التي تدعو الي سيطرة طبقة علي بقية الطبقـات، والتي تعاقب من (يروج) أو (يحبذ) الماركسـية بالأشـغال الشاقة المدة تصل الي خمس سنوات. فكيف ينسجم بقاء مثل هذه التشريعات مع إطلاق حرية الـرأي لكـل الاتجاهـات والتيارات داخل الاتحاد الاشتراكي، وماذا لو أبدي ماركسي رأيا داخل الاتحاد فـذهب إلـي السـجن بتهمـة التحبيـذ الشهيرة؟ ***(١)***.

---

(١) تعتبر القوانين المصرية أكثر القـوانين تخلفـاً فيمـا يتعلـق بالعقوبات الواردة فيها علي حرية الرأي وعلي تأثيم العمل السياسـي، والجريمة السياسية في القانون المصري أخطر الجرائم، وينبغي إذا كنا نريد مناخا ديمقراطياً حقيقياً أن نغير فلسفة التشريع للجريمة للسياسـة،

يضاف إلي هذا أن بنيان السلطات ما زال يعطي السلطة التفيذية مكان الصدارة بل الإنفراد علي حساب كل السلطات. فرئيس الجمهورية هو رئيس الاتحاد الاشـتراكي، ومجلـس الشعب هو الهيئة البرلمانية للاتحاد الاشـتراكي، والمـدعي الاشتراكي هو وزير العدل – مع أن منصبه الأصـلي هـو منصب قضائي – ونحن نأخذ بنظام يجمع بـين النظـامين الرئاسي والبرلماني – كما قيل مرة – وفـي حـين تطلـق سلطات رئيس الجمهورية في النظام الرئاسي علي أساس ان هناك نظاما حزبيا قويا ودرجة ، الاستقلال للسلطة التشريعية – كما جاء بها دستور ١٩٧١– تتسع بشكل واضح **(٢)** مـع

فالفلسفة الراهنة قائمة علي أساس أن الكـل علـي رأي واحـد وإذن فالمخالف لا بد أن يبتر . ولا بد أن يسـبق ذاك الإفـراج عـن كـل المسجونين السياسيين حتي تاريخ إعادة بناء الإتحاد الإشتراكي وحفـظ القضايا السياسية – غير المقترنة بالعنف – التي لم تقدم للقضاء.

(٢) أحصيت في ذلك الوقت المواد التي تعطي رئيس الجمهوريـة سلطات في دستور ١٩٧١، فوجدتها ٥٥ مادة تشـكل حـوالي ثلـث الدستور، ولا توجد مادة واحدة تعطي أية مؤسسة الحق في مسـاءلته ، وقد أذعت هذه الحقيقة في أحدي محاضراتي التي كنـت ألقيهـا فـي الجامعه، بدعوة من إتحاد طلا بها في العام ١٩٧١ و ١٩٧٢، وأعتقـد

افتقاد السلطة التشريعية لهذا لاستقلال والمسـألة كمـا أكـد الرئيس السادات أكثر من مرة ليست مسـألة أشـخاص ولا ينبغي ان نعتمد دائما علي ان هذا الشـخص وذاك سيحسـن استخدام سلطاته، إذا ينبغي أن تكفل لمؤسساتنا صفة الـدوام، وان نخطط للمستقبل لا لليوم. وهذا يعني أننا في حاجة الـي أن يصبح نظامنا جمهورية برلمانية متعددة الأحزاب.

هذه هي الصعوبات التي تجعل الاجتهاد الذي جاءت به ورقة أغسطس عرضة للخطر، ومن هنا فان احتمالات إعادة هدم الاتحاد الاشتراكي للمـرة السادسـة تصـبح واردة. اذ سيظل هناك دائما إلحاح علي ضرورة وجود صيغة تنظيمية تنسجم مع الإقرار بضرورة وأهمية تعدد المنابر وتعبير كل الطبقات عن نفسها، والصيغة المطروحـة لا تحقـق هـذا تنظيميا وإن أقرته – وبشجاعة – كضرورة مبدئية.

ولا خلاف مع الورقة ولا مع الميثـاق فـي أن هنـاك ضرورة للتحالف فالقضية المطروحة الآن ومنذ يوليو ١٩٥٢

أن إذاعة هذه الحقيقة، كانت سبباً رئيسياً في فصلي من عملي الصحفي عام ١٩٧٣ ضمن قوائم لجنة النظام (أقرأ الفصل المعنون: صنع فـي حزيران في هذا الكتاب).

كانت وما زالت هـي اسـتكمال مهـام الثـورة الوطنيـة الديمقراطية. ومنذ أول لحظة كان واضحا أن انجاز مهام هذه الثورة في ظروف مجتمعنا وعصرنا لا نستطيع أن تنفرد به طبقة وحدها فالبرجوازية غير مؤهلة لهـذا بحكـم ضـعفها وترددها، والطبقات الشعبية غير مؤهلة له بحكـم ضـعف بنيانها التنظيمي والأيديولوجي. واذن فالتحالف ضـرورة . لكن البرجوازية اختارت ان تحيل هذا التحالف الـي ذيليـة أجبـرت عليهـا الطبقـات الشـعبية، فأفقـدتها اسـتقلالها الايديولوجي والتنظيمي مقابل مجموعة من المكاسـب لهـا أهميتها، لكنها لا توازي فقـدان الاسـتقلال. وصـحيح أن الطبقات الشعبية ملكت بعض الفرص للضغط، لكنـه كـان ضعيفا في كل الأحوال.

وما تطرحه ورقة أغسطس من أجتهاد حول البرنـامج الذي يمكن أن يجتمع عليه التحالف، لا خلاف عليه، فوثـائق ثورة يوليو – من ناحية الأهداف ولـيس التنظيمـات – مـا زالت مليئة بأهداف لم تتحقق، تشكل حدا أدني يمكن أن تلتقي حوله كل الطبقات الوطنية المعادية للاستعمار، لكن المفهـوم ان هذه الوثائق لا تشكل أيديولوجية لكل الطبقات الداخلة في

التحالف ولكن هذه الطبقات تقبل هذه الوثائق كبرنامج عمـل مشترك المرحلة محددة. خاصة أن الورقة تقر بأن الحـوار ول هذه الأهداف بين قوى التحالف يمكن أن تطرح بـرامج أكثر تقدما. لكن الصيغة نفسها هي التي تدعو للخلاف.

والصيغة الوحيدة الصالحة الآن . هي الصـيغة التـي رفضتها حركة الضباط الأحرار منذ نشأتها الخطأ استراتيجي في اجتهادها، وهي صيغة الجبهة الوطنية التي تضم احزابـا متعددة، تقبل بوثائق الثورة كبرنامج مرحلـي وحـد أدنـي مشترك لانجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطيـة وتحقيـق استقلال السوق المصري وتنميتها، وهذا يعني اطلاق حريـة تكوين الأحزاب بلا حدود. ثم الحوار بينها للدخول في الجبهة الوطنية.

والسؤال الذي يطرح نفسـه الآن هـو: أي أحـزاب.. والإجابة: كل الأحزاب!

إن كثيرين يتحفظون ويطالبون مـثلاً بقصـر تكـوين الأحزاب علي عدد معين، ولو دخلنا فـي دائـرة الاسـتثناء فمعني هذا أننا نصادر علي الديمقراطية منذ البداية. ومنطق هؤلاء يذهب الي القول بأن هناك مكاسب تحققت وأن هنـاك

طبقات رجعية سقطت، وتيارات ساسية لم يعد لها وجـود.. هل نسمح مثلاً بتكوين حزب ملكي أو رجعي أو اقطـاعي؟ والاجابة: نعم . فالجبهة الوطنية تتكون فقط مـن الأحـزاب التي تقبل برامج الثورة كبرنامج جبهـوي. أمـا الآخـرين فليظلوا بعيداً عن الجبهة، فإذا كان لهم رصيد شعبي بعد ذلك فمعني هذا أننا مارسنا الصراع ضد الأفكار الملكية والرجعية والإقطاعية بشكل خطأ وعلي الجبهة أن تمارسه من جديـد كتطبيق لبرنامجها.

والبعض يطرح سؤالاً آخر: وماذا عن الأحزاب الدينية؟ والإجابة علي هذا السؤال تحددها برامج هذه الأحزاب، فهل تقر هذه البرامج مبدأ علمانية الدولة وديمقراطية الحكم فـي مصر، أم تأخذ بفكره الدولـة الدينيـة؟ اذا كانـت أسـاس علماني- إذا أرادت أن تدخل فيها ومعنـي هـذا أن تنفـي طابعها وتتنازل عن أيديولجيتها غير الديمقراطية. واذا كانت الثانية فلتبقي خارج الجبهة كقوى معارضة ينطبق عليها مـا ينطبق علي كل الأحزاب والتجمعات التي تمـارس الجبهـة ضدها صراعا ديمقراطية سليما.

ويبقي بعد هذا في الساحة الناصريون والوطنيون الديمقراطيون والشيوعيون... وهؤلاء يقبلون بوثائق الثورة علي اختلاف في الإجتهاد بينهم..ومنهم يمكن أن تتكون جبهة وطنية ، تقوم علي أحزاب مستقلة استقلالاً تاماً، ايديولوجياً وتنظيميا وجماهيرياً ودعائياً.

والمشاكل العملية لتكوين الجبهة أكثر من أن تحصي ، وربما تحتاج إلي دراسة مستقلة قد نعود إليها في مقال قادم.

ان مستقبل الثورة في مصر رهين بالتوصل إلي صيغة ديمقراطية صحيحة... ومعني هذا أن مستقبل الديمقراطية يحدد كل شئ. ومستقبل الديمقراطية هو الجبهة الوطنية !.. وسوف نجرب ونجرب.. ثم نعود الي نقطة كانت واردة منذ البداية، فضللنا الطريق إليها عشرين عاماً او يزيد، أما تكفي كل هذه الأعوام؟ . أظنها تكفي؟.